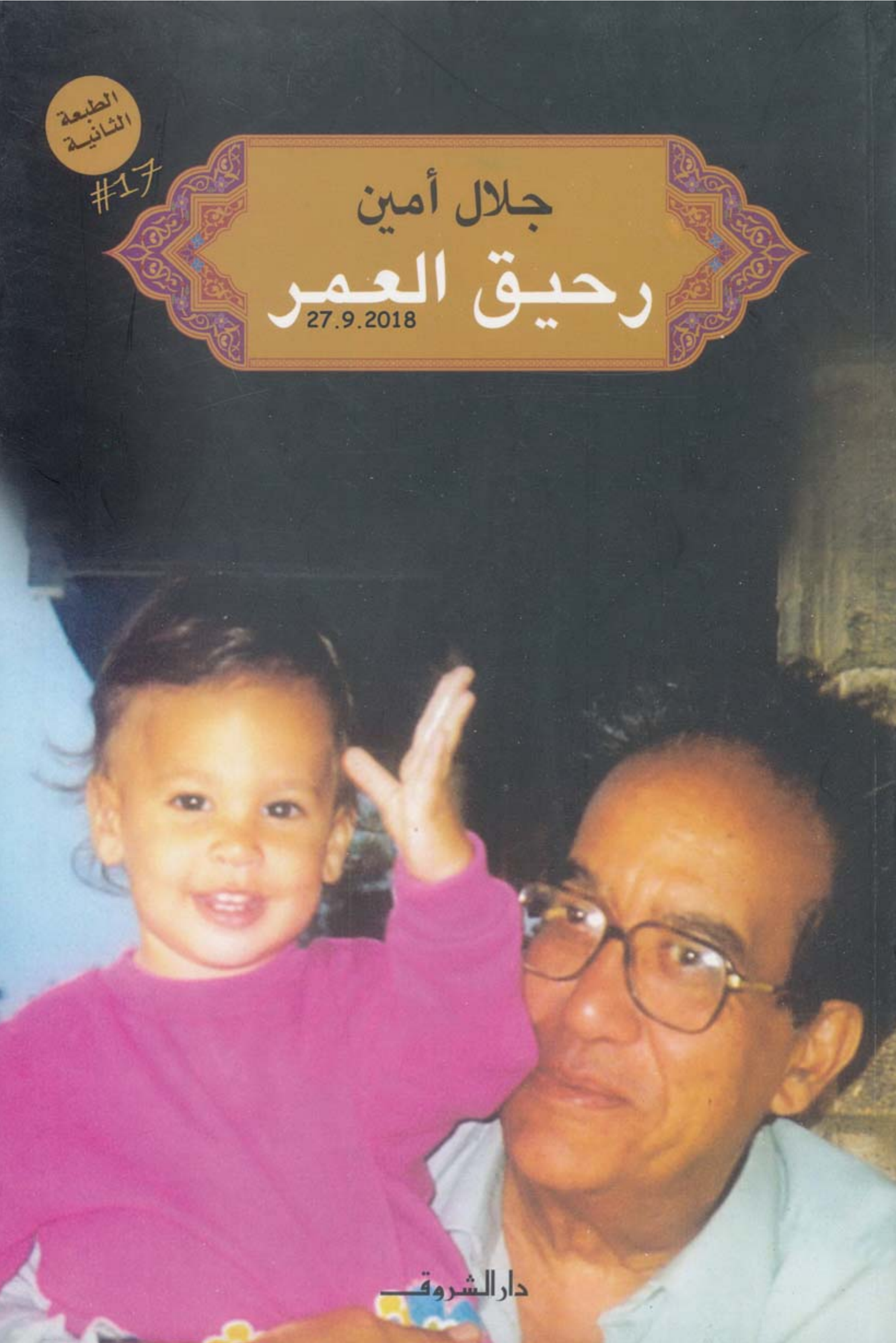

الطبعة الثانية
#17
جلال أمين
رحيق العمر
27.9.2018
دار الشروق

جلال أمين

رحيق العمر

دار الشروق

رَحيق العمر

الطبعة الأولـــى ينايـــر ٢٠١٠
الطبعة الثانيـــة فبرايـر ٢٠١٠

رقــم الإيــداع ١٧٥٨/ ٢٠١٠
ISBN 978-977-09-2752-1

٨ شــارع سيبويــه المصــري
مدينة نصر - القاهرة - مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
فاكــس: ٢٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)+
email: dar@shorouk.com
www.shorouk.com

الإهـداء

إلى أخي العزيز

حسين أحمد أمين

عرفانًا بجمائله، التي تظهر في صفحة بعد أخرى من هذا الكتاب، واستكمالًا لمراسلات بيننا، استمرت أكثر من نصف قرن.

المحتويات

مقدمة

تجربتي في كتابة السيرة الذاتية

نشر لي في مايو ٢٠٠٧ كتاب بعنوان «ماذا علمتني الحياة؟.. سيرة ذاتية» استقبل استقبالًا حسنًا، وسمعت وقرأت ثناء عليه من كثيرين من قرائه.

انتقد البعض أشياء مهمة فيه، وعاب عليه البعض الصراحة الزائدة في أمور رأوا أنها يجب أن تبقى سرًّا وليس من حقي إفشاؤها. كما عاب عليه البعض أنه لم يكن صريحًا بالدرجة الكافية فيما يتعلق بالمرأة والجنس. ولكن الانطباع العام كان إيجابيًّا؛ مما شجعني على اتخاذ خطوة أخرى كانت نتيجتها هذا الكتاب الذي بيد القارئ الآن.

من الممكن اعتبار هذا الكتاب الجزء الثاني من «ماذا علمتني الحياة؟»، فهو استكمال له، ولكن ليس بمعنى أنه يبدأ من حيث ينتهي الأول، بل بمعنى أنه أيضًا سيرة ذاتية، وأحاول فيه أيضًا أن أستخلص «ماذا علمتني الحياة؟». هذا الكتاب يسير موازيًا للكتاب الأول، فهو مثله يبدأ من واقعة الميلاد، بل قبل الميلاد، وينتهي إلى اللحظة الراهنة، ولكنه بالطبع لا يكرر ما سبق قوله، وكأننا بصدد شخصيْن يصفان حياة واحدة، ولكن ما استرعى انتباه أحدهما، واعتبره يستحق الذكر، غير ما استرعى انتباه الآخر.

فمن المدهش حقًّا مدى غنى حياة كل منا بالأحداث التي تستحق أن تروى، والشخصيات الجديرة بالوصف. وقد دهشت أنا، وأنا أحاول استعراض حياتي من

جديد، من كثرة ما لم أذكره في كتابي الأول، لا لأنه لا يستحق الذكر؛ بل لمجرد أنه لم يخطر ببالي ذكره وأنا أكتب ذلك الكتاب. فجلست لأدوّن ما فاتني وأرتبه، ولكن هناك أشياء أخرى تعمدت من قبل ألا أذكرها، ثَمَّ رأيت الآن أنه قد يكون من المفيد ذكرها.

قال لي صديق عزيز، وهو مثقف ثقافة واسعة، إنه وإن كان قد أعجب بكتابي «ماذا علمتني الحياة؟»، كان يتمنى أن يجد فيه أيضًا وصفًا لتطوري الفكري. وقد اعتبرت هذه الملاحظة، إذ تصدر من هذا الشخص، إطراءً عظيمًا، إذ هل يعتقد هذا المثقف الكبير أن لديّ حقًّا «تطورًا فكريًّا» يستحق أن يوصف؟ لم أناقشه في الأمر، بل اعتبرت كلامه صحيحًا لأني أحب أن يكون كذلك، وحاولت في هذا الكتاب الجديد أن أشرح بوضوح أكبر، ما اكتسبته من قراءاتي وتجاربي من أفكار أثّرت في تكويني، ثَمَّ ضعف أثرها أو بقيت معي حتى الآن، آملًا أن تكون في هذا فائدة للقارئ، على الأقل بإطلاعه على أفكار بعض الكتّاب المهمين الذين لم تكن له معرفة سابقة ولا كافية بهم.

* * *

كانت تجربتي مع كتاب «ماذا علمتني الحياة»، تجربة شيقة وسارة في مجملها، على الرغم مما أصابني قبل نشر الكتاب من قلق، وبعد نشره من بعض الأسف.

كنت أتشوق إلى ظهور هذا الكتاب أكثر مما تشوقت لظهور أي كتاب أو مقال سابق لي، كما كنت أتهيب ردود الفعل لدى القراء أكثر من خوفي من رأيهم في أي شيء كتبته من قبل. كان الفارق بين هذا وذاك يشبه الفرق بين أن تلقي على مجموعة من الناس خبرًا، وبين أن تحكي لهم قصة ترجو أن يجدوها طريفة. الخبر لا يهمك كثيرًا ما إذا تلقاه الناس باهتمام أو بغير اهتمام، أما القصة فيتوقف نوع استجابتهم لها على مهارتك في إلقائها، وعلى ذكائك (أو غبائك) في اختيارها دون غيرها، وعلى خفة ظلك أو ثقله في طريقة إلقائها.

أضفْ إلى هذا أن السيرة الذاتية قد تحتوي (وهي كذلك في حالتي) على بعض

الحقائق أو الفضائح المتعلقة بأشخاص قريبين إليك (وعزيزين عليك أيضًا)، فيشوقك أن تعرف ما إذا كنت قد أصبت أم أخطأت بذكر هذه الفضائح أصلًا، وما إذا كان من الخطأ أو الصواب البوح بآرائك الحقيقية في آخرين، بعضهم لازال على قيد الحياة، ومن مات منهم لازال لهم أبناء وبنات على قيد الحياة. والشخصيات العامة التي تكتب رأيك فيها، لها أنصار أشداء أو أعداء أشداء أيضًا؛ فالبوح برأيك فيها لا بد أن يغضب هؤلاء أو أولئك. فهل أخطأت في تقييم هذا السياسي الخطير أو ذاك، وهل جاوزت الأدب في الكلام عن هؤلاء الأشخاص المهمين؟ وإذا كان منهم من يعرفك شخصيًّا ويعتبرك صديقًا له، أو يعتقد أنه صاحب فضل عليك، فهل يجوز أن تنتقده وتكشف عيوبه (أو ما تظن أنها عيوبه)، وكأنك بذلك تخون شخصًا كان مطمئنًا لك، أو تعض اليد التي أحسنت إليك؟ فإذا أغضبت بعض الناس بذكر الحقيقة (أو ما تظن أنه الحقيقة)، فهل يستحق الأمر كل ذلك؟ ألا يجب أن تُحجب بعض الحقائق عن الناس إلى الأبد؟ أو كما يقول أبي في مقدمة سيرته هو (حياتي، ١٩٥٠): «إذا كنا لا نستسيغ عري كل الجسم، فكيف نستسيغ عري كل النفس؟».

كان هذا يقلقني حتى بعد أن سلمت مخطوطة الكتاب إلى الناشر. ومع هذا فلا بد أن أعترف للقارئ بأني بعد أن قمت بحذف ما اعتبرت ذكره غير لائق، وأن النفع الذي قد يأتي من ذكره أقل من الضرر، كان قلقي من احتمال أن يكون ما قلته شيئًا تافهًا، أكبر بكثير من قلقي من أن يكون ما قلته جارحًا أو ظالمًا. إن لديّ شعورًا قويًّا بأن الأخطاء (أو معظمها على الأقل) يجب أن تكشف، وأن المخطئ لا بد أن يعاقب بما يتناسب مع خطئه. وذكر الخطأ على الملأ هو نوع من العقاب. كما أن لديَّ شعورًا قويًّا بأننا كلنا قد ارتكبنا أخطاء كثيرة خلال حياتنا (ولا نزال نرتكبها) إما لأننا كنا (أو مازلنا) أقل حكمة مما يجب، وإما أصغر سنًّا من أن نستطيع التمييز بين الخطأ والصواب، وإما لأننا جميعًا بنا من أوجه الضعف الإنساني ما يدفعنا دفعًا إلى الخطأ مهما حاولنا تجنبه. إني أعتقد أيضًا أن علينا، على الرغم من كل ذلك، أن نقبل هذه الحقيقة دون ضغينة ودون مبالغة في الندم أو الشعور بالذنب. فالفرق بيننا ليس فرقًا بين شخص له أخطاء وآخر ليس له أخطاء، بل هو فقط فرق بين درجة جسامة الأخطاء التي نرتكبها. لقد انتقدت بعض الأشخاص في كتابي وأنا أحمل لهم محبة فائقة، فما أشد أسفي،

إذن، لو أدى هذا النقد إلى قطع حبال المودة بيننا، أو بيني وبين أولادهم. سأذكر الآن مثالًا لم أتردد قط وقت كتابته في أن من المصلحة (بل من الواجب) نشره، ثَمَّ جاءت بعض ردود الفعل رافضة تمامًا لما فعلت، ولكني لم أقتنع قط بما قيل لتبرير حذفه، ولازلت أعتقد أنني كنت على صواب في ذكره.

كان أخي عبد الحميد يفحص بعض الأشياء الملقاة في «سندرة» بيته، والتي لم ينظر إليها منذ سنوات كثيرة، فعثر فيها على كراسة، يرجع تاريخها إلى سنة ١٩١٧، أي إلى وقت يبعد عنا بما يقرب من قرن كامل، وكان أبي قد دوّن فيها يوميات أكثرها يتعلق بعلاقته بأمي، إذ لم يكن قد مضى على زواجهما، عندما بدأ كتابة هذه اليوميات، أكثر من عام. أعطاني عبد الحميد هذه الكراسة قائلًا لي إني ربما كنت أقدر إخوتي على الإفادة منها. فلما قرأت المدوّن فيها تكشّفت لي أمور مهمة لم أكن أعرفها، ووجدتها تلقى ضوءًا قويًا على شخصية أبي، وشخصية أمي، وعلى حياة شريحتيهما الاجتماعية في مصر في أوائل القرن العشرين، وعلى الأخص على علاقة الرجل بالمرأة في مصر في ذلك الوقت. ولكن الأهم من هذا أني وجدتها تعبر بوضوح عن بعض المشاعر الإنسانية العامة التي يشترك فيها الناس جميعًا، في أي بلد وأي عصر، دون أن يكون هذا هو مقصد أبي من كتابتها على الإطلاق.

كان من الواضح، من طريقة الكتابة، أن أبي كان يدوّن هذه المذكرات لنفسه، ولنفسه فقط، إما لكي يخفف عن نفسه بعض الآلام بالبوح بمكنون نفسه، ولو للورق، وإما لكي يذكّر نفسه بماضيه؛ إذا عاد إلى قراءتها في يوم ما في المستقبل. كان أبي وقت كتابة هذه المذكرات في الثلاثين من عمره، يحمل آمالًا قوية تتعلق «بالقيام بعمل عظيم فيه نفع أمتي» (كما كتب على ظهر صورة التقطت له في دكان أحد المصورين يوم عقد قرانه). والراجح أنه كان يشعر بأن هذا «العمل العظيم» الذي يتمنى القيام به، يتعلق بالكتابة والتأليف، ومن ثَمَّ ربما خطر بباله على نحو ما أن مثل هذه المذكرات قد تفيده في المستقبل إذا حدث وأصبح فعلًا كاتبًا معروفًا، وشرع في كتابة تاريخ حياته. ولكن أبي وقت كتابتها لم يكن قد نشر أي كتاب بعد، ولا توحي لهجة المذكرات بأن نشرها على النحو الذي كُتبت به كان مما يطوف بذهنه وقت كتابتها.

كيف سمحت لنفسي، إذن، بأن أقتطف أجزاء من هذه المذكرات وأضمها إلى كتاب سيرتي الذاتية في فصل بعنوان «مذكرات أبي عن أمي»، خاصة وأن فيها أشياء خاصة جدًّا قد يعتبرها كثيرون من قبيل الأسرار التي لا يجوز نشرها على الملأ؟

من هذه الأشياء الخاصة جدًّا تعبيره عن أسفه وحزنه؛ لأن زوجته «لم تكن جميلة» بالدرجة الكافية، وكم كان يتمنى لو كانت زوجته «أكثر جمالاً». كان هذا الخاطر يلح على ذهنه بشدة بدليل أنه عبّر عنه أكثر من مرة، في يوم بعد آخر، وإن كان قد خشي أن تقع المذكرات في يد أمي فتقرأها فكتب هذه العبارة بالإنجليزية «more beautiful»، واثقًا من أنها لن تفهمها إذا رأتها؛ إذ لم تكن لأمي أي دراية بالإنجليزية. إنه يمتدح أمي في عدة نواح، ولكن ليس من بينها الجمال. وقد تعجبت جدًّا عندما قرأت هذا؛ إذ إن الصور القليلة التي في حوزتي، وتظهر فيها أمي كما كانت في وقت مقارب لوقت كتابة المذكرات، لا تبدو مؤيدة لقوله. ولكني وجدت في إصرار أبي (وهو المفكر الكبير، والمشغول دومًا بالقضايا الفكرية والأخلاقية) على التعبير عن أسفه لهذا الأمر، وجدت فيه شيئًا طريفًا لا يخلو من مغزى من الجانب الإنساني البحت. وهكذا وجدت أشياء كثيرة في هذه المذكرات، فكيف أتركها وشأنها لتضيع إلى الأبد دون أن أشرك الناس معي فيها، خاصة أنه إذا لم أنشرها أنا فالأرجح أنه لن يكون هناك شخص آخر من أسرتي لديه الاستعداد أو القدرة على نشرها في أي وقت في المستقبل؟

تلقيت من أربعة أو خمسة أشخاص من داخل العائلة ومن خارجها لومًا شديدًا على أني نشرت مثل هذا الكلام. واعتبروا أني تسببت فيما يمكن تسميته «بالفضيحة»، وأن مثل هذه الأمور لا تنشر ولا تقال. وأبي لم يكتبها للنشر، فلماذا أعطي لنفسي الحق في شيء يخصه ولم يرد هو نشره، و إلّا لكان قد قام هو به في حياته؟ والحقيقة أن هذا اللوم لم يترك في نفسي أي أثر ذي شأن، إذ أكاد أكون واثقًا كل الثقة بأني لم أخطئ. فلماذا بالضبط؟

هناك، أولًا، الحقيقة الآتية، وهي أنه ليس هناك أي شيء فيما اقتطفته من مذكرات أبي عن أمي يسيء على أي وجه من الوجوه، لا إلى أبي ولا إلى أمي. ليس هناك ما

يعيب الزوج في شعوره بالأسف لأن زوجته ليست جميلة على النحو الذي كان يتمناه، في عصر كان الزواج فيه (كما وصفه أبي في كتاب حياتي) كشراء ورقة يانصيب قد تربح أو تخسر، إذ لا يرى الزوج زوجته ولا تراه إلّا بعد عقد القران. وليس هناك أيضًا ما ينقص من قدر أمي أن يكون زوجها قد كتب عنها هذا في مذكراته، سواء كان ما كتبه يطابق الحقيقة أو لا يطابقها. قد يقول بعض المعترضين: «لنفرضْ أن هذا صحيح، فما فائدة نشر مثل هذا الكلام أصلًا؟ ما النفع الذي يمكن أن يُجنى من وراء نشره؟ وإذا كانت لنشره فائدة، فلماذا لم ينشره أحمد أمين في كتابه عن حياته، وهو الأولى بذلك؟» وأنا مستعد للإقرار بأن أبي لو كان قد خطر له أن يضم هذه اليوميات إلى كتاب «حياتي»، لاستبعد الفكرة ورفضها. فلماذا، إذن، أقوم أنا الآن بنشرها؟

لقد مرت ٥٧ سنة بين نشر كتاب أبي «حياتي» ونشر كتابي «ماذا علمتني الحياة؟»، وهي مدة طويلة طرأت خلالها تغيرات كثيرة على الحياة الاجتماعية في مصر، كان من شأنها أن تجعل بعض ما كان مستحيلًا ممكنًا، وبعض ما كان ممكنًا مستحيلًا. كما تغيرت فيها الأذواق فجعلت بعض المكروه مستحبًا، وبعض المستحب مكروهًا. كان أبي وهو يكتب كتاب «حياتي» يعتبر من غير الملائم بتاتًا الإطالة في الحديث عن الحب أو عن أي شيء يتعلق بعلاقة الرجل بالمرأة. كان أقصى ما سمح لنفسه بذكره مما يتعلق بشعوره بالحب، في أي فترة من حياته، ما ذكره عن شعوره نحو السيدة الإنجليزية التي كانت تعطيه دروسًا في اللغة الإنجليزية في مقابل إعطائه لها دروسًا في العربية. كانت جميلة، ولكنها كانت أيضًا متزوجة وسعيدة في زواجها. وقد شعر أبي نحوها بالحب، ولكنه لم يعبر عن ذلك في كتاب حياتي إلّا بطريقة ملتوية للغاية، ولكنها أيضًا بالغة العذوبة. قال إنها كانت تقول له إن «عينكم تؤلمني»، وكانت تقصد بذلك الصعوبة التي تجدها في نطق حرف «العين» في اللغة العربية، (وهي صعوبة يصادفها أي أوربي) ثم أضاف: «وكنت أقول في نفسي مثل قولها»، ولكن العين في حالته كانت مختلفة بالطبع عن العين في حالتها.

حكى لي أيضًا صديق مقرب من الأستاذ إحسان عباس، الباحث القدير في الإسلاميات والأدب العربي، وكان تلميذًا لأبي وطلب أبي منه أن يأتي إليه في البيت،

في أواخر عمره، ليقرأ له في بعض الكتب، وليملي عليه أبي بعض ما يكتب، الواقعة الطريفة الآتية والتي تبين أيضًا موقف أبي من ذكر أي شيء يتعلق بالحب، على الملأ. قال الأستاذ إحسان عباس إنه بعد أن أنهى أبي إملاء الفصل الأخير من كتاب حياتي، طلب منه أن يأخذ نسخة من المخطوطة ليريها للدكتور زكي نجيب محمود ليسمع أبي رأيه فيها، مدفوعًا فيما أظن بأن الدكتور زكي نجيب كان أكثر اطلاعًا من أبي على أدب السيرة الذاتية كما يكتب في الغرب، وأراد أبي أن يعرف قيمة ما كتبه بالمقارنة بكتب الأوربيين في هذا النوع من الكتابة. قرأ الدكتور زكي نجيب المخطوطة وأبلغ إحسان عباس الرسالة الآتية ليوصلها إلى أبي: «الكتاب جيد، ولا يعيبه إلّا أنه ليس فيه أي شيء عن الحب والمرأة». وصلت الرسالة إلى أبى، فكانت إجابته: «معه حق»، وطلب من إحسان عباس أن يجلس ليملي عليه شيئًا عن الحب في حياته، فإذا به لا يضيف أكثر من فقرة قصيرة جدًّا يقول فيها:

«أحببت وأنا في نحو الخامسة عشرة ابنة جار لنا، والتهبت عاطفتي فأرقت كثيرًا وبكيت طويلًا، وكل ما كان من وصال أن أجلس أنا وهي على كرسييْن أمام دارها نتحدث في غير الغرام، فلما وسوس الشيطان لأبيها حجبها عني، وشقيت زمنًا بذلك ثم سلوت».

لم يعد الكلام عن الحب الآن محظورًا بنفس الدرجة التي كان بها في مصر في ١٩٥٠. لقد تغيرت أمور كثيرة في حياتنا خلال الخمسين عامًا الماضية؛ مما جعلني أعتقد أن قيامي بنشر عبارات أبي عن أمي، لا بد أن يكون مقبولًا الآن أكثر من نشر أبي له في سنة ١٩٥٠. ليس سبب هذا فقط أن أمي كانت على قيد الحياة في ١٩٥٠، وكان لا بد أن يؤذي مشاعرها أن تقرأ هذا الكلام، بل أظن أيضًا أن القارئ لهذا الكلام الآن أكثر استعدادًا لقبوله دون أن يشعر بأنه يسيء إلى أبي أو أمي، مما كان منذ أكثر من نصف قرن. نحن الآن فيما أظن، أكثر استعدادًا لقبول الحقيقة المعقدة، وللتسليم بأن الأشياء ليست فقط بيضاء ولا سوداء، بل تأتي في مختلف الألوان والظلال، وأن السعادة الكاملة والرضا الكامل مستحيلان، ولا يوجدان إلّا في الكتب أو الأفلام الممعنة في رومانسيتها، والتي لم تعد تتمتع بالقبول الذي كانت تتمتع به منذ خمسين

عامًا أو أكثر. نحن، إذن، على استعداد الآن أن نقبل أن الأديب الكبير والمفكر العظيم يمكن أن يكون بهما بعض نقاط ضعف مهمة، دون أن يؤثر هذا في احترامنا وحبنا له، وأن المرأة العظيمة لا يجب أن تكون رائعة الجمال أيضًا. كما أننا الآن على استعداد للبوح بأخطائنا أكثر مما كنا منذ نصف قرن.

لهذه الأسباب، لا يكاد يخامرني أي شك في أن أبي لو كان مكاني لتصرف مثل تصرفي. فالسؤال المهم هو: «هل لو سُئل أبي في سنة ١٩١٧، عندما كان يكتب يومياته: هل تسمح لابنك بأن ينشر هذه المذكرات بعد مائة عام؟» وقد تخيلت أبي، بطريقة تفكيره التي أعرفها، وتصوره لما يمكن أن يطرأ على الدنيا من تغير خلال مائة عام، ووصلت إلى اقتناع بأنه كان على الأرجح سيسمح لي بنشرها.

* * *

لم أشعر أيضًا بضيق شديد، عندما نشر أحد محرري جريدة «المصري اليوم»، في عموده اليومي، خطابًا جاءه من سيدة لم يرد ذكر اسمها، ووردت فيه عبارات شديدة القسوة ضدي. كان هذا المحرر قد كتب في عموده، قبل ذلك بعدة أيام، كلامًا يثني فيه على كتابي، وإن كان قد انتقدني لأني ذكرت فيه أني فرحت فرحًا شديدًا عندما سمعت بمقتل الرئيس أنور السادات. وقال ما معناه إنه لا يجوز أن يفرح أي شخص لمقتل أي إنسان. تعجبت حينئذ من هذا القول؛ لأن السادات كان شخصية عامة، ورئيس جمهورية، وبدأ في تطبيق سياسات مهمة في مصر، كالانفتاح الاقتصادي، والصلح مع إسرائيل، والتبعية المطلقة للولايات المتحدة... إلخ. ومن المتوقع جدًّا (بل يكاد يكون من الواجب) أن يحب المرء هذه السياسات أو يكرهها، بل أن يحبها بشدة أو يكرهها بشدة؛ بسبب شدة تأثيرها في مختلف نواحي الحياة في مصر ومستقبلها (وهو ما ظهر بوضوح مع مرور الوقت حتى بعد مقتل السادات). فإذا فرح المرء بهذه السياسات بشدة أو كرهها بشدة، فكيف لا نتوقع أن يكون رد فعله عند سماعه خبر مقتل السادات، الحزن الشديد أو الفرح الشديد؟ إن إنكار وجود مثل هذه المشاعر تجاه شخصية عامة ومؤثرة، هو الأمر المستغرب، بل ينطوي على قدر لا يستهان به من الخداع والتظاهر بغير الحقيقة.

ثم جاء هذا الخطاب المدهش من تلك السيدة المجهولة (أو التي زعم كاتب العمود أنها سيدة مجهولة) فعبرت فيه، في البداية، عن استغرابها من ثناء المحرر على كتابي الذي أثار غضبها الشديد، وقالت إني أستحق بسببه الشنق في ميدان عام. انزعجت بشدة من العنوان الذي اختاره المحرر لعموده في ذلك اليوم، إذ كان العنوان «جريمة جلال أمين»، كما أصابني الذعر عندما قرأت دعوة صاحبة الرسالة إلى شنقي في ميدان عام، ولكن سرعان ما هدأت نفسي عندما عرفت سبب الغضب. فقد كان السبب هو ما رويته في كتابي من أن أمي، وهي في السادسة عشرة أو السابعة عشرة من عمرها، وقعت في حب ابن خالها، وكان يبادلها حبًّا بحب، وتقدم إلى خطبتها من وليّ أمرها (إذ كان أبواها قد توفيا وهي صغيرة) فرفض وليّ الأمر رفضًا باتًّا؛ إذ كانت لديه بنات في سن الزواج، ولم يرد أن تتزوج أمي قبلهن. لم يتم الزواج إذن، وأصيب العاشقان بصدمة شديدة مرض على أثرها ابن خالها، وأرسل إلى أمي رسالة حزينة يخبرها فيه بمرضه. وقالت لي أمي إنها كانت تقرأ الرسالة وتعيد قراءتها ثَمَّ تجهش بالبكاء. وظلت تعيد هذه الرسالة بنصها، فقد كانت تحفظها عن ظهر قلب، وتكررها على سمعي المرة بعد الأخرى، حتى حفظتها أنا أيضًا عن ظهر قلب، وأوردت بعض عباراتها في كتابي. هربت أمي من بيت وليّ أمرها بسبب هذه الواقعة، ولجأت إلى بعض أقاربها المقيمين بالقاهرة فعاشت معهم حتى تقدم أبي للزواج منها.

هذه هي القصة التي أثارت السيدة صاحبة الرسالة عليَّ، وطالبت بسببها بشنقي في ميدان عام، وكانت حجتها أن هذا الكلام لا يجوز لأحد أن يقوله عن أمه؛ وذلك لسببيْن: الأول أن الأمهات أعظم الناس طرًّا، (ومن ثَمَّ لا يجوز أن ينسب إليهن أي خطأ). والثاني أن الحب والجنس لا ينفصلان، (وقد فهمت هذا التفسير الأخير بمعنى أنه لا يمكن للمرء أن يحب إلّا إذا مارس الجنس، ومادامت ممارسة الجنس شرًّا؛ فالحب أيضًا شر).

ارتحت بشدة عندما قرأت سبب الغضب والتفسير اللذيْن قدمتهما صاحبة الخطاب، وزال جزعي من عنوان العمود ومن المناداة بشنقي، ولكني استغربت أن المحرر الذي نشر الخطاب في عموده لم يردّ على صاحبة الخطاب ولم يدلِ برأيه

في الموضوع، فأورد هذا الكلام الخطير دون أن يقول لنا ما إذا كان يوافق عليه أو لا يوافق، بل اكتفى بدعوتي للرد عليه. ولم أجد بالطبع أي سبب للاشتراك في نقاش من هذا النوع.

* * *

لم أتوقع أن يقرأ أولادي الثلاثة كتابي «ماذا علمتني الحياة؟» لما علمتني إياه الحياة من أن «زمّار الحيّ لا يطرب»، وهي عبارة سمعتها من أبي أكثر من مرة، ورأيت دليلًا على صحتها في مواقف أبناء أدباء وكتّاب كثيرين من أعمال آبائهم. ولهذا اكتفيت بأن أعطيت كلًّا من أولادي نسخة، كتبت عليها إهداء، دون أن أسال بعد هذا عما إذا كانوا قرءوه أو قرءوا أجزاء منه. كانت مفاجأة سارة لي أن أعلم أن اثنيْن منهما قرآ الكتاب، ولكن كان واضحًا لي أن الثلاثة، سواء من قرأه منهم أو من لم يقرأه، لم يعلقوا عليه أهمية تقارب ما علقته أنا عليه. وقد أكد هذا لي ما كنت قد توصلت إليه من قبل، من أن من الخطأ الشديد اعتبار أولادنا استمرارًا لنا، ومن ثَمَّ فلا يمكن أن نأمل أن يعتبروا هم قصة حياتنا جزءًا من قصة حياتهم. كل منهم يريد أن تكون له قصة مستقلة، ومبالغتنا في تعليق أهمية على ما فعلناه نحن وما لم نفعله، تضايقهم وتثير أعصابهم.

* * *

كان هناك في مقابل هذا كله ما أدخل سرورًا شديدًا إلى قلبي. فبعد أيام قليلة من ظهور كتاب «ماذا علمتني الحياة؟» تتابع ظهور المقالات التي تثني عليه، وضاعف من سروري ببعضها أن كاتبيها ممن أحمل لهم تقديرًا عظيمًا وأثق بصدقهم وحسن ذوقهم، حتى من قبل أن أقرأ ثناءهم على الكتاب. كما جاءتني تعليقات شفوية تثني على الكتاب من طلبة أو أصدقاء لي، ومن أشخاص كثيرين لا أعرفهم، فعرفتهم عن طريق قراءتهم للكتاب.

كان من أكثر ما يهمني من آراء القراء في الكتاب، رأيهم في الفصل الأخير المعنون «البدايات والنهايات»، وهو فصل طويل أردت أن أبين فيه ما أصابني من خيبة أمل في كثير من أمور، وما لاحظته من تطور حياة كثيرين ممن عرفتهم، وما أصابهم هم أيضًا

من خيبة أمل. بدأت بأبي وأمي، ما بدأت به حياتهما وما انتهت به، ثَمَّ فعلت ذلك مع كل من إخوتي، ثَمَّ مع الجيل التالي، ثَمَّ ما أصبت أنا به من خيبة أمل (وكذلك كثيرون غيري) في أشخاص كثيرين ممن عرفتهم في حياتي، وفى تطور الحياة السياسية والاقتصادية في مصر، وكذلك في أشياء أخرى كثيرة كنت أبحث عنها فلم أجدها، أو كنت أعلق عليها أهمية فظهر أن أهميتها أقل بكثير، أو كنت أتوق إلى تحقيقها ولم تتحقق، أو تحققت دون أن تجلب لي السرور الذي كنت أتوقعه. احتوى هذا الفصل على أمثلة كثيرة من هذا النوع، وكان هناك غيرها الكثير مما كان يمكن إضافته إليها ولم أذكره. وقد ظللت فترة طويلة أثناء كتابتي للكتاب، ثَمَّ أثناء إعداده للطبع، أظن أني سأسمي الكتاب «لماذا تخيب الآمال؟»، وظللت أفضل هذا العنوان على أي عنوان آخر يخطر لي؛ إذ شعرت أنه يعبر عن حقيقة مهمة، ولا يريد الكثيرون أن يعترفوا بها. فمع تقدمي في السن، ومتابعتي لقصص حياة الكثيرين من أقاربي وأصدقائي ومعارفي، ووصول كثير من هذه القصص إلى نهايتها، لاحظت بدهشة عظيمة في أول الأمر، وقبل أن أعتاد عليه، تكرر خيبة الأمل في نهاية قصة بعد أخرى، حتى خطر لي أن من الممكن وصف الحياة بأنها حلقات متتالية من خيبة الأمل.

ولكني فجأة عدلت عن اختيار هذا العنوان، فقد بدا لي أنه سيبعث على التشاؤم أكثر من اللازم، حتى من قبل قراءة الكتاب، وهو شعور ليس من المصلحة إثارته، خاصة لدى الشباب. بدا لي كذلك كلما فكرت في العنوان، وكلما خطر لي أن خيبة الأمل وصف صادق للحياة، أنني لا أقصد بالضبط المعنى الذي قد يفهمه الكثيرون من «خيبة الأمل». ذلك أني لا أقصد بالضبط سوء الحظ أو «قسوة الحياة»، إذ لا أعرف سببًا يجعل أمثلة الحظ السيئ أكثر من أمثلة الحظ السعيد. ففي هذا الصدد لا تختلف أحداث الحياة عن نتائج إلقاء النرد، المفروض أن يتساوى، في المدى الطويل، عدد النتائج المرغوب فيها مع غير المرغوب فيها. وليست هناك قوى خفية شريرة تريد الإيقاع بنا وإفساد حياتنا. إنما تأتي خيبة الأمل لعدد من الأسباب التي لا يمكن بأي حال تجنبها، أهمها حتمية الموت والخوف منه، وما يعنيه بالضرورة من فراق، والخوف من الفراق، والمرض والشيخوخة، وما يصاحبها من ضعف وأسف على الصحة الضائعة، وتعارض رغبات البشر بعضها مع بعض، بل تعارض

بعض رغبات الشخص الواحد مع بعضها الآخر، وطموح الناس إلى أشياء ليس لديهم القدرة على تحقيقها، وكذلك ميل الناس إلى المبالغة في تصور السرور أو السعادة التي يمكن أن يحصلوا عليهما لو تحققت الآمال، فالحقيقة أنه عندما تتحقق طموحاتنا، كثيرًا ما نكتشف أنها لم تكن مهمة إلى الدرجة التي تصورناها... إلخ. إذا كان الأمر حقًّا كذلك، فلا بد بالطبع أن يدعو للأسف، ولكن هل من الحكمة أن أبدأ بإخبار القارئ نتيجة التجربة حتى قبل أن تبدأ؟ أليس من الأفضل أن أختار عنوانًا أكثر حيادًا، خاصة وأن البعض قد تكون له نظرة مختلفة تمامًا وأكثر تفاؤلاً؟

كنت مقتنعًا بهذه النتيجة التي وصلت إليها، وعبرت عنها في الفصل الأخير، وإن لم أصل إلى حد تضمينها في عنوان الكتاب. كنت أخشى أن يستهجنها كثير من القراء، وأن يعتبروها من قبيل الإفراط في التشاؤم الذي لا لزوم له. وقد جاءتني بالفعل ردود فعل كثيرة، وإن كانت تثني على الكتاب، تلومني على كل هذا القدر من التشاؤم الذي يحتويه الفصل الأخير. وتساءل بعض أصدقائي بدهشة: «هل كل هذا المرح الذي تظهر به يختفي وراءه كل هذا الحزن؟» وسألني آخر: «ألم يكن من الأفضل ألا تكون كلمة «الحزن» هي آخر كلمة في الكتاب؟»

لم أستغرب هذه الاعتراضات، بل الذي أدهشني، وسرّني بالطبع، كثرة من عبروا لي عن رضاهم عن هذا التأكيد على ما نقابله في حياتنا من خيبة الأمل. وعندما كنت أسأل بعض قراء الكتاب: «هل وجدت التشاؤم أكثر من اللازم في الفصل الأخير؟» كانت تأتيني الإجابة التالية، أكثر من مرة: «أبدًا. أليست الحياة كذلك بالفعل؟». طمأنني هذا على أن ظني كان في محله، هذا الذي ذكرته في مقدمة كتاب «ماذا علمتني الحياة؟»، وكان من بين دوافعي لكتابته أصلًا، وهو أن الناس في الحقيقة أشبه بعضهم ببعض مما يظنون، فيا حبذا لو صارح بعضنا بعضًا، بأكبر قدر من الحقيقة. ستكون النتيجة حتمًا أفضل من الكذب، وأفضل من التظاهر، بل أفضل أيضًا، في كثير من الأحيان، حتى من الكتمان.

بعد أن انتهيت من هذا الكتاب الذي بيد القارئ الآن، احترت طويلًا في الاسم الذي أطلقه عليه، فلكل اسم مزاياه وعيوبه: أأسميه جزءًا ثانيًا.. أم أبحث عن اسم

مستقل؟ وفضلت الحل الأخير، على أساس أن هذا الكتاب وإن كان مكملًا لكتاب «ماذا علمتني الحياة؟» فهو أيضًا مستقل عنه، يمكن بلا شك أن يُقرأ على استقلال؛ كما يمكن أن يُقرأ سابقه كذلك مستقلًّا. ووجدت اسم «رحيق العمر» اسمًا ملائمًا؛ إذ إنه نتيجة شحذ الذهن في محاولة استرجاع الماضي، واستبقاء ما يستحق الذكر، واستبعاد ماعدا ذلك، كما شجعني على اختيار هذا الاسم أني وجدت تعريفًا للرحيق في معجم اللغة العربية بأنه: «الخالص الصافي من الشراب». ثم يضيف أنه «لا غش فيه». وقد رأيت من الحكمة استبعاد «لماذا تخيب الآمال؟» كعنوان للكتاب، وإن احتفظت به عنوانًا للفصل الأخير.

وقد فعلت في هذا الكتاب ما فعلت في سابقه، من استلهام ذوقي الخاص فيما يعتبر من اللائق قوله وما لا يعتبر كذلك. ولا أشك في أنه، في هذا الكتاب أيضًا، سوف يرى بعض القراء صراحة أكثر من اللازم، والبعض الآخر صراحة أقل من اللازم.

١٠ أكتوبر ٢٠٠٩

(١)

الجَرّاح والطبّاخ

كانت أمي، من حين لآخر، تؤكد لنا أنها من أسرة طيبة جدًّا، وأنها من سلالة رجل عظيم كان طبيبًا وجَرَّاحًا مرموقًا في عهد محمد علي باشا الكبير، واسمه، هو نفسه، محمد علي باشا البقلي.

كان اسم أمي الكامل ينتهي بلقب «البقلى»، والقرية التي ولدت فيها «زاوية البقلي»، وهي تقع في منطقة بمحافظة المنوفية خرج منها بعض رجال مصر المرموقين منهم عبد العزيز باشا فهمي، القانوني الكبير وزميل سعد زغلول. وكانت أمي تؤكد لنا ذلك، كما تؤكد أن عبد العزيز فهمي كلما اتصل تليفونيًّا بوالدي، انتهز الفرصة دائمًا، إذا ردت والدتي على التليفون ليؤكد لها كم كان أبوها قاضيًا عظيمًا. وكانت، وهي تقول لنا ذلك، تقوم بتقليد صوت عبد العزيز فهمي المبحوح والمتقطع؛ لتأكيد أنها تقول الحقيقة.

لم نكن نشك في صدق أمي، ولكننا لم نعلق على كلامها عن أصلها ونسبها، أي أهمية. فأولاً لم يكن لدينا أي دليل ملموس أو غير ملموس على علاقتها بمحمد علي البقلى، وهل كان باشا حقيقة أو لم يكن، طبيبًا وجرَّاحًا أو شيئًا آخر. ونحن نعرف أنها تزوجت أبي وهي فقيرة معدمة لا تملك شيئًا. كنا نلاحظ أيضًا أنها كلما ذكرت قصة نسبها، كانت تريد أن تؤكد أن عائلتها أعرق وأكبر بكثير من العائلة التي ينحدر منها أبي، وأنه، في الحقيقة، لم يحقق ما حققه من مكانة في المجتمع إلّا بسبب كتبه ومقالاته، أما أسرته فكانت متواضعة للغاية لا يمكن أن تقارن بأسرتها.

لم يكن أبي بالطبع ينكر أصله المتواضع، وقد وصفه بالتفصيل في سيرته الذاتية، ولكنه لم يذكر في سيرته الذاتية شيئًا معينًا كان معروفًا لنا، (عن طريقه هو نفسه)، وهو أن اسمه الكامل هو «أحمد أمين إبراهيم حسن الطبَّاخ». نعم كان الاسم ينتهي «بالطبَّاخ»، ولكننا لم نعرف قط أصل هذا اللقب، وهل كان أحد جدودي طبَّاخًا حقًّا؛ فاكتسب هذا اللقب، أو التصق اسمه بهذا الاسم لسبب غير ذلك، مثلما يمكن أن يلتصق لقب الشحات، باسم شخص لا يَعرف من بين أجداده شحاذًا. لم يذكر لنا أبي أصل لقب الطبَّاخ، ولا أذكر أنه صدر منه أي شيء يدل على أنه يعلق على الأمر أي أهمية.

على أي حال، وأيًّا كان أصل هذا اللقب، فقد مرت السنوات دون أن يخطر ببال أحدنا أن يحاول أن يكتشف سبب انتهاء اسم أبي بوصف الطبَّاخ، أو أن يتحقق من صحة زعم أمي بأن جدها الأعلى كان جرَّاحًا مرموقًا، حتى حدث، بعد وفاة أمي وأبي ما كشف لنا حقائق مهمة.

* * *

ففي أثناء إقامة أخي حسين بالبرازيل؛ حيث كان يعمل قنصلًا عامًّا لمصر، وجد في مكتبة القنصلية كتبًا قديمة في التاريخ المصري، تصفح أحدها فإذا به يجد كلامًا مشرفًا للغاية عن شخص يدعى محمد علي باشا البقلي. وقد أعطاني حسين بعد رجوعه من البرازيل ورقة سمّاها «شجرة العائلة» من ناحية أمي، تبدأ بشخص اسمه محمد جويلي البقلي (ولد حوالي ١٧٥٨)، ولد له علي الفقيه الجويلي (ولد حوالي ١٧٨٤) وهو والد محمد علي باشا البقلي، الطبيب الجرَّاح الذي كانت أمي تتكلم عنه (١٨١٤ - ١٨٧٧)، والذي ولد له بدوره طبيب جرَّاح أحمد حمدي (١٨٤٤- ١٨٩٩) وهو والد عبد الوهاب فهمي (١٨٧٣ - ١٩٠٨). وأضاف حسين إلى الشجرة أن عبد الوهاب فهمي هو والد أمي (زينب عبد الوهاب فهمي - ولدت حوالي ١٨٩٦ وتوفيت في ١٩٥٩). كما أعطاني حسين صورة فوتوغرافية لثلاث صفحات من هذا الكتاب، ذكر فيها تاريخ حياة هذا الجد الأعلى، محمد علي باشا البقلي. وجدتها صفحات مذهلة من أكثر من وجه، بصرف النظر عما إذا كان هذا هو

جدي الأعلى أو لم يكن؛ إذ تعطى صورة مشرفة للغاية عن بعض ما كان يجرى في مصر في القرن التاسع عشر، ولما يمكن أن ينجزه فلاح مصري ذكى لو أعطي الفرصة للتعلم والتقدم. وقد ذكر الكتاب الذي صوّرت منه هذه الصفحات أن المعلومات عن محمد علي البقلى مأخوذة من كتاب (الخطط التوفيقية) لعلي مبارك باشا (الجزء ١١ ص ٨٥)، ومن (تاريخ البعثات المصرية) لعمر طوسون (ص ٥١٩). وجاء في هذه الصفحات عن تاريخ هذا الرجل ما يلي:

«محمد علي باشا الحكيم، هو السيد محمد علي بن السيد علي الفقيه.. ولد في زاوية البقلى (ثم عبارة غير مقروءة) في سنة ١٢٢٨ هـ، ونشأ بها وترعرع فأدخله أهله مكتبًا في تلك البلدة، فتعلم مبادئ الكتابة وقرأ القرآن. فلما بلغ التاسعة من سنّه جاء به أحمد أفندي البقلى إلى القاهرة، وأدخله مدرسة أبي زعبل التي كان قد بناها المغفور له محمد علي باشا الكبير في قرية أبي زعبل، وفيها مكتب ديواني، فمكث فيه ثلاث سنين أتم فيها قراءة القرآن وتلقى (سطر ناقص) ثلاث سنين، فأظهر من الذكاء والاجتهاد ما حبب فيه أساتذته فنقلوه إلى مدرسة الطب، وكانت تحت إدارة المرحوم الدكتور كلوت بك ففاق أقرانه. حتى إذا صدر أمر محمد علي باشا بإرسال نخبة من تلاميذ تلك المدرسة إلى باريس للتبحر في العلوم الطبية، كان صاحب الترجمة في جملة المنتخبين وعددهم اثنا عشر شابًّا، وقد أتموا دراسة الفنون الطبية وفيهم من نال رتبة اليوزباشية».

«وكان راتب السيد محمد علي البقلى عند سفرته هذه مائة وخمسين قرشًا فأوصى خمسين منها لوالدته، وأبقي لنفسه مائة. دخل مدرسة باريس الطبية وبذل غاية جهده في تحصيل علومها، فنال حظًّا وافرًا من سائر علوم الطب والجراحة، وشهد له أساتذته بالامتياز على سائر رفاقه وقد كان أصغرهم سنًّا. فأتموا دروسهم وامتحنوا شفويًّا، وقدم في الامتحان الخطيّ رسالة طبية في الرمد الصديدي المصري، فمنح الإجازة وعاد إلى مصر سنة ١٢٥٣هـ، وكانت شهرته قد سبقته إليها، فَعُيِّن حال وصوله جرَّاحًا أول وأستاذًا للعمليات الجراحية والتشريح الجراحي، وأنعم عليه محمد علي باشا برتبة صاغقول أغاسى. ولم تمض بعد ذلك مدة حتى نال رتبة البكباشي».

«وفي ولاية عباس باشا الأول حصلت بينه وبين بعض أطباء المستشفى الأوربي منافسة، فأمر بنقله إلى ثمن قيسون من أثمان القاهرة ليتولى التطبيب فيه على نفقة الحكومة. ولذيوع صيته تحول المرضى من مستشفى قصر العيني إلى ثمن قيسون، وزادت شهرته بالفنون الطبية لاسيما الجراحة. ولبث يطبب في ذُلك الثمن خمس سنوات متوالية، فأنعم عليه برتبة قائمقام، وعين رئيسًا لأطباء الآليات السعيدية، فلم يلبث في منصبه هذا إلّا قليلا، واعتزل المناصب ولزم منزله. ثم عُيِّنَ رئيسًا لجراحي قصر العيني وأستاذًا للجراحة ووكيلًا للمستشفى والمدرسة الطبية، فقام بعمله خير قيام، وأنعم عليه برتبة أميرالاي، وكان ذلك في عهد سعيد باشا فقرّبه منه وجعله طبيبه الخاص، وألحقه بمعيّته مع بقائه في مناصبه المشار إليها. ثَمَّ أنعم عليه برتبة المتمايز (...) وفي أواخر سنة ١٢٩٢هـ انقطع عن العمل ولزم بيته ولم يعلم السبب في ذلك. فلما كانت الحرب بين مصر والحبشة، صحب الحملة المصرية التي وجهت إلى الحبشة برفقة الأمير حسن باشا نجل الخديو إسماعيل باشا، وأدّى هناك أجلّ الخدم، ثم عاجلته المنية ودفن هناك سنة ١٢٩٣هـ الموافقة لسنة ١٨٧٧م، ولم يعلم أحد مكان ضريحه».

«وتضاربت فيه الأقوال، ومنه ما رواه حضرة مصطفى أفندي صبري قمندان حملة طوكر إذ قال: «بلغني من بعض الأحباش أن المرحوم الدكتور محمد علي باشا البقلي قد أقيم له قبر ببلدة (كلمة غير مقروءة) جراع بين عدْوى وأسمرة إلّا أنه أقرب إلى هذه من تلك، وشيدت فوق القبر قبة عظيمة يزوره فيها الأحباش على اختلاف طوائفهم ومذاهبهم تعظيمًا له وتخليدًا لذكره» وكان ـ رحمه الله ـ حائزًا للنشان المجيدي من الرتبة الثانية؛ ناله مكافأة له على جهاده في مقاومة الهواء الأصفر سنة ١٨٦٥م. وله في الطب مؤلفات خمسة منها كتاب في العمليات الجراحية الكبرى سماه (غاية الفلاح في فن الجراح) طبعه سنة ١٨٦٤ م في جزأيْن، وكتاب (غرر النجاح في أعمال الجراح) أيضًا في مجلديْن، طبع سنة ١٨٤٦ م، وكتاب (روضة النجاح الكبرى في العمليات الجراحية الصغرى) طبع سنة ١٨٤٣ م، وله كتب أخرى غيرها لم تطبع أو لم يتم تأليفها. وأصدر مجلة شهرية اسمها اليعسوب سنة ١٨٦٥م، وكان يساعده في تحريرها الشيخ إبراهيم الدسوقي مصحح المطبعة الأميرية، وهي

أول مجلة طبية صدرت باللغة العربية. وباشر تأليف قانون في الطب، وقانون في الألفاظ الشرعية، والمصطلحات السياسية ولم يتمها. وكان ـ رحمه الله ـ عاملًا على بث العلوم والمعارف بين أبناء وطنه، شغوفًا بالفقراء، طويل الأناة في علاجهم حسبة لا يلتمس منهم عليه أجرًا...».

* * *

بعد أن أعطاني أخي حسين هذه الصفحات بسنوات كثيرة، وقعت بالصدفة المحضة على معلومات إضافية عن هذا الرجل الفذ في كتاب بالإنجليزية أصدرته الجامعة الأمريكية بالقاهرة سنة ٢٠٠٥، اسمه بالعربية: (الزمالك: تطورات حياة صفوة اجتماعية في مدينة القاهرة، ١٨٥٠ - ١٩٤٥) تأليف السيدة شفيقة سليمان حمامصي[1].

فقد تصادف أن الجد الأعلى للسيدة شفيقة، مؤلفة هذا الكتاب، كان تلميذًا مقربًا لمحمد علي البقلي، وهو ما دفعها إلى البحث في تاريخ هذا الرجل وتضمينه كتابها، فإذا بها تعطيني مادة إضافية عن جدي أنا الأعلى. لم يأت في كتاب السيدة شفيقة حمامصي أي شيء يتعارض مع ما ذكرته حالاً عن تاريخ محمد علي البقلي، كما تضمن كثيرًا من المعلومات التي ذكرتها، ولكن جاء في هذا الكتاب بعض المعلومات الإضافية والملاحظات الشيقة منها ما تذكره عن «المنافسة التي جرت بينه وبين بعض أطباء المستشفى الفرنسي»، والتي أدت إلى نقله من مستشفى القصر العيني إلى مستشفى أصغر، فتقول إن النقل تم بسبب «مشاجرة عنيفة بينه وبين زميل فرنسي»، وأنه على الرغم مما أصابه من خيبة أمل شديدة «كان يشعر بالفخر لتمسكه بموقفه. فبعد سنوات كثيرة من هذا الحادث قال لزميل أصغر منه: (لا تدع الخوف أبدًا يمنعك من الكلام، عندما يكون معك الحق، وعندما يكون رأيك مبنيًا على دليل علمي، ولا تظن أبدًا أن عقلك من نوع أقل من عقل الخواجه، على الرغم من أنهم يحبون أن نعتقد ذلك حتى يتمكنوا من السيطرة علينا)».

* * *

(1) Chafika S. Hamamsy: Zamalek , Changing Life of a Cairo Elite, 1850 - 1945.

أما عائلة أبي، فقد استقيت بعض المعلومات عن أصلها من ابن عمة لي، يكبرني بنحو خمسة عشر عامًا، وقد استقاها بدوره من ابن عمه (وهو الدكتور أحمد زكي عالم الكيمياء الذي صار مديرًا لجامعة القاهرة). قال إن جدنا الأعلى من ناحية أبي نشأ في منطقة ما من آسيا الوسطى (وهو ما قد يتفق مع ما ذكره أبي في مطلع سيرته الذاتية «حياتي» من أن صديقًا له، هو أستاذ جامعي في علم الجغرافيا «نظر مرة إلى رأسي... وحدّق فيه ثم قال: هل أنت مصري صميم؟ قلت: فيما أعتقد، ولِمَ هذا السؤال؟ قال: إن رأسك، كما يدل عليه علم السلالات، رأس كردى»). كان هذا الجد الأعلى (طبقًا لما رواه لي ابن عمتي) رجلًا متبحرًا في الدين، وكان هو وشقيقه الأكبر متمرديْن على الأتراك ويدعوان للثورة عليهم. حكم الأتراك على شقيقه بالإعدام فهرب إلى الجزيرة العربية وأراد هو أن يلحق بشقيقه فأخذ حماره وسار به ومعه خيمة يستريح فيها بين الحين والآخر. ولكنه بدلًا من أن يصل إلى الجزيرة العربية وصل إلى مكان في القليوبية في مصر بالقرب من قرية طحانوب. ولما عُرف بسعة علمه بالدين أخذ الناس يقصدونه في قريته الصغيرة طلبًا للفتوى، قائلين: «فلنذهبْ إلى جارنا الروسي»، ومع مرور الزمن تحولت عبارة «جارنا الروسي» على ألسنة الناس، حتى عرفت هذه القرية الصغيرة باسم«جارنوس».

لم يذكر أبي شيئًا عن هذه البدايات البعيدة، وإنما بدأ روايته عن عائلته بأن أباه «من بلدة سمخراط من أعماق البحيرة، أسرة فلاحة مصرية، ومع هذا فمديرية البحيرة على الخصوص مأوى المهاجرين من الأقطار الأخرى. فقد يكون جدي الأعلى كما يقول الأستاذ (يقصد صديقه عالم الجغرافيا) كرديًا أو سوريًّا أو حجازيًّا أو غير ذلك. ولكن على العموم كان المهاجرون من آبائي ديمقراطيين من أفراد الشعب لا يُؤبه بهم ولا بتاريخهم. ولكن لعل مما يؤيد كلام الأستاذ أني أشعر بأني غريب في أخلاقي وفى وسطى» (كتاب حياتي لأحمد أمين، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة السادسة، ١٩٧٨، ص ٢).

* * *

لم تشغل بالنا، نحن الأولاد والبنات الصغار، حقيقة نشأة أمي أو أبي، ولا أعرنا

أي اهتمام لما إذا كان الجد الأعلى لأمي طبيبًا وجرَّاحًا خطيرًا، أو أن جد أبي الأعلى ذو أصل كردى أو روسي. إذ ما الذي يهم من هذا كله؟ بل لم نتوقف قط عند لقب «الطبَّاخ» إلّا ربما لاستثارة بعض الضحك. إلى أن حدثت الحادثة المؤسفة التالية والتي لازلت أشعر بالخجل من نفسي حتى الآن كلما تذكرتها.

فعندما كاد ينقضي عام على وفاة أبي فكرنا أنا وبعض الأخوة في أن نصدر كتابًا بهذه المناسبة، نجمع فيه ما كتب من مقالات في رثاء أبي؛ تخليدًا لذكراه، خاصة وأن معظمها كان بأقلام مرموقة ومشهورة كطه حسين والعقاد وأحمد حسن الزيات والسنهوري... إلخ. وكان من بينها أيضًا مقال، من أفضل هذه المقالات، للدكتور أحمد زكي الذي ذكرته حالًا، والذي كان وثيق الصلة بأبي، ليس فقط لرابط القرابة بينهما؛ بل بسبب عشقه للأدب. كان يطلب أبي أحيانًا بالتليفون في ساعة متأخرة من الليل لكي يسأله عما إذا كانت كلمة ما يريد استخدامها في مقال له صحيحة لغويًا أو غير صحيحة، وكان أبي يتلقى هذه المكالمات بصدر رحب ويبادله مودة بمودة.

كان مقال الدكتور أحمد زكي هو سبب هذه الحادثة المؤسفة، فأثناء قيامنا بإعداد المقالات للنشر في كتاب، لاحظ أحد الأخوة عبارة وردت في مقال د. زكي عن اسم أبي بالكامل، وجاء في نهايته لقب «الطبَّاخ». كان هذا في أوائل سنة ١٩٥٥، وكنت في العشرين من عمري، وكان أخي حافظ يزمع الزواج، وتمت بالفعل خطبته إلى شقيقة أحد أصدقائه. لا أدرى ما الذي جعل بعضنا (أو كلنا) يظن أن ورود لقب الطبَّاخ في نهاية اسم أبي يمكن أن يسيء إلى حافظ بأي صورة من الصور، أو يسيء ظن أسرة خطيبته بأسرتنا. كان الأمر صبيانيًا وسخيفًا للغاية، ولكني أذكر أننا أخذنا الأمر مأخذ الجد، وإن كنت لا أدرى حتى الآن لماذا وقع الاختيار عليّ أنا، وأنا أصغر الإخوة، للقيام بهذه المهمة الصعبة جدًا، وهي أن أتصل تليفونيًا بالدكتور أحمد زكي لكي أرجوه حذف كلمة «الطبَّاخ» من الاسم. إني أستطيع أن أبرئ أخي «حسين» من تهمة الاشتراك في اتخاذ هذا القرار، فقد كان وقتها في لندن يعمل في القسم العربي بالإذاعة البريطانية، ولكني لا أستطيع أن أبرئ أخي «حافظ»؛ إذ إن الأمر يتعلق به أكثر مما يتعلق بالآخرين، كما لا أستطيع أن أبرئ والدتي، وإن كنت لا أذكر الآن

على الإطلاق أي شيء يساعدني على تحديد المسئول الأول عن هذا العمل. الشيء الوحيد الذي أتذكره عن هذا الأمر هو أني وافقت على القيام بهذه المهمة (وهو عمل ينطوي على شجاعة على أي حال، وإن كان ينطوي أيضًا على حماقة كبيرة)، وأني قمت بالفعل بالاتصال تليفونيًّا بالدكتور أحمد زكي.

أذكر جيدًا كيف صُعق الرجل عندما عرف سبب المكالمة، ولا بد أنه صُعق أكثر عندما ذكرت له دافعي إليها، وهو قرب زواج أخ من إخوتي. إذ ما دخل الزواج القريب أو البعيد بما إذا كان جد من جدودي طبَّاخًا أو نجَّارًا؟

أذكر أن الرجل بدا أولًا وكأنه غير مصدق لما يسمع، ثم لما تأكد منه وفهمه قال لي بحزن: «إنه كان يظن أن أحمد أمين قد ربّى أولاده على نحو أفضل من هذا». ثم أضاف بحزن أيضًا، أن لنا أن نفعل ما نشاء وأن نحذف من الكلام ما نريد حذفه.

وبالفعل ظهر كتاب «أحمد أمين: بقلمه وقلم أصدقائه» من دون كلمة «الطبَّاخ». ومضت سنوات كثيرة، قابلت بعدها الدكتور أحمد زكي في الكويت، وكان قد جاوز الثمانين ويعمل رئيسًا لتحرير مجلة «العربي»، فرحّب بي وأخذ يحكي لي ذكرياته عن أبي، ولم يبد منه أنه يذكر شيئًا عن واقعة «الطبَّاخ»، أما أنا فلم أنسها قط.

(٢)

أمي وأولادها

- ١ -

ما أسهل أن أصف للقارئ كيف كانت حياة أمي: نوع اهتماماتها وترتيب أولوياتها، ومستوى تعليمها، ونظام حياتها اليومية، وأسلوبها في الحديث، والزيّ الذي ترتديه، وطبيعة علاقتها بأبي وأولادها... إلخ. كانت أمي في كل ذلك نموذجًا يمثل تمثيلًا جيدًا نساء الطبقة الوسطى المصرية في النصف الأول من القرن العشرين. لقد ولِدتْ أمي قبيل بداية القرن بسنوات قليلة وماتت في نحو الستين من عمرها، قبل أن تطرأ على مصر تلك التحولات الاجتماعية السريعة التي حسّنت بشدة من مركز المرأة المصرية وحررتها من كثير من القيود.

امرأة يصعب تخمين عمرها بسبب تغطيتها شبه المستمرة لشعرها، وردائها الأسود الواسع الذي يغطى كل جسمها ولكنه لا يغطى وجهها، وعدم استخدامها لأي نوع من طلاء الوجه ووسائل تجميله الشائعة الآن، باستثناء الكحل حول عينيْها في مناسبات قليلة جدًّا. كانت تبدو دائمًا أكبر بكثير من سنها الحقيقية بسبب ما ترتديه من ملابس، فضلًا عن بطء حركتها، وميلها إلى الحزن، واعتيادها كبت عواطفها.

كان المصدر الأساسي حينئذ (أم لعله الوحيد؟) لشعور المرأة المصرية المتزوجة بالرضا عن حياتها وبالاعتزاز بنفسها هو أولادها. فإذا عرفنا بعض المعلومات البسيطة عن الحياة الاجتماعية في مصر في ذلك الوقت تبين لنا كيف أن هذا كان أمرًا محتومًا. كان حظ المرأة المصرية من التعليم قريبًا من الصفر، وفرص العمل أمامها خارج

البيت إذا كانت من سكان المدن، شبه معدومة. والزواج يتم دون تعارف سابق بين الزوج والزوجة، بل فى العادة دون أن يرى أحدهما الآخر. إذن فاحتمال افتقاد الحب المتبادل بين الزوجيْن احتمال كبير، واحتمال الطلاق إذا لم ترزق الزوجة بأولاد، كبير جدًّا أيضًا. والخطر الاقتصادي الذي يهدد الزوجة إذا تنكر لها الزوج لأي سبب، خطر مؤكد؛ لعدم قدرتها على كسب العيش من أي عمل خارج البيت. الأولاد، إذن، وثيقة تأمين ثمينة للغاية: ضد الطلاق، وضد المعاملة السيئة من جانب الزوج، وضد الفقر. ومادام الأولاد يؤدون للزوجة هذه الوظيفة فهم أيضًا مصدر لرضا المرأة عن الحياة والاعتزاز بالنفس، وكذلك للتفاخر والتباهي أمام غيرها من النساء.

هكذا كان حال أمي بالضبط، ومن ثَمَّ استطاعت عن طريق استخدام الحيل أن يكون لها ثمانية أولاد، ستة من الذكور وبنتان، بعد أن فقدت ولديْن قبل أن يتمّا سنة واحدة. وكان من حسن حظها أنها لم تفقد أيًّا من هؤلاء الثمانية ولا أصاب أحدهم مرض خطير طوال حياتها، ولا حتى فشل أحدهم في الحصول على وظيفة محترمة، فظلت تتباهى بنا حتى ماتت. تقول بفخر إن نعيها عندما يجيئها الموت سوف يتضمن ذكر وظائف الأولاد، واحدًا بعد الآخر، وتعلن مبتهجة أن أصغر أولادها، وتؤكد على كلمة (أصغر) بمعنى أنه أقلهم شأنًا، موظف في مجلس الدولة، (إذ هكذا كنت في سنواتها الأخيرة) فما بالك بالآخرين؟

كان من الطبيعي، والحال كذلك، أن توجه أمي أكبر جهدها لرعاية هؤلاء الأولاد. ولكن هذه الرعاية كانت تعنى بالنسبة إلى أمي شيئًا مختلفًا تمامًا عما تعنيه لأمهات اليوم. إنها لا تشمل العناية بالمظهر الذي يبدون به أمام الناس، ولا مساعدتهم على النجاح في الامتحانات أو التفوق في الدراسة، ولا الاهتمام بتنمية قدراتهم العقلية باختيار أحسن الألعاب التي تنمى الذكاء أو الكتب الملائمة لسنهم، ولا بتنمية قدرتهم على أداء لعبة رياضية أو موهبتهم الموسيقية، كالذي نراه من أمهات اليوم، وهن رائحات غاديات لاصطحاب أولادهن إلى هذا النادي أو ذاك، أو إلى المدرس الخصوصي ثم العودة بهم بعد انتهاء الدرس... إلخ. بل لم يكن مما يشغل بال أمي كثيرًا محاولة إدخال البهجة على نفوس الأولاد بالتفنن في اختيار الهدايا المناسبة

لهم في أعياد الميلاد، أو التودد إلى هذا الصديق أو ذاك من أصدقائهم؛ تشجيعًا لهم على استمرار العلاقة بينهم... إلخ.

لا لم يكن الجهد الفائق الذي تبذله أمي لرعاية أولادها يرمى إلى هذا أو ذاك، بل كان يرمى إلى شيء واحد بسيط وواضح للغاية وهو مجرد «المحافظة على الحياة». وقد يبدو هذا القول مدهشًا ولكنه صحيح، كما أنه كان يتفق تمامًا مع نمط الحياة التقليدية التي نشأ في ظلها ذلك الجيل من الأمهات المصريات: نمط حياة مليء بالصعوبات التي تعترض إشباع الحاجات الأساسية، وفكرة الموت فيه أقرب كثيرًا إلى الذهن، ووقوعه أكثر احتمالًا منه الآن، والخوف مما يمكن أن يأتي به المستقبل حاضر دائمًا. في ذلك النمط من الحياة التقليدية كانت نوبة من الضحك كثيرًا ما تنتهي بقول أحد الضاحكين: «اللهم اجعله خيرًا...»، وكأن المرء لم يكن يصدق أن السرور يمكن أن يستمر طويلًا، أو كأنه يشعر بأن هذا المرح الشديد لا بد أن يكون مجرد تمهيد لحدوث شيء غير سار، ربما كعقوبة على مجرد الاسترسال في المرح.

في ظل شعور دفين كهذا بالخوف من المستقبل، كان من الطبيعي أن يكون الخوف مما يمكن أن يصيب الأولاد شعورًا مستمرًّا وفى كل الظروف. فالولد تأخر في العودة إلى البيت، فما الذي أصابه في الطريق؟ والبنت لم ترسل خطابًا منذ فترة، فهل هي مريضة؟ وفى أيام الشتاء لا بد أن يرتدى الولد طبقة فوق أخرى من الملابس، ويستحسن أن تستبدل بالفانلة القطنية فانلة من الصوف، ولو ظلت تؤلم الولد بشوكها طول اليوم. وإذا سافرت الأسرة إلى الإسكندرية للاصطياف، وأراد الأولاد الاستحمام في البحر، فهل هذا ضروري حقًّا؟ وإذا سمعت أمي عن غرق شخص في البحر انزعجت انزعاجًا شديدًا وسيطر عليها الخوف من أن يحدث نفس الشيء لأحد أولادها. فإذا ذهب الولد للاستحمام وكانت جالسة على الشاطئ ترقبه، ورأته يدخل بضعة أمتار في البحر عاتبته عند رجوعه لأنه ذهب إلى أبعد من اللازم. وهل للتوغل في البحر إلى هذا الحد أي ضرورة؟ ومادام الغرض هو الاستحمام، أليس «جوه زى بَره؟» كانت كثيرًا ما تقول لنا هذه الجملة (جوه زى بَره) بمناسبة

النزول إلى البحر، وقد التصقت هذه الجملة بذاكرتي إذ إني وجدت فيها عندما كبرت، الكثير من الحكمة. وهي نفس الحكمة التي عبّر عنها الشاعر الهندي طاغور في مقطوعته التي يتكلم فيها عن كثرة سفره وترحاله وصعوده إلى أعلى الجبال ثَمَّ نزوله إلى أعمق الوديان، دون أن يلتفت إلى ورقة صغيرة من العشب تعلوها قطرة من الندى بجوار باب بيته. ولكن طاغور عندما كتب هذه المقطوعة لطفل هندي صغير وناولها لأم الطفل، قال لها إنه لن يفهمها الآن ولكنه سيفهمها قطعًا عندما يكبر. وهذا هو ما حدث معي بالضبط. لم أفهم عبارة أمي «جوه زى بَره» في صغرى، عندما كانت رغبتي قوية في إثبات الذات وتجربة المجهول، ولكني فهمتها قطعًا عندما كبرت.

من قصص أمي المفضلة التي كانت تعيدها على سمعي من حين لآخر ما فعلته لإنقاذ أخي حافظ من الموت. كان حافظ في الثالثة أو الرابعة من عمره، وكانت تسير معه في شارع قريب من بيتنا في مصر الجديدة، عندما ترك يدها فجأة وجرىٍ ليعبر الشارع وحده أثناء قدوم سيارة مسرعة كانت سوف تصدمه لا محالة، لولا أن أمي تصرفت بسرعة ملهمة ومدفوعة بالفطرة وحدها، إذ اندفعت وراء حافظ لتعبر الشارع هي الأخرى وهي تشعر (هكذا قالت لي) بأن السيارة ربما لن ترى «حافظ» لصغر حجمه بينما ستراها هي قطعًا فتفرمل في الوقت المناسب. كان هذا هو بالضبط ما حدث، وشعرت هي منذ ذلك الحين بالفخر لما صنعته، وهو فخر في محله تمامًا.

روت لي أمي أيضًا (وكررته أكثر من مرة) أنها ذهبت مرة إلى جارة لها كانت تسكن في البيت المقابل تمامًا لبيتنا وكنا نسميها (زوجة العمدة). ذهبت أمي إلى زوجة العمدة لتشكو لها من أبي، ويظهر أن سبب الشكوى في هذه المرة كان أخطر من المعتاد، إذ قالت أمي لجارتها إنها قررت أن تتركه وتطلب الطلاق. استفظعت الجارة المخلصة ما تقوله أمي، وعاتبتها بشدة على التفكير على هذا النحو، وقالت لها ما معناه: «ألا ترين القطة تقفز إلى النار لإنقاذ صغارها إذا كانت النار قد أمسكت بأحدهم؟» هدأت أمي وعدلت عن فكرة الطلاق، وظل مثل القطة التي تقفز في النار لإنقاذ أولادها يعود إلى ذهنها المرة بعد المرة وتعيد ذكره لي.



أمي تحمل حفيدتها وسط أربعة من أولادها، وزوجة أخي محمد، وزوج أختي نعيمة وابنتها رجاء (١٩٥٤)

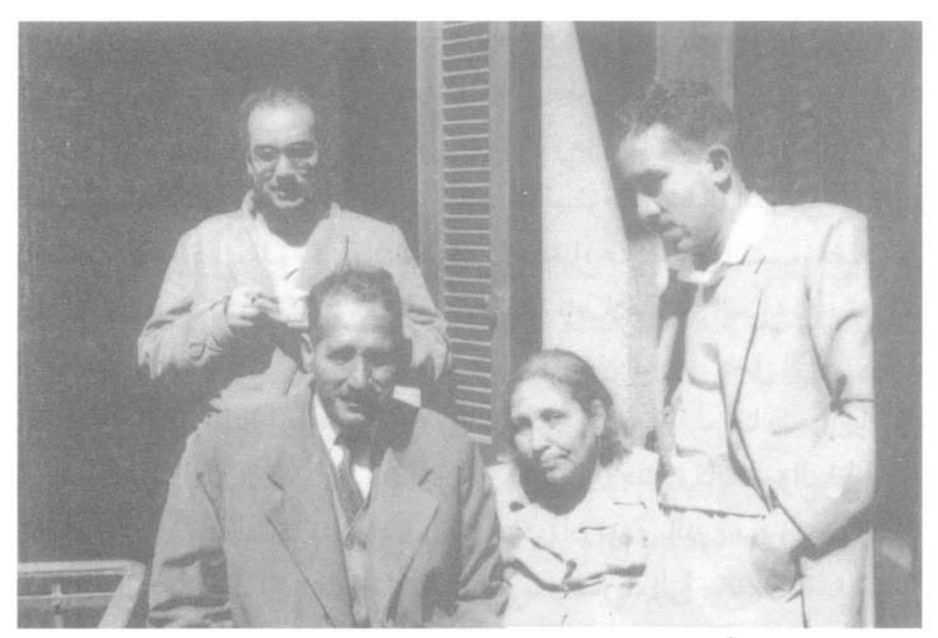
كل هذه الأعمال والاحتياطات التي كانت تتخذها أمي كان هدفها مجرد المحافظة على حياتنا. إذ إن أي شيء آخر يمكن أن يحدث لنا كان يبدو لها قليل الأهمية. وأظن أن هذا هو أيضًا تفسير اهتمامها الشديد بطعامنا. كانت كثيرًا ما تقول لنا وهي تقدم لنا الطعام، إذا كانت في حالة مزاجية جيدة: «إنما نطعمكم لوجه الله!» وقد تضيف: «لا نريد منكم جزاءً ولا شكورًا». ولكن أمي كانت لديها عدة أفكار تبدو مدهشة الآن، عما يحقق هذا الغرض وما لا يحققه، ولم تكن تشك قط في صحتها. فالسمن والزبد الحيواني ضروريان جدًّا، وأي سمن أو زبد مستخلص من النبات لا نفع فيه. واللحوم ضرورية جدًّا أيضًا ولا يغنى عنها أي شيء آخر. كانت تعتذر اعتذارًا صادقًا، إذا قدمت إلينا عدسًا في وجبة الغذاء، إذا أرادت التوفير في ذلك اليوم، أو إذا بحث أحدنا عن بيض في وقت الإفطار فلم يجده. ولكن لا هذا ولا ذاك كان يتكرر كثيرًا. لم تكن تأبه بالفول ومشتقاته، ولا تعلق أهمية كبيرة على الخضروات، وكأن المنتجات الحيوانية هي الشرط الضروري والكافي للصحة الجيدة. كان الطعام، وبالذات اللحوم، هي وسيلتها الأساسية في إكرام ضيف عزيز عليها، وهو أهم ما يشغل تفكيرها إذا عرفت

أن أحد أولادها سيعود من الخارج بعد غيبة طويلة. هنا تظهر أنواع من المأكولات التي لم نرها منذ فترة طويلة، إذ لا بد في هذه الحالة من ديك أو فرخة رومي أو أكثر، والأرز لا بد أن يكون «بالخلطة»، أي أن يشتمل فضلًا عن المكسرات والزبيب على قطع صغيرة من الكبد... إلخ.

أدى اعتيادنا على مثل هذا المستوى من الطعام، إلى إصابتنا، (أو على الأقل إصابة البعض منا) بالبطر، والإصرار على المحافظة على هذا المستوى تحت أي ظرف من الظروف، حتى إن بعضنا كان يرتكب أحيانًا حماقات بالغة إذا اكتشف أن الطعام أقل من المستوى المتوقع. أذكر أن أخي محمد ذهب إلى حد إلقاء صينية بطاطس فاخرة بأكملها (أم أنها كانت صينية سمك؟) من الشرفة لغضبه عليها لسبب أو لآخر. القصة شهيرة في عائلتنا ولكني لا أذكر سبب غضبه بالضبط. أكان السبب أنه كان يتوقع طعامًا آخر.. أم أن الغذاء في اليوم السابق كان يتضمن صينية بطاطس أو سمك مماثلة؟ المهم أن هذا قد حدث، وأذكر قطع البطاطس والطماطم وهي عالقة بأوراق شجرة الجوافة، ومحاولة أمي تهدئة أخي. نعم، كان المدهش في الأمر أن والدتي لم تنهر أخي «محمد» أو توبخه على فعلته هذه بالغة الحماقة والاستهتار، بل قبلت الإهانة ووعدته بألا تعود إلى مثل هذا مرة أخرى. وربما كان أكثر ما أثار قلقها، في تلك اللحظة، هو احتمال أن يؤدى غضب أخي محمد الشديد إلى الإضرار على نحو ما بصحته.

-٢-

كان هذا الخوف الشديد من احتمال أن يلحق أي أذى بأي من أولادها، الذكور أو الإناث، لا بد أن يؤدى بأمي إلى الخوف الشديد من الحسد. عندما أتذكر الآن كم كانت كلمة «الحسد» تتردد على أسماعنا في صباي، وألاحظ شبه اختفائها تمامًا الآن فيما يدور من حديث في عائلتنا، أتعجب من عمق التغير الذي طرأ على حياتنا الاجتماعية، ومن طول المسافة التي تفصل بين طريقة تفكير أمي وجيلها من النساء المصريات وبين تفكير أولادي وجيلهم، إذ لا أذكر أني سمعت كلمة «الحسد» ترد على لسان ابنتي أو أحد ولديَّ، إلّا على سبيل المزاح، بل يندر هذا أيضًا.



أمي وشقيقها محمد وابناها عبد الحميد وحسين (حوالى ١٩٥٣)

على العكس، كان اعتقاد أمي وجيلها في الحسد شيئًا جادًّا جدًّا ولا يحتمل المزاح. لقد كتب أبي في مذكراته أنه عندما ولد له ابنه الأكبر جاءه من يقوله له: «إن الله رزقه ببنت جميلة»؛ منعًا لانتشار خبر وصول ابن ذكر فيصيبه الحسد. لم تكن أمي تبالغ في الاعتقاد بالحسد مثلما كان غيرها من نساء العائلة، ولا كان استخدام البخور يعتبر ضروريًّا في بيتنا كما كان في غيره، ولكن أمي كانت تميل قطعًا إلى كتمان الأخبار السارة أو التقليل عمدًا من أهميتها، وإلى التأكيد على الجوانب السلبية في حياتها أو حياة أولادها؛ ذرًّا للرماد في الأعين الحاسدة.

من القصص المشهورة في أسرتنا والدالة على قوة اعتقاد أمي في الحسد، ما حدث مرة وكاد يؤدى إلى طلاق أخي حافظ من زوجته. كنا جالسين لتناول الغذاء أنا وأمي وحافظ وأحمد وحسين، عندما سمعنا دقًّا على الباب وكان القادم رجلًا ذا مهنة مهمة جدًّا في تلك الأيام (منتصف الخمسينات) وهي «إصلاح بابور الجاز». لم نكن نعرف في ذلك الوقت مواقد الغاز أو الكهرباء، ولا كان في البيت فرن توضع فيه الصواني وتشوى فيه اللحوم، بل كان مثل هذا يحتاج إلى إرسال الطعام إلى فرن

عام، فيحمل الخادم أو الخادمة الصينية بالطعام إلى الفرن ثَمَّ يذهب مرة أخرى لإحضارها. كانت وسيلة الطهي الوحيدة وكذلك غلى الماء لعمل الشاي أو غيره، أو تسخينه للاستحمام في الشتاء، هي «بابور الجاز»، وهو جهاز بسيط للغاية ولكنه خطر للغاية أيضًا؛ إذ تكفى حركة بسيطة غير مقصودة لسقوطه وإشعال النار في أي شيء قريب منه، ومع ذلك فلم يكن من الممكن الاستغناء عنه. ولهذا السبب، فضلاً عن سهولة إصابته بالعطب، نشأت هذه المهنة المهمة «إصلاح بابور الجاز» التي كثيرًا ما كان القائم بها يدور في الشوارع صائحًا: «نصلّح بابور الجاز». دخل الرجل البيت وقادته أمي إلى المطبخ ليفحص البابور، وأثناء سيره في الصالة لمحنا ونحن جالسان إلى المائدة فسأل أمي سؤالًا فظيعًا: «هل كل هؤلاء أولادك؟» كان السؤال فظيعًا في نظر أمي؛ إذ إن معناه المؤكد الحسد، وما يمكن أن تؤدى إليه «عين الحسود» من أذى للأولاد. فأجابت أمي بطريقة تلقائية بالنفي، وأشارت إلى حافظ قائلة: «لا، هذا الولد أمه طليانية!» كانت الإجابة في نظرنا مضحكة للغاية واستمرت كذلك لسنوات كثيرة. إذ كيف خطرت ببال أمي هذه الإجابة الغريبة بهذه السرعة؟ وما هذه الحاجة الماسة للكذب؟ ثم لماذا حافظ بالذات؟ كان من السهل الإجابة عن السؤال الأخير؛ إذ كان لحافظ بعكس بقية الإخوة، شعر ناعم جميل ينسال أحيانًا على جبهته فيجعل من الممكن أن يظن من يراه أنه أوربي. هكذا تعاملت أمي مع المشكلة، ولا بد أن الرجل صدّقها، وكذلك الخادم «حمامة» الذي سمع السؤال والجواب، واحتفظ بهذه المعلومة في نفسه.

ثم تزوج حافظ وسكن مع عروسه الجديدة في منزلنا حتى يتم إعداد بيت الزوجية، وخرج حافظ مرة لعمله فإذا بحمامة يقول للعروس الجديدة: «تعرفي يا ست مها، سي حافظ مش أخو سي حسين ولا سي أحمد ولا سي جلال!». فانزعجت زوجة أخي بشدة وسألته باستغراب عما يعرفه عن هذا الأمر فأجابها من دون أن يعترى كلامه أي نبرة شك: «سي حافظ أمه طليانية...!». كان من الصعب جدًّا على حافظ إقناع عروسه بغير ذلك، إذ ما الذي يمكن أن يدفع الخادم إلى اختراع شيء كهذا؟

* * *

كان من المألوف أيضًا أن يخشى المرء الذي يؤمن إيمانًا عميقًا بالحسد بعض العيون أكثر مما يخشى غيرها، وكانت أشد ما تخشاه أمي فيما يتعلق بالحسد هي عين عمتي «أم زكي»، وهي شقيقة أبي الكبرى. ولكن لهذه العمة وعلاقتها بأمي قصة لا بد أن تروى.

كانت عمتي «أم زكي»، (هكذا كنا نسميها ولا نعرف لها اسمًا آخر) امرأة قوية الشخصية ذكية، يعمل لها حسابًا كل أفراد أسرتها، ويعاملها أبي باحترام يزيد عما يعامل به أخته الأصغر منه (أم محمود). وقد ساءت علاقة عمتي (أم زكي) بأمي منذ البداية، بل حتى من قبل أن يتم زواج أمي بأبي، إذ كانت العادة أن يرسل الرجل الراغب في الزواج، بعض نساء أسرته للتعرف إلى أسرة الفتاة المرشحة له، ورؤية الفتاة نفسها وفحصها جيدًا، ثم رفع تقرير مفصل للزوج المحتمل، عن كل ما رأوه وسمعوه مصحوبًا برأيهم في ملاءمة الزواج أو عدم ملاءمته. ذهبت عمتي وزوجة عم لي كان قد مات منذ زمن، لرؤية أمي وكانت النتيجة إيجابية. ولكن المشاكل بدأت عندما ذهبت المرأتان لتفقّد بيت الزوجية الذي سوف ينتقل إليه أبي وأمي بعد الزواج؛ للتحقق من أن المهر الذي دفعه أبي لأهل العروس قد أحسن استخدامه، وأن «الجهاز» يحتوي على كل ما يحتاجه أبي من وسائل الراحة. رجعت عمتي إلى أبي ساخطة؛ لأنها لم تجد «كنكة» للقهوة من بين أدوات المطبخ، وتساءلت عما يمكن أن تظنه تلك الأسرة بأخيها إذ تحرمه من هذه الكنكة الضرورية لحياته. ظلت أمي تذكر قصة «الكنكة» هذه، وتحكيها لنا ضاحكة مرة، وعابسة مرة، كلما تذكرت عدد المرات التي حاولت فيها عمتي إيقاع الأذى بها.

كانت الغيرة والشقاق بين أم الزوج وشقيقاته من ناحية، وبين الزوجة من ناحية أخرى، أمرًا يعتبر من قبيل المسلمات في صباي، ومن أكثر الموضوعات التي يتندر بها الكاريكاتير في الصحف والمجلات، وهو أمر يعكس أيضًا جانبًا من حالة النساء المصريات في ذلك العصر. كان مما يعتبر من المسلمات في ذلك الوقت أن الأخ مسئول عن تقديم كل أنواع الدعم لشقيقاته كلما احتجن إليه، خاصة إذا كانت الأخت (كما في حالة عمتي) قد فقدت زوجها، وأقل يسارًا بكثير من أخيها. والأخت التي تنظر إلى أخيها هذه النظرة لا بد أن تعتبر زوجة الأخ خطرًا يهدد علاقتها هي به، وهي علاقة

مهمة اقتصاديا بصرف النظر عن أي رباط عاطفي. فإذا كان الأخ ثريًا وواسع الرزق، فإن وجود زوجة الأخ لا بد بالضرورة أن يقلل مما يمكن أن ينال الأخت من خير بسبب هذا الثراء وكثرة الكسب. كان هذا أيضًا سببًا قويًا للغيرة والحسد، خاصة في مجتمع فقير يخلو من أي نوع من تأمين الحياة لدى فقد الأب أو الزوج، أو لدى حدوث كارثة من أي نوع. لم يكن من الغريب، إذن، أن تظل علاقة أمي بعمتي من البداية إلى قرب النهاية، سيئة للغاية، حتى ولو راعت كل منهما الحد الأدنى من الأدب في معاملة الأخرى؛ خوفًا من غضب أبي الذي لم يكن لديه صبر على مثل هذه الأمور.

ذكرت لي أمي، مثلًا، غيرة عمتي منها بسبب كثرة أولادها الذكور. فعندما وصل الأمر إلى حد أن تحمل أمي للمرة الثامنة (وكنت أنا المحمول في هذه المرة)، بل العاشرة إذا أضفنا الولديْن المفقوديْن، هزت عمتي رأسها ومصمصت شفتيْها (على الطريقة الشائعة بين النساء في ذلك الوقت)، أو كما كان يقال: «تصعّبت». وقالت لأبي: «إحنا يا خويا حانفضل نقول لك: مبروك لغاية إمتى؟». لم تنس لها أمي هذه الجملة، وربما كانت من أسباب إصرارها على مقاومة محاولات أبي لإجهاضها.

لم يكن سبب الغيرة في هذه الحالة هو أن عمتي لم ترزق بأبناء ذكور؛ فقد رزقت بأربعة أولاد عاش ثلاثة منهم حتى تجاوزوا الثمانين. وإنما كان الأمر أشبه بالحرب الخفية الدائمة، أي انتصار يحرزه أحد الطرفيْن يعتبر خسارة للآخر. وقد كان هذا الشعور يقترن أحيانًا بدرجة لا يستهان بها من القسوة، ولكنه قد يتخذ أحيانًا صورًا بالغة الطرافة.

زارتنا عمتي مرة في الإسكندرية، وقررت أمي أن تستيقظ مبكرًا للذهاب للاستحمام في البحر، أو بعبارة أدق مجرد النزول إلى الماء وتغطية نفسها به لبضع دقائق. لم يكن من المألوف وقتئذ أن تنزل امرأة إلى البحر بملابسها كاملة كما نرى كثيرًا اليوم. إذ مهما بلغ حرص المرأة على الاحتشام في ذلك الوقت، كانت تخلع ملابسها وترتدي لباس البحر، وإن كان هذا يقترن باحتياطات مبالغ فيها. كان «الاستحمام في البحر» يعني الاستيقاظ عند أول مطلع للشمس والوصول إلى الشاطئ عندما يكون خاليًا من الناس تمامًا، ومن ثَمَّ لا يمكن أن يرى أحد أمي وهي تخلع الروب البشكيرى

(البرنُس) وتعطيه للخادمة التي جاءت بصحبتها لهذا الغرض بالضبط، أي أن تقف عند نقطة ملامسة البحر للشاطئ لتتسلم هذا البرنس منها قبل أن تختفي أمي بسرعة في الماء. ثَمَّ تعود الخادمة فتدخل بضع خطوات أخرى في الماء لتعيد البرنس إلى أمي حتى تغطى نفسها قبل أن تخرج تمامًا من الماء.

أرادت عمتي مرة أن تفعل نفس الشيء مع أمي، وأتت معها بنت أخيها المتوفى التي كانت تحمل لعمتي شعورًا مماثلاً لما تحمله لها أمي. خرجت أمي من البحر وجلست على الشاطئ بجوار ابنة عمى تراقبان عمتي وهي واقفة في الماء. ثم فوجئنا بعمتي وقد أرادت الخروج من البحر تسير في الاتجاه المعاكس بسبب ضعف بصرها، وإذا بها تتوغل بعيدًا عن الشاطئ ظنًّا منها أنها تقترب منه. صاحت أمي بها لتخبرها بأن الشاطئ في الناحية الأخرى؛ فأنقذتها بهذا من غرق محقق. ولكن المرأتيْن الشريرتيْن استغرقتا في الضحك قبل أن تصل عمتي إليهما. وإذا بابنة عمي تقول لأمي وهي في غاية المرح: «كنتي تسيبيها!».

أذكر أيضًا أمي وهي مستغرقة في الضحك في مناسبة أخرى، عندما سمعت أن عمتي فتحت فمها وهي تتثاءب فلم تستطع إغلاقه، وظلت على هذه الحالة حتى صحبها ابنها إلى الطبيب فضغط بيده على جانبي الوجه فتحرك الفك واستطاعت عمتي أن تغلق فمها. من السهل طبعًا أن يخمن القارئ ما يمكن أن يصدر من أمي من تعليقات أثناء استغراقها في الضحك، على فتح الفم وغلقه في حالة عمتي بالذات؛ إذ ما أكثر ما عانت أمي من فتح هذا الفم بلا ضرورة، وكم كانت تتمنى لو ظل مغلقًا.

كانت أمي أيضًا مغرمة بتقليد عمتي وهي تحاول التظاهر بأنها ضعيفة الصحة كثيرة العلل، بينما هي في نظر أمي قوية شديدة البأس ليس بها أي علة على الإطلاق. كنت كثيرًا ما أسمع عمتي عندما تأتى لزيارتنا وهي تشكو من ضعف رغبتها في الأكل، فإذا قضت الليلة في بيتنا كان أول ما تقوله في الصباح: «والنبي أنا ما شفت النوم بعيني». كان الهدف من هذا الزعم وذاك هو بالطبع منع الحسد، ولكن أمي كانت تتساءل بمجرد انصراف عمتي: «من أين، إذن، جاء ذلك الشخير الذي لم ينقطع طوال الليل؟».

وكانت أمي تؤكد لنا أيضًا أن عمتي تنهي غذاءها، عندما تكون وحدها، بالتهام ما لا يقل عن عشرين برتقالة، وأن هذا هو سر تمتعها المستمر بالصحة والعافية.

* * *

ثم حدث ما أدى إلى تدهور علاقة أمي بعمتي تدهورًا خطيرًا. ذلك أن ابن عمتي هذه تقدم لأبي ليخطب إليه أختي نعيمة. كان مثل هذا الزواج شائعًا في ذلك الوقت أكثر بكثير منه الآن: أن يتزوج الشاب ابنة خاله أو عمه، ولكن في هذه الحالة بالذات كانت الفكرة جذابة للغاية؛ إذ إن الخال (أي أبي) رجل ميسور مرموق، وذو نفوذ. وافق أبي دون تردد، ولكن أمي انزعجت لذلك انزعاجًا شديدًا وإن لم يكن لديها أي أمل في إثناء أبي عن رأيه. كانت متأكدة من أن عمتي هي صاحبة هذه الفكرة، وأنها هي التي دفعت ابنها دفعًا للتقدم للزواج، وكان معنى إتمام هذا الزواج أن تحصل العمة على سلاح جديد مهم في معركتها المستمرة مع أمي؛ إذ إن البنت الآن واقعة في دائرة نفوذها، ويمكن عن طريقها التأثير في الأب وإغاظة الأم.

كظمت أمي غيظها رغمًا عنها؛ إذ لم يكن أمامها طريق آخر، ولكنها ظلت طول حياتها تسيء معاملة زوج ابنتها في كل فرصة تتاح لها، وانعكس هذا بالضرورة على علاقتها بأحفادها من هذا الزوج، بل على علاقتها بابنتها نفسها. فالبنت، وإن كانت كثيرًا ما تأتى لأمها لتشكو من زوجها لسبب أو لآخر، كانت في قرارة نفسها تتمنى ألا يصل العداء بين أمها وزوجها إلى هذا الحد. كان الأمر في نظر أمي لا يزيد على أن أختي قد انضمت بزواجها إلى معسكر الأعداء، وهو أمر يستدعى الأسف بالطبع، ولكنه أيضًا يستدعى توسيع دائرة القتال.

ولكن الزمن في النهاية هو بلسم جميع الجراح. فمع تقدم أمي وعمتي في السن؛ انشغلت كل منهما بصحتها أكثر من انشغالها بالتنغيص على الأخرى. وقد نجحت عمتي في الاحتفاظ بصحة جيدة لوقت أطول كثيرًا من أمي، وظلت أمي تشير إلى هذا الفارق بغيظ أيضًا. وسألت الطبيب مرة: لماذا ترى بعض النساء اللاتي يتقدم بهن العمر (وهي تقصد عمتي بالطبع) يحتفظن بصحة جيدة، بينما هي، وهي الأصغر كثيرًا، تتردى صحتها عامًا بعد عام؟ رد عليها الطبيب ردًّا لم يعجبها؛ إذ قال لها إن هناك أيضًا من النساء من هن أصغر منها سنًّا وأسوأ صحة.



أنا وأمي وبيننا فلّاحة في كمشوش (حوالى ١٩٥١)

عندما مات أبي فقدت عمتي أهم وسيلة يمكنها عن طريقها التنغيص على والدتي، واستمرت العمة في زيارتنا حتى بعد وفاة أبي؛ تأدية لواجب أو حتى للتسلي بالحديث. وقد صدرت مني مرة جملة قلتها لأمي ومعناها إنه يسرني رؤية عمتي من حين لآخر لشدة شبهها بأبي؛ فهي تذكرني به. ونقلت أمي في لحظة صفاء، هذه الجملة لعمتي وإن كانت قد صاغتها بطريقتها فقالت إن «جلال» يقول: «لأنك من ريحة أبويا»، وهو ما سرت العمة بالطبع بسماعه.

-٢-

تدهورت صحة أمي بعد وفاة أبي بسرعة؛ إذ شعرت بوحدة شديدة بعده مع تفرق أولادها في كل مكان. كان أخي محمد يدرِّس في جامعة الإسكندرية، ويعيش هناك مع زوجته وأولاده ولا يأتي إلى القاهرة إلّا لمامًا، وأخي عبد الحميد كان يحضِّر دكتوراه ثانية في ألمانيا، وأحمد يتمرن في شركة سيموندس في ألمانيا أيضًا، وفاطمة مع زوجها في لندن؛ حيث كان يعمل في مكتب البعثات، وحسين في لندن أيضًا

يعمل في الإذاعة البريطانية. كان لازال ثلاثة من أولادها بجوارها في مصر، أنا وحافظ ونعيمة، وكنت أنا الوحيد منهم الذي لم يتزوج بعد، ولكني كنت قد تخرجت وتوظفت ولم أعد في حاجة إلى رعايتها المستمرة. مع ازدياد شعورها بقلة أهمية الوظيفة التي تؤديها في الحياة؛ زاد إهمالها لصحتها. واشتد قلقي عليها، فمع وفاة أبي وتدهور صحتها شعرتُ باقتراب الموت من أمي، وكنت أستيقظ أحيانًا مذعورًا من فكرة أني قد أفقد أمي أيضًا. حاولت في السنتيْن الأخيرتيْن أن أجد طريقة أو أخرى لتسليتها، ولكنها أصبحت عازفة عن الخروج وتجد عناء في القيام بأي جهد. نجحت مرة في إقناعها بالمجيء معي إلى رأس البر حيث اتفقت مع صديق لي على الذهاب وجاءت هي معنا، ولكنها أصرت على عدم النزول في الفندق الفاخر الذي نزلت وصديقي فيه وكانت حجتها أنها لن تجد فيه من تستطيع أن تكلمه، وفضلت فندقًا شعبيًّا ومتواضعًا للغاية وجدت فيه سيدتيْن في مثل سنها يمكنها أن تتبادل معهما الكلام. وكنت أمر عليها قرب المغرب من كل يوم بعد انتهاء الاستحمام في البحر، وأحاول أن أقنعها بالتمشية معي على النيل، فإذا قبلت كانت تطلب مني التوقف كل بضع خطوات لالتقاط الأنفاس أو الجلوس على أحد المقاعد المرصوصة على الطريق.

كانت أمي على هذا الحال عندما سافرت في بعثتي إلى إنجلترا في يناير ١٩٥٨، بعد وفاة أبي بثلاث سنوات، ولم تستطع النزول لتوديعي وأنا أركب السيارة للذهاب إلى محطة القطار، واكتفت بالتلويح لي من الشرفة. تصورت ما يمكن أن يدور بخلدها في تلك اللحظة. «هاهو الابن الأصغر يسافر هو الآخر، في سلسلة طويلة من الوداع والاستقبال، ولكن يبدو أن هذه هي المرة الأخيرة».

كانت بالفعل هي المرة الأخيرة التي رأيتها فيها. ظللت لأكثر من عام وأنا في إنجلترا أتلهف على خطاب منها، وهي لا تكتب إلّا على مضض استجابة لإلحاحي عليها بالكتابة بنفسها وعدم الاكتفاء بما يقوله أخي حسين عن صحتها. وهي إذا كتبت تكتب خطابًا قصيرًا للغاية وإن كان بخط جيد وواضح، وتكرر عبارتها المعتادة «كل شيء على ما يرام، ولا ينقصنا إلّا رؤياك»، مع التأكيد عليَّ أن أحترس من البرد.

جاءني خبر وفاتها في مايو ١٩٥٩ في خطاب حزين من حسين. ولا بد أن أعترف،

مع ذلك، بأنه على الرغم من كل ما كنت أشعر به من قلق وخوف عليها قبيل وفاتها، جاءني الخبر وأنا في حالة مختلفة تمامًا. كنت قد دخلت قبل وصول الخطاب بنحو أسبوع في علاقة حميمة مع فتاة إنجليزية، بعد حرمان طويل، أشعرتني بثقة كبيرة في نفسي، فلما علمت بالخبر كان وقعه عليَّ أخف بكثير مما كنت أتوقع. ظللت سنوات طويلة، بعد هذا، أشعر بالذنب لضعف استجابتي لمشاعر الحزن لوفاة والدتي، وقد كانت ملاحظتي لضعف استجابتي لهذا الخبر هي أول ملاحظة في سلسلة طويلة من الملاحظات التي أكدت لي أن الإنسان هو في أعماقه كائن وغد. وأظن أن هذا الشعور بالذنب استقر في اللاشعور إلى ما بعد عودتي إلى مصر من البعثة؛ إذ تكرر قيامي من النوم منزعجًا ومكتئبًا جدًّا، ربما ثلاث أو أربع مرات خلال ما يقرب من عشر سنوات؛ بسبب حلم فظيع كان يتكرر كما هو بالضبط في كل مرة، على الرغم من ندرة ما أذكره من أحلام طوال حياتي. كان الحلم يسير كما يلي: «عدت من البعثة وسكنت وحدي لسبب غير واضح، في شقة بعيدة عن البيت الذي تعيش فيه أمي، وحدها أيضًا. وفي كل يوم أقول لنفسي: يجب أن أزور أمي اليوم؛ إذ إني لم أزرها منذ عودتي من البعثة، ثم لا تتحقق الزيارة. ويتكرر هذا يومًا بعد يوم حتى ماتت دون أن أراها».

(٣)

أبي وأولاده

-١-

كانَ أبي، مع كل قوته وجبروته، ضعيفًا مثل أمي إزاء أي أذى يمكن أن يلحق بأي ولد أو بنت من أولاده. لقد وصف مشاعره في هذا الصدد بوضوح في كتاب «حياتي»، وأنا أعرف أنه في هذا القول، كما كان في غيره، صادق مائة بالمائة. كان يصف رحلة قام بها إلى إستانبول، استغرقت أربعين يومًا، فكتب (وكان يعتمد على مذكرات كتبها أثناء الرحلة):

«أحسست عند مقارنتي لرفقائي في السفر أنني أكثرهم تحفظًا وأقلهم مرحًا وأشدهم حنينًا إلى أهلي ووطني، واعتزمت أن أنصف أهلي وولدي عند عودتي؛ فأكون معهم ألطف وأعطف، وأرق، وأحسن معاملة، وأكثر مرحًا».

كانت أمي أيضًا تقول لنا ما يؤكد هذه الحقيقة. ذلك أنها، في لعبة توازن القوى التي استمرت طوال حياتهما معًا، كانت تشعر دائمًا بأنها الطرف الأضعف، ثَمَّ اكتشفت نقطة ضعف فيه عملت، باعترافها هي، على استغلالها لصالحها، وهي ضعفه إزاء الأولاد. كانت إذا سافر أبي في رحلة طويلة بعد شجار نشب بينهما، تتعمد إثارة قلقه على الأولاد، فلا ترد على خطاباته وأسئلته المتكررة عنا. كانت تقول لنا ذلك بخبث وهي تضحك، ونحن واثقون من أنها قادرة على ذلك.

كان أبي قد تلقى نفس هذا الشعور بالعطف على الأولاد والخوف عليهم، من أبيه وأمه، ولكن على الأخص من أمه، التي يقول عنها في سيرته الذاتية:

«عاملها أبي معاملة شديدة قاسية، سلبها كل سلطتها وكبت شخصيتها وحرمها دائرة نفوذها، وطغى بشخصيته على شخصيتها فعاشت كسيرة القلب منقبضة النفس، لا يحملها على البقاء في البيت إلّا حبها لأولادها، فكانت تحتمل ذلك كله وتطيل الاحتمال، وتصبر وتطيل الصبر، وتحنّ علينا، وإذا غضب علينا أبونا احتمينا بحنوّها وأنسنا بعطفها».

لم يكن أبي، إذن، في هذا العطف الشديد علينا يختلف عن أمه وأبيه، ولكنه بلا شك ورث أيضًا من أبيه طريقة إخفائه. كان أبي ينتمي إلى جيل يحتقر بشدة تدليل الأولاد (والزوجات أيضًا)، ويعتبر أي نوع من تدليل الأولاد طريقًا أكيدًا لإفساد الولد والبنت إلى الأبد، ويعتبر تدليل الزوجة بأي صورة نقصًا في الرجولة. وأظن أن أبي بالغ في تجنب التدليل في الحالتيْن، أكثر من اللازم، فلم نكتشف مدى عطفه وحبه لنا إلّا في وقت متأخر جدًّا، ودفع هو للأسف ثمنًا عاليًا لكتمان عواطفه.

كان يقول لنا إنه لا يمكن أن يقصّر في بذل أي جهد أو مال يلزم لتحقيق أحد أمريْن لا ثالث لهما: التعليم والصحة. وكان يقصد بهذا القول تبرير رفضه لأي طلب من جانبنا فيه شبهة الرفاهية أو رغبتنا في مجاراة أصحابنا في الإنفاق. وأظنه لم يجانب الصواب في هذا، ولكني أعتقد أنه قصّر في شيء آخر كان يجب أن يضيفه إلى التعليم والصحة، وهو مجرد تبادل الحديث معنا والاستعداد لسماع أخبارنا الصغيرة والضحك على ما يضحكنا. لم يكن لديه لا الوقت ولا الاستعداد النفسي لذلك، ولذلك ظل أبي مرهوب الجانب يفرض علينا حضوره التزام الأدب وضبط النفس بمجرد أن نسمع صوته لدى وصوله إلى أول السلم.

ومع ذلك فإني أشهد له بأنه صنع كل ما يمكن أن يطلب منه وأكثر في سبيل تعليمنا أحسن تعليم، وأنفق عن طيب خاطر كل ما يتطلبه علاج أي من أولاده على يد أكبر الأطباء. ومن جانبنا نحن، لم يخيب أحد منا أمله في الأداء المدرسي، باستثناء وحيد هو حالة أخي أحمد الذي ظل مصدرًا لقلق أبي حتى تخرج بشق الأنفس من الجامعة. ولكن قصة أبي مع أحمد قصة معقدة ولا تخلو من طرافة.

-٢-

لم يكن أحمد بأي حال أقل من أي من إخوته السبعة في الذكاء أو سرعة الفهم أو حسن التصرف، كما اكتشفت بعد أن كبرت وزال عنى وهم اعتبار الأداء المدرسي مقياسًا جيدًا للذكاء. كان فقط غير شغوف بالكتب، بعكسي أنا وحسين، وأكثر منا شغفًا بالناس. كان التحدي الذي يجذب اهتمام أحمد، ليس تحدى الكتاب الصعب أو القصيدة المعقدة، بل تحدي العلاقات الاجتماعية، واكتشاف الطريقة المثلى للتعامل مع الناس. لم تكن لتستهوي أحمد، إذن، المقررات الدراسية فتكرر رسوبه. واحتار أبي في تفسير اختلاف أداء أحمد في المدرسة عن أدائنا جميعًا، ثَمَّ وصل إلى الاعتقاد بأن العيب في أصحابه، وأنهم هم أصدقاء السوء الذي يجب إبعادهم عنه. ولكن الحقيقة أن أصحابه أيضًا لم يكن فيهم عيب إلّا هذا العيب: الشغف بالناس أكثر من الشغف بالكتب. ومع هذا ظل أحمد يساير أبي ولا يعترض على تفسيره، ويعده بما يعرف في داخل نفسه أنه لا يمكن أن ينفذه.

كان أبي، على الرغم من حكمته وسعة معارفه، يتصرف أحيانًا تصرفات مدهشة أو تصدر عنه أحكام تبدو لنا أحيانًا ساذجة للغاية، دون أن نجرؤ بالطبع على التعبير عن رأينا فيها. قرر، مثلًا، بعد تفكير طويل في مشكلة أحمد أن أحمد «ضعيف الشخصية»، وأن هذا هو السبب في عجزه عن التخلص من أصدقاء السوء والتفرغ للمذاكرة. وصدرت من أبي مرة عبارة لم يكن باستطاعة أحد منا أن يأخذها مأخذ الجد؛ إذ قال لأحمد: «إنه يجب أن يحاول أن يقوّى شخصيته في إجازة الصيف!». وقد ظلت هذه العبارة تثير ضحكنا كلما تذكرناها، ومعنا أحمد نفسه، ولكن من وراء ظهر أبي بالطبع.

خطرت لأبي أيضًا فكرة جهنمية أثناء استعداد أحمد للامتحانات النهائية في كلية الهندسة، وهي فكرة كانت تلح عليه منذ شبابه وظلت تراوده بين الحين والآخر، ولا يقبل أن يصدق أنها فكرة خيالية تمامًا ويستحيل تطبيقها. كان في شبابه قد تعرف إلى سيدة إنجليزية اسمها Miss Power، كبيرة السن وتعيش وحدها، وكانت تعطيه

دروسًا في اللغة الإنجليزية، وتعامله كما لو كان ابنها، ولكن طرأ عليها فجأة تطور غريب يصفه أبي في «كتاب حياتي» على النحو التالي:

«لا أدرى ما الذي انتابها، فقد رأيتها تكثر من القراءة في كتب الأرواح، ثَمَّ تمعن في قراءتها، ثم تذكر لي أنها خصصت كل يوم ساعتيْن تغلق عليها حجرتها وترخي ستائرها وتغمض عينيْها، وتركّز روحها في مريض تعالجه وهو في داره وهي في دارها. أو تجرب تجربة أخرى، أن ترسل من روحها إشارة لاسلكية لصاحب لها تنبئه أن يحضر أو لا يحضر... وقد نجحت في بعض الأحوال دون بعض، فلم تشأ أن تعتقد أن هذا مصادفة، ولكنها اعتقدت أن نجاحها فيما نجحت فيه كان لأن الأمر قد استوفى شروطه، وما لم تنجح فيه لم تستكمل عدته، فزاد اجتهادها وطالت ساعات عزلتها، وأمعنت في تركيز روحها. كل ذلك وأنا أنصحها ألا تفرط في هذا خشية عليها فلا تسمع؛ لأنها تأمل من ذلك في نجاح باهر».

يبدو أن الفكرة التصقت بذهن أبي، واعتقد أنها قد لا تكون مستحيلة، وإن كان عندما يشرحها لنا يبدو عليه أنه نصف مصدق لها ونصف مكذب. في اليوم السابق لامتحان أحمد فاجأنا بقوله له إنه سوف يرسل إليه «نجدة» خلال الامتحان، فسأله أحمد عما يقصد بالضبط. فابتسم قائلاً إنه سوف يركّز ذهنه تركيزًا شديدًا للاتصال بأحمد أثناء تأديته للامتحان، بالفكر لا بأي شيء آخر، وأن هذا يمكن أن يساعده في الإجابة. ضحك الاثنان، ولكن أبي لم يكن يقصد مجرد الضحك، فقد قال مثل هذا قبل هذه المرة. وعندما عاد أحمد من الامتحان سأله أبي: «هل جاءتك النجدة؟» فرد أحمد إجابة مقتضبة لا تعنى شيئًا على الإطلاق مثل: «آه، يعنى، برضه!».

عندما أتذكر هذه القصة الآن أميل إلى ترجيح التفسير الآتي، وهو أن أبي كان لديه دائمًا استعداد للاعتقاد في وجود عالم روحي إلى جانب أو وراء ما يحسّه من العالم المادي. جرّب التصوف في مطلع شبابه، وهاهو في شيخوخته يختبر قدرة ذهنه على الاتصال عن بعد دون أي واسطة مادية. المهم أن أحمد نجح وتخرج وانتهت المشكلة، ولم يذهب أبي إلى حد الادعاء بأن هذه «النجدة» الفكرية كانت وراء نجاحه.

-٣-

لم يسبب أي من الأولاد بعد ذلك أي مشكلة لأبي في الدراسة، فقد ورثت أنا وحسين من أبي الشغف بالكتب، ولاحظ هو ذلك فشجعنا على القراءة. كان أخي حسين قد تعرّف في سن مبكرة على الأدب الإنجليزي فأخذ يقرأ فيه بشراهة، وكذلك ما تقع عليه يده من كتب الأدب الفرنسي والألماني والروسي المترجمة إلى الإنجليزية. ولكن هذا الشغف من جانب حسين بالقراءة في مختلف أنواع الكتب، وإن كان قد سرّ والدي بشدة، فسرعان ما خلق مشكلة ليست بالهينة. فحسين كان إذا أعجب بكاتب أو أديب تحمس له لدرجة تملك عليه نفسه، فيظن أن هذا هو الأديب ولا أديب غيره، وأن كل شخص منا يجب أن يترك كل شيء ليتفرغ لقراءته، أو أنه لن يقرأ لكاتب آخر بعد الآن، إذ ما الفائدة وقد قال هذا الكاتب كل شيء... إلخ؟ وهو موقف قد لا يضايق الأب، بل قد يسره أن يرى ابنه يعشق الأدب إلى هذه الدرجة، ولكنها في حالة حسين كانت مصدرًا حقيقيًّا لقلق أبي.

فقد حدث، مثلًا، قبل الامتحان النهائي للسنة الثالثة في كلية الحقوق بيومين أو ثلاثة، أن أنهى حسين قراءة رواية الحرب والسلام لتولستوي، التي شغلته طويلًا عن الاستعداد للامتحان، ثم خرج إلينا وأعلن أنه قد أتم لتوه قراءة أعظم كتاب في الوجود، وأنه لهذا السبب اتخذ قرارًا لا رجعة فيه وهو عدم دخول الامتحان وتحويل أوراقه ابتداء من السنة القادمة إلى كلية الآداب، إذ ما جدوى إضاعة الوقت في هذه الدراسة السخيفة لقوانين المرافعات والقانون الإداري... إلخ؟ إنه سيدخل كلية الآداب ويتفرغ للأدب ويكتب رسالة الدكتوراه عن رواية الحرب والسلام.

كنا قد تعودنا من حسين مثل هذا التصرف، وأنه لا يلبث أن يهدأ بعد بضعة أيام ويتحمس لشيء آخر، ولكن أبي انتابه قلق حقيقي؛ لأن الأيام الباقية قبل الامتحان قليلة جدًّا، وإذا استمر حسين في إهماله لمراجعة دروسه فربما حدث ما لا تحمد عقباه. غضب أبي غضبًا شديدًا من هذا الكلام الفارغ عن التحويل من كلية الحقوق

إلى الآداب، وأمر حسين بالدخول فورًا إلى حجرته للمذاكرة، وألا يقرأ كلمة واحدة في غير مقررات الحقوق حتى انتهاء الامتحانات.

قام حسين متثاقلًا وحزينًا، وعندما دخلت عليه بعد ساعة لأرى ما يفعل، رأيته ممسكًا بكتاب في القانون المدني، ولكنه كان يرسم على الهامش صورة رجل عجوز بلحية كثيفة تشبه لحية تولستوي، وقرأت الفقرة المقابلة للرسم في الكتاب فإذا بها تقول: «وقد دار برأس المشرّع أن يحتاط لهذا الأمر...» ونظرت مرة أخرى إلى الصورة التي رسمها حسين إلى جانب هذا الكلام فإذا بحسين قد كتب تحتها: «رأس المشرّع!».

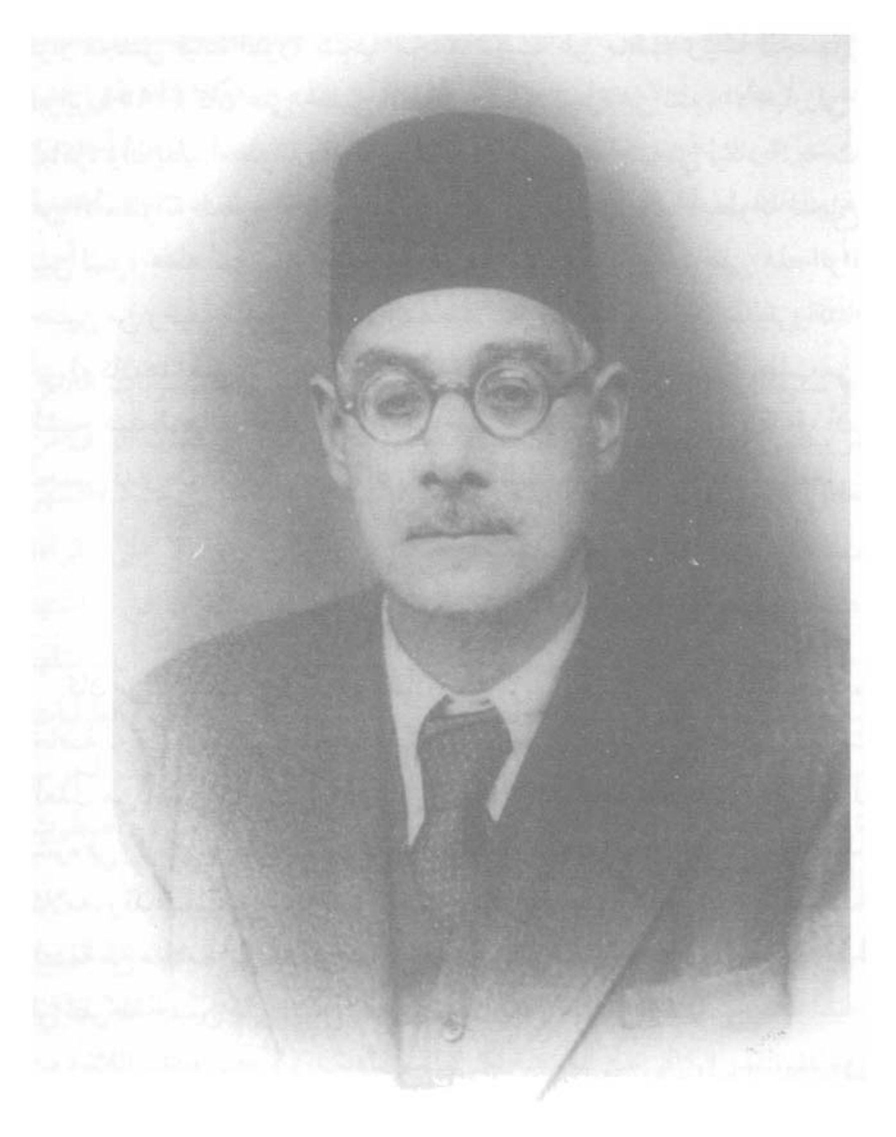
تخرج حسين من كلية الحقوق بسلام، ولكنه لم يكف عن إثارة المشاكل لأبي. من ذلك ما فعله مع صاحب مكتبة النهضة المصرية، التي كانت تقوم بمهمة الناشر والموزع لمعظم كتب أبي. وكان صاحبها رجلًا مثقفًا لطيفًا حرص على أن يأتي لمكتبته بشارع عدلي بأهم الكتب الإنجليزية بمجرد صدورها، وأن يعرضها على أبي وعلى حسين كلما زارا مكتبته، فخورًا بأن مكتبته هي الوحيدة في مصر التي تستورد مثل هذه الكتب. ولاحظ أبي افتتان حسين بهذه الكتب، فقال لصاحب المكتبة إنه يسمح لحسين بأن يأخذ ما يشاء من الكتب وأن تخصم قيمتها من حساب أبي. دهش أبي بعد بضعة أشهر عندما وجد حسابه لدى مكتبة النهضة يتضاءل بسرعة بسبب ما أخذه حسين من كتب. ولكن الصدمة كانت شديدة عندما ذهب مرة إلى المكتبة فوجد حسابه فيها سالبًا لنفس السبب. وعندما استفهم من صاحب المكتبة عن الكتب التي اشتراها حسين رأى أن آخرها أربعة مجلدات فاخرة تتضمن ترجمة إنجليزية ليوميات الكاتب الفرنسي أندريه جيد، الذي كان حسين قد شغف به مؤخرًا. لم يكن سبب ثورة أبي هو فقط ارتفاع الثمن، وعدم استئذان حسين له عند شراء كتاب بهذا الثمن، ولكن زاد الطين بلة أن أبي كان قد سمع أن أندريه جيد لديه انحرافات جنسية ولم يكن يحب أن يقرأ حسين عنها. أمر أبي حسين بإعادة الكتاب وأن يعده بألا يقرأ في مذكرات أندريه جيد، لا اليوم ولا في أي وقت في المستقبل.

* * *

تخرج الأولاد جميعًا من الجامعة قبل وفاة أبي، فيما عداي. ولكن أبي لم يجد أي سبب للخوف من ألا أتمكن أنا أيضًا من إتمام دراستي الجامعية. كما أنه لم يجد أيضًا أي سبب للخوف من عدم حصول أي منا على وظيفة محترمة بعد التخرج إلّا في حالة حسين أيضًا. لم يتخرج حسين من كلية الحقوق بتفوق، للأسباب التي سبق لي شرحها، ولعدم شعوره بأي شغف نحو دراسة القانون. لم تكن لديه، إذن، لدى تخرجه أي فرصة للالتحاق بالوظائف المرموقة لخريجي الحقوق، كوظيفة معيد بالجامعة أو مندوب بمجلس الدولة أو وكيل نيابة كخطوة في السلك القضائي. احتار أبي ماذا يصنع، ثَمَّ اتصل بأكبر محام جنائي في مصر، وهو الأستاذ علي بدوي، وكانت قد طبقت شهرته الآفاق وتداول الناس القصص عن مهارته وعبقريته، وعن قدرته على تخليص أي مجرم من حبل المشنقة، حتى قيل إن صاحب الثأر في الصعيد، إذا قرر أن ينتقم ويثأر لنفسه بيده، كان يعلن عن تصميمه هذا بقوله: «إن دية هذا الأمر لا تزيد عن مائة جنيه تعطى لعلي بدوي، فيخلصني من العقاب!».

اتصل أبي بعلي بدوي، وكان كل منهما يقدر الآخر ومعجبًا به، فرجاه أبي أن يقبل «حسين» في مكتبه محاميًا تحت التمرين، وكان هذا من أصعب الأمور في ذلك الوقت، خاصة في مكتب محام كبير مثل علي بدوي، فإذا حصل خريج الحقوق على مثل هذه الفرصة فإنه كان عادة يعمل دون أجر مكتفيًا بما يحصل عليه من خبرة ومران. ولكن أبي كان يعرف أن «حسين» لن يرضيه هذا، فرجا علي بدوي، فضلًا عن قبوله لحسين متمرنًا في مكتبه، أن يتظاهر بأن هناك مكافأة قدرها خمسة جنيهات تدفع للمحامي تحت التمرين، ودون أن يدفع علي بدوي نفسه هذا المبلغ، بل يعطيه له أبي في أول كل شهر، فيعطيه علي بدوي لحسين بدوره وكأنه منه، وذلك على سبيل تشجيع حسين ورفع معنوياته. وقَبِلَ علي بدوي هذا الرجاء صاغرًا، إذ لم يكن بوسعه أن يرفض لأبي طلبًا، ولكن «حسين» لم يستمر في العمل معه أكثر من ثلاثة أسابيع، أعلن بعدها أنه لا يستطيع أن يقبل الدفاع عن مجرمين وهو يعلم أنهم مجرمون.

ثم أعلن حسين بعد هذا أنه سيتقدم للالتحاق بالإذاعة المصرية، فهي الوظيفة التي يتمناها. وفعلًا نجح في امتحان الإذاعة وأصبح مذيعًا، وقدم بعض البرامج الطريفة



أحمد أمين (حوالي ١٩٤٠)

والناجحة جدًّا، وإن كان رئيسه قد لفت نظره مرة إلى أنه في برنامج موجه للفلاحين نطق كلمة (قريش)، عند الكلام عن نوع الجبن الأبيض الذي يأكله الفلاحون، وكأنها اسم القبيلة العربية الشهيرة. ولكن كان الذي أثار رئيسه عليه حقًّا ما فعله حسين في فترة الخلاف بين محمد نجيب وعبد الناصر. ففي اليوم الذي أعلن في الإذاعة

قرار مجلس قيادة الثورة بتنحية محمد نجيب عن منصبه رئيسًا للجمهورية (في فبراير ١٩٥٤) كان على حسين أن يلقي الخبر كجزء من نشرة الأخبار في الصباح الباكر، وأن يدير أسطوانة بعد نشرة الأخبار هي نشيد حماسي لشادية. بحث حسين عن الأسطوانة المقرر إذاعتها فلم يجدها، فوضع بدلًا منها أسطوانة لنجاح سلّام، تبين لسوء حظه أنها تحتوى على مدح لمحمد نجيب. ترتب على هذه الواقعة نقل حسين من وظيفة مذيع إلى قسم التسجيلات؛ مما أصابه بحزن شديد واكتئاب دفعا أبي (وكان هذا قبل ثلاثة أشهر من وفاته) إلى التدخل من جديد وأن يطلب من صديقه الشيخ عبد الوهاب خلاف، وكان صاحب نفوذ كبير لدى مدير الإذاعة، أن يتوسط لحسين لدى المدير لكي يعيده إلى صفوف المذيعين، وهو ما حدث بالفعل.

ـ ٤ ـ

كان أبي بلا شك رجل مبادئ. كان رجلًا نزيهًا وعادلًا، مستعدًا للتضحية بمصلحة خاصة له في سبيل المصلحة العامة، أو في سبيل ما يعتقد أنه العدل. وكانت كلمة العدل من أكثر الكلمات ترددًا على لسانه، وقد ذكرها طه حسين في المقال الذي نشره في رثاء أبي، حين قال إن أصدقاءه كانوا يسمونه «العدل» لكثرة ما كان يذكره في كلامه. وقد فهمت من ثنايا السطور التي كتبها طه حسين عن ذلك أن شعوره نحو هذه الصفة من صفات أبي كان مزيجًا من التقدير والإشفاق؛ إذ كان يرى أبي يفرط أحيانًا ـ في نظر طه حسين على الأقل ـ في التمسك بما يعتقد أنه العدل.

ولكن يبدو أنه مهما كانت قوة تمسك المرء بمبادئه وحبه للعدل، لا بد أن تكون لهذا الأمر حدود إذا تعلق بما فيه مصلحة مهمة لأولاده. سمعت أبي أكثر من مرة يقول بشيء من الحزن الحديث الشريف: «إن الولد مجبنة مبخلة»، أي أن من له أولاد يميل إلى أن يكون أكثر جبنًا وأقل كرمًا ممن لا ولد له. ولا شك أن أبي كان يقول ذلك متأثرًا بتجاربه؛ إذ لا شك أنه شعر أنه لولا كثرة أولاده لاتخذ مواقف أكثر جرأة في مواجهة أصحاب السلطة، ولما قَبِلَ أن يقوم بأعمال تدرّ عليه دخلًا أكبر على الرغم من كراهيته لها. ولكني ما كنت أَظن أن أبي قد ضحى قط باعتبارات «العدل» في

سبيل تحقيق مصلحة ولد من أولاده، فاستخدم نفوذه أو صلاته بأصحاب النفوذ؛ لكي يحصل لأحد من أولاده على ميزة كان غيره أولى بها منه. هكذا كان ظني حتى أخذت أستعرض في ذهني ما يمكن أن يكون قد فعله أبي لتحسين فرص أحد من إخوتي في الحصول على وظيفة مرغوبة، وما إذا كان قد استخدم صلاته الشخصية لتمكين أحد منا من الحصول على مثل هذه الفرصة، فتذكرت أولاً ما فعله من أجل حسين، ولكني تذكرت أيضًا أمثلة أخرى أكثر أهمية وأبعد أثرًا.

كانت شقيقتاي، فاطمة ونعيمة، تنتميان إلى جيل من النساء المصريات اللاتي لم يخطر ببالهن قط أن مصيرهن الاشتغال بوظيفة من أي نوع أو كسب الرزق من القيام بعمل خارج المنزل. كان الهدف هو بالطبع الزواج وتكوين أسرة والسهر على مصالح الزوج والأولاد. كانت شقيقتي الكبرى فاطمة أكثر إقبالًا على القراءة وأشد اهتمامًا بالمسائل العامة والمشكلات النظرية، ومن ثَمَّ استمرت في دراستها بنجاح حتى أتمت الدراسة الثانوية، بل ذهبت إلى حد الإلحاح على أبي أن يرسلها لاستكمال دراستها في أوربا فاستخدم نفوذه لكي تنضم فاطمة إلى بعثة من الطالبات النجيبات إلى باريس. كان هذا في أوائل سنة ١٩٣٩، ولكن سرعان ما قامت الحرب العالمية الثانية واضطرت البنات النجيبات جميعًا إلى الرجوع إلى مصر، واضطرت فاطمة إلى أن تقنع بالزواج.

ولكن استخدام أبي لنفوذه لصالح ابنته فاطمة لم ينتهِ عند هذا الحد. فقد كان الزوج يعرف جيدًا بنت مَنْ هذه التي يتقدم للزواج منها، وكان يهوى الأدب والشعر ولكنه لم يكن يملك القدر الكافي من الموهبة لكي يلمع كأديب، ولا حتى القدر اللازم من المؤهلات لكي يترقى بسرعة في سلم الوظيفة. كان لديه قدر عال من الطموح وقدر كاف من الذكاء قاداه إلى بيت أحمد أمين وإلى الزواج من ابنته. لا يمكن أن أتصور أن ينجح هذا الرجل السعيد الحظ، لولا ذلك، في تحقيق كل هذه الإنجازات الكبيرة: وظيفة مريحة في مكتب البعثات بلندن، تسمح له بالدراسة والحصول على الدكتوراه في الأدب العربي من جامعة أكسفورد، وتحت إشراف أستاذ إنجليزي شهير هو هاملتون جب، ثم يصبح مديرًا للإدارة الثقافية بوزارة التعليم بعد رجوعه، ثم أستاذًا

للأدب العربي لما يقرب من عشرين سنة بجامعة بيروت العربية، ثم مديرًا بالنيابة لهذه الجامعة... إلخ. عندما أتذكره أتذكر رجلًا مهذبًا ومؤدبًا دائمًا، أنيقًا حسن الهندام دائمًا، تصدر منه لكل شخص، كبيرًا كان أو صغيرًا، كلمة مجاملة رقيقة. وكانت أمي تحبّه وتهش له دائمًا بسبب ذلك، ولكني أتذكر أيضًا طريقة معاملته لأبي، وحديثه إليه الممتلئ بعبارات الثناء. لم يكن أبي من النوع الذي ينخدع بسهولة بعبارات الثناء، ولكن لا شك أن مما سهّل مهمة زوج ابنته كثيرًا، اتحاد مصلحة الزوج مع مصلحة البنت، ولم يكن أبي يستطيع أن يصمد كثيرًا أمام هذه الحقيقة، حتى بفرض أن البنت لم تنبس بكلمة واحدة في الموضوع.

لم يكن التوسط لدى وزير أو مسئول كبير في ذلك الوقت للحصول على بعثة دراسية في الخارج بالأمر الخطير على النحو الذي عرفناه فيما بعد. ومن المؤكد أن أبي عندما تقدم بالرجاء والتوسط لصالح زوج ابنته الكبرى للحصول على وظيفة مجزية في لندن هي التي مكّنته من الحصول على الدكتوراه، لم يشعر بأنه يخرق قواعد العدالة، ولا شعر بذلك الوزير أو المسئول الكبير وقتها، مثلما كان من الممكن أن يحدث بعد ذلك ببضع سنوات. نعم، كان الكلام كثيرًا في ذلك الوقت عن المحسوبية والواسطة، وكانت أصوات الاحتجاج والنقد تعلو بشدة إذا حدث وتُخُطى شخص في الترقية إلى وظيفة أعلى، لصالح قريب الوزير أو المسئول الكبير. أما السفر في بعثة فلم يكن يثير هذه الدرجة من الامتعاض والاحتجاج، وبالتالي لم يكن يشعر الحاصل على البعثة بواسطة صاحب نفوذ بالذنب أو تأنيب الضمير، مثلما أصبح الأمر فيما بعد. ربما كان سبب ذلك قلة عدد المتنافسين، أو الشعور الذي كان سائدًا حينئذ بأن المهم هو الحصول على الشهادة نفسها، وليس فرصة الدراسة في الخارج، ومن ثَمَّ إذا استطاع المبعوث بجدّه وكفاءته الحصول على الدكتوراه فهو يستحق ما ناله حتى وإن كانت البعثة نفسها قد جاءته بالواسطة. أو لعل السبب الحقيقي هو أن مصر في سنوات ما قبل الثورة كانت تدار كلها لصالح طبقة صغيرة للغاية يتبادل أفرادها المنافع فيما بينهم، وكانت الغالبية العظمى من أبناء المصريين مستبعدين، ليس فقط من فرص الحصول على بعثات للدراسة في الخارج، ولكن من فرص الدخول إلى الجامعة أصلًا. أما أفراد هذه الطبقة المحظوظة، فلم يكن من

الصعب عليهم إذ حرم أحدهم من فرصة طيبة بسبب تدخل رجل مهم، أن يحصل على فرصة أخرى مماثلة عن طريق تدخل رجل مهم آخر.

تكرر الأمر مع أخي محمد. كان محمد بدوره، أبعد ما يكون عن أن يكون رجل بحث وعلم، ومع ذلك فلا شك أن أبي اعتقد أن الدكتوراه ستفتح له كل الأبواب المغلقة، ولا شك أيضًا أن عقدة تعلم لغة أجنبية وما عاناه أبي لكي يتعلمها وهو في نحو الثلاثين من عمره، جعلاه ينتهز أي فرصة تتاح لأي ولد من أولاده لإتمام دراسته في الخارج. ورحب الابن الأكبر بذلك بالطبع؛ سعيًا وراء كل ما كانت تعد به أوربا في ذلك الوقت من حرية ورخاء. كان طه حسين في ذلك الوقت يشغل مركزًا مهمًّا في وزارة المعارف، يسمح بتحقيق هذا الأمل، فهو الذي جلب لأخي محمد موافقة الوزارة على إرساله في بعثة إلى إنجلترا للحصول على الدكتوراه في الهندسة الكهربائية. ولكن الذي قد يبدو الآن مدهشًا هو أنه لا أبي ولا طه حسين شعرا بأي غضاضة في الأمر. كانت عبارة طه حسين التي قالها لأبي عندما طلب منه مساعدته في حصول ابنه على هذه البعثة تدور حول المعنى الآتي: «إنه لا يتصور كيف ترفض الدولة المصرية الإنفاق على تعليم ابن أحمد أمين الذي قدم كل هذه الخدمات الجليلة للعلم والدولة». إني لا أرى المنطق الكامن وراء هذه العبارة بنفس الدرجة من الوضوح الذي رآه به طه حسين، ولكن من المؤكد أن طه حسين لم يعتبر أن حصول ابن أحمد أمين على البعثة من شأنه أن يحرم منها شخصًا آخر قد يكون أكثر جدارة. كان السؤال في نظر طه حسين هو ما إذا كان هذا الإنفاق، من جانب الدولة، إنفاقًا في غرض شريف ونافع، وقد رآه كذلك فسعى من أجله. ولا شك أن أبي قد وجد من السهل الاقتناع بهذه الوجهة من النظر.

كان أخي عبد الحميد أكثر استحقاقًا بكثير من أخيه الأكبر، بل من أي أخ آخر أو أخت، للسفر للدراسة على نفقة الدولة، فقد كان عالمًا حقيقيًّا بطبعه وأشدنا نبوغًا. ولكن الأمر كان قد أصبح أقل سهولة مما كان، فلم يحصل عبد الحميد على البعثة إلّا بعد عدة شهور من سفره وبدئه الدراسة على نفقة أبي، وبعد أن جاءت التقارير عنه إلى الوزارة من إنجلترا بأنه يسير في دراسته سيرًا حسنًا. ولا أعرف بالضبط دور أبي في حصول عبد الحميد على البعثة الحكومية، ولكني أميل إلى أنه كان له دور

في ذلك أيضًا، على الرغم من أن عبد الحميد كان قد تخرج بتفوق. لم يكن العبء المالي الذي تحمله أبي في الشهور الأولى عبئًا يسيرًا. كان على ما أذكر، يرسل إلى عبد الحميد في لندن أربعين جنيهًا في كل شهر، أي ما لا يقل عن ثلث مرتب أبي، ومن ثَمَّ كان خبر موافقة الوزارة على البعثة خبرًا مهمًّا وسارًّا، وليس فقط لأبي. ذلك أني أذكر جيدًا واقعة مهمة لا تخلو من طرافة على الرغم من أنها وقت حدوثها لم تكن أقل من فضيحة، وأحدثت شجارًا عنيفًا وخصامًا في العائلة استمر شهورًا طويلة. ذلك أنه في أحد الأيام التاريخية في عائلتنا، تجرأت عمتي (أم زكي) التي تكبر أبي في العمر والتي تزوج ابنها من أختي نعيمة، كما سبق أن ذكرت، فدخلت على أبي وقالت له إنها تريد أن تتكلم معه بصراحة في أمر مهم. وبدأت تتكلم فإذا بأبي يسمع منها ما لم تصدقه أذناه، إذ قالت عمتي إنه ينفق على ابنه عبد الحميد مبلغًا طائلًا كل شهر بسبب وجوده في إنجلترا، وأن من حق بقية أولاده، بما فيهم ابنته نعيمة بالطبع، أن تحصل منه على مثل ما يحصل عليه عبد الحميد. لا شك أن تفكير عمتي كان يسير على النحو التالي: أي مبلغ ينفقه أبي غير إنفاقه الضروري، لا بد أن يقلل من حجم ما يمكن أن يتركه لأولاده عند وفاته، وانخفاض حجم التركة سوف يقلل طبعًا من نصيب ابنته نعيمة، التي هي زوجة ابنها. انفجر أبي في ثورة لم نر لها مثيلًا من قبل أو من بعد، وطرد عمتي من بيته شر طردة، فخرجت مذعورة تخشى من بطشه، ويلاحقها صياحه: «هل تريدون وراثتي وأنا على قيد الحياة، يا أولاد الكلب؟».

* * *

كانت عودة أخي عبد الحميد من لندن، حاملًا شهادة الدكتوراه التي حصل عليها بكل استحقاق وجدارة، خلال شهر يوليو ١٩٥٢. وكان على ظهر الباخرة عندما سمع بقيام ثورة يوليو وخلع الملك. وعندما ذهبنا إلى ميناء الإسكندرية لاستقباله لم يأت معنا أبي الذي كانت صحته قد تدهورت، فلم يعد يستطيع بسهولة أن يتحمل عناء الوقوف لاستقبال ابنه العائد من البعثة. ولا بد أن كلا الأمرين: قيام ثورة يوليو وتدهور صحة أبي يفسران إلى حدٍّ كبير لماذا لم يسافر الإخوة الأصغر: حافظ وأحمد وحسين، في بعثة إلى الخارج كما سافر الأخوان الأكبر سنًّا. فقد وضعت الثورة حدًّا لفوضى نظام البعثات في مصر، وأرست قواعد جديدة تتطلب الإعلان عن البعثة،

والسماح لكل من يريد أن يتقدم لها بأن يفعل ذلك، ثم يقارن بين جميع المتقدمين دون تمييز إلّا على أساس أدائهم العلمي عند التخرج وتاريخهم الدراسي. لم يكن مثل هذا النظام يسمح بأن يحصل حافظ أو أحمد أو حسين على بعثة للخارج، ومن ثَمَّ بحث كل منهم لنفسه عن وظيفة بمجرد تخرجه. ولكن حتى لو كان النظام القديم قد استمر، فلا أظن أن أبي كان سيجد في نفسه الهمة أو الحماس لكي يطلب شيئًا كهذا من أحد من المسئولين. بل ربما كان فقدان الهمة والحماس يرجع إلى سبب آخر غير مجرد تدهور الصحة. فربما تبين لأبي مع مرور الزمن، كما تبين لي أنا أيضًا عندما وصلت إلى مثل سنّه، أن النجاح أو الفشل في الحياة بعيد الصلة بما إذا كان المرء قد حصل على بعثة لدراسة الدكتوراه في الخارج، أو لم يحصل عليها.

ـ ٥ ـ

كان أبي يعتقد اعتقادًا راسخًا بأن من أسوأ طرق تربية الأولاد أن يجدوا من السهل الحصول على المال كلما احتاجوا إليه. كانت قد نمت إلى علمه قصتان أو ثلاث عن أولاد بعض الأثرياء الذين أفسدتهم كثرة الأموال في أيديهم، وكان كثيرًا ما يعيد على أسماعنا ما حدث لابن ذلك الثريّ الكبير، الذي أضاع ميراثه الضخم وأصبح يتسوّل المال من هذا الصديق القديم أو ذاك، إلى أن انتهت حياته أسوأ نهاية.

لهذا وضع أبي قانونًا مقتضاه أن يعرف كل منا المبلغ المخصص له بالضبط في كل أسبوع (عندما كنا صغارًا) ثم في كل شهر (عندما كبرنا)، ويستحيل عليه في أي ظرف من الظروف أن يحصل على أكثر منه. وقد طبق أبي هذا القانون تطبيقًا صارمًا كان يبدو لنا في بعض الأحيان بالغ القسوة والتزمت، عندما تظهر حاجة شديدة لم تكن متوقعة، أو عندما يكون المبلغ الإضافي المطلوب تافهًا لا يجوز التشدد بشأنه. كان يلجأ في بعض هذه الأحوال (وإن كان هذا نادرًا) إلى التحايل على هذا القانون بأن يعطى والدتي المال الإضافي المطلوب، ويوصيها سرًّا بأن تعطيه للولد المحتاج متظاهرة بأن المبلغ منها هي، وأنها تعطيه من دون علم منه؛ لكي يستمر الاعتقاد راسخًا لدينا بأن مصادر المال محدودة ولا يمكن زيادتها بمجرد الطلب. وأظن أن

النتيجة النهائية كانت طيبة، فلم يصبح أي منا، نحن الإخوة الذكور أو الإناث متلافًا للمال. كان لدى بعض إخوتي ميل إلى اكتناز المال أكثر من الباقين، ولكن لم يكن هذا ما يخشاه أبي.

مما علق بذاكرتي أني، وأنا في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من عمري، اختلفت مع أبي عما إذا كان لازال مدينًا لي بجنيه من المصروف المقرر لي أم أنه سبق أن أعطاني إياه. قلت إنه لازال مدينًا لي وأنكر هو ذلك. سكت أنا على غضب، ثم عاد هو إلى الحديث في الموضوع بعد يومين أو ثلاثة فقلت إني، وقد حدث ما حدث، لن أحزن إذا لم يعطه لي، ولكني أيضًا لن أفرح إذا أعطاه لي الآن. أعجبت والدتي بالجملة، وظلت ترددها من حين لآخر وتتخذها دليلًا على رجاحة عقلي.

أذكر أيضًا أني وأنا طالب في المدرسة الثانوية، وفي مطلع سن المراهقة، كنت أقترح على بعض أصدقائي الذين كنت أتوقع منهم أن يوافقوا على اقتراحي، أن نذهب في مساء الخميس، وهو يوم لقائنا الأسبوعي خارج المدرسة، إلى ما كان يسمى «بصالة الشاي» بسينما ريفولي. إن وجود مثل هذه «الصالة» في القاهرة في ذلك الوقت، أي أواخر الأربعينات وأوائل الخمسينات، قد يبدو لنا الآن شيئًا مدهشًا، إذ يصعب أن نجد لها مثيلًا الآن، ليس فقط في القاهرة، بل ربما أيضًا في أي مدينة أخرى في العالم. صالة كبيرة تتسع لنحو عشرين مائدة صغيرة يمكن أن يجلس حول كل منها أربعة أو خمسة أشخاص، منسقة تنسيقًا بديعًا وتضاء بثريا جميلة، وفي أحد أركان الصالة يجلس ثلاثة أو أربعة عازفين، على البيانو والكمان والتشيلو، كلهم من الأجانب، فيعزفون بعض القطع الموسيقية الكلاسيكية الغربية عزفًا جميلًا، بينما نتناول نحن الشاي، دون أن يستعجلنا أحد بترك المائدة والانصراف، فلا بأس أن نقضي ساعات في الحديث، بينما يمر عليك الخادم وهو يدفع أمامه ما يسمى «بالتروللي»، أي مائدة صغيرة تسير على عجلات، وضعت عليها أصناف باهرة من الجاتوه، فتأخذ منها ما تشاء ولا يكلفك هذا كله، مع إناء الشاي الممتلئ واللبن، أكثر من عشرة قروش للشخص الواحد، مع حصولك على معاملة محترمة تمامًا ممن يقومون بخدمتك، حتى ولو كنت صبيًّا في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة.



بين أبي وأمي (حوالي ١٩٥١)

كنت مغرمًا بالذهاب إلى هذا المكان، فنجلس نحن المجموعة الصغيرة من الأصدقاء لنتناقش في موضوعات مثل: «ما السعادة بالضبط؟» أو: «هل يمكن أن نتصور أن يتخلص الإنسان من أنانيته؟»... إلخ. ولا أذكر بوضوح ما إذا كان أصدقائي متحمسين مثلي للكلام في مثل هذه الموضوعات، أم أنهم كانوا فقط يجارونني دون استمتاع حقيقي بالمناقشة. ولكن مما أذكره أن أبي، عندما لاحظ كثرة ذهابي مع هؤلاء الأصدقاء إلى «صالة الشاي» هذه، سألني: «هل أنت متأكد من أن أصدقاءك يستطيعون أن يتحملوا نفقات هذا المكان؟». كان يعرف أن أسر معظمهم أقل يسرًا من أسرتي، فاعتراه بعض القلق من احتمال أن يكون ذهابهم معي على الرغم منهم. فاجأني السؤال، إذ لم يكن قد طاف هذا الخاطر بذهني من قبل، وربما كان هذا هو السبب في أني لازلت أذكره حتى الآن. وطمأنت أبي دون أن أكون أنا مطمئنًا تمامًا.

عندما أتذكر الآن كيف كانت نظرة أبي إلى الملابس وشرائها أرجّح أني لم آتِ في هذا الأمر بجديد. كان إهمال أبي لشأن الملابس واحتقاره لمن يبالغ في الاعتناء بما يلبس وما لا يلبس، واضحيْن تمامًا لي. لم يكن مظهره سيئًا قط، ولكن كان من

الواضح تمامًا أنه لا ينفق دقيقة واحدة في التفكير فيما سوف يرتديه، أو في اختيار رباط للعنق أكثر ملاءمة للون البدلة التي يرتديها. أما موقفه من ملابسنا نحن فكان مما يبعث على الغيظ حقًّا. كان يشعر بضيق واضح كلما أتت إليه والدتي لتخبره بحاجة الأولاد إلى بيچامات جديدة أو ملابس داخلية، أو عندما يذهب إليه أحدنا ليطالبه بثمن چاكتة أو بنطلون. كان دائمًا يقول: «ألم أعطك مبلغ كذا لشراء چاكتة أو بنطلون منذ شهور قليلة؟» أو يقول لوالدتي: «هل حقًّا بليت البيچامات أو الملابس الداخلية فلم تعد صالحة بتاتًا؟» كان يعتبر أن شراء ملابس جديدة هو دائمًا بغرض التظاهر و«التعايق» أمام الناس، وأنه إذا لم تكن لدى المرء رغبة في هذا التظاهر؛ فالملابس القديمة لا بد أن تكون كافية لتأدية الغرض منها، وهو ستر الجسم أو اتقاء البرد. ولكن حيث إن هذا التفسير ليس صحيحًا تمامًا، وإن هناك بالإضافة إلى التظاهر والتعايق، رغبة مشروعة تمامًا في عدم الظهور بمظهر مضحك أو مثير للرثاء، كما لو ذهب الولد إلى المدرسة بحذاء بال تمامًا أو بشراب يظهر ثقبه الواسع كلما خرج قدمه ولو قليلًا من الحذاء، فإن الإلحاح على أبي بضرورة شراء بعض الملابس الجديدة كان يؤدى به في النهاية إلى الرضوخ واصطحابنا لشراء المطلوب.

كان يصحبنا إلى محل الملابس أو الأحذية وهو بالطبع ضيق الصدر، وعلى استعداد للانفجار لدى أي اعتراض من أحدنا على ما يعرض عليه. فإذا اشتكى أحدنا من أن الحذاء الذي يجرّبه أضيق من اللازم قال إنه سوف يتسع من كثرة ارتدائه، وإذا اشتكينا من اتساعه قال إن من الممكن شراء «فرشة» له، أي قطعة من الورق أو القماش توضع بين الحذاء والقدم. المهم أن تنتهي هذه المهمة الثقيلة على نفسه، ومن ثَمَّ على أنفسنا أيضًا، في أقصر وقت ممكن حتى يعود هو إلى ما هو أهمّ. هذا فيما يتعلق بأشياء كالأحذية والبدل. أما الأشياء التي لا يراها الناس، كالملابس الداخلية أو البيچامات، فهو يقوم بشرائها وحده، وإذا به يعود ومعه كمية منها تكفي لجميع الأولاد دون أي اعتبار لاختلاف أحجامهم وأعمارهم، ناهيك عن اختلاف أذواقهم، فتوضع كلها في درج أو درجيْن ويسحب كل منا ما يجده منها أقرب إلى مقاسه منها، وتكون النتيجة في الغالب مضحكة أو باعثة على الرثاء، فالسروال يتسع لشخصيْن بدلًا من شخص واحد، والأكمام متدلية من فرط طولها... إلخ. وقد

اعتدنا نحن ذلك فلم نعد نرى فيه غرابة، إلّا إذا حدث ورأى أحدنا في بيت صديق له نظامًا مختلفًا؛ حيث يختص كل فرد من أفراد الأسرة بملابسه، ويقوم كل فرد باختيار ملابسه بما يتفق مع ذوقه وحجمه، فيعود إلى البيت حزينًا ليحكي لنا كيف يمكن أن يكون عليه الحال.

قد يكون هذا هو السبب، وقد يكون هناك سبب آخر لا أعرفه، لهذا الإهمال الذي نشأت عليه في اختيار ما ألبس من ثياب، ونفوري من شراء ملابس جديدة. فإذا فعلت ذلك استجابة لإلحاح زوجتي مثلًا، اكتشفت أن الشهور قد تمر وأنا أرتدى نفس الجاكتة أو البدلة القديمة، لمجرد أنها أقرب الملابس إلى يدي، والبدلة الجديدة لا تُمس. فإذا خطر لي أن من الواجب أن ألبس شيئًا مختلفًا، ولو لمجرد ألا يصاب تلاميذي بالملل، أو لكيلا يظنوا أني لا أملك إلّا هذه البدلة الوحيدة، ونظرت إلى نفسي في المرآة وأنا أرتدي هذه البدلة الجديدة، أجد أني لا أكاد أتعرف على نفسي فيها، وأعود بسرعة إلى ما كنت فيه من قبل.

-٦-

كان أبي منذ صباه المبكر يعاني من ضعف بصره. لم يؤثر هذا في دراسته، ولكنه أثر فيما تولاه من وظائف. من أظرف ما رواه لنا من قصص، قصة استعداده للكشف الطبي على عينيْه تمهيدًا لتعيينه معيدًا بمدرسة القضاء الشرعي، وهي الوظيفة التي كان يتمناها بشدة، وكان ناظر المدرسة (عاطف بركات) حريصًا أيضًا على أن ينالها أبي دون غيره. كان أبي متأكدًا من أنه سوف يفشل في كشف النظر، فاحتال حتى استطاع الحصول على اللوحة التي سيستخدمها الطبيب في الكشف عن النظر. ويصف أبي ما حدث في امتحان النظر (في كتاب «حياتي») على الوجه التالي:

«حفظت حفظًا جيدًا العلامات، فيما عدا السطريْن الأوليْن لأني أراهما، فعرفت ابتداءً من السطر الثالث أن العلامة الأولى مفتوحة من اليمين، والثانية من اليسار، والثالثة من فوق، والرابعة من تحت، وهكذا. ولكن خاب ظني، وكانت ساعة حرجة جدًّا انعقد عليها كل أملي، فقد رأيت السطريْن الأوليْن فلما جاء ما بعدهما

أشار الطبيب إلى علامة في السطر الرابع فسألته: أهي الأولى أم الثانية؟ فقال: هي الموضوع عليها العصا، ولم أر طرف العصا إن كان موضوعًا على العلامة الثالثة أو الرابعة، فسقطت في الامتحان». ولم ينقذ أبي من سوء المصير إلّا كثرة الساقطين في امتحان النظر، فاتخذ ناظر المدرسة قرارًا بقبول الخمسة الأوائل بصرف النظر عن قوة أو ضعف بصرهم.

ظل أبي طوال حياته يبدل نظارته بنظارة أقوى وأكثر سمكًا منها، إلى أن أصيب وهو في الستين من عمره بانفصال شبكة العين، واحتاج إلى عملية دقيقة تتطلب منه الرقاد لمدة شهر بعد العملية لا يحرك جسمه يمينًا أو يسارًا. وعندما اكتشف بعد ذلك أن التحسن المأمول في النظر لم يحدث، أصيب بخيبة أمل شديدة لحرمانه من القراءة والكتابة كما يشاء، وبميل قوي إلى الحزن لازمه حتى وفاته، وزادته ما أصابه من تصلب الشرايين الذي أضعف قدرته على الحركة وزاد من ضيق صدره.

في هذه السنوات السبع الأخيرة، منذ أن أصيب بانفصال الشبكية، تحول أبي إلى رجل عصبي المزاج، يثور لأهون سبب، ضيق الصدر، يسهل جدًّا إغضابه ويصعب إرضاؤه. ومع هذا فقد اشتدت حاجته إلى أولاده في هذه الفترة. كان يحتاج إلى من يقرأ له ويملى عليه مقالاته وفصول كتبه. وإذا كان بعض تلاميذه المخلصين (منهم من أصبح أستاذًا مرموقًا كالأستاذ إحسان عباس) يجيء إليه ليقرأ له ويكتب ما يمليه من حين لآخر، فقد كان أبي يشعر فجأة بالحاجة للقراءة والكتابة فيستدعي أحدنا للقيام له بهذه الخدمة. كان يحتاج أيضًا إلى من يعدّ له حقنة الأنسولين فيغلي الماء لتعقيمها ويحقنه بها أكثر من مرة في اليوم. بل كان يحتاج أكثر من أي شيء آخر إلى من يبادله الحديث، بعد أن قلّ خروجه من المنزل، وضعفت حركته، ولم يعد قادرًا على قراءة أكثر من العناوين الكبيرة في الصحف، بل كان كثيرًا ما يعتمد على الصوت لا على النظر في تمييز أحد أولاده عن الآخرين.

في حالة كهذه أصبح جديرًا حقًّا بالكثير من العطف، وكان هذا هو الوقت الذي كان يمكن لنا فيه رد جميله. ولكن أكثر الأولاد كانوا بعيدين في إنجلترا أو بلچيكا في وظائف كان هو السبب في حصولهم عليها. وكان الابن الأصغر، وهو أنا، في

سن المراهقة، قليل الصبر، مشغولًا بنفسه وبأصحابه، ويعتبر طلبًا صغيرًا كغلي الماء لإعداد حقنة، خدمة كبيرة، والأفظع من ذلك أنه قد لا يخفي تبرمه.

أذكر أنه في هذه الفترة الصعبة من حياة أبي (وأظن أن هذا كان في ١٩٥٣ أي قبل وفاة أبي بنحو عام)، طلب مني بعض أصدقائي اللبنانيين أن أرتب لهم جلسة مع أبي، وأذكر أني استغربت وقتها (من فرط غفلتي) ما عبروا عنه من أهمية حدوث هذا اللقاء والتقدير الفائق الذي يكنّونه لأبي. وأبلغت أبي بطلبهم فرحّب به دون تردد، وربما كان ذلك بسبب ما كان يشعر به من وحدة في ذلك الوقت، أو لمجرد رغبته في أن يثبت لي أنا، أي لهذا الولد الأحمق، مدى ارتفاع قدره عند الناس!

جلس أبي مع أصدقائي في حجرة الصالون ببيتنا في الدقي، بجلبابه الأبيض، دون أن يكلف نفسه عناء تغييره، وأظن أني اعتبرت هذا تصرفًا غير ملائم، بينما اعتبره أصدقائي ملائمًا تمامًا. سألوه بعض الأسئلة من بينها سؤال عن الوحدة العربية، فأجابهم أبي إجابة تتضمن قول سعد زغلول المشهور: «صفر + صفر + صفر = صفر»، وكنت قد سمعت منه هذه العبارة أكثر من مرة، فلم تترك في نفسي أثرًا مثل ما تركته في أصدقائي. عبّر لي هؤلاء الأصدقاء بعد انتهاء اللقاء، عن إعجابهم الشديد بشخصية أبي وبفكره، وشعرت لذلك بسرور يختلط ببعض الاستغراب. وعندما مرت السنوات على هذا اللقاء لم أعد أستغرب هذا التقدير الفائق لأبي من جانب أصدقائي أو من غيرهم، وإن استغربت ما شعرت به وقتها من استغراب. كما تذكرت ما لاحظته أكثر من مرة من بعض الاستغراب الذي يبدو على أحد أولادي، وهو ينقل لي بعض الثناء عليَّ مما قد يكون قد سمعه من بعض أصدقائه أو من أقاربهم.

* * *

استمرت أمي تخدم أبي بصبر أكثر مما ظهر منا جميعًا، وظلت تعطف عليه وتتجنب ما قد يضايقه. قالت لي بعد وفاته، إنه عندما كان ذاهبًا للمستشفى استعدادًا لعملية الشبكية، وكان أكثر ما يخشاه هو ألا تؤدى العملية إلى أي تحسن، فقد صارحه الطبيب بأن النجاح غير مؤكد، كما كان يخاف من فكرة الرقاد الطويل دون حركة، قال لأمي كلمة لم تصدق أنها تسمعها منه وهي: «سامحيني». وقد سامحته

أمي بالطبع، كما بدا من سهرها عليه منذ ذلك الحين وحتى وفاته. أما نحن الأولاد فلم يكن لديه ما يطلب منا أن نسامحه بشأنه، وإن كان قد أخذ يعبر لنا عن أسفه؛ لأنه لم ينفق معنا الوقت الذي كان يجب أن ينفقه في الحديث معنا، ولم يشجعنا على البوح له بمشاكلنا. اعتذر عن ذلك أكثر من مرة بظروف نشأته، ونوع معاملة أبيه له، وكان يذكر لنا أن المسافة التي قطعها بين طريقة معاملة أبيه لأولاده وطريقة معاملته هو لنا، أكبر بكثير مما نتصور، وأننا لا نعرف حجم الجهد الذي بذله للتكيف مع تغيرات الحياة.

-٧-

كانت وفاة أبي في صباح ٣٠ مايو ١٩٥٤، في بيته وعلى سريره، ومما أذكره أنه لم تنقض ساعة على وفاته حتى جاء إلى البيت صديقه وقريبه الدكتور أحمد زكي، ولا أدرى كيف سمع بالخبر، وقال لنا إنه يريد فقط كرسيًّا ليجلس عليه في شرفة الدور الأرضي، ويجب ألا يبالى أحد بوجوده. وقد ظل جالسًا وحده في الشرفة ساعة أو ساعتيْن لا يكلم أحدًا، ويستعيد بلا شك ذكرياته الكثيرة مع أبي. وعندما وقفنا أمام قبر أبي قبيل الدفن، أولاده الموجودون بمصر، والدكتور زكي، وأربعة أو خمسة من أصدقائه، منهم الدكتور السنهوري، لاحظت أن أخي أحمد كان أكثرنا تأثرًا، وأنه أجهش بالبكاء فجأة بصوت عالٍ؛ مما جعل السنهوري يحتضنه للتخفيف عنه.

بعد وفاة أبي بعشرين عامًا رزقت بابني الأصغر، وراق لي أنا وزوجتي في البداية أن نسميه «مروان»؛ باعتباره اسمًا عربيًّا جميلًا وأنه ليس من الصعب على زوجتي نطقه نطقًا صحيحًا. وأعجب الاسم أيضًا والدة زوجتي. ولكني استيقظت صباح اليوم الذي يجب فيه تسجيل اسم المولود، بفكرة أنه لا يجوز ألا يكون بين أولادنا نحن الإخوة الذكور ولد اسمه أحمد فيحمل اسم أبي. وحيث إنني أصغر الإخوة، وهذا المولود الجديد هو على الأرجح الولد الأخير، فلا بد من أن أسميه باسم أبي: أحمد. اقتنعت زوجتي بالفكرة بسهولة، وإن كانت والدتها قد أبدت امتعاضها كما توقعت.

بعد أن كبر ابني واختار أن يعمل ويعيش في أمريكا، وأن يتزوج من أمريكية، سألته عما كان سيفضل اسم مروان لو كان له الخيار. فقال: إنه يفضل قطعًا اسم أحمد ولا يتصور أن يكون اسمه مروان، على الرغم من أن زوجته وأصدقاءه الأمريكيين يجدون صعوبة بالغة في نطق «أحمد»، وكثيرًا ما ينادونه بالحرف (H).

وفى حفلة زواج ابني أحمد التي أقامها في أمريكا طلب منى أن ألقى كلمة قصيرة، كالمعتاد من والد العريس في الأفراح الأمريكية، فخطر لي أن أذكر في كلمتي جملة سمعتها من أبي أكثر من مرة وهي أن «الشخص الوحيد الذي لا يكره المرء أن يكون أفضل منه هو ابنه». ذكرت هذه الجملة وقلت إنى سمعتها من أبي، وإني اكتشفت بعد أن أصبح لي أولاد، أن العبارة صحيحة تمامًا مع تعديل بسيط وهو إضافة ابنتي أيضًا. وقلت كذلك إني لا أشعر بأي غضاضة عندما أرى أن أولادي هم فعلًا أفضل منى.

كنت أعني ما أقول، وفوجئت بعد انتهاء كلمتي بالخادمة الأمريكية التي تقدم لنا الطعام، تأتى إلىّ لتهمس في أذني بأنها عندما سمعت هذه العبارة، التي سبق أن سمعتها أنا من أبي، دمعت عيناها، وأن شعورها نحو ابنها هو بالضبط كما قلت عن شعوري نحو أولادي.

(٤)

المدرسة النموذجية

-١-

لا أحتفظ في ذهني بذكريات كثيرة عن أول مدرستيْن دخلتهما في حياتي. كانت الأولى روضة أطفال بمصر الجديدة، ذهبت لألقي نظرة عليها بعد سنوات كثيرة من تركي لها، وكنت قد جاوزت الخمسين من عمري، فرأيت فيلا غاية في الأناقة والجمال في شارع هادئ تحفّه الأشجار من الجانبيْن. هذه، إذن، كانت مدرستي الأولى، ولكني مهما حاولت أن أتذكر ما مرّ بي خلال السنوات الثلاث التي قضيتها بها، من سن الخامسة إلى الثامنة، لا أتذكر إلّا ثلاثة أو أربعة أشياء، منها أني كتبت خلالها قصة قصيرة وذهبت بها فرحًا وفخورًا بنفسي لإعطائها لمدرستي الرقيقة (أبله فاطمة) فوجدتها قد نقلت إلى مدرسة أخرى ولم أرها قط بعد ذلك. ومنها أننا كنا نلبس زيًّا مدرسيًّا موحدًا يتكون أساسًا من «مريلة» تغطي القميص والبنطلون القصير، وأننا كنا نبدأ اليوم بإلقاء نشيد بينما تعزف إحدى المدرسات على البيانو، ثم نقف صفوفًا ونحن نمد يدينا إلى الأمام ليمر علينا الناظر أو أحد المدرسين للتأكد من أننا نحمل منديلًا نظيفًا ومن أن أظافرنا نظيفة ومقصوصة.

كذلك لا أتذكر شيئًا ذا بال عن السنتيْن التاليتيْن اللتيْن قضيتهما في مدرسة مصر الجديدة الابتدائية المطلة على شارع العروبة. كان مبنى ضخمًا أبيض، وجميلًا، ولازال قائمًا كما هو حتى الآن، وأتذكر لعبنا وضحكنا ونحن أطفال في تلك الحديقة البديعة التي تفصل بين جانبي شارع العروبة، والتي كانت تبدو لنا بالطبع أوسع بكثير

مما هي في الحقيقة، ولازلت أتعجب حتى الآن، كلما مررت بهذا الشارع، كيف كانت هذه المساحة الضيقة من الخضرة تجلب لنا كل هذا السرور، وتسمح لنا بكل هذا الجري واللعب؟

لا أذكر أي شيء مهم عكّر عليَّ حياتي خلال هاتيْن السنتيْن إلّا المنافسة الشديدة بيني وبين تلميذ آخر اسمه مصطفى، كنا نتبادل المركز الأول بين تلاميذ الفصل في كل امتحان، وكنت أعتبر الحصول على المركز الثاني مصيبة فادحة إذ كانت المراكز الأخرى كلها مستبعدة تمامًا من ذهني. كنت أبرر تفوقه عليَّ، في حالة الهزيمة، بأنه يكتب الإنجليزية بحروف «مشبّكة»، بينما أكتبها أنا بحروف «مفردة»، وأقول إن هذه القدرة من جانبه سببها أن لديه مربية إنجليزية تعلمه كيف يكتب. كان أبوه هو ذلك الرجل الفذ علي مصطفى مشرفة، العالم المصري الشهير، وكان يسكن في ڤيلا مدهشة، أقرب في الواقع إلى القصر، على بعد خطوات من مدرستنا، وكنت أذهل، كلما دعاني مصطفى إلى حفلة عيد ميلاده في بيته، من جمال الأثاث، ويلفت نظري على الأخص البيانو الأسود الكبير، إذ كان الدكتور مشرفة، بالإضافة إلى كونه عالمًا كبيرًا، موسيقيًا موهوبًا أيضًا.

كانت حفلات عيد الميلاد هذه، تسبب لي بدورها مشكلة، خاصة إذا كان صديقي صاحب الدعوة ينتمي إلى أسرة ثرية وتعيش عيشة أرستقراطية مثل أسرة مصطفى مشرفة. كنت أرى الهدايا التي يجلبها بقية الصبية المدعوين فأجدها مبهرة بجمالها وارتفاع سعرها، ولم أكن أنا في وضع يسمح لي بالمرة بتقديم هدية مماثلة. لم يكن أبي عاجزًا عن أن يدفع ثمنًا لهدية جيدة، ولكنه كان يعتبر هذا شيئًا لا ضرورة له ألبتة، ومن قبيل تبديد النقود فيما لا نفع فيه، ولم يكن لا هو ولا أمي على استعداد لإنفاق خمس دقائق لاختيار هدية لصديق ابن من الأبناء الثمانية، فضلًا عن أن أمي، حتى لو توفر لها الوقت، لم تكن لها أي معرفة بذلك النوع من المحلات التي تباع فيها مثل هذه الهدايا. كان من العبث أن يحاول أبي إقناع صبي عمره ثماني سنوات بأن أي هدية صغيرة تفي بالغرض، وأن المهم ليس ثمن الهدية بل حسن اختيارها، ولم يكن أبي مستعدًا على أي حال أن يضيع أي وقت في محاولة إقناعي بهذا الأمر.

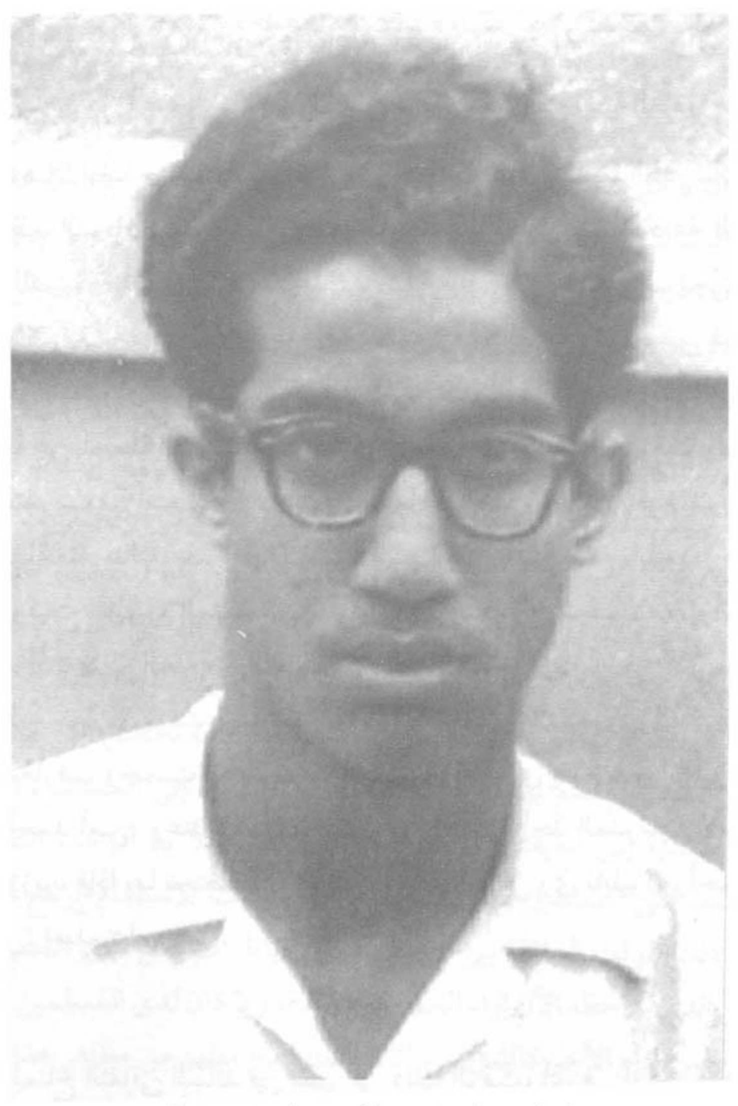
لديَّ ذكريات أكثر وأهم بكثير عن السنوات الست التالية التي قضيتها في المدرسة النموذجية. كان أبي بالطبع حريصًا على أن يحصل أولاده على أفضل تعليم ممكن، ولا بد أنه سمع من بعض معارفه بأن هذه المدرسة النموذجية، هي أفضل مدرسة متاحة في ذلك الوقت للولديْن حسين وجلال، فقام بنقلنا من مدرسة مصر الجديدة بلا تردد. كان عمري وقتها عشر سنوات وأمامي سنتان قبل أن أجلس لامتحان الشهادة الابتدائية.

كان إنشاء هذه المدارس النموذجية من أفكار رجل فذ آخر، هو الدكتور إسماعيل القباني، الذي تخصص في علوم التربية، وكان يرى أنه حيث يستحيل على مصر، في ظروفها الاقتصادية الراهنة، أن تعمم التعليم الجيد، فلا بد من أن نبدأ بجزر صغيرة تكون «نموذجًا» لغيرها، نطبق فيها أفضل مبادئ التربية الحديثة، ثم نعمم التجربة شيئًا فشيئًا، أو على الأقل نخرج أجيالًا متتالية من المصريين الذين يصلحون؛ بسبب حسن تعليمهم وتربيتهم، لأن يقودوا بقية المصريين.

كان إسماعيل القباني صاحب مدرسة في التربية وله أتباع وتلاميذ مخلصون، بدأ كثير منهم بالتدريس في هذه المدارس النموذجية ثم صاروا من أساتذة التربية في الجامعة، وأنشأ بعضهم جمعية الرواد التي تقدم خدمات اجتماعية في الأحياء الفقيرة، وأصبح آخرون كتّابًا مرموقين. كان من الطبيعي أن يفكر قادة ثورة يوليو ١٩٥٢ في الأيام الأولى للثورة في أن يستعينوا برجال من نوع إسماعيل القباني، من أصحاب الأفكار الجريئة، وممن لا شك في إخلاصهم وكفاءتهم. فُعيِّن القباني وزيرًا للتعليم بعد سنة من قيام الثورة، ولكنه سرعان ما خرج من الوزارة. كان خروجه أمرًا طبيعيًّا أيضًا، إذ لم يكن من الممكن أن تتفق آراء العسكريين المتعجلين للإصلاح، ولكسب نجاح جماهيري، مع آراء رجل يعرف أن الإصلاح الحقيقي، خاصة في ميدان كالتعليم، لا بد أن يكون متأنيًا ومدروسًا بعناية.

على أي حال، كانت المدرسة النموذجية نموذجية حقًّا من أي زاوية نظرت إليها. عدد التلاميذ في كل فصل محدود يسمح بإنشاء علاقة شخصية بين التلاميذ ومدرسيهم. والمدرسون يحبون عملهم ويعاملون التلاميذ باحترام. والامتحانات

تختبر درجة الفهم أكثر مما تختبر الذاكرة. وفى نهاية كل فترة دراسية لا يكتفي بإعطاء التلميذ درجة في كل مقرر وترتيب التلاميذ في مجموع الدرجات، بل يكتب كل مدرس صفحة كاملة عن كل تلميذ وعن تطوره، وله أن يكتب أيضًا، إذا أراد، عن نقاط القوة والضعف في شخصيته.



في المدرسة النموذجية بالأورمان (حوالي ١٩٤٨)

كان التلاميذ يقسمون، أيًا كانت السنة الدراسية التي يمرون بها، على أربع أسر، تحمل كل منها اسم بطل عظيم في تاريخ مصر، كأحمس وتحتمس وصلاح الدين والمعز لدين الله، وكان لكل أسرة لون؛ فأسرة أحمس لونها أحمر وصلاح الدين أخضر... إلخ، ويرتدي تلاميذ كل أسرة قميصًا له اللون المميز أثناء قيامهم بالمباريات الرياضية، التي تجرى في مساحة شاسعة من الأرض قريبة من المدرسة لا تستخدم إلّا في الرياضة، وتجرى المنافسة في المباريات الرياضية على أساس منافسة بين هذه الأسر، وتسعى كل أسرة إلى الحصول على كأس التفوق في نهاية العام.

كانت هناك أيضًا جمعية للموسيقى لها حجرة خاصة في حديقة المدرسة، وجمعية ثقافية تنظم المحاضرات العامة والمناظرات، وجمعية تنظم الإذاعة المدرسية، وجمعية للتمثيل قد تستغرق في الإعداد لتمثيلية معينة عامًا بأكمله، ثم يجرى تمثيلها في حفل كبير في نهاية العام يدعى إليه بعض كبراء القوم، وتستعرض فيه قدرات التلاميذ في التمثيل والموسيقى. أذكر أنني اشتركت وأنا في الحادية عشرة من عمري، في تمثيلية عن الحملة الفرنسية، ظللنا نتدرب عليها شهورًا، وكان الوقت الذي نقضيه في هذا التدريب من أمتع الأوقات التي نقضيها في المدرسة. كنت أقوم بدور نابليون؛ فلبست بدلة مثل بدلته، بسروالها الضيق، والصديري الذي يضع نابليون إحدى يديْه بداخله، وقبعته الشهيرة المدببة من الطرفيْن، بالإضافة إلى سيف لامع. وأثناء قيامي بالتمثيل رأيت ناظر المدرسة الجالس في الصف الأول يهمس في أذن سيدة أنيقة تجلس إلى جواره، عرفت فيما بعد أنها زوجة الدكتور السنهوري الذي كان وقتها وزيرًا للمعارف. وخمنت أنه يقول لها إن هذا الولد الذي يقوم بدور نابليون هو ابن الأستاذ أحمد أمين. وعندما انتهت المسرحية اقتادني أحد المدرسين لأسلم على زوجة الوزير، فإذا بها تحتضنني وتقبلني، وأنا في كامل زيّ نابليون وأحمل سيفه، وتقول لي: «سلّم على ماما».

* * *

كان المناخ الثقافي السائد في مصر في ذلك الوقت، أي في أواخر الأربعينات، يجمع على نحو باهر بين احترام مظاهر الحضارة الغربية وبين احترام النماذج الرفيعة

من التراث الثقافي العربي والإسلامي وتقديرها. كان هذا هو على الأقل موقف الطبقة الوسطى في مصر. وعندما أتذكر المقررات التي كنا ندرسها في ذلك الوقت، والنشاط الثقافي الذي كنا نقوم به في المدرسة النموذجية، أدرك الآن كم كان هذا نتيجة طبيعية لذلك المناخ الثقافي الرائع الذي ساد مصر في ذلك الوقت. كانت الكتب المقررة في المطالعة باللغة العربية كتبًا متحضرة للغاية، سواء في لغتها، أو في القيم الأخلاقية التي تعبر عنها، وكانت هناك هالة من الاحترام تحيط بأسماء مثل امريء القيس والنابغة الذبياني والمتنبي، ولكن كان من يتم الدراسة الثانوية قد استقر في نفسه في نفس الوقت، بوعي أو من دون وعي، احترام أسماء مثل ڤولتير وروسو، ويعرف أن ديكارت هو أبو الفلسفة الحديثة، وفضل فرانسيس بيكون على العلم، ودور جاليليو في الحضارة الحديثة، كما كان لا بد أن سمع باسم سقراط وبأنه بداية كل شيء، وأن لطفي السيد هو الذي ترجم أرسطو في العصر الحديث إلى العربية، وأن لهذا علاقة بإطلاق المصريين عليه وصف «أستاذ الجيل»... إلخ.

ما سرّ هذا الانسجام الرائع بين الثقافتيْن، العربية والغربية، الذي ساد في مصر في الأربعينات، وإمكان تعايشهما جنبًا إلى جنب؟ والذي سمح أيضًا بوجود حفنة من المترجمين الأفذاذ الذين يجيدون إجادة تامة العربية والإنجليزية، أو العربية والفرنسية، أو العربية والألمانية، فقدموا لنا كتبًا كانت، ويا للعجب، تفهم بمجرد قراءتها، وكأنها مكتوبة في الأصل بالعربية، ولا يحتاج القارئ لفهمها، كما يحتاج الآن في كثير من الأحيان، إلى تخمين ما يمكن أن يكون عليه الأصل الأجنبي. لا بد أن للأمر علاقة بينه وبين تلك الدرجة العالية من الثقة بالنفس التي كانت الطبقة الوسطى المصرية تتمتع بها في ذلك الوقت، واطمئنانها إلى المستقبل، وإلى ثبات مركزها بالنسبة إلى الطبقتيْن الأعلى والأدنى منها. ولا بد أن هذه الثقة بالنفس والاطمئنان على المستقبل كان لهما علاقة وثيقة بذلك الانسجام الرائع أيضًا الذي ساد في ذلك الوقت العلاقة بين المسلمين والأقباط. لم يكن لدى المصريين ذلك التوجس الذي نلاحظه الآن إزاء الحضارة الغربية، ولا كان لدى المسلمين أو الأقباط هذا التوجس إزاء الآخر كالذي نراه الآن. كان أبدع مظهر من مظاهر هذا الانسجام في مدرستنا، بين المسلمين والأقباط، هو أن أحدًا من هؤلاء أو أولئك لم يكن يلاحظ

أصلًا ما إذا كان هذا أو ذاك مسلمًا أو مسيحيًّا، وعلى أساس هذا الإغفال التام لهذا الموضوع، كانت تنشأ الصداقات والعلاقات دون أن يؤثر اختلاف الدين في علاقة المدرس بتلاميذه، أو في علاقة التلاميذ بعضهم ببعض.

-٢-

في سنة ١٩٧٩، كان قد مرّ على تركي المدرسة النموذجية نحو ثلاثين عامًا، وكنت قد عدت لتوّي من التدريس في الولايات المتحدة، وكان عليّ أن أختار مدرسة لأولادي الثلاثة: كانت أكبرهم بنتًا في الحادية عشرة من عمرها، والثاني في التاسعة، والثالث في الخامسة. كنا نسكن في المعادى وبدا أنه لا مجال للتردد: فأفضل مدرسة متاحة للأولاد الثلاثة هي مدرسة (أو كلية) النصر بالمعادى. كان قد مضى أكثر من عشرين عامًا على قيام الثورة بتمصير المدارس الأجنبية، في أعقاب حرب ١٩٥٦، فأطلق على المدارس الإنجليزية اسم مدارس «النصر»، وعلى الفرنسية اسم «ليسيه الحرية». وتقرر أن تستمر هذه المدارس في تطبيق المبادئ الحديثة في التربية، وتستمر في تدريس العلوم الطبيعية والرياضيات باللغة الإنجليزية أو الفرنسية، مع الالتزام بما تفرضه الحكومة من مقررات في اللغة العربية والدين والتربية الوطنية والعلوم الاجتماعية، كما استمرت هذه المدارس كما كانت أيام الإنجليز، مدارس «مختلطة» يقبل فيها الذكور والإناث.

بدا كل هذا معقولًا جدًّا، وتفاءلنا بنوع التعليم الذي سوف يحصل عليه أولادنا، وقبلت زوجتي أن تقوم بتدريس الإنجليزية في نفس المدرسة؛ إذ اشترطت الناظرة ذلك حتى تقبل أولادي فيها؛ نظرًا إلى المنافسة الشديدة بين التلاميذ للالتحاق بها، خاصة بين من يدخلون المدارس لأول مرة. وقد زاد من تفاؤلنا ما سمعناه عن ناظرة المدرسة من حزم وكفاءة وخبرة طويلة.

بقي أولادي في هذه المدرسة حتى السنة الأخيرة من دراستهم الثانوية، أي أنهم قضوا في مدرسة النصر بالمعادى مدة تتراوح بين خمس سنوات (في حالة ابنتي)

وسبع أو عشر سنوات (في حالة الولديْن). ولكن التجربة لم تكن سعيدة على الإطلاق؛ فالثلاثة، إذا تذكروا تلك السنوات، لا يكادون يذكرون إلّا ما يثير الرثاء أو السخرية. نعم، لقد أسعدهم الحظ ببعض المدرسين الأذكياء والمخلصين لعملهم، ولكن الصورة العامة لم تكن تدعو قط إلى الابتهاج.

جاءت إليَّ ابنتي يومًا، وهي في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من عمرها تشكو لي من أن مدرس اللغة العربية طلب منهم أن يكتبوا موضوعًا عن زيارة ملك الأردن للقاهرة، تشيد فيه بالملك وتشرح أهمية الزيارة، وهي لا تعرف أي شيء يمكن أن تكتبه عن ملك الأردن أو عن سبب الزيارة. بدت ابنتي بائسة حقًّا، فهي حريصة على أن تنجح بتفوق، ولكن المطلوب منها الآن شيء يستحيل عليها عمله. شعرت بغضب شديد، إذ كان من المحرم على الطلاب أن يتكلموا أو يكتبوا أي شيء يتعلق بالسياسة، فكيف يُرغمون الآن على الكتابة في السياسة لمجرد أن الموضوع يروق للحكومة والوزارة؟ ذهبت لمقابلة ناظرة المدرسة، معتقدًا أنها لا بد أن تفهم سبب استيائي بمجرد أن أفتح فمي، ففوجئت بأنها لا تبدي أي تعاطف معي، وتطلب من مدرس اللغة العربية الحضور إلى مكتبها لمقابلتي، فإذا بي أرى شخصًا صغير الحجم والنفس، خائفًا كالفأر، ولكنه في نفس الوقت عنيد لا يؤثر فيه أي كلام. عندما عبرت له عن شكواي اكتفى بالقول بأنها أوامر الوزارة. فلما التفتُّ إلى الناظرة وجدتها تؤيد موقف المدرس ولا تجد أي غضاضة فيما يقول، فسكت وانصرفت وقمت بكتابة الموضوع المطلوب بالنيابة عن ابنتي.

كان من الواضح ما طرأ من تغير في التعليم المصري الحكومي فيما بين سنة ١٩٤٧، عندما كنت في الثانية عشرة من عمري، وسنة ١٩٨٠ عندما بلغت ابنتي هذه السن، وما فعله نحو ربع قرن من الحكم العسكري. ولكن سرعان ما لاحظت شيئًا آخر أشد خطرًا. فعندما ارتدت ابنتي، وهي في هذه السن، بنطلونًا قصيرًا للاشتراك في مباراة رياضية بالمدرسة، رآها مدرس الدين من النافذة، وما إن صعدت إلى الفصل حتى وبَّخها توبيخًا شديدًا على ما ترتديه؛ بسبب تعارضه مع قواعد الدين. كانت مصر قد تغيرت بشدة في هذا الجانب أيضًا؛ إذ أخذ الدين يلعب دورًا متزايدًا في العلاقات

الاجتماعية والحياة العامة؛ وأصبح موضوع الدين يثار بمناسبة وبغير مناسبة، كما انتشر تركيب الميكروفونات على المآذن، وزاد صوتها ارتفاعًا مع مرور الوقت.

ثم صادف ابني الأصغر تجربة مريرة أثارت الخوف لديَّ ولدى أمه من أن تصيبه بأذى نفسي يبقى معه مدى العمر. ذلك أن هذا الابن (أحمد) كان واحدًا من شلة أصدقاء مغرمين بقضاء ساعات طويلة في أوقات الفراغ والعطلات، يلعبون لعبة باهرة اسمها «Dungeons and Dragons» (السجن والتنين)، تحتاج إلى ذكاء وخيال، وكانت اللعبة تمنحهم متعة كبيرة تفوق المتعة التي يحصلون عليها من أي عمل أو لعبة أخرى. كان ابني وقتها في الحادية عشرة من عمره، وكان من بين هؤلاء الأصدقاء ولد لطيف هادئ الطبع، توفى أبوه حديثًا في حادث سيارة، ويقيم مع أمه وخاله. بعد مرور شهور قليلة على وفاة الأب بدأ هذا الصديق يظهر ميلًا إلى المراعاة الصارمة لتأدية الصلاة في مواعيدها، ولإقحام الدين باستمرار في الحديث. فهم ابني أحمد من كلام صديقه أن خاله هو السبب في هذا التشدد المفاجئ؛ إذ كان بدوره بالغ التشدد مع أخته وسائر أفراد أسرته، في تطبيق ما يعتبره من تعاليم الدين وطقوسه. زاد هذا التشدد شيئًا فشيئًا حتى جاء يوم واجه هذا الصديق ابني أحمد بصراحة، وقال له إنه لن يلعب معه لعبة «السجن والتنين» بعد اليوم، ولا أي لعبة أخرى؛ لأنه لا يصلي. عاد ابني إلى البيت في حزن شديد، وهو في حيرة كبيرة من أمره لا يعرف ما إذا كان فيه عيب خطير دفع هذا الصديق إلى الابتعاد عنه. حاولت أنا وأمه تهدئته، وأن نقنعه بأن صديقه كان يجب أن يميز بين تأدية الصلاة، وعلاقة الصداقة. فلم نفلح في إعادة راحة البال إليه لعدة شهور.

كان ناظر المدرسة الإعدادية يسير في ردهات المدرسة وبين الفصول مهددًا التلاميذ بالضرب ويصفهم بالحيوانات؛ إذا تأخروا بضع دقائق في الدخول إلى الفصول، كما نقل لي أولادي أشياء مخجلة عن طريقة معاملة بعض المدرسين لزملائهم الأقباط.

لم يكن بالمدرسة، تلك التي كانت تعد واحدة من أفضل المدارس الحكومية في مصر، أي نشاط اجتماعي يشبه ما كنا نقوم به ونحن في نفس السن في أواخر

الأربعينات. لم أسمع من ابنتي أو من أحد ابنيّ مرة واحدة، طوال السنوات الكثيرة التي قضوها في هذه المدرسة، أن أحدهم يستعد للتمثيل في مسرحية، أو يتمرن على عزف آلة موسيقية، أو يشترك في رحلة لأحد المتاحف في القاهرة... إلخ. المرة الوحيدة التي حدث فيها شيء من هذا النوع انتهت بشيء يتراوح بين المهزلة والمأساة. فقد أتى ابني تامر وهو في نحو العاشرة من عمره، يقول لنا إنه طلب منه أن يشترك في معرض سوف يقام في المدرسة للفنون التشكيلية برسم صورة أو صنع تمثال، أو أي شيء آخر من الطين أو الورق أو الخوص، يمكن أن يدل على إحساس بالجمال. وقد افترضنا بالطبع أن المقصود أن الولد هو الذي سيقوم بنفسه بصنع أي من هذه الأشياء، بمساعدة أو بغير مساعدة من المدرّسة المسئولة. وفرح ابني بما اشترته له أمه من أدوات استطاع بها أن يصنع تشكيلًا جميلًا يمكن أن يعلق على الحائط، وبذل في صنعه جهدًا كبيرًا مما بعث فيه الفخر بنفسه. فوجئنا عندما ذهبنا إلى المعرض بأن معظم الأشياء المعروضة قد اشتراها أهالي التلاميذ من محل تجارى أو آخر، وأن المدرّسة لم ترفض عرض أشياء لم يقم التلاميذ بصنعها، والأسوأ من هذا أن ابني عندما ذهب بعد انتهاء المعرض لاستعادة تحفته الفنية التي قام بصنعها بنفسه، قالت له المدرّسة إنها فقدت، وإنه يمكنه اختيار أي شيء آخر مما بقي من المعرض، بدلًا من تحفته الضائعة، ولم تلاحظ المدرّسة أي شيء غريب في هذا الحل الذي تقدمه.

كانت هناك طبعًا حصة للألعاب الرياضية، وكانت المدرسة سعيدة الحظ بأنها ورثت من المدرسة الإنجليزية التي جرى تمصيرها، مساحة شاسعة من الأرض الفضاء المحيطة بالمبنى، وكانت تستخدم في الألعاب الرياضية والمباريات في أيام الإنجليز. ولكننا فوجئنا في أحد الأيام بمنع التلاميذ من لعب الكرة في جزء كبير من هذه الأرض، ثَمَّ جرى تسوير هذا الجزء وقيل لنا إن المدرسة، بسبب ضيق ذات اليد وحاجتها إلى إيراد إضافي لتغطية نفقاتها المتزايدة، اضطرت إلى تأجير هذه الأرض للمدرسة الأمريكية القريبة منها والتي أرادت زيادة مساحة الملاعب المتاحة لتلاميذها، بالإضافة إلى المساحة الشاسعة التي تملكها بالفعل. وهكذا رأى أولادنا التلاميذ الأمريكيين يلعبون بدلاً منهم في أرضهم التي استأجرتها المدرسة الأمريكية، مكتفين بالمساحة الصغيرة التي رأت مدرستهم أنهم لا يستحقون أكثر منها.

-٢-

بعد عشرين سنة أخرى، أي بانتهاء القرن العشرين، أصبح لي حفيدان (شريف ولارا) وشرعت ابنتي في البحث عن مدرسة مناسبة لهما. كانت المدارس الحكومية قد أصبحت مستبعدة بسبب التدهور الفظيع في أحوالها، بما في ذلك المدارس التي كانت تعتبر وتسمى مدارس نموذجية والتي تعلمت فيها أنا وأخي حسين؛ إذ لم يعد بينها وبين سائر المدارس الحكومية فرق، وبما في ذلك أيضًا المدارس التي كانت أجنبية وقامت الدولة بتمصيرها والتحق بها أولادي، فقد تدهورت أحوالها أيضًا، كما أثبتت تجربة أولادي الثلاثة وما سمعناه عنها بعد خروجهم منها.

كانت المدارس الخاصة قد بدأت تتكاثر لتملأ الفراغ الذي خلقه تدهور المدارس الحكومية، وشيئًا فشيئًا أصبح إنشاء مدرسة خاصة من أكثر فرص الاستثمار ربحًا، كما عادت الدول والجاليات الأجنبية إلى إنشاء مدارس خاصة يجرى التعليم فيها بلغتها، ومن ثَمَّ عدنا إلى عهد ما قبل الثورة مع فارق واحد مهم، وهو أنه لم تعد هناك مدارس تقدم مستوى مقبولًا من التعليم باللغة العربية.

لم يكن هناك خيار في الواقع؛ فغالبية المصريين لم تكن أمامهم إلّا المدارس الحكومية لعجزهم عن دفع تكاليف المدارس الخاصة، والباقون لم يكن أمامهم في الحقيقة، إذا كان لأبنائهم أن يتعلموا تعليمًا معقولًا، إلّا المدارس الخاصة، ولكن كان هذا مقابل التضحية بدرجة أو بأخرى بإتقان اللغة العربية، وكل ما يتصل بها من أدب وتراث، بل فى أحيان كثيرة، التضحية أيضًا بالشعور بالانتماء للمجتمع الذي يعيشون فيه.

التحق حفيداي بالمدرسة الأمريكية بالمعادى، وهي مدرسة تتقاضى مصروفات مرتفعة للغاية، ولكن لم تدفع ابنتي مليمًا واحدًا منها؛ لأنها كانت موظفة في نفس المدرسة فأعفيت من مصاريف الأولاد.

ها أنذا أرى حفيدي وحفيدتي اليوم، وقد بلغ عمرهما ١٤ و١٢ عامًا، يقضيان أيامًا بهيجة للغاية في مدرستهما الأمريكية، ويتلقيان تعليمًا على أعلى مستوى، ويقومان

في المدرسة بمختلف أنواع النشاط الرياضي، ويتعلمان العزف على آلة موسيقية أو أكثر، ويشتركان في مناظرات، وفي رحلات تنظمها المدرسة لزيارة المتاحف والآثار، بل يسافران إلى خارج مصر في رحلات مدرسية للاشتراك في مسابقة رياضية أو في حفل موسيقى مع أولاد وبنات من جنسيات أخرى...إلخ.

كل هذا رائع بالطبع، ولكن الثمن باهظ. نعم، إنهما يتلقيان دروسًا في اللغة العربية، ولكن باعتبارها لغة ثانية أو ثالثة، فلم يبدآ في تعلمها إلّا بعد إتقانهما الإنجليزية. ومن ثَمَّ فهما لا يزالان يقرآن العربية بصعوبة، ولا يستطيعان التعبير بها كتابةً إلّا بشق الأنفس.

لم يكن هذا الثمن الباهظ حتميًّا بالمرة؛ إذ لم يكن من المستحيل أن تحتفظ مصر بمستوى عال من التعليم في المدارس الحكومية، وأن تنشره بالتدريج من «مدارس نموذجية» إلى مدارس أخرى، وتحتفظ في نفس الوقت لأولادنا بولائهم لثقافتهم ولغتهم. ولكن أشياء كثيرة أخرى في خارج ميدان التعليم كانت تحدث لمصر طوال الستين عامًا الماضية، منذ أن كنت أنا في عمر أحفادي اليوم. وهي أشياء أفسدت التعليم كما أفسدت غيره.

(٥)

حرب جلال

-١-

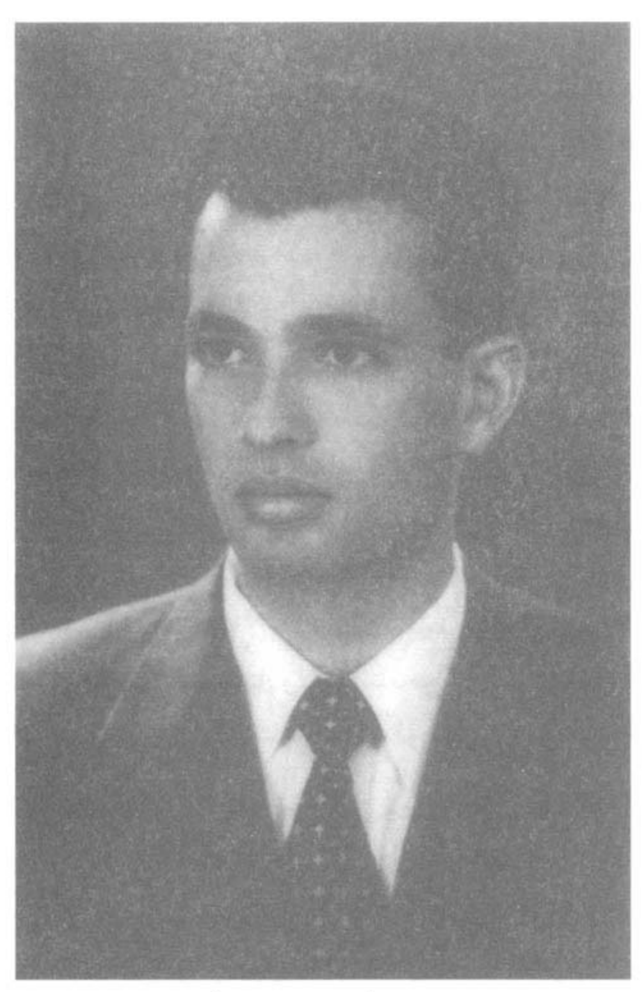
كان المفترض، باعتباري «آخر العنقود»، أن أحظى بمعاملة متميزة عن المعاملة التي لقيها بقية أولاد الأسرة وبناتها، ولكني لا أذكر أني حظيت من أبى أو من أمي بأي معاملة متميزة على الإطلاق. نعم، كانت أمي في بعض اللحظات النادرة من صفاء البال، تشير إليّ بهذا الوصف «آخر العنقود»، ولكن هذا كان هو أقصى ما حصلت عليه من حسن المعاملة. كان أبى مشغولًا على الدوام بأمور أكثر أهمية من المشاعر العارضة لهذا الابن أو ذاك، ما دام الأمر لم يصل إلى حد الأزمة النفسية أو المرض أو الرسوب في المدرسة، وكانت أمي مشغولة بتجنب غضب أبى، وبالطبيخ والغسيل لثمانية من الأطفال. بل زاد الطين بلة، بالطبع، أنه عندما قدمت أنا إلى الوجود، كان قد أصابها الإعياء التام من الأطفال السبعة الذين أتوا قبلي، بالإضافة إلى اثنيْن آخريْن ماتا قبل أن يتما سنة واحدة من العمر. صحيح أنها بذلت جهدًا كبيرًا ومشكورًا لكي تجعل قدومي إلى الوجود ممكنًا أصلًا، على ما شرحت من قبل، ولكنها بعد أن جئت إلى الوجود بالفعل لم تبذل أي جهد للتخفيف من شعوري بالوحدة والضآلة وسط هذا الجيش المخيف من الأولاد والبنات، الكبار والصغار. ويبدو أن أبى قد ترك أمي، مادامت هي التي أصرّت على إتاحة الفرصة لي للقدوم إلى هذه الدنيا، لتتصرف في الأمر كيفما تشاء.

كان مصدر عذابي في طفولتي هو بلا شك ما لقيته من معاملة أخويّ اللذيْن

يكبراني مباشرة، حسين وأحمد، إذ وجدا في هذا الطفل الصغير وسيلة لا بأس بها بالمرة لإثبات وجودهما ولو على حسابه. كانا يشبعانني سخرية إذا ما صدر مني تعبير قولي، حتى وإن كان من الطبيعي تمامًا أن يصدر من طفل في مثل سني، أو يشعرانني بالذنب العظيم إذا ارتكبت خطأ تافهًا فيصورانه على أنه جريمة شنعاء؛ مما قد يحرمني من النوم خوفًا من أن يفضحاني أمام أبي أو بقية إخوتي. كان لا بد لي أن أبحث عن منفذ للتنفس خارج البيت، وقد وجدته بالفعل واستخدمته أقصى استخدام ممكن. والظاهر أنني بذلت جهدًا كبيرًا لتعويض ما كنت أتعرض له من إهمال داخل البيت، بأن أحصل على أكبر قدر من الاهتمام في المدرسة. لا بد أن يكون هذا هو تفسير ذلك الميل لديَّ، البالغ القوة، والذي لازمني طوال الجزء الأكبر من حياتي، ولا يزال بعضه بلا شك موجودًا حتى اليوم، وهو الميل إلى لفت الأنظار إليَّ والتميّز عن المحيطين بي. وإذ فقدت أي أمل في لفت أنظار العائلة إليّ، لم يكن أمامي غير الأقران والمدرسين في مدرسة بعد أخرى.

بدأ نشاطي في هذا الأمر منذ البداية، أي منذ روضة الأطفال. فأذكر جيدًا كيف أني وأنا في التاسعة أو العاشرة من العمر، عندما التحقت بالمدرسة النموذجية الابتدائية بحدائق القبة، التقيت في أول أيام الدراسة بزميل قديم من زملائي بروضة الأطفال (هو نبيل العربي الذي صار فيما بعد مندوب مصر الدائم للأمم المتحدة، ثم قاضيًا في محكمة العدل الدولية) وكان قد مرّ على آخر لقاء لي به نحو ثلاث سنوات. نظر إلى وجهي مليًا ونظرت إلى وجهه، نحاول أن نتذكر بالضبط متى كان لقاؤنا السابق، وكان على رأسه طربوش أحمر واسع بحيث يغطي جبهته، وعلى رأسي طربوش مثله؛ مما جعل التذكر أكثر صعوبة. فإذا به يسألني بعد لحظة تأمل: «مش انت اللي كنت بتعمل حرب جلال في الروضة؟» قلت: «نعم». وكان معنى هذا أني كنت أشنّ الحروب في روضة الأطفال، وأنظمها، وأختلق للحرب أسبابًا، فأقسّم الأولاد إلى جيشيْن، أحدهما يحمل اسمي، ويواجه كل جيش الآخر، وقد أمسك كل منا بطرف مريلة الطفل الذي يجري أمامه. لا أذكر أكثر من هذا، ولكن في هذا الكفاية؛ فالجيش كان اسمه جيش جلال، ولم يكن اسمه جيش نبيل العربي أو أي اسم آخر.

ربما كان تكوين الجيوش وشنّ الحروب عملاً مناسبًا لطفل في روضة الأطفال، ولكنه لم يكن ملائمًا تمامًا لصبي في المدرسة الابتدائية. ومع هذا فما أكثر ما يمكن أن يفعله صبي مثلي للفت الأنظار إليه، وإيهام نفسه بتفوقه على الآخرين. كان بعض هذه الوسائل للأسف لا يخلو من سفالة ولا قسوة؛ مما جعلني لسنوات طويلة أشعر بالندم والخجل من نفسي كلما تذكرته. من ذلك، مثلًا، وقوع اختيارنا على أحد زملائنا في روضة الأطفال وجدناه لسبب أو آخر، فريسة سهلة، ويمكن بسهولة تحقيره وإذلاله حيث لم يكن هذا ممكنًا مع غيره. لم يكن هناك أي سبب مقبول على الإطلاق، فيما أذكر، يبرر لنا أن نصوّب إليه هو بالذات سهام التقريع والسخرية، بل لعل العكس بالضبط هو الصحيح. كان ولدًا مدللًا من والديْه، بدا لنا وكأنه يتمتع برعاية خاصة في بيته، وباهتمام يزيد عما نحظى به في بيوتنا. لم يكن هناك شيء يميز أباه عن آبائنا، ولكن أمه كانت متميزة بلا شك عن أمهاتنا إذ كانت متعلمة تعليمًا عاليًا مكّنها من شغل وظيفة محترمة، وهو أمر كان نادرًا في تلك الأيام. كان الأب والأم حريصيْن على تنمية أي موهبة قد تظهر على الابن (على النحو الذي أصبح شائعًا الآن ولم يكن شائعًا حينئذ)، ومن ثَمَّ اشتريا له كمانًا وبيانو، وأحضرا له مدرسًا خاصًّا للموسيقى حتى بلغ الولد شأنًا لا بأس به في العزف على الآلتيْن. ربما كان هذا هو السبب الحقيقي لحنقنا عليه، أو ربما كان السبب هو ميله المبالغ فيه للتفاخر بنفسه وتعاليه وتكبره. لا أذكر بوضوح أي شيء عما يمكن أن يكون قد فجَّر فينا هذا الشعور العدائي ضده، ولكني أذكر جيدًا مدى قسوتنا في معاملتنا له بسبب ومن دون سبب، فلا نتركه إلّا وقد أجهش بالبكاء. كان مع كل ذلك واحدًا من أفراد شلتنا في روضة الأطفال، كثيرًا ما نقابله ونزوره في بيته، وإن كنت لا أذكر أنه زار أحدًا منا في بيته؛ ربما لإصرار والديْه على أن نذهب نحن إليه دون أن يذهب هو إلى أحد؛ إمعانًا منهما في مراقبته ومعرفة ما يصنع. لا بد أن عذابه في إحدى المرات كان أشد مما يستطيع تحمّله؛ إذ فوجئت يومًا بمكالمة تليفونية غاضبة من أبيه يطلب فيها مخاطبة أبي، وإذا بأبي يناديني بعدها غاضبًا ليسألني عما فعلناه بصديقنا، ويخبرنا أن أباه لا يريد أن يتصل بابنه أي واحد منا بعد اليوم.



نبيل العربي، صديقي لأكثر من سبعين عامًا (منذ ١٩٣٩)

حدث هذا وعمرنا لا يتجاوز السابعة أو الثامنة، ومرت السنوات حتى محيت ذكرى هذه القصة تمامًا من ذاكرتي. ونسيت هذا الزميل من زملاء روضة الأطفال نسيانًا تامًّا، ثم تذكرتها فجأة منذ نحو عشر سنوات وقد جاوزت الستين من عمري، عندما رأيت اسمه منشورًا في إحدى الصحف، وعرفت أنه قد أصبح أستاذًا بارزًا في إحدى كليات الهندسة المرموقة في مصر. فلما تذكرت سلوكي معه، وأنا في السابعة أو الثامنة من العمر، خجلت من نفسي. إني أعرف الآن درجة القسوة التي يمكن أن يبلغها الأطفال، في مثل هذه السن، في معاملة بعضهم البعض، ولكن هذا لم يمنعني

من الشعور بالخجل والندم. ثم حدث بعد هذا ما أظهر لي هذه الوقائع القديمة في صورة مختلفة تمامًا. فمنذ أربع أو خمس سنوات دُعِيتُ إلى عشاء ضم مجموعة من المهندسين، وإذا بصاحب البيت يقدم لي هذا المهندس البارز والناجح فأجده هو نفسه زميلي القديم المسكين الذي عاملته وأنا طفل بكل هذه القسوة. كان يتذكرني جيدًا، ولكن لم يبد عليه، وقد جاوز الآن الستين من العمر، أي شيء يدل على أنه يحمل ضدي أي ضغينة، أو أنه يذكر أيًا من الحماقات التي كنا نرتكبها ضده، بل عبّر عن رغبته الأكيدة في أن نلتقي من جديد. لم يكن هذا في حد ذاته غريبًا، فربما احتفظت ذاكرتي أنا بأسوأ الأمور ونسيت بعض الأشياء الجميلة، أو بعض الأيام التي كنت أعامله فيها بلطف. وإنما كانت المفاجأة الحقيقية لي أنني بمجرد أن تبادلت معه الحديث لبضع دقائق تبينت على الفور السبب الحقيقي لاختيارنا له كفريسة سهلة. ربما كان بالفعل مهندسًا ناجحًا وأستاذًا مرموقًا، وربما كان على درجة عالية من الذكاء والكفاءة، ولكن كل هذا لا يمنع أنه كان يجد صعوبة بالغة في الابتسام، ولا يترك نفسه لحظة واحدة على سجيتها. ولا بد أننا نحن الأطفال الخبثاء قد أدركنا ذلك بالفطرة منذ أكثر من ستين عامًا، وقمنا باستغلاله لمصلحتنا أسوأ استغلال.

لا أذكر أشياء كثيرة من هذا النوع، ولكن لاشك أنني سرعان ما اكتشفت في نفسي القدرة على الظهور ولفت الأنظار إليّ بطريقة أخرى، وهي أن أصبح الأول في الترتيب بين كل تلاميذ الفصل، في كل امتحان نؤديه. وكان هذا هو بالفعل ما حدث في كل امتحان دخلته حتى سنوات الجامعة. ربما حدث مرة أو مرتيْن أن كان ترتيبي الثاني، ولكن من المؤكد أن هذا لم يتكرر كثيرًا، حتى أصبح حصولي على المركز الأول في كل امتحان هو ما يتوقعه الجميع مني في البيت والمدرسة على السواء. الغريب فعلاً في الأمر، ليست هي قدرتي على الاحتفاظ بهذا المركز طوال هذه السنوات، بين تلاميذ ليس لدى أي منهم نفس الرغبة وبهذه الدرجة من القوة، في التميّز عن الآخرين، وإنما الغريب والمدهش حقًا هو تلك الأهمية التي كنت أعلقها على هذا التميّز. لم يكن حصولي في الامتحان على المركز الثاني بدلاً من الأول، مجرد حادث مؤسف أو محزن، يتطلب بذل المزيد من الجهد في الامتحان التالي، بل كان في نظري مأساة ومصيبة لا تعادلها مصيبة أخرى. لم يكن الاحتمالان

المطروحان هما إما الحصول على المركز الأول وإما على مركز أقل منه، بل كانا هما إما أن أكون الأول وإما ألا أكون شيئًا على الإطلاق. والمسألة بلا شك مرضيّة وتحتاج إلى بعض التأمل، فهي تنطوي على اعتبار الاعتراف بأنني الأول على الجميع شرطًا للاعتراف بوجودي أصلًا. الأمر هنا شبيه جدًّا بشعور الرجل الذي يحب امرأة حبًّا جمًّا ثم تأتي إليه هذه المرأة لتقول له إنها تحترمه وتقدّره ولكنها تحب رجلًا غيره! فما جدوى الاحترام والتقدير في هذه الحالة؟ إن المطلوب هو الحب ولا شيء غيره، وفى الحب ليس هناك مركز أول ومركز ثان، بل مركز واحد فقط. نعم، كانت بلا شك حالة مرضيّة، ولكنها لا تخلو من عدد من المنافع. فلا شك أولاً أن هذا الاعتقاد بأن أي مركز غير المركز الأول لا قيمة له على الإطلاق، قد دفعني إلى الاستماتة للحصول على المركز الأول في كل امتحان، وهو ليس شيئًا سيئًا في ذاته، ومن المؤكد أن كثيرين ممن حققوا أي نوع من التفوق في حياتهم كانوا مدفوعين بشعور من هذا النوع، سواء كانوا من السياسيين أو القادة العسكريين أو الممثلين أو الكتّاب... إلخ.

عندما أفكر الآن في هذا الأمر لا يعتريني أي نوع من البؤس أو الخجل من نفسي، بل أجده فقط أمرًا طريفًا وإن كان يدعو إلى بعض الرثاء. فالذي دفع ثمنًا عاليًا لهذه الرغبة العارمة في التفوق على الجميع هو أنا، ولا أظن أني قد أحدثت بسببه أذى كبيرًا لغيري من الناس، أو على الأقل، لا أظن أن الصفة العكسية، أي الرضا بأن أكون من أقل الناس شأنًا، كان من الممكن أن تحدث ضررًا أقل بالآخرين. بل لا أشك في أن هذه الرغبة العارمة في التفوق على الآخرين قد جلبت بعض السرور والنفع لبعض الناس، ممن قد يكون قد استمع إلى محاضرة جيدة ألقيتها، أو قرأ كتابًا أو مقالًا لي فأعجب به.

ـ ٢ ـ

كنت في الثانية عشرة من عمري عندما جاء مدرس موهوب (اسمه مصطفى بدران) ليجري علينا (نحن تلاميذ مدرسة الأورمان النموذجية) تجربة جديدة في تدريس

الكيمياء. لا أذكر أني تلقيت في حياتي أي دروس في الكيمياء عدا تلك الدروس القليلة التي ألقاها علينا مصطفى بدران لمدة شهريْن أو ثلاثة. لا أدري كيف حدث هذا على الرغم من أني أرسلت إلى مدارس جيدة بعضها كما ترى «نموذجي»، ولكن كانت النتيجة على أي حال أني حتى الآن لا أكاد أعرف شيئًا بالمرة عن هذا العلم. كان لدى مصطفى بدران تلك الفكرة الجديدة والصائبة فيما أظن، وهي أن الشخص لا يستوعب أي معلومة جديدة أو أي نوع من المعرفة استيعابًا حقيقيًّا وراسخًا ما لم تكن لديه ابتداء رغبة في معرفتها. بعبارة أخرى: إذا لم يكن في ذهن الشخص سؤال في الأصل، فليس هناك جدوى من إخباره بالإجابة. ومن ثَمَّ كانت طريقته أن يخبرنا أولاً بالموضوع الذي يريد أن يتكلم فيه، بحيث يكون الموضوع ذا صلة وثيقة بحياتنا اليومية؛ حتى يضمن أن تثور في أذهاننا بعض الأسئلة بشأنه. ثم يطلب منا أن نطرح هذه الأسئلة التي قد تشوقنا معرفة إجابتها. وينفق وقت هذا الدرس الأول في جمع الأسئلة منا وترتيبها وتصنيفها، بمشاركتنا نحن في هذا كله بقدر الإمكان. ثم يأتي في الدرس التالي بالإجابات، متوقعًا أن تكون لدينا الآن رغبة حقيقية في الاستماع وتحصيل المعرفة الجديدة.

كان مصطفى بدران هذا واحدًا من مجموعة من الشبان النابغين من خريجي الجامعة، والذين كانوا ينوون التخصص في فرع من فروع التربية. وقد أرسل معظمهم فيما بعد في بعثات حكومية إلى الخارج وحصلوا فيها على الدكتوراه ثم عادوا إلى التدريس في كليات التربية في مصر. وقد حاولت أكثر من مرة البحث عن أستاذي القديم مصطفى بدران لأعرف ما حدث له بعد سفره وحصوله على الدكتوراه فلم أفلح. ذلك أنه كانت لي معه قصة من قصص حياتي التي قد تبدو تافهة الآن، ولكنها تركت أثرًا مهمًّا فيّ. كان الرجل، كما أتذكره الآن بعد مرور أكثر من ستين عامًا على هذه القصة، حاد المزاج صريحًا لدرجة يمكن أن تجرح شعور كثيرين، جريئًا ونشيطًا، يحب عمله حبًّا جمًّا وإن لم يكن، فيما أظن، يحب تلاميذه بنفس الدرجة. هكذا أيضًا كان شعورنا نحوه. لم يكن من المدرسين المحببين إلينا إذ لم يكن يبذل أي جهد لمحاولة كسب هذا الحب. كانت صدمة مذهلة لي عندما تلقيت تقرير المدرسة عن الفترة الدراسية الأولى، أو النصف الأول من العام، وكان

هذا هو البديل عن نتائج الامتحان، فقد قررت المدرسة، كتجربة أخرى من تجاربها بوصفها مدرسة نموذجية، أن تستغنى في تلك الفترة عن الامتحانات، ويكتفى بأن يكتب كل مدرس تقريرًا مفصلاً، ولو في صفحة كاملة، عن كل تلميذ، يتناول كل شيء يمكن أن يكتب عنه، بما في ذلك الجوانب النفسية والأخلاقية... إلخ. كان تقرير كل مدرس من المدرسين عني تقريرًا مقتضبًا في جملة واحدة أو جملتيْن، ولا يحتوي إلّا على عبارات الثناء والتقريظ التي لا تختلف عما أتوقعه، باستثناء تقرير مصطفى بدران. لقد ملأ الصفحة كلها بالكلام، ولم يترك سطرًا فيها بلا كتابة، وكان التقرير كله أشبه بعريضة اتهام. ليس فيه أي ثناء، ويدور كله تقريبًا حول «حبي للظهور»، وأني «لا أهتم إلّا بمجالات المنافسة». كان هذا الكلام، عندما أتذكره الآن، صحيحًا مائة في المائة، وكان جديرًا حقًّا بأن يكتبه مدرس عن تلميذه، ومن المفيد أن يعرفه الأب والأم، ولكنه وقع عليَّ وقتها كالصاعقة التي كادت تدمرني تدميرًا. نعم، كنت إذا طلب منا مصطفى بدران خلال درس الكيمياء أن نذكر ما يمكن أن يخطر ببالنا من أسئلة عن هذا الموضوع أو ذاك، مما نحب أن نعرف الإجابة عنه، صمتُ صمتًا تامًّا؛ إذ لم أكن أريد أن أعرف شيئًا عن موضوع كهذا، يؤدى في النهاية إلى الأكسجين أو ثاني أكسيد الكربون. أو لعلني في الحقيقة لم أكن أهتم بالمشاركة في مناقشة كهذه لا يترتب عليها أي أثر فيما يتعلق بترتيب مركزي في الفصل. هكذا رأى هو الأمر، وأظن أنه كان مصيبًا، كما أنه رآه من الأهمية بحيث يستحق أن يكتب عنه بالتفصيل في التقرير المدرسي.

حدث لي حادث آخر مع مصطفى بدران خلال إحدى الرحلات التي نظّمتها المدرسة. كانت الرحلة إلى قرية إدكو في شمال غرب الدلتا حيث أقمنا معسكرًا قضينا فيه بضعة أيام، وكان المطلوب من التلاميذ القيام بشيء قريب مما يسمى الآن «الدراسة الميدانية» لمجتمع هذه القرية من مختلف الجوانب. فقسم التلاميذ إلى مجموعات، تكون كل مجموعة منها مسئولة عن جمع المعلومات عن جانب من جوانب الحياة في القرية، ويطوف التلاميذ بالقرية وقد حمل كل منهم نوتة صغيرة وقلمًا، ويسأل الناس عن أحوالهم ويسأل المسئولين عن عدد السكان، والمشاكل الصحية للقرية، ويلاحظ ما يأكلون ويشربون... إلخ. وفى آخر يوم من أيام المعسكر

تعكف كل مجموعة من التلاميذ على كتابة تقريرها، ثم تناقش التقارير كلها، وقد اجتمع التلاميذ جميعًا مع أساتذتهم؛ لاستخلاص تقرير واحد شامل. الفكرة كما ترى بديعة حقًّا، ولكن ما يهمني الآن هو أن أحكي ما حدث بيني وبين مصطفى بدران. كنت (بالطبع) المقرر المسئول عن إحدى المجموعات. وعندما انتهينا من جمع المعلومات، ثم من كتابة التقرير، بقي علينا أن نكتب صفحة الغلاف، قبل أن نقدم التقرير للأستاذ بدران. وقمت أنا (بالطبع أيضًا) بكتابة صفحة الغلاف، فإذا بي أكتب عنوان التقرير بخط كبير جدًّا، وربما استخدمت الخط الكوفي أو الفارسي في كتابته، ووضعت بضع علامات تعجب أو شيئًا من هذا النوع. المهم أن الصفحة لا بد أن بدت درامية للغاية. فوجئت برد فعل الأستاذ بدران، الذي ما إن رأى صفحة الغلاف حتى أمسك بها بكلتا يديْه ومزّقها إربًا، وطلب منا أن نعود إلى كتابتها من جديد بخط بسيط جدًّا ودون أي محاولة للتحذلق. وقال جملة معناها أن «الجمال في البساطة». كان معه حق بالطبع، وإن كان من الممكن أن يُعتبر تصرّفه حادًّا أكثر من اللازم، خاصة مع تلميذ صغير. على أي حال كان هذا التصرف من جانبه، إلى جانب التقرير الذي كان قد كتبه عني من قبل، كافيًا لإزالة أي شك في ذهني في أنه لا يحبني ويشعر شعورًا عدائيًّا جدًّا نحوى. كان هذا الظن من جانبي إمعانًا في الخيال، ولكني ما إن عدت من الرحلة حتى ذهبت إلى أبي لأحذره من أن هناك مدرسًا اسمه مصطفى بدران، قد يصبح السبب في رسوبي في آخر العام؛ لأنه يكرهني كراهية شديدة ومصمم على الإساءة إليَّ. كان أبي يعرف أستاذًا كبيرًا في التربية (هو المرحوم فؤاد جلال الذي أصبح فيما بعد، ولفترة قصيرة، وزيرًا للشئون الاجتماعية في أوائل عهد الثورة) وكان وقتها يشرف على هذه الصفوة المختارة من المدرسين الذين يقومون بهذه التجارب التربوية في المدارس النموذجية. فاتصل به أبي ونقل إليه شكواي من بدران فوعده باستقصاء الموضوع، ثم عاد فاتصل بأبي ليطمئنه على أن ما بذهني لا يزيد عن تخيلات لا أساس لها، وأن الأستاذ بدران لا يحمل لي إلّا التقدير والمودة. وفى اليوم التالي جاءني الأستاذ بدران ليقول لي نفس الشيء بمنتهى الرقة والعذوبة، ومعبِّرًا بصدق عن دهشته الشديدة من أن يكون مثل هذه الأفكار قد دار بذهني.

* * *

الأغرب من هذا وذاك ما حدث مني في نفس المدرسة مما يشعرني بخجل أكبر كلما تذكرته، ويزيد عن خجلي حتى من محتوى التقرير الذي كتبه مصطفى بدران عني. خطر لأحد المدرسين يومًا أن الجو جميل لدرجة تسمح بإعطاء الدرس في الحديقة بدلاً من الجلوس في غرفة مغلقة. وكان لمدرسة الأورمان المواجهة لحديقة الأورمان الشهيرة، حديقة رائعة بدورها وواسعة ومليئة بالأشجار الباسقة. ولم يكن يفصل مدرستنا عن جامعة القاهرة إلّا شارع واحد، وتليها المدرسة السعيدية. كنت في نحو الثالثة عشرة من عمري، وكانت السنة هي ١٩٤٨، وقد حفلت تلك السنوات الأولى التالية لانتهاء الحرب بالإضرابات والمظاهرات في مصر، من تفجيرات الإخوان المسلمين للقنابل، إلى مقتل المسئول عن أمن القاهرة، إلى فتح النقراشي رئيس الوزراء لكوبري عباس (الجيزة) بمن عليه من تلاميذ كانوا قد خرجوا في مظاهرة ضده، فاضطر بعضهم إلى إلقاء أنفسهم في النيل، وإلى مقتل القاضي الذي أصدر أحكامًا ضد الإخوان، وإلى مقتل النقراشي نفسه... إلخ.

كانت المظاهرات في الجامعات والمدارس لا تكاد تنقطع، وما أكثر ما كانت الصحف تخرج من الصباح معلنة إغلاق الجامعات والمدارس لأجل غير مسمى. وكانت المدرسة السعيدية الثانوية القريبة من مدرستنا مشهورة بكثرة مظاهراتها. ربما كان هذا لقربها من الجامعة؛ أو لارتفاع أعمار تلاميذها، الذين كنا نراهم سائرين إلى مدرستهم أو عائدين منها فنظنهم من موظفي الحكومة؛ لشواربهم المفتولة وبدلتهم الكاملة والكرافتة... إلخ. كان كثير من طلبتها قد قضوا فيها سنوات وسنوات، لا يكادون ينتقلون من سنة دراسية إلى السنة التي تليها، ولا يبدو عليهم أي أمل ولا رغبة في أن ينهوا تعليمهم. كما شاع أن بعضهم كان يتلقى مرتبات ثابتة من بعض الأحزاب حتى يثيروا الشغب كلما غضبت هذه الأحزاب على الحكومة. قيل أيضًا عن طلبة المدرسة السعيدية إن لديهم جدولًا بأيام السنة كلها، حَدَّد لكل يوم منها سببًا للخروج في مظاهرة، هذا اليوم هو يوم ذكرى وعد بلفور بإعطاء فلسطين لليهود، وهذا يوم ذكرى حادث دنشواي، أو ذكرى وفاة مصطفى كامل، أو إعلان دستور ١٩٢٣... إلخ. في كل يوم من هذه الأيام يخرج التلاميذ إلى الشوارع وهم يصيحون: «يسقط هذا». و«يعيش ذاك»، وكثيرًا ما تنتهي المظاهرة بدخول التلاميذ في إحدى دور

السينما ليحضروا الحفلة الصباحية لأحد الأفلام. وكان البعض يتندر وقتها بأن تلاميذ المدرسة السعيدية إذا جاء يوم استعصى عليهم تمامًا العثور على سبب للخروج فيه في مظاهرة، وقف أحدهم في فناء المدرسة فصاح بأعلى صوته: «يعيش السمك في الماء» أو «يسقط المطر في الشتاء»، فيلتف حوله زملاؤه ويرددون وراءه الهتاف حتى يتجمع عدد كافٍ فيخرجوا من المدرسة وهم يهتفون: «اليوم حرام فيه العلم».

كان طلبة السعيدية إذا مرّوا خلال مظاهرتهم بمدرسة مثل مدرستنا، متوسط السنّ فيها أقل من متوسط أعمارهم بكثير، والنظام أكثر استتبابًا، فوجدوا أن تلاميذها لم يخرجوا في مظاهرة ولا ينتظر أن يخرجوا، أضافوا إلى هتافاتهم هتافًا يعبّر عن احتقارهم لتلاميذ هذه المدرسة، فيصيحون: «تسقط مدرسة البنات» قاصدين أننا في الضعف والرخاوة والخوف، أقرب إلى البنات منا إلى الرجال.

كنا نجلس في «حصتنا» في حديقة مدرسة الأورمان نتلقى أحد الدروس وإذا بنا نسمع هتافات طلبة المدرسة السعيدية تأتينا من وراء السور مدوية بسقوط هذا وحياة ذاك. لا أذكر ما الدرس الذي كنا نتلقاه حينئذ، كما أني لا أذكر سبب المظاهرة، ولكني أذكر أن شعوري وشعور زملائي الجالسين في الحديقة كان بالتعاطف تعاطفًا حقيقيًّا مع المتظاهرين، ولم تكن فيه شبهة الرغبة في الإخلال بالنظام أو الخروج من المدرسة بلا سبب. أذكر أن مضمون الهتافات كان وطنيًّا بحتًا وأنني شعرت بالخجل الشديد من أننا جالسون في الحديقة لا نفعل غير تلقى الدروس كالمعتاد، والبلد ملتهب المشاعر في الخارج، وبدا لي الأمر وكأن الموقف الوحيد «المبرر أخلاقيًّا» هو أن نقوم ونشارك المتظاهرين في مظاهرتهم. ترددت لحظة ثم وجدت نفسي أقف فجأة وكأني مدفوع بقوة خفية لا أستطيع صدّها، وأطلقت هتافًا شبيهًا بما يطلقه المتظاهرون في الخارج. وردّد بقية طلبة الفصل هتافي. فإذا بالمدرّس يرتعد دهشة وغضبًا، ويذهب على الفور لإبلاغ الناظر الذي أصدر علينا كلنا حكمًا بالفصل من المدرسة حتى يحضر أولياء أمورنا للتباحث في الأمر.

عندما أتذكر هذه الواقعة الآن، ألاحظ أن هذه الرغبة في الظهور ولفت الأنظار، التي كانت قطعًا وراء اتخاذ هذا المسلك الغريب، كانت تختلط في نفسي بشعور آخر

لا يقل قوة بأن هذا المسلك هو الموقف الأخلاقي الوحيد الذي يجب عليَّ اتخاذه. لقد تكرر مثل هذا المسلك من جانبي عدة مرات خلال السنوات التالية، وإن كان قد اتخذ شكلًا أكثر جدية ووقارًا من الوقوف للهتاف في وسط حديقة مدرسة الأورمان. بل لا أستغرب أن يصدر منى مسلك مماثل في المستقبل، يختلط فيه نفس الدافع إلى لفت الأنظار، بالشعور بالواجب الأخلاقي الذي يفرض عليَّ اتخاذ هذا الموقف. عندما أسترجع في ذهني الآن بعض هذه المواقف (وما أكثرها)، التي اختلط فيها هذان الدافعان، لا يخامرني شك في صحة معظم هذه المواقف من الناحية الأخلاقية، وإن كنت أشعر بالأسف لما اقترن كثير منها بقسوة لا بد أنها أصابت بعض الناس، ومنهم من كان صديقًا لي، بالألم المقترن بالدهشة من أن أهاجمهم بهذه الشدة. ومع ذلك فإني أعود فأقول لنفسي إنه كان من المستحيل من دون هذه القسوة أن أحقق أيًّا من هذيْن الهدفيْن: النبيل منهما والدنيء. إذ لم يكن من الممكن أن أدافع عن الحق دفاعًا مؤثرًا دون أن يصيب هذا بعض الناس بسوء، ولا كان من الممكن أن أحقق ما أبتغيه من ظهور واعتراف الناس بوجودي دون أن يدفع بعض الناس ثمنًا لذلك.

(٦)

سن المراهقة

ـ ١ ـ

كانت سنوات الجامعة (١٩٥١ - ١٩٥٥) بلا شك، من أقل سنوات حياتي بهجة. عندما أعود إلى تذكر أيام الصبا وبداية الشباب، يعود إليَّ الكثير من الذكريات البهيجة وأنا في المدرسة الابتدائية أو الثانوية، كما أتذكر أيامًا سعيدة للغاية أثناء بعثتي في لندن. ولكني نادرًا ما أتذكر يومًا بهيجًا في السنوات التي قضيتها في جامعة القاهرة.

عندما أستعيد ظروف حياتي في تلك الفترة لا أعجب من أن يكون هذا هو حالي. كنا ندخل كلية الحقوق كل يوم فلا نصادف إلّا وجوهًا متجهمة من الأساتذة أو الموظفين أو الفراشين. كان عددنا كبيرًا جدًّا فلم يكن يبالي بنا أحد؛ ولا يميز الأستاذ بين أحدنا والآخر. كنت قد أتممت دراستي الثانوية بتفوق ملحوظ؛ إذ كان ترتيبي الأول على المملكة المصرية كلها في شعبة الأدبي، ولكن هذا لم يكن له صدى يذكر في البيت، ولم يكن له أي صدى على الإطلاق في الجامعة. لم أقابل أحدًا في كلية الحقوق خلال السنوات الأربع يعرف أنني كنت الأول على الثانوية العامة باستثناء طالب واحد لا أعرفه جاء إليَّ ليسألني: هل أنا الأول على شعبة الآداب؟ فأجبت بالإيجاب ثم انصرف، ولم أره قط بعد هذا. وقد خطر لي وقتها أنه ربما كان يتعجب من أني كنت فعلاً أول التوجيهية، بينما يبدو على وجهي كل هذا البؤس. أما في البيت فلا أذكر أن احتفالًا أقيم لي أو هدية قدمت إليَّ من أي من أفراد العائلة. ما أذكره فقط بهذا الشأن أن زوج أختي الكبرى قال لأبي مرة أمامي، إن هذا التفوق من شأنه أن يعطيني «دفعة قوية من الثقة بالنفس»، فوافقه أبي على ذلك.

كان من أسباب هذه الكآبة بلا شك ما كان يسود بيتنا خلال تلك السنوات من توتر شديد وشجار مستمر، وصياح وعويل لا ينقطعان، كان مصدرها الأساسي حالة أبي الصحية. كانت سنواتي الثلاث الأولى في الجامعة هي آخر ثلاث سنوات من حياة أبي، وقد توالت عليه فيها الأمراض: جلطة في المخ، وتصلب في الشرايين، وتدهور شديد في بصره، مع ارتفاع الضغط والسكر. وقد تحول أبي بسبب هذا إلى رجل ضيق الصدر، سريع الغضب، ينفجر فينا لأهون سبب؛ مما ضاقت به أمي فساء مزاجها هي الأخرى.

كنت أذهب إلى الكلية حزينًا وأعود متوجسًا، فإذا وصلت إلى البيت دخلت إلى حجرتي وأغلقت الباب ورائي إلى أن يحين موعد الأكل. وهكذا كان يفعل بقية إخوتي ما لم يستوقف أبي أحدنا شاكيًا أو محتجًا على تصرف من تصرفاتنا.

لم أجد في مقررات الدراسة في كلية الحقوق ولا في أساتذتها ما يمكن أن يخفف من هذا الشعور. لم تكن دراسة القانون مما يستهويني أصلًا، ولا كانت هي الدافع لي لدخول كلية الحقوق، بل كان الدافع رغبتي في دراسة الاقتصاد. أذكر أن قلبي تحرك قليلاً عندما وجدت في كتاب «المدخل» أي مقدمة القانون، إشارة إلى أثر الظروف الاجتماعية والاقتصادية في نشوء العرف، وهو نوع من أنواع القانون، ولكن هذه الإشارة لم تستغرق أكثر من صفحة أو صفحتيْن، ثم تحول الكلام إلى معنى الالتزام وشروط صحة العقد مما لم يثر في نفسي أي حماس. ولكن خيبة الأمل كانت شديدة على الأخص في مقررات علم الاقتصاد؛ إذ سرعان ما انتقل المحاضر والكتاب، بعد محاضرة أو اثنتيْن في تعريف علم الاقتصاد، إلى كلام عن قانون تناقص المنفعة الحدية. وهو كلام سهل جدًّا وواضح للغاية، ولكني أشك في أن من الممكن، بسبب هذا الوضوح التام نفسه، أن يثير اهتمام صبي في السادسة عشرة من عمره. ثم انتهى الأمر باليأس التام من هذا العلم، عندما تبين أن معظم المقرر يدور حول العوامل المحددة لثمن السلعة، وتقاطع منحنيي العرض والطلب.

أما الأساتذة، فلا أتذكر أني رأيت أحدهم طوال سنوات الكلية الأربع وهو يضحك أو حتى يبتسم، باستثناء أستاذ واحد أو اثنيْن. كان من أساتذة الحقوق رجال

عظام حقًّا، ولكن من الواضح أنهم كانوا ضد التبسط مع الطلبة على أي صورة، ربما لمجرد وجود هذا العدد الضخم في المدرج؛ مما يجعل من الصعب السيطرة عليهم لو أفلتت من الأستاذ أي بادرة بسيطة قد توحي بالتساهل أو الضعف.

على أن الأرجح أن السبب الأساسي وراء اكتئابي كان شيئًا أبسط من هذا كله. كانت هذه السنوات هي سنوات المراهقة، حين يشرع الولد في اكتشاف نفسه، ويبحث عما يؤكد تفرده وتميّزه، ويتوق إلى علاقة من أي نوع مع الجنس الآخر، ويستغرق في أحلام اليقظة وينطوي على نفسه، ويصاب إما بالخجل الشديد وإما بالعدوانية، وبحساسية شديدة لرأي الآخرين فيه... إلخ. وقد كان لديَّ أنا استعداد أكثر من غيري للانطواء والحساسية المفرطة بسبب موقعي فيّ آخر الصف في أسرة كبيرة الحجم، فضلاً عما يمكن أن أكون قد ولدت به أصلًا من ميل إلى الانطواء والانكفاء على النفس، وحاجة مستمرة إلى ما يبعث فيَّ الثقة بالنفس من جديد. فلما ذهبت إلى الجامعة ووجدتها على النحو الذي وصفته؛ حيث لا يبالي أي إنسان بأي إنسان، اشتد ميلي للانطواء على النفس.

ناهيك بالطبع عن انعدام أي فرصة للاقتراب من الجنس الآخر. كان المجتمع المصري كله مجتمعًا ذكوريًّا بدرجة أكبر بكثير مما هو الآن: في الجامعة، كما في الشوارع أو وسائل المواصلات، في المصالح الحكومية كما في المقاهي ودور السينما والنوادي وعلى الشواطئ... إلخ. كان عدد الفتيات في السنة الأولى من سنوات كلية الحقوق لا يزيد بأي حال على عشرة وسط ثمانمائة أو ألف من الذكور، وكان كل شيء في سلوك هذه الفتيات يصدّ أي محاولة قد يفكر فيها واحد منا لتكوين أي علاقة مع إحداهن، وكأنهن يحملن باستمرار لافتة كتب عليها «ممنوع الاقتراب أو اللمس». وقد اتخذت هذه الحفنة من الفتيات، على أي حال، كل الاحتياطات اللازمة لمنع أي محاولة للاقتراب أو اللمس. كان للمدرج الكبير الذي نتلقى فيه المحاضرات بابان: باب أمامي بجوار المنصة التي يجلس أو يقف أمامها الأستاذ المحاضر، وباب خلفي في أعلى المدرج. كانت الفتيات تنتظرن إلى آخر لحظة قبل بداية المحاضرة؛ حتى لا يجلسن في المدرج مدة أطول من اللازم قبل دخول

الأستاذ؛ إذ قد يتجرأ واحد منا قبل وصوله فيوجّه إليهن الكلام. وقد يكون دخولهن إلى المدرج في نفس اللحظة التي يدخل فيها الأستاذ، فيزول أي خطر عليهن. ولكن ربما حدث، على سبيل الخطأ، أن يتأخر دخولهن بضع لحظات بعد دخول الأستاذ فيسرعن إلى أماكنهن في خجل شديد. كان الأساتذة، الذين كانوا جميعًا في عهدي، ومن دون استثناء، من الرجال، يتجاهلون تمامًا هذه الظاهرة، ظاهرة وجود بعض الفاكهة المحرمة وسط جمهور من الجياع، فيتصرفون كما لو لم يكن لهؤلاء الفتيات وجود، اللهم إلّا إذا وجد أستاذ ظريف (وكان هذا ظاهرة نادرة بدورها) لا يجد غضاضة في أن يعبِّر بشكل أو بآخر عن هذه المفارقة الغريبة. كان الدكتور محسن شفيق، أستاذ القانون التجاري، من هؤلاء الظرفاء، فلم يملك نفسه عندما دخل المدرج مرة، بل بدأ في إلقاء المحاضرة بالفعل قبل دخول الفتيات، ثم إذا به يراهنّ وهن يدخلن من الباب المجاور له، ويسرعن الخطى في خجل شديد إلى مقاعدهن. توقف الأستاذ فجأة عن الكلام، ونظر إليهن وتابع حركتهن خطوة بخطوة، وقد ضم ذراعيْه إلى صدره، وعلت وجهه ابتسامة خفيفة. عندما رأيناه يتصرف على هذا النحو حبسنا أنفاسنا في انتظار ما قد يسفر عنه هذا الموقف غير المألوف. فإذا بالأستاذ يرأف بحالنا ويقول جملة في غاية الظرف، وتعبر عن شعورنا أحسن تعبير: «هوّه الخير لما ييجي لازم ييجي مرة واحدة؟»، انفجر المدرج طبعًا بالضحك، ولا بد أن الفتيات كدن يغشى عليهن من فرط الحياء. ثم تابع الأستاذ محاضرته عن الإفلاس.

هذا الخواء شبه التام من الجنس في حياتنا بالجامعة، لم يخفف منه، بل قوّى من أثره خواء مقابل في البيت. كان بيتنا، منذ بدأ وعيي بأي شيء على الإطلاق، بيتًا ذكوريًّا مائة في المائة. يسيطر عليه الأب سيطرة تامة، ولا وجود فيه للمرأة باستثناء والدتي. كنا نحن الإخوة ستة من الذكور وبنتيْن، ولكن البنتيْن تزوجتا وتركتا البيت قبل أن أبلغ الخامسة من عمري، ومن ثَمَّ لم أر في حياتي صديقة من صديقات إحدى الأختيْن تزورها في منزلنا، ولا سمعت حديثًا بين الأختيْن، أو بينهما وبين أمي يدور حول مشكلة أنثوية. لهذا السبب، فيما أظن، ظل «عالم البنات والنساء» عالمًا غامضًا تمامًا بالنسبة إليَّ، ولم أصادف شيئًا يغير هذه النظرة طوال سنوات المدرسة، التي لم

تكن مدرسة مختلطة، باستثناء روضة الأطفال، وطوال سنوات الجامعة، التي كانت حالة البنات فيها كما وصفت.

إني لا أشك الآن في أن هذا الحرمان التام من أي إشباع للحاجة إلى الاقتراب من الجنس الآخر، أيًّا كانت صورة هذا الإشباع، كان له أثر كبير على تصرفاتي ونوع أفكاري ومشاعري طوال سنوات الجامعة. إني أنظر الآن مثلًا إلى المجلدات التي كتبت فيها ما كنت أسميه بـ«المذكرات»، والتي بدأت الكتابة فيها من سن الثانية عشرة (١٩٤٧)، وأتصفح ما كتبته فيها عامًا بعد عام، فأجد أن ما كتبته كان قليلًا جدًّا حتى سنة دخولي الجامعة (١٩٥١)، ولم يكن مذكرات يومية بأي حال، بل قد تمر شهور دون أن أكتب خلالها شيئًا، وهي على كل حال كانت في معظمها كتابات «تقريرية» تذكر ما حدث مما بدا لي أحداثًا مهمة، مع تعليق بسيط بذكر السعادة البالغة أو الحزن الشديد، دون الخوض في وصف سخيف ومفصل لهذه المشاعر. هذه اليوميات التي كتبتها بين سن الثانية عشرة والخامسة عشرة يمكنني الآن أن أعيد قراءتها دون شعور بالخجل أو الملل، أما ما كتبته فيها بعد أن دخلت الجامعة وتخرجت منها، فإني، على كثرته، لا أكاد أحتمل النظر إليه من فرط سخافته ونرجسيته وامتلائه بالعبارات الإنشائية الضخمة الخالية من المضمون، ولا يمنعني من تمزيقه وإلقائه في صندوق القمامة إلّا الظن بأنه قد يكون هناك احتمال ضعيف لأن أغيّر رأيي فيه يومًا ما في المستقبل. ولكن هذا لم يحدث قط حتى الآن. ولا تفسير لديَّ لما كتبته من سخافات في ذلك الوقت إلّا الحرمان الجنسي.

لا شك طبعًا في أن هذا الشعور القوى بالحرمان الجنسي هو سبب اهتمامي المستمر، واهتمام أصدقائي بما يمكن أن يسمى ظاهرة «بنت الجيران»، وملاحظتنا المستمرة لتحركاتها. وأظن أنه يفسر أيضًا ما اعتراني في هذه الفترة من خجل شديد وميل مدهش إلى الجلوس ساكتًا بالبيت وسط أفراد العائلة. كما يفسر كذلك قوة العاطفة التي كنا نشعر بها في تلك السن إزاء أصدقائنا من الذكور؛ إذ الأرجح أنه لو وجدت بيننا بعض الفتيات لتحولت إليهن تلك العواطف وضعفت حدة العاطفة نحو الأصدقاء الذكور. أما المناقشات المستمرة في موضوعات بالغة التجريد والبعيدة كل البعد عن مشاكل الحياة اليومية، كالتساؤل عن المعنى «الحقيقي» للسعادة، أو من

هو «حقًّا» الرجل العظيم، أو عما إذا كان هناك «حقًّا» وراء هذا الكون إله قادر على كل شيء... إلخ، فكانت أيضًا على الأرجح مجرد تنفيس يتخذ صورة غير طبيعية بالمرة، عن مشاعر قوية ومكبوتة نحو أشياء مختلفة تمامًا.

ـ٢ـ

ولكن حدث حادث مهم خلال هذه الفترة، وكنت في الثامنة عشرة من عمري، كان لا بد أن يحدث يومًا ما بسبب قوة هذه المشاعر المكبوتة. إذ جاء صديقي «مصطفى» ليعلن إلينا أن بيت «محمود» سيكون خاليًا هذا الأسبوع بسبب سفر أبيه وأمه إلى رأس البر، وأنه يعرف بدوره شخصًا يمكنه أن يحضر لنا امرأة من لحم ودم، ومستعدة لتلبية طلباتنا جميعًا، في مقابل مبلغ معين لا يستعصى على أي منا دفعه.

لقد مر على هذا «الحادث» ما يقرب من ستين عامًا، وما كان من الممكن أن أتذكر تفاصيله لولا أني وجدت وسط هذه المذكرات، بضع صفحات سميتها «أول امرأة»، كتبتها بعد انتهاء التجربة، وظننت وقتها أن من الممكن أن تنشر كعمل أدبي، وقدمتها بالفعل لإحدى المجلات الثقافية فرفضتها لحسن الحظ. ولكن كتابة هذه «القصة» على الأقل مكنتني من تذكر ما حدث بالضبط. وها هي مقتطفات مما كتبت :

«قال لي مصطفى (إيدك بقى يا عم على خمسين قرش). صدمني قوله، إذ إنه لم يكد يمرّ يوم على أخذي آخر جنيه لي من مصروف الشهر من والدتي، وقد أنفقت نصفه تقريبًا. فإذا أنفقت النصف الآخر اليوم اضطررت للطلب منها غدًا، وقد يجعلها هذا تشك في الأمر. ولكني بالطبع لم أرد أن تفلت هذه الفرصة من يدي بعد أن انتظرتها طويلًا».

سُرَّ مصطفى من سرعتي في الدفع وأمل أن يقلدني الآخرون. تململ «فهمي» قليلًا ثم دفع، وأخرج «محمود» خمسة وعشرين قرشًا وناولها لمصطفى قائلًا إنه صاحب البيت، الذي ستجلب إليه المرأة، وإننا يجب أن نقنع بهذا المبلغ فإن صاحب البيت عادة لا يدفع شيئًا؛ فاضطررنا للقبول.

في السابعة مساء رأيت ضرورة الاستحمام وارتداء ملابس داخلية نظيفة. طلبت هذه الملابس من والدتي على استحياء فقالت وهي تعطيها لي: «تكونشي حتتجوز؟». وفى الطريق أخذت أفكر فيما قد يعتري أبي وأمي من الشكوك إذ يرياني أصرّ على أخذ مفتاح بيتنا معي. لم تكن هذه هي المرة الأولى التي أفعل فيها ذلك، ولكن خيِّل إليَّ هذه المرة أنهما لا بد سيفهمان. وصلت إلى بيت محمود في ملابس جديدة كلها، فاستقبلوني بالسخرية: «ليه مالبستش چاكتة وكرافتة؟». كنت أنظر إلى الأمر وكأني قادم لمقابلة فتاة جميلة محترمة اتفقت معها على موعد لأول مرة.

وجدتهم جالسين في الشرفة، وأتى الخادم (صلاح)، بطبق عليه قطع من الجبنة الرومي وآخر فيه حبات من الزيتون. كان الخادم يعرف ما نحن مقدمون عليه، وفهمت من حديثه أنه عازم هو أيضًا على أن ينال نصيبه منها بعد انتهائنا نحن. وأخذ يقص علينا ما يعرفه من نكت عن العاهرات، وكنا نعرفها ومع ذلك ضحكنا وبالغنا في الضحك بسبب ما كنا نشعر به من قلق وعصبية.

كان محمود قلقًا من رؤيته سكان المنزل المقابل جالسين في الشرفة، وازداد قلقه حينما أخذ أصحاب الدكاكين المحيطة بالبيت يغلقون دكاكينهم، وقال إن كل صاحب دكان سيأخذ كرسيّه ويجلس على الرصيف بجوار البيت فيكون أمامه ما يشبه القهوة، ولا بد أن يلاحظوا كل من يعبر الباب. وأخذ فهمي يطمئنه بالقول بأن الجالسين في الشرفة لا بد أن يدخلوا بعد قليل ليناموا، وأن رجاء (الذي سيحضر المرأة) سيدخل أولاً وحده، طبقًا للاتفاق، ثم تتبعه المرأة عن بعد، وأن عيادة طبيب العيون التي تقع تحت شقة محمود لا زالت مفتوحة وليس من الغريب أن تكون المرأة ذاهبة إليها.

ثم ذكر لنا محمود سببًا آخر لقلقه، وهو أن والده يبدو أنه شك في الأمر؛ فقد عرض أبوه عليه قبل سفره أن ينام عند عمه ولكن «محمود» ألح في أن يأخذ مفتاح الشقة وينام في بيته «علشان يبقى على راحته». وناوله أبوه المفتاح قائلًا بلهجة تنم عن الشك: «خذ يا سيدي علشان تبقى على راحتك!».

وأقلقنا تأخر رجاء عن العاشرة. كنا نعرف أنه سيأتي هو والمرأة بالترام؛ إذ كان وهو يحسب تكاليف العملية كلها، قد أضاف أجرة ركوب الترام لشخصيْن. ولذا كنا

كلما سمعنا صوت ترام يصل إلى الميدان وقفنا جميعًا في لهفة لنرى ما إذا كان سينزل هو والمرأة منه، ولكن خاب أملنا المرة بعد المرة.

وأخيرًا انتفض محمود واقفًا وصاح فرحًا: «ها هو رجاء». سألناه جميعًا في صوت واحد: «هل معه أحد»؟ فقال: «نعم. إنها جاءت أيضًا».

جرينا إلى الصالة، ولكن «محمود» خاف أن يلاحظ الجيران خلوّ الشرفة فجأة فعدنا أنا وفهمي إليها. ثم انضممنا إليهم عندما دخل رجاء ومعه المرأة. كان سرور رجاء واضحًا، وكان يتوقع منا كل هذا الاهتمام، فاتخذ وجهه طابع الجدية والصرامة وهو يتكلم. كان يعرف قيمة ما جاء به.

لم أر المرأة عند دخولها، ويبدو أنهم أدخلوها على الفور إلى الحجرة التي أعدها محمود. نظرت إلى هذه الحجرة فوجدتها مضاءة والباب مغلقًا إلى نصفه. خطوت خطوتيْن لأنظر من خلال فتحة الباب فرأيت ساقيْها متدليتيْن من السرير، وكان هناك حاجز خشبي (بارافان) يحجب بقيتها. لم تكن تتحرك، وتخيلتها متجهمة خشنة تنتظر باحتقار هؤلاء الأطفال الذين سيرتمون واحدًا بعد آخر فوق جسمها. رآني رجاء وأنا أنظر من فتحة الباب فقال لي مبتسمًا: «متستعجلش، دلوقت حتشوفها كلها عريانة». كان شابًّا وسيمًا أنيقًا، يرتدى بدلته كاملة، ويكبرنا جميعا بثلاث أو أربع سنوات، والتففنا كلنا حوله ننتظر أن يشرح لنا ما يجب أن نفعله. رآنا صامتين مضطربين فقال: «مالكم خايفين ليه؟».

كانت هذه هي أول مرة لنا جميعًا باستثناء مصطفى. «ياللاّ مين أول واحد؟». كنا قد اتفقنا على أن يدخل محمود أولاً. سار محمود إلى الباب ووقف. كان من الواضح أنه خائف. سار إليه رجاء وقال: «مالك؟ ما تخشّ ياعم؟». ابتسم مصطفى وقال: «أصلها أول مرة له!» قال رجاء ضاحكًا: «أول مرة بقى يا سيدي في شبابك الغضّ؟ وانتم كمان أول مرة؟». أجاب: «كلهم». صمت رجاء برهة ثم قال: «طيب استنوا دقيقة واحدة»، ودخل إليها وأغلق الباب وراءه، ثم خرج وقال إنه أفهمها أنها أول مرة لنا جميعًا.

ودخل محمود مشيعًا بنظراتنا جميعًا وأغلق الباب وراءه. وبعد برهة أطفأ النور. وعلمت أنه يجب أن أحمل نفسي على الانتظار مدة طويلة. التففنا كلنا حول رجاء من جديد، وسأله فهمي: «هل هي تعرف أننا أربعة؟» فقال: «أيوه، وهاتوا لها أربعة كمان!». قلت لنفسي وكأنني أطمئنها: «إنها ليست إلّا عاهرة».

وبقينا جالسين في الصالة على ضوء لمبة خافتة لم يرد محمود أن يضيء أكثر منها خوفًا من أن يرانا الجيران. وحكى لنا مصطفى كيف عثروا عليها وأحضروها إلى هنا. وقال إنهم ركبوا سيارة تاكسي من بيتها، بدلًا من الترام، وطلب من كل منا عشرة قروش إضافية بسبب ذلك.

ومضى وقت طويل قبل أن يجدَّ شيء، وأخذنا ننظر إلى الحجرة في ضيق، إلى أن سمعنا صوت السرير يتحرك، فساد الهرج والمرج، وصفق صلاح الخادم ضاحكًا، ثم خلع جلبابه وظل يطوف بالصالة رائحًا غاديًا وهو في قمة المرح. وقال فهمي إنه سوف «يتفنن معها».

وأضيئت الحجرة وفتح الباب، وخرج محمود مرتديًا فانلته وهو يتصبب عرقًا، ولعله لم يعرف ماذا يقول، فأشار إليَّ قائلًا وباختصار: «ياللا...».

كان هذا دوري، ولا أذكر ماذا قالوا قبل أن أدخل، فقد كنت في حالة اضطراب كامل. حينما دخلت رأيتها جالسة على الكنبة بجوار الباب وقد استرخى جسمها تمامًا وامتدت ساقاها، وكان أول ما استرعى انتباهي القميص الأبيض القصير الذي تلبسه وقد ألصقه العرق بجسمها فشفّ عما تحته... لفت نظري أيضًا أن وجهها لم يكن ينمّ عن سن كبيرة مطلقًا، وكانت جميلة فعلًا، إلّا إذا ابتسمت فقد كان في فمها أو في أسنانها شيءقبيح.

ابتسمت لي ابتسامة عريضة لا معنى لها إلّا «أهو انت الآن؟». وسرَّني أن كانت جلستها ونظرتها تدلان على أنها تفهم لماذا دخلت، وكنت أتخيل قبل ذلك أنني في حاجة إلى تمهيد. لم تترك لي وقتًا كافيًا للارتباك، فقالت في نغمة ذليلة : «كباية ميه من فضلك».

وفتحت الباب وقلت لهم إنها تريد كوبًا من الماء. وما إن ناولتها الماء وشربته حتى قالت: «فيه سيجارة والنبي؟». وسرَّني أنها لم تدع لي لحظة سكون حتى الآن، وفتحت الباب مرة أخرى وأخبرتهم بما تطلب فأسرع فهمي بمناولتي سيجارة. شعرت بأهميتي إذ أفتح الباب كل فترة، وأطلب لها شيئًا ثم أغلق الباب ورائي، دون أن يعرفوا ما أفعله من وراء الباب.

ناولتها السيجارة وابتعدت عنها قليلًا لأخلع ملابسي، وعندما انتهيت من خلعها نظرت إليها في خجل لأرى ما الذي تشعر به وهي تراني بهذا الشكل، فرأيتها تدخن السيجارة وتنظر إليَّ وكأنها لا ترى شيئًا على الإطلاق؛ فتلاشى خجلي تمامًا.

رأيت أنني لا يمكن أن أظل واقفًا بعيدًا عنها حتى تنتهي من السيجارة. فلا يمكن أن تكون هي تتوقع ذلك. جلست إلى جوارها على الكنبة ومررت بأصابعي خلال شعرها، وكان جميلًا يميل إلى الحمرة، ولكنه خشن. واقتربت بوجهي من وجهها واستمرت هي تدخن السيجارة دون أن يتغير تعبير وجهها عما كان في لحظة دخولي.

قالت في عتاب ويأس: «ممكن تستنى لغاية ما أخلّص السيجارة؟»، وآلمني أن تظن أنني أريد أن أبدأ الآن قبل أن تنتهي من السيجارة، ثم أفزعني قيامها وإطفاؤها السيجارة فجأة، ولما تبلغ نصفها وذهابها إلى السرير وهي تقول: «طيب يا لّلا...» أي «فلتفعل ما تشاء ما دمت لا تريد أن تترفق بي...». ورقدتْ على السرير في سكون واستسلام.

لا أدرى ما الذي دهاني ولكني لم أشعر بأي لذة مطلقًا، بل أحسست بتعب في ساقي، وكان كل ما أعرفه قد جمعته من النكت التي كنا نتداولها، وربما لم أستطع التمييز فيها بين الصحيح والمبالغ فيه، وكانت القصص التي تتناول ما يحدث في هذه الحالة تضع نقطًا في عدة سطور، وكنت آمل في الحقيقة أن ترشدني هي إلى ما يجب أن أفعله.

وبدأت هي تتأفف، وشعرت أنا باليأس، وخطر لي بسرعة أن «هذه هي اللحظة

التي انتظرتها طويلًا، وهاهي ذي كما ترى...». وفكرت في أن أدعها وأرتدي ملابسي وأخرج، ولكن ماذا أقول لمن ينتظرونني وراء الباب؟ تابعت مجهودي دون طائل. وراعني أنها قالت: «والنبي يا لّلا بسرعة، مش لسّه فيه اتنين كمان؟».

قلت: «أيوه»، وتركتها في الحال وذهبت لأرتدي ملابسي، وشعرت هي بارتياح وابتسمت لي حينما نظرت إليها.

رأيت رباطًا ملتفًّا حول ذراعها اليسرى تحت كتفها، وتظهر من خلاله بقعة دواء أحمر، ولا شك أنني رأيته عند دخولي الحجرة وأنه منعني من تحسس هذا المكان من ذراعها، ولكنه لم يدخل في وعيي من فرط اضطرابي. رأتني أنظر إليه، فقالت : «كنت بولّع البابور فهب فيّه.. تصدقني ولّا لا؟». كنت قد قرأت أكثر من قصة لوليام سارويان عن العاهرات، تخبر العاهرة فيها الرجل بأمر عن حياتها وتسأله في ذلة: «هل يصدّق؟» فيجيب متجهمًا بالنفي، ويبدو عليها عدم المبالاة. قلت دون أن أشعر: «لا». وبدا عليها فعلًا عدم المبالاة. وأكملت ارتداء ملابسي وهي لا تتوقف عن الكلام. قالت شيئًا عن «رجاء» وإنها كانت عشيقته:

«تصوّر؟ رفيقته؟». ولم أرَ غرابة في الأمر.

كنا نسمع صوت أم كلثوم وهي تغني: «ولد الهدى...» يصل إلينا من أحد البيوت المجاورة. وقلت لنفسي: «هل كان ممكنًا أن أتصور وأنا أسمع هذه الأغنية من قبل أنني سأسمعها مرة وأنا مع امرأة كهذه؟». قالت هي دون أن تشعر: «صَدقت يا أم كلثوم...». وخطر لي أنها مخبولة.

وتركت الحجرة وأقفلت الباب ورائي. أجبت عن أسئلتهم المتلهفة إجابات مقتضبة، وبدا على محمود السرور عندما قلت إنني لم أشعر بلذة كبيرة، ويبدو أنه قال ذلك من قبل لمصطفى واستنكر مصطفى ذلك.

لم ألتفت لدخول فهمي (وكان دوره)، ولكنني ما إن انتهيت من إصلاح هندامي وتأكدت من عدم وجود أي أثر على وجهي أو ملابسي حتى كان فهمي قد خرج. ودهشنا كلنا لقصر الوقت الذي استغرقه معها، ولكنه بدا سعيدًا وقال إنه «أرضاها

تمامًا». وقلت في نفسي إنه يكذب. سمعت فيما بعد من صديق آخر ما فهمت منه إن إرضاء النساء وإشباع شهوتهن أمر كبير الأهمية، فاستطعت تعليل كذب فهمي، ولكني لم أبالِ كثيرًا بأنني ذكرت لهم الحقيقة.

راعني عندما نظرت إلى الساعة أن أجدها قد بلغت الواحدة إلّا ربعًا، وأسرعت بالخروج وودعت «محمود» بجفاف وودعني بجفاف أيضًا. وقد علمت فيما بعد أن صلاح (الخادم) قد أخذ حظه هو الآخر، بعد انتهاء دور مصطفى، كما أخبروني فيما بعد بأن اسمها (عواطف)».

(٧)

ثلاث سنوات مدهشة

- ١ -

تخرجت من كلية الحقوق بجامعة القاهرة في سنة ١٩٥٥، وأنا في العشرين من عمري، وكان ترتيبي الرابع من خريجي هذه الكلية والسادس بين خريجي كليات الحقوق الثلاث (القاهرة، وعين شمس، والإسكندرية)، ومن ثَمَّ كان بوسعي أن أحصل على إحدى الوظائف الثلاث التي كانت تعتبر أفضل الوظائف المتاحة لخريجي الحقوق: مجلس الدولة، أو النيابة العامة أو معيد بالجامعة. كنت أفضّل وظيفة المعيد، ولكنْ هذا كان يتطلب الانتظار حتى تعلن الجامعة عما تحتاجه من معيدين، فعينت في مجلس الدولة في أول درجات السلم الوظيفي وكانت تسمى «مندوبًا بقسم الفتوى والتشريع»، وكان لكل وزارة من الوزارات قسم للفتوى والتشريع، وكان نصيبي القسم الخاص بالإصلاح الزراعي.

كنا نحو عشرة موظفين، من رئيسنا المستشار إلى أصغرنا المندوب وهو أنا، تحتل مكاتبنا شقة متواضعة في عمارة مواجهة مباشرة لقصر عابدين، إذ كانت اللجنة العليا للإصلاح الزراعي تحتل جزءًا من هذا القصر، ومن ثَمَّ كانت المكاتبات مستمرة بيننا وبين اللجنة يسألوننا عن الرأي القانوني في أي مشكلة تعرض لهم وتتعلق بتطبيق قانون الإصلاح الزراعي. كان يشاركني في حجرة صغيرة للغاية زميل يكبرني بعامْين أو ثلاثة، ضخم الجسم وحسن الهندام، وكان يبدو لنا جميعًا فخورًا جدًّا بنفسه لاشتراكه في عمل سري، يعرف كل من في الإدارة أنه عمل بالغ الأهمية دون أن

يعرف أحد كنهه. كما كنت ألاحظ أنه يتلقى مكالمات تليفونية من جهات عالية للغاية أثناء وجوده في الحجرة بجانبي؛ فلا يفصح بكلمة عن ماهية هذه الجهات العليا أو عن موضوع هذه المكالمات. كنا نعرف أنه يذهب كل يوم، بعد انتهاء عمله في إدارتنا، إلى مكان مجهول يبقى فيه حتى ساعة متأخرة من الليل، يتم فيه بحث أمر خطير يتابعه الرئيس جمال عبد الناصر شخصيًّا، ولكن هذا كان أقصى ما نعرفه.

لم نعرف حقيقة الأمر حتى يوم ٢٦ يوليو ١٩٥٦، حين أعلن عبد الناصر في ميدان المنشية بالإسكندرية تأميم قناة السويس. واتضح لنا أن زميلنا (نبيل دكروري) كان أحد القانونيين الشبان الذين كانوا يساعدون قانونيًّا فذًّا (هو الدكتور علي الغتيت) في إعداد الدراسات القانونية ودراسة الوثائق التاريخية الخاصة بشركة قناة السويس؛ تمهيدًا لاتخاذ قرار التأميم. كما عرفنا أنه أثناء إلقاء عبد الناصر لخطابه كان المصريون قد وصلوا، وسط حماية مشددة، إلى مقر شركة قناة السويس بالإسماعيلية للاستيلاء على المقر ومنع الموظفين الأجانب من القيام بأي تخريب.

انقلب حال مصر رأسًا على عقب بعد تأميم قناة السويس: نظامها السياسي والاقتصادي والاجتماعي، ودخلت مصر مرحلة جديدة من تاريخها لا زالت بعض آثارها باقية اليوم. كانت قد بدأت ملامح التغير في العام السابق (١٩٥٥) ولكن كان هذا مجرد تمهيد للانقلاب العنيف الذي حدث في يوليو ١٩٥٦. واستمرت هذه الفترة السعيدة ثلاث سنوات (١٩٥٥ - ١٩٥٨)، هي التي أسميها ثلاث سنوات مدهشة، انعكس فيها المناخ الرائع الذي ساد مصر خلالها، على حياتي الشخصية، وحياة كل من إخوتي.

في أوائل ١٩٥٥ كنا لا نزال نشعر بالتحفظ الشديد تجاه عبد الناصر بسبب ما حدث في ١٩٥٤ من خلافه مع محمد نجيب. وكان التيار الوطني بفصائله اليسارية والإسلامية يتعاطف مع محمد نجيب ويتوجس شرًّا من جناح عبد الناصر، ويشك في وجود علاقة بينه وبين الأمريكيين تتعارض مع المصالح الوطنية. ولكن في ١٩٥٥ بدأت هذه المخاوف تهدأ عندما رأينا عبد الناصر يتقارب مع قادة الحياد الإيجابي في آسيا وإفريقيا، وينشئ علاقات وطنية مع نهرو زعيم الهند وسوكارنو زعيم إندونيسيا

وشوين لاي رئيس وزراء الصين، ثم يقدم على خطة بدت لنا في غاية الجرأة في ١٩٥٥، وهي شراء أسلحة من دولة اشتراكية هي تشيكوسلوفاكيا، ناهيك عن حماسنا منقطع النظير الذي عمّ مصر بأسرها عندما أمم عبد الناصر قناة السويس.

ما أجمل أن يشعر المرء بالوئام التام إزاء حكومته، هذا الشعور الذي ساد في تلك السنوات الثلاث بقوة، ثم بدأ يضعف بانتهائها شيئًا فشيئًا، واستمر في الضعف طوال نصف القرن التالي. كان قادة الثورة في ذلك الوقت تبدو عليهم سمات البساطة والوطنية، دائمي الحركة والنشاط، يخطبون في الناس بلغة شعبية يفهمها الجميع ولا يحفلون بالشكليات. كان أحدهم مسئولًا عن «التخطيط»، وكانت كلمة جديدة على أسماعنا نسمعها لأول مرة، فيستدعي اقتصاديين مصريين ذوى سمعة طيبة للغاية ليخططوا للتنمية الصناعية في مصر، ويعهد إليه تنفيذ مشروع كبير هو شق طريق الكورنيش بحذاء النيل، يربط أقصى شمال القاهرة بأقصى جنوبها، فيتمّه في زمن قياسي، وإذ اعترضته حديقة السفارة البريطانية في جاردن سيتي، التي كانت تمتد إلى ماء النيل، لم يعبأ بذلك وشق الطريق في مكان الحديقة، وأجبر الإنجليز على العودة بحديقة السفارة إلى ما وراء كورنيش النيل. وأثناء ذلك كانت الإذاعة المصرية تذيع أغاني غاية في الجمال، وتحدث تجديدًا رائعًا في الموسيقى والكلمات، وتتعرف على مواهب جديدة في التلحين وكتابة الأغاني والغناء، فضلًا عن بزوغ نجوم جديدة في الصحافة والأدب والتمثيل المسرحي والإخراج السينمائي... إلخ.

كل شيء كان يدل على إخلاص الحكام الجدد، وعلى تصميمهم على تنفيذ ما عجز عن تنفيذه الحكام المتتالون لعشرات من السنين. لم نكد نسمع في هذه الفترة عن قصة فساد واحدة، بل كان الضباط من الحكام الجدد يتباهون ببساطة معيشتهم واستمرار نمط حياتهم كما كان قبل الثورة. لقد اكتسب هؤلاء الضباط بالطبع سلطات جديدة واسعة مكّنتهم من تحقيق بعض الامتيازات، ولكنها كانت امتيازات صغيرة، يتعلق معظمها بتمتعهم ببعض ما استولت عليه الدولة من ممتلكات العائلة الملكية، وقد كانت هذه الاستثناءات قليلة لا تثير القلق، وما الضرر على أي حال؟ (هكذا كان شعورنا) في أن يستمتع ضابط وطني صغير، من أسرة متوسطة الحال، ببعض ما كان

يتمتع به أمير من الأسرة المالكة، كان مشهورًا بفساده واستهتاره؟ تداول المصريون بالطبع بعض النكات الجديدة عن النفوذ الجديد الذي اكتسبه الضباط، مثل حكاية الحمّار الذي كان يضرب حماره بقسوة في الطريق العام، فرآه ضابط ووبّخه على قسوته وأمره بالكف عن ضرب الحمار، فإذا بصاحب الحمار يقول لحماره بعد انصراف الضابط: «لماذا لم تخبرنا بأن لك قريبًا ضابطًا؟». ولكن الناس ظلوا يشعرون بالامتنان للضباط بسبب ما صنعوه من إنهاء عهد طويل كريه، ولم يجد الناس غضاضة في أن يُعَيَّن ضابط مسئول عن وزارة مهمة، حتى ولو لم تكن له خبرة من قبل بنوع نشاطها، بل رحبوا بذلك أملًا في أن يضع هذا الوزير الضابط نهاية للعجز والبطء في الإصلاح اللذيْن اتسم بهما العهد السابق.

-٢-

كانت لديَّ أنا شخصيًا أسبابي الخاصة للفرح والتفاؤل. فالوظيفة الجديدة المحترمة التي حصلت عليها بالعدل ودون واسطة، كان مرتبها محترمًا أيضًا؛ إذ كان نحو ثلاثين جنيها في الشهر كنت أحار في كيفية إنفاقها كلها، وأنا أعيش في بيت تتكفل فيه أمي بنفقات الحياة اليومية كافة، ولم تطالبني بعد بداية قبض مرتبي إلّا بالمساهمة بخمسة جنيهات شهريًا.

كنت أيضًا قد تجاوزت سن المراهقة السقيمة، وأصبحت أكثر استعدادًا لقبول نفسي كما هي، ولا يعذبني باستمرار قلقي حول ما يمكن أن يكون رأي الناس فيّ كما كنت في سنوات الجامعة. لم أكن قد حققت أي نجاح في حل مشكلتي الجنسية، فبنت الجيران التي كنت ألوّح لها من الشرفة، وقبلت في النهاية الخروج معي مرتيْن أو ثلاثًا على أمل الزواج منها (بعد أن حصلت على هذه الوظيفة العظيمة)، لم أظفر منها بأكثر من قبلة أو قبلتيْن أثناء ركوبنا في تاكسي إلى منطقة الأهرام بعد حلول الظلام، ثم احتج سائق التاكسي إذ رأى ما نفعله في المرآة، ورفض أن نبقى في التاكسي ما لم نتوقف عن فعل هذه الأشياء. ثم احتجّت هي بعد ذلك على أي محاولة من جانبي لتجاوز هذه القبلات، فلم أجد أي جدوى في استمرار العلاقة. ولكني لا أذكر أن

هذا الحرمان كان من الصعب تحمله، وقد انتهى على أي حال بعد شهور قليلة من وصولي إلى لندن.

انخرطت في هذه الفترة في نشاط حزب البعث، أو ما كان يسمى بفرع هذا الحزب في مصر. كنا مجموعة من الأصدقاء، أعرف بعضهم منذ مطلع الصبا واستمرت صداقتنا وزادت قوة باشتراكنا في عمل واحد نؤمن بفائدته. ثم انضم إلينا أعضاء جدد جذبتهم إلينا قوة شعورهم بالواجب تجاه وطنهم، وجاذبية أفكار حزب البعث البسيطة والواضحة (وحدة ـ حرية ـ اشتراكية)، وشخصية رئيس الحزب ميشيل عفلق الذي كان يلتقي بنا كلما جاء إلى مصر.

كانت «الحلقة» (وهي مجموعة من خمسة أو ستة أشخاص) تبدأ الاجتماع بأن يقف رئيسها (وكثيرًا ما يكون أنا) فيقول: «أمة عربية واحدة» فيجيبونه بصوت واحد «ذات رسالة خالدة». لم نر في مثل هذه الطقوس أي غضاضة، ونحن في تلك السن الصغيرة، بل لا أرى حتى الآن في هذا الشعار، شيئًا يستدعى الخجل، على الرغم مما قابلناه حينئذ من سخرية الشيوعيين والماركسيين الذين كانوا يعتبرون القومية، أي قومية، مرحلة تاريخية يمكن تفسيرها بالظروف الاقتصادية، ولا بد أن تزول بزوال هذه الظروف، وأن «الانتماء للإنسانية ككل» هو وحده الجدير بالاحترام. وبنفس المنطق كانوا يسخرون من وصف أي شيء «بالخلود»، على أساس أنه، طبقًا للفلسفة الماركسية الديالكتية، لا شيء يبقى على حاله، بل كل شيء في تطور مستمر. كانت هذه السخرية تهزنا بعض الشيء، وهي التي دفعتنا إلى المزيد من القراءة في الماركسية، مما دفع بعضنا (وأنا منهم) إلى الوقوع في شباكها بعد سنوات قليلة، ولم أخلص نفسي من هذه الشباك وأستعد احترامي لأفكار ميشيل عفلق إلّا بعد أن تجاوزت الثلاثين، وإن كنت قد احتفظت باحترامي أيضًا لبعض الأفكار الماركسية حتى اليوم، كما سأبين فيما بعد.

كنا خلال حماسنا لأفكار البعث نسخر بدورنا من أفكار حزب قومي آخر كان له أنصار كثيرون في لبنان وسوريا اسمه (الحزب القومي السوري)، وكان يقصر مطلب الوحدة على البلاد العربية التي تنطوي تحت اسم (سوريا الطبيعية)، وتشمل

سوريا، بحدودها المعروفة اليوم، ولبنان والأردن وفلسطين بعد تحريرها. وكان من شعاراتهم«الثأر»، أي الثأر من اليهود. وكنا نسخر من شعار «الثأر» هذا، الذي بدا لنا شعارًا غير لائق بحزب سياسي، وكان بعضنا إذا جاء ذكر «الثأر»، يحرك ذراعيْه في الهواء مقلِّدًا «لصقر» في طيرانه، مستغلًا أن كلمتي «الثأر» و»الصقر»، ينطقان بنفس الكلمة في العامية المصرية.

مما التصق بذهني بشدة هذه الفترة لقاء ميشيل عفلق بالصحفي الماركسي المعروف لطفي الخولي، ودخولهما في مناقشة طويلة حول أفكار البعث واعتراضات الماركسيين عليها، وكنت حاضرًا في هذا اللقاء الذي جرى في مكتب لطفي الخولي في مكان ما بوسط القاهرة، ولم يكن هناك أحد، على ما أذكر، غيرنا نحن الثلاثة بالإضافة إلى فاروق شوشة. لا بد أن هذا اللقاء قد جرى في ١٩٥٦ أو ١٩٥٧، وكان الماركسيون يتمتعون في تلك الفترة القصيرة بدرجة عالية من الحرية، لم يتمتعوا بمثلها لا قبل الثورة ولا خلال السنوات الأولى التالية لها، ولا بعد أن انقلب عبد الناصر عليهم ووضعهم في المعتقلات ابتداء من مطلع ١٩٥٩ . كان لطفي الخولي شخصية قوية، لسنًا فصيحًا، له قدرة نادرة على الجدل، يمكنه الدفاع عن أي موقف، كالمحامي البارع، ثم ينقلب إذا شاء إلى الدفاع ببراعة أيضًا عن الموقف المضاد. كان وقتها ماركسيًّا نشيطًا ويكتب في إحدى الصحف اليسارية التي سمح عبد الناصر بظهورها في ذلك الوقت. وقد لاحظ هو وزملاؤه تقارب جمال عبد الناصر وحزب البعث في سوريا، وتكرر لقاء عبد الناصر بميشيل عفلق عندما يجيء عفلق إلى القاهرة، مع كثرة الحديث عن احتمال توقيع اتفاق للوحدة بين مصر وسوريا (وهو ما حدث بالفعل في فبراير ١٩٥٨). خطر للطفي الخولي، إذن، أن يجرى هذا الحديث المطول مع ميشيل عفلق لينشره في جريدته، وعرض الفكرة عليه فقبل، وطلب مني الأستاذ ميشيل أن أرافقه فأحضر أيضًا هذا اللقاء. كانت شخصية عفلق تكاد أن تكون النقيض التام لشخصية لطفي الخولي: هذا فصيح كثير الكلام وعالي الصوت، مصمم على الانتصار في أي معركة كلامية، ولو كلفه ذلك اللعب بالألفاظ والتنكر للحقيقة، والآخر بطيء الكلام لدرجة غير معهودة، يفكر كثيرًا قبل أن ينطق بأي كلمة، منخفض

الصوت، ولكنه لا يحيد قط عما يعتقد أنه الحق، ولهذا تعلو وجهه أثناء الكلام ابتسامة جميلة تعكس نفسًا جميلة بدورها.

جلسنا في حجرة مكتب لطفي الخولي، وكان الشباك مفتوحًا، فسأله لطفي الخولي، من باب الأدب، عما إذا كان يفضل أن يغلق الشباك، فقال عفلق بعد لحظة صمت طويلة: «يعني!» (أي أنه لا يبالي كثيرًا بما إذا ظل الشباك مفتوحًا أو أغلق)، فلما كرر لطفي الخولي السؤال، قال عفلق بعد لحظة صمت أخرى: «والله!» (قاصدًا نفس المعنى). وهكذا بين «يعني» و«والله» لم يعرف لطفي الخولي ما يجدر به أن يفعل. لا أذكر شيئًا آخر من هذا اللقاء إلّا هذه الحيرة بين «يعني» و«والله»، ولا أذكر أيضًا ما إذا كان الشباك قد أغلق أو ظل مفتوحًا.

كان هذا النشاط المستمر في حزب البعث، واللقاءات المتكررة مع ميشيل عفلق مصدر سرور بالغ لي. وأنا أشعر الآن ببعض الفخر بما بذلته من نشاط في الحزب، وعلى الأخص قيامي بإعداد بعض أحاديث ميشيل عفلق وطباعتها على نفقتي (من مرتبي الضخم من مجلس الدولة)، ولم أكن أتصور بالطبع في ذلك الوقت، أي منذ أكثر من خمسين عامًا، أن يصعد حزب البعث إلى أعلى عليين في النفوذ السياسي والسيطرة على الحكم في سوريا والعراق، ولا أن ترتفع مكانة ميشيل عفلق (باعتباره مؤسس الحزب) إلى تلك المكانة الرفيعة التي رفعه إليها وصول الحزب إلى الحكم في سوريا أولاً، ثم في العراق، ثم أن يصيب الحزب ورئيسه بعد ذلك ما أصاب الطائر الذي قال عنه الشاعر القديم: «كما طار وقع». ولكن المؤكد أن أشياء جميلة جدًّا كانت تحدث في مصر خلال تلك السنوات الثلاث، ثم حدث بعدها ما يجعل تكرارها مستحيلًا.

-٣-

كان للمناخ السياسي والاجتماعي الرائع الذي ساد في تلك السنوات الثلاث، أثره الطيب أيضًا على جميع إخوتي من دون استثناء. إذ يبدو أنه لم تكن هناك حدود

لطموحات حكومة الثورة في تلك الفترة، وقد استفاد كل إخوتي من هذا الطموح كما استفدت أنا. فكما قررت إرسال أكبر عدد في تاريخ البعثات المصرية للدراسة في الخارج، أرسلت الحكومة أخي عبد الحميد، وكان أستاذًا مساعدًا للهندسة الكهربائية في جامعة عين شمس، بعد حصوله على الدكتوراه من لندن، لإجراء المزيد من البحوث في ميونخ بألمانيا، وكانت لهذه البحوث علاقة وثيقة بتطوير استخدامات الطاقة النووية في مصر، فحصل على دكتوراه أخرى وعاد ليعمل في المركز القومي للبحوث الذي كان قد أنشئ حديثًا، وأسس فيه حلقة صغيرة من صغار الباحثين ليتابعوا ما انتهى إليه في ألمانيا.

لم يكن أخي محمد أكاديميًّا بطبعه، ولكنه وجد مبتغاه في مركز جديد أيضًا سمّي «مركز الكفاية الإنتاجية» وأنشئ في هذه الفترة برئاسة عزيز صدقي، الذي عُيّن بعد هذا وزيرًا لأول وزارة للصناعة في مصر (مستقلة عن وزارة التجارة)، وقاد نهضة صناعية حقيقية بين منتصف الخمسينات ومنتصف الستينات. بينما سافر أخي أحمد، في نفس الوقت الذي سافرت أنا فيه إلى بعثتي في لندن، إلى نورنبرج بألمانيا ليتدرب في شركة سيموندس لتطوير شركة الكهرباء الذي كان يعمل بها في مصر.

كان أخي حافظ قد سافر قبل ذلك بقليل إلى بلچيكا عضوًا في مكتب للمشتريات يشرف على ما تستورده مصر من أوربا من سلع هندسية ويتحقق من جودتها، ولكن حافظ لم يكن يحب هذا العمل بل يعشق كتابة المسرحيات ويتركز طموحه في أن يصبح كاتبًا مسرحيًّا مرموقًا. كان المسرح المصري يمرّ في هذه الفترة أيضًا بمرحلة نهضة جبّارة قادها زكى طليمات الذي أسس فرقة من الممثلين الموهوبين الجدد، قدموا أعمالًا باهرة مؤلفة ومترجمة. لا يمكن أن أنسى مسرحيتي يوسف إدريس اللتيْن مثلتهما تلك الفرقة الرائعة (جمهورية فرحات وملك القطن)، ولا أداء سعيد أبو بكر في تمثيله دور البخيل في رواية موليير الشهيرة والتي قدمتها نفس الفرقة. تعَرّف حافظ إلى بعض المسئولين الجدد عن المسرح المصري وعرض عليهم بعض أعماله فمثلوا له بعض المسرحيات الممصّرة عن مسرحيات فرنسية.

أما أخي حسين فكان عندما صدر قرار تأميم قناة السويس في ١٩٥٦ يعمل مذيعًا

في القسم العربي بالإذاعة البريطانية. وجد حسين نفسه مضطرًا، بحكم عمله، لإعداد نشرات أخبار معادية لبلده وقراءتها، فقدم هو ومعظم المذيعين المصريين في إذاعة لندن استقالتهم، وعاد حسين إلى مصر يبحث عن وظيفة. لم يكن حسين بطبعه شغوفًا بالسياسة، ولكن تأميم القناة وما تلاه من هجوم عسكري من بريطانيا وفرنسا وإسرائيل، وقيام المصريين بالمقاومة، لم تكن مجرد أحداث سياسية، بل كانت أشبه بالثورة الوطنية على استغلال طويل وظلم واضح.

كان حسين كعادته يراسلني بانتظام من لندن، فيصف لي كيف كان الإنجليز يعاملون المصريين بعد تدهور العلاقة بين مصر وبريطانيا، ومشاعر المصريين الملتهبة هناك، وحماسهم لتأميم قناة السويس. بل وصف لي وصفًا رائعًا، بموهبته الأدبية العالية، أثر تدهور العلاقات السياسية بين البلديْن على علاقته الشخصية بصديقته الإنجليزية. ولكنه أرسل إليَّ أيضًا خطابًا يعبر فيه عن سخطه الشديد على حالة الصحافة المصرية والإعلام المصري، وطريقة تناولهما لما يحدث في العالم. هذه الخطابات التي أرسلها لي حسين قبيل تأميم قناة السويس وبعده تستحق أن يقتطف منها؛ إذ إنها فضلًا عن مستواها الأدبي العالي، تعطى صورة واضحة لجانب مهم من حياتنا في هذه الفترة.

«لندن في ٢٠ أكتوبر ١٩٥٥

عزيزي جلال

في الأسبوع الماضي قررت أن أترك غرفتي وأنتقل إلى غرفة أفخم نظرًا لزيادة مرتبي. وأخبرتني سيدة هنا أنها سمعت عن غرفة خالية في مكان ما، واتصلت هي بصاحبة البيت تدبر موعدًا ثم أخبرتني به.. وذهبت.. وأرتني صاحبة البيت الغرفة فوجدتها مناسبة، فلما طلبتْ جواز سفري لتقييد اسمي في دفترها ووجدتْ أنني أحمل جوازًا مصريًا قالت في برود «آسفة، لا أستطيع» (Sorry, I can't) ولم أسألها لماذا، وإنما أخذت الباسبور في برود اكبر ووضعته في جيبي وانصرفت.

وعندما أخبرت الرئيس الإنجليزي للقسم في مرارة بما حدث، صاح في حماس

«لا يمكن أن تكون إنجليزية، لا بد أن بها دمًا ألمانيًا أو شيئًا من هذا! الإنجليزيات لا يتصرفن على هذا النحو».

وفى المساء كنت أقدِّم حديثًا في الإذاعة عن اختفاء التفرقة العنصرية في بريطانيا.. أيمكن حقًّا أن تكون قد اختفت في الفترة ما بين الصباح والمساء؟

وتذكرت حادثًا وقع لي أول مجيء إلى إنجلترا.. كنت عائدا مع فاطمة وعبد العزيز(أختي وزوجها) من السينما في «Kingston» حاملين حاجيات العشاء. كنا في حالة مرح شديد، ربما من أثر الفيلم. وفجأة شعرت بيد غليظة تمسك بذراعي. فلما استدرت وجدت بائعة سمينة طويلة مع عربة كمثرى قد تركت صديقتها والعربة لتلحق بي. وسألتني في تعالٍ: «من أي بلد أنت؟» وأجبتها بحسن نية وأنا ابتسم: «مصر». فتركت ذراعي وتوجهت تهمس شيئًا في أذن صاحبتها ثَمَّ انفجرتا بالضحك.. ولحقت أنا بعبد العزيز الذي قال لي بشدة «لماذا رددت عليها؟» كان من الواجب أن تقول لها «It is none of your business» (إن الأمر لا يخصك) ثم تابعنا بقية الطريق صامتين.

«اختفاء التفرقة العنصرية في بريطانيا».. حقًّا؟ أين؟ أين وأنا لا أركب الأوتوبيس أو الأندرجراوند مع صديقة إنجليزية إلّا ونظر إليها الراكبون في احتقار من أعلى إلى أسفل، وكأنهم يقولون لها: «آه! إذن فأنت من هذا النوع الذي يمشى مع الملونين!» فتضطر المسكينة إلى أن ترد نظراتهم في تحدٍّ. وأجدني أحيانًا أفضل في نفسي النظام الأمريكي بتخصيص عربة للسود وعربة للبيض.

ثم أي سرور أو فخر يمكن أن يشعر به الشبان المصريون عندما يجدون ـ وهذه حقيقة ـ أن الفتيات الإنجليزيات يملن إلى اللون الأسمر والعيون السوداء والشعر الأكرد؟ إنهم يعاملننا طبق هذا الميل كما يعاملن الدببة الصغيرة والقرود اللطيفة في حدائق الحيوان.. قالت لي صديقتي مرة تعلل هذا الميل: «حتى أثناء طفولتي كنت مغرمة بجمع دُمى ذات وجوه سوداء!».

وتجلس في الاندرجراوند (مترو الأنفاق) في مقابلة سيدة إنجليزية عجوز فتبتسم لك دون مناسبة في عطف وإشفاق:

«Poor thing! And he is so handsome! It's not really his fault that he is coloured?» (يا للمسكين! وهو حسن الطلعة مع ذلك، إنه لم يصبح ملونا نتيجة أي خطأ ارتكبه)!.

وانتابتني مرة نوبة سارترية، فأخرجت لساني لامرأة عجوز ابتسمت لي «مجرد طرفة...».

حسين

* * *

«لندن ـ أول يوليو ١٩٥٦

والدتي العزيزة، عزيزي حافظ، عزيزي جلال

لا أدرى كيف أشكركم على كل هذه الهدايا.. يا الله! أية حلويات! وأي فول! وأية حلاوة طحينية. وأي بحث ذلك الذي أرسله جلال (لم أقرأه بعد، ولكن أي حجم!).

شيء هام أريد بإخلاص أن أحذّر جلال منه. وقد ترددت يومين قبل أن أجلب نفسي على التعرض له خشية أن أثير استياءه. ورجائي أن يكتب إليّ لإقناعي بوجهة رأيه إن فشلت هنا في إقناعه بوجهتي.

لا أدرى ما إذا كان جلال قد أرسل لي هذه المجموعة من المجلات المصرية (الهدف، وكتابات مصرية) لمجرد أن آخذ صورة عن تيار الكتابات المصرية في الوقت الحاضر، أم كمظهر لتحمسه هو لاتجاه هذا التيار، ورغبة في أن أتحمس له أيضًا. إن كان الأول هو السبب الحقيقي فلا شك في إن إرسال المجموعة قد نجح في إعطائي صورة للاتجاه الجديد للأدب المصري، أما عن الأثر الذي أحدثه الإطلاع على هذه الصورة فيّ فلا أبالغ إن قلت أنه مزيج من الفزع واليأس والاختناق، وكأني حيال عاصفة رملية هوجاء.

لا أريد بأية حال أن يأخذ جلال هذا على أنه ضعف في الشعور الوطني، أو تخلف

عن إدراك التطور في مصر بسبب إقامتي في الخارج، وإنما أكتب ما أكتبه الآن لسببين: هو أن أول هدف لكتاباتي عندما أعود إلى مصر ـ وقبل كل شيء آخر ـ هو محاولة الوقوف في وجه هذا التيار (وهي محاولة أنا أعلم من الآن أنها ستفشل)، والثانى هو أني لا أريد شابا نابغا ذا روح علمية كجلال أن يغريه السير في هذا الاتجاه.

أريد أولاً أن أتوجه بسؤال لحافظ (وهو أكثرنا إلمامًا بدراسة تاريخ الحضارات) عن: ما هو المظهر الأول لحضارة معينة الذي يجعلنا نصف هذه الحضارة على الفور بأنها حضارة؟ ما الذي ينصرف إليه الذهن على الفور عندما نشير إلى أي من هذه الحضارات؟ ألا ينصرف إلى هرقليطس بصدد الحضارة اليونانية، والقانون الروماني بصدد الحضارة الرومانية، وڤولتير بصدد الحضارة الأوربية الحديثة؟ ما الذي يجمع بين كل هذه الأشياء؟ وماذا يجعلنا نشير إلى بتراك على أنه أبو حضارة عصر النهضة؟ السبب في رأيي أنا هو ظهور الروح العلمية في البحث في كل من هذه الحضارات بعد فترات طويلة من أي نوع من أنواع التعصب والتصلب العقلي والخرافة.

ولننظر الآن إلى أي صحيفة مصرية اليوم وأي مجلة، وأي مظهر من مظاهر الأدب في مصر (ماعدا يوسف إدريس).. الصحف؟ كل خبر، عن أي بقعة من بقاع الأرض، قد أصبح يُنظر لا إليه وإنما إلى انعكاسه في مرآة التفكير المصري. قبرص، فورموزا، الأزمة الاقتصادية في بريطانيا، الجزائر، شيبيلوف، معرض تجارة الصين الشعبية، الماو ماو، جنوب أفريقيا، بل وحتى صحة الرئيس أيزنهاور، قد أصبح ينظر إليها وكأنها تحدث لأن مصر موجودة، لأن مصر تبارك أو تلعن. هناك اضطرابات في قبرص لأن مصر تعيد توجيه إذاعات راديو أثينا للجزيرة، هناك أزمة اقتصادية في بريطانيا لأن بريطانيا احتلت مصر ٧٤ سنة، شيانج كاى شيك رجل مضحك لأن مصر اعترفت بالصين الشعبية، والماو ماو قاموا بحركة ضد الإنجليز لأن مصر تناصر فكرة الاستقلال لجميع الدول.. وأصبحت النتيجة أنه بالنسبة لقارئ الصحف والمجلات المصرية لا يمكن أن تقوم ثورة في أي مكان، ولا يمكن أن تحدث أزمة في أية دولة، ولا يمكن أن يصيب أيزنهاور مرض في الأمعاء الدقيقة لسبب لا يتعلق بمصر.

هذا العقم، أكرر ثانية، هذا العقم، في الأدب المصري في الوقت الحاضر قد تسبب فيه أناس جعلتهم دراستهم في الفن والأدب (دون أن تكون لديهم على الإطلاق موهبة فنية) يظهرون على المسرح الفني لا كنقاد وإنما كفنانين.. والسبب في نجاح فنان عبقري خالص كيوسف إدريس في الزمن الحاضر هو أن القراء أساءوا فهمه وظنوا أدبه أدبًا شعبيًا يناصر فكرة الفن للحياة. ولم يرض هؤلاء «الأدباء» أن يكتفوا بعامل كالشيوعية التي قتلت الأدب الروسي، فأضافوا إليه قومية بغيضة عمياء ترفض أن ترى كل ما لا يتفق معها.

«الاقتصاد البريطاني مهدد بالدمار!» هكذا تكتب مجلة الهدف في عددها الذي أرسله جلال إليّ، وبروح تصرخ بالسرور والتشفي، وكأنما يسرها أن يطرد العمال الإنجليز من مصانعهم، وألا تتمكن سيدة إنجليزية من شراء ما تحتاج إليه من زبد.. لماذا هذا الفرح؟ لأن إنجلترا احتلت مصر ٧٤ عامًا؟ أهو الله الآن بعدله وكلمته يعاقبها على أنها دولة استعمارية؟

ثم أي دمار هذا الذي تعنيه مجلة الهدف؟ كما قلت الآن، فعلت المجلة ما يفعله الجميع الآن في الميدان الأدبي في مصر، أخذت الجملة الأولى من تصريح وزارة المالية البريطانية وتركت الجملة الثانية لأنها لن ترضى الشعور القومي الكاذب.. والجملة الثانية من تصريح الوزير هي أن «الأمر السيئ هو أن الأحوال الاقتصادية في بريطانيا أحسن مما ينبغي!» (things are too good)، إذ أن ارتفاع مستوى المعيشة في بريطانيا، بالإضافة إلى التأمين ضد حوادث العمل والشيخوخة، قد أغرى الناس على الزيادة من الاستهلاك وإنفاق أموالهم في الشراء وعدم اهتمامهم بالادخار مما قلل من كمية صادرات الدولة.

ولكن قراءتي «للهدف» لم تفسد ذرة من شهيتي لأكل الحلويات التي أرسلتموها، والتي أكرر شكري لكم من أجلها..»

حسين

* * *

«لندن ـ ١٠ أغسطس ١٩٥٦

عزيزي جلال

في خطاب استقالتي من الإذاعة (البريطانية) كتبت أنها «لا لسبب سوى إيماني بأن هذا هو الوقت الذي أستطيع فيه أكثر من غيره أن أخدم بلادي»... ثم عقد رئيس القسم (العربي) ـ وهو بريطاني ـ اجتماعًا للمذيعين العرب وشرح لهم سياسته في إخلاص. قال: إني أقدر موقفكم وأقدر أن بعضكم، إن لم تكونوا كلكم، تؤيدون التأميم (تأميم قناة السويس).. ولكني أطلب منكم في نفس الوقت أن تقدروا موقفنا نحن، موقف القسم العربي من الإذاعة، والغرض منه كما لا يخفى عليكم هو نقل وجهة النظر البريطانية إلى العالم العربي. ورغم أنكم بعملكم هنا تعتبرون موظفين لدى الحكومة البريطانية، إلّا أنني قررت ألا أورد في إذاعتنا شيئًا ضد التأميم إلّا مع ذكر مصدر القول قبل كل جملة، وأن أورد التصريحات المؤيدة للتأميم».

لم يثر هذا خيالي، كقصصي، كما أثاره التغير الذي طرأ على علاقتي بصديقتي الإنجليزية.. هل تذكر قصة جولزوورثى «Defeat». فيها يقص قصة عاهرة ألمانية كانت في إنجلترا أثناء الحرب العالمية الأولى، تصحب إلى غرفتها جنديا إنجليزيا عائدًا في إجازة. ويتكلمان طويلا فيربط بين قلبيهما شيء من الود. وفجأة يأتي صوت باعة الصحف في الطريق يعلنون عن هزيمة ألمانيا في موقعة ما، فيقفز الشاب جاريا إلى النافذة في فرح وحماس، ثم يتناول سترته من المقعد ويهرع إلى الشارع تاركًا العاهرة الألمانية وراءه في يأس وحزن.. ويقول المؤلف في النهاية: «إنها لم تكن هزيمة ألمانيا تلك التي أعلن عنها باعة الصحف.. إنها هزيمة هذين الاثنين».

والد صديقتي ووالدتها يلعنان المصريين (خاصة وقد استدعى ابنهما ـ شقيق صديقتي ـ للتوجه إلى الشرق الأوسط)، ويقرآن الصحف في الصباح ثَمَّ ينظران إلى ابنتهما في عداء، ويسألان عن رأيها في تهكم. ولا تنطق هي بحرف. وتقابلني ووجهها عابس. ورغم أنها غير مهتمة إطلاقا بالسياسة إلّا أنها لا تريد أن ينظر إليها قومها، وأن تنظر إلى نفسها على أنها خائنة، فتهاجم مصر، ولكن في غير حماس، لأنها تريد أن تتزوج (وهذا أهم). ثَمَّ تنهار فتبكي، ثَمَّ تودعني في برود.

أول أمس جلسنا في غرفتي نستمع إلى خطبة أنتوني إيدن في الراديو ـ هذا عدوّي ورئيس وزرائها يتحدث. جلست أنا على السرير واضعا رأسي بين كفّي، ووقفت هي أمام المرآة تصفف شعرها وتسمع: «بنى وطني، سعد مساؤكم». هذا لها. «لن نقبل الوضع إطلاقًا». هذا لي. «هذه مسألة حياة أو موت بالنسبة لكل بيت في البلاد». هذا لها.. «وقد اتخذنا جميع الإجراءات العسكرية التي يتطلبها الموقف». هذا لي.. ثَمَّ «طابت ليلتكم»، لها.

ووضعت هي المشط، وأزحت أنا كفّي عن رأسي. ولكن عينينا ظلت لا تلتقي مدة. كنا نعلم أن علاقتنا يجب ألا تتأثر بمثل هذا الأمر.. ولكن ها هو صوت رجل واحد ظهر من المذياع في غرفتي.. فميّز بيننا كما يُفصل اللب عن السوداني من كبشة من الاثنين».

حسين

ـ ٤ ـ

لم تكن وظيفتي في مجلس الدولة هي نوع الوظيفة التي كنت أتوق إليها. كنت منذ بداية الدراسة بكلية الحقوق أعتبر وظيفة معيد ثم مدرس، ثم أستاذ بالجامعة هي أعظم وظيفة يمكن أن يحصل عليها المرء. لم يكن من المهم أن أكون مدرسًا أو أستاذًا للاقتصاد، المهم هو وظيفة التدريس بالجامعة، في حد ذاته، أيًا كان العلم، اقتصادًا أو فرعًا من فروع القانون. وكان ترتيبي عند التخرج يمنحني فرصة كبيرة لتحقيق هذا الأمل، ولكن لم يكن تحققه مؤكدًا؛ إذ كان يتوقف على عدد المراكز الخالية في كلية الحقوق، وعلى رغبة من كانت درجاته أكبر من درجاتي في التقدم. وهكذا عندما أعلن عن وظيفة معيد في قسم الشريعة الإسلامية، ولم يكن من شروطها أن يكون المتقدم حاصلًا على شهادة أزهرية، لم أتردد طويلًا في التقدم إليها، وشجعني على ذلك رأى بعض أساتذتي من أنه آن الأوان أن تتحرر الشريعة الإسلامية من التأثير الطاغي للأزهريين. و قد ظفرت فعلًا بالوظيفة، وأذكر أني ذهبت إلى عميد الكلية (الدكتور عبد المنعم بدر) لأشكره، ففوجئت بقوله إنه لا يستحق منى هذا الشكر

لأنه كان معارضًا لتعييني؛ إذ إن من رأيه ضرورة أن يكون أستاذ الشريعة قد قضى بضع سنوات في الأزهر. ويبدو أنه كان على حق؛ إذ إنني بمجرد أن علمت بالإعلان عن إرسال بعثات حكومية لدراسة الاقتصاد في الخارج، استقلت من وظيفة معيد في الشريعة وتقدمت لبعثة الاقتصاد.

من الأشياء الجميلة التي حدثت لي أيضًا حصولي على هذه البعثة دون أن أبذل أي جهد للحصول عليها عدا التقدم بأوراقي إلى إدارة البعثات. كان العدل في توزيع البعثات في تلك الفترة ظاهرة مدهشة لا أظن أنها وجدت قبل هذه الفترة أو بعدها. لقد نشرت أسماء الفائزين في إحدى الجرائد الحكومية، على صفحة كاملة؛ إذ كانت أكبر حركة للبعثات في التاريخ المصري، إلى دول الغرب والشرق، فأرسلت بعض البعثات في الاقتصاد إلى الولايات المتحدة، وإنجلترا، وفرنسا، وبعضها إلى موسكو، وألمانيا الشرقية. وأذكر أن اسمي ظهر ثلاث مرات في تلك الصفحة، مرة «كأصلي» ومرتيْن «كاحتياطي»، والمقصود بالاحتياطي أن يحصل صاحبها على البعثة إذا رفض أو تعذر سفر «الأصلي» لأي سبب، كالرسوب في الكشف الطبي مثلًا. كان من الواضح أن الاستحقاق وحده كان معيار الحصول على البعثة، وإن كان لا بد من الاعتراف بأن معيار الاستحقاق لم يكن يؤدى دائمًا إلى أفضل النتائج؛ إذ كان مبنيًّا فقط على مجموع الدرجات عند التخرج.

* * *

هذه الفترة الرائعة (١٩٥٥ - ١٩٥٨) لم أشهد نهايتها؛ إذ إني سافرت إلى لندن في ٢٣ يناير ١٩٥٨، وسمعت وأنا على الباخرة، إعلان اتحاد مصر وسوريا. وكنت في لندن عندما سمعنا بثورة العراق في يوليو ١٩٥٨، ثم بالحرب الأهلية اللبنانية في نفس السنة، وطرد الجنرال جلوب من الأردن في نفس السنة أيضًا. ولكن يبدو أنه قرب انتهاء ١٩٥٨ بدأ الجو يكفهر لسبب ما ودخلت مصر (وربما العالم أيضًا) مرحلة جديدة مع بداية ١٩٥٩.

في ١٩٥٩ بدأ عبد الناصر هجومه على الرئيس العراقي الجديد عبد الكريم قاسم

الذي كان يحظى بتأييد كامل من الاتحاد السوڤيتي، إلى درجة أن رتب عبد الناصر انقلابًا ضده (ثورة الشواف) ومني الانقلاب بالفشل. ثم بدأ الاتحاد السوڤيتي حملة دعائية قوية ضد عبد الناصر حيث اتهمه بالتبعية للولايات المتحدة، فرد عليه عبد الناصر بهجوم مماثل. كان مما يؤيد الاتهامات السوڤيتية لعبد الناصر، بالإضافة إلى عداء عبد الناصر الشديد لعبد الكريم قاسم، تعاونه مع حزب البعث السوري الذي كان يلح على عبد الناصر بضرورة الوحدة خوفًا من انقلاب شيوعي في سوريا، ومن ثَمَّ ضرب الشيوعيين السوريين بعد إتمام الوحدة، وقيام عبد الناصر فجأة باعتقال عدد كبير من الشيوعيين والماركسيين في مطلع ١٩٥٩، وقد ظلوا في السجن حتى تم الصلح بين عبد الناصر والاتحاد السوڤيتي في ١٩٦٤، وجاء خروشوف للاحتفال بافتتاح السد العالي في مايو من تلك السنة.

كانت هذه السنوات الثلاث إذن (١٩٥٥ - ١٩٥٨) فترة نادرة في التاريخ المصري، تمتعت فيها مصر بقدر عال جدًّا من حرية التصرف، وممارسة الكثير من التصرفات التي يرحب بها المصريون ولا تتعارض في نفس الوقت مع مصالح الولايات المتحدة أو الاتحاد السوڤيتي. ويبدو أن شيئًا مماثلًا كان يحدث في الهند (تحت قيادة نهرو) وإندونيسيا (في عهد سوكارنو) وغانا (في عهد نيكروما)... إلخ، كما تمتع خلال نفس الفترة الرئيس تيتو في يوجوسلافيا بتأييد كامل من الولايات المتحدة وصبر عليه فيها الاتحاد السوڤيتي.

بعد ٦ سنوات (أي في ١٩٦٤) كان المناخ الدولي قد تغير تمامًا، ولا بد أن هذا التغير كانت له علاقة بعزل خروشوف في منتصف تلك السنة، وبمقتل كينيدي في نهاية السنة السابقة. كان المناخ في مصر قد تغير بدوره، وتبعا لتغير المناخ في العالم، ولكن يبدو أن التغير الذي طرأ على حرية مصر في التصرف قد بدأ قبل ذلك بعدة سنوات وربما مع بداية ١٩٥٩. إذ لماذا انقلب عبد الناصر على الشيوعيين هذا الانقلاب الكبير، واعتقلهم جميعًا في مطلع تلك السنة، بعد فترة وئام وتعاون وثيق بينهما في السنوات القليلة السابقة؟ بل هل كانت لهذا التغير في المناخ الدولي علاقة بحدوث الانقلاب في سوريا الذي أدى إلى انفصال سوريا

عن مصر في ١٩٦١، بعد أن كانت الولايات المتحدة تؤيد وحدتهما في ١٩٥٨، ثم قيام الانقلاب في اليمن في ١٩٦٢، وتورط مصر في حرب هناك دون نفع واضح لها من ذلك؟

* * *

كنت قد تركت مصر لأبدأ بعثتي في إنجلترا في مطلع ١٩٥٨، ولم أتابع تطور مشاعر المصريين في داخل مصر عن قرب، وإن كنا قد شعرنا، حتى ونحن في إنجلترا، برذاذ النظام البوليسي الذي أخذ ينمو تدريجيًّا في مصر منذ ١٩٥٩، ورأيته بعيني كاملًا عند عودتي إلى مصر في ١٩٦٤. لقد أصابتني بعض المتاعب من هذا التحول الذي جرى في النظام المصري إلى الأسوأ، حتى قبل عودتي، ولم يعجبني شيء مما رأيته بعد العودة. كنت تحت مراقبة المباحث أو المخابرات منذ وطأت قدماي أرض مصر بسبب تقرير سري كتبه عني ضابط في المباحث جاء إلى كلية لندن متخفيًا كطالب دكتوراه. وفى نفس سنة عودتي سافر أخي عبد الحميد هاربًا إلى العراق ثم إلى أمريكا، دون إذن جامعته؛ بسبب المتاعب التي صادفها في المركز القومي للبحوث. لقد اكتشف فجأة نقل أجهزته التي كان يستخدمها في بحوثه في ذلك المركز، ودون إذنه، إلى مركز للبحوث النووية في إنشاص؛ لأسباب لم يخبره أحد بها قط. ومنذ ذلك الهرب لم يعد إلى التدريس قط في جامعة عين شمس ولا قام بأي عمل مفيد لمصر، على الرغم من تاريخه العلمي الباهر، وعلى الرغم من اضطراره للعودة إلى مصر في ١٩٦٦ بعد أن أصيب بمرض نفسي في الولايات المتحدة.

في نفس السنة التي عاد فيها عبد الحميد من أمريكا ليبدأ فترة من البطالة استمرت أربعين عامًا وحتى وفاته في ٢٠٠٦، قرأ أخي محمد خبر إحالته إلى المعاش منشورًا في الأهرام ولم يكن قد أخبره به أحد، وقد كان رئيسًا لمجلس إدارة شركة إيديال، وكان قرار الإحالة على المعاش بسبب شكوى تقدم بها بعض العمال يتهمونه بعدم تعاطفه مع مبادئ الاشتراكية، فحرم بذلك من المساهمة في النهضة الصناعية في مصر بموهبته العالية في الإدارة.

لقد فرحت بشدة عندما جاءتني في إنجلترا أخبار التأميمات الشاملة في ١٩٦١، ولكننا، نحن الطلبة المصريين في الخارج، لم نكن نشعر بما يحدث في مصر يومًا بيوم، ولا بالتحول الذي كانت تمر به، من دولة تتمتع بحرية عالية في التصرف، إلى دولة تحكمها توجيهات خارجية، تأتي من الولايات المتحدة مرة، ثم من الاتحاد السوفيتي مرة أخرى. كنت كمن أعطى إجازة من كل ذلك لمدة ست سنوات، تبين لي بعد انتهائها أنها كانت أكثر سنوات عمري خصوبة.

(٨)

في جامعة لندن

ـ ١ ـ

ليس هناك ما يدعو إلى الدهشة في أن تكون السنوات الست التي قضيتها في لندن (١٩٥٨ - ١٩٦٤) هي أكثر سنوات عمري خصوبة. شاب في الثالثة والعشرين يذهب إلى عاصمة دولة ظلت إمبراطوريتها «لا تغرب عنها الشمس» لأكثر من مائة عام، ومن ثَمَّ تدفقت عليها الأموال من مختلف أنحاء العالم؛ فبنت أعظم المدارس والجامعات والمسارح وصالات الموسيقى، وظلت تنتج أرقى أنواع الأدب، وساهمت، أكثر من أي بلد في العالم، في نهضة العلوم والفنون، وينتمي إليها أعظم الاقتصاديين، منهم من درّس في هذه الكلية التي جئت للدراسة فيها.

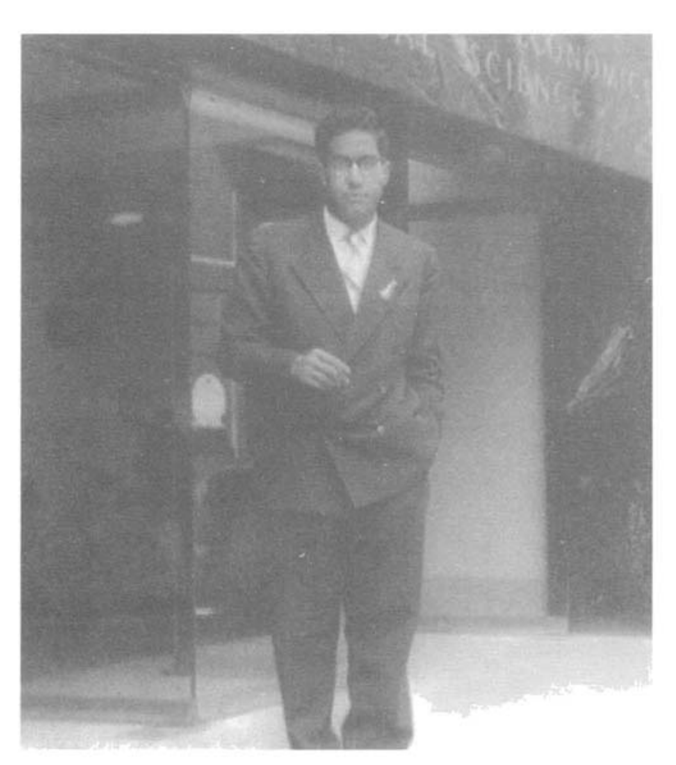
هذه الكلية التي قضيت فيها هذه السنوات الست، كان يجيء إليها ويروح منها شباب من مختلف قارات العالم، يعرفون قيمة العلم، والقليلون منهم ممن جاءوا عن طريق الخطأ، وكان الأجدر بهم أن يبقوا في بلادهم لا يبرحونها، يجبرون على احترام العلم وإلّا طردوا شر طردة، ولا يسمح لهم بإزعاج من حولهم في المكتبة أو في أي مكان آخر، ولا يتصور أن يمارسوا أي غش في الامتحانات، فإذا بهم، شيئًا فشيئًا، لا يتصورون هم أيضًا حدوثه. والفتيات الجميلات يملأن المكتبة وقاعات المحاضرات ويحادثنك في المطعم أو المقهى، أو تلتقي بهن في أوجه النشاط العديدة التي تقوم بها عشرات الجمعيات داخل الكلية. فإذا منعك الخجل من الاقتراب ممن تعجبك منهن، قد تأتي هي إليك لتبدأ الحديث معك فيزول خجلك بالتدريج.

أقلعت خلال سنوات لندن عن عادات كثيرة سيئة، واكتسبت عادات جديدة طيبة، وذهب عنى خجلي الشديد إزاء النساء وإن لم يذهب عني تمامًا الاعتقاد بصعوبة أن تقع إحداهن في حبي. صادقت خلالها لمدة ثلاث سنوات فتاة إنجليزية تكبرني بسنتيْن، لم أكن أستطيع الاستغناء عنها بسهولة ولكني لم أقع في حبها، فتركتها في حزن شديد، عندما أدركت أنها لا تناسبني بالمرة كزوجة، وكانت هي تلحّ على الزواج. ثم التقيت بفتاة إنجليزية أخرى، هي التي وقعت بالفعل في حبها وأصبحت زوجتي وأم أولادي.

كانت كلية لندن للاقتصاد هي المكان الذي دار فيه كثير من أهم ما مر بي من أحداث خلال هذه السنوات الست، ومن ثَمَّ ساهم في أهم ما طرأ عليَّ من تطورات عقلية ونفسية. تعرفت فيها بصديقتي الأولى، وكذلك بمن أصبحت زوجتي (چان). كما تعرفت فيها لأول مرة على بعض الأصدقاء المصريين والعرب والأجانب ممن ظلوا أصدقاء لي حتى الآن. وقرأت فيها من الكتب ما ساهم بأكبر قدر في طريقة تفكيري الحالية، وسمعت فيها من المحاضرات العامة ما يستحيل عليَّ نسيانه.

كانت هذه الكلية على بعد خطوات من صالة الموسيقى الضخمة والمسماة «بصالة المهرجان الملكية» (Royal Festival Hall) والتي تعرفت بها إلى موسيقيين لم أكن سمعت بهم من قبل، أو لم أكن أعرف قدرهم في مصر. وعلى بعد خطوات قليلة منها كان «المسرح القومي» (National Theatre)، و«صالة السينما القومية» (National Film Theatre)، وقد تعرفت فيهما إلى من لم أكن أعرف من مؤلفين مسرحيين ومخرجين سينمائيين.

لم تكن للفنون التشكيلية أهمية كبيرة في نظري قبل سفري إلى إنجلترا، ولكن هذه السنوات التي قضيتها في إنجلترا أتاحت لي فرصة التعرف إلى هذه الأهمية بما رأيته في إنجلترا نفسها أو أثناء رحلاتي في بعض دول أوربا خلال العطلات. كما أعتقد الآن أن قراءتي للصحف البريطانية الجيدة خلال هذه الفترة ساهمت مساهمة مهمة في تطوري العقلي، وكذلك مشاهدة بعض البرامج التليفزيونية قبل أن تتدهور هذه البرامج بشدة ابتداء من السبعينات.



أمام باب كلية لندن للاقتصاد (١٩٦٠)

خلال سنوات لندن أيضًا استمرت مراسلتي مع أخي حسين مما نتج عنه عدد من الخطابات قد تملأ مجلدًا كبيرًا، ولا يخلو بعضها من قيمة. أحكى قصة فيلم أعجبت به بشدة، ويلخص هو لي كتابًا قرأه وأثار حماسه. أصف له أصدقائي الجدد في لندن، ويصف لي ما طرأ على أصدقائنا المشتركين في مصر من تطورات: من كان ماركسيًا ثم تديّن، ومن استمر على ماركسيته يفسر كل شيء يحدث في مصر وخارجها بقوانين المادية التاريخية... إلخ.

ولكن كل هذا يحتاج إلى تفصيل وهو ما سأشرع فيه الآن.

ـ٢ـ

لم تمرّ أيام كثيرة بعد دخولي كلية (أو مدرسة) لندن للاقتصاد قبل أن أكتشف أن روح هذه المدرسة وقلبها النابض هما المكتبة. كانت المكتبة بلا شك أهم شيء في

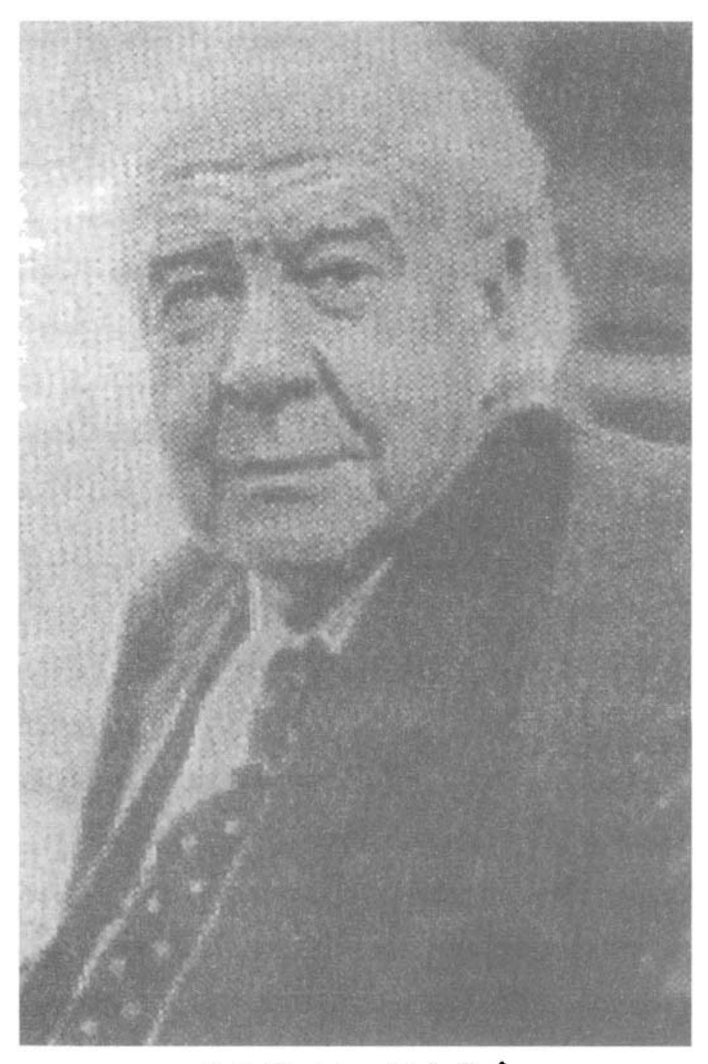
المبنى، لا ما يلقى فيه من محاضرات ولا حتى الأساتذة، ثم سرعان ما تبينا أن المكتبة هي المكان الذي سنقضي فيه الجزء الأكبر من وقتنا طوال فترة البعثة.

هذا هو ما فهمناه من سلوك أساتذتنا ومن طلبة المدرسة الذين سبقونا إليها. فالأساتذة لا يبالون كثيرًا بما إذا حضرت محاضراتهم أو لم تحضر، ولا يسجلون عليك الحضور والغياب. بل لا أذكر أن فعل ذلك طوال فترة دراستي إلّا الأستاذة الأمريكية التي أشرفت على دراستي للدكتوراه؛ إذ كانت تنبه على من غاب عن إحدى «جلسات قاعة البحث» (seminar) التي كانت تعقدها عن اقتصاديات الشرق الأوسط، ألا يفعل هذا مرة أخرى. وأظن أن السبب هو أنها كانت تدرك أنها إنِ لم تفعل ذلك لتضاءل عدد الحضور إلى ما يهدد مركزها في الجامعة. فيما عدا هذا كان الأساتذة ينتظرون من طلبتهم أن يحصّلوا معظم معرفتهم من المكتبة، ويعتبرون أن مهمتهم في المحاضرات وقاعات البحث ليست تكرار ما في الكتب؛ مما كان يمكن أن يدفع الطلبة إلى الشعور بإمكان الاستغناء عن المكتبة، بل مهمتهم الأساسية إضافة ما يمكن أن يكون لديهم من جديد إلى ما سبق نشره بالفعل، وذلك ريثما يقومون بنشر هذا الجديد.

أذكر المحاضرة الأولى في النظرية الاقتصادية للأستاذ «ليونيل روبنز» (Lionel Robbins) وكان أستاذًا شهيرًا ترجع شهرته في الأساس إلى كتاب صغير نشر في أوائل الثلاثينات عن التعريف بعلم الاقتصاد وطبيعته وحدوده ومنهجه. وقد قَبِلَ الجميع هذا التعريف (وهو يدور حول التوفيق بين الموارد المحدودة والحاجات غير المحدودة)، وأصبح هو أول ما يصادف قارئ أي كتاب في مبادئ الاقتصاد. توقعت في هذه المحاضرة أن يقوم صاحب التعريف الشهير بتقديم تعريفه للطلاب وشرحه، ولكني فوجئت به يقول إنه لا يحب أن يقف على قدميْه ليقول كلامًا سبق له أن نشره في كتاب، ومن ثَمَّ علينا قراءة هذا الكتاب، ثم استطرد على الفور إلى الحديث في شيء آخر.

تصادف لحسن حظي، أن كان هذا الأستاذ هو من اختارته الكلية للإشراف عليَّ أثناء السنتيْن الأوليْن من دراستي وحتى حصولي على الماجستير، فتأكد لديَّ من

ملاحظة عابرة منه بعد أخرى، أن المكتبة هي فعلًا روح هذه الكلية وأهم شيء فيها. كانت تصدر منه، مثلًا، عبارة مؤداها أن «عليَّ أن أقرأ جون ستيوارت ميل»، فإذا استفسرت منه: أي كتاب من كتب ميل يقصد؟ رفع حاجبيْه مندهشًا ولم يجب، فأفهم من ذلك أن عليَّ أنا أن أكتشف من تقليب كتب ميل الموجودة في المكتبة أي كتاب يقصد.



أستاذي ليونيل روبنز (L. Robbins)

كانت هذه المكتبة تعتبر، وقت وصولي إليها، أغنى مكتبة في العالم في العلوم الاجتماعية والإنسانية، لا يتصور أن تبحث فيها عن كتاب أو مقال فلا تجده، فإذا حدث ولم تجده وطلبته استعاروه لك من مكتبة أخرى. وفى المكتبة يمكنك أن تجلس في هدوء كامل، وعلى كرسي مريح، في حجرات جيدة الإضاءة والتدفئة، فتقرأ كما تشاء من الثامنة صباحًا (إذا أردت) وحتى العاشرة مساء، عندما تغلق المكتبة أبوابها، في الشتاء أو الصيف.

كنا، إذن، نقضي معظم يومنا من الصباح إلى المساء في المكتبة، فلا نخرج إلّا لمحاضرة مهمة أو لتناول الطعام أو الشاي. وأصبح لكل طالب مكان معروف لا يكاد يغيّره في حجرة معينة من حجرات المكتبة، فكان من السهل، إذن، تبليغ خبر مهم لواحد منا بالذهاب إليه في هذا المكان. كان التدخين في المكتبة ممنوعًا بالطبع، ومن ثَمَّ كان المدخن منا يرى على بُعد خطوات قليلة من باب المكتبة رائحًا غاديًا، يفكر فيما كان يقرأ فيه منذ لحظات، وقد ارتسمت على وجهه ما أصبحنا نسميه «نظرة المكتبة» (library look)، وهي فعلًا نظرة متميزة تتسم بأن صاحبها ينظر إلى الشيء دون أن يراه، وكأن كل شيء قد أصبح في نظره شفافًا لا يمنع من رؤية ما وراءه.

حدث لي بعد أسابيع قليلة من وصولي إلى لندن حادث صغير بسبب هذه المكتبة، ولكني تصورت حينئذ أنه حادث خطير للغاية. كان يجلس على باب المكتبة رجل عجوز صغير الحجم، كل مهمته أن ينظر بأدب إلى ما يحمله كل طالب من كتب وهو خارج من المكتبة، ليتأكد من أنه لم يخرج ومعه أحد كتب المكتبة دون أن يكون من الكتب المسموح باستعارتها، وقد يطلب منه أن يريه ختم الموافقة على الاستعارة. وكان من بين زملائي المصريين في لندن شاب يحضر أيضًا للدكتوراه في الاقتصاد ولكن في كلية أخرى من «كليات جامعة لندن» (London University College) ولم تكن مكتبتها ثرية بالكتب مثل كلية لندن للاقتصاد. جاءني هذا الزميل، الذي كنت أثق فيه كل الثقة، يسألني عما إذا كان من الممكن أن يستعير باسمي كتابًا يحتاج إلى قراءته في عطلة آخر الأسبوع، ولا يجده في مكان آخر، على أن يعيده بعد هذه العطلة. لم أر أي غضاضة في الأمر؛ فالرجل موثوق فيه، وأنا المسئول في نهاية الأمر

عن الكتاب، فوقعت على إيصال الاستعارة وأعطيته الكتاب، وجلس يقرأ فيه في المكتبة حتى حان وقت الخروج، فاستوقفه الرجل العجوز عند باب المكتبة؛ إذ رأى بيده كتابًا من كتب المكتبة ولم يكن وجهه من الوجوه المألوفة لديه من طلبة الكلية. كان من حقه دخول المكتبة والقراءة فيها دون الاستعارة منها، فلما طلب منه الرجل أن يبرر خروجه بالكتاب أشار إلى ختم الاستعارة، ولكن الختم كان باسمي لا باسمه. هبّ الرجل من مقعده وكأن شيئًا خطيرًا جدًّا قد حدث، ولم تمض ساعات حتى كنت أستدعى لمقابلة مدير المكتبة في حجرة مكتبه.

كانت هذه الحجرة مختبئة في مكان ما داخل المكتبة لم أمر به من قبل ولا دخلتها طوال سنواتي في لندن إلّا في هذه المرة. وكانت حجرة أشبه بحجرة رئيس للوزراء أو شخص بمثل هذه الخطورة، في حجمها وروعة أثاثها، وفى المسافة التي يجب أن تقطعها بين الباب ومكتب المدير، ثم ناهيك عن منظر المدير نفسه وشخصيته. كان الرجل مهذبًا معي ولكن بالغ الصرامة؛ مما جعلني أشعر بأني ارتكبت جرمًا فادحًا. وبعد سؤال وجواب أخبرني أن عليه الاتصال بالأستاذ المشرف عليَّ، ثم يعاود الاتصال بي. فلما ذهبت إليه في الموعد اللاحق طمأنني بأن الأستاذ المشرف قال له كلامًا طيبًا عني مما طمأنه، ولكنه حذرني بالطبع من أن أفعل مثل هذا مرة أخرى. كان الغرض بالطبع هو بث الخوف في الطلبة من أن يخطر ببالهم الخروج على قواعد المكتبة، دون أن يلحق بهم أي أذى بسبب خروج بسيط مثل هذا العمل الذي ارتكبته.

دخلت هذه المكتبة لأول مرة في أوائل ١٩٥٨، فتى ساذجًا قليل الخبرة بالحياة ويعلم الاقتصاد على السواء، وخرجت منها في منتصف ١٩٦٤ شابًّا قارب الثلاثين من عمره، أوسع خبرة بكثير، وقادرًا على تقليب الكتب بسرعة والحكم على ما يستحق منها القراءة وما لا يستحق، وعلى التقاط الفكرة الأساسية في مقال من المقالات المنشورة في المجلات الاقتصادية، واتخاذ قرار سريع بما إذا كان المقال يستحق الجلوس لقراءته، أو الأفضل صرف النظر عنه. كانت الساعات الكثيرة التي قضيتها في مكتبة كلية لندن للاقتصاد أكثر فائدة قطعًا من معظم المحاضرات التي استمعت

إليها في تلك الكلية أو غيرها، وإن كان قد استرعى انتباهي أثناء حضوري بعض هذه المحاضرات أستاذ فذ لم يكن هو المحاضر، بل كان يجلس معنا للاستماع كتلميذ، وكان لتعرفي إليه وقراءتي لكتبه بعد ذلك، أثر كبير ومستديم على طريقة تفكيري في موضوع التنمية الاقتصادية.

-٣-

كنت أحضر محاضرات في التنمية الاقتصادية يلقيها أستاذ غير مشهور، ولكن كانت محاضراته مزدحمة بطلاب أتوا من مختلف بلاد العالم لدراسة جانب أو آخر من هذا الموضوع الذي كان حينئذ (أواخر الخمسينات وأوائل الستينات) آخر صيحة في علم الاقتصاد، وأكثر الموضوعات الاقتصادية ترددًا على الألسنة. ما أكثر المؤثرات والندوات والمحاضرات التي كانت تعقد أو تلقى عن هذا الموضوع، وما أكثر الكتب التي كانت تصدر حاملة عبارة «التنمية الاقتصادية» في عناوينها، حتى قيل إن الناشرين كانوا ينصحون المؤلفين في الموضوعات التي ليس لها أي صلة ولو طفيفة بالتنمية، أن يضيفوا كلمة التنمية الاقتصادية إلى العنوان لضمان رواج الكتاب، فيصبح عنوان الكتاب مثلًا «التعليم والتنمية الاقتصادية» أو «دور المرأة في التنمية الاقتصادية»... إلخ. ولا بد أن اختياري لعنوان رسالتي للدكتوراه «مشكلة الغذاء والتنمية الاقتصادية» كان أيضًا نتيجة لشيوع هذه الموضة، ولم يكن يمكن أن يخطر ببالي في ذلك الوقت وتلك السن، وبالنظر إلى السبب الذي أتيت من أجله إلى إنجلترا أصلًا، أي شك حول جدارة «التنمية الاقتصادية» بكل هذا الاهتمام بل الهوس.

لاحظت وجود شخص مختلف عنا جميعًا يحضر بانتظام محاضرات التنمية هذه، ويجلس في آخر صف. كان أكبر منا في السن بكثير، ويسمع دون أن يدوّن مثلنا شيئًا مما يسمعه. ثم مر عام أو عامان قبل أن أراه من جديد، واكتشفت أنه أحد أساتذة الكلية، ففي حفل أقامته الكلية لتقوية الصلات بين الطلبة والأساتذة، إذا

به يأتي إليّ خلال الحفل ويسألني عما أفعله في الكلية والموضوع الذي اخترته لرسالتي. عندما ذكرت له الموضوع، أطاح بذراعيْه في الهواء وارتسمت على وجهه علامات الامتعاض واليأس، وقال باستنكار: «not again!»، إذ يبدو أن «التنمية الاقتصادية» قد وردت في إجابة كل طالب آخر كان حاضرًا وسأله الرجل نفس السؤال.

Food Supply and Economic Development

with special reference to Egypt

Galal Amin

غلاف أول كتاب لي، وهو رسالتي للدكتوراه (١٩٦٦)

اعترتني بالطبع دهشة عظيمة عندما سألني لماذا أعتبر هذا الموضوع جديرًا بالبحث، وبدأت أشرح له ما بدا لي أمرًا بدهيًّا للغاية، وأخذت أعدد له (مما لا بد أن أصابه بملل تام) مظاهر الفقر والبؤس في مصر التي تستدعي دراسة التنمية الاقتصادية. قال لي: «ولكن غاندي ما كان ليتفق معك في هذا!». ولا أذكر ما الذي أجبته به، ولكني ظللت أتذكر جملته هذه، حتى فوجئت بعد انتهاء دراستي وحصولي على الدكتوراه، وعودتي إلى إنجلترا من جديد في زيارة قصيرة، بظهور كتاب جديد عن التنمية الاقتصادية أحدث ضجة واسعة في أوساط الاقتصاديين وغيرهم؛ لأنه يصب جام الغضب ويستدعي اللعنات على هذه الفكرة الشائعة، وهي التنمية الاقتصادية، ويقدم أسبابًا قوية للغاية للشك في جدواها بل لرفضها، لدرجة أن الندوات والمحاضرات والمقالات أصبح يتوالى عقدها ونشرها لمناقشة هذا الكتاب المهم «تكاليف النمو الاقتصادي» (The Costs of Economic Growth)، من تأليف الأستاذ «إيزرا ميشان» (E. Mishan).

ظهر الكتاب لأول مرة في ١٩٦٧، ثم توالت طباعته حتى نشرته من جديد دار من أوسع دور النشر شهرة «Pelican»، ثم توالت مقالات وكتب ميشان في نفس الموضوع، إذ تصدى للرد على مهاجميه، وتتبعت أنا بشغف أقواله وردوده، حتى استولى على قلبي تمامًا. ووجدت أن لديه من الأفكار والحجج ما لا يمكن إنكار صحته، ولازلت أعتقد ذلك حتى الآن، وأنبّه تلاميذي، المرة بعد الأخرى، إلى ضرورة قراءة بعض كتبه.

كان الهجوم عليه عنيفًا، ولكنه لم يفلح في تخفيف حماسي له. قال لي اقتصادي أمريكي مرموق، كان يزور مصر لتقديم النصح للحكومة، عندما عبرت عن حماسي لأفكار ميشان: «إن الرجل لا يفعل أكثر من أن ينسب إلى (النمو الاقتصادي) كل العيوب التي يعتقد هو أنها موجودة في الحضارة الحديثة». وقد رأيت في هذه الملاحظة بعض الصواب، ولكني لم أجدها سببًا لرفض موقف ميشان. ففضلًا عن أني أشارك ميشان نفوره من كثير من مظاهر الحضارة الحديثة، لم أجد في موقفه افتئاتًا على التنمية الاقتصادية ما دام الانشغال بها لهذه الدرجة هو نفسه من مظاهر الحضارة الحديثة. كذلك قرأت نقدًا لأفكار ميشان كتبه أستاذي القديم ليونيل روبنز،

إذ قال إن ما ينسبه ميشان للتنمية الاقتصادية من آثار سيئة إنما هي آثار للنمو الكبير في السكان وليس للتنمية. ولكن هل الظاهرتان منفصلتان حقًّا؟ ألا تؤدى كل منهما إلى الأخرى؟

كانت الزوبعة التي أثارها ميشان في أواخر الستينات وأوائل السبعينات في محلها تمامًا في رأيي، كما كانت كتاباته من نوع جديد لم نعرفه ونحن طلبة في لندن في السنوات العشر السابقة. لم تكن فقط تثير الشكوك في أفكار كنا نقبلها دون أي شك، أو حتى دون تفكير، ولكنها كانت أيضًا تجلب إلى مناقشة المشاكل الاقتصادية الجانب الأخلاقي الذي تفتقده الكتابات الاقتصادية السائدة منذ آدم سميث. وعندما يعيد الواحد منا التفكير في هذه الحقبة التي أثار فيها ميشان كل هذه الضجة، يتذكر أنه لم يكن هو الوحيد. فلنتذكرْ أنه في السنة التالية مباشرة لظهور الكتاب قامت ثورة الطلاب في فرنسا (١٩٦٨)، وانتشرت منها إلى الدول الأوربية الأخرى وإلى الولايات المتحدة. وكانت ثورات الطلاب ذات نزعة أخلاقية قوية، وتثير بدورها الشكوك فيما إذا كان الرخاء العظيم الذي حققه الغرب في ربع القرن التالي لانتهاء الحرب العالمية الثانية، خيرًا محضًا، أو كان حتى خيرًا على الإطلاق. وفى نفس الوقت الذي كان فيه ميشان يهاجم التنمية الاقتصادية ظهر كتاب آخر لمؤلف إنجليزي آخر حاز أيضًا شهرة واسعة ونجاحًا كبيرًا اسمه «Small is Beautiful» (الصغير هو الأجمل) لـ «E. F. Schumacher»، حاز إعجابي أيضًا ولو أني وجدته أقل صلابة وعمقًا من كتابات ميشان، وربما كان نجاحه التجاري الأكبر لهذا السبب.

ولكن ظهر بعد بضع سنوات أن «موضة» السخط على التنمية الاقتصادية هي بدورها محدودة العمر. فسرعان ما خفتت الضجة وكاد ميشان أن ينسى تمامًا. هل كان السبب يا ترى حلول التضخم الجامح ابتداء من منتصف السبعينات (في أعقاب الارتفاع الكبير لأسعار البترول)؟ لقد سافرت إلى أمريكا لقضاء سنة في التدريس في لوس أنجلوس في (١٩٧٨- ١٩٧٩)، ولم أجد أي أثر لما كنت أسمع عنه من غضب الشباب على المجتمع الاستهلاكي، بل وجدت الشباب مشغولين بكسب العيش لكي يستطيعوا مواجهة التضخم، ولم يعد لدى آبائهم من فائض الدخل ما كانوا يعتمدون عليه أثناء انشغالهم بنقد المجتمع قبل عشر سنوات.

عندما عدت إلى التدريس في الجامعة الأمريكية في الثمانينات اقترحت على زملائي أن ندعو الأستاذ ميشان ليأتي إلى مصر لإلقاء بعض المحاضرات لعدة أسابيع طبقًا لنظام (الأستاذ الزائر المتميز)، وفعلنا ذلك، ورحب ميشان بالحضور إذ لم يكن قد رأى مصر من قبل، وألقى علينا ثلاث أو أربع محاضرات في اقتصاديات الرفاهية دون أن يخوض في نقد التنمية. قال لنا إنه ساخط حقًّا على النمو الاقتصادي السريع في الغرب، ولكنه لا يشعر بأن من حقه أن ينتقد ما نفعله نحن في بلادنا الأكثر فقرًا بكثير، بل علينا نحن أن نتخذ الموقف الذي نراه ملائمًا لنا. ومع ذلك فهو لم يخف دهشته الشديدة من درجة القبح التي رآها في شارع القصر العيني حيث تسير السيارات الأمريكية والأوربية الفارهة والباهظة الثمن، إلى جانب عربة خشبية يجرها حمار ويقودها رجل مهلهل الثياب.

في كتابه الأول (تكاليف النمو الاقتصادي) عبر ميشان عما يراه من حماقة بالغة فيما تبديه المجتمعات الحديثة من هوس برفع معدل النمو الاقتصادي، فحكى قصة تصوّر فكرته تصويرًا رائعًا في رأيي، وتكشف بقوة عن الحماقات المرتبطة بهذا الموقف. القصة خيالية بحتة؛ إذ تصف دولة مهووسة، لا بالتنمية الاقتصادية بالضبط، بل بصناعة المسدسات، ولكن الهوس بالمسدسات في القصة يرمز إلى الهوس بتكاثر السلع والخدمات. ويحكى ميشان في هذه القصة القصيرة ما لا بد أن يحدث في هذه المجتمعات، مما لازلت أجد متعة في قراءته. وهذه هي القصة التي ترجمتها ونشرتها في مجلة «الأهرام الاقتصادي» في أوائل الثمانينات، تحت عنوان «مجتمع المسدسات»:

«يحكى أنه في دولة لا يعرف اسمها، تولت زمام الأمر حكومة اتخذت فجأة قرارًا بإطلاق الحرية المطلقة لكل فرد من السكان في حمل السلاح دون اشتراط الحصول على ترخيص. وفى نفس الوقت قامت الشركات المنتجة للمسدسات والبنادق بحملة دعائية هائلة لمنتجاتها أنفقت عليها مبالغ طائلة. أدى ذلك إلى أن أصبح كل شخص في الدولة يمشي في الطريق وهو يحمل أكثر من مسدس واحد في حزامه، ولوحظ هذا بوجه خاص على الشباب وصغار السن، الذين أبدوا حرصًا شديدًا على أن يراهم الناس وهم يحملون آخر طراز من المسدسات ذات السرعة غير العادية والمسمى بطراز «سوبر».

كان من الطبيعي نتيجة لذلك أن تروج، ليس فقط صناعة المسدسات، بل أيضًا صناعة الأحزمة الحاملة لها وغيرها من لوازم حمل السلاح واستعماله وتنظيفه وصيانته، فضلاً عن صناعة الدروع الواقية وأغطية الرأس والأرجل المضادة للرصاص. بل أصاب الرواج أيضًا أعضاء نقابة الحانوتية لأسباب ظاهرة. كان كل من يسير في شوارع هذه الدولة يلاحظ أن نوافذ المنازل، باستثناء منازل الفقراء ومحدودي الدخل، تحمل زجاجًا مضادًّا للرصاص، بينما أصبح تركيب العوازل الواقية من الرصاص في المنازل والمكاتب الواقعة في المناطق الأكثر خطورة، أمرًا مألوفًا يدخل ضمن أعمال الوقاية العادية والضرورية.

لم تكن ثمة أسرة يمكن أن تبلغ بها الحماقة حد إهمال تدريب أبنائها، بل بناتها على فن الإطلاق السريع. وعلى أي حال فقد لجأت أفضل المدارس وأكثرها حرصًا على مصلحة التلاميذ، إلى تخصيص عدة ساعات من كل أسبوع لتدريب التلاميذ على هذا الفن. لا عجب أيضًا أن ازدهرت بشدة شركات التأمين على الحياة، على الرغم من ارتفاع أقساط التأمين ارتفاعًا باهظًا، كما ارتفعت بشدة أرقام الإنفاق على الخدمات الطبية. ذلك أنه بالإضافة إلى تلك الظاهرة المعتادة، وهي العثور على رصاصات مستقرة في أجزاء مختلفة من الجسم، انتشرت أيضًا الأمراض الجلدية الناجمة عن ارتداء مختلف أنواع الرداء الثقيل الواقي من الرصاص. أضفْ إلى ذلك أنه نتيجة لانتشار الأمراض العصبية، وذيوع مختلف أنواع التوتر النفسي، لوحظ ارتفاع نسبة مدمني الخمر والعقاقير المهدئة.

ارتفعت أيضًا معدلات الضرائب لأسباب ظاهرة؛ إذ زادت نفقات الحكومة زيادة كبيرة بسبب تضخم عدد رجال الشرطة الذين يحاولون تخفيض عدد الضحايا، وتضخم عدد السجون والمستشفيات العامة، ناهيك عن النفقات العامة اللازمة لحراسة المنشآت والمصالح والبنوك والمدارس، وتلك اللازمة لإنتاج أتوبيسات ذات مواصفات خاصة واقية من الرصاص تحمل التلاميذ كل يوم من المدارس وإليها.

في مثل هذه البيئة لم يكن من الممكن لأي شخص، مهما بلغت وداعته وإيثاره للحياة الهادئة وكرهه للعنف، أن يخرج من منزله دون أن يكون حاملًا للسلاح. وكتب

الاقتصاديون المؤمنون بمبدأ «دع الأمور تجرى في أعنتها»، وبالحرية الاقتصادية المطلقة، أنه ما دام السكان قد اختاروا بمطلق حريتهم أن يشتروا السلاح فإنه من قبيل التدخل غير المشروع والمساس غير المقبول بالحرية الفردية أن تحاول الحكومة تقييد إنتاج الأسلحة. وكتب هؤلاء أيضًا، أنه ما دامت سوق السلاح تعمل بصورة طبيعية، وأن الكمية المعروضة من الأسلحة كافية لسد الطلب عليها، فإنه ليس هناك حاجة بالحكومة للتدخل لزيادة الإنتاج في مواجهة الزيادة المستمرة في الطلب. كما كتبوا أنه طالما أن هناك درجة كافية من المنافسة بين منتجي السلاح، فإن الأسعار سوف تميل في المدى الطويل إلى أن تعكس النفقة الحدية، ومن ثَمَّ عبر الاقتصاديون عن رضاهم التام عن النمط السائد لتخصيص الموارد، بل إن الاقتصاديين عبروا عن تفاؤلهم بما شاهدوه من نمو سريع في الصناعات الرئيسة في الاقتصاد القومي وهي صناعات الأسلحة ولوازمها، ووصفوا الحالة الاقتصادية بأنها حالة «صحية».

على أن الحكومة كان يعتريها من حين لآخر بعض القلق بسبب تفاقم المشكلات الاجتماعية، وفى هذه الحالات اعتادت الحكومة أن تلجأ إلى استشارة مجموعة من الاقتصاديين عرفوا باسم «اقتصاديي المسدسات والبنادق»، وهم مجموعة من الخبراء الذين يتمتعون بسمعة عالية واحترام عام، ويتلقون مرتبات بالغة الارتفاع. فيقوم هؤلاء الاقتصاديون بتصميم نماذج رياضية، ثم يقومون بعد ذلك، بمساعدة من حفنة ممتازة من الإحصائيين، بجمع البيانات المتعلقة بالمسدسات والبنادق من مختلف الأنواع وتحليلها، ويقومون على أساس هذه البيانات بتقدير أسعار الضرائب المثلى التي يجب فرضها على بيع المسدسات والذخيرة؛ اعترافًا منهم ببعض الآثار الاجتماعية الضارة المسماة «بالوفورات الخارجية السلبية» التي أمكن لهم قياسها بدرجة لا تخلو من دقة، مثل اكتظاظ بعض الشوارع الرئيسة في البلاد بين وقت وآخر بجثث الموتى.

ولكن على الرغم من النصائح والتوصيات التي تقدمها هذه المجموعة من الاقتصاديين من وقت لآخر، فإن هذا لم يمنع الحالة من التدهور، ولم تضع هذه التوصيات والقرارات حدًّا للفوضى والدمار؛ الأمر الذي اضطر الحكومة إلى تشكيل لجنة تحت رئاسة مهندس على أعلى درجة من الكفاءة اسمه المهندس «ب»، وقد اشتهر هذا المهندس أكثر من أي شيء آخر بالواقعية، ومن ثَمَّ فقد بدأ بالتسليم بأن

الاقتصاد القومي يعتمد اعتمادًا أساسيًا على إنتاج المسدسات وصناعات أخرى تقوم بخدمة هذه الصناعة الأساسية، كما أكد على حقيقة أخرى لا تقبل المناقشة، وهي أن الطلب على المسدسات ينمو بمعدل مرتفع سنة بعد أخرى، ومن ثَمَّ بدأ بحثه باعتبار وجود هذه الصناعات مسلمة من المسلمات التي لا يجوز المساس بها. أما التحدي الخطير الذي وضعه هذا المهندس الشهير أمام نفسه فهو أن يقوم بتخطيط جديد تمامًا وثوري للغاية للمدن الأساسية في الدولة مهما كلف تنفيذ ذلك من نفقات؛ بهدف خلق بيئة جديدة يمكن للناس فيها أن يجمعوا بين حيازة المسدسات واستعمالها، وبين التمتع بالطمأنينة في نفس الوقت. وتتلخص الملامح الرئيسة للخطة الجديدة التي أطلق عليها «التصميم الجديد لمعمار المسدسات والبنادق» فيما يأتي:

تحديد مناطق معينة داخل كل مدينة يحظر فيها إطلاق الرصاص، وتحاط بأسوار عالية من الصلب.

إقامة طريق دائري ومتموج يجعل من الصعب الاشتراك في مبارزة بالمسدسات.

بناء حواجز زجاجية مضادة للرصاص في وسط الطرقات.

وضع كاميرات تليفزيونية توفر لها حماية شديدة، في أماكن إستراتيجية من كل مدينة؛ لتوفير المعلومات عن حوادث إطلاق الرصاص لقوى الأمن والشرطة المزودة بطائرات الهليكوبتر، وذلك طوال ٢٤ ساعة في اليوم.

وقد عبر الصحفيون جميعًا والمشتغلون في مختلف وسائل الإعلام عن إعجابهم الشديد ببعد النظر والواقعية التي اتسمت بها خطة المهندس «ب»، وأشادوا بالمعمار الجديد الذي وضع أساسه وسموه «معمار المستقبل».

على أنه سرعان ما اكتشفت الحكومة أن أية محاولة لزيادة الضرائب لتمويل هذه الخطة سوف تشعل ثورة في البلاد، ومن ثَمَّ وضعت الخطة الجديدة على الرف في هدوء وشكلت لجان جديدة للبحث، ووضعت عشرات من جداول الأعمال، واستمرت الأمور على ما كانت عليه دون تغيير».

(٩)

مباهج لندن

ـ ١ ـ

كان أخي حسين هو الذي عرّفني بأهمية المسرح الإنجليزي وألحَّ عليَّ في أن أتابعه. ولكن بمجرد أن رأيت مسرحية أو اثنتيْن في لندن، أصبح الذهاب لرؤية مسرحية جديدة مهمة، أو إخراج جديد لمسرحية مهمة قديمة، شيئًا له أهمية الاشتغال على رسالة الدكتوراه. وعندما أستعيد ما فعلته في لندن خلال سنوات البعثة لا أتردد في اعتبار أن ما رأيته من مسرحيات جديدة على المسرح الإنجليزي كان له أثر في تكويني العقلي والوجداني لا يقل عن أي شيء آخر قمت به في هذه الفترة.

كنت إذا اشتعل حماسي لإحدى المسرحيات كتبت إلى حسين على الفور لأعبر عن هذا الحماس، فيرد عليَّ حسين موافقًا أو معارضًا، ومضيفًا معاني جديدة لما فهمته، أو ينبهني إلى بعض الوقائع المتصلة بتاريخ كاتب المسرحية. ولم يكن حسين يتعاطف دائمًا مع موقفي، بل كان أحيانًا يبدي قسوة مدهشة في استسخاف رأيي في بعض المسرحيات. من ذلك موقفه من حماسي الشديد لمسرحية يونسكو «الكراسي» إذ كتبت له مادحًا لها بشدة، فكتب يهاجمني بشدة أيضًا. وهاهي عينة من مراسلاتي مع حسين حول المسرح الإنجليزي تعود إلى الشهور الأولى لإقامتي في لندن.

«لندن ـ ٢٥ يونيه ١٩٥٨

عزيزي حافظ وحسين

بعد خروجي أمس من المسرح شعرت بأن من واجبي أن أكتب لكم بشيء من التفصيل عن المسرحية. فالمسرحية غريبة وتثير الانتباه كما أنها توحي بأن وراءها أكثر بكثير مما يبدو منها في الظاهر. والنقاد يعطون لها اهتمامًا أكبر من غيرها. وفى الاستراحة تباع كتب للمؤلف. ثَمَّ إن كلام حسين عن «بريخت» لا زال يرن في أذني، وربما ظهر أن «يونسكو» لا يقل أهمية عنه.. واهتمام حافظ بالمسرح لا يحتاج إلى بيان، فإذا لم أكلمه عن يونسكو، فمتى سأكتب له كلامًا مفيدًا عن المسرح؟

المسرحية من فصل واحد واسمها «الكراسي» (The Chairs)، والمؤلف يونسكو، وهو روماني المولد ولكنه عاش معظم عمره في فرنسا ويكتب بالفرنسية.

وأشخاص المسرحية اثنان، ومع التجاوز يمكن إضافة ثالث إليهما، والتجاوز ضروري لأن هذا الثالث لا يظهر إلّا لمدة ثلاث دقائق في آخر الرواية. ولم يتكلم كلمة واحدة، كما سيجيء.

والشخصان: رجل وزوجته، عجوزان في التسعين من عمرهما.. والمسرح جوّه كئيب للغاية، الضوء ضعيف، والجدران سوداء، ولا أثاث بالمرة إلّا كرسيين قديمين يجلس عليهما الرجل وزوجته.

ويبدآن الكلام.. فتطلب الزوجة منه أن يحكي لها حكاية مرت به في شبابه، وينبهها إلى أنه قد حكاها لها مئات المرات من قبل وأنها تحفظها عن ظهر قلب، ولكنها تطلب منه مع ذلك أن يستمر، فإذا نسي منها أجزاء كمّلت له أو صححت أخطاءه. ويدق الجرس ويخرج الزوجان لاستقبال القادم.. ثم يعودان ومعهما الضيف.. ولكن الواقع أنه لا ضيف هنالك. فالمتفرجون لا يرون أحدا غير الزوجين، ولكن الزوجين يكلمان شخصا ثالثا المفروض أنه جاء لزيارتهما وأنه أمامنا على خشبة المسرح. ويحضران له كرسيا ثالثًا ويستمران في محادثته والترحيب به. وبعد برهة يدق الجرس من جديد ويأتي ضيف جديد. لا يختلف عن الأول، لا نراه.. ويرحبان به بحرارة ويحضران له كرسيا جديدا.. ثم ضابط وزوجته.. ويزداد عدد الكراسي ويستمر الزوجان في محادثة الجميع ونحن لا نرى غيرهما...

إلى اليمين الزوج يحدث «زوجة الضابط»، وإلى اليسار الزوجة العجوز تحدث الضابط.. الزوج يقول إنه كان لنا ابن ولكنه هجرنا، والزوجة تقول للضابط إنه لم يكن لنا أبناء قط.. ويستمر التناقض في حديثهما بعض الوقت.. ثم يخف حماس كل منهما في الحديث إلى مضيفه وإذا بهما يجيب أحدهما على كلام الآخر.. وينتهي كل منهما بأن يقول: «Well».. ويسود السكون المسرح.. ثم يقف الزوج فجأة ويعلن لزوجته أنه آن الأوان أن يعدا المكان للاحتفال.. ويدق الجرس، ويتهافت المدعوّون.. وكلهم وهميون، ويتسابق الزوجان في إحضار الكراسي واستقبال الضيوف بحرارة، ويرشدانهم إلى أماكنهم، ويشيع الزوجان حركة «مخيفة» في المسرح بدخولهما وخروجهما وإحضار الكراسي وترتيبها في صفوف، وتعلو موسيقى تصويرية كئيبة ومخيفة، وتزداد سرعة الحركة حتى تفتح الأبواب وتغلق من تلقاء نفسها، ولا يقوم الزوجان إلّا بمجرد تحريك أيديهما من الباب إلى الأرض دلالة على إحضار الكراسي.. ثم تهدأ الموسيقى والحركة بالتدريج ويسود السكون من جديد...

ثم تتذكر الزوجة فجأة، فتقوم بتوزيع بروجرام وهمي على الحاضرين.. ثَمَّ يعلن الزوج فجأة أن الإمبراطور نفسه قد شرّف الحفلة، وينحني الزوجان للإمبراطور الوهمي ويرشدانه إلى مكانه. ثَمَّ يعلن الزوج أن «الخطيب» (The Orator) سيصل حالًا ليشرح للجميع رسالة العجوز في الحياة (his message) وأنه ـ أي العجوز ـ سينسحب هو وزوجته حيث يموتان معا.. ويظهر الشخص الثالث: الخطيب في وسط المسرح وسط هالة من الضوء، ويختفي الزوجان.. ويستعد الجميع للاستماع لما سيقوله الخطيب عن رسالة العجوز إلى العالم، وينشر الخطيب ورقة طويلة ويفتح فمه ليقرأ.. فإذا به يحرك شفتيه دون أن يخرج منهما صوت.. وهكذا تنقضي برهة.. ثَمَّ يتفوه بعد ذلك بصوت شبيه بصوت الأخرس الذي يحاول الكلام، ولكن لا كلمة واحدة يمكن تمييزها.. ويسدل الستار...

جاء في البروجرام أن لكل منا أن يستخرج من الرواية المعنى الذي يشاء. وأن الرواية تحاول أن تجعل المتفرج يحس بـ«فراغ الحقيقة وحقيقة الخيال» (the emptiness of reality and the reality of fantasy).

وأعتقد أن من الممكن فهم الكراسي على أنها تمثل جميع الناس الذين نقابلهم في حياتنا بل وحياتنا كلها: ناس وأشياء وحوادث وعواطف. وأننا طوال عمرنا نحاول أن نبث في هذه الأشياء معنى وأن نجعل لحياتنا هدفًا.. والحقيقة أن حياتنا لا معنى لها ولا هدف.. ويعبر عن ذلك الخطيب الذي ـ حينما أراد الكلام عن الرسالة ـ حرك شفتيه أولاً بلا صوت ثَمَّ تكلم كالأخرس.

وتقول الأوبزرڤر أن يونسكو يريد أن يقول أن تعبير الناس عن عواطفهم وأفكارهم بواسطة «الكلمات» عبث لا طائل وراءه، فالكلمات وسيلة فاشلة لاتصال الناس بعضهم ببعض.. وأن ذلك بدا في عجز كل من الزوجين العجوزين عن أن يعبر عن نفسه، سواء لكي يفهمه الآخر أو لكي يفهمه العالم، كما اتضح من طريقة كلام الخطيب...

على كل حال أرجو أن يكون لهذا الذي كتبته بعض الفائدة، على الأقل في لفت نظركم إلى يونسكو، إن لم تكونوا قد تعرفتم إليه بعد، خاصة وأنه قد كتب عنه أنه لم يثر كاتب مسرحي منذ الحرب من الجدل مقدار ما أثاره يونسكو، باستثناء «Beckett».. الفرنسي أيضًا...»

جلال

* * *

القاهرة ٢ يوليو ١٩٥٨

عزيزي جلال

هذا الوغد، يوجين يونسكو (كما أفضل أن أسميه)، ما كان ينبغي أن يخدع شخصًا ذكيًا مثلك لم يفقد إحساسه الخلقي بعد، ولم يصب ذوقه الفني ما أصاب الناس في عهدنا هذا من انحراف. لقد كنت أتوقع، عندما تبينت من الفقرة الأولى من خطابك أنك في سبيل التحدث عنه، أن أسمعك تستسقط لعنات السماء على هذا الرجل وعلى عقلية المجتمع الذي سمح لمثل أدبه أن يظهر وينتشر (وهو ما حدث

لي عقب مشاهدتي لثلاث من مسرحياته في لندن[1]. فإذا بي أجدك... ماذا! تقارنه ببريخت!!

بعض الحياء!

أود أولًا، وقبل الحديث عن أدب هذا الرجل وأمثاله (صامويل بيكيت[2]،جان كوكتو، جيمس جويس، فرانز كافكا... إلخ) أن أنبهك، خاصة وأنك في لندن معرض لمصادفة أشكال جديدة في الفن كانت غريبة عنك، إلى الضرورة القصوى التي تقضي علينا جميعا أن نكوِّن لنا أساسًا نحكم بهديه على ما نطلع عليه من فنون، حتى تكون لنا القدرة على لفظ الزائف منها دون أن نسمح لها بأن تشوِّه عقليتنا، وتؤثر مستقبلا في قدرتنا على الحكم الصائب. فإن أنت سلمت معي أن مهمة الفنون إن هي إلّا توجيه حياتنا الروحية، وجب اعتقادك بضرورة اتخاذ موقف واعٍ إزاء ما قد يعرقل من هذا التوجيه. وحذار من التأثر بآراء النقاد في هذا الصدد، أو إتاحة الفرصة لهم لكي يكيفوا لك حكمك. فالحكم على الفن مسألة ضمير، ضمير كل شخص على حدة، وليس في قدرة ناقد مهما كان، متى رأيتُ أن عملا فنيا معينا يعرقل حياتي أنا الروحية، أن يثبت لي العكس. وغالبا ما تكون هذه الحياة الروحية لدى النقاد من الموت بحيث تجدهم قد فقدوا حاسة التمييز بين الخبيث والطيب في الفن، إن لم يكونوا قد اتخذوا بالفعل موقفًا عدائيًّا من الفن الطيب، الذي يظهر مدى قبح أرواحهم وعدم أخلاقية حياتهم. وكينيث تاينان (في الأوبزرڤر) مثل حي لهذا الصنف من النقاد.

اسأل نفسك عقب خروجك من المسرح مباشرة عما إذا كنت قد أصبحت، بفضل مشاهدتك التمثيلية، إنسانًا أفضل؛ عما إذا كان عزمك قد ازداد على أن تؤسس علاقات مع الناس على أسس أكثر إنسانية مما كنت تفعل في الماضي؛ عما إذا كنت قد أصبحت أكثر «نبلا» و«طيبة». فإن كان جوابك بالإيجاب فإن العمل الذي شاهدته

---

(1) a. the Lesson b. the Bald Prima Donna c. the New Tenant

(٢) صامويل بيكيت كاتب مسرحي أيرلندي وليس فرنسيا كما ورد في خطابك. ومع ذلك فهو يعيش في فرنسا منذ مدة طويلة ويكتب بالفرنسية. من المسرحيات التي شهدتها له في لندن «Waiting For Godot» سنة ١٩٥٦.

عمل فني من الدرجة الأولى. ولا حاجة بك إلى تقصّي مدى تمتع المسرحية بالحبكة والصنعة والبناء.

ثم طبق ذلك على يونسكو. قطعًا لم تخرج منه «أكثر نبلا وطيبة»، قطعًا لم تنظر إلى العاملة في البار الذي دخلته بعد المسرح لتناول كأس من البيرة نظرة أكثر عطفا وإنسانية. العكس تمامًا هو الصحيح. هو أنك أصبحت أكثر احتقارًا للناس واستخفافا بهم وبأمانيهم وبما يكدحون من أجله، وأكثر انفصالا من الوجهة العقلية ـ عن مظاهر الحياة حولك. تشيكوف أيضًا باستطاعته أن يوضح لك أن الكلمات وسيلة فاشلة لا تصل الناس بعضهم ببعض؛ باستطاعته أن يبين لك مدى قبح بعض مظاهر الحياة حولنا. غير أن أدب تشيكوف يحمل في طياته الحل؛ الهداية؛ وسيلة مواجهة القبح؛ وأدبه لا يمكن اعتباره بأي حال من الأحوال أدبا متشائما حتى وإن كان كئيبا. أما بخصوص يونسكو فخبرني بالله، أي إنسانية تجدها في إبرازه أن حياتنا لا معنى لها ولا هدف؟ المهم في الفن هو ما يريدنا الفن أن نتخذه من موقف إزاء ما بسطه. فما هو التصرف الذي يريدنا يونسكو أن نتبناه إزاء حقيقة أن الحياة خالية من القيمة؟ أن نلقى بأنفسنا من فوق جسر واترلو؟ أن ندمن الخمر؟ أن نستقيل من أعمالنا؟ إنه يجعل الخطيب «الذي أراد الكلام عن الرسالة» يحرك شفتيْه أولاً بلا صوت ثم يصدر أصواتا كأصوات الأخرس، إشارة منه إلى عجز الناس عن التعبير عن أنفسهم لكي يفهمهم الآخرون. حسنًا. ماذا يريدنا أن نصنع إزاء هذا؟ أن نسكت؟ أن نمتنع عن الكلام لأن الناس لا يفهمون كلامنا الفهم الصحيح؟ ألا ترى معي أنه كان الأجدر به هو، بيونسكو نفسه، أن يسكت؟

في مسرحية «الدرس» التي تضمنها البرنامج الذي شاهدته، ماذا يريد أن يقول لنا؟ إن مجرد إغفالك ـ عن عمد ـ لذكر هذه المسرحية أثناء حديثك عن مسرح يونسكو لدليل كاف بالنسبة لي على أن حكمك عليه إن هو إلا حكم عقلي نتج عن انبهارك بالجديد المستحدث في هذا المسرح. يريد أن يخيفنا لمجرد الإخافة أم أن يضحكنا لأن الدق الذي سمعناه في بدء الرواية ولم ندر كنهه، كان سببه نفس السبب في الدق الذي سمعناه في النهاية وهو إعداد تابوت لضحية جديدة؟ ذكاء من المؤلف؟ أم إنسانية؟ أم ماذا؟

هذا الاتجاه في الفن، صدقني، ليس له سوى علة واحدة ومصدر واحد ؛ وهو أن الفن في المجتمع الذي يتحرك فيه أمثال هؤلاء الفنانين المنحلين لا ينظر إليه باعتباره أداة جدية لتكييف أرواح الجماهير التكييف الصحيح، وإنما باعتباره وسيلة للمتعة والتسلية وتخدير الفكر. وإذ تبلى صنوف التسلية بالتكرار، فإن هذا الصنف من الفنانين يرون مهمتهم في ابتداع أنواع متجددة من التسلية لمجرد إمتاع الطبقة المسماة بالمثقفة، والحيلولة دون سأمها. تمامًا كما في لعب الورق ؛ كلما سأم المجتمعون لعبة تحولوا إلى غيرها، من البوكر إلى البريدچ، من البريدچ إلى لعبة ثالثة. الورق ثابت واللعبة متغيرة. وإذ إن أمثال يونسكو ليس لديهم في الحقيقة شيء جديد يريدون قوله فإن عنايتهم تنصب على تغيير الشكل لا الإتيان بالجديد في الموضوع. وهل أنا في حاجة إلى إثبات أن السيريالزم في الرسم ليس إلّا مظهرا لهذه الحقيقة، وهي السعي الدائب لتسلية الطبقة «المثقفة» ومنع سأمها من شكل معين لعدم تجاوبها عادة مع المضمون؟ لقد كان الفنانون القدامى إذا أرادوا أن يقولوا شيئًا قالوه؛ لا يفتحون فمهم إلّا إن كانوا يريدون أن يقولوا شيئًا، فإن فتحوا فمهم قالوا هذا الشيء لأنهم ما فتحوا فمهم إلّا ليقولوا هذا الشيء. أمر بديهي؟ حسنا إنه ليس بديهيا بالنسبة لصديقك يونسكو، الذي ليس لديه شيء يقوله ومع ذلك فهو يفتح فمه موهما إيانا بأن لديه شيئًا يريد قوله، تاركًا إيانا نعصر عقولنا كي نفهم ما هو هذا الشيء، فرحين بأنفسنا إن توهمنا أننا وجدناه. والنتيجة؟ كيف يمكن أن تكون هناك نتيجة سوى صدور أصوات كأصوات الخرس؟

مرة أخرى أقولها لك: بعض الحياء.

حسين

* * *

لندن ٢٣ يوليو ١٩٥٨

عزيزي حسين

أخبار العراق سببت لي وللمصريين هنا اضطرابا وقلقا كبيرا. فأنا أقرأ هذه الأيام

جريدتين أو ثلاثة في الصباح، وطوال اليوم أشترى الملاحق المتابعة من جرائد بعد الظهر التي تظهر طبعة جديدة منها كل ساعة تقريبا. كما أسمع جميع نشرات أخبار الـ BBC ومعظم نشرات الأخبار المصرية أيضًا.

وليس من السهل الكلام كلاما هادئا عن هذه الحوادث فإن الفرح من ناحية والقلق من ناحية أخرى يغري بالحماس أكثر من التحليل.

بدون أي مبالغة، إن ثورة العراق هي إيذان بتحقيق بعث الأمة العربية، فهذه الثورة...

لا مجال الآن لمناقشة «يونسكو» في مثل هذه الظروف السياسية، وإن كنت أكتفي بالاحتجاج على بعض العبارات الواردة في خطابك وأنت ولا شك تعرفها، ولا تظن أني سأتخذ من هذه العبارات موقف «اللامبالاة» أو سأقف «متفرجًا»!

جلال

-٢-

كان في لندن عدد من دور السينما المتخصصة في عرض الأفلام المتميزة، أيًا كانت الدولة التي تنتجها، فضلًا عن ذلك المركز الرائع المسمى «بالمعهد القومي للسينما» (National Film Institute)، القابع أسفل كوبري ووترلو وغير بعيد عن مدرسة لندن للاقتصاد، والذي كان يقيم مهرجانات منتظمة تسمح لمن أراد أن يرى ما فاتته رؤيته من أفلام مخرج معين، حتى ولو كان قد انقضى على إنتاجها عشرون أو ثلاثون عامًا.

وتصادف أن هذه الفترة التي قضيتها في لندن (١٩٥٨ - ١٩٦٤) شهدت ثورة حقيقية في السينما؛ إذ انحسرت موجة المدرسة الواقعية الإيطالية وبدأت تظهر اتجاهات جديدة، وعلى الأخص في فرنسا والسويد وإيطاليا، ذات طابع جديد تمامًا.

يبدو أن الرخاء الذي بدأت تنعم به أوربا بعد أن أتمت إعادة بناء ما دمرته الحرب،

خلق ميلًا لمعالجة مشكلات جديدة لا علاقة لها بالفقر والجوع، مما كانت تدور حوله أفلام الواقعية الإيطالية، أو بالمفارقة الصارخة بين الفقر والثراء، مما كانت تدور حوله معظم الأفلام المصرية، بل تدور حول الخواء النفسي الذي قد يقترن بالحياة الثرية، وصعوبات التواصل بين الناس إذا أرادوا التفاهم حول أمور لا علاقة لها بحل مشاكل الحياة اليومية. هكذا جذبت الناس أفلام من نوع جديد تمامًا، وجذبتني أنا أيضًا، فانشغلت أكثر من اللازم مثلًا بمحاولة فهم ما يقصده المخرج في فيلم «الحياة الحلوة» (La Dolce Vita)، من منظر معين غريب، أو في فيلم «الليل» (La Notte) لأنطونيوني، أو «الفراولة البرية» (Strawberries Wild) لبرجمان... إلخ، فتذهب بي محاولات التفسير كل مذهب دون أن أحقق من هذا أي نفع، إلّا الدخول في مناقشات عقيمة مع بعض من رأوا الفيلم وانشغلوا به مثلي.

بدأ مع هذه الموجة الجديدة من الأفلام اتجاه جديد يتمشى معها وهو التضخيم من دور المخرج والتعظيم من شأنه لدرجة لم تكن معهودة من قبل. كانت قصة الفيلم في الماضي تلعب دورًا أساسيًّا ويعود إليها جزء كبير من نجاح الفيلم أو فشله، فتراجع هذا الدور في سينما الستينات، وأصبح من الممكن ألا يكون للفيلم الناجح أي قصة على الإطلاق، أو أن يكون له شبه قصة يفعل بها المخرج ما يشاء ويستخرج منها ما شاء من معان. تقمص المخرج دور الفيلسوف وراح يزعم بأنه هو صاحب الفضل الأول والأخير في الفيلم؛ ومن ثَمَّ شاع وضع اسم المخرج، ليس فقط باعتباره مخرج الفيلم، بل باعتباره «صانعه» وأن الفيلم «له» وحده.

بعد بضع سنوات وقعتُ خلالها في هذا الفخ، اكتشفت فجأة، لدى رؤيتي لأحد أفلام المخرج السويدي إنجمار برجمان أن في الأمر خدعة كبيرة، وأن الأمر لا يستحق شحذ الفكر وإنفاق كل هذا الوقت لفهم شيء، إذا كان موجودًا كان الأجدر بالمخرج أو المؤلف أن يقوله صراحة وينتهي الأمر.

إن اهتمامي بهذا النوع الغريب من الأفلام وتحمسي له لعدة سنوات، كانا يرجعان بدرجة ما إلى أن دراستي للاقتصاد كانت تجفف عقلي ولا تترك لي وقتًا لقراءة أعمال أدبية مثلما كان لديَّ في مصر قبل البعثة. ومن ثَمَّ كانت رؤية هذه الأفلام، مع كل

غرابتها وادعائها، تعوضني عما كنت أفتقده من قراءة الروايات والقصص. على أني، من بين كل ما رأيت من أفلام سينمائية أثناء إقامتي بإنجلترا ومن بين كل المخرجين السينمائيين، لم أعجب بأحد قدر إعجابي بالمخرج الهندي الشهير «ساتياجيت راى» (Satyajit Ray) الذي اتسمت أفلامه كلها، منذ أنتج فيلمه الأول في منتصف الخمسينات إلى آخر فيلم له في الثمانينات، ببساطة التكنولوچيا المستخدمة وخلوها من أي اعتماد على الإثارة الجنسية، وقيام كل منها على قصة واضحة ومؤثرة وذات معنى نبيل للغاية. وهي وإن كانت أحداثها لا تدور إلّا في الهند، وأشهرها ثلاثية تدور حول حياة أسرة ريفية فقيرة، إلّا أنها تثير مشاعر يشترك فيها الناس جميعًا، وأفكارها تجد صدى في نفس المصري أو الإنجليزي أو الأمريكي مثلما تجد صدى في نفس الهندي. لا عجب أن قال عنه مخرج ياباني شهير: «إن من لم ير أعمال ساتياجيت راى قط، يشبه شخصًا عاش ومات دون أن يرى الشمس أو القمر».

* * *

وكالعادة كنت، إذا فاض بي الحماس لفيلم رائع رأيته، أسرع بالكتابة إلى حسين لأحكي له ما رأيت. حدث هذا، مثلًا، عندما رأيت فيلمًا تونسيًّا اسمه «جحا» طرت به فرحًا وكتبت لحسين وحافظ الخطاب التالي:

لندن ٢٣/ ٤/ ١٩٥٩

عزيزيّ حافظ وحسين

لم أشعر بالحب نحو بلدي والفخر بالانتساب إليها مثلما شعرت اليوم أثناء مشاهدتي للفيلم التونسي (جحا)، ولعلها أول مرة يعرض فيها فيلم عربي في سينما بلندن لها أهمية سينما الـ «Academy» التي لا تعرض إلّا أحسن أفلام العالم، كما لا شك يعرف حسين. كل شيء في الفيلم عربي إلّا المخرج. فهو فرنسي، وبعض الفنانين من غير الممثلين. ولكن المهم أنه حتى هؤلاء، المخرج وغيره من الفنانين الأجانب، لا تشك بعد رؤية الفيلم في أنهما عرب «أكثر من العرب»، يحترمون حياتنا أكثر مما نحترمها، ويعرفون أوجه الجمال فيها أكثر مما نعرف، وأهم من ذلك،

يعرفون كيف يمكن أن نساهم في الثقافة العالمية دون أن نفقد شخصيتنا بل عن طريق استخدام شخصيتنا المتميزة. كل هذا يجعل التجربة التي مارستها برؤية هذا الفيلم تجربة فريدة من نوعها.

القصة بسيطة جدًّا، ولن تلفت النظر بمجرد حكايتها، ولكن أي الأفلام الإيطالية العظيمة لها قصة تلفت النظر بمجرد حكايتها؟ وأنا أفضل أن يكون عرضي للقصة عن طريق تناولي للنقاط البارزة في التجربة التي قام بها هذا الفيلم:

لا شيء في الفيلم مصطنع ومنسوب إلى الحياة العربية دون أن يكون منها حقيقة: لا محاولة لحذف الفقر، ولا محاولة للمبالغة فيه، الحوار كما هو في حياتنا، التمثيل طبيعي جدًّا. فلا شيء إذا في الفيلم يذكّرك بالأفلام المصرية التي ألفناها، ولكنه يتجاوزها ليذكرك مباشرة بطريقة حياتنا.

الحذف الوحيد والإضافات الوحيدة كلها تستهدف الغرض الوحيد التالي: أن تكون الصورة المعطاة جميلة. فالحوار رغم أن كله طبيعي، فإن كله جميل. أجمل تعبيراتنا التي نستخدمها، وخاصة الطبقات الشعبية في حياتها اليومية، استعملها الفيلم. الموسيقى التصويرية كلها عربية، كل ما هنالك أن القطعة المناسبة تستعمل في الوقت المناسب، ومن ثَمَّ يُرغم «أجعص» أجنبي على احترامها وتذوقها. استخدمت أحيانًا بعض التواشيح أو التسابيح، فاحتفظت بالنغمة الأصلية مع عرضها بالشكل الذي يجعلها جميلة ومستساغة لأي ذوق رفيع (أعتقد أن هذه شبيهة بتجربة أبو بكر خيرت).

شخصية جحا اتبع فيها نفس الأسلوب، فالشخصية التي رسخت في أذهاننا عنه لم يحاول الفيلم تغييرها، كل ما هنالك أنه اختار من نوادره ماله مغزى، خاصة القصة التي ارتكز عليها موضوع الفيلم. فمن النوادر التي استعملها مثلا، أن أباه بعد أن كاد ييأس من جحا لعبطه وسذاجته خطر له أن يجرب للمرة الأخيرة، فأرسله إلى الجامعة، والجامعة شبيهة كل الشبه بصحن الأزهر، فأخذ جحا، بعكس غيره من الطلبة، ينتقل من حلقة إلى أخرى، فإذا به يجد أحد العلماء يقول إن الحقيقة بسيطة وليس أسهل

من الوصول إليها، وآخر يؤكد أنه ليس أعقد منها وأنه لا يصل إليها إلّا من فعل كذا وكذا.. ويصيح جحا ساخطا لأنه لا يعرف من يصدّق، ويؤدى إلى اصطدام العالمين، ويثير ضحك التلاميذ، ويأخذ جحا حماره وينصرف إلى أبيه الذي خابت آماله..

ولكن قصة الفيلم الأساسية أن عالمًا شيخًا، أدرك وحده أن جحا بعبطه أقرب إلى إدراك الحقيقة من العلماء، ولجأ للخلاص من شكه ووحدته وحيرته وما رآه من عدم جدوى علمه في مساعدته، إلى الزواج من فتاة صغيرة. والفتاة الصغيرة بعد زواجها تشعر بحاجتها إلى شاب صغير، وتقع في حب جحا البسيط، ويزورها جحا في بيتها كل ليلة، حتى تعرف زوجة أبيه عن طريق تعقب الحمار، فتخبر أباه على مسمع من بناتها التسع، فيطلب منها ألا تخبر أحدا بالخبر، ولكن كل بنت من البنات التسع تذيع الخبر كأحسن ما تفعل أوسع الجرائد انتشارًا. ويصل الخبر للزوج العالم الطيب فيقرر أولاً الانتقام من جحا، ثم يعدل عن ذلك، ويطلق زوجته التي يقتلها أبوها لتلويثها البيت بالعار. كما يُطرد جحا من بيت أبيه بين استنكار زوجة الأب للطرد وبكاء البنات التسع، اللاتي ولا شك كن يحببن جحا. ويهيم جحا على وجهه حتى يصادفه العالم فيدعوه إلى بيته، ويعامله بلطف يثير ألم جحا إلى غير حد، فينتحر بإلقاء نفسه في اليم.

خلال القصة صور لنا الفيلم: العادات العربية في الزواج: الزوجة حينما تعلم بأنه سيكون لها ضُرة، الزوجة تذهب لتخطب لزوجها امرأة أخرى، الأم تعرض بنتها كسلعة لتزويجها مع تظاهرها بأن البنت لم تكن تعلم بالزيارة السعيدة، الخاطبة تتحسس جسم البنت متظاهرة بفحص الثوب، لا رأي للفتاة التي تنقل من بيت إلى بيت كقطعة الأثاث... ثم حلقات الذكر، ندب الميت، السوق، الشحاذة، طيبة قلب الجميع، حتى إذا اتخذوا موقفا قاسيا فهو عادة ضد إرادتهم وتطبيقًا لمبدأ يرونه أقوى منهم.

من المواقف الممتعة الموقف التالي:

الزوجة الشابة تصف لإحدى وصيفاتها حرقة قلبها بسبب حبها لجحا، فتذهب الوصيفة إلى شيخ صالح لتعرف منه ما يعلم عن جحا.

يقول لها الشيخ إنه عرف أربعة كل منهم اسمه جحا: الأول بحار.. ويظل يصفه بأدب شعبي بديع، فإذا انتهى من الأول قالت الوصيفة: ليس هذا جحا الذي أعنيه فيقول: طبعا لا، ويمد يده للوصيفة فتضع فيها بعض النقود.. ثم يبدأ في الثاني والثالث، والفيلم يصور لنا ما يحكيه عن كل منهم بالصور، وكلها من خيال الشيخ لاكتساب أكبر قدر ممكن من النقود، فلما تهدده الوصيفة بالذهاب يبدأ في الكلام عن جحا المقصود!

أراد المخرج في نفس الوقت أن يصوّر الراوي فاستخدمه في رواية القصة كلها، مصورًا شخصيته وشخصية الجمهور المستمع له، كيفية تتبعهم للقصة وتشاجرهم في النهاية حول النهاية المتوقعة للقصة، وتباطؤ الراوي في ذكر النهاية حتى يقبض منهم النقود، قائلا وفقا للطريقة المصرية أو العربية، إنه لا يفعل ذلك من أجل النقود، فالقصة نفسها لا يمكن أن تقدر بمال!!

إن أهمية الفيلم، ليس في أنه من أجمل ما رأيته من أفلام على الإطلاق، رغم أن هذا صحيح، ولكن في أنه درس لكل من يحاول من العرب إنتاج فيلم، وأهم من ذلك أنه دليل غير قابل للجدل على أن حياتنا وأدبنا الشعبي فيهما من الغنى والغزارة ما يمكننا من منافسة أي أدب عالمي، فضلا عن أنهما يعكسان شعبا ذا روح عظيمة لا يمكن أن تستنفد.

جلال

(أرجو أن يكون حسين مازال يحتفظ بخطاباتي
إذ أنها هي السجل الوحيد لحياتي اليومية هنا)

* * *

كنت بعد انتهاء دراستي في إنجلترا أعود إلى زيارة إنجلترا بين الحين والآخر، فلاحظت انتشار موجة جديدة وعاتية في السينما الأوربية والأمريكية، لم أكن قد رأيت إلّا بداياتها المتواضعة جدًّا في الستينات، وأقصد بها موجة الإباحية الجنسية في الأفلام التي كانت تعكس ما كان يحدث في المجتمع الغربي بوجه عام. ربما كان السبب الأساسي لهذا التطور هو تطور تكنولوچي بحت، وهو اكتشاف وانتشار

وسائل أبسط وأكثر أمانًا لمنع الحمل، الأمر الذي كان يعني شيئًا خطيرًا للغاية، وهو انفصال ممارسة الجنس عن إنجاب الأطفال. وكان هذا لا بد أن يؤدى بالضرورة إلى تحرر العلاقات بين الجنسين بسرعة غير معهودة، وابتعاد فكرة الجنس شيئًا فشيئًا عن مفهوم الناس عن الفضيلة من ناحية، وعن الارتباط الأبدي بين الجنسيْن في شكل أسرة لا ينحل رباطها إلّا بالموت. ولكن دخول الإباحية في الأفلام السينمائية كان لا بد أن يعني بدوره زوال الفوارق بالتدريج بين ما يعتبر من أفلام الإثارة الجنسية البحتة (أي التي لا تنتج إلّا لهذا الغرض ويشار إليها باسم بورنو) وبين سائر الأفلام. إذ أصبح من الصعب الحكم بما إذا كان هذا المنظر الإباحي أو ذاك الغرض منه التعبير عن فكرة في ذهن المؤلف أو المخرج، أو مجرد إثارة المشاعر الجنسية لدى المتفرجين. واستغل المخرجون هذه الصعوبة في التمييز، فزادوا من المناظر الإباحية في أفلامهم على أمل أن يكون بالإمكان الدفاع عن ذلك بأن المخرج لا يفعل هذا لذاته، بل لغرض أسمى وأعمق. وارتبط هذا الاتجاه نحو المزيد من الإباحية، بالاتجاه الأقدم والذي بدأ في الستينات، نحو مزيد من الإبهام والتفلسف، فإذا بنا إزاء عدد متزايد من الأفلام التي تُستقبل بحماس كبير في مهرجانات السينما، وبثناء عظيم من النقاد، وهي لا تزيد على ما ذكرت إلّا باستخدام الوسائل التكنولوچية الحديثة في التصوير والإضاءة وتسجيل الصوت، فاستقبلها الجمهور المأخوذ بهذه الأشياء الثلاثة: الإبهام والإباحية والتكنولوچيا الحديثة، باهتمام وحماس بالغيْن، بينما قد لا يختلف الأمر في الواقع عن استقبال الجمهور للإمبراطور الذي مشى في الشوارع وهو عريان، في القصة المشهورة.

-٣-

يبدو أنني بمجرد أن انتهيت من أول امتحان لي في لندن (واسمه «امتحان التأهيل» (Qualifying Examination)، وشعرت بالاطمئنان إلى مستقبلي الدراسي، زاد الوقت الذي وجهته إلى أشياء أخرى غير القراءة في الاقتصاد. ومن مطالعتي لخطاباتي إلى حسين تبينت أنني بعد مرور أسابيع قليلة على نجاحي في هذا الامتحان انشغلت

بسؤال غريب، كنت قد فكرت فيه منذ سنين طويلة ولم أصل فيه إلى نتيجة، فإذا به يشغلني من جديد، ولأسابيع طويلة. كان السؤال هو عما إذا كان من الممكن تحليل الموسيقى بالكلمات. كنت حينئذ واثقًا من إمكان ذلك، ولم أكن قد وصلت بعد إلى ما أنا مقتنع به الآن، وتعبر عنه الجملة الرائعة التالية التي لا أذكر قائلها: «التعبير بالكلمات عن الموسيقى أمر مستحيل كاستحالة التعبير عن المعمار بالرقص» (dancing about architecture is as impossible as talking about music).

كنت قد تعرفت بعد وصولي إلى إنجلترا ولأول مرة، إلى الموسيقي الفنلندي «سيبلياس» (Sibelius) وأعجبت جدًّا بسيمفونيته الثانية فشرعت أحاول تفسير سبب جمالها، جزءًا بعد جزء، وسجلت ذلك على شريط بحيث تتخلل شرحي، الأجزاء المتتالية من السيمفونية. وكنت أيضًا أواظب على الاستماع إلى الأحاديث الأسبوعية في الإذاعة البريطانية لمعلق موسيقي اسمه «أنتوني هوبكنز» (Anthony Hopkins) في برنامج يدعى «حديث عن الموسيقى» (Talking about Music)، وأعجبت به إعجابًا جمًّا، ولكن الرجل كان أحكم مني، إذ كان يكتفي بمناقشة الشكل وطريقة الأداء بينما كنت أنا أحاول أن أترجم الموسيقى إلى عواطف، وأبحث عن شيء غامض هو السبب في أن جملة موسيقية معينة لها هذا الوقع في النفس.

ثم جرني التفكير في الأمر إلى التفكير في طبيعة الفن بوجه عام، والبحث عن العنصر المشترك في الفنون كافة، وسبب ما تولده في النفس من مشاعر. كان هذا السؤال أكثر سهولة وقد يكون له جواب، وأخذت أقرأ كتابًا بعد آخر في الموضوع مستعينًا بتلك المكتبة الرائعة في الدور الرابع من مبنى كلية الاقتصاد والتي تحمل اسم «برنارد شو» (The Shaw Library). لا أذكر من بين الكتب التي قرأتها في هذا الموضوع إلّا كتاب«ما الفن؟» (What is Art?) لتولستوي، الذي لم يشفِ غليلي، وكتابًا آخر اعتبرته أفضل، اسمه «الاستماع الذكي للموسيقى» (Intelligent Listening to Music) صدر في ١٩٤٨ من تأليف «W. W. Johnson».

أذكر أني في أحد الأيام أخذت أذرع شارعي أكسفورد وريجينت في وسط لندن، جيئة وذهابًا؛ محاولًا أن أصل إلى تعريف جامع مانع للفن، وهو أمر يبدو لي الآن غريبًا

إذ كان المفروض أن أكون منهمكًا في الاستعداد لامتحان الماجستير في الاقتصاد. وأخيرًا وصلت إلى إجابة اعتبرتها وقتها مرضية تمامًا؛ إذ بدا لي أنها تحتوي على العنصر المشترك في الأعمال الفنية كافة، من الموسيقى والشعر إلى الأدب والرسم والنحت، بل حتى النكتة التي اعتبرتها «عملًا فنيًّا صغيرًا». كان العنصر الأساسي المشترك الذي اهتديت إليه هو «إثارة التوقعات ثَمَّ تحقيقها». فالنغمة أو الجملة الموسيقية الأولى تثير في الذهن توقعًا معينًا، ثم تأتي النغمة أو الجملة التالية لتحقيق جزء من التوقع دون أن تشبعه إشباعًا كاملًا، وتثير في نفس الوقت توقعًا جديدًا، وهكذا تستمر القطعة الموسيقية حتى تنتهي بإشباع التوقعات إشباعًا تامًّا. وقد استخدمت نفس الفكرة في تفسير الفرق بين الموسيقى البدائية والموسيقى الكلاسيكية المعقدة، وبين الفن الراقي والفن البدائي، والنكتة الناجحة والنكتة الفاشلة، وبين الفنون التي تتطلب بعدًا زمنيًّا كالموسيقى والقصة، وتلك التي تقدم لك عملًا كاملًا في لحظة واحدة كالصورة والتمثال. وقد فرحت بالفكرة فرحًا شديدًا وكتبت إلى حسين عدة خطابات أشرح فيها الفكرة. وإذ قابلت صديقًا سودانيًّا يتناول القهوة على عجل في كلية الاقتصاد، شرعت في شرح الفكرة له دون أن يكون لديه أدنى استعداد للكلام عن الفن، فاستأذن بلطف وانصرف إلى المكتبة.

لم أعد إلى التفكير في الأمر منذ ذلك الوقت وحتى الآن، ولكني لازلت أشعر بأن مثل هذه اللحظات التي استغرقت فيها بدافع ذاتي محض، ودون أي إجبار من أحد، في التفكير في أمر يشوقني فهمه، هي من أكثر لحظات حياتي خصوبة وإمتاعًا، وهي للأسف لم تتكرر كثيرًا؛ فكثير جدًّا مما كتبته وفكّرت فيه كان الدافع إليه التزامًا مفروضًا عليَّ فرضًا، وجزء كبير من قراءاتي كان للأسف، إما استعدادًا لامتحان وإما إنهاء لرسالة للحصول على شهادة، وإما استجابة لإلحاح بإلقاء محاضرة أو كتابة مقال. بل لعل الأشياء الوحيدة التي كتبتها والتي لا زلت راضيًا عنها حتى الآن، هي تلك الأعمال القليلة التي كتبتها لإرضاء نفسي وحدها، ومن ثَمَّ لم تكلفني كتابتها أي عناء، ولم تجلب لي كتابتها إلّا السرور.

ها هي مقتطفات مما كتبته إلى حسين من خطابات حول الموسيقى، ومن خطاباته في الرد عليها.

لندن ٣ إبريل ١٩٥٩

عزيزي حسين

... وبصدد الموسيقى، أعتقد أنني وصلت إلى الإجابة على الأسئلة الآتية:

هل يمكن أن نحدد بالنسبة للموسيقى معاني معينة واضحة؟ الإجابة: لا

ما السبب في كون الموسيقى فنا مجردا أكثر من الأدب مثلا؟، أعتقد أن السبب أنها تعتمد أساسا على سبب مجرد للجمال وهو «التقابل» أو الـ (Symmetry) بأوسع معانيه، فهي تحتوي على التقابل بين النغم العالي والمنخفض، بين الطويل والقصير، بين أنغام معينة يُحدث التقابل بينها تأثيرات طيبة في النفس، بين النغمة السريعة والبطيئة، بين ترتيب أنغام السلم الموسيقي ترتيبات متناسقة، بالإضافة إلى الهارموني الذي هو أيضًا نوع من «التقابل»... إلخ.

فجمال الموسيقى في نظري شبيه جدا جدا بجمال المناظر الطبيعية، السبب واحد تقريبًا: التقابل، هنا بين الأنغام وهناك بين الخطوط والأشكال. ولهذا في كليهما يستحيل أن تحدد: ما الشعور المعين الموضوعي الذي أثاره فيك المنظر الجميل أو الموسيقى الجميلة، مع أننا نستطيع أن نتفق على أن هذا المنظر (أو المقطع الموسيقي) جميل أو قبيح. كل ما هنالك أن هذا التقابل أو التناسق له القدرة على أن يفتح في صدورنا الباب لانفعالنا (ربما لأن هذا التناسق أو التقابل يستجيب لحاجة معينة في جهازنا العصبي أو تركيبنا المادي، أو لأنه شرط أولي من شروط الحركة بل وللوجود أو التوازن ذاته. لا يمكن أن نتصور مخلوقا مرتكزا إلّا على قدمين متقابلين، أو قدم واحدة ولكنها في الوسط، وفى الحالين يتحقق التناسق. تصور مثلا وجه الإنسان بدون هذا التقابل، ألا يكون بالغ البشاعة؟ (مثلا عين واحدة فقط في الناحية اليمنى، أو أن الأنف ليست في الوسط... إلخ).

ويلاحظ أنه كلما تعقد هذا التقابل (ولكن مع اشتراط وجوده):

أولاً: أثرت فينا الموسيقى أكثر. ثانيًا: احتاجت إلى مرات أكثر للاستماع إليها حتى ننسجم منها وحتى ندرك هذا التقابل المعقد. ثالثًا: كلما كانت متعتنا أكثر قابلية للاستمرار.

إن هذه الفكرة أراحتني جدًّا لأني لم أعد بعد الآن أحاول البحث عن حقيقة الشعور أو الفكرة التي تثيرها فينا جملة موسيقية معينة. يهمني أن أعرف رأيك في هذه الفكرة.

(بعد أن خطرت لي هذه الفكرة قرأت كتابا كاملا اسمه «Scope of Music» لكي أبحث فيه عن تحليل سبب جمال الموسيقى والمقارنة بينها وبين سائر الفنون، فلم أعثر على شيء رغم أن فيه فصلا يحمل هذا العنوان).

أرجو من كل قلبي أن يكون المولود الجديد لحماده (أخي محمد) ولدًا، لا لأني أعلق أهمية على هذا، ولكن لأنه هو يعلق أهمية عليه.

كل سنة وانتم طيبين،

جلال

* * *

القاهرة ١٣ إبريل ١٩٥٩

عزيزي جلال

... فيما يتعلق بما كتبته عن الموسيقى أحب أولاً أن أشكرك على ملاحظاتك المفيدة عن التقابل كأساس للاستمتاع بالموسيقى. غير أن النتيجة التي خلصت إليها أنت بعد هذه الملاحظات استوقفتني طويلا. إذ تقول «لم أعد بعد الآن أحاول البحث عن حقيقة الشعور أو الفكرة التي تثيرها فينا جملة موسيقية معينة» وذلك ردًا على تساؤلك في أول الخطاب: «هل يمكن أن نحدد بالنسبة للموسيقى معاني معينة واضحة».. تسألني عن رأيي في الموضوع رغم علمك بجهلي به. ومع ذلك فسأحاول أن أسجل انطباعاتي الخاصة. والجاهل له من الحق في التعبير عن انطباعاته، ما للفيلسوف من الحق في التعبير عن آرائه.

لا أظن من الممكن استخلاص معان واضحة من الجمل الموسيقية أو من المقطوعة الموسيقية كاملة. في الأدب نعم، أو حتى في التصوير، يلزم للفنان أن يدرك الفكرة أو الإحساس الذي يريد نقلهما إلى الغير إدراكا واعيا واضحا قبل البدء

في عملية الخلق الفني. أما في الموسيقى (أنا الآن أتكلم عن الموسيقى الكلاسيكية) فيكفي أن يشعر الموسيقي بإحساس غامض ولكنه قوي، دون أن يُقدم أو حتى أن يعبأ بتحليله لمعرفة كنهه حتى يبدأ في وضع اللحن. وهذا ـ لا فكرة التقابل ـ هو السبب في كون الموسيقى فنا مجردا أكثر من الأدب. غير أن هذا في رأيي ليس هو المهم في الأمر. لقد قارنت طويلا بين أثر الموسيقى وأثر الأدب في (وفي الناس) فبدأت أشعر بشيء من الشك في قيمة الموسيقى الكلاسيكية. سأعطيك مثلا: تشيكوف مرت به تجربة في بيت من بيوت الدعارة أثارت في نفسه كراهية عميقة لهذا النظام. هذه الكراهية عبر عنها في قالب فني في قصة «انهيار عصبي». أقرأ أنا هذه القصة فتسري فيَّ عدوى الكراهية لنظام البغاء. بسريان العدوى يكون الأدب قد حقق الغرض منه. (كما أوضح تولستوي في كتابه عن الفن).

يختلف الحال مع الموسيقى الكلاسيكية. فأنا أسألك مثلا: هل حدث إطلاقا أن أثار فيك المارش الجنائزي في سيمفونية بيتهوفن الثالثة عاطفة الحزن؟ هل أثارت فيك الحركة الأولى من سيمفونيته السادسة الابتهاج بالحياة؟ لا أعتقد. ما تتركه الموسيقى الكلاسيكية في النفس هو أثر غامض «مائع» كشعور المؤلف قبل وضعه اللحن، تجعلك تريد شيئا لا تعرف كنهه، وتشعرك بإحساس – هو دخيل عليك – لا تدري طبيعته. قد تكون في حالة من الحزن فتقرأ تمثيلية لموليير فتضحك. وقد تكون في حالة من المرح فتقرأ «مومو» فتدمع عينك. هل للموسيقى الكلاسيكية هذا الأثر؟ للموسيقى الشعبية، نعم، كألحان الفلاحين التي تثير المرح، وفي بعض الموسيقى الكلاسيكية أيضًا كموسيقى باخ المثيرة للشعور الديني. فيما عدا ذلك لا ألمس لموسيقى شخص كبراهمز أو فاجنر أو حتى سيمفونيات بيتهوفن أثرا في نفسي على الإطلاق، سوى شعور غامض عقيم كالماء الذي عكرت هدوءه بإلقاء حجر فيه دون سبب.

أكاد أخمن ردك: إن مجرد تعويد النفس على ما في الموسيقى من تقابل وانسجام مفيد للنفس، هذا جائز. غير أنني أحكم على العمل الفني من تأثيره المباشر عليَّ: أن يضحكني، أن يبكيني، أن يجعلني أفكر في المشكلة. تمثيلية «إجمونت» مثلا لجوته

التي صوّر فيها اضطهاد الحريات في الأراضي الواطئة في عهد الحكم الأسباني، ونبل الكونت إجمونت المناضل لإزاحة الظلم، تخرج من هذه المسرحية وأنت تعد نفسك في ذهنك:

«I will be wise, and just, and good,and free, if in me lies such power. For I am sick to behold the selfish and strong still tyranize, without reproach or check... etc».

قارن ذلك بافتتاحية إجمونت لبيتهوفن. هل مجرد الاستماع إليها يثير فيك الشعور بكراهية الظلم والاضطهاد؟ فإذا كان التقابل وحده هو العنصر المهم في الموسيقى فلماذا سماها بيتهوفن «إجمونت»..

حسين

* * *

لندن ٨ مارس ١٩٦٠

عزيزي حسين

... استطرادًا لما كنت كتبته إليك مرة عن الموسيقى والتقابل كأساس لها. أكتب لك الآن ما يمكن أن يعتبر تصحيحا وتعميقا لتلك الفكرة.

فلا زال عنصر التقابل أساسيا في نظري لتفسير جمال الموسيقى، بل وفى الفنون كلها، ولكن إذا تساءلنا عن السبب في ذلك تبين لنا أن أهم عنصر في الجمال الفني، ولعله هو الذي يجعل العمل عملا فنيا بدلا من أن يكون أي شيء آخر، هو ما يمكن أن يعبر عنه بـ: إثارة توقع معين ثم تحقيق هذا التوقع أو على الأقل عدم تخييبه كلية.

To arouse a certain expectation, and then to satisfy this expectation, or at least not to disappoint it completely.

هذا هو ما أنا الآن بسبيل توضيحه وتعميمه على الفنون المختلفة.

مهمة الفن هو جرّ الشخص الذي «عرّض» نفسه للفن، إلى توقّع معين، يختلف نوعه باختلاف الفن، ثم تحقيق هذا التوقع.

خد مثلا الموسيقى:

يبدأ المستمع بالاستماع إلى نغمة معينة، أقصد «note» واحدة، مثلا: لا، أو سي أو دو... إلخ. مجرد هذه الـ «note» تجعله يتوقع أن يعقبها «note» أخرى من نوع معين. إذ أن كل «note» موسيقية هي في الواقع «موحية» (suggestive) بـ«note» أخرى أو بإحدى «notes» أخرى. منذ هذه اللحظة يقع المستمع في الشرك، ويكون عليه الاستمرار فريسة لتوقعات مختلفة وإرضاءات مختلفة لهذه التوقعات حتى تنتهي القطعة، «فيحرّر» المستمع من جديد. على أن التوقعات في الموسيقى لا تقتصر على ما تثيره كل «note» من توقع «note» أخرى، بل بالإضافة إلى ذلك، كل تركيب موسيقي وكل جملة موسيقية تثير توقع ما يقابلها، ثم يأتي «التقابل» إرضاء لهذا التوقع.

لتوضيح هذا الكلام الغامض، دعنا ننتقل لحظة إلى الجمال في الأشكال الهندسية. الرسم الزخرفي ما هو إلّا إثارة للتوقع وإرضاء التوقع بطريقة بالغة السذاجة إذ ليس أسذج أو أبسط من إرضاء التوقع إرضاءً تامًا عن طريق التكرار الكامل.

خذ مثلا المربع أو المستطيل. إنهما شكلان – إن لم يكونا جميلين، فهما على الأقل مريحان، والسبب أن كل نصف «يثير» توقع نصفا آخر مشابها له، والشكل يحقق هذا التوقع.

والآن، فإن مهارة الفنان تتوقف على مقدرته على إرضاء التوقع إرضاءً متوسطا، لا هو بالإرضاء الكامل ولا هو بتخييبه خيبة تامة. إرضاء التوقع إرضاء كاملا هو فن ساذج أو بدائي، ولكن تخييبه خيبة تامة هو انعدام الفن. فالرسم الزخرفي المكوّن من تكرار حرفي للشكل الواحد هو فن ساذج لأنه إرضاء كامل للتوقع. والموسيقى المعتمدة فقط على الإيقاع المتشابه المتكرر، كموسيقى الشعوب البدائية، هو فن ساذج لنفس السبب (وكأني بهذه الشعوب لا يمكن إقناعها مهما تكررت الضربة الواحدة بأن من العبث توقع شيء مخالف، ولكنهم لا يكفّون عن الانتظار والتمتع بالدقة الجديدة!).

وهكذا كلما كان الـ «symmetry» كاملا، كان الفن ساذجا في الأدب، نفس الشيء. طالما توقع القارئ لم يثر بعد، يظل القارئ بعيدا عن الشرك وغير متأثر بالفن. يبدأ توقعه حينما مثلا، يبدأ وضوح شخصية معينة من شخصيات الرواية، حيث يتوقع القارئ تصرفات معينة منها، كلما تحقق هذا التوقع شعر القارئ بتمتع، هو التمتع بالجمال الفني، وهو ليس إلّا لذة تحقيق توقعه. ولكن هذا التوقع وتحقيقه يمكن أن يتم بشكل ساذج، فيكون الفن فقيرا، أو ماهر فيكون الفن رفيعا. فأن يقرر الكاتب صراحة أن فلانًا شخصية قوية مثلا، يفسد كثيرا من لذة القارئ المستمدة من التوقع والاكتشاف. كذلك، أن يجيء الحوار كما هو متوقع يفسد اللذة إلى حد كبير ويحل محلها الملل، إذ ما سبب الملل إلّا حصول المتوقع كاملا.

من ناحية أخرى فإن حصول ما هو غير متوقع كلية هو فشل «الفنان» فشلا كاملا، بحيث لا يصبح العمل فنا إطلاقا. فما الموسيقى «النشاز» إلّا أنغاما غير متوقعة بالمرة، وسبب عدم جمال مجموعة من الخطوط المرسومة بدون ضابط هو أنها خطوط غير متوقعة، وكذلك عدم «وضوح الشخصية» في الأدب أو عدم كونها حية، ما هي إلا تناقض بين الشخصية المصوّرة في القصة وبين ما توقع منها.

بل ما هو معيار النكتة الجميلة؟ (والنكتة الجميلة في نظري ما هي إلّا عمل فني صغير، وهي تثير إحساسًا لا يختلف نوعيا عن الإحساس بالجمال الفني) هي التي تأتي خاتمتها وسطا بين المبالغة غير المتصورة وبين المتوقع توقعا تامًا، وفى الحالتين تكون النكتة بايخة.

بل ما هو السر في اختلاف قوة التأثير بين الفنون المختلفة؟

أعتقد أن من الواضح إلى حد كبير أن الموسيقى فن يشترك في الاستمتاع به أكبر عدد ممكن من الناس، يليها الأدب، يليه الرسم والنحت، وأن السينما أكثر من القصة المكتوبة جذبًا للناس. لماذا؟ لأن الموسيقى تتميز عن الرسم والنحت مثلا، بأنها ـ بطبيعتها ـ فن يخلق التوقع وإرضاء التوقع في لحظتين مختلفتين، بينما الرسم والنحت يواجهك بالتوقع وإرضائه في نفس اللحظة. (ولا فرق بين المناظر الطبيعية الجميلة والرسم والنحت في هذه النقطة، كما في نقاط كثيرة أخرى).

والأدب مثل الموسيقى في هذه النقطة، إلّا أنه يتطلب أولا مجهودًا إيجابيا من القارئ، ثَمَّ إن الزمن الذي يستغرقه لكي يثير التوقع أكبر منه في حالة الموسيقى، وقد يفقد القارئ صبره قبل ذلك.

هذا يفسر أيضًا أن «المران» على الاستماع إلى الموسيقى الكلاسيك يخلق إمكانية الاستمتاع بها، إذ بعد مدة يعرف المستمع ما يجب توقعه، بينما كان من قبل تائها لا يعرف ماذا يتوقع ومن ثم يستحيل الاستمتاع. وهذا يفسر أن الهارموني في الموسيقى يضاعف جمالها إذ يصبح التوقع وإرضاء التوقع مزدوجا. والسبب في أن الموسيقى الكلاسيك تثير إحساسًا أعمق وأقوى من الموسيقى الشرقية مثلا هو أنها معقدة أكثر، والتعقيد بطبيعته يحمل توقعات وإرضاء للتوقعات أكثر مما تحمله الموسيقى البسيطة.

كذلك فإن من مهارة الموسيقي ألا يجعل الجملة الموسيقية تنتهي، أو بعبارة أدق، ألاّ يرضى توقعا معينا، إلّا وقد أثار توقعًا آخر. مثال ذلك ما تجده في كل الموسيقى الكلاسيك، وبشكل واضح مثلا في موسيقى باخ، حيث يوهمك دائما بأنه «سيرضيك» وإذا به حملك على توقع آخر، ولا يرضيك إلّا في نهاية القطعة. ألا تجد نفس الشيء، في القصة والرواية والمسرحية؟ إذ من فقر الفن أن تحل عقدة معينة في الفصل الأول بينما لا تحل العقدة الرئيسية في الفصل الأخير، إذ يجب أن تُقدم العقدة الثانوية في نفس الوقت تقريبا مع العقدة الرئيسية وتحل كلها أيضًا في نفس الوقت تقريبًا.

ثم لماذا كان من فقر الفن في الحوار أن يكون أحد المتحاورين أقدر بكثير من زميله؟ لأنه إذا كان كلاهما قويا، أثار كل منهما فيك الرغبة في معرفة رد الآخر وهكذا، بينما إذا كان أحدهما واضح الضعف، عرفَت مسبقًا ماذا سيكون الرد عليه.

وهكذا ما الإحساس بالجمال الفني إلّا هذه «الإثارة» المستمرة التي تسببها إثارة توقع وإرضاؤه. ويصبح الأمر تمامًا كإدارة عجلة بمجموعة من الدفعات، كلما همت بالوقوف عاجلتها بدفعة أخرى. فإذا تركت العجلة في النهاية (إذا انتهى تعريض الشخص للعمل الفني) استمرت العجلة مدة معينة في الدوران من تلقاء نفسها بقوة

الدفع (يستمر الشخص في ثورة من الانفعالات والرغبة في القيام بعمل ما أو التعبير عن نفسه بشكل ما).

أما المشاعر الإنسانية النبيلة التي تعقب الاستمتاع بعمل فني معين فهي ليست ناتجة عن مجرد التعرض لعمل فني، بل ناتجة عن مضمون العمل نفسه. فالعمل الفني أثره قاصر في ذاته على إدارة العجلة، ومضمونه هو الذي يحدد اتجاه العجلة.

ولما كانت الموسيقى أكثر الفنون خلوّا من المحتوى ـ ولهذا تعتبر «The purest of all arts» أمكن استخدامها في إثارة ما شئت من العواطف، النبيلة والخسيسة على السواء، في إثارة الحرب وفى إثارة العطف على السواء.

إذا كان هذا هو الشيء المشترك في الفنون - بل في الأشياء الجميلة كلها، فما هو الاختلاف؟ الاختلاف هو في الأداة المستعملة في إثارة التوقعات وإرضائها. ولكل أداة طبيعتها الخاصة التي لها آثارها الخاصة في الإنسان. فأداة الأدب هي الكلمة. في كل الآداب ماعدا الشعر: الأداة هي معنى الكلمة فقط، بينما في الشعر، معنى الكلمة وموسيقاها. في الموسيقى: الصوت، في الرسم والنحت والمناظر الطبيعية: الشكل، في الرقص: الحركة والموسيقى، في السينما: كل هذه الأشياء مجتمعة.

ولكن بالإضافة إلى هذا الأثر العام لكل الفنون (إثارة التوقع وإرضاؤه) لكل أداة «تداعياتها» (its associations) الخاصة بها. فالكلمة لها تاريخ طويل من المعاني. والألوان لها ما تثيره من العواطف، والـ«notes» المختلفة تُثير كل منها عاطفة مختلفة نتيجة لاستعمال هذه الـ«notes» في الصوت الإنساني وفى الطبيعة للتعبير عن عواطف وأشياء مختلفة. لهذا كان تأثير الفن مزدوجا:

١ ـ التأثير الفني البحت، الناتج عن إثارة التوقعات وإرضائها.

٢ ـ والتأثير الناتج عن «التداعيات» (associations) الخاص بالأداة.

ولولا وجود هذا التأثير الثاني ما ثارت مسألة الالتزام في الفن، إذ هو وحده الذي يخضع لعقل الفنان. وكلما قويّ العنصر الأول بالنسبة للثاني كلما اقترب الفن من الـ «pure art» وكلما قويّ الثاني بالنسبة للأول كلما بعد عن هذا.

هذه كلها أفكاري رغبت في تدوينها، ورأيت أن أكتبها في خطاب لك أفضل من أن أكتبها كشيء منفصل يوضع في الدرج، فأرجو أن تغفر لي بُعد هذا الكلام عن طبيعةالخطاب، ويا حبذا لو أعجبك هذا الكلام أو علقت عليه.

جلال

قرأت الخطاب مرة أخرى وأعجبني، وقررت إذا أعجبك، أن أسميه: «A Generalized Theory of Artistic Expectations!».

أتاوا في ١٣/ ٣/ ١٩٦٠

عزيزي جلال

سأقتصر في هذا الخطاب على بسط نظرية شوبنهاور في الموسيقى، علّك ترى في بعض ما أورده ما يفيدك في دراستك للموسيقى ونظرياتها. وسأؤجل تعليقي على نظريتك ووصفي لرحلة نيويورك إلى خطابات أخرى.

يقول شوبنهاور:

«الموسيقى لا تعرف غير الأنغام، ولا دراية لها بالأسباب التي أنتجت هذه الأنغام. ومن ثَمَّ فإنه حتى الصوت الإنساني ليس بالنسبة لها غير نغمة معدَّلة شأنه في ذلك شأن الآلات الموسيقية. وقد تستغل الموسيقى الصوت الإنساني، غير أنه لا ينبغي أن يكون هذا الصوت (الغناء) العنصر الأساسي فيها، بل إنه من اللازم أن تكون كلمات الأغنية أقرب ما يمكن إلى التفاهة. فالكلمات عنصر دخيل على الموسيقى، عنصر مساعد ليس غير، والموسيقى دائما أقوى أثرا وأسرع نفوذا إلى القلب من الكلمات، ولهذا فإنه إذا أدمج الكلام في الموسيقى فعلى الأول أن يكون خاضعا لها وأن يكيف نفسه تمامًا وفقًا للأنغام. غير أن الشائع بين الناس هو العكس، إذ تُكتب الموسيقى لتناسب قصيدة معينة أو حوار أوبرا معينة، بينما المناسب هو أن تكتب الكلمات والحوار لتناسب الموسيقى، نظرًا إلى أن الحالة الأولى تؤدي إلى أن يتكلف الملحن الحالات الوجدانية للشاعر، وأن يُغير من مجرى موسيقاه تبعا لتغير مجرى معاني الكلمات،

وهي كما سبق القول العنصر الثانوي[1]. ومع ذلك فإن إضافة الشعر إلى الموسيقى يشبع لدى الناس احتياجات أوفى، نظرًا إلى أن الأغنية في هذه الحالة تصل إليهم عن كل من الطريق المباشر والطريق غير المباشر للمعرفة في نفس الوقت: الطريق المباشر، وهو تعبير الموسيقى عن المشاعر والإرادة ذاتها، والطريق غير المباشر وهو مدلول الكلمات. إذ بينما تعبر الموسيقى عن كل خلجات الإرادة والمشاعر نجد الكلمات إذا أضيفت تبين أهداف هذه المشاعر «محددة» والبواعث التي حركتها. ذلك أن النغمة الموسيقية قد تبقى كما هي سواء كانت تعبر عن الشجار بين أغا ممنون وأخيل، أو عن الشجار بين أفراد عائلة بورجوازية. فالعواطف وخلجات الإرادة هي كل ما يعنيها؛ والموسيقى في هذا كالإله: لا ترى غير القلوب. أما الكلمات فتحدد موضوع العاطفة. ولهذا فإنه حتى في الأوبرات الكوميدية و«المساخر» (Farces) نجد الموسيقى محتفظة بنقائها وجمالها الجوهريين، لا يفلح موضوع الأوبرات أو المساخر في الحط من سموها، لأن الأفعال الإنسانية المعينة غريبة عن الموسيقى، ولأن الموسيقى ترتبط دائمًا بجوهر الوجود ومغزى الحياة البشرية حتى لو كتبت لأوبرا كوميدية صاخبة الحركة.

إذا انتقلنا إلى الموسيقى الآلية المحضة (ولنأخذ مثلا لها إحدى سيمفونيات بيتهوفن)، نجدها تعبر عن كافة المشاعر والعواطف البشرية من فرح وحزن وحب وكراهية وجزع وأمل... إلخ. هذا التعبير نجده في عدد لا يحصى من الظلال ودرجات القوة غير أنه في نفس الوقت تعبير «مطلق» (in abstracto) غير محدد ؛ هو مجرد هيئة دون مضمون، كعالم من الأرواح دون مادة. فإن كنا أثناء الاستماع نكسي الموسيقى عظاما ولحما ونتبين لأنفسنا فيها تجارب ومناظر مرت بنا، فإن هذا التخيل من جانبنا ليس عنصرا لازما للاستمتاع بالموسيقى، بل هو في الواقع عنصر دخيل تحكمي من الخير تجنبه.

---

(١) لعلك تعلم أن فاجنر كان من أوائل الموسيقيين الذين تأثروا تأثرا عميقًا بهذه النظرية لشوبنهاور. وقد كتب فور إطلاعه عليها إلى شوبنهاور خطابا مشهورا يثني فيه كل الثناء على ما أسماه بفضل شوبنهاور على الموسيقى والأوبرا. وقد طبق فاجنر هذه النظرية بأن كان يكتب كلا من الكلمات والموسيقى لأوبراته، عاملا على أن تكون الكلمات تابعة للألحان قدر المستطاع. [حسين].

[النقطة التالية قد تتفق اتفاقا جوهريا مع مضمون نظريتك] حسين

يتوقف الانسجام في الأنغام على التوافق بين «التموجات» (vibrations) الناتجة عنها. فكلما كانت هناك علاقة منطقية بين تموجات نغمتيْن، (تموجات يمكن التعبير عنها بأعداد صغيرة)، أمكن ربطها في الذهن عن طريق تكرر ورودها في القطعة الموسيقية. أما إن كانت العلاقة غير منطقية (أو كان لا يمكن التعبير عنها إلّا بأعداد كبيرة) فإن ربط النغمتيْن يستعصي على الذهن ومن ثَمَّ اعتبرنا أحدهما «نشازًا» «dissonance». فالموسيقى إذن وفقًا لهذه النظرية هي وسيلة لإيجاد علاقة منطقية بين أعداد، والنغمة النشاز إن هي إلّا رمز لما يقاوم الإرادة عند الإنسان، بينما النغمة المنسجمة تحقق إشباعا مرضيًا للإرادة. وإذ إن مقاومة الإرادة وإشباعها هما محور الحياة البشرية ؛ وإذ إن الموسيقى هي أقدر الفنون طرا على التعبير عن أدق الظلال، وأكبر عدد من الدرجات المختلفة لمشاعر القلب البشرى ومواطنه (أي إرادة الحياة)، فإنه من المحتم اعتبار الموسيقى أرقى الفنون طرا...

«التوقيع» (rhythm)[1]، هو في الزمان بمثابة «التقابل» (symmetey) في المكان: قسمة إلى أجزاء متعادلة يتجاوب كل منها مع الآخر. وبالرغم من أن المعمار والموسيقى هما النهايتان المتضادتان للفنون بحكم طبيعتهما الداخليتين ومدى تأثيرهما ومغزاكما، وبحكم كون المعمار مكانيا فحسب وكون الموسيقى زمانية فحسب؛ إلّا أن قاعدة «اجتماع النقيضين» تنطبق هنا، إذ نجد المعمار والموسيقى تشتركان في الأساس الذي يحكمهما: التقابل والتوقيع. ومن ثم يمكن وصف المعمار بأنه «موسيقى متجمدة»، وذلك بالرغم من أن المعمار أقل الفنون شأنا وأضعفها نفوذا.

طبيعة الميلودي هي حالة دائبة متكررة من الانفصام يعقبه صلح واجتماع. فعنصر الانسجام في الموسيقى هو النغمة الأساسية، يحدث انحراف عنها عبر كافة درجات السلم، حتى نصل إلى «interval» تحقق لنا رضاء ناقصا، ثم تعود الأنغام أدراجها

(١) يجب أن تصفح عما قد تجده من أخطاء في ترجمة المصطلحات لجهلي بما يقابلها من مصطلحات عربية. كما آمل أن تغفر ضعف اللغة العربية في هذا الخطاب لتعجلي إرساله. [حسين].

حتى تصل إلى النغمة الأساسية حين تحقق لنا إشباعًا كاملا. والسبب في أن الموسيقى تترك هذا التأثير الهائل في النفس هو قدرتها على تصوير الإشباع الكامل لأمانينا. غير أن هذا الإشباع يتم بعد تأخير وتأجيل وعقبات، وهو إشباع قوي لأن خير إشباع هو ما أعقب شوقا مضطرما تكتنفه الصعاب. فالموسيقى بوجه عام تتألف من أنغام مقلقة؛ أنغام تثير الشوق، مع أنغام يختلف مدى إشباعها للشوق قوة وضعفا، يتلوها إشباع تام[1]، تمامًا كما في الحياة الواقعية حيث نجد آمالا ورغبات مع درجات متفاوتة من الإشباع. أما في الموسيقى الفطرية الهمجية فنجد نغمات متكررة متتابعة، هي: نغمات جوفاء بسبب عدم إثارتها الشوق، أو لإثارتها إياه مع إشباعه توًا. فهي تثير عندنا ما يثيره الإشباع الكامل الدائم لكافة رغباتنا في الحياة من خمول وملل[2]...

أهم عيب في الموسيقى، وهو عيب بالغ الخطورة، إطراؤها لإرادة الحياة، وخلق الوهم لدى المستمع بإمكان إشباع الرغبات والمشاعر والعواطف إشباعًا كليًا، والوصول إلى الرضاء الكامل والسعادة التامة».

تعليق: لخصت لك رأى شوبنهاور في الموسيقى لاعتقادي أنه سيسرك أن تجد تصديقا فيه على بعض ما وصلت إليه بنفسك (أم أن هذا شيء لا يسر؟!). وقد اقتصرت على اقتباس القليل من الكثير مما ورد في فصل طويل عقده لميتافيزيقا الموسيقى[3]، وذلك في الكتاب الثالث من الجزء الثالث من مؤلفه «العالم كإرادة وفكرة». ولإثارة شوقك إلى اقتناء الكتاب وقراءته أذكر لك أنك ستجد في ذلك الفصل نقطًا عديدة مهمة أغفلتها في تلخيصي لامتلائها بالمصطلحات التي عجزت عن ترجمتها إلى العربية.

هذا وإن أحببت أن أرد إليك خطابك للاستعانة به في كتابة بحثك فلتكتب لي بذلك.

مع أطيب تحياتي لك،

حسين

---

(١) أو على حد قولك: «to arouse a certain expectation and then satisfy it».

(٢) إرضاء التوقع إرضاء كاملا هو فن ساذج بدائي ـ على حد قولك.

(٣) لتسمِّ مقالك (وفقا لعادة العرب): «أصول الميتافيزيقا في قواعد الموسيقى».

عندما وصلت إلى إنجلترا في أوائل ١٩٥٨ لم يكن التليفزيون قد انتشر بعد، لا في إنجلترا ولا في أي بلد أوربي آخر، ولم يكن قد ظهر أصلًا في مصر. كان والدا زوجتي لا يملكان جهاز تليفزيون، لا لعجزهما عن شرائه؛ إذ لم يكن ثمن التليفزيون متوسط الحجم في ذلك الوقت يزيد على خمسين جنيهًا إسترلينيًّا. وإنما كانا، والأم على الأخص، يعتبران التليفزيون من مظاهر الحياة البورجوازية التي ترتبط بنمو الطبقة المتوسطة الجديدة ووسائلها الحديثة في ملء الفراغ، وهي مما كان والدا زوجتي يشعران نحوه بشيء من الاحتقار، إذا قورنت مثلًا بالقراءة، أو الذهاب إلى المسرح، أو تبادل الزيارات.

كان المرتب الذي أقبضه من هيئة البعثات المصرية في كل شهر ٤٨ جنيهًا إسترلينيًّا، أي ما يعادل ثمن جهاز تليفزيون، وكان من الممكن شراء جهاز كهذا بالتقسيط فأدفع خمسة جنيهات في الشهر. واستحسنت فكرة أن يكون لديَّ جهاز تليفزيون في حجرتي الصغيرة التي أستأجرها في بيت عائلة إنجليزية، أستخدمه كما أشاء، خاصة وأن هذه العائلة لم تكن بدورها تملك تليفزيونًا، وكان السبب في هذه الحالة هو قلة الدخل؛ إذ إن الرجل وزوجته كثيرًا ما كانا يستأذناني في دخول حجرتي في غيابي لمشاهدة برنامج أو فيلم يريدان رؤيته.

كان التليفزيون لا يزال أبيض وأسود. فلم يكن قد ظهر التليفزيون الملون بعد. ولكن المدهش كان المستوى العالي لبرامج التليفزيون الإنجليزي في ذلك الوقت، بالمقارنة بما يعرضه أي تليفزيون اليوم في أي بلد في العالم، بما في ذلك إنجلترا أيضًا. رأيت على شاشة التليفزيون الإنجليزي، في أواخر الخمسينات وأوائل الستينات أي منذ خمسين عامًا، برامج وحوارات رائعة مثل حوار طويل مع الفيلسوف البريطاني برتراند رسل، تكلم فيه عن آرائه في الحياة والدين والسياسة والفلاسفة المشهورين في ذلك الوقت. كما رأيت برنامجًا لا أنساه، فهمت من خلاله مهمة قائد الأوركسترا بالضبط، إذ رأينا قائدا شابًّا للأوركسترا أصبح مشهورًا فيما بعد («كولن دافز» (Colin

Davis)) يدرب فرقته على عزف سيمفونية لموزار ويطلب من هذا العازف أو ذاك إعادة المقطع المرة بعد الأخرى، ويشرح لهم في كل مرة مالا يعجبه في أدائهم حتى يحققوا غرضه بالضبط. شاهدت أيضًا مناقشة بين عدة مخرجين مسرحيين، أدلى فيها كل منهم بتفسيره لمسرحية بيكيت الشهيرة «في انتظار جودو»، وبرأيه فيما يقصده بيكيت بـ «جودو». أهو الله أم القدر أم تحقق الآمال بصفة عامة... إلخ؟ ولم تعجبني إلّا إجابة مخرج اسمه «بيتر هول» (Peter Hall) أصبح فيما بعد أكبر مخرج مسرحي في بريطانيا، ولا يزال حتى الآن. إذ قال ببساطة إن بيكيت لم يكن يحاول أكثر من تصوير «الانتظار دراميًا» (dramatizing waiting). ومنذ شاهدت هذا البرنامج أصبح وجود اسم بيتر هول في إعلان عن مسرحية، باعتباره مخرجًا، كافيًا لحفزي على مشاهدة المسرحية، أيًا كان مؤلفها، فقد اكتسب ثقتي الكاملة ولم يحدث قط أن خَيّب ظني.

رأيت أيضًا في مطلع الستينات برنامجًا أسبوعيًا مدهشًا، خلب لب ملايين الإنجليز بجرأته وذكائه وظرفه، اســمه يمكن ترجمته بعبارة «ياله من أسبوع!» (That Was the Weak that Was!) ويتكون من عدة فقرات يقدمها ثلاثة أو أربعة رجال وامرأة، لمدة ساعة، ويعلق كل منهم بطريقته على حدث من أحداث الأسبوع، أو تصريح مهم لأحد السياسيين، إما بتقليد شخصية كبيرة والسخرية منها، وإما بكشف الأخطاء المنطقية في كلام السياسيين، وإما بتناقض ما قالوه في الأسبوع الماضي مع ما أعلنوه عند مجيئهم الحكم... إلخ. أذكر أن سخر البرنامج مرّة من تصريح لأحد زعماء حزب المحافظين (وكان هو الحزب الحاكم وقتها)، إذ قال فيه إن أفكار حزب المحافظين هي «نسبيًا أفكار اشتراكية» (relatively socialistic)، فقال أحد المعلقين في البرنامج إنه بهذه الطريقة في الكلام يمكن وصف إليزابيث تايلور بأنها «نسبيًا عذراء». ولكن في حلقة أخرى تعرض البرنامج بالسخرية الشديدة من حزب العمال الذي يسير على مبادئ الاشتراكية الفابية، وهي تدعو إلى الإصلاح التدريجي وترفض الثورة والعنف، فظهر أحد المعلقين في البرنامج متقمصًا شخصية رئيس حزب العمال، وبدأ يغنى أغنية تعرض مبادئ الحزب ومنها «إننا نعمل على إصلاح

أحوال البلد ببطء، وخطوة خطوة حتى لا يشعر بما نفعله أحد!» (we reform the country bit by bit, so that nobody could notice it!).

لم يرحم هذا البرنامج أحدًا، لا من المحافظين ولا من العمال، ثم بدأ يتجرأ على الأسرة المالكة نفسها، فإذا بهيئة الإذاعة البريطانية التي كان يذاع البرنامج من أحد قنواتها، تأمر بوقفه على الرغم من شعبيته الهائلة، أو بالأحرى بسبب هذه الشعبية الهائلة، ولم يعرف التليفزيون الإنجليزي، منذ ذلك الوقت، في حدود علمي، برنامجًا بمثل هذه الجرأة.

ولكن البرنامج الذي شغفت به أكثر من أي برنامج آخر كان هو «Brains Trust»، أو (ملتقى العقول)؛ حيث يدعى إلى الأستوديو أربعة أو خمسة من كبار المفكرين الإنجليز، فيجلسون في مقاعد وثيرة فيما يشبه الصالون، ومعهم رئيس الجلسة، وهو مثقف آخر أقل شهرة ولكنه يتسم أيضًا بالحكمة وكفاءة إدارة الجلسات، وهو ثابت لا يتغير وإن كان المدعوون أقل ثباتًا. والبرنامج يذاع على الهواء مباشرة، ويبدأ بأن يقرأ رئيس الجلسة الأسئلة التي تسلمها خلال الأسبوع حول موضوع سبق أن أعلنه في نهاية الجلسة السابقة. قد يتعلق الموضوع بالدين أو السياسة أو الاقتصاد أو التاريخ، ولكنه لا بد أن يكون مهمًّا وشيقًا وليس هناك اتفاق عام حوله، ويهم جمهورًا واسعًا من غير المتخصصين.

كان من بين المدعوّين شبه الثابتين في هذا البرنامج رجل ذو شخصية جذابة للغاية، ينهمك في التفكير في السؤال الذي يطرح عليه ثَمَّ في الإجابة والنقاش، وكأنه جالس وحده في بيته لا في أستوديو التليفزيون حيث يشاهده الآلاف من الناس. كان أقل المشتركين في البرنامج شعورًا بوجود آلة التصوير، وأكثرهم تلقائية، وأشدهم حماسًا في التعبير عن رأيه. ولكنه لفت نظري أيضًا بآرائه التي كنت دائمًا أعتبرها أفضل من آراء غيره. فكيف لا أفتن به وأفرح بظهوره وأنصت بإصغاء تام لكل ما يقوله؟

كان هذا هو أستاذ الفلسفة في جامعة أكسفورد ثَمَّ جامعة لندن «الفرد إيير» (Alfred Ayer). كان حينئذ في نحو الستين من عمره، لا يتمتع بوسامة واضحة،

وإنما أكسبته شخصيته وسامة وجاذبية. سعيت إلى معرفة المزيد عنه فعرفت أن له كتابًا صغيرًا مشهورًا اسمه «اللغة والحقيقة والمنطق» (Language, Truth and Logic) يشرح فيه شرحًا سلسًا وواضحًا للغاية مبادئ فلسفة «الوضعية المنطقية» التي أسستها مجموعة من الفلاسفة عرفت باسم «جماعة ڤيينا» (Circle Vienna) وأصبح«Ayer» أهم ممثليها في بريطانيا.



أستاذ الفلسفة ألفرد إير (A. Ayer)

كانت فلسفة الوضعية المنطقية قد تجاوزت فلسفة برتراند رسل وفلاسفة أوائل القرن العشرين، وأصبح أصحابها (أي الوضعيون المنطقيون) يرفضون أي نوع من الحديث في الميتافيزيقا، ويعتبرون أي كلام لا يمكن تقديم دليل على صحته من ملاحظة الواقع أو التجربة، لغوًا من القول، باستثناء النظريات الرياضية (التي تعتمد فقط على الاستدلال المنطقي)، والتقريرات الأخلاقية والجمالية (التي تعتمد على المشاعر، ومن ثَمَّ ليس هناك أي طريقة للتدليل على صحتها أو خطئها بالرجوع إلى الملاحظة أو التجربة).

كان «Ayer» وأصحابه يؤكدون أيضًا على الأهمية القصوى للتعبير الدقيق عن الأفكار، ويعتبرون أن جزءًا كبيرًا من الخلافات الفلسفية سببه في الحقيقة عدم توضيح معاني الكلمات، وأنه إذا حرص الجميع على أن يقولوا كلامًا واضحًا ومفهومًا، وأن يتجنبوا كلامًا من نوع قول هيجل مثلًا: «إن التاريخ هو تطور الفكرة المطلقة»، لتلاشت أغلب المشكلات المسماة بالفلسفية. من المهم، إذن، في نظر «Ayer» صياغة أي سؤال فلسفي صياغة واضحة، بكلمات متفق على معناها، فإذا حدث ذلك أصبح من السهل جدًّا حل المشكلات الفكرية التي تبدو معقدة.

في الحوار الذي كنت قد استمعت إليه في التليفزيون مع برتراند رسل وأشرت إليه منذ قليل، سئل رسل عن رأيه في الوضعية المنطقية؛ فأجاب بظرفه المعهود: الوضعي المنطقي يجلب إلى ذهني حالة رجل وقف بسيارته في ميدان بيكاديلي، وكان يريد الذهاب إلى مدينة مانشستر مثلًا، ولا يعرف الطريق. فسأل شخصًا كان مارًّا بالطريق وكان هذا الشخص، لسوء حظ صاحب السيارة، من أتباع الوضعية المنطقية، فلما سأله صاحب السيارة عن الطريق إلى مانشستر انهال عليه الرجل بعدد لا نهائي من الأسئلة من النوع الآتي: «هل تريد الذهاب إلى مانشستر الآن؟ بالسيارة؟ أتريد أقصر طريق أم أجمل طريق؟ هل تحتاج إلى الوقوف لتناول الطعام خلال الرحلة... إلخ؟». وبعد أن يجيب صاحب السيارة عن كل هذه الأسئلة، يرد عليه الوضعي المنطقي بكل بساطة: «لا أعرف...». يشير برتراند رسل بهذا إلى أن الوضعيين المنطقيين ليس لديهم أي فلسفة في الحياة، وليس لديهم أي نصيحة يقدمونها لنا؛ إذ إنهم يعتبرون

أنهم في هذا الأمر ليسوا أفضل من أي شخص آخر، وإنهم، باعتبارهم مشتغلين بالفلسفة، غير مطالبين بتقديم ما يسمى «بفلسفة عامة في الحياة»، إن كل مهمتهم كفلاسفة هي التمييز بين الكلام العلمي وغير العلمي أو الميتافيزيقي، وبين الأنواع المختلفة من «التقريرات» (statements) وتحديد مغزى كل منها، وقيمته في التعبير عن الحقيقة، ولا أحد منهم يدعي أنه يفعل أكثر من ذلك.

كنت قد قرأت قبل مجيئي إلى إنجلترا كتابًا بالعربية اسمه «المنطق الوضعي» من تأليف الدكتور زكى نجيب محمود الذي كان يعتبر حامل لواء الوضعية المنطقية في مصر، ومن ثَمَّ كنت قادرًا على أن أتابع النقاش حول هذا الموضوع. فلما رأيت «Ayer» على شاشة التليفزيون وجذبتني شخصيته وآراؤه، رحت أبحث عن كتابه الصغير المشهور وقرأته، فإذا بي أجده بعدد صفحاته التي لا تتجاوز المائة بكثير قد ذهب أبعد كثيرًا مما ذهب زكى نجيب محمود في كتابه الضخم، وبوضوح وسلاسة أكبر، وإذا بهذا الكتاب يصبح من أقرب ما قرأت من كتب إلى قلبي ومن أكثرها تأثيرًا فيّ، حتى بعد أن تبينت، بعد عدة سنوات، أن المسألة لا يمكن أن تنتهي عند هذا الحد، وأن الكلام في الميتافيزيقا لا يمكن أن يكون خاليًا من أي فائدة، كما ذهب «Ayer» في هذا الكتاب، وأن برتراند رسل لم يكن بعيدًا تمامًا عن الصواب عندما شبّه فلاسفة الوضعية المنطقية بالرجل الذي يريد أن يوضح كل الأسئلة، دون أن يجيب عن أي سؤال منها.

ولكن علاقتي بألفرد إيير لم تنتهِ بقراءتي لهذا الكتاب. كان الرجل قد تسرب إلى دمي ولم يكن من السهل إخراجه منه. رحت أقرأ له كتابًا بعد كتاب، وأتتبع ما أجده له من مقالات في المجلات أو حوارات في الصحف، ولم يخب ظني فيه أبدًا. كنت أجد بعض كتبه، على الرغم مما اشتهر به من سلاسة، صعبة الفهم عليَّ بسبب افتراضها مستوى من الدراية بالفلسفة لم يتوفر لديَّ، ولكني فهمت الكثير مما قرأت، وراق لي مذهبه الفلسفي بوجه عام، ووجدت نفسي أتفق معه في آرائه في الناس والسياسة، باستثناء واحد سوف أذكره فيما بعد.

وجدت له، مثلًا، مقالًا في مجلة الـ «Encounter» عن الفيلسوف الفرنسي چان

بول سارتر في وقت كانت لسارتر شعبية كبيرة في فرنسا وخارجها، ليس فقط بسبب القبول الواسع للفلسفة الوجودية في ذلك الوقت؛ ولكن لاتخاذه مواقف سياسية يسارية في وقت كانت الأفكار اليسارية تتمتع فيه برواج شديد. كنت مع ذلك أجد صعوبة في التعاطف مع كلام سارتر في الفلسفة إذ كنت أجده ممعنًا في الإبهام، على العكس مثلًا من «ألبير كامي» (Albert Camus) الذي كان وجوديًّا أيضًا ولكنه كان يعبر عن موقفه الفلسفي في روايات شديدة الجاذبية، وكانت علاقته بسارتر قد ساءت لسبب لا أعرفه، ولكني كنت أميل دائمًا للاعتقاد بأن كامي لا بد أن يكون على صواب. قرأت مقالة «Ayer» الذي كان يعلق فيها على كتاب سارتر الضخم «الوجود والعدم»، فإذا به ينهال على سارتر بالسخرية، وقد بدت هذه السخرية في نظري مبررة تمامًا، وتتفق تمامًا مع إصرار «Ayer» على أن الكاتب لا بد أن يقول دائمًا كلامًا مفهومًا وله مقابل في الواقع.

على العكس من هذا كان «Ayer» يحب برتراند رسل حبًّا جمًّا، على الرغم من رفض رسل للوضعية المنطقية؛ إذ إن رسل كان بالنسبة إلى «Ayer» في مرتبة الأستاذ بالنسبة إلى التلميذ، وكان رسل بدوره لا يلقي كلامًا في الهواء، بل يصر دائمًا على وضوح المعنى وواقعيته، وإن كان يشترك مع سارتر في حرصه المستمر على التعبير عن موقفه الأخلاقي مما يجري حوله من أحداث. كان «Ayer» لا يعتبر هذا من مهام الفيلسوف، ومن ثَمَّ لم يكن مستعدًّا للخلط بين الموقف الفلسفي والموقف الأخلاقي، ولا لإقحام المواقف الأخلاقية في كتبه، على الرغم من أنه كان يتخذ مواقف نبيلة في قضايا اجتماعية كثيرة. كان يعتبر هذا من قبيل مسئوليته كفرد، وليس كفيلسوف.

كان لكلا الموقفيْن جاذبيته. جاذبية موقف «Ayer» تأتي من تمييزه الصارم بين ما يمكن إثبات صحته أو خطئه (مما يدخل في نطاق العلم) وما لا يمكن معه إثبات ذلك؛ فيظل الموقف مجرد تعبير عن حسّ أخلاقي لا علاقة له بالعلم، كما أنه لا فرق فيه بين الفيلسوف وغيره. ولكني كنت أتابع أيضًا أخبار برتراند رسل وتصريحاته ومواقفه السياسية وأشعر بحماس شديد لجرأته وحيويته، وقد قارب

التسعين، واستعداده للاشتراك في المظاهرات المنددة بالتسلح النووي، وللجلوس مع الجالسين في ميدان الطرف الأغر في وسط لندن للتعبير عن هذا الاحتجاج، حتى يأتي رجال الشرطة فيسوقوه مع الآخرين للتحقيق.

أذكر ـ على وجه الخصوص ـ رؤيتي لبرتراند رسل شخصيًّا في مناسبة رائعة جرت على بعد خطوات قليلة من كلية لندن للاقتصاد. ففى١٩٦٢ أعلن عن عزم محبي برتراند رسل وتلاميذه إقامة احتفال بعيد ميلاده التسعين، بطريقة غير مألوفة، وهي دعوة أي شخص من الجمهور، يريد الاشتراك في هذا الاحتفال؛ بشرط شرائه تذكرة بجنيه واحد، فيكون له حق حضور هذا الحفل الذي يقام في صالة (Royal Festival Hall) الرائعة المقامة على نهر التايمز. اشتريت تذكرة وذهبت، ووجدت الصالة البالغة الاتساع مكتظة بالجمهور. ودخل رسل بخطى ثابتة لا تفصح عن سنّه وجلس في الصف الأول وسط التصفيق. ثم قام متحدث بعد آخر من مشاهير الفنانين (أذكر منهم الممثلة المشهورة فينيسا ردجريف التي كانت أيضًا ناشطة سياسية) لإلقاء كلمة صغيرة لتحية رسل. ولكن كان أطرف ما تضمنه الحفل هو قيام رجل لا أعرف اسمه، بالصعود إلى خشبة المسرح وقال إنه يسره أن يعلن للجمهور عن صدور أحدث كتاب لبرتراند رسل، وأنه سوف يقرأ علينا الكتاب بأكمله، ثم أخرج من جيبه كتيبًا صغيرًا جدًّا لا يزيد حجمه عن حجم الكف الصغير، وسرعان ما ظهر أن من الممكن فعلًا قراءته كله في دقائق قليلة. قال الرجل إن اسم الكتاب هو «أقصر كتاب في تاريخ العالم» (The Shortest History of the World)، وأن محتوى الكتاب كله هو الجملة الآتية: «منذ بدء الخليقة، لم يمتنع الإنسان عن ارتكاب أي حماقة كان قادرًا على ارتكابها» (Since The beginning of creation, man has never refrained from committing any folly he is capable of). ثم قرأ الرجل: «النهاية» (The End) ونزل.

* * *

عندما تقدم «Ayer» في السن، ضعفت قدرته على الكتابة في المسائل الفلسفية المعقدة، فقرر أن يتجه في آخر عمره إلى نوع آخر من الكتابة، أسهل عليه، ولكنه ليس

أقل فائدة. فنشر كتبًا صغيرة عن بعض أعلام الفكر والفلسفة، أحدها عن ڤولتير وآخر عن فتجنشتاين. ثم أصيب بنوبة قلبية وهو في نحو الخامسة والثمانين، كادت أن تنهي حياته، ولكنه نجا منها وعاش سنة أو سنتيْن بعدها، فإذا به يقرر أن هذه التجربة (تجربة النوبة القلبية) لا يجوز أن تضيع دون أن يسجل كتابة ما مرّ بخاطره من أفكار ومشاعر أثناء حدوثها؛ إذ رأى أن هذه التجربة ربما كانت أقرب ما يمكن أن يحدث للمرء إلى واقعة الموت، فإذا استطاع المرء أن يفيق منها، ولو مؤقتًا، فإن تسجيله لأفكاره ومشاعره خلالها يمكن أن يكون أقرب عمل ممكن للكاتب إلى وصف ما يحدث في واقعة الموت نفسها. هذا هو سبب ما قاله البعض عن «Ayer» من أنه في الحقيقة «مات مرتيْن». ومن الطريف ما يروى عن زوجته أنها قالت بعد النوبة القلبية الأولى: إن «Ayer» أصبح أكثر لطفًا بكثير بعد وفاته!».

كان «Ayer» عقلًا يمشي على قدميْن، ولكنه كان أيضًا ذا شعور قوي بالمسئولية عن أن يوصِّل للقارئ أي فكرة أو تجربة تمر به، بأقصى درجة من الصدق والوضوح. من ذلك أن يكتب سيرة حياته، وهو ما فعله في كتاب من جزأيْن، هو من أمتع ما قرأت من سير ذاتية على الإطلاق. وقد اختار عنوانًا لكل من الكتابيْن يتفق تمامًا مع ما يتوخاه دائمًا من بساطة ودقة، فسمّى الجزء الأول «جزء من حياتي» (Part of My Life) وسمّى الجزء الثاني «مزيد من حياتي» (More of My Life). وهو لا يتعرض في الكتاب لمناقشة أي موضوع فلسفي؛ فليس هذا هو الغرض من الكتاب، ولا هو المسلك الأمثل في كتابة سيرة ذاتية. قد تأتي الإشارة إلى مسألة لها علاقة بالفلسفة وهو بصدد حدث شخصي طريف، ولكن دون الدخول في مناقشة فلسفية. وهو يروي هذه الأحداث الشخصية الطريفة، وذات المغزى دائمًا، ببساطة فائقة، وبأقل عدد ممكن من الكلمات؛ مما أكد لي من جديد تلك الحقيقة التي تبينتها لأول مرة من قراءة مقالات چورچ أورويل، وهي أن البساطة مع الصدق قد ينفذان إلى القلب بنفس السهولة التي ينفذ بها إليه أي عمل فني جميل. لا عجب أنه عندما جاء ذكر أورويل في الكتاب قال عنه «Ayer»: «إنه من هذا العدد الضئيل من الناس الذين إذا أحسنوا الظن بك أحسنت الظن بنفسك».

شيء واحد وجدته في الجزء الأول من سيرته الذاتية وتمنيت لو لم أجده. وهو إشارته إلى أنه نصف يهودي؛ إذ إن أمه دون أبيه، كانت يهودية. وهو يعترف في مكان آخر من الكتاب بأن هذا كان له أثر في موقفه من قضية فلسطين؛ إذ كان يتعاطف مع موقف إسرائيل. ولكن معرفتي بهذا لم تؤثر في إعجابي به، ولا على حبي له. كان سوف يسرني طبعًا لو كان رأيه مثل رأيي في هذه القضية أيضًا، ولكن لا شك في أن طلبي هذا يكاد أن يكون في حكم المستحيل.

(١٠)

زملاء البعثة

-١-

لا أظن أن جامعة لندن كان فيها في أي وقت من الأوقات، هذا العدد الكبير من المبعوثين المصريين، الذي كان فيها أثناء بعثتي، أي في أواخر الخمسينات وأوائل الستينات.

كانت سنوات مدهشة، كما سبق أن شرحت، في التاريخ المصري، وكان من بين ظواهرها المدهشة ذلك القرار الرائع الذي اتخذته حكومة الثورة في أعقاب أحداث السويس بإرسال أكبر عدد ممكن من خريجي الجامعات المصرية للدراسة العليا في الخارج، في مختلف التخصصات، ودون تمييز بين الدول الرأسمالية والدول الشيوعية.

لم تكن في مصر في خلال تلك السنوات القليلة فرصة لما يعرف بالواسطة أو المحسوبية كما كان الحال في سنوات ما قبل الثورة، ثم عاد من جديد وانتشر شيئًا فشيئًا منذ أواخر الستينات. وبالتالي جرى كل شيء (في حدود علمي) على أساس درجات المرشحين عند التخرج. لم يكن هذا المعيار طبعًا صالحًا تمامًا لتمييز الغث من السمين (فقد عرفت ممن حصلوا على بعثات حكومية من لا أفهم حتى الآن كيف حصلوا عليها، والعكس صحيح أيضًا؛ إذ لم يحصل على بعثة حكومية أشخاص كانوا بلا شك أجدر بمن حصل عليها). ولكن كان هذا المعيار على أي حال، مع عيوبه الواضحة، يطبق بعدالة تامة.

كان إرسال عدد كبير من الطلبة المصريين إلى إنجلترا شيئًا مدهشًا بدوره؛ إذ كانت تلك السنوات قريبة العهد جدًّا من أحداث تأميم القناة والعدوان الإنجليزي والفرنسي والإسرائيلي على مصر، ثم اضطرار الدول الثلاثة للانسحاب تحت ضغط الولايات المتحدة والاتحاد السوڤيتي، ومن ثَمَّ كانت العلاقات السياسية بين مصر وإنجلترا تمر بفترة من أسوأ ما مرت به خلال القرن كله. ومع هذا أثبتت حكومة الثورة أن لديها درجة كافية من الحكمة جعلتها تميز بين العلاقات السياسية وغيرها، كما أثبت الإنجليز أيضًا نفس الدرجة من الحكمة. لقد سمعت بعد وصولي إلى كلية لندن للاقتصاد أن الأستاذ الذي كان يرأس اللجنة المختصة بقبول أو رفض طلبات الالتحاق بهذه الكلية (والذي تصادف أن أصبح هو المشرف عليَّ في السنوات الثلاث الأولى من دراستي: الأستاذ ليونيل روبنز) أصر على ألا يجعل للأمور السياسية أي أثر في قبول الطلاب أو رفضهم، ومن ثَمَّ سمحت لنا السلطة الإنجليزية بالمجيء. ولكني عندما أفكر في هذا الأمر الآن أقول لنفسي إنه يبدو أن تلك السنوات (أواخر الخمسينات وأوائل الستينات) كانت فترة مدهشة في تاريخ العالم كله، لأسباب لا مجال الآن للخوض فيها، وكانت بعثتي إلى إنجلترا هي جائزتي من هذه الفترة المدهشة.

هكذا شهدت جامعة لندن في تلك السنوات هذا العدد الكبير من الطلبة المصريين. وكان في كلية لندن للاقتصاد والعلوم السياسية وحدها ما لا يقل عن عشرة طلاب مصريين، التصق منهم أربعة أو خمسة بعضهم ببعض التصاقًا وثيقًا، كنت واحدًا منهم، على الرغم من الاختلافات الشاسعة فيما بيننا في الميول والمزاج؛ إذ كان من الطبيعي أن تدفعنا الغربة دفعًا إلى هذا الالتصاق، وعندما أتذكر كيف اختلف سلوك كل منا نحن الأربعة أو الخمسة عن سلوك الآخرين، بعد عودتنا من البعثة في لندن، يزداد عجبي من قوة العلاقة التي قامت بيننا خلالها.

كان أحدنا زير نساء، لم يكد يضع حقائبه في حجرته حتى ذهب إلى أقرب مرقص للتعرف إلى فتاة إنجليزية أو أوربية. وكان آخر عضوًا سابقًا بجماعة الإخوان المسلمين، لازال على تدينه وإصراره على تطبيق الشريعة الإسلامية، وأتى إلى لندن

بزوجته وأطفاله مصرًّا على أن تحديد النسل يعوق تقدم مصر؛ إذ إن الذي يمكن أن يلتزم به هم أفضل شرائح المصريين تعليمًا وذكاء، والمفروض أن يتكاثر هؤلاء لكي يرفعوا من مستوى الأمة.

كان هناك أيضًا الشاب العاقل الرزين الذي يعامل الجميع بأدب فائق، ويهوى استخدام العبارات الإنجليزية البالغة التهذيب، بل بلكنة إنجليزية واضحة لا أدرى كيف اكتسبها بهذه السرعة، ويتصرف كما لو كان والدًا أو عمًّا لنا جميعًا، على الرغم من أنه كان في مثل سننا بالضبط، ولكنه كان يصر دائمًا على أنه «بحكم سنّه» لا يمكن أن يفعل كذا أو كذا، ويتوقع منا أن نعامله دائمًا بالاحترام الواجب لأب أو عم. من بين المبعوثين المصريين أيضًا كان ذلك الشاب الطويل الوسيم والظريف أيضًا، مشكلته الوحيدة، وقد كانت مشكلة كبيرة، أنه كان قد تزوج قبل مجيئه إلى لندن من زميلة له في الجامعة، جميلة أيضًا، ولكنها كانت تغار عليه غيرة شديدة وتتصور أن أي خروج له وحده لا بد أن يؤدى إلى فقدانها له لامرأة أخرى. كانت الغيرة مقدورًا عليها في مصر؛ حيث الاختلاط بين الجنسيْن محدود، والنساء في أغلب الأحوال محافظات. أما لندن، فكيف يمكن لها الاحتفاظ به في هذه المدينة التي تعج بالجنس، والمليئة بالنساء الجميلات الباحثات عن علاقات جديدة؟ كان الحل الذي اهتدت إليه هو أن تقنعه بأنه لا حاجة به للذهاب إلى الجامعة إلّا مرة كل شهر، فكل شيء في الكتب، وكل الكتب متاحة للاستعارة، فلماذا لا يذهب مرة كل شهر لاستعارة ما يحتاجه من كتب، ويصوّر ما يريده من مقالات، ويعود لقراءتها في البيت إلى جوارها؛ حيث يجلس على راحته ويشرب الشاي أو القهوة كلما أراد، ويأكل مما تطبخه له من ألذ الطعام المصري بدلًا من هذا الأكل الإنجليزي الذي لا طعم له؟

-٢-

الأغرب من هذا وذاك كانت شخصية مبعوث مصري آخر كان يكبرني بثلاث أو أربع سنوات، وجاء أيضًا إلى كلية لندن للاقتصاد للتحضير مثلى للماجستير ثم للدكتوراه، ووصل إلى لندن بعد وصولي بأسابيع قليلة. كان ذا شخصية مدهشة وله

قصة تستحق بلا شك أن تروى؛ إذ إنها تبين، من بين أشياء كثيرة أخرى، مدى الحمق الذي بلغه نظامنا التعليمي، ونظامنا السياسي أيضًا. التقيت به وأنا في الثالثة والعشرين من عمري، وهو في السادسة أو السابعة والعشرين، واستمرت أخباره تصلني بعد ذلك لعشرات من السنين، ومن ثَمَّ فقد عرفت كيف تطورت حياته خلال فترة تزيد على الأربعين عامًا، وهي بلا شك فترة كافية لأن تعرف ما إذا كان المرء قد نال في حياته ما يستحق أو أقل أو أكثر.

عندما قابلته لأول مرة وجدته طويلًا لا يخلو من وسامة، شديد العناية بهندامه، وعلى الأخص بشعره الذي لا يكف عن مسحه بيده برفق، مرة من اليمين ومرة من اليسار؛ للتأكد أن ليس هناك شعرة نافرة أو في غير مكانها الذي تركها فيه قبل أن يبارح منزله. كان ذكاؤه محدودًا سواء فيما يتعلق بالدراسة الأكاديمية، أو بفهم الناس، أو بتقدير فن من الفنون، ولا حتى بتذكر الطريق الذي يوصّله من مكان إلى مكان. وهو ليس خفيف الظل ولا طريف الحديث، ولا راويًا جيدًا لنكتة أو قصة حدثت له، كما أنه نادرًا ما يطلق نفسه على سجيتها فلا أذكر أني سمعته يضحك ضحكة خالصة، ولا أنه جلس ليحدثني عن أمر يقلقه، أو عن علاقة عاطفية جديدة أو قديمة مرّ بها. وهو كسول بدرجة مخيفة، وبطيء ومتردد في اتخاذ أي قرار، مُهمًّا كان أو غير مهم، ومن ثَمَّ فلا يمكن الاعتماد عليه في الوصول في الموعد المحدد لوصوله، ناهيك عن القيام بخدمة قد تحتاج إليه فيها.

تبين لي أيضًا، أكثر من مرة، أنه يستسهل الكذب إذا كان يخلصه من أي نوع من المتاعب، أو على الأقل إذا كان يؤجل هذه المتاعب لفترة ما. اقترض مني مرة كتابًا قيمًا قال إنه يحتاج إليه في دراسته، وكانت طبعته قد نفدت من الأسواق، فأعرته إياه على مضض وأنا أعرف أنه لن يستفيد منه كثيرًا، بل ربما لن يحاول حتى أن يقرأه، وطالبته بوعد قاطع بأن يعيده إليَّ بعد فترة معينة، فأقسم أغلظ الإيمان بأنه سيفعل، وأبدى حزنه لأني أشك في أنه سيلتزم بهذا الوعد. ومرت الأيام دون أن يعيد إليَّ الكتاب، وكم كان غيظي وغضبي عندما كانت إجابته لدى مطالبتي له برد الكتاب، دون أن يبدو عليه خجل يذكر، أنه بحث عنه بين كتبه ولم يجده، وأنه لا بد قد «ضاع».

لم يكن باستطاعتي أن أفعل شيئًا إزاء هذا الموقف؛ إذ لم يكن القيام بضربه جائزًا. ولكن الأمر المدهش حقًّا أنني عندما قصدته مرة بعد بضعة أشهر، وجدت الكتاب في مكان بارز من بين مجموعة كتبه، رأيته دون أن أحاول البحث عنه، فأخذته في سكوت وانصرفت.

لست في حاجة، إذن، إلى أن أذكر للقارئ كيف كان أداؤه الدراسي في إنجلترا، ولكن المدهش حقًّا أن هذا الرجل كان قد تخرج بتفوق من كلية الحقوق في السنة السابقة مباشرة لتخرجي منها. كان المفترض أن يتخرج من كلية الحقوق قبل تخرجي بسنتيْن لا بسنة واحدة، ولكنه فضل تأجيل دخول الامتحانات النهائية بحجة المرض؛ حتى تتاح له سنتان كاملتان للدراسة. ومع هذا فلا يكفي هذا على الإطلاق تفسيرًا لأن ينجح مثله بتفوق يسمح له بالحصول على بعثة حكومية.

روى لي أيضًا صديق نابغ تخرج من نفس دفعته، وأصبح فيما بعد أستاذًا عالميًّا مرموقًا في القانون الدولي، أنه في تلك السنة التي تخرجا فيها، لم يحصل هو، أي الصديق النابغ، على أعلى الدرجات؛ لأنه عبّر عن رأى يختلف مع رأي الأستاذ الذي يمتحنه امتحانًا شفويًّا؛ مما سمح لغيره بأن يحتل مكانه في التخرج. ولكن هذا أيضًا تفسير غير كافٍ على الإطلاق؛ إذ إننا هنا نتكلم عن حالة لا تستحق النجاح أصلًا، ناهيك عن التفوق والحصول على بعثة حكومية. هذا السِّرُّ لم أكتشف كنهه حتى الآن، ولكن لعله يشبه السر الذي يكمن وراء اعتلائه، بعد سنين طويلة، هذا المنصب المرموق في مؤسسة تشريعية مهمة. أيًّا كان هذا السّر، فإنه لم ينفعه على الأقل أثناء فترة الدراسة في إنجلترا. ففي كلية لندن للعلوم الاقتصادية سرعان ما اكتشف الإنجليز عجزه التام وكسله المطلق، فتوالى اعتذار أستاذ بعد آخر عن الاستمرار في الإشراف عليه، ومرت سنوات طويلة، تخرج فيها من تخرج، وحصل على الدكتوراه طالب بعد آخر، وصاحبنا ينتقل من إشراف أستاذ كبير إلى أستاذ أصغر ثم إلى آخر أصغر منه، دون أن يبدو عليه أي تغير لا في الشكل ولا في المضمون. فهو لا يزال يأتي إلى الكلية في أتم أبهة، كامل الهندام ولامع الشعر، لا يبدو عليه القلق من شيء، ويحتسي كل يوم نفس النوع من البيرة الإنجليزية السوداء التي ظل ينطق اسمها بلكنة قروية واضحة.

كنا نعامله بعطف ونساعده بقدر الإمكان؛ فنقرضه بعض المبالغ البسيطة من النقود إذا نسي أن يذهب إلى البنك قبل موعد إغلاقه، طالما كان المبلغ تافهًا لا يهم كثيرًا ما إذا كان سيرده أو لن يرده.

لم يكن قد مضت على مجيئه لإنجلترا سنة واحدة حتى أخطرنا أنه ذاهب إلى مصر للزواج، وأنه سوف يحضر زوجته التي تجمعه بها صلة قرابة؛ لكي تعيش معه في إنجلترا. وقد كان هذا مصدرًا جديدًا لدهشتنا، يضاف إلى جملة ما كان يدهشنا منه. ذلك أن أحدًا منا لم يفكر في أن يفعل ذلك، اللهم إلّا من كان منا متزوجًا قبل حصوله على البعثة، فأتى بزوجته معه. كانت اهتماماتنا منصبة إما على الدراسة، وإما على اكتشاف مختلف أوجه الحياة الإنجليزية التي نفتقدها في بلادنا، وإما كانت منصبة، في حالة البعض منا، على الاستمتاع بالحرية الجنسية التي يتيحها المجتمع الإنجليزي والتي حرمنا منها أيضًا في مصر. أدهشنا أيضًا قرار صاحبنا بالذهاب للزواج ثم العودة بزوجته إلى إنجلترا؛ لأننا نعرف نمط حياته في لندن؛ إذ كان يسهر كل يوم في إحدى البارات المجاورة لمنزله، ويتعرف إلى فتاة أوربية بعد أخرى، فلا تستمر العلاقة بينه وبين أي منهن فترة طويلة؛ إذ لم نعرف له طوال إقامتنا في إنجلترا، صديقة ثابتة كما كنا نعرف لمعظمنا. وتساءلنا عما يمكن أن يصبح عليه مصير زوجته الريفية المسكينة، متواضعة التعليم والخبرة، وقد أتى بها إلى هذا المجتمع الذي لا تعرف عنه شيئًا ولا تكاد تعرف لغته. وقد حدث فيما بعد ما أثار دهشتنا بأكثر مما توقعنا. فبعد أقل من أسبوع من وصول زوجته إلى لندن، عاد صاحبنا إلى نفس نظام حياته القديم، فكان يتركها في الصباح ذاهبًا إلى الكلية، وفى المساء ذاهبًا إلى البار حيث يجالس هذه الفتاة الأوربية أو تلك. ولم تمضِ أشهر قليلة حتى حملت الزوجة وعادت إلى مصر لتضع مولودها، ولم تعد بعد ذلك إلى إنجلترا. وعندما عاد صاحبنا إلى مصر بعد سنوات طويلة، وكانت ابنته قد أصبحت في التاسعة أو العاشرة من عمرها، سمعنا عن طلاقه بعد سنة أو سنتيْن.

عندما يئس أساتذة كلية الاقتصاد في لندن من أمره، ذهب صاحبنا إلى كلية مغمورة في مدينة إنجليزية صغيرة وسجّل نفسه طالبًا للدكتوراه. واختار لنفسه موضوعًا يدور

حول نقطة صغيرة في تاريخ مصر الاقتصادي الحديث، يعرف عنها المصريون كل ما يستحق أن يعرف، ولكن يجهلها الأستاذ الإنجليزي الذي قبل أن يشرف على هذا الطالب المصري. فلما أتم الطالب كتابة رسالته بعد عمر طويل، وكان من اللازم اختيار ممتحن خارجي من المختصين بالشرق الأوسط لقراءة الرسالة وإجازتها، اختار الأستاذ المشرف مدرسًا أيرلنديًّا صغير السن في جامعة لندن، بدأ تخصصه في الشرق الأوسط منذ سنوات قليلة. كنت أعرفه جيدًا وكان يتسم، من بين ما يتسم به من صفات طيبة كثيرة، بطيبة القلب ورقة الشعور. حكى لي بعد أن أجاز رسالة صاحبنا وحصل بناء على ذلك على درجة الدكتوراه، أنه وجد أن صاحبنا المسكين قد مضى عددًا كافيًا من السنين في إنجلترا، وآن له أن يعود إلى مصر، وأنه قال لنفسه إن الرجل لن يمارس التدريس أو أي عمل آخر في إنجلترا، بل سيعود إلى بلده فلن يُضَرَّ أحد في إنجلترا بحصوله على الدكتوراه. ولا أدري ما إذا كان هذا القرار حكيمًا تمامًا؛ فقد ترتب عليه بلا شك ضرر لبعض الطلاب المصريين، وربما لغيرهم أيضًا. فقد عاد صاحبنا دكتورًا عظيمًا إلى مصر، لا يكاد يعرف أحد مدى قدراته الحقيقية وظروف حصوله على الدرجة العلمية العالية. وقد عُيِّنَ مدرسًا، ثم رقي أستاذًا مساعدًا، ثم أستاذًا في إحدى الجامعات المصرية؛ بسبب السهولة التي تتم بها هذه الترقية من درجة إلى أخرى في مصر، ودون أن يسمع أحد منا عن كتاب نشره أو مقال كتبه. وظللنا نسمع بين الحين والآخر عن الشكوى المرة التي تصدر من تلاميذه بالجامعة المصرية؛ بسبب ما تبعثه محاضراته من ملل في نفوسهم، وضآلة ما يحصلونه منه من علم. ذهب للعمل بضع سنوات في مؤسسة كبيرة في إحدى الدول الإفريقية، في منصب كبير تملك الحكومة المصرية حق الترشيح له، فكان يتقاضى مرتبًا عاليًا دون أن يتوقع منه أي عمل ذي بال. ثم ذهب لسنوات قليلة إلى المملكة العربية السعودية للتدريس في إحدى جامعاتها، ثم عاد إلى مصر ليمارس التدريس مرة أخرى على نفس النحو الذي وصفته.

خلال الثلاثين عامًا التي مرت على عودته إلى مصر، سار كل منا في طريق مختلف عن طريق الآخر، ولكني كنت أسمع اسمه كل بضع سنوات مقترنًا بقصة لا تخلو من طرافة، وتؤكد دائمًا الانطباع القديم الذي استقر في ذهني عنه منذ تعرفي إليه في

لندن. ولقد التقيت به خلال هذه الثلاثين عامًا مرتيْن أو ثلاث مرات في بيت أحد أصدقاء لندن القدامى، فكنت أسر لدى رؤيته سرورًا حقيقيًّا لبضع لحظات؛ إذ كان هذا يجلب إلى ذهني ذكريات قديمة عزيزة تتعلق بالفترة التي عشتها في إنجلترا. ولكن هذا السرور كان سرعان ما يتلاشى ولا يبقى إلّا فراغ تام وعجز كامل عن مواصلة أي حديث ذي معنى بيني وبينه.

ثم التقيت منذ سنوات قليلة بصديق قديم كان قد انضم إلينا في لندن لمدة عام لاستكمال المادة العلمية التي يحتاجها لكتابة رسالته التي كان يعدها في باريس، وترقى مع مرور الزمن حتى صار عميدًا للكلية التي يدرّس فيها صاحبنا. كان هذا العميد جديرًا بمنصب أكبر من هذا، إذا أخذنا في الاعتبارات ذكاءه وشخصيته وعلاقاته الاجتماعية وفهمه لأمور السياسة والاقتصاد. بل كنت كثيرًا ما أستغرب كيف يعين هذا أو ذاك وزيرًا، ولا يعين هذا الصديق الذي كان يفضلهم جميعًا، ثم أعود فأقول: ألا يمكن أن يكون هذا هو نفسه السبب؟

حكى لي هذا الصديق أن رئيس الجمهورية قرر أن يزور هذه الكلية التي يشغل منصب عميدها، وأن يلتقي بأساتذتها ويكلمهم في آخر تطورات السياسة والاقتصاد المصري. وحدث هذا بالفعل، وبعد انتهاء اللقاء سار رئيس الجمهورية مع العميد خارجًا من القاعة، وإذا بالرئيس يهمس في أذن العميد كلامًا عن هذه الشخصية الفريدة التي وصفتها حالًا فيقول: لديكم أستاذ في الكلية، اسمه على ما أذكر (ـــ)، أتتني شكوى مرة من أحد أقربائي إذ يقول إنه ـ بل إنه ـ إنه في المحاضرات يفعل ـ وفى الامتحانات ـ فما الحكاية، ولماذا لا تضعون حدًّا لهذا الأمر؟

أخذ العميد يحاول طمأنة الرئيس على أنه على علم بكل هذا، وأنه اتخذ كل الإجراءات اللازمة بصدده؛ بما يكفل ألا يتكرر مثل هذا في المستقبل. وانصرف الرئيس مكتفيًا بهذا. ولكن العميد فوجئ بعد شهريْن أو ثلاثة بتعيين هذا الأستاذ المدهش في منصب رفيع للغاية لا يمكن أن يتم التعيين فيه إلّا بعد أخذ رأي بعض المسئولين في رئاسة الجمهورية. وقال لي العميد ضاحكًا: «فبدلًا من أن يأخذوني أنا لهذا المنصب الرائع، اختاروا هذا الرجل الذي شكا لي منه الرئيس نفسه مرّ الشكوى»!

-٣-

زميل آخر كان عندما تعرفت إليه في لندن ملء السمع والبصر. وأنا أقصد بهذا المعنى الحرفي، وليس أي إشارة مجازية إلى قوة الشخصية أو عمق ما يتركه من أثر في نفوس معارفه. نعم، كان طويلًا فارعًا، عالي الصوت بشكل غير مألوف، وذا ضحكة تردد أصداءها حوائط كلية لندن للعلوم الاقتصادية، وتجبر من يسمعها على الالتفات للبحث عن مصدر الصوت. بهذا المعنى كان فعلًا ملء السمع والبصر، وكان بالإضافة إلى هذا، في معظم الأحيان، بشوشًا ودودًا، ومع هذا فسرعان ما تبينت أنه كالطبلة الجوفاء، مهما علا صوتها فإنها لا يمكن أن تترك أثرًا باقيًا في النفس بعد انتهاء العزف.

كان قد وصل إلى كلية لندن للاقتصاد بعد أشهر قليلة من وصولي إليها، ولكنه لم يكن مسجلًا فيها طالبًا، وإنما جاء ليمضي فيها بضعة أشهر يقرأ في مكتبتها ويطلع فيها على بعض المراجع، وقد يتناقش مع بعض الأساتذة؛ لكي يتم كتابة رسالته للدكتوراه عن دور رأس المال الأجنبي في التنمية المصرية، التي كان قد سجلها في جامعة القاهرة ويشرف عليها أستاذ من أساتذتها. كان قد جاء، إذن، لمجرد «جمع مادة للرسالة»، كما كنا نقول. ولكني لم أسمعه طوال إقامته في إنجلترا يقول كلمة واحدة عن موضوع رسالته، أو عن مشكلة تواجهه بشأنها، أو عن فكرة خطرت بباله أن يبحثها أو يكتب فيها. كما أني لم أره قط يقرأ أو يمسك بكتاب، ولا رأيته ذاهبًا لحضور محاضرة أو عائدًا منها. كنت أراه فقط في الكافيتريا أو المطعم أو بعد خروجنا من الكلية في الطريق إلى منازلنا. أثناء ذلك كان دائم الضحك بصوت عال، أو يتكلم في مختلف الموضوعات الشخصية أو السياسية، ذا حضور قويّ للغاية طوال الأشهر التسعة أو العشرة التي قضاها في لندن، وكان دائم السؤال: أين ستذهبون اليوم؟ وماذا أنتم صانعون غدًا؟ وأين سوف نلتقي بعد غد؟ وكأن الهدف الوحيد من مجيئه من مصر إلى إنجلترا هو الحديث معنا وتناول فنجان من الشاي أو القهوة بعد الآخر، إن لم يكن في كافيتريا الكلية ففي مقهى مجاور. فإذا عبّر أحدنا عن اعتراضه على تكرار

هذه اللقاءات دون مبرر واضح وعبر فترات قصيرة، تجهم وجهه وبدا عليه الحزن العميق أو انفجر غاضبًا متهمًا هذا الذي يعترض، بجمود قلبه وقلة عاطفيته وعدم مبالاته بمشاعر أصدقائه، ويظل يعيد ويزيد في التعبير عن شكواه حتى يلين له قلبك وتقبل ما ليس لديك أي رغبة في قبوله. وهنا فقط تنبسط أساريره ويعود إلى ثرثرته وضحكه غير مبال بما يمكن أن تكون عليه حقيقة مشاعرك.

ثم عاد إلى مصر، ومنذ ذلك الوقت، أي منذ أكثر من أربعين عامًا، كنت ألتقي به بالمصادفة البحتة في القاهرة، في ندوة أو محاضرة، على فترات متباعدة للغاية؛ إذ إنه أصبح كثير السفر بعد حصوله على الدكتوراه، ويطيل الإقامة في الخارج، فلا يعود إلى القاهرة إلّا ريثما يحصل على إعارة جديدة في وظيفة ذات مرتب مجزٍ في خارج البلاد. وكنت كلما رأيته وجدتُ فيه نفس الصفات القديمة تتكرر بنفس الدرجة وباعثة على نفس الملل: الصوت العالي جدًّا، الضحك المستمر بلا مبرر، الإلحاح في التعبير عن مشاعر غير حقيقية، إلحاحًا قد يبلغ درجة شدك من طرف جاكتتك إذا رأى منك ما يدل على عدم تصديقك له، أو قلة مبالاتك بما يقول، فإذا علق على محاضرة أو اشترك في مناقشة في ندوة يكرر دائمًا عبارات إنشائية وعاطفية قليلة الجدوى.

كان يعتبر نفسه ماركسيًّا، عندما جاء إلينا في لندن، وظل يعتبر نفسه كذلك إلى آخر حياته. ولكن الماركسية عنده لم تكن أكثر من التعبير عن التعاطف مع الفقراء والمظلومين، والتعبير عن الحزن والأسى للفوارق الشاسعة بين فقر الفقراء وغنى الأغنياء، وأن رأس المال الأجنبي مستغل وظالم، والشعوب المستعمَرَة مطحونة وبائسة. هذا هو حصيلة كل ما سمعت منه أو قرأت له. وقد ترتب على هذا أن احتار معه حيرة عظيمة الأستاذ المصري الذي كان يشرف على رسالته للدكتوراه. فهو أيضًا لم يجد فيما يكتبه الرجل في رسالته أكثر كثيرًا من هذا، ولقي صعوبة وعناء بالغيْن في إقناعه بأن المرء لا يحصل على الدكتوراه بكتابة مثل هذا الكلام، فكانت النتيجة دائمًا صراخًا بأعلى صوت، والشكوى من التحيز الأيديولوجي والتعصب الرأسمالي، والانحياز لمصالح البورجوازية ضد مصالح الشعب العامل الذي ظل صديقنا يعتبر نفسه جزءًا منه، على الرغم من نمو ثروته، مع مرور الأيام.

كان الرجل يكبرني بعشرة أعوام على الأقل، فقد بدأ دراسته الجامعية متأخرًا ولم يبدأ دراسته للدكتوراه إلّا وهو يقترب من الأربعين من عمره. كان من أسرة ريفية فقيرة جدًّا، واضطر إلى كسب رزقه وهو في سن صغيرة، ولم يلتحق بالجامعة إلّا بشق الأنفس، وبتضحيات كبيرة منه ومن أمه، وكان خلال دراسته الجامعية يكسب رزقه من العمل كشاويش في البوليس. ومن القصص المتناثرة التي حكاها لي عن ظروف نشأته وفترة دراسته، والتي كتبها ونشرها في بعض المجلات بعد تخرجه وتعيينه معيدًا في جامعة أسيوط، عرفت أن الشيء الوحيد الذي مكّنه من شق هذا الطريق الصعب والاستمرار فيه، كان هو قدرته المدهشة على الإلحاح وتكرار الرجاء، وعدم التراجع أمام أي رفض قد تقابل به طلباته؛ حتى يسأم من في قدرته تحقيق رغباته، أو يصيبه الإعياء، ويفضل تحقيق هذه الرغبات على التعرض للمزيد من الإلحاح والرجاء. كان من بين الأساليب التي يستخدمها للحصول على ما يريد، ولا بد أنه اكتشف فاعليته وتأثيره القوي، أن يثير في صاحب السلطة نوعًا أو آخر من الشعور بالذنب لو حدث ورفض له تنفيذ طلباته. «هل ترفض إلحاقي بالجامعة لمجرد أنني فقير؟»، «هل أنت تعاملني نفس المعاملة التي كان يمكن أن تعامل بها ابن فلان بك أو فلان باشا؟»، «هل ترفض تعييني في الوظيفة لأنني كنت أصلًا شاويشًا في البوليس؟»، «هل ترفض تعييني معيدًا لأني من طبقة غير طبقتكم؟»، «هل ترفض أن تعطيني درجة الدكتوراه لمجرد أني أعبّر عن أفكار تشجع على تغيير النظام الطبقي الذي يتفق مع مصالحك؟».

هكذا استمر طول حياته، يحقق نجاحًا بعد آخر دون أن يكون له سند من ذكاء أو صبر على العمل الأكاديمي أو حب حقيقي للعلم، بل بمجرد الإلحاح مع إشعار الآخرين بالذنب. بل نجح نجاحًا باهرًا بنفس الطريقة في أمر قد يظن المرء أنه لا يمكن أن ينجح فيه هذا الأسلوب، وهو الحب والزواج. ففي خلال الأشهر القليلة التي قضاها في لندن تعرف إلى فتاة إنجليزية جميلة، وبالغة الرقة، تنتمي إلى أسرة ميسورة وتدرس الفنون الجميلة في إحدى كليات جامعة لندن. عرض عليها الزواج فرفضت؛ إذ لم تتصور أسرتها أن تذهب ابنتهم لتعيش في ذلك المكان المجهول، فتبدأ حياة جديدة تختلف في كل شيء عما تعودته في إنجلترا، ولم تشأ الفتاة أن

تعصى أبويْها. ولكن الرجل لا يقبل بالطبع أن يرفض له طلب، ولا بد أنه استخدم مع فتاته وأسرتها كل ما كان يستخدمه معنا من وسائل لكي نشعر بشعور مبرح بالذنب كلما ترددنا في تلبية طلباته. حتى قبلت الفتاة رقيقة القلب الزواج منه، وجاءت معه إلى مصر وأنجبت منه طفليْن جميليْن ناجحيْن، تخرج الولد مهندسًا، والبنت طبيبة، فضلًا عن إتقانها لرقص الباليه.

لم أعد أسمع أخباره، بعد عودته ثم عودتي إلى القاهرة إلّا لمامًا وعلى نحو متقطع. كان يتصل بي تليفونيًّا مرة كل بضع سنوات فيبدأ مباشرة في توجيه اللوم الشديد لي لتنكري لصداقتنا القديمة وعدم محاولتي الاتصال به والسؤال عنه. وبعد أن يجبرني بهذا على الاعتذار يفتح الموضوع الذي اتصل حقيقة من أجله. فإذا بي أتبين أن طموحه لم يبلغ منتهاه بعد، وأنه لم يقطف بعد كل الثمار الممكنة لظروف نشأته الأولى، وما عاناه خلالها من متاعب. فهو الآن يريد أن يصبح أديبًا مشهورًا، وها هو ذا قد أتم رواية تحكى قصة حياته منذ أن كان يعمل في جمع القطن وهو صبى مقابل قروش زهيدة ويتلقى ضربات العصي من مقاول الأنفار، إلى أن أصبح أستاذًا للاقتصاد في الجامعة. ألا تستحق هذه القصة المثيرة أن تروى لكي تكون قدوة لأبناء الفقراء، وتعلمهم المثابرة وعدم اليأس؟ طلب منى أن أقرأ القصة وهي لا تزال مخطوطة، فقرأتها ووجدتها، على الرغم من بعض العيوب التي يمكن ضرب الصفح عنها، تستحق النشر بالفعل. فطلب مني أن أتوسط لدى بعض الناشرين ليوافقوا على نشرها ففعلت، ولكنه كان يفعل نفس الشيء مع كثيرين غيري، فتم نشر الرواية عن طريق ناشر مشهور. نجحت الرواية نجاحًا باهرًا، يفوق بكثير ما تستحقه، وكنت أعرف بالضبط كيف تسنّى لها ذلك. ثم إذا بالرواية تظهر مسلسلًا تليفزيونيًّا في عشرين أو ثلاثين حلقة، ولم يكن لديَّ شك أيضًا في الأساليب التي اتبعها مؤلفها للوصول إلى هذه النتيجة. ثم اتصل بي مرة أخرى بعد سنتيْن أو ثلاث، ليقول لي إنه أتم الجزء الثاني من الرواية وإنه يأمل أن تحظى بإعجابي مثلما حظي الجزء الأول. فلما قرأت الجزء الثاني استسخفته للغاية ووجدته غير جدير بالنشر، وأخبرته برأيي كاملًا ولكن بأدب شديد حتى أجنب نفسي وأجنّبه آثار المصارحة، فأسمعني ما توقعت سماعه من عبارات تثير الإحساس بالذنب بسبب عدم قدرتي على فهمه، ولم يمنع هذا الرأي

من جانبي على أي حال من نشر الجزء الثاني. ولكن ما لم أكن أتصوره على الرغم من كل ما خبرته منه من قبل، هو أن يلحّ عليَّ المرة بعد الأخرى حتى أكتب مقالًا عن هذا الجزء في إحدى المجلات، فلما ذكّرته بما سبق لي أن قلته له عما أعتبره من عيوب مهمة في القصة، أصر على أن يلتقي بي في نادى كلية الشرطة لمجرد تذكّر أيام الصداقة القديمة، وبصرف النظر عن موضوع الرواية برمته. لم أستطع الرفض ولكني ندمت ندمًا شديدًا على قبولي الدعوة؛ إذ أنفق الرجل الساعتيْن اللتيْن قضيناهما؛ في يوم من أشد أيام السنة حرارة، وهو لا يكف عن ذكر محاسن الرواية، وكيف أني فشلت تمامًا في اكتشاف نواحي القوة فيها.

كان هذا هو آخر لقاء بيننا. لقد فوجئت بعده بظهور مقال أو مقاليْن كتبهما بعض من أكبر كتّابنا وناقدينا، منشوريْن في بعض جرائدنا السيارة، تكيل الثناء على الجزء الثاني من الرواية وعلى كاتبها، ثم قرأت أخبارًا عن عزم بعض المخرجين التليفزيونيين على إخراج هذا الجزء في مسلسل تليفزيوني جديد؛ مما ضاعف من دهشتي من استمرار نشاط صديقي القديم واستمرار مثابرته وإصراره حتى في تلك السن المتقدمة.

ثم سمعت بمرضه ووفاته في سن تقرب من الثمانين، ونعته بحرارة بعض الصحف والمجلات ذات الاتجاه الماركسي والتي كانت تنشر له بعض المقالات من حين لآخر. لازلت حتى الآن أذكر ضحكاته العالية، بمناسبة أو غير مناسبة التي كان يهتز لها بناء كلية لندن للعلوم الاقتصادية. ثم حدث أن دعيت لإلقاء كلمة بالإنجليزية عن كتابي «ماذا حدث للمصريين؟» أمام جمع من السيدات المصريات والأجنبيات في أحد فنادق مصر الجديدة. وبعد المحاضرة اقتربت منى بحياء شديد سيدة أجنبية، وسألتني عما إذا كنت أتذكرها. كانت سيدة في نحو السبعين من العمر، ابيض شعرها تمامًا وإن كانت على وجهها آثار لاشك فيها من جمال قديم. حاولت التذكر فلم أفلح، فذكرت لي اسمها، فإذا بها زوجة هذا الزميل القديم الذي لم تكن قد مرّت على وفاته أكثر من أشهر قليلة. صافحتها بمودة حقيقية، وسألتها عن ابنها وابنتها فذكرت أنهما بخير، ولكن كان من الواضح أنها تريد أن تتكلم عن زوجها، فلما ذكرت لها شيئًا من ذكرياتي عنه أيام إقامته في لندن، دمعت عيناها وطلبت مني أن أتصل للسؤال عنها بين الحين والآخر.

- ٤ -

في لندن تجددت علاقتي بزميل قديم كنت قد تعرفت إليه على نحو عابر في كلية الحقوق، وتخرج قبلي بعام. لم يكن من زملاء البعثة بالضبط، فقد سافر للدراسة أولًا في إنجلترا وتركها قبل ذهابي إليها، وذهب هو لاستكمال دراسته في الولايات المتحدة، وحصل على الماجستير في الاقتصاد ولكنه فضل أن يكمل دراسته العليا في الفرع الذي يعشقه حقيقة وهو القانون الدولي. ثم كان يزور إنجلترا من حين لآخر لسبب يتعلق دائمًا باستكمال دراسته لشيء أو لآخر، فتقابلنا من جديد أثناء فترة بعثتي.

كنت دائمًا اعتبره صديقًا عزيزًا على الرغم من أني لم أكن أراه إلّا عبر فترات طويلة من الزمن، وإذا رأيته لا يستمر لقاؤنا عادة أكثر من ساعتيْن أو ثلاث، ثم يعود إلى البلد الأوربي الذي يعيش ويعمل فيه، أو أعود أنا إلى بلدي ولا نلتقي بعد هذا لعدة سنوات. لهذا لا أعرف عنه الكثير مثلما أعرف عن معظم أصدقائي، ومعلوماتي عن نشأته وأسرته شحيحة للغاية. وعلى الرغم من هذا شعرت بأني لا بد أن أكتب عنه؛ إذ إنه في حدود ما أعرفه عنه، من نوع من الناس لا تجود الدنيا بمثله إلّا نادرًا، كما سيتضح للقارئ عندما أقص عليه ما أعرفه عنه.

سمعت عنه قبل أن أراه. وكانت القصص والروايات تأتينا عنه فنتعجب ونتساءل: أهذه القصص حقيقية أم مبالغ فيها؟ ثم قابلته وتكرر لقاؤنا عبر فترة خمسين عامًا فلم أرَ منه أو أسمع عنه طوال هذه الفترة ما يتعارض مع ما سمعنا عنه لأول مرة.

كان طالبًا في كلية الحقوق بجامعة القاهرة، عندما كنت أنا طالبًا بها ولكنه كان يسبقني بعام، وكانت تأتينا أخبار نبوغه وتفوقه، وهو ما كان نادرًا أن نسمعه عن طلبة في غير فرقتنا الدراسية، ولكن كانت أخبار النبوغ من نوع مختلف عن المعتاد. فلم يكن الخبر يدور حول حصوله على هذه الدرجة العالية أو ذلك التقدير الممتاز، بل كان يدور إما حول بحث كتبه فأثنى عليه أستاذ كبير، وإما حول مناقشة دارت بينه وبين أستاذ آخر أثناء المحاضرة حول مقال كتبه أستاذ فرنسي ذكره الأستاذ في المحاضرة،

فإذا بها تبين أن صاحبنا كان قد قرأ المقال في المكتبة وأخذ يناقش الأستاذ فيه حتى اعترف له الأستاذ بخطئه. ولكن القصة المفضلة عندنا كانت حول خلاف شديد، دار بينه وبين أستاذ من أساتذة الكلية أثناء الامتحان الشفوي في السنة النهائية؛ إذ اعترض الأستاذ على إجابة صاحبنا ولكنه أصرّ عليها. وبدأ الأستاذ يفقد أعصابه، ويعلي صوته، دون أن يهتز الطالب أو يحيد عن رأيه، حتى اضطر الأستاذ الآخر المشترك في الامتحان إلى أن يؤيد الطالب ضد الأستاذ. ولكن كانت النتيجة المحزنة أن حصل في الامتحان على تقدير أقل بكثير مما يستحق بسبب إصرار الأستاذ المجروح في كرامته على تخفيض درجته، وربما كان من أسباب انخفاض درجته أيضًا أن اسمه «چورچ». كانت نتيجة ذلك أن فقد صديقي المكانة اللائقة به في ترتيب التخرج، وترتب على ذلك أيضًا عدم تعيينه معيدًا في الكلية، وهي الوظيفة التي كان يطمح إليها، فإذا به يقرر أن يبحث لنفسه عن مكان آخر غير مصر.

قابلته أثناء تجواله في العالم عدة مرات، في كامبردج ولندن وچنيف، وكان في كل مرة إما قد أتم لتوه دراسته للحصول على شهادة عالية، وإما على وشك البدء في دراسة جديدة للحصول على شهادة أخرى. وكانت دراسته تدور إما حول القانون الدولي وإما الاقتصاد. وعندما تعرفت إليه عن قرب، اكتشفت فيه أول رجل أقابله - من جيلي على الأقل - يحب العلم من أجل العلم، وتثير المشاكل العلمية حماسه مثلما تثير غيره القصة الجميلة أو العمل الفني المتقن. ويبدو أن هذا الحب القوي لديه للبحث العلمي وغرامه بحل مشاكله، هو الذي أزهده في أي هدف آخر يتعلق بتكوين المال أو الحصول على منصب كبير أو نفوذ واسع. كان دائمًا هادئ الطبع نادر الثورة، وراضيًا عن نفسه، وعن الحياة بوجه عام. استراح بعد تجوال طويل في وظيفة أستاذ بمعهد علمي راقٍ، هو معهد الدراسات الدولية في چنيف، فظل به حتى وصل إلى سن التقاعد، وأقام بچنيف هو وزوجته الفرنسية، العالمة بدورها في القانون الدولي والتي نشرت مقالات مهمة في مجلات محترمة، وكان الباحثون يحتارون أحيانًا فيما إذا كانت هي صاحبة المقال أو زوجها.

وصف لي صديق آخر مشترك، الحفل الذي أقيم بمناسبة إحالة صديقي هذا

للتقاعد عندما بلغ الخامسة والستين. أقامه له معهده في چنيف، فإذا بزملائه وتلاميذه يلقون البحث بعد الآخر في الموضوعات المختلفة التي كتب فيها چورچ، وختم الاحتفال الذي كان أقرب إلى المؤتمر، بمحاضرة مستفيضة لتلميذة من تلميذاته شرحت فيها ما تركه چورچ من أثر على تلاميذه وعلى القانون الدولي.

عندما كنت أراه في القاهرة كل بضع سنوات، كنا نتكلم عن مشاكل مصر الحالية أو نستعيد بعض ذكرياتنا عن كلية الحقوق. وقد لفت نظري في كلامه كم ظل طوال هذه السنوات مهمومًا بمشاكل مصر وكم ظلت مصر قريبة من قلبه.

كان هناك في وزارة الخارجية المصرية من يعرفون چورچ وقدراته ونبوغه معرفة جيدة، كما كانوا يعرفون استعداده لوضع هذه القدرة في خدمة بلده في أي وقت، فكانوا يلجأون إليه في الملمات، عندما تواجه مصر مشاكل دولية عويصة وذات طابع قانوني، من نوع مشكلة طابا مثلًا، فكان چورچ يأتي إلى مصر ليقابل المسئولين ويقدم لهم المشورة. وهكذا لم يستطع ذلك الحادث القديم الذي وقع لچورچ في الامتحان الشفوي، وأدى إلى حرمانه من الالتحاق بهيئة التدريس بجامعة مصرية، أن يحرم مصر من خدماته.

في إحدى زياراته الأخيرة لمصر وفى أثناء لقاء مع چورچ وبعض الأصدقاء، جاء ذكر بينوشيه الرئيس الأسبق لشيلى؛ إذ كانت الأخبار مليئة بذكر القضايا المرفوعة عليه لما ارتكبه من جرائم قتل وتعذيب وخطف لمعارضيه السياسيين. فمال عليَّ چورچ وقال هامسًا إنه قد عرض عليه الاشتراك في هيئة الدفاع عن بينوشيه في إحدى المحاكم الدولية ولكنه رفض. لم يطل الكلام في الموضوع كما أنه لم يذعه على الملأ، ولا تفوّه بعبارة مؤداها أن رفضه كان بناء على موقف مبدئي. ذكر الأمر فقط عرضًا وباختصار، دون أي شبهة افتخار بنفسه. هكذا كان عهدي به دائمًا. كان يرى، على الأرجح، أن الموقف الصحيح هو الموقف البدهي ، ومن ثَمَّ فلا مجال للزهو به أو التفاخر.

كنت دائما أعوِّل عليه لاكتشاف أخطائي وللتحقق مما إذا كنت قد تصرفت تصرفًا سليمًا، أو عبّرت عن رأى صائب في إحدى مقالاتي أو بعض كتبي أو خانني التوفيق.

ذلك أني تعودت منه ألا يكذب، وإن كان دائمًا جمّ الأدب. أرسلت له مرة أحد كتبي عن اقتصاديات البلاد العربية وكان قد صدر بالإنجليزية، وحاز نجاحًا لا يستهان به، وقد كتب إلي يشكرني عليه ويمتدح بعض أشياء فيه، ولكني لم أستطع الجزم من قراءة الخطاب ككل بما إذا كان الكتاب قد حاز إعجابه أو لم يحز، خاصة أنه وصف الكتاب في نهاية خطابه بأنه «deceptively simple» (أي أن بساطته خادعة) وهي عبارة أقرب إلي المدح منها إلى الذم؛ إذ توحي بأنه وجد في الكتاب عمقًا، ولكني عندما قابلته قلت له ضاحكًا إني لم أطمئن قط عما إذا كان هذا هو ما يعنيه حقيقة، أو أنه يريد في الواقع أنْ يقول إن الكتاب «simply deceptive» (أي أنه، ببساطة خادع!)، وضحك دون أن يوضّح ما الذي يفكّر فيه.

(١١)

الحب والزواج

-١-

عندما سافرت في بعثتي إلى إنجلترا في يناير ١٩٥٨، في الثالثة والعشرين من عمري، لم يكن لديَّ، فيما عدا حبًّا أفلاطونيًّا قديمًا وقعت فيه قبل ذلك بعشر سنوات، أي تاريخ يستحق الذكر مع النساء، لا تاريخ مشرف ولا غير مشرف، ولا يكاد يتعدى زيارات قليلة لا أظن أن عددها زاد على ثلاث، مدفوعة الثمن، لامرأة في عابدين، دلني عليها أحد زملائي بكلية الحقوق، عندما كانت تستبد بي الرغبة إلى درجة لا تطاق، ومحاولة قصيرة فاشلة للخروج مع بنت الجيران، سبق لي ذكرها.

في بداية حياتي في لندن، مررت أولاً بعلاقة قصيرة جدًّا مع فتاة بولندية جميلة تدرس في نفس كليتي. كنت أشتهيها وكانت تميل إليَّ ميلًا واضحًا، ولكني أفسدت العلاقة بغيرتي الشديدة وعدم استعدادي لتصديق أن مثل هذه الفتاة الجميلة يمكن أن تفضلني بالفعل على الآخرين. واعترتها هي نفس الدرجة من الدهشة من عدم تصديقي أن مثل هذا ممكن. فيما عدا هذه وتلك يمكن أن أعتبر أن تاريخي مع النساء، حتى وصلت إلى الرابعة والعشرين من عمري، كان يساوى صفرًا. عندما أفكر في هذا الأمر الآن، وقد تجاوزت السبعين، كم تبدو لي الخسارة فادحة! إذ لا شك في أن حرماني الشديد من أي علاقة حميمة بالجنس الآخر حتى تلك السن، قد أضاع مني طاقة وجهدًا بل أضاع وقتًا ثمينًا؛ نتيجة التوتر العصبي الناتج عن هذا الحرمان، فضلًا عما لا بد أن أدّى إليه من توجيه تفكيري إلى مجالات غير عقلانية

وخيالات لا جدوى منها، ناهيك بالطبع عن المتعة والسعادة الضائعتيْن بسبب هذا الحرمان.

ثم تعرفت إلى فتاة إنجليزية في داخل كلية الاقتصاد. كانت في السادسة والعشرين، أي تكبرني بعاميْن. لم تكن رائعة الجمال ولكنها كانت في نظري جميلة، وتتمتع بدرجة كافية من الأنوثة، فلم يكن هناك، إذن، أي شيء يمنع من أن تكون صديقة لي. كنت في أشد الحاجة إلى مثلها، ففضلًا عن الحاجة الطبيعية كانت هناك الرغبة، الطبيعية أيضًا، في ألّا أكون أقل من الآخرين في هذا الأمر المهم، خاصة في وسط هذا المجتمع الغربي الذي يلحّ على هذا الأمر منذ استيقاظك في الصباح ومطالعتك للجرائد، وأثناء سيرك في الطريق، بما يلاحقك من إعلانات تدور حول هذه العلاقة، وأثناء صعودك أو نزولك على السلم المتحرك في مترو الأنفاق؛ إذ ترى الفتيات الجميلات في ذهابهن إلى العمل في الصباح وقد ارتدين ما يلائم الذهاب إلى حفلة راقصة، وحتى تجلس لتشاهد التليفزيون في المساء. على أنني لم أكن قطعًا من هؤلاء الذين يستمدون رضاهم عن أنفسهم من علاقاتهم بالنساء، ونجاحهم في الفوز بصديقة أو عشيقة بعد أخرى؛ إذ كان رضاي عن نفسي يتوقف على أشياء مختلفة جدًّا. ترتب على هذا أن الوقت الذي كنت أطمح في أن أقضيه معها لم يكن يزيد عن أمسية أو أمسيتيْن خلال الأسبوع، وحبذا لو كان ذلك في نهاية الأسبوع؛ حتى أتفرغ في بقية الأسبوع لهدفي الأساسي، وهو الدراسة والقراءة. كان معيار النجاح في نظري ثقافيًّا بالدرجة الأولى أو ثقافيًّا فقط، وكل ما عدا هذا مجرد وسائل لتحقيق هذا النجاح.

التقيت بها لأول مرة وأنا جالس مع مجموعة من الزملاء العرب الذين يدرسون في نفس كليتي، نتناول القهوة بعد الغذاء في مقهى الكلية. كانت بيننا فتاة عربية صديقة لها فأتت هي وانضمت إلينا. كنت بالطبع لطيفًا معها، شأني عادة مع النساء، وأبدت هي أيضًا اهتمامًا بي يفوق اهتمامها بالآخرين. دعوتها إلى العشاء بعد انتهاء العمل بالكلية فقبلت بسرور. ولم تمضِ بضعة أيام حتى كنا قد قضينا الليلة في غرفتي الصغيرة. كانت تجربة جديدة تمامًا عليَّ، ولكنها أيضًا جلبت لي ثقة بالنفس مفاجئة

وغير معهودة. استمرت علاقتنا الحميمة ثلاث سنوات، وفى أول يوم خرجنا معًا حكت لي قصتها. كانت على صغر سنها امرأة مطلقة. تزوجت وهي في التاسعة عشرة من عمرها من شاب دنمركي أحبها وأحبته وسافرت معه إلى بلد إفريقي، ولكن سرعان ما أذاقها العذاب بقسوته وإدمانه الخمر فتركته وحصلت منه على الطلاق، وعادت إلى إنجلترا ومعها منه بنت صغيرة. وهي الآن تعمل في لندن في الخدمة الاجتماعية، وتحضر شهادة لا تستغرق أكثر من عام في كلية لندن للاقتصاد، أيضًا في الخدمة الاجتماعية؛ أملًا في تحسين مركزها ومرتبها. وبنتها تقيم مع جدها وجدتها في مدينة لا تبعد كثيرًا عن لندن، تذهب هي إليها في يوم الأحد من كل أسبوع فتقضيه مع ابنتها وأمها وأبيها.

وجدتها امرأة مبتهجة بالحياة، على الرغم من كل ما مر بها من مصاعب، قادرة على أن تتمتع باللحظة الراهنة وتنسى كل ما عداها؛ فلا تفرط في التفكير في المستقبل ولا تفكر بالمرة في الماضي. اجتماعية لا تفتقر أبدًا إلى الكلام المناسب وتقوم بالواجب وزيادة. تكتب خطابًا لتهنئة كل من يستحق التهنئة ولتعزية من مات له شخص عزيز، وتتذكر المناسبات كافة التي يجب تذكرها. كانت لها أيضًا قدرات إدارية عالية، اعترفت بها كلية لندن للاقتصاد فعينتها بعد حصولها على شهادتها، مشرفة على نشاط جمعية الخريجين. باختصار كانت عالية الكفاءة في كل ما تقوم به، وكان هذا هو أيضًا عيبها الأساسي. بدت لي وكأنها، وهي بصدد القيام بأي عمل، تقوم بإجراء ذلك التحليل الذي نسميه في علم الاقتصاد «تحليل النفقات والمنافع»، فإذا زادت المنافع عن النفقات، بعد تحويل كل منهما إلى قيمته الحاضرة، قامت بالعمل، وإلّا امتنعت عنه. بعبارة أخرى، كان لديَّ دائمًا شعور بأنها تحسب كل شيء، حتى ما تعلق بالأمور العاطفية، ولا تقوم بأي عمل بدافع عفوي طبيعي، بل قد تخفى بعض الدوافع الحقيقية التي دفعتها إلى القيام به إن لم يكن الإفصاح في صالحها. لم يعجبني أيضًا موقفها من المال. كانت حريصة جدًّا عليه، تحسب ألف حساب قبل أن تنفقه، ولا تدع فرصة تفوت إذا كانت تسمح بتوفير شيء منه.

لم تكن تحب الثقافة أو السياسة أو الكلام في أي شيء فيه أي درجة من التجريد.

كانت «واقعية» تمامًا؛ ومن ثَمَّ لم تكن تشاركني في أي نشاط عقلي، ولا تصبر على أي محاولة لتحليل فيلم أو مسرحية، ناهيك عن أي كلام في السياسة العربية أو الدولية. ومن ثَمَّ فقد تعلمت مع الزمن ألا أفتح أيًا من هذه الموضوعات معها. كانت تقرأ كثيرًا؛ ولكن لمجرد قضاء الوقت، أو لتسلي نفسها في قطار، أو إذا تعذر عليها النوم. لم يكن هذا يسبب لي ضيقًا شديدًا، فقد كانت حاجتي إليها في الأمور الأخرى أهم عندي بكثير، ولكني لم أتصور قط أن من الممكن أن أتزوجها. كانت صحبتها ممتعة، ولكن الزواج كان يبدو لي شيئًا مختلفًا تمامًا.

لا أدرى كيف واتتني الشجاعة فجأة فبحْت لها بالحقيقة وهي أنه «لا مستقبل لعلاقتنا. الزواج مستحيل، وإذا أرادت أن تنهى العلاقة الآن فلتفعل». لم تكن أمامي علاقة بديلة تعوضني عنها، ولا كنت قد مللتها أو حدث منها شيء جديد أغضبني. كل ما هنالك هو أنه توفرت لديَّ وقتها ثقة كافية بالنفس، أيًا كان مصدرها، جعلني أشعر بأني قادر على تحمّل فراقنا، بالإضافة إلى شعوري المستمر بأنها قطعًا لا تصلح زوجة لي، وأن من الظلم أن أدعها تضيّع وقتها معي، وهى التي تكبرني بعامين، وتظن أن من الممكن أن تنتهي علاقتنا بالزواج. ترتب على هذه المصارحة المفاجئة الكثير من البكاء والعويل، ولكني في مثل هذه المواقف أصبح متبلد الإحساس كالحجر. وانتهى الأمر بالفعل بالانفصال.

حدث أن التقينا بعد ذلك مرتيْن أو ثلاث مرات قبل عودتي من إنجلترا، في بيتي أو في بيتها، دون أن يحدث أي تغير فيما سبق لنا أن وصلنا إليه من قرار. ثم أخبرتني بعد ذلك الانفصال بأشهر قليلة أنها قابلت رجلًا آخر، وأن علاقتهما تتقدم بسرعة. فالتهب شعوري نحوها من جديد، واشتعلت نيران الغيرة في صدري، ثم صُدمت بشدة عندما أخبرتني أنها سوف تتزوج منه، ولكني هدأت بعد بضعة أيام وعدت إلى الاستغراق في محاولة الانتهاء من رسالتي.

* * *

كنت حينئذ، أي عندما انفصلت عنها، في السابعة والعشرين من عمري، وقد مرّت بعد ذلك سنوات كثيرة حدثت خلالها أشياء كثيرة لي ولها. تزوجت هي وتزوجت

أنا، وسافرت مع زوجتي إلى مصر، وسافرت هي مع زوجها الأمريكي إلى مدينة «سولت ليك سيتي» (Salt Lake City) في ولاية يوتا بالولايات المتحدة. والمدهش أنها ظلت ترسل لي خطابات مطولة، مرة في كل عام، كلما حل الكريسماس، تخبرني فيها بما فعلته خلال العام، والامتحانات التي اجتازها زوجها، والأولاد الذين أنجبتهم منه. ولم أكن أنا أرد إلّا لمامًا. وكانت ترسل لي صورها وصور أولادها، وتلحّ عليَّ في أن أرسل لها صورًا لي ولأولادي وزوجتي، ففعلت هذا مرة أو مرتيْن. وأرسلت لها مرة كتابًا ظهر لي بالإنجليزية (كان مبنيًا على رسالتي للدكتوراه)، فكتبت لي خطابًا تهنئني فيه عليه بحماسة شديدة، وتذكرني فيه ببعض ذكرياتنا القديمة حينما كانت تهتم بأخبار دراستي وتقدمي فيها، وكأنها تحاول أن تقول لي إنها وليست زوجتي الحالية، هي التي تعرف اهتماماتي وميولي الحقيقية. واستسخفت منها ذلك، بل ذكرني هذا ببعض ما كنت دائمًا أستسخفه منها، وكان أحد أسباب اقتناعي بعدم صلاحيتها لي زوجة. لم تكن نظيفة القلب مثل المرأة التي تزوجتها، ولا كانت صريحة وصادقة مثلها، ولا كان «قلبها على لسانها» كما يقول المصريون، وهى صفة كنت دائمًا شديد التقدير لها، وحاسمة دائمًا في تحديد من أحب ومن أكره، من أحرص أو لا أحرص على استمرار علاقتي بهم. وقد عاد كل هذا إلى ذهني بوضوح تام، عندما رأيتها مرة أخرى في الولايات المتحدة، وكان قد مر على زواجي وزواجها ما يقرب من ثلاثين عامًا. ولكن لنؤجل الآن الحديث في هذا الموضوع.

-٢-

كانت السنتان الأخيرتان لي في لندن فترة وقوعي في الحب لأول مرة، وزواجي ممن أحب، مما لا بد أن أحكي قصته. وسأبدأ رواية القصة بأن أنقل خطابًا أرسلته إلى أخي حسين في ١/ ٧/ ١٩٦٣، بعد بداية علاقة حميمة بصديقتي «چان» (Jan)، بنحو سبعة أشهر. كان قد استقر رأيي نهائيًا على الزواج منها، وأردت أن أخبر «حسين» بذلك، وهو الذي كان يعارض بشدة فكرة الزواج من أجنبية.

لندن ١/ ٧/ ١٩٦٣

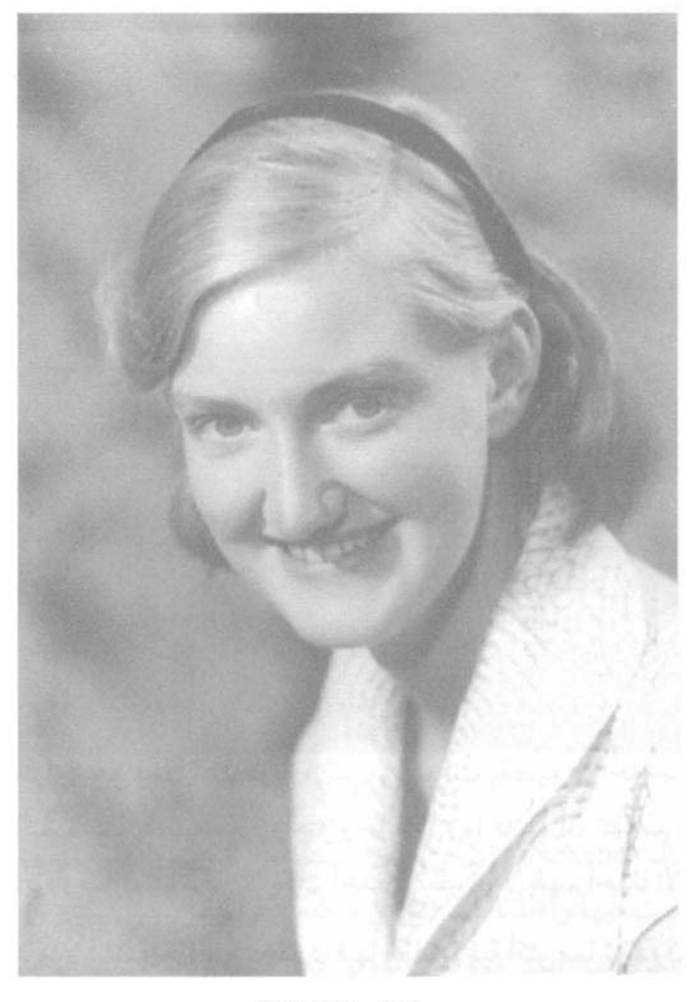
عزيزي حسين

تحياتي إليك وإلى فيفي وهبة، وأرجو أن تكونوا مبسوطين بقرب السفر إلى موسكو. أما عني فأسمع يا سيدي الأخبار الهامة الآتية: لقد وجدت أنه لا يمكن أن أجد فتاة أخرى تناسبني ومتفاهمة معي كما وجدت جان، والتفكير الذي كنت أمرّ به لم يكن متعلقا بمدى تفاهمنا، وإنما فيما إذا كانت الحياة في مصر ستناسبها على وجه العموم. وقد وجدت أن هذا ـ وإن كان فيه بعض المغامرة ـ لا يمكن أن يوازي المزايا التي تتمتع بها والانسجام الذي نشعر به تجاه أحدنا الآخر. ولهذا فقد تفاهمنا على الزواج بعد انتهائي من الدكتوراه مباشرة وأفهمنا عائلتها ذلك.

إنك ـ على البعد ـ لا تفكر فيها إلّا على أنها أجنبية أو إنجليزية، وهذا طبعًا جزء صغير جدا من المسألة. وسأحاول أن أعطيك فكرة بقدر الإمكان كاملة عنها: عمرها ٢٣,٥ سنة. أهم ما جذبني إليها فضلًا عن جمالها، شيئان: الأول رقتها: فقلبها طيب جدًّا. وقد أعجبت جدًّا بطريقة معاملتها لأبويها وحرصها على راحتهم، ثم بطريقة معاملتها لي (قبل أن تخطر أي فكرة عن الزواج بذهني أو بذهنها) وحبها للبيت، وقيامها بواجبات المرأة على أتم وجه، كما تفعل المرأة المصرية الممتازة. ثَمَّ طريقة معاملتها لأصدقائي، فمثلا دعتني مع صديقي عمرو محيي الدين وزوجته وطفلته لقضاء عشرة أيام في بيت أبيها، كانت من أسعد الأيام، وكانت تقوم بخدمتهم بشكل غريب. وهي مغرمة بالأطفال جدًّا، ولها أفكار ممتازة عن تربيتهم... إلخ. ثم أنها كريمة (أرجو ألا تكون مللت فيجب أن تكون صبورًا)، ورغم عدم غناها على الإطلاق، فإن المال يكوّن شيئا قليل الأهمية لديها، وليست مما يضحي بالمعنويات في سبيله. لا أعتقد إطلاقا أني ممن يُخدع في الحكم على الأشخاص، فأعتقد أني أستطيع التمييز بين السطحي والأصيل.

والشيء الثاني هو ذكاؤها وحبها للثقافة: فهي قضت ٨ سنوات في ألمانيا، ومن ثم تجيد الألمانية، ثم درست في مدرسة ممتازة (ضحى أبوها بكثير من المال رغم قلة ما لديه، من أجل الصرف عليها فيها) في اسكتلندا، ثم درست أدب فرنسي وفلسفة وحصلت فيها على «B.A» من جلاسجو، ثَمَّ درست علم الاجتماع في جامعة لندن

(ومن هنا تعرفت عليها) وستحصل فيه على «B.Sc». في هذا الشهر. ومن ثم فإني أجد أني أستطيع أن أكلمها مثلًا عن كل تعديل أدخله على رسالتي، عن الـ «Logical Positivism»، عن كل ما أقرأه، وأجد كل تعليقاتها ذكية، وتطوّر تفكيري بدلا من أن ترجع به إلى الوراء. أضف إلى كل ذلك أنني واثق أنها تحبني وأننا ـ رغم قصر مدة معرفتنا أحدنا بالآخر ـ لم نفترق أكثر من ليلة واحدة. إنني لم أكن في حياتي «relaxed» وأشعر بأني طبيعي ١٠٠٪ أكثر مما أشعر به معها.



چان (حوالي ١٩٥٧)

وقد بدأت فعلا تتعلم العربية، مش للكلام فحسب بل قراءة وكتابة، على أساس أن تستطيع في المستقبل قراءة المراجع العربية عن علم الاجتماع، وتقوم بكتابة بحث أو مقالات تطبق فيها ما درسته على المجتمع المصري. وسأحاول أن أجد لها وظيفة مدرسة في الجامعة الأمريكية أو في مؤسسة مشابهة.

نأتي بعد ذلك للصعاب:

إن العيب الوحيد في الموضوع هو بالطبع أنها أجنبية ـ هذا في حد ذاته له مزايا من ناحية أن يكتسب بيتنا مزايا الحياة الإنجليزية، بحيث أضمن أنني لن أخسر ما اكتسبته في إنجلترا من بعض النشاط والهمة في الشغل.. وحتى في انخفاض وزني! على أنه من ناحية أخرى، طبعا الزواج منها سيفرض عليَّ الاقتصار عن بعض الناس أو على الأقل التقليل من التزاور معهم، ومجهودًا في الترجمة لها أو لبعض المصريين حتى تجيد هي العربية، ثم إن عدم وجود أهلها بالقرب منها قد يفرض علينا إما أن تسافر هي بدوني بعض الوقت، كما تفعل بريجيتا (زوجة أخي أحمد)، أو أن نسافر سويا في الصيف.

قد يضيف البعض إلى ذلك أن «الجو السياسي لا يحبذ الزواج من أجنبيات» أو أن الزواج منها قد يمنعني من الحصول على منصب كبير. وأنا لا أجد لهذه النقاط وزنا كبيرًا. فأنا أعتقد مثلًا إن چان ممكن أن تكون صديقة حميمة لفيفي (زوجة أخي حسين)، وبريجيتا، وحماده (أخي محمد) ومها (زوجة أخي حافظ) وفاطمة (أختي) وأولادها ونعيمة (أختي) وأولادها وأمين (أخي عبد الحميد)... إلخ. وأن بيتنا سيكون مفتوحًا ـ مع وجود چان ـ ليس أقل مما يمكن أن يكون لو كنت تزوجت بأحسن الفتيات المصريات.

ثم هل التزاور هو فعلا أهم شيء؟ كم من الوقت يقضيه الواحد منا مع عائلته وأصدقائه بالنسبة لما يقضيه مع زوجته وحدها؟ وما فائدة أن تتفاهم الزوجة مع الأصدقاء والأقارب إن كنا نحن لا يكلم أحدنا الآخر أو لا يفهم أحدنا الآخر؟

إني متأكد مثلا أنك وحافظ ستجدون فيها أذنا صاغية أكثر مما تجدون.. مني! ثم أليس القيسوني متزوج بإنجليزية.. والجريتلي وأحمد زكي؟ وكلها زيجات ناجحة.



والد چان ووالدتها

قضيت الـ «weekend» الأخير مع عائلتها على البحر، ولهم بيت جميل وحديقة لطيفة تشمست فيها وأخذنا فيها الشاي وتغدينا. وأبوها رجل ممتاز وإن كانت أمها تحب المظاهر بعض الشيء. وقد عاملوني كابن لهم، وطمأنت أبوها على حياتها في مصر، وإن ما فيش ناموس!! وإن فيه شجر كثير على الرغم من الصحراء!

هل أنتظر منكم إذن خطاب أو كارت تهنئة على اختياري الموفق؟! أرجو ذلك فسيسرني ذلك كثيرا جدًا ويسرها.

وهل يمكنك ـ من أجلها ـ أن تصوّر لي الفيلا بتاعتي في المعادي، بس عشان ناخد فكرة البيت حالته إيه؟

كما أرجو أن تكتب لي عن تفاصيل سفرك إلى موسكو ومشروعاتك الأخرى...

جلال

ـ٣ـ

لا بد أن أبي، أثناء كتابته لكتاب «حياتي»، وجد نفسه عندما وصل إلى نقطة في رواية سيرته الذاتية، مضطرًا لا محالة للكلام عن زواجه وعن علاقته بزوجته. إذ كيف يمكن أن تخلو أي سيرة ذاتية صادقة من الكلام عن المرأة والحب والزواج؟ ومن معرفتي لأبي، ومن قراءتي لما كتبه بالفعل في كتاب «حياتي» عن أمي وعن الحب والزواج، لا يعتريني أي شك في أنه لا بد أن تمنى لو لم يكن مضطرًا إلى الكلام عن هذا الموضوع برمته. إنه لم يتخلَ عما التزم به من ألا يقول غير الحقيقة، ولكنه أيضًا، كما نبهنا هو نفسه في مقدمة الكتاب، لم يذكر الحقيقة كلها. إنه لم يذكر مثلًا معاناته، في الفترة الأولى من زواجه على الأقل، من اكتشافه لدى رؤيته لزوجته لأول مرة بعد إتمام عقد القران، أنها ليست على مستوى عالٍ من الجمال. إني أعرف ذلك مما كتبه في يومياته التي كتبها في السنة الأولى التالية للزواج، واقتطفت أجزاء منها في كتابي (ماذا علمتني الحياة؟)، وقد كتب الجملة الخاصة بالجمال أو عدمه بالإنجليزية خوفًا من أن تطلع عليها زوجته، ومن ثَمَّ فإنه عندما جلس ليكتب بالعربية كتاب «حياتي» لم يذكر هذا الأمر بتاتًا بل اكتفى بقوله:

«قابلت زوجي فكنت كمن يفضّ غلاف (حلاوة البخت) أو كمشتري ورقة (اليانصيب)، حيث يقرأ جدول النمر الرابحة، وحمدت الله على ما وهب..» وهو قول غامض تعمّد أبي أن يكون كذلك. والحقيقة أني عندما أنظر إلى صور أمي



يوم الزواج: إلى اليمين هاني وليلى جرانة، ومن اليسار تشالز عم چان، ثم عمرو محيى الدين وزوجته ممدوحة(١٩٦٤)..

القديمة، وهى في أوائل عهدها بالزواج، أتعجب مما كتبه أبي في يومياته عن افتقارها للجمال، ولا أدري ما الذي كان يرجوه بالضبط. ولكن بصرف النظر عن الجمال أو عدمه، ذكر أبي في كتاب حياتي ثلاثة أسباب كانت تعكّر صفو زواجه، الأول تعود المسئولية فيه إليه وحده، والسببان الآخران يعودان إلى زوجته.

فهو من ناحية رجل «هادئ غير مرح، قليل الكلام، وقد تربت في بيت مرح مملوء بالضحك والبهجة، يكثر فيه الحديث في الفارغ والملآن، فظنت أني لا أقدرها أو أني نادم على الزواج منها. وأؤكد لها أن هذا طبعي كسبته من بيتي، فلم تصدق ولم تطمئن إلّا بعد طول العشرة، ووثوقها من أني كذلك مع غيرها لا معها وحدها.. (وأنا) رجل مدرس مضطر إلى تحضير دروسي في المساء لألقيها في الصباح، وفوق ذلك أحب القراءة في غير دروسي، فأنا فرح بتعلمي الإنجليزية، مشغول أول عهدي بالزواج بإنهاء ترجمة كتاب (مبادئ الفلسفة)، وزوجتي مثقفة ثقافة محدودة، تقرأ القصص والروايات الخفيفة من غير شغف..».

لا يلوم أبي إلّا نفسه على هذا «الهدوء وعدم المرح وقلة الكلام»، وكذلك على كثرة القراءة والكتابة، ولكنه يلوم أمي على أمريْن، الأول «افتقارها إلى المنطق»، والثاني طريقة معاملتها للخدم. وقد أبدى أبي في كلامه عن كلا الأمريْن درجة من الجرأة تزيد على المألوف في السير الذاتية العربية، ففيما يتعلق بالمنطق قال: «كنت من غفلتي أعتقد أن العقل هو وحده الوسيلة الطبيعية للتفاهم، فإن حدثت مشكلة احتكمنا إليه، وأدلى كل منا بحججه، فإما أقتنع وإما أُقنع، وإما أصرّ وإما أعدل، ولكني بعد تجارب طويلة رأيت أن العقل أسخف وسيلة للتفاهم مع أكثر من رأيت من السيدات.. تقول إن الأوفق أن نتصرف في هذا الأمر بكذا وكذا من الأسباب، فترد عليك بأقوال متأثرة بعواطف ساذجة..».

وأما الخدم فيقول أبي إن:

«مشكلتهم عندنا مدمنة وخاصة في الخادمات. فزوجي غضوب تريد أن تنفذ جميع أوامرها في دقة، والخادمة لا تعمل أو لا تستطيع أو تعاند، فيكون الغضب، أو تريد أن تعاملها معاملة السيد للعبد، وتأبى هي إلّا أن تعامل معاملة الند للند..

وزوجي غيور، فهي لا تحب بطبيعتها أن يكون للخادمة أية مسحة من جمال، فإذا كانت كذلك فالويل لها..».

والخلاصة التي ينتهي إليها أبي في وصف زواجه هي أنه «بعد أن عرفت زوجي أخلاقي وعرفت أخلاقها، وتكشفت لها ميولي وتكشفت لي ميولها، حدثت المصالحة والتفاهم فتنازلت عن بعض رغباتها لرغباتي، وتنازلت عن بعض رغباتي لرغباتها، فكانت عيشة هادئة سعيدة».

وأنا أعتقد أن أبي بوصفه لزواجه بأنه كان «هادئًا وسعيدًا» كان متساهلًا أكثر من اللازم، أو كان يريد إغلاق موضوع شائك بسرعة، تمامًا مثلما فعل في كلامه عن زواج أختي عندما وصف زواج كل منهما بأنه «يُعدّ بقدر الإمكان سعيدًا»، وكأنه يريد أن يقول إن الزواج، بصفة عامة، لا يمكن أن يجلب من السعادة أكثر من قدر محدود ظفر هو وأمي به، وكذلك ظفرت به كل من الأختين.

* * *

عندما أقارن زواجي بزواج أبي وأمي أو بزواج أي من شقيقتيَّ، أعتبر نفسي سعيد الحظ؛ فلا شك عندي في أني وزوجتي أقرب إلى التفاهم وأكثر اتفاقًا في الميول مما كان أبي وأمي، أو كانت كل من شقيقتيَّ وزوجها. كما أن زواجي لم يعان من أي سبب للتنغيص من الأسباب التي ذكرها أبي كمنغصات لزواجه؛ فلست قليل المرح والكلام مثله، ولا أنا مكبٌّ على القراءة والكتابة مثل انكبابه، ولا وجدت المنطق أسخف طريقة للتعامل مع زوجتي، ولا كانت زوجتي «غيورًا» بالدرجة التي وجدها أبي في أمي. كل هذا، فضلًا عن أني أستطيع أن أقول عن زوجتي كلامًا أفضل بكثير، ويسرها أكثر مما كان يسرّ أمي أن تعرف أن أبي وصف شعوره عندما رآها لأول مرة بأنه «حمد الله على ما وهب».

ومع كل هذا فإن زواجي عكّر صفوه، في السنوات الأولى من زواجنا، شيء آخر لا أعتقد أنه عكّر صفو زواج أبي وأمي، كما أنني أعترف بأني وحدي المسئول عنه.

أقصد بهذا شعورًا دفينًا لديَّ، تفتحت عيناي عليه منذ وعيت بوجود أي امرأة على الإطلاق، بأنني أفتقد أي سبب يمكن أن يجعلني جذّابًا في أعين النساء. شعور غريب

تمامًا بقدر ما هو ثقيل وممض، ولا أستطيع أن أجد سببًا عقلانيًّا له، بل لا بد أنه يعود إما إلى عامل وراثي بحت، وإما إلى ترتيبي بين أطفال العائلة، وإما إلى مقدار ما حظيت به (أو لم أحظَ به) من اهتمام أمي، وسط همومها العديدة مع هذا العدد الكبير من الأطفال، وقلة ما كانت تتمتع به من طمأنينة في علاقتها بوالدي، أو إلى قلة اختلاطي بأي نوع من النساء طوال فترة الطفولة والصبا والمراهقة، سواء في البيت أو في المدرسة أو الجامعة. كانت المرأة في نظري (وأظن أنها ظلت دائمًا كذلك) شيئًا غريبًا أو مخلوقًا مدهشًا، جميلًا وجذّابًا ولكن يستعصي على الفهم والاستحواذ. أيًّا كان السبب، فقد كانت هذه هي الحقيقة المرّة: اضطراب وتوتر طالما كنت في مجلس به امرأة، وعلى الأخص إذا كانت امرأة جميلة، وبالذات إذا كان من المحتمل، ولو نظريًّا، أن تتوقع مني هذه المرأة عملًا إيجابيًّا يعبر عن إعجاب بها أو تقدير لجمالها أو محاولة التقرب منها. قد أبدو في مثل هذه المواقف، سواء في نظر النساء الحاضرات أو الرجال، طبيعيًّا تمامًا، بل كثيرًا ما يدفعني خجلي واضطرابي إلى شحذ كل همتي في سبيل خلق انطباع إيجابي، خاصة في أعين النساء، وكثيرًا ما كنت أنجح في ذلك، ولكن هذا لا يغير من الأمر شيئًا. فشعوري قاطع لا يعتريه أي شك بأن هذه المرأة الجميلة أو تلك سوف ترى الحقيقة لا محالة، وراء كل محاولاتي للظهور بعكسها، ومن ثَمَّ لا يمكن أن أحظى في النهاية بذلك الإعجاب الذي أعلق عليه كل هذا القدر من الأهمية.

انعكس هذا الشعور بالطبع على علاقتي بزوجتي خلال السنوات الأولى من زواجنا؛ إذ كان لا بد أن ينتج عنه شعور مبالغ فيه ولا مبرر له بالغيرة الشديدة، كلما ثار بذهني احتمال أن رجلًا ما قد يبدو أفضل مني في نظرها. لا بد أن هذه المشكلة ترجع في الأساس إلى تكويني أنا النفسي. إن معظم الأوربيات لا يعانين من العقدة النفسية التي تكونت لدينا منذ الصغر حول العلاقة بين الذكور والإناث؛ بسبب تقاليدنا وقلة الاختلاط الذي تعرضنا له. الأوربيات أكثر جرأة بلا شك في التعامل مع الرجال، وأكثر تلقائية وأقل خجلًا، ويجدن من السهل أن يبادلن الرجال الحديث أو يشتركن معهم في عمل دون أن يتوقعن أن يفسر هذا أو ذاك تفسيرًا له علاقة بالجنس. لقد نشأت أنا وجيلي نشأة مختلفة، جعلتنا نسرع بإقحام الرغبة الجنسية في تفسير أي لقاء بين رجل وامرأة.



چان وطفلتنا الأولى دانية (١٩٦٨)



أربعة أجيال: چان ووالدتها وجدتها وابنتها دانية (١٩٦٨).

كانت زوجتي تحادث أصدقائي بحرية وتجادلهم، وتعبّر لي عن رأيها في كل منهم، فإذا بي أشعر ببعض الضيق؛ بسبب هذه العقدة الدفينة، إذا قالت إنها تعتبر هذا الصديق أو ذاك ظريفًا أو ذكيًا، وإن كنت لا أهتم كثيرًا إذا قالت إنها تستثقل دم صديق آخر أو لا تطيقه.

سئل أخي أحمد مرة عما إذا كانت هناك عيوب للزواج من أجنبية، قال: «عيب واحد فقط. لنفرضْ أنها سألتك في الصباح، وهى تعدّ طعام الإفطار (كم قطعة من التوست تريد؟)» وقلت لها: (اثنتان)، ثم شعرت بالرغبة في قطعة ثالثة بعد أن أكلتهما، ستقول لك: (ولماذا لم تقل ثلاثة من البداية؟) فإذا كنت قد طلبت قطعتيْن ولم تأكل إلّا واحدة، وبّختك أيضًا؛ لأنك تسببت في ضياع قطعة توست لم يأكلها أحد!

أظن أن هذه المشكلة تافهة جدًّا بالنسبة إلى مشكلتي، ولكن مشكلتي لحسن الحظ لم تستطع إفساد علاقتي بزوجتي لسبب بسيط يرجع الفضل فيه إلى كل منا. فأنا وهي، فيما أعتقد، شخصان عاقلان جدًّا. فهمت هي المشكلة وصبرت عليها، وكنت أنا، على أي حال قادرًا على استعادة رباطة الجأش وطرد ما يطرأ على ذهني بسرعة، يا ليتها كانت أكبر من ذلك! وعندما أعود الآن لتذكّر كم بددت من أوقات كان يمكن أن تكون سعيدة فلم تصبح كذلك، وكم أضعت من طاقة بسبب هذه المشاعر شديدة السخف والممعنة في لا عقلانيتها، يصيبني الذعر من حجم الخسارة.

صادفت أثناء قراءتي للسيرة الذاتية للفيلسوف الإنجليزي «إ. چيه. إيير» (A.J.Ayer)، الذي تكلمت عنه كثيرًا من قبل، فقرة طريفة تصف حالة مشابهة لحالتي، وهى ما كان هو يعاني منه في بداية شبابه. فيقول إنه كان على استعداد للشعور الشديد بالغيرة كلما بدر من حبيبته التي تزوجها فيما بعد، أي بادرة تدل على تقديرها أو إعجابها بأي رجل آخر، في أي وجه من الوجوه، حتى عندما لا يكون هناك أي سبب يبرر هذا الشعور بالغيرة. وكثيرًا ما كانت تصدر منه عبارات احتجاج وغضب تدل على ما كان يشعر به. ثم يضيف إلى ذلك العبارة الحكيمة الآتية:

«لم أكن قد أدركت بعد، أن كل هذا لا جدوى منه ولا طائل من ورائه، سواء كان هناك مبرر حقيقي للشعور بالغيرة أو لم يكن» (I could not keep myself from

making scenes. I had yet to realize that they are futile, whether one has (cause for jealousy or not).

-٤-

كنت في السابعة والخمسين من عمري، عندما ظهرت في حياتي فجأة الصديقة القديمة التي صادقتها طوال السنوات الثلاث الأولى من إقامتي بإنجلترا، وكان عمرها وقتها أقل قليلًا من الستين. فقد تلقيت دعوة من جامعة «بريهام يانج» (Brigham Young) في ولاية يوتا بالولايات المتحدة لقضاء أسبوع فيها، وإلقاء أربع محاضرات عن التنمية الاقتصادية في مصر والبلاد العربية وعن علاقة التنمية بالإسلام. كنت قد سمعت عن طائفة «المورمون» (Mormon) الدينية في أمريكا، الذين يشكلون غالبية سكان ولاية يوتا، وعن عقيدتهم وعاداتهم المختلفة عن عقيدة بقية الأمريكيين، كقبولهم، بل تحبيذهم لتعدد الزوجات، ومحافظتهم الشديدة على علاقات عائلية قوية، والتزامهم الصارم ببعض المبادئ الأخلاقية التي شاع التساهل فيها بين بقية المسيحيين. وقد تشوقت أن أراهم في ولايتهم الأساسية في أمريكا، وأن أرى بعيني كيف يطبقون هذه المبادئ في الواقع.

وكان قد أعجبني في الأستاذ الأمريكي الذي اتصل بي لتبليغي بالدعوة لزيارة يوتا، أثناء زيارته لمصر ـ وكان هو من هذه الطائفة ـ هدوؤه غير المألوف، وما بدا عليه من روحانية وسكينة لا ألاحظ مثلهما عادة فيمن أصادفه من أمريكيين أو أوربيين. قبلت الدعوة. ولما سمع صديق مصري لي، كان وقتها يعمل أستاذًا للعلوم السياسية بجامعة سولت ليك سيتي، بأني سأحضر إلى يوتا دعاني لقضاء يوم في مدينته وإلقاء محاضرة في جامعته. كان هذا في سنة ١٩٩٢، وكانت معلوماتي المستمدة من الخطابات تقول إن صديقتي القديمة لازالت تقيم مع زوجها في سولت ليك سيتي، لم تبرحها منذ جاءتها هي وزوجها منذ نحو ثلاثين عامًا. وكان لديَّ عنوانها ورقم تليفونها. فما إن وضعت حقائبي في الفندق حتى أخرجت رقم التليفون وأدرت الرقم.

كان الأمر مثيرًا للغاية. هل يعقل أن أتصور أن تكون هي، بلحمها ودمها، موجودة في نهاية هذا الخط التليفوني؟ وأن الأمر لا يتطلب أكثر من أن أدير بضعة أرقام لأسمع صوتها من جديد الذي لم أسمعه منذ ثلاثين عامًا، وأخبرها بأني لازلت حيًّا أرزق، وأنني على بعد خطوات قليلة من بيتها؟ ولكن، ما الذي أتصور أن من الممكن حدوثه، حتى بفرض أني وجدتها في نهاية هذا الخط التليفوني، بلحمها ودمها؟ لقد كانت شابة جميلة في الثلاثين فأصبحت في الستين، وهذا هو أيضًا ما حدث لي. أنجبنا الأولاد والبنات، وتزوج بعض أولادنا وأنجبوا، فماذا تتصور أن من الممكن أن تفعله؟ بل ربما الأهم من هذا وذاك ما حدث؛ بسبب تقدمنا في السن، لدرجة إقبالنا على الحياة ولفرح أحدنا بالآخر. مرت كل هذه الأسئلة بذهني ولكني بالطبع لم أحفل بها. كانت الرغبة لا تقاوم في المرور بهذه التجربة في إعادة الماضي من جديد ورؤية نفسي فيه مرة أخرى، والتعرف على ما طرأ بالضبط عليَّ أنا نفسي من تغيرات نتيجة لمرور كل هذه السنين، بأن ألاحظ التعبيرات وردود الفعل عند صديقتي القديمة.

وحدث هذا الشيء المدهش. دق جرس التليفون، وكان الصوت الذي رد عليَّ هو صوتها بالضبط الذي لا يمكن أن أخطئه. نفس النبرة ونفس الطريقة في الرد على التليفون، الكلمات الممطوطة وتلك المبتسرة، نفس العصبية والسرعة في الكلام، وبالطبع نفس ما توقعته من دهشة عظيمة عندما سمعت صوتي.

تقابلنا على الغذاء في اليوم التالي في أحد المطاعم. وكانت دهشتي أنا عظيمة بدوري، عندما وجدت أمامي نفس المرأة التي رأيتها في آخر مرة منذ ثلاثين عامًا. سرّني أن أجد أنها لم تتغير كثيرًا: جميلة كما كانت، وإن كنت قد استغربت أن أجدها صغيرة الحجم ونحيفة. قلت لنفسي إنها كانت دائمًا كذلك، فما الذي أتوقعه؟ كما رأيت آثارًا كانت تحاول إخفاءها لبعض الأسنان الصناعية التي اضطرت لاستخدامها في أعقاب حادث سيارة كنت أعرف أنه حدث لها هي وزوجها في إنجلترا، في السنة الأولى من زواجهما. فيما عدا هذا كانت كما هي بالضبط. أو هكذا بدت لي. ولكن لهفتي على هذه التجربة المثيرة لم تستمر أكثر من بضع دقائق، سرعان ما انقضت

واختفت التجربة المثيرة بنفس السرعة التي ظهرت بها. عندما حاولت تفسير هذه النهاية السريعة لم أجد الأمر صعبًا. إن نفس ما كان يضايقني منها عاد بسرعة إلى إحداث نفس الأثر. ها هي كما كانت دائمًا: ليست على سجيتها تمامًا، وما تقوله لا يثير إحساسًا بالصدق التام. ها هي نفس الطريقة القديمة في التهرب من البوح بما لا تريد البوح به، ونفس الأسلوب الملتوي في التعبير. فإذا أضفت إلى ذلك أن الرغبة الجنسية لم تكن بنفس قوتها القديمة، ولمسة اليد ونوع العطر الذي تستخدمه لم يعد أي منهما يحدث نفس الأثر القديم، فما الذي بقى ليثير الحماس؟



جلال وچان (حوالى ٢٠٠٦)

فهمت منها أنها انفصلت عن زوجها، وقدمت أسبابًا تلقى باللوم كله عليه، مما لم أصدقه بالطبع. وقالت إن أولادها قد كبروا فاستقل كل منهم بمسكنه، ولم يعودوا يزورونها إلّا لمامًا، وإنها تقيم الآن في بيت كبير بمفردها هي مالكته الوحيدة. دعتني لتناول الشاي في منزلها فقبلت، وقدمت لي شايًا فاخرًا في آنية ثمينة للغاية، وكان البيت نفسه مليئًا بالأثاث القديم الثمين، والسجاجيد الرائعة، فضلًا عن ضخامة

حجمه وكثرة عدد حجراته؛ مما لا بد أن يثير الخوف والوحشة في نفس امرأة تقيم فيه بمفردها. قلت لنفسي: ها هي قد نالت في النهاية ما كانت تحرص عليه: مال كثير وبحبوحة مادية، ولكن لم يبق معها أحد وانصرف عنها الجميع. صدرت مني عبارة أثناء تناولي الشاي معها، لم أتروّ كثيرًا قبل أن أقولها، وسرعان ما ندمت عليها بعد التفوه بها. قلت لها إني أشعر وكأن كل هذه السنوات التي انقضت منذ آخر لقاء لنا لم يكن لها وجود، وكأني لم أفارقها إلّا بالأمس فقط. لم تكن العبارة كاذبة ولكنها فهمتها بمعنى غير المعنى الذي قصدته، أو هكذا تظاهرتْ. كنت أقصد أنني بمجرد أن رأيتها وجلست معها لبضع دقائق تذكرت كل شيء، وعاد الماضي كله بحذافيره إلى ذهني. ولم أكن أقصد طبعًا أن الشعور القديم قد عاد، فقد كان هذا هو عكس ما حدث بالضبط. ولكني لم أتخلص بسهولة من أثر هذه العبارة التي تفوهت بها.

حاولت أنا أن تكون جلسة الشاي هذه هي آخر لقاء بيننا، ورفضت أي محاولة من جانبها لأن نلتقي مرة أخرى بعد العشاء الذي رتّبه لي صديقي المصري مع بعض أساتذة الجامعة. وفى الصباح سافرتُ إلى مدينة بروفو، حيث توجد جامعة بريهام يانج، فإذا بي أتلقى منها في كل ساعة مكالمة تليفونية تعرض عليَّ أن تأتي لزيارتي وقضاء الليلة معي. رفضت رفضًا باتًّا على الرغم من إلحاحها المستمر الذي ذكرني بدوره، بعنادها القديم وإصرارها على نيل ما تريد بأي ثمن؛ مما جعلني أكثر تصميمًا على الرفض. واضطررت في النهاية إلى التفوّه بعبارة جارحة تتضمن هذا المعنى، وهو أنها تذكرني الآن بنفس ما كان يسبب لي الضيق الشديد في الماضي. ومع هذا فلم تيأس ولم تتوقف عن المحاولة حتى آخر ليلة قضيتها في ولاية يوتا.

تنهدت الصعداء عندما وجدت الطائرة على وشك الإقلاع بي إلى خارج الولايات المتحدة. وانتهت هذه التجربة التي كنت متلهفًا على اجتيازها، وكانت نتيجتها أني فقدت إلى الأبد أي رغبة في أن أراها من جديد. وانقطعت هي بدورها بعد ذلك عن إرسال أي رسالة إليَّ.

عندما عدت إلى القاهرة سألتني ابنتي، وكانت تعرف هي وأمها، أن صديقتي القديمة تقيم في سولت ليك سيتي: «هل رأيتها؟». أجبتها بالإيجاب. وانزعجت ابنتي

بشدة، وذهبت وفقًا لعادتها في ألا تكتم أي شعور قوي قد تشعر به، وقالت لأمها دون تفكير: «هل تعرفين أن أبي رأى صديقته القديمة في سولت ليك سيتي؟». استاءت زوجتي من الخبر استياء شديدًا، وظلت متجهمة الوجه طول اليوم، حتى أكدت لها على نحو قاطع، ومن دون الدخول في أي تفاصيل أنني، وإن كنت قد تناولت الغذاء والشاي معها، فإنها لم تثر في نفسي أي مشاعر أحتاج إلى إخفائها؛ ومن ثَمَّ فليس هناك أي سبب يبرر أي شعور بالاستياء أو التجهم. وكنت في هذا صادقًا مائة في المائة. وفى الصباح التالي كان الأمر كله قد نسي نسيانًا تامًّا.

(١٢)

ماذا يحدث لنا في مصر؟

-١-

قال لي صديق ذهب إلى باريس في بعثة للدكتوراه في القانون، ثم عاد إلى مصر للتدريس في نفس كليتي (حقوق عين شمس)، إن أستاذه الفرنسي قال له في باريس عندما أتم دراسته للدكتوراه: «أنتم، أيها الطلبة المصريون، طلبة ممتازون وأذكياء، وذوو قدرة لاشك فيها على الابتكار. ولكن ما الذي يحدث لكم عندما تعودون إلى مصر؟».

سؤال في محله تمامًا. ما الذي يحدث لنا عندما نعود إلى مصر؟ إننا نبدو بعد عودتنا وكأن شعلة ذكائنا قد انطفأت وفقدنا القدرة على الابتكار: لا إضافة تذكر إلى العلم الذي درسناه في الخارج، ولا حتى تطبيق جيد لما تعلمناه هناك على الأحوال المصرية، بل نترك هذا أيضًا للأجانب. إن التفسيرات الممكنة لهذا التحول المدهش كثيرة: مصاعب الحياة اليومية، الاضطرار للتركيز على الأعمال المدرّة للدخل لتكملة رواتبنا الهزيلة مما يسمح لنا بمستوى المعيشة الذي نعتبره مناسبًا لطبقتنا الاجتماعية والشهادة العالية التي حصلنا عليها، إفساد السياسة للحياة الجامعية سواء بالإرهاب أو الإغراء، نظام الحياة العائلية والاجتماعية في مصر الذي يفرض التزامات لا نهاية لها تضيّع الوقت وتشتت الذهن. كل هذا صحيح، ولكن هناك تفسيرًا أبسط وأوضح، وهو أننا بمجرد أن نصل من الخارج ونلتحق بجامعاتنا لممارسة التدريس، نجد أن ما

يُطلب منا القيام به من أعباء التدريس يستوعب كل طاقتنا ولا يترك لنا أي وقت لأن نقوم بأي عمل علمي مبتكر.

لم ينقضِ وقت طويل على عودتي إلى مصر في ١٩٦٤ حتى تكشفت لي الحقيقة المؤسفة التالية، والتي لا زالت حتى اليوم كما كانت حينئذ: وهى أن الحياة اليومية في مصر تستنفد بشكل أو بآخر الكثير من طاقة المرء ووقته، فلا تترك له من الوقت ما يسمح بالقراءة وزيادة معارفه بالدرجة التي يطمح إليها. في إنجلترا كان الوقت المتاح يبدو كافيًا لأن يفعل المرء كل شيء، وأن يقرأ كل ما يريد قراءته، وفى مصر لا يبدو أن هناك وقتًا يسمح بعمل أي شيء على الإطلاق.

ولكن حتى لو عثر المرء على هذا الوقت، كانت واجبات التدريس وما يتطلبه من تحضير مستمر للمحاضرات، في السنوات الأولى بعد عودتي، كافية لملء وقتي كله. كنا نجد أنفسنا فجأة مطالبين بتدريس أشياء لم نقرأ فيها قط من قبل، أو قرأنا فيها أقل القليل، ولكن السفر المفاجئ لأحد الأساتذة في إعارة، بعد أن ظل يتكتم أمرها عامًا كاملًا خوفًا من ضياعها منه، أو القواعد البيروقراطية التي تحكم الجامعة في مصر وتمنع من الاستعانة بأستاذ من خارج الكلية لتدريس مادة ليس في الكلية من هو مؤهل لتدريسها... إلخ، كل هذه كانت أسبابًا كافية لتبرير قيامنا بتدريس مواد لا نعرف عنها إلّا القليل، وتحتاج منا إلى بذل جهود مضنية للاستعداد لتدريسها. هكذا انقضت السنوات الخمس التالية لوصولي إلى مصر في ١٩٦٤.

كنت طوال هذه المدة مدرسًا للاقتصاد في كلية الحقوق بجامعة عين شمس، ومنتدبًا أحيانًا للتدريس بضع ساعات في كلية الاقتصاد بجامعة القاهرة، ثم في الجامعة الأمريكية. كان قبولي للتدريس في الجامعة الأمريكية (في ١٩٦٧) إلى جانب كليتي الأساسية في عين شمس، دافعه الحصول على دخل يضاف إلى مرتبي الهزيل من عين شمس سبعة وثلاثين جنيهًا ونصف الجنيه في الشهر عندما بدأت التدريس (في ١٩٦٤)، فضلاً عن إغراء التدريس بالإنجليزية لفصول غير مكتظة بالتلاميذ، وإمكانية إحالتهم إلى مراجع في مكتبة الجامعة دون الاعتماد على كتاب واحد هو الكتاب الذي يؤلفه نفس الأستاذ الذي يدرس لهم، وهو ما كان القاعدة

السائدة في الجامعات المصرية. وأما التدريس في كلية الاقتصاد بجامعة القاهرة إلى جانب عين شمس، فكان الدافع إليه التمهيد لنقلى من كلية الحقوق، التي يعتبر فيها الاقتصاد مادة ثانوية، إلى كلية أنشئت أساسًا لتخريج اقتصاديين. فلم أستطع الرفض عندما طلب مني الدكتور زكى شافعي عميد كلية الاقتصاد وقتئذ، وهو أستاذي القديم، أن أدرس فيها في العاميْن التاليين لوصولي من البعثة، ووعدني بإتمام هذا النقل. فلما اضطر إلى النكوص عن وعده، تحت ضغط بعض الوزراء لتعيين شخص آخر بدلاً مني في الوظيفة الخالية، تركت كلية الاقتصاد ولم أعد إلى التدريس بها منذ ذلك الحين (١٩٦٦)، واقتصرت على حقوق عين شمس والانتداب من حين لآخر للجامعة الأمريكية.

يصعب عليَّ أن أصدّق أنني خلال تلك السنوات الخمس، قمت بتدريس ذلك العدد الكبير من مقررات الاقتصاد المختلفة أشد الاختلاف، وإعداد المحاضرات فيها كلها، مع أن بعضها كان جديدًا تمامًا عليَّ، وكل موضوع منها يتطلب، في أي بلد أوربي أو أمريكي، تخصصًا واستعدادًا طويلًا. وعندما أتذكر الآن ما كنت أفعله من الانتقال من كلية لأخرى لتدريس موضوعات لا تكاد أن تكون هناك صلة بينها، والسهر جزءًا كبيرًا من الليل لإنهاء الإعداد لهذه المحاضرة المستعصية أو تلك، ومحاولة الظهور أمام التلاميذ بمظهر الأستاذ المتمكن من علمه والقادر على الإجابة عن أي سؤال قد يخطر ببالهم أن يسألوه، أتعجب أشد العجب مما يتمتع به شاب في مطلع الثلاثينات من عمره من طاقة وقدرة على التحمل، فُقِدتْ الكثير منهما مع مرور الزمن.

ـ٢ـ

ذهبت للتدريس في كلية الاقتصاد، إلى جانب عملي الأصلي في كلية حقوق عين شمس، بمجرد انتهاء العطلة الصيفية، أي بعد أقل من خمسة أشهر من وصولي من إنجلترا؛ رضوخًا لإلحاح عميدها بأن أدرس مقررًا اسمه «اقتصاديات إفريقيا» لطلبة السنة الرابعة في تلك الكلية.

عندما قبلت هذا الطلب لم أكن أعرف شيئًا عن إفريقيا، التي كانت أحوالها تتغير بين يوم وآخر بما في ذلك أسماء دولها؛ إذ كانت هذه هي فترة حصول الدول الإفريقية، الواحدة بعد الأخرى، على استقلالها من بريطانيا أو فرنسا أو بلچيكا؛ تمهيدًا لخضوعها للولايات المتحدة. كان ما كتب عن الاقتصاد الإفريقي حتى ذلك الوقت شحيحًا للغاية، فرحت أبحث عن كتب عنه في أي مكان فلم أجد إلّا كلامًا سطحيًّا للغاية، فيه من السياسة أكثر بكثير مما فيه من الاقتصاد. كانت هذه التجربة في تدريس اقتصاديات إفريقيا من أقسى ما مرّ على من تجارب في التدريس، واستمرت نحو ثمانية أو تسعة أشهر كانت شهورًا من العذاب والقلق المستمريْن. لا زلت أذكر كيف كنت أسهر حتى الثانية بعد منتصف الليل، أنا وزوجتي، أمام خريطة كبيرة لإفريقيا، نحاول أن ندون عليها أهم المعلومات التي استطعنا جمعها عن كل دولة، بعد أن نحدد الاسم الحديث التي حصلت عليه الدولة بعد استقلالها منذ شهر أو شهريْن؛ خوفًا من أن يكون أحد التلاميذ قد عرف باسم الدولة الحديثة دون أن أعرفه أنا.

كان التلاميذ مجموعة ممتازة من أذكى الطلبة في مصر، جذبتهم هذه الكلية الجديدة وما أثير في نفوسهم من آمال بالمساهمة في تحقيق التنمية السريعة في مصر بمجرد تخرجهم. وأذكر يومًا، ربما كان من أسوأ أيام حياتي، ذكرت فيه أثناء المحاضرة أن من أهم صادرات دولة ما من الدول الإفريقية المطاط، وغاب عنى أن الظروف المناخية لهذه الدولة لا يمكن أن تسمح بذلك، وعبّر أحد التلاميذ عن استغرابه من هذه المعلومة، واكتشفت خطئي بعد رجوعي إلى البيت. وظللت ليلتها غير قادر على النوم، أفكر في خطئي الشنيع، وفى طريقة لتصحيحه في المحاضرة التالية دون الوقوع في فضيحة أكبر.

ولكن محنتي في حقوق عين شمس لم تكن أقل كثيرًا من محنتي في كلية الاقتصاد. فبمجرد وصولي إلى عين شمس أحطت علمًا بأن حكومة الثورة قد أدخلت مقررات جديدة فرضت تدريسها على الطلبة كافة في جميع الكليات لتوعيتهم بأسس النظام الجديد، وهى مادة «المجتمع العربي»، وتدرس في السنة الأولى في كليات الحقوق،

ومادة «التعاون» وتدرس في السنة الثانية، ومادة «الاشتراكية» وتدرس في السنة الثالثة. وأن عليَّ أن أدرس المقررَيْن الأخيرَيْن (التعاون والاشتراكية).

كانت هذه هي طريقة حكومة الثورة في نشر «الوعي» بمبادئها: أن تحوّل كل مبدأ تؤمن به إلى مقرر إجباري يدرسه أساتذة لا يهتم أغلبهم بالأمر في قليل أو كثير، اللهم إلّا فيما إذا كان سيزيد دخلهم من الكتب، كما يمتحن فيه طلبة يعتبرون الأمر كله ثقيلًا على النفس، وزيادة لا مبرر لها في أعباء المذاكرة وشروط النجاح. كان المتوقع أن يقوم بتدريس مادتي الاشتراكية والتعاون في أول عام يقرر فيه تدريسهما، وهو نفس العام الذي بدأت فيه التدريس في كلية الحقوق، الدكتور حلمي مراد، وهو أستاذ ورجل عظيم كان أيضًا رئيس قسم الاقتصاد عند وصولي. ولكن حلمي مراد عُيِّنَ فجأة قبل بدء الدراسة بشهر أو شهريْن، وكيلًا لجامعة القاهرة، وكان هذا المنصب في ذلك الوقت (١٩٦٦) لازال يعتبر منصبًا مرموقًا يختار له عادة أفاضل الناس، وكان حلمي مراد فضلًا عن ذلك معروفًا بتعاطفه مع مبادئ الثورة. لم يبق في الكلية، إذن، ممن يمكن أن يدرس مادتي الاشتراكية والتعاون غيري، أو هكذا اعتقد العميد ورئيس القسم الجديد (د. زكريا نصر). أما الاشتراكية فقد قبلت تدريسها بسرور، وأما التعاون فقبلت تدريسه صاغرًا؛ إذ لم أتصور كيف يمكن أن يحاضر أي شخص ساعة في كل أسبوع، لمدة ثمانية أشهر كاملة، في موضوع تكفيه محاضرتان أو ثلاث على الأكثر لقول كل ما يمكن قوله عنه.

قرأت كتاب التعاون الذي كتبه د. حلمي مراد، وهو يقع في نحو مائتي صفحة، فلم أصدق كيف يمكن لي أو لغيري أن يقف أمام ثمانمائة من الطلاب ليشرح لهم مثلًا الشروط التي يتطلب القانون توفرها لتكوين جمعية تعاونية لصائدي الأسماك، وما إذا كانت موافقة الوزير المختص ضرورية أو تكفى موافقة وكيل الوزارة... إلخ. من الممكن أن يشرح الأستاذ للتلاميذ مثلًا كيف نشأت فكرة النظام التعاوني تاريخيًّا، والفروق القائمة بينه وبين النظام الرأسمالي والاشتراكي، ولكن هذا لن يستغرق أكثر من محاضرتيْن أو ثلاث، فماذا عساي أن أقول عن التعاون في أكثر من ثلاثين محاضرة؟

قال لي أخي الأكبر عندما رآني مهمومًا، وقد استعظمت المصيبة التي حلّت بي: «ما عليك إلّا أن تقرأ بضع صفحات في كتاب الأستاذ السابق عن التعاون، وتخبر التلاميذ بما فيها في الصباح. فهكذا يفعل الجميع»، وحاولت عبثًا أن أشرح له ما في الكتاب من تفاصيل تافهة لا يمكن أن أقولها للتلاميذ، ناهيك عن تجمع بهذا الحجم من الطلبة غير المبالين أصلًا بما يسمعون، فإذا بدر من الأستاذ أي شيء يدل على التردد أو عدم الثقة بما يقول، فإنهم إما أن ينفجروا بالضحك وإما أن ينصرفوا من المدرج ولا يعودون بعد ذلك.

جريت إلى المكتبات أجمع ما يمكن أن أجده عن «التعاون»، فقرأت كتاب «روبرت أوين» (R. Owen) «نظرة جديدة إلى المجتمع» (A New View of Society) وقرأت عن «فورييه» (Fourier) في كتب تاريخ الاشتراكية، ثم عثرت على كتاب «كول» (G. D. H. Cole) عن تاريخ فكرة التعاون بمختلف أنواعه، وقرأت ما بدأ يظهر بكثرة في مصر من كتب بالعربية عن النظام التعاوني، إذ حاول بعض أساتذة الجامعات الظهور بمظهر المتخصصين في موضوع التعاون، فأخذوا يصدرون الكتب ويكتبون مقالات في الصحف في هذا الموضوع دون غيره؛ ظنًّا منهم أن التعاون قد أصبح هو أيديولوجية الدولة. ثم ظهر أنه لم يكن أكثر من محاولة من جانب حكومة الثورة لتمييز نظامها عن غيره، وأقنعها البعض بأن التعاون هو وسيلة هذا التميز. ولم يدم الأمر أكثر من خمس سنوات على الأكثر، فبصدور القوانين الاشتراكية في ١٩٦١، نسيت الحكومة موضوع التعاون بتاتًا، وإن كان قد تأخر إلغاء تدريسه في الجامعات نحو عشر سنوات.

قرأت، إذن، ما استطعت قراءته عن التعاون، وكتبت نحو عشرين أو ثلاثين صفحة بعنوان «النظام التعاوني بين الرأسمالية والاشتراكية». وحيث إني لم أتصوّر كيف يمكنني أن أحافظ على النظام في محاضرة عن موضوع لا أومن أصلاً بأنه يستحق إلقاء محاضرة فيه، ومن ثَمَّ فليس لديَّ حماس خاص للكلام عنه، والطلبة يعرفون على أي حال أن الموضوع مقرر عليهم بناء على أمر من قيادة الثورة، وليس من الأشياء التي يحتاجون إليها في حياتهم ليمارسوا حياتهم كقانونيين في المستقبل، قررت أن أملي

عليهم العشرين أو الثلاثين صفحة التي كتبتها عن التعاون، وأنهي بذلك الأمر، وأن أخطر إدارة الكلية أن هذا أقصى ما يمكنني قوله عن التعاون، وأن عليهم إما إيقاف المحاضرات عند هذا الحد وإما العثور على غيري للقيام بإكمالها. وقد فعلت ذلك بالضبط. مرت محاضرات الإملاء بسلام بوجه عام، وإن كان الطلاب قد انفجروا بالضحك، ومعهم الحق تمامًا، عندما بلغت جملة أعبر فيها عن رد روبرت أوين على بعض خصومه فبدأت الجملة على النحو التالي: «ورد أوين على ذلك مستغربًا»؛ إذ لم أكن قد تعلمت بعد أن عليَّ أن أتجنب مثل هذه التعبيرات في محاضرة تملى على هذا العدد الكبير من الطلاب. فيما عدا موقفًا أو موقفيْن من هذا النوع، أنهيت محاضراتي بالحد الأدنى من الخسائر، وأخبرت إدارة الكلية بما اعتزمته. واستغرب العميد ورئيس القسم والدكتور حلمي مراد نفسه، هذا القرار من جانبي وهذا التصميم، واستهجنوا على الأخص أني قلت للطلاب في ختام محاضراتي إن «هذا هو أقصى ما لديَّ قوله عن موضوع التعاون، ويمكنكم أن تعتبروا المقرر منتهيًا، وإن ما أمليته عليكم هو كل ما أنتم مسئولون عنه في الامتحان». ضجّت القاعة بالتصفيق بالطبع؛ ابتهاجًا بانتهاء مقرر كامل بهذه السرعة، ولكني سرعان ما تبينت درجة سذاجتي عندما اتصل بي رئيس القسم تليفونيًّا في المساء وسألني منزعجًا: «ما هذا الذي صنعته؟».
تبيّن لي أن اختصار مقرر كامل حدد له في الجدول ثلاثون محاضرة أو أكثر، في هذا العدد القليل من المحاضرات، لمجرد أن الموضوع لا يستحق من الاهتمام أكثر من هذا، أمر غير جائز وغير مسموح به بتاتًا. والأسباب كثيرة وخطيرة. السبب الأول أن تدريس «التعاون» أمر من أوامر الدولة العليا، والدولة لا تنفع معها حجج من هذا النوع. والثاني أن جدول المحاضرات لا بد أن يُملأ، فإذا انقطعت محاضرات التعاون فما الذي يحلّ محلها؟ ولكن السبب الأخطر من هذا وذاك، كما تبين لي بعد قليل، أن المحور الذي تدور حوله الكلية بأسرها، ويحكم أهم قرارات تتخذ فيها، من العميد إلى أصغر مدرس، هو حجم الدخل الذي يحصل عليه الأساتذة في النهاية من تدريس هذا المقرر أو ذاك، وهذا الدخل يتوقف في الأساس على الإيراد من الكتب المقررة، والتي يجد التلاميذ أنفسهم مجبرين على شرائها إذا أرادوا النجاح في الامتحان، بصرف النظر عن قيمة الكتاب الحقيقية. و«التعاون» صدر فيه كتاب

لأحد أساتذة الكلية قبل تعيينه وكيلًا لجامعة القاهرة، وتم بالفعل طبعه بكميات كبيرة على أساس أنه هو المقرر على التلاميذ في هذا العام. صحيح أن الكتاب صغير (لا يتجاوز مائتي صفحة) وسعره بسيط؛ إذ إن مؤلفه كان أستاذًا نادر المثال لا يهتم بالمال كثيرًا، ولكن الناشر لا يمكنه أن يسكت على هذا العمل الذي ارتكبه مدرس صغير جاء حديثًا من إنجلترا، ولا يعرف شيئًا عن نظام الكلية. هاج الناشر وثار، واتصل بالأستاذ مؤلف كتاب التعاون بمجرد أن سمع بخبر توقفي عن التدريس؛ إذ إن معنى هذا ألّا يجد التلاميذ أي ضرورة لشراء الكتاب، كما اتصل بالعميد ورئيس القسم، فاجتمعوا جميعًا عليَّ وأصروا على ضرورة عودتي لإلقاء المحاضرات عن التعاون من جديد.

رفضت رفضًا باتًّا؛ إذ كيف يمكن لي أن أواجه التلاميذ بعد هذا؟ ومزيد من الكلام في التعاون أصبح في فمي كالعلقم الذي لا يمكن استساغته. انتهى الأمر بأن لجأ العميد إلى مدرس اقتصاد آخر أكثر استعدادًا «للتعاون»، واضطر المدرس المسكين أن يستمر في إلقاء المحاضرات عن مزايا التعاون وضرورته لمدة ستة أشهر أخرى، وأجبر الطلاب على قبوله، وإن كنت قد صممت في نهاية العام، عندما حلّ وقت وضع الامتحان، أن يوضع امتحان التعاون على نحو يسمح بالنجاح لمن لم يستذكر أكثر مما ألقيته من محاضرات؛ تنفيذًا للوعد الذي قطعته على نفسي أمام التلاميذ. ونجحت في تنفيذ هذا الوعد.

* * *

كانت لمقرر الاشتراكية قصة أخرى. فقد قبلت تدريسها بصدر رحب. إذ فضلًا عن إيماني بفكرتها وضرورتها لمصر، فقد بدا لي من السهل أن أعد محاضرات عنها لمدة عام دراسي كامل؛ إذ إن هناك الكثير مما يمكن أن يقال فيها. وكنت على أي حال قد درست الماركسية دراسة متعمقة في الشهور الأولى من دراستي بإنجلترا؛ حيث تركني الأستاذ روبنز أقرأ خلالها كما أشاء قبل أن أبدأ العمل جديًّا للماجستير، وكنت قد قرأت الكثير قبل ذلك عن المادية الجدلية والتاريخية. ومع ذلك فعندما جلست لأكتب بالفعل وجدت الأمر أصعب بكثير مما ظننت. كانت كتابة الجزء

الخاص بالماركسية أمرًا سهلًا عليَّ، ولكن الاشتراكية ليست هي الماركسية فقط، والمطلوب أيضًا كتابة جزء عن تطبيق الاشتراكية في مصر وما كان النظام المصري يسميه حينئذ بـ«حتمية الحل الاشتراكي»، وهو ما لم أكن أعترض عليه ولكنه كان يحتاج إلى دراسة لجوانب مختلفة للاقتصاد المصري لم يسمح لي بها تخصصي في مشاكل «الغذاء» أثناء دراستي للدكتوراه، ولا تسمح لي بها أعباء التدريس الملقاة عليَّ الآن في مصر. دفعني ذلك إلى الموافقة على عرض قدّمه لي أستاذ في كلية الحقوق بجامعة القاهرة، كان أيضًا يدرّس مادة الاشتراكية، بأن نشترك معًا في تأليف الكتاب على أن تقع الماركسية في الجزء الخاص بي. سهّل هذا الأمر كثيرًا عليَّ، ولكنه خلق مشاكل من نوع آخر. فالفصول التي كتبها الأستاذ بدت لي فصولًا ضعيفة للغاية، يسيء إليَّ اقتران اسمي بها على أي نحو. والأستاذ يريد أن يسمى الكتاب «الاشتراكية العربية»، كخطوة من جانبه للتقرب إلى النظام، وأنا أريد أن أسميه «مقدمة إلى الاشتراكية مع دراسة لتطبيقاتها في مصر». وقد كسبت أنا هذه المعركة ولكنها أدت إلى انفصالنا في العام التالي، واحتفظ كل منا بالعنوان الذي يفضله. ومع ذلك فقد ظهر كتابي أنا هزيلًا بدوره، ولم يكن من بين فصوله ما يستحق النشر أصلًا غير تلك المتعلقة بالماركسية.

ظهر كتابي في ١٩٦٥ بعنوان «مقدمة إلى الاشتراكية»، فلم يعجب الماركسيين الذين كانوا قد أطلق سراحهم لتوهم من السجن بعد تحسن علاقة عبد الناصر بالسوڤيت؛ واستلموا منذ ١٩٦٤ مسئوليات كبيرة في توجيه الحياة الثقافية والإعلامية في مصر؛ وذلك بسبب انتقادي الشديد للفلسفة الماركسية وبعض نظريات الاقتصاد الماركسي. ولكن الكتاب لم يعجب أيضًا المسئولين عن تدريس هذه المقررات في الجامعات (التي كانت تسمى مقررات قومية)؛ بسبب تعاطفي أكثر من اللازم مع المادية التاريخية من ناحية، وانتقادي لتسمية ما يطبق في مصر من إجراءات اشتراكية بـ«الاشتراكية العربية»؛ إذ لم أجد سمات خاصة فيما نفعله في مصر تبرر الزعم بأننا جئنا بنظرية جديدة أو مذهب جديد في الاشتراكية. وأذكر أن رئيس جامعة عين شمس استدعاني لمكتبه في ١٩٦٦ ليحاول أن يجعلني أسقط من كتابي عبارات النقد التي وجهتها لهذه التسمية، وإن كان قد كلمني بلطف ولم يصرّ على موقفه. كما أذكر أن

رفعت المحجوب، الذي كان يرأس لجنة مسئولة عن تدريس هذه المقررات وجّه إليَّ النقد لأني قلت أشياء في كتابي تنطوي على السخرية من الاشتراكيين السابقين على ماركس. ولم يؤد هذا التدخل ولا ذاك إلى أي نتيجة، فقد أبقيت كتابي كما هو دون إجراء التعديلات المطلوبة.

-٣-

عندما أستعيد في ذهني ذكرى تلك السنوات الخمس الأولى لي في مصر بعد عودتي من إنجلترا، أجد أن أهم ما سيطر عليَّ في تلك الفترة هو التدريس. كانت مهمة التدريس في حد ذاتها تحديًا اعتبرت أن النجاح فيه يكاد أن يكون مسألة حياة أو موت. لم تكن مهمة بسيطة أبدًا أن أواجه ثمانمائة أو ألفًا من الطلاب في مدرج واسع، وأنا واقف على المنصة مرتديًا روب الكلية، والسيطرة عليهم لمدة خمسين دقيقة. كان مما يسهّل المهمة بعض الشيء أن أكون متحمسًا لسبب أو لآخر للموضوع الذي أحاضر فيه، كأن يكون لي رأي خاص أريد أن أدافع عنه، أو أن يدور الموضوع حول مشاكل منطقية ليس من السهل على التلاميذ إدراكها دون شرح. كان الشرط الأول متوفرًا في كثير من محاضراتي عن الاشتراكية وخاصة عن الماركسية، سواء كنت أتكلم عن نواحي قوتها أو ضعفها. وكان الشرط الثاني متوفرًا دائمًا في محاضراتي عن النظرية الاقتصادية، خاصة ما تعلق منها باقتصاديات المشروع؛ إذ إنها كانت منطقًا صرفًا من السهل الاستغراق فيه وإثارة اهتمام الطلاب بحل مشاكله. ولكني كنت أجد صعوبة دائمًا في إثارة اهتمام الطلاب بالكلام عن مشاكل تطبيقية وعملية؛ إذ إني نادرًا ما كنت أهتم بمثل هذه المشاكل، ومن المستحيل أن تثير حماس شخص لشيء لا تشعر أنت بالحماس له. كانت كل محاضرة، إذن، تمثل تحديًا لي، أقلق بسببها قلقًا حقيقيًّا في اليوم السابق عليها، ويستمر هذا القلق حتى أنتهي من إلقائها، وأشعر بعدها بسرور غامر إذا اعتبرتها محاضرة ناجحة. ويستمر هذا السرور حتى أبدأ في التحضير للمحاضرة التالية، فيعتريني القلق الشديد من جديد.

«أثمرت» هذه السنوات الخمس كتابيْن في النظرية الاقتصادية، أحدهما في النظرية

«الجزئية» (micro)، والآخر في النظرية «الكلية» أو الكينزية (macro)، كتبتهما لمجرد أن هذا هو النظام المتبع: يكتب الأستاذ ما ينوي قوله في المحاضرات، ويذاكر الطلبة هذه الكتب إذ إن الامتحان لن يخرج عنها، وليس هناك ـ على أي حال ـ مكان في مكتبة الكلية يتسع لآلاف الطلاب إذا افترضنا أنهم أرادوا قراءة كتب أخرى.

كان الكتابان لا بأس بهما (مبادئ التحليل الاقتصادي) و(الاقتصاد القومي)، ولكنهما ليسا في نهاية الأمر إلّا كتابيْن مدرسييْن، يشرحان ما ورد في كتب أخرى دون إضافة تذكر (فيما عدا طريقة الشرح وترتيب الموضوعات). وهذا هو ما يدفعني إلى وصف هذه الفترة «بالعقيمة»، إذ لا أذكر أني كتبت خلالها شيئًا مبتكرًا بمعنى الكلمة. خلال هذه الفترة نُشرت لي رسالة الماجستير بعنوان (دراسة في النظريات الحديثة في الربح) في عدديْن من أعداد مجلة كلية الحقوق، وهي بحث جيد، ولكنها كانت قد كتبت في إنجلترا لا في مصر، وكالعادة لم أسمع عنها تعليقًا من أحد، لا من زملائي ولا من أساتذتي؛ إذ إن الجميع كانوا مشغولين، مثلما كنت مشغولًا، بالتدريس وكتابة كتب مدرسية.

لم يخطر ببالي قط لا حينئذ ولا فيما بعد، أن سوء حال الأساتذة المصريين والجامعات المصرية، وجدبهم الأكاديمي، على النحو الذي وصفته، يعود إلى عيب فيهم أو في المصريين بوجه عام. وإنما المسئولية تقع، كما قال الأستاذ الفرنسي الذي اقتطفت كلامه في بداية هذا الفصل، على الظروف التي يعملون فيها. هذه الظروف الاجتماعية والسياسية التي تحيط بالبلد ككل، كان لدينا أمل كبير في السنوات الأولى للثورة في أن تتغير إلى الأفضل، وكانت لدينا أسباب وجيهة جدًّا لهذا الأمل، ولكن يبدو أن وقت رجوعي من البعثة (١٩٦٤) كان هو بداية تغير الظروف إلى الأسوأ، وانحسار الآمال في الجامعة كما انحسرت في خارج الجامعة.

لازلت أذكر أنه أثناء ارتفاع درجة الحيوية في نظام الحكم في أوائل الستينات، حاولت الحكومة أن تدخل تغييرات جوهرية على الجامعات إلى درجة العدول عن نظام قبول أعداد غفيرة من الطلاب في كل عام، على أمل أن يؤدى تخفيض عدد الطلاب إلى رفع مستوى التدريس بالجامعة، فضلاً عن النهوض بالتعليم الفني

والمتوسط. وكان لا بد أن يؤدى هذا أيضًا بالضرورة إلى اختفاء ظاهرة الكتب الجامعية (إذ لا تصبح كتابتها مصدرًا للربح)، ومن ثَمَّ عودة الحيوية إلى المكتبة، واضطرار الطلبة إلى قراءة أكثر من كتاب في موضوعات دراستهم... إلخ. ولكن هذا القرار، وإن كان قد اتخذ بالفعل وطبق لمدة عام أو عاميْن، أطاح به تدهور الظروف السياسية على أثر هزيمة ١٩٦٧، وأصبح الشغل الشاغل للنظام محاولة كسب رضا الناس بأي وسيلة، والقضاء على أي سبب آخر للتذمر (يضاف إلى الهزيمة العسكرية)، ولو كان ذلك على حساب الإصلاح الحقيقي، ومن ذلك إصلاح الجامعة. فقبول الأعداد الغفيرة من الطلاب في كل عام يرضي مطامح الأسر المصرية في أن تجد لأبنائها مكانًا في الجامعة، بصرف النظر عن نوع التعليم الذي يتلقونه، وعما إذا كانوا سيجدون وظائف مجزية عند تخرجهم.

استمر، إذن، عزوف أساتذة الجامعات عن القيام بأي بحث جدي، وحتى إذا أتيحت لأحدهم مثل هذه الفرصة، بأن يدعى لكتابة بحث لمؤتمر يعقد في الخارج، وضع النظام القائم عقبات عديدة في وجهه تؤدي بالأستاذ إلى صرف النظر عن انتهاز هذه الفرصة، أو تثير سخطه إلى درجة كراهية الأمر برمته، أو تضيع وقته حتى لا يبقى لديه من الوقت ما يسمح له بالتفكير في البحث أو كتابته.

أذكر أني في أوائل ١٩٦٩ دعيت للاشتراك في مؤتمر في دار السلام (عاصمة تنزانيا) موضوعه «تدريس علم الاقتصاد في إفريقيا»، وفرحت بالدعوة حتى أرى إفريقيا لأول مرة، وأشترك في مناقشة موضوع مهم كان لديّ فيه بعض الأفكار التي أحب التعبير عنها. وقد سافرت بالفعل وحضرت المؤتمر، ولكني كتبت في مفكرتي بيانًا تفصيليًّا بما يجب على أي أستاذ جامعي اتخاذه من خطوات إذا دعي للاشتراك في مؤتمر بالخارج؛ إذ تبين لي أنها ١٧ خطوة، تتركه في النهاية منهارًا ومنهك القوى، ليس لديه أي طاقة باقية للتفكير في كتابة بحث أو في غيره. هذا هو ما كتبته في مارس ١٩٦٩، ويظهر أني كنت أنوي أن أرسله في خطاب لأحد المسئولين ولكني لم أفعل:

«أستاذ مصري في الجامعة، مدعوّ لحضور مؤتمر في دولة أجنبية لا تزيد مدته

عن أربعة أيام، وتتحمل الدولة الأجنبية نفقات سفره وإقامته، ولا تتحمل الحكومة أو الجامعة المصرية من ذلك مليمًا واحدًا، وموضوع المؤتمر علمي بحت، لا علاقة له بالسياسة، ويفيد حضوره الأستاذ المدعو وطلبته بعد عودته، ويقوي الروابط الثقافية بين مصر والبلاد الأخرى، وإذا كان بحث الأستاذ المصري جيدًا أفاد سمعة مصر العلمية في الخارج.

تصوّر أن على هذا الأستاذ، لكي يتمكن من حضور هذا المؤتمر، اتباع الإجراءات الآتية:

ـ تقديم طلب بالسفر إلى عميد الكلية.

ـ يعرض الطلب على العميد للموافقة على عرضه على مجلس الكلية.

ـ يجتمع مجلس الكلية للنظر في الطلب.

ـ إذا وافق مجلس الكلية يملأ الأستاذ «استمارة أمن» عليها صورتان للأستاذ.

ـ تعرض استمارة الأمن على العميد لإمضائها.

ـ تحرر الكلية خطابًا إلى أمين الجامعة؛ للنظر في الطلب، مرفق به استمارة الأمن وموافقة مجلس الكلية.

ـ يرسل أمين الجامعة خطابًا إلى إدارة أمن التعليم العالي للنظر في موافقته على سفر الأستاذ إلى المؤتمر. وخطابًا آخر إلى إدارة المعاهدات والمؤتمرات الدولية بوزارة الخارجية لإبداء رأيها.

ـ يبحث مكتب الأمن ما إذا كان الأستاذ ممنوعًا أو غير ممنوع من السفر، فإذا وجده غير ممنوع أرسل موافقته إلى إدارة العلاقات الثقافية بالجامعة.

ـ إذا وافقت إدارة المعاهدات أرسلت خطابًا إلى إدارة العلاقات الثقافية بالجامعة بالبريد.

ـ إذا وصلت الموافقات، تحرر إدارة العلاقات الثقافية بالجامعة مذكرة للعرض على مدير الجامعة، تشرح فيها الموضوع وتطلب منه الموافقة على عرض الموضوع

على لجنة المؤتمرات في الجامعة، وهى مشكّلة من ١٠ أعضاء كل منهم أستاذ في كلية من كليات الجامعة.

ـ إذا وافق مدير الجامعة على ذلك، أخذ أحد السعاة الورق ومرَّ به على كل أستاذ في بيته أو في كليته للإمضاء. فإذا تجمعت لديه ستة إمضاءات على الأقل ذهب بها إلى إدارة العلاقات الثقافية بالجامعة.

ـ تعرض إدارة العلاقات على مدير الجامعة مذكرة للموافقة على إرسال خطاب إلى مكتب وزير التعليم العالي بشأن هذا السفر.

ـ إذا وافق مدير الجامعة على ذلك حررت إدارة العلاقات الثقافية خطابًا إلى وزير التعليم العالي.

ـ يصل الخطاب إلى مدير مكتب وزير التعليم فيعرضه على الوزير للموافقة.

ـ إذا وافق وزير التعليم العالي، حرر مكتبه خطابًا إلى إدارة الجوازات تسمح فيه للأستاذ بالحصول على تأشيرة خروج.

ـ يقدم الأستاذ طلبًا إلى إدارة الجوازات للحصول على تأشيرة، فيبحث ما إذا كان الأستاذ ممنوعًا من السفر. ويعطى التأشيرة وعليها شرط أن يكون السفر على طائرة شركة الطيران العربية المتحدة. إذا حصل الأستاذ على التأشيرة وكان اليأس لم يستبد به بعد، ولم يكن قد قرر أن راحة باله أفضل له من السفر لمدة أربعة أيام، وأهم من ذلك إذا كان المؤتمر لم ينتهِ بعد، ذهب لحجز مكان في الطائرة. ولكن حيث إن الحكومة الأجنبية هي التي تدفع نفقات السفر، فالعادة أن السفر يكون على شركة طيران غير عربية، ومن ثَمَّ عليه أن يأخذ خطابًا من شركة الطيران الأجنبية موجّهًا إلى إدارة الجوازات، يذكر فيها أن السفر هو على شركة غير مصرية وأن هذه الشركة لن تطالب الحكومة بتحويل ثمن التذكرة إلى أي عملة أجنبية.

ـ يأخذ الأستاذ الخطاب إلى إدارة الجوازات فتقوم الإدارة بشطب عبارة (ط.ب) أي اشتراط السفر على شركة الطيران العربية.

ـ إذا حدث وسافر الأستاذ على الرغم من كل ذلك، فهل نستغرب أنه يكون قد

نسى تحضير بحثه؟ ربما قال: سأكتب البحث في الطائرة. ولكن مهما كانت عبقرية الأستاذ، فإن البحث سيكون مرتجلًا متعجلًا لن يفيد لا سمعة الأستاذ، ولا سمعة مصر العلمية. والسبب هو السبعة عشر إجراء التي سبق بيانها.

رجاء التفضل بالعلم».

* * *

على أن قصتي المفضلة للتدليل على نوع المناخ العام الذي كنا نعيشه في النصف الثاني من الستينات، والدولة البوليسية التي سادت مصر في ذلك الوقت فكتمت أنفاس المثقفين وأساتذة الجامعات، هي قصة محاولتي الحصول على تأشيرة خروج لحضور مؤتمر في جامعة لندن في سبتمبر ١٩٦٦ لمناقشة تطور مصر منذ ١٩٥٢؛ حيث طلب مني إعداد بحث عن تطور مصر الاقتصادي في هذه الفترة. لقد وصفت ببعض التفصيل هذه الواقعة والصعوبات التي عانيتها من أجل الحصول على تصريح بالسفر وأثرها البالغ في نفسي لعدة أشهر، ثم استمر معي حتى بعد انتهائها، في كتابي (ماذا علمتني الحياة؟)، ولكني عثرت بعد ذلك على بضع صفحات كتبتها في مفكرتي، وتتضمن ما حدث لي بشأن هذه التأشيرة، يومًا بيوم، منذ تلقيت الدعوة لحضور المؤتمر في ٤ إبريل ١٩٦٦ وحتى يوم سفري في ٢ سبتمبر، أي طوال ٥ أشهر كاملة. وسأوردها هنا كاملة إذ إنها تتضمن، فيما أظن، ما يعبر عن بعض الجوانب المهمة في حياة المصريين في تلك الأيام:

«٤ إبريل ١٩٦٦: خطاب يحمل دعوة لي من مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية بجامعة لندن، بالاشتراك في مؤتمر يعقد عن مصر بين ١٤-١٦ سبتمبر ٦٦ في لندن، بإلقاء كلمة عن تطور مصر الاقتصادي منذ ١٩٥٢. على أن تصلهم الورقة أو ملخص لها قبل ٣١ يولية.

٦ إبريل: خطاب مني بالموافقة، على الرغم من احتمال تعذر الحصول على فيزا.

٢٠ إبريل: ذكْري الأمر لخالد محيي الدين ووعده بأن يفعل كل ما يستطيع لكي يسهّل سفري، وتأكيده بأني سأسافر، خاصة وأنه مدعو لنفس المؤتمر للاشتراك في المناقشات.

٢١ إبريل: تقديمي طلبًا للكلية بالموافقة على سفري.

٢٣ إبريل: العميد يقول: الأمر ليس من اختصاص مجلس الكلية، ولكنه أرسله إلى إدارة الجامعة، وهى التي تكتب إلى مكتب الأمن لاستطلاع الرأي.

٢٤ إبريل: تاريخ خطاب إدارة الجامعة إلى مكتب الأمن للجامعات باستطلاع الرأي في سفر الدكتور / جلال أمين لمرافقة زوجته. أصابني الوجل.

٢٣ مايو زميلي أحمد القشيري يعرض عليَّ أن يسأل عن مصير الطلب، ورأي مكتب الأمن عن طريق صديقه مدير مكتب رئيس الوزراء.

٣٠ مايو: أحمد القشيري يقول: مدير مكتب رئيس الوزراء اتصل بطه ربيع مدير مكتب الأمن، فيعد الأخير بالرد غدًا ـ وأن مدير مكتب رئيس الوزراء قال له: حكاية الدكتور جلال يعرفها رئيس الوزراء ولا داعي لتعقيد الأمور له ـ يعد طه ربيع خيرًا ـ أملي يصبح كبيرًا في السفر مادام مدير مكتب رئيس الوزراء تدخل ـ وچان تفرح.

٣١ مايو: أحمد القشيري يقول لي في الخيمة (خيمة الامتحان): للأسف رد طه ربيع قائلًا: نحن عادة نستطلع رأي سبع جهات، وجاءتنا موافقة معظمها ولكن رفضت المخابرات. وعلق مدير مكتب رئيس الوزراء: «إلى هنا لا يستطيع ولا حتى رئيس الوزراء أن يفعل شيئًا». ابتئاس شديد لي ولچان. قال أحمد القشيري أيضًا: حاول أن تتصل بشعراوي جمعة وزير الدولة لأن صلته بالمخابرات كبيرة، وإذا استطاع أحد أن يفعل شيئًا فهو شعراوي جمعة؛ فهو حلقة الوصل بين الحكومة والمخابرات.

٧ يونية ـ ١٠ يونية محاولة الاتصال بخالد محيي الدين دون جدوى.

١٠ يونية زيارة خالد وإخباره بالأمر ووعده بالاتصال بشعراوي جمعة، وعزمي على تخصيص شهر يولية لكتابة المحاضرة أو ملخصها.

١١ يونية مكالمة من خالد: يقول شعراوي جمعة: أليس جلال أمين بعثيًا؟ ويقول خالد إن عليَّ أن أكتب إلى شعراوي جمعة مذكرة بعلاقتي القديمة بالبعث وكيف انتهت.

١٥ يونية: تسليمي المذكرة (من صفحتيْن ونصف) لخالد ومعها نسخة من كتابي في الاشتراكية هدية لشعراوي جمعة.

١٦ يونية: خالد يرد بأن شعراوي جمعة يشكرني على الكتاب، ويعد خيرًا بخصوص السفر ويريد مقابلتي، ويقول خالد: اطلب مدير مكتبه فلديه علم بترتيب المقابلة.

١٧ يونية: اتصالي بمدير مكتب شعراوي جمعة تليفونيًا: بدا وكأن لا علم له بترتيب المقابلة، ورده بأن الوزير غير موجود وسيخبره عن طلبي تحديد موعد.

١٨ يونية: اتصالي بمدير مكتب شعراوي جمعة: الوزير غير موجود، وسيتصل بي مدير المكتب عند تحديد موعد.

١٩يونية-

٢٣ يونية لا اتصال من مكتب شعراوي جمعة.

٢٤يونية -

٢٦يونية سفري للإسكندرية وقد انتابني بعض اليأس.

٢٦ يونية: عودة من الإسكندرية ـ اتصالي بمكتب شعراوي جمعة: لا خبر بعد.

٢٧ يونية: اتصالي بمكتب شعراوي جمعة: لا خبر بعد.

٢٨ يونية: سفري للإسكندرية (مع أوراق الامتحانات لتصحيحها هناك).

٣١ يونية: عودة إلى القاهرة.

٢ يولية: خالد يتصل بي: هل قابلت شعراوي جمعة؟ لا ـ حسنًا إني سأذهب لمقابلته غدًا، وسأتصل به في الصباح الباكر لأسأله عما إذا كنت تستطيع أن تأتي معي لمقابلته. اتصل بي في العاشرة.

٣ يولية: اتصالي بخالد. نعم أستطيع مصاحبته ومقابلتي لشعراوي جمعة.
قولي لشعراوي جمعة إنني كنت بعثيًا في يوم ما عندما كان عمري١٩ سنة، ولكنني استقلت سنة ١٩٥٩، وليس لي بهم أي علاقة منذ ذلك الوقت، فما الخطأ في هذا؟.
يقول شعراوي جمعة:
اكتب لي ورقة بطلبك السفر. هل أطمئن؟ ويرد: لنأمل خيرًا.. أو ما شابه ذلك من عبارات.

يعود لي بعض الأمل في السفر. (التصحيح على أشده ليل نهار).

٥ يولية: يتصل بي سكرتير خالد محيي الدين ويقول لي إن «خالد» اتصل بطه ربيع مدير مكتب الأمن فوعده خيرًا ـ أملي يزداد.

٦ يولية: يتصل بي مدير مكتب شعراوي جمعة ويقول إن شعراوي جمعة اتصل بحسن طلعت مدير المباحث العامة فيعده الأخير بأن يعتبر مشكلتي قد انتهت. شكري للوزير ومدير مكتبه شكرًا حارًّا. وأوقظ چان من النوم صائحًا وراقصًا في الحجرة: سأسافر، سأسافر.
وحينما أقابل «حسين» و«أمين» (أخي عبد الحميد) في المساء يقول حسين: مبروك.

٩ يولية أتصل بطه ربيع متوقعًا أنني سأسمع أن الموافقة تمت، فيقول: صحيح أن «خالد محيي الدين» اتصل به ولكن ظهر أن المسألة معقدة. أصعق، ولكني أعلل نفسي بأنه ربما أن موافقة المباحث لم تصل بعد. فأقول لطه ربيع إن شعراوي جمعة توسط.. فيكون رده: هي نمرة خالد محيي الدين كام؟

٩ - ١٢ يولية: محاولتي المستميتة في الاتصال بخالد ليكلم طه ربيع ويعرف حقيقة الأمر. ولكن «خالد» في الإسكندرية وتليفونه لا يجيب.

١٢ من يولية: أعثر على خالد فيسألني: هل حصلت على الموافقة؟ (حقًّا؟!!) فأقول له ما قاله طه ربيع. فيقول: سأتصل به واتصل بي بعد نصف ساعة.
انتظار بائس لمدة نصف ساعة.
أكلم «خالد» فيقول: لم أستطع الاتصال به بعد ـ اتصل بي بعد ساعة.
أتصل بعد ساعة، فيكون رد خالد غير المتوقع والسار جدًّا:
خلاص يا سيدي: كلمت طه ربيع فقال: ده بعثي!
يقول خالد: هو انتوا حتموّتوه بقى عشان كان بعثي؟
يقول طه ربيع: المباحث لم يأتِ منها خبر بأنها موافقة.
يقول خالد: حسنًا سأتصل بحسن طلعت.
يتصل خالد بحسن طلعت فيقول الجواب أمامه وسيرسله بالموافقة إلى طه ربيع اليوم أو غدًا.

ويتصل خالد بطه ربيع فيقول له الأخير: خلاص بمجرد أن تأتي الموافقة من حسن طلعت سأرسل الموافقة للجامعة خلال يوم أو يومين.

فرح شديد لي ولچان، وبدء التفكير في تنظيم السفر.

١٢-١٤ يولية: آخر أيام الامتحانات بعد أن صححت أكثر من ٢٠٠٠ ورقة في إرهاق شديد، وكنت أمضي كثيرًا من الأمسيات في الكنترول.

١٣ يولية الجامعة: هل حصلت الموافقة؟: لا.

١٤ يولية الجامعة: هل وصلت الموافقة؟: لا.

١٨ يولية ذهبت إلى طه ربيع على الرغم مني.. لا رد من المخابرات، ومقابلة أسوأ وأقصر، ويقول لي الواقف على الباب إنني يجب ألا أدخل مباشرة، فقد حلت عليهم المتاعب بسبب دخولي مباشرة على طه ربيع من يومين...

ويقول طه ربيع: تعالَ يوم الخميس.

هل هناك أمل؟

طبعًا، ٩٩,٥٪، ولكن لا توسّطْ أحدًا... لا داعي.

هل ستكون موجودًا يوم الخميس؟

طبعًا.

الخميس ٢١ يولية: (السابق على إجازات أعياد الثورة):

طه ربيع أذهب إليه فلا أجده وأجد شخصًا آخر محله.. نفس الإجابات.. يمكن بعد ١٠ أيام..

الجمعة ٢٢ يولية: السفر إلى الإسكندرية. خطاب إلى جامعة لندن أقول إني سأرسل الكلمة في الموعد الجديد (قبل ١٠ أغسطس) ولكن الأمل ضعيف في سفري. وكان أملي أن أستطيع أن أكتب ملخصًا للكلمة وأرسلها في الموعد.

.. هل أكلم «خالد محيى الدين».. أو أيأس تمامًا وأنسى الأمر كله وأكتفي بكتابة المحاضرة؟

الأربعاء ٢٨ يولية: لا أستطيع المقاومة، وأكلم «خالد» وأخبره بالأمر، فيعد بالاتصال بشعراوي جمعة في الإسكندرية ويطلب منه أن أكلمه مساءً.

أكلم «خالد» في المساء فلا أجده.

٢٩ يولية: أكلم «خالد» فيقول: وعد شعراوي جمعة بالاتصال بعليش في المخابرات، ولكن لم يجده وسيتصل به السبت أو الأحد.. واتصل بي من مصر السبت أو الأحد.. فأقول له: «هل يمكن أن تتصل أنت بي إن كانت هناك أخبار؟».
«نعم سأتصل بك».

الجمعة ٢٩ يولية:

مساء أعود إلى الإسكندرية عازمًا على تسفير چان وحدها وأنسى الأمر.

السبت ٣٠ يولية:

٤ أغسطس: سافرت چان.

٣١ أغسطس: استلمت الفيزا التاريخية، وهى عبارة عن ختم ممسوح، كلفني الحصول عليه ٤ أشهر بالضبط من القلق، وتقريبًا المدة كلها ضاعت من أجل الحصول عليها. أرسلت تلغرافًا لچان بأني سأصل يوم الجمعة.

لاحظت أنه تحت التأشيرة كتب:

«أعطيت بعد اتخاذ الإجراءات/ ق/ع»، وهى العبارة التي قال لي إسماعيل صبري عبد الله أنه من دونها سيمنعون سفرك في المطار.

أكتب الآن في الطائرة وأرى تحتي مدن شمال إيطاليا (ميلانو تحتي بالضبط). رأيت قبلها اليونان، وكريت، ومصر. تنهدت تنهدًا عميقًا جدًّا حينما تجاوزنا الساحل المصري، ثم بعد أن تجاوزنا ما اعتقدت أنه نهاية المياه الإقليمية المصرية؛ إذ طوال وقوفي في المطار كنت أستمع إلى كل كلمة في الميكرفون خوفًا من أن ينادى اسمي ويطلب مني العودة إلى مكتب الأمن، ثم تطير الطائرة من دونى، ولكن لم يحدث شيء.

هذه هي نهاية القصة، فلأضع القلم، ولأكن سعيدًا سعادة توازي ما عانيته من قلق لمدة أربعة أشهر، ولأتأمل Mont Blanc جيدًا.

وبعد ساعة ونصف سأرى چان «how marvelous !».

(١٣)

الماركسية والماركسيون

- ١ -

كانت بداية قصتي مع الماركسية هي نفس بداية كثيرين من المثقفين المصريين وغيرهم، وهى الوعي بالمفارقة الصارخة في المجتمع بين غنى الأغنياء وفقر الفقراء. والذي أذكره أن وعيي بهذه المفارقة، وأنا في نهاية دراستي الثانوية أو بداية دراستي بالجامعة، كان كافيًا لأن أفتح هذا الموضوع وأعيد فتحه في حديثي مع أخي حسين، فإذا به ينصحني بقراءة كتاب صغير، أخرجه من مكتبته، عنوانه (المادية الجدلية والمادية التاريخية) والمؤلف جوزيف ستالين. كان كتابا مترجمًا إلى العربية ومنشورًا في بيروت. لم أفطن في البداية ماذا يمكن أن تكون العلاقة بين مشكلة الغنى والفقر وبين عنوان فلسفي كهذا، مادية وتاريخية... إلخ، ولكني قرأته وفهمته وأعجبت به أيما إعجاب، وأدركت العلاقة بينه وبين مشكلة الغنى والفقر.

كانت هذه هي بداية إعجابي بالماركسية وتقديري لأهميتها، وهو إعجاب وتقدير لازالا معي إلى حد كبير حتى اليوم، على الرغم من أني مع مرور الوقت وصلت إلى إدراك عيوب وأخطاء كثيرة فيها مما لا يمكن معه أن أصف نفسي اليوم بأني ماركسي.

بدأت أقرأ في الماركسية على نحو متقطع خلال سنوات الجامعة، وكان كل ما قرأته عنها في تلك الفترة مكتوبًا باللغة العربية، ومعظمه كان منشورًا في بيروت. كان الناشرون اللبنانيون قد اكتشفوا قبل غيرهم فرصة الربح الكامنة في نشر ترجمات عربية للكتب الماركسية في ذلك الوقت، أي طوال الخمسينات؛ لما كانت تحظى

به التجربة السوفيتية من إعجاب عدد متزايد من المثقفين العرب، وفى فترة يكثر فيها الكلام عن العدالة الاجتماعية والصراع الطبقي، وفى بداية حرب باردة يتعرض فيها المعسكر الاشتراكي لهجوم قاسٍ من جانب الغرب فيزيد من جاذبية الاشتراكية في نظر مثقفي العالم الثالث.

كانت الغالبية العظمى من هذه الكتب المنشورة في لبنان مترجمة ترجمة سيئة للغاية، وقد سمعنا أن الكتاب كان يوزع فصولًا متفرقة بين عدة مترجمين حتى تتم ترجمته في أقصر وقت، ولا يهم بعد هذا ما إذا كان الكتاب مفهومًا تمامًا أو غير مفهوم، وما إذا كان اصطلاح ما قد ترجم بكلمات عربية مختلفة في الفصول المختلفة.ومع ذلك فقد فهمت الكثير مما قرأت، وكنت ألوم نفسي على عدم فهمي للباقي، وهو ما لم أدرك أنه ظلم فادح لنفسي إلّا بعد سنوات. إلى جانب هذه الكتب كنت، كغيري، مدينًا بشدة لاقتصادي ماركسي مصري (الدكتور راشد البراوي) كان غزير الكتابة والترجمة، ويجيد العربية، فقدم لنا كثيرًا من أعمال ماركس وإنجلز، مترجمة ترجمة جيدة ومفهومة تمامًا، بما في ذلك بعض الخطابات المتبادلة بينهما، وجزءًا كبيرًا من كتاب ماركس الأساسي (رأس المال).

إني أعتبر هذه الفترة من القراءة عن الماركسية، حينما كانت سني تتراوح بين العشرين والثانية والعشرين، من الفترات القليلة التي تركت فيها قراءتي أثرًا دائمًا في تكويني العقلي. نعم، كل ما يقرأه المرء لا بد أن يترك أثرًا كبيرًا أو صغيرًا، محسوسًا أو غير محسوس، ولكن هناك بعض القراءات وبعض الكتب اللتيْن تتركان أثرًا يشعر به القارئ بوضوح، ويظل معه وقتًا طويلًا. كانت قراءتي للماركسية في ذلك الوقت، بلا شك، من هذا النوع.

اشتد حماسي للماركسية أثناء دراستي لدبلوم الاقتصاد (١٩٥٦ - ١٩٥٧) إذ طلب منا أحد أساتذة الدبلوم اختيار موضوع لكتابة بحث فيه، وعرض علينا بعض الموضوعات كانت الماركسية من بينها، فكتبت بحثًا عن المادية الجدلية والمادية التاريخية في نحو ٥٠ أو ٦٠ صفحة، تداوله بعض أصدقائي الذين كانوا يتوقون لمعرفة المزيد عن الماركسية، وأبدوا لي إعجابهم بي فاعتبرته بحثًا جيدًا. ولكن

البحث كان يعتمد فقط على كتب عربية، مؤلفة أو مترجمة، وكان هذا يحد بشدة من معرفتي بدقائق الماركسية ومشكلاتها. ومن ثَمَّ فإني بمجرد أن اجتزت امتحان التأهيل في السنة الأولى من سنوات بعثتي في إنجلترا، وبدأت الدراسة للماجستير، ووجدت لديَّ من الوقت ما يسمح لي بالقراءة من جديد في الماركسية، عدت إلى القراءة فيها بحماس. وأذكر أني في لحظة ما، صنفت الكتب التي تقف على رفوف مكتبتي الصغيرة، في حجرتي بلندن، إلى كتب تحتوى على «الحقيقة» وهى الكتب الماركسية، وكتب «ضالة» وهى الكتب غير الماركسية.

* * *

استمر موقفي على هذا النحو نحو سنتيْن أو ثلاث قرأت خلالها ما جعلني أبدأ في الشك في «الصدق الكامل» للماركسية، وتطور هذا الشك إلى يقين بأن الماركسية وإن كانت تحتوي على أفكار مهمة وصحيحة فإنها لا تصلح كعقيدة،.كما أيقنت بأن الجزء الفلسفي منها (المادية والجدلية) أقرب إلى اللغو منه إلى وصف الحقيقة أو إلى العلم كما يظن الماركسيون.

أحسست فجأة بأني حققت هذا «الفطام» من مرحلة الماركسية عند قراءتي لمقال معين، ولكتاب معين. أما المقال الذي أذكر تأثري الشديد به وحماسي القوي بمجرد الانتهاء منه فكان بعنوان «ما الديالكتية؟» (What is Dialectics) نشرته مجلة «Mind» في الأربعينات، ونسيت اسم كاتبه (ولكن لعله «Sidney Hook»). وأما الكتاب الذي طرت به فرحًا وتقديرًا فهو لكاتب إنجليزي رائق الفكر وواضح الأسلوب هو «H.B.Acton»، واسم الكتاب «وهم العصر»، ويقصد بهذا الوهم الماركسية (The Illusion of the Epoch, London, Cohen West, 1962).

كانت القراءات التي ساعدت على تقوية هذه الشكوك لديَّ في الماركسية متعددة المصادر والأنواع، ولكن كان من أهمها ما أقنعني بأن النظام الاشتراكي، كما كان يطبق بالفعل في أوربا الشرقية، والنظام الرأسمالي، بينهما من أوجه الشبه ما هو أهم بكثير مما نظن، وأن السبب الأساسي لذلك الشبه يرجع إلى ما يمكن اعتباره من قبيل «الحتمية التكنولوچية»، بمعنى أن تطبيق تكنولوچيا من نوع معين، مهما كانت

ادعاءات النظام السياسية، وأيًا كان وصف النظام لنفسه، لا بد أن يؤدي إلى نتائج مشابهة في التنظيم الاجتماعي والسياسي. كان من أهم القراءات التي لفتت نظري إلى هذا بوضوح كتاب «ريمون آرون» (R. Aron) الشهير عن «المجتمع الصناعي»، وهو رأي يجد تأييدًا له حتى في كتابات ماركس نفسه، وإن لم يكن الماركسيون على استعداد للاعتراف به. وقد كان يعجبني دائمًا قول لماركس مؤداه إنه «كما أنك يجب ألا تصدق كل ما يقوله شخص عن نفسه، فإنك يجب ألا تقبل كل ما يصف به عصر نفسه».

أعتقد أنه لم يطرأ على موقفي من الماركسية تغير يذكر منذ ذلك الوقت، أي منذ ١٩٦٢ أو ١٩٦٣، وقد عبرت عن هذا الموقف بشكل مختصر في كتابي (مقدمة إلى الاشتراكية، مكتبة القاهرة الحديثة ١٩٦٦).

كان موقفي من الماركسية منذ ذلك الوقت موقفًا معقدًا بعض الشيء؛ إذ كنت متعاطفًا تمامًا مع التفسير الماركسي للتاريخ، ومع التحليل الماركسي لظاهرة الاستغلال الاقتصادي، ومع الملكية العامة لوسائل الإنتاج وإعادة توزيع الدخل، ولكني كنت قد فقدت أي حماس للفلسفة الماركسية (بالمعنى الضيق للفلسفة)؛ بتأثير فلسفة الوضعية المنطقية، وصرت أعتبر الجدلية أقرب إلى الأدب أو الشعر منها إلى التحليل العلمي. كما لم أعد أتعاطف بالمرة مع نظرية العمل في القيمة، تحت تأثير مختلف الانتقادات التي وجهت لها من اقتصاديين كبار قرأت لهم أثناء دراستي بإنجلترا، وبالذات انتقادات الاقتصادي النمساوي «بوم بافرك» (Bohm - Bawerk) في كتابه «كارل ماركس ونهاية نظامه الفكري» (Karl Marx and the Close of His System) والاقتصادية الإنجليزية «جون روبنسون» (Joan Robinson) في كتابها «مقال في الاقتصاد الماركسي» (An Essay on Marxian Economics). واستقر رأيي على أن مسايرة ماركس في رفضه وكراهيته للاستغلال، لا تلزم المرء بقبول نظريته في تفسير الأسعار، وأن من الممكن أن يقبل المرء نظرية العرض والطلب كأفضل نظرية في تفسير الأسعار، ويكون اشتراكيًا في نفس الوقت. وأن من الممكن أن يعلي المرء من شأن العمل الإنساني ويمجّده، دون أن يسمح له بالتدخل ونحن نشرح نظرية السعر.

هذا الموقف من الماركسية الذي لا يرى الشيء إما أبيض تمامًا وإما أسود تمامًا، وإن لم يمنعني من التعاطف مع الماركسيين المصريين بوجه عام، بعضهم أكثر من بعض، منعهم هم من التعاطف معي؛ جريًا على ما درج عليه معظم الماركسيين من أن «من ليس معنا فهو ضدنا». ولكن الذي زاد غيظي أن معظمهم لم يبدوا اهتمامًا يذكر بقضية الحريات والديمقراطية؛ جريًا أيضًا على عادتهم في التركيز على البعد الاقتصادي للحرية، مع أن مصر في منتصف الستينات كانت قد ذهبت في الأخذ بنظام الملكية العامة، وفى إعادة توزيع الدخل، إلى مدى ربما لم يكن هناك أي مصلحة في ذلك الوقت في تجاوزه. كان من الواضح لي في منتصف الستينات، أن القضية الأساسية في مصر هي قضية الديمقراطية والحريات الشخصية، وليست قضية مزيد من التأميم أو مزيد من إعادة توزيع الدخل. وقادني هذا الرأي إلى الاعتذار عن تدريس مقرر الاشتراكية في كلية الحقوق بعد أن درسته ثلاث سنوات، وكذلك الاعتذار عن الاشتراك في أي لجنة أو اجتماع أدعى إليه من أي منظمة حكومية، كالاتحاد الاشتراكي العربي، إذا خمنت أن الغرض الأساسي هو ما كان يوصف «بدعم الاتجاه الاشتراكي» أو «نشر الوعي بالاشتراكية»... إلخ.

* * *

كان هذا هو موقفي في منتصف الستينات، ثم أتيحت لي فرصة بعد ذلك لبلورته وزيادته وضوحًا. ذلك أنه في السنوات التالية مباشرة لعودتي من البعثة، كان جمال عبد الناصر قد أطلق سراح الماركسيين المعتقلين وعينهم بمجرد خروجهم من السجن في مناصب رفيعة كلها تتعلق بالثقافة والنشر. إن هذا الأمر يبدو الآن مدهشًا للغاية: أن تضع كبار الماركسيين في السجن لمدة خمس سنوات (١٩٥٩ - ١٩٦٤) في الوقت الذي تطبق فيه أفكارهم وتصدر القوانين الاشتراكية التي كانوا ينادون بها، ثم تطلق سراحهم فجأة بمناسبة قدوم الرئيس السوڤيتي خروشوف إلى مصر للاحتفال بانتهاء بناء السد العالي، وتقوم بتعيينهم في تلك المناصب الرفيعة. لا يبدو لي أن هناك تفسيرًا مقنعًا لهذا إلّا تحول سياسة عبد الناصر من علاقة «وطيدة» بالأمريكيين إلى علاقة «وطيدة» بالسوڤيت، وإن كنا لم ندرك هذا في ذلك الوقت.

كانت نتيجة هذا التحول في سياسة النظام المصري ازدياد تأثير الماركسيين في الكتابات السياسية والنقدية، بل سيطر النقاد الماركسيون على حركة النقد الأدبي في مصر سيطرة تكاد تكون تامة. وقد ضايقني هذا التأثير وتلك السيطرة إلى درجة دفعتني إلى أن أقصد سكرتير الجمعية المصرية للاقتصاد (الدكتور جمال العطيفي)، وكان رجلًا نشيطًا ومسئولًا عن جمعية نشيطة، وتصدر مجلة محترمة ربع سنوية هي «مصر المعاصرة» يعود تاريخها إلى بداية القرن، وعبّرت له عن رغبتي في أن ألقي محاضرة عامة في الجمعية في نقد الفلسفة الماركسية. كان الرجل أقرب إلى اليمين منه إلى اليسار، ولكنه كان أيضًا رجلًا سياسيًّا ماهرًا يعرف طبيعة المرحلة التي يمر بها النظام المصري وقربه من الماركسيين، فوافق على طلبي بشرط أن يعطى محاضرتي لأحد الماركسيين الكبار للتعليق عليها ثم يقوم بنشر المحاضرة والتعليق في مجلة الجمعية. وافقت على شرطه، وأذكر أني قضيت شهرًا أو شهريْن لا همّ لي إلّا التفكير في المحاضرة والقراءة استعدادًا لها، فلما كتبتها وألقيتها في النهاية بدت لي جيدة للغاية، ولازلت أعتبرها كذلك حتى الآن، على الرغم من أني عندما أعطيت نسخة منها للدكتور زكي نجيب محمود لإبداء رأيه فيها قال لي ما يدل على أنها لم تعجبه لأني «ظلمت فيها الماركسية». لم تقنعني ملاحظات د. زكي نجيب، ولكنها لم تقلقني أيضًا، وعلقت أهمية أكبر على ما يمكن أن يأتي من ردود من جانب الماركسي الكبير الذي أرسل له د. العطيفي المقال.

كان هذا الماركسي الكبير هو الدكتور فؤاد مرسي الذي كان معروفًا وقتها كواحد من أهم المفكرين الماركسيين المصريين، وكزعيم يشار إليه بالبنان من الشيوعيين. فوجئت بأنه كتب تعليقًا أطول من مقالي، ونشره د. العطيفي في نفس العدد الذي نشر فيه مقالي (إمعانًا منه في الحرص على عدم إغضاب الماركسيين)، ولكني فوجئت أيضًا بالحدة والقسوة اللتيْن اتسم بهما رد د. فؤاد مرسي، وكنت أظن أن مكانته العالية ستجعله أقل اهتمامًا بناقد مستجد مثلي، وأكثر تسامحًا مع ما يكتبه. على أي حال، كان تعليقه مثالًا جديدًا لحدّة معظم الماركسيين وثقتهم المطلقة بأنهم يحيطون بالحقيقة كلها، فضلًا عن إعجابهم الشديد بأنفسهم بسبب وقوفهم إلى جانب الطبقات الكادحة.

ألقيت المحاضرة في نقد المادية الجدلية في جمعية الاقتصاد في مايو ١٩٦٧، أي قبل حرب يونية بأسابيع قليلة، ونشرت في مجلة الجمعية (مصر المعاصرة) في عدد أكتوبر ١٩٦٧ في نحو عشرين صفحة، ومعها مقال د. مرسي بعنوان (محاولة هدم الاشتراكية العلمية عن طريق هدم الجدلية) في نحو أربعين صفحة. وقد أعدت نشر مقالي في كتاب صدر لي في ١٩٧٠، خصصته كله للماركسية، بعنوان: (الماركسية: عرض وتحليل ونقد لمبادئ الماركسية الأساسية في الفلسفة والتاريخ والاقتصاد) ونشره لي ناشر صغير (مكتبة سيد عبد الله وهبة) لم يكن يتوقع لنفسه ربحًا يذكر من الكتاب، ولكنه نشره إرضاء لي باعتبار أنه ينشر لي كتبي الجامعية مضمونة الربح. كان الكتاب يعتمد في أجزاء منه على ما سبق لي أن نشرته في كتابي (مقدمة إلى الاشتراكية) مع تحسينها والإضافة إليها، فضلًا عن محاضرتي في نقد المادية الجدلية وردي على تعليق الدكتور فؤاد مرسي.

استخدمت في ردي على تعليق د. مرسي بعض الحدة مثلما فعل هو، وضمنته من السخرية أكثر مما كان في تعليقه هو. وعندما أقرأ الآن هذا الرد لا أجد أني بعدت عن الصواب، كما أجده قد عبرّ تعبيرًا صحيحًا عن رأيي في الماركسيين بصفة عامة. وأذكر من هذا التعقيب لومي للدكتور مرسي على عبارة معينة وردت في رده ولم أجد لها لزومًا بالمرة. كنت قد تساءلت في مقالي عما كان يمكن أن يقوله لينين، وهو على رأس الدولة السوڤيتية، لو جاء رجل وردد أمامه ما يقوله أصحاب المادية الجدلية باستمرار من أن التغير المستمر هو سنة الحياة، وذلك أثناء تدليلي على أن القول بالتغير المستمر أو الحركة المستمرة ليس دائمًا في مصلحة التقدم إلى الأفضل، فقد يستخدم لإرجاع الأمور إلى الوراء. كان رد د. فؤاد مرسي على هذا قوله: «إنه لو جاء رجل إلى لينين ليقول له مثل هذا القول لقطع الشعب رقبته». وقد استغربت في تعقيبي أن يغضب د. مرسي كل هذا الغضب، وقلت إن الموضوع يمكن أن يسوّى بالحوار دون أن يحتاج أحد لقطع رقبة أحد.

أغضب كتابي «الماركسية» من قرأه من الماركسيين، وقرروا أنه لم يعد يرجى مني خير، وكنت أتوقع ذلك ولم أبالِ به. ولكن ما استغربت له جدًّا واعتبرته فيما بعد أمرًا طريفًا للغاية، أن صديقًا لي كان قد اعتنق الماركسية منذ سنوات قليلة، اتصل

بي تليفونيًّا بعد أن قرأ الكتاب وقال لي ما معناه إني ارتكبت خطأ جسيمًا ومؤسفًا للغاية. استغربت هذه المكالمة لأني لم أكن أظن أن صديقي هذا قد وصل حماسه للماركسية إلى هذه الدرجة. أما الطريف في الأمر فهو أنه بعد حوالي عشر سنوات من هذه المكالمة، أصبح متدينًا للغاية وبلغ حماسه ضد الماركسية نفس ما كان عليه حماسه لها قبل عشر سنوات.

كان يبدو لي في ١٩٧٠ أن نشر كتاب في نقد الماركسية، دون المساس بالفكرة الاشتراكية؛ على نحو ما فعلت في كتابي، عمل مفيد في ظروف مصر في ذلك الوقت؛ حيث كانت الحكومة تردد شعارات قريبة من شعارات الماركسيين لتبرير ما تفرضه من قيود على الحريات. ولكن هذا الكتاب لم يلقَ رواجًا بسبب هذه الظروف نفسها؛ وبسبب صدوره من دار نشر صغيرة وغير معروفة، فضلًا عن استمرار سيطرة الماركسيين على حركة النقد الثقافي. كنت ولا أزال أعتبره كتابًا جيدًا، وأعتبر ما تضمنه من نقد للفلسفة الماركسية من أفضل ما كتبت، كما أن ما تضمنه من شرح ونقد لنظرية القيمة الماركسية كان جديدًا بالمقارنة بما كتب عنها باللغة العربية. ولكن لم يمضِ وقت طويل على اعتلاء أنور السادات الحكم في نفس السنة التي صدر فيها الكتاب، حتى تحول الماركسيون من موقع يتمتعون فيه برضا السلطة إلى موقع يعانون فيه من تجبرها وطغيانها، كما بدأت الاشتراكية نفسها تتعرض في مصر لخطر شديد بعد تدشين سياسة الانفتاح الاقتصادي في ١٩٧٤. لهذا لم أر من المناسب، لا من باب اللياقة ولا من باب المصلحة الوطنية، أن أعيد طبع الكتاب ونشره بطريقة تجعله أكثر ظهورًا وانتشارًا. وقد ظلت الاشتراكية في مصر تتعرض للهجوم المتتالي وتتراجع خطوة بعد أخرى، في بقية سنوات السبعينات وطوال الثمانينات، حتى سقط الاتحاد السوفيتي نفسه ومعظم النظم الاشتراكية الأخرى؛ مما جعل الناس يزهدون في قراءة أي شيء عن الماركسية، سواء بالمدح أو بالذم.

-٢-

ترتب على هذا التطور في موقفي من الماركسية ومن الاشتراكية كما يجري

تطبيقها بالفعل، أنني عندما دعيت في أواخر ١٩٦٧ لحضور مؤتمر في كوبا، كنت أقل استعدادًا بكثير لقبول الدعاية التي كان يبثها نظام فيديل كاسترو عن نفسه، من معظم أعضاء الوفد المصري في المؤتمر، وكان أغلبهم من عتاة الماركسيين.

كانت فكرة المؤتمر أن تستضيف الحكومة الكوبية أكبر عدد من مثقفي العالم الثالث ومن مثقفي الدول الاشتراكية والرأسمالية على السواء، ممن يتعاطفون مع النظام الكوبي؛ آملين في أن يكسبوا منا مزيدًا من التعاطف، فننقل صورة زاهية للنظام إلى العالم الخارجي.

كان الانتقال من القاهرة إلى هافانا مهمة عسيرة للغاية، ليس فقط بسبب طول المسافة؛ ولكن بسبب مقاطعة كثير من البلاد المحيطة بكوبا لنظام كاسترو؛ ومن ثَمَّ كان يتعين علينا سلوك طريق ملتوٍ ومعقد حتى نصل إلى كوبا.

نزلنا أولاً في العاصمة التشيكية، وكانت العلاقات السياسية الرسمية بين مصر وتشيكوسلوفاكيا في ذلك الوقت (ديسمبر ١٩٦٧) جيدة بسبب خضوع الحكومتيْن، بدرجة أو أخرى، للنفوذ السوڤيتي، وإن كانت حركة دوبشيك لمحاولة التحرر من هذا النفوذ قد بدأت تشتد، ويؤازرها بقوة معظم التشيكيين، قبل أن تدخل القوات السوڤيتية لوأدها بعد زيارتنا بأشهر قليلة. هكذا وجدنا في استقبالنا موظفين تشيكيين يرحبون بنا دون شعور حقيقي بالمودة؛ وإنما خوفًا من موظفين أعلى شأنًا. عكّر هذا صفو الأيام الثلاثة التي قضيناها في براغ، بالإضافة إلى قلة ما كان بأيدينا من نقود؛ إذ لم يكن النظام المصري يسمح لمصري بالخروج بعملة أجنبية تزيد قيمتها عن خمسة جنيهات مصرية. وكان المنطق الذي تستخدمه الحكومة لتبرير ذلك، في حالتنا، أننا مدعوون إلى مؤتمر تتحمل نفقته بالكامل الحكومة الكوبية، ففيمَ نحتاج إلى عملة أجنبية؟ أذكر أني أنفقت الجزء الأكبر من قيمة الجنيهات الخمس على الحلاقة في هافانا، ولكني استطعت أن أستبدل ببعض الجنيهات المصرية التي أخذتها معي خلسة، بعض النقود الكوبية التي أنفقتها على شراء صندوق خشبي صغير كهدية لزوجتي. أذكر أيضًا أن هذا الالتزام النسبي من جانبي بقواعد الحكومة الاشتراكية في مصر، كان يقابله تصرف مختلف من جانب زملائي الماركسيين من أعضاء الوفد

المصري. إذ بمجرد نزولنا في براغ رتبوا مقابلة مع السفير المصري هناك، حصلوا نتيجة لها على مبلغ لا بأس به من العملة الأجنبية.

فيما عدا هذا، وجدت براغ مدينة رائعة، بالغة الجمال بشخصيتها المتفردة والاتساق الكامل بين مبانيها، كما وجدت أهلها غاية في الأدب والتحضر. وقد أدى بي تعاطفي الشديد وإعجابي ببراغ وأهلها إلى الاهتمام بأخبار تشيكوسلوفاكيا منذ ذلك الحين، فلما عاد دوبشيك إلى الحكم بعد ما أصاب السوڤيت من ضعف، تابعت أخباره وأعماله فزاد حبي وتقديري له.

ذلك أنه بعد أشهر قليلة من عودتنا من كوبا، دخلت الدبابات السوڤيتية ومعها قوات حلف وارسو شوارع تلك المدينة العريقة والجميلة واحتلت تشيكوسلوفاكيا، وسحقت محاولات ألكسندر دوبشيك، رئيس الحكومة التشيكية آنذاك، للإصلاح السياسي والاقتصادي، واعتقلته هو وأنصاره. كان أسفي وحزني لما حدث يرجعان إلى أكثر من سبب. كان هناك أولاً الامتعاض من أن تستخدم دولة كبيرة عضلاتها لفرض إرادتها على دولة صغيرة تريد أن تمارس حريتها في اختيار النظام الأصلح لها. وكان هناك الأسف على ضياع فرصة نادرة لإصلاح النظام الاشتراكي ورده إلى صوابه؛ حيث كان دوبشيك يرفع شعار «الاشتراكية ذات الوجه الإنساني» محاولاً تطبيق تجربة جديدة تمتزج فيها مبادئ العدالة الاجتماعية بالديمقراطية السياسية وحرية التعبير، وإفساح المجال للحافز الفردي، وإطلاق فرص الإبداع من قيود البيروقراطية التي فرضها النظام السوڤيتي على الشعب السوڤيتي وعلى بقية أوربا الشرقية. كانت فرصة مبشرة بخير عميم، ليس لتشيكوسلوفاكيا وحدها بل لكل الدول الخاضعة للنظام السوڤيتي. كما كان من شأنها لو نجحت، أن تقدم نموذجًا حتى للدول الرأسمالية في الغرب، لتطبيق نظام أكثر عدالة في توزيع الدخل، دون التضحية بالديمقراطية السياسية وحقوق الإنسان الشخصية.

كان هناك أيضًا في حوادث براغ في ١٩٦٨ ما يذكِّر بما حدث للعرب قبل ذلك بعام واحد. فقد كان ضرب العرب في ١٩٦٧ شبيهًا في أكثر من ناحية بضرب تشيكوسلوفاكيا في ١٩٦٨. فعلى الرغم من أن الاعتداء على العرب كان من إسرائيل

تحقيقًا لمصالح إسرائيلية وأمريكية، والاعتداء على تشيكوسلوفاكيا بيد قوات حلف وارسو تحقيقًا لمصالح سوفيتية، فإن الضرب في الحالتيْن كان الغرض منه سحق محاولة دولة صغيرة أن ترفع رأسها وتستقل بإرادتها، وكان موقف الطرف الآخر في الحالتيْن واحدًا. فلما ضرب العرب في ١٩٦٧ تظاهر الاتحاد السوڤيتي بالغضب وعبّر عن استنكاره للاعتداء الإسرائيلي، ولكنه لم يفعل شيئًا لوقف الاعتداء، وعندما ضربت تشيكوسلوفاكيا تظاهرت الولايات المتحدة بالغضب وعبّرت عن استنكارها للاعتداء السوڤيتي، ولكنها أيضًا لم تفعل شيئًا لوقف الاعتداء. وكأنه كان هناك اتفاق ضمني بين الدولتيْن العظميين على أن تترك كل منهما الأخرى تفعل ما تشاء لتأديب الخارجين على طاعتها.

قضى دوبشيك ما يقرب من عشرين عامًا منفيًّا مشرّدًا داخل بلاده. فبعد طرده من منصبه، ثم من الحزب، وتعريضه لمختلف أنواع التحقير والإهانة، سمح له بالاشتغال بأعمال تافهة مهينة، مع خضوع مستمر لرقابة الشرطة، ورأى مئات الألوف من أنصاره، الذين رفضوا أن يقرّوا الغزو أو أن يعلنوا معارضتهم لسياسة دوبشيك، يشردون ويعذبون في أكبر عملية «تطهير» واستئصال للمعارضة تحدث في الكتلة الشرقية بعد عمليات ستالين في الثلاثينات. ثم جاء جورباتشوف في الاتحاد السوڤيتي فرفع شعار البروسترويكا والجلاسنوست، أي الدعوة إلى إصلاح اقتصادي وتحرير سياسي، لا يكادان يختلفان في شيء عما كان دوبشيك يحاول تطبيقه في بلاده قبل ذلك بعقديْن من الزمان. ففي إبريل ١٩٨٧، جاء جورباتشوف لزيارة براغ، ووجه أحد الصحفيين السؤال الآتي إلى مساعد جورباتشوف والمتكلم باسمه: «هل يمكن أن تخبرنا عن الفارق بين ما يحاول جورباتشوف تطبيقه الآن في موسكو، وما كان يحاول دوبشيك تطبيقه في براغ، واستخدمتم القوة لمنعه؟»، فإذا بالمتحدث السوڤيتي يجيب بالإجابة المُرّة الآتية: «الفارق بينهما تسعة عشر عامًا!».

كان من الطبيعي، إذن، أن يردّ إلى دوبشيك اعتباره بالتدريج، مع استقرار سياسة جورباتشوف الجديدة في الإصلاح الاقتصادي والسياسي، حتى بلغ رد الاعتبار أوجه بسقوط النظام الشيوعي في تشيكوسلوفاكيا في ١٩٨٩، واستقبال جورباتشوف

لدوبشيك في الكرملين في ١٩٩٠، وإذا بدوبشيك يعود إلى الحياة السياسة عودة الظافرين، ويستقبله شعبه استقبال الأبطال، وينتخب دوبشيك رئيسًا للبرلمان التشيكي. ولكن دوبشيك في ١٩٩٠ لم يكنْ هو الرجل المملوء بالحيوية والآمال الذي كانه في ١٩٦٨ . كان قد قارب السبعين من عمره، وقد أنهكته عشرون عامًا من الضيق الاقتصادي والعزل السياسي. ولم تمض أشهر قليلة على عودته إلى الحياة السياسية حتى صدم صدمة شديدة بوفاة زوجته، ثم تعرض لحادث سيارة وضع بسببه تحت العناية المركزة حتى توفى في ٧ نوڤمبر١٩٩٢، مشيّعًا بقلوب مُحبّة ومعترفة بجميله، وإذا بالرئيس السوڤيتي جورباتشوف ينعيه بقوله:

«كان من المفروض أن تتخذ أفكار دوبشيك وإصلاحاته نموذجًا وقدوة للعالم الاشتراكي كله، ولو كنا قد سرنا في الدرب الذي رسمه دوبشيك لتشيكوسلوفاكيا، لكان حالنا أفضل بكثير من حالنا الآن، ولتجنبنا ما وقعنا فيه من تطرف ومغالاة، ولما وجدنا الإصلاح بهذه الدرجة من الصعوبة التي نصادفها الآن».

بدا لي أن مأساة دوبشيك لم تكن في أنه كان يعمل ضد اتجاه التاريخ، بل على العكس تمامًا. كان دوبشيك يعمل في اتجاه التاريخ، ولكنه فقط جاء مبكرًا بعض الشيء، فكان عليه أن ينزوي وينكمش ويعاني الوحدة والهوان عشرين عامًا، فلما بدا التاريخ مستعدًا لإنصافه، كان العمر قد انقضى.

ـ٣ـ

وصلنا بعد لأي إلى هاڤانا فقضينا فيها ما يقرب من شهر، أحطنا طواله بمختلف أنواع الكرم والتدليل، مما يزيد عما يمكن أن تتحمله دولة فقيرة مثل كوبا، واستمعنا خلاله بالطبع إلى عدة خطب لفيديل كاسترو، من النوع الذي اشتهر به، والذي يمتد لثلاث أو أربع ساعات دون أن يبدو أن الشعب الكوبي قد أصابه الملل مما يسمع. وقد فتنني كل شيء في كوبا إلّا نظامها السياسي: جمال الطبيعة، وظرف أهلها وكرمهم، وسحر موسيقاها... إلخ. ولكن راعني ما كان يحيطنا به مضيفونا باستمرار

من إجراءات بوليسية وخوف وحذر من أن نسمع من الكوبيين العاديين، من غير المشتغلين لحساب النظام، أي نقد يمكن أن يشوّه سمعة النظام في نظرنا ثم يُنقل إلى الخارج. هذا هو ما تأكدت أنه يشكل الوظيفة الحقيقية للمرشدة ماريا، وهى الفتاة الكوبية رائعة الجمال التي عينوها مرافقة دائمة للوفد المصري، وكانت تحركاتها وسلوكها يدلاّن على أنها تنقل إلى المسئولين كل ما يخرج من أفواهنا، وتراقب تحركاتنا بكل دقة. هكذا مثلًا أفشلت ماريا محاولات أستاذ اقتصاد في جامعة هاڤانا المستميتة للاختلاء ببعضنا ليشرح لنا حقيقة ما يفعله النظام الكوبي بالناس، كما بذلت أيضًا كل ما في وسعها للرد على ما وصل إلى أسماعنا عن الخلاف الذي نشب بين كاسترو وچيڤارا؛ وأدى إلى ترك جيڤارا كل شيء وذهابه ليقاتل مع الثوار خارج كوبا حتى لقي مصرعه.

عندما أحاول استرجاع أهم الانطباعات التي تركتها رحلة كوبا في ذهني أتذكر انبهاري بجمال الطبيعة، وسحر الموسيقى الكوبية، وعشق الكوبيين لها وللرقص، والمنظر الذي رأيته عندما توقفت بي سيارة في إشارة مرور فإذا بالشرطية الكوبية المكلفة بتنظيم المرور، وقد ارتدت جونلة قصيرة جدًّا وضيقة للغاية، ترقص على أنغام الموسيقى المنبعثة من إحدى السيارات، وهى تقوم بمهمة توجيه السيارات بعصاها في نفس الوقت، واندهاشي لمستوى النعيم البالغ الذي كان يعيش فيه أثرياء كوبا قبل ثورة كاسترو، كالذي رأيته في القصر الذي كان يسكنه السفير المصري في هاڤانا عندما دعانا هناك إلى العشاء. كما أتذكر الحدّة التي رد بها أحد المسئولين الكوبيين عن المؤتمر، على عضو اشتراكي من أعضاء الوفد الإنجليزي (أظن أنه المؤرخ الإنجليزي الشهير إيريك هوبسبوم) عندما انتقد هذا العضو البذخ الذي تنفق به الحكومة على المؤتمر، في الوقت الذي يجد فيه كثير من الكوبيين صعوبات بالغة في الحصول على بعض السلع الأساسية؛ إذ كان رد المسئول الكوبي ما معناه «أن هذا ليس من شأنك، وإذا كان الطعام الذي يقدم لك أكثر من حاجتك فلا أحد يضطرك لأكله!». وقد استأت من هذا الرد بقدر ما تعاطفت مع ملاحظة الاشتراكي الإنجليزي.

أذكر أيضًا المحلات الخالية من السلع، ورداءة السلع المعروضة، وسوء حال العمال الذين كانوا يقومون بلفّ السيجار الكوبي الفاخر وتغليفه. ولكني أذكر أيضًا معرضًا لطيفًا يتضمن صورًا من أفلام طرزان العديدة، كان يرمي إلى إبراز فكرة الأمريكيين عن شعوب العالم الفقيرة. وأتذكر افتخار الحكومة بأنها تقوم بإعادة طبع الكتب العلمية الإنجليزية الصادرة في الولايات المتحدة، والتي يحتاجها طلبة الجامعات في كوبا، ضاربة عرض الحائط بحقوق النشر، على أساس أن الدول الغنية قد استغلتنا بما فيه الكفاية.

كانت رحلة كوبا فرصة أيضًا لمعاشرة عدد من الماركسيين المصريين عن قرب؛ إذ ظللنا لمدة تقرب من شهر نبيت ونصبح معًا، وقد أحببت بعضهم حبًّا جمًّا، وعلى الأخص أحمد عباس صالح الذي كان وقتها رئيس تحرير مجلة الكاتب، وعبد الرحمن الشرقاوي الأديب المعروف، إذ وجدت فيهما درجة عالية من الحكمة والظرف والتعاطف الإنساني، وسلوكًا يوميًّا يتفق مع ما يعبران عنه من أفكار. ولكني وجدت في البعض الآخر اشتراكية مصطنعة أو ممعنة في عاطفيتها دون رصيد حقيقي، بل كانت اشتراكية أحدهم أقرب إلى إثارة السخرية والرثاء، حتى من جانب الماركسيين أنفسهم؛ مما دعاني إلى كتابة هذا الوصف لشخصيته وأنا في الطائرة في طريق عودتي إلى مصر (ولنفترض أن اسمه «حسام» مثلًا):

«بدا لي حسام وكأن الدموع على وشك الانهيار من عينيْه باستمرار: مرة من أجل جيڤارا، ومرة تأثرًا بجمال النساء بوجه عام، أو بسبب انتصار الثورة، أي ثورة، في أي مكان في العالم. لهذا وجدت أن من المستحيل الدخول في أي مناقشة مثمرة معه، كأن تحاول إقناعه بأن هناك بعض القيود المفروضة على الحرية في كوبا، أو حتى إثارة السؤال البسيط التالي: هل تعتقد أن الناس في كوبا يحبون كاسترو حقًّا؟ وعندما قلت مرة في أثناء حديثي معه إن «الحقيقة نسبية» بدا وكأنه قد شعر بإهانة حقيقية، وأبدى غضبه واستياءه الشديد، واقتطف من ماركس عبارة نسيتها. ولكنه اضطر إلى السكوت عندما استخدمت أنا ماركس ضده، إذ سألته: هل هناك فكرة من أفكار ماركس أهم من أن الحقيقة تخضع لظروف الزمان والمكان؟ ثم عاد فقال إنه

يستهجن وصف الحقيقة بالنسبية؛ لأنها تعنى في نظره «نهاية العلم». عندما قال ذلك فضلت أن أركّز على طبق السمك الذي أمامي.

والله أعلم بما كان يقوله لمرشدتنا الكوبية «ماريا». كان يبدو دائمًا رومانسيًّا جدًّا وهو يتكلم معها. جاء إليَّ مرة وقال إنه قال لماريا: «إن جيڤارا علّمنا كيف نموت»؛ مما أدى بها، على حد قوله، إلى الانخراط في البكاء. كان من الصعب عليَّ تصديق ذلك. إني أعرف أن الكوبيين يهيمون بحب جيفارا، ولكني أعرف أيضًا أن «حسام» قادر على رؤية الدموع في كوب من الماء. قالت لنا ماريا مرة إن «حسام» شخص رائع!». ولكنها في نهاية الرحلة انقطعت تمامًا عن الحديث معه، والله أعلم بما حدث ليؤدي إلى هذه النتيجة. لقد أصبح في نهاية الرحلة مثارًا لسخرية جميع أعضاء الوفد، وكان «عباس» يسخر منه علنًا بالطريقة الآتية: رآه مرة وهو يقبل يد راقصة رخيصة في أحد الكباريهات (لاشك بسبب كونها كوبية، بلد الكفاح الثوري المسلح) فقال له عباس إن ماريا ذكرت له إنها تشعر بالغيرة الفظيعة عندما رأت منه هذه الحركة. فإذا بابتسامة واسعة ترتسم على وجه حسام علامة الرضا التام؛ مما جعل «عباس» يستغرق في الضحك بصوت عال، وأصرّ على أن «حسام» يجب عليه أن يذهب من فوره للاعتذار لماريا على ما بدر منه!».

كان من بين أعضاء الوفد المصري أيضًا رسّام هادئ الطبع، طيب القلب، ولكنه قليل الكلام. كان ماركسيًّا بدوره، أو على الأقل كان هكذا في يوم ما؛ إذ حكى لي أنه اعتقل في ١٩٥٩ في حملة اعتقال الشيوعيين؛ لأنه كتب العبارة الآتية على حائط مجاور لبيت عبد الناصر «أفرجوا عن المعتقلين السياسيين». وقال إنه عومل في السجن معاملة طيبة للغاية لمدة أسبوع، حتى اكتشفت إدارة السجن أنه كتب خطابًا وقام بتهريبه إلى خارج السجن. وكانت هذه تعتبر جريمة لا تغتفر، على الرغم من أن الخطاب كان مضمونه بريئًا تمامًا. أتى إليه من يدعوه بأدب لمقابلة الضابط في حجرته. وبعد ملاطفة قصيرة من الضابط شعر فجأة بصفعة يد قوية على قفاه من شرطي كان واقفًا خلفه. كانت هذه أول مرة في حياته يحدث له مثل هذا، فكان رده أن قام بتوجيه صفعة مماثلة للضابط الواقف أمامه. كان هذا العمل غير متصور وغير

مقبول ألبتة؛ مما أدى إلى ضربه ضربًا مبرحًا حتى سقط فاقد الوعي وجرى دمه إلى جانبه. احتج زملاؤه المسجونون على هذه المعاملة بالإضراب عن الطعام، واستولى على ضباط السجن الخوف من أن ينتهي الأمر بموته، فأخذوا يحسنون معاملته من تلك اللحظة فصاعدًا. بل أصبح مع مرور الوقت صديقًا للضابط الذي ضربه حتى أصبح الضابط يروي له قرب نهاية اعتقاله، مشاكله الشخصية، وأعطاه هدية بمناسبة عيد ميلاده. لم تكن الهدية تزيد عن قرطاس من الفول السوداني، ومع ذلك دارت مناقشة سياسية حامية بين المسجونين الشيوعيين عما إذا كان من الممكن أن يقبل الهدية أو أن عليه ردّها، وانتهى النقاش بقبول الهدية. ولم يفرج عن الرجل إلّا مع بقية الشيوعيين في ١٩٦٤ بمناسبة زيارة خروشوف لمصر.

حكى لي أيضًا، هذا الرجل الوديع، قصة مقتل شهدي عطيه الماركسي والكاتب المرموق، في السجن بسبب التعذيب. قال إنه في فترة ما، كان يؤمر الشيوعيون المسجونون بأن يهتفوا بصوت عالٍ: «تسقط الشيوعية ـ يحيا عبد الناصر ـ أنا مرة». وكان شهدي في حوالي الخمسين من عمره، فقال لهم: «عيب ما يصحّش تطلبوا من واحد زيي يقول كده»، فضربوه بالشومة في موضع قريب من أذنه فسقط. صاح الضابط:

«هاتوا ميّه فوّقوه..»

«ما فاقشي يا فندم»

«هاتوا له تمرجي»

«مافيش يا فندم»

«ارموه في العنبر جوّه»

وبعد ثلاثة أيام صدرت أوامر بوقف ضرب المسجونين.

تبين لي أن جميع أعضاء الوفد المصري، قد تعرضوا للاعتقال في فترة أو أخرى من حياة ثورة يوليو، فيما عداي أنا وأحمد عباس صالح، وإن كانت نجاته من الاعتقال بأعجوبة. حكى لي عباس صالح أنه كان عليه أن يبدأ في كسب رزقه قبل

إنهاء تعليمه بسبب اضطراره لإعالة شقيقيْن أصغر منه إذ توفي أبوه دون أن يترك لهم مصدرًا للدخل، وهكذا لم يحصل على ليسانس الحقوق إلّا في ١٩٥٧ وقد تجاوز الثلاثين من عمره. قال إنه في السنوات الأولى للثورة، وقبل أن يتحول اتجاه عبد الناصر إلى اليسار، كتب للإذاعة مسرحية ذات اتجاه يساري واضح حول ما فعله الإنجليز في الهند. وكان يمكن للمسرحية أن تمر دون أن يلاحظها أحد لولا سوء حظه من ناحيتيْن، الأولى أن المسرحية أعطيت لأفضل مخرج إذاعي فصنع منها مسرحية جذابة للغاية، والثانية أن موعد إذاعتها كان في التاسعة والنصف مساء في أول يوم خميس في الشهر، أي قبل بداية الحفلة الشهرية لأم كلثوم مباشرة، ومن ثَمَّ سمعها الناس جميعًا.

قال لي إن الأمر صدر باعتقاله ولكنه ذهب إلى صلاح سالم، الذي كان عضوًا في مجلس قيادة الثورة، يستعطفه ويطلب منه الرحمة؛ مما أدى إلى تخفيض العقوبة إلى الفصل من الوظيفة، وإن كان صلاح سالم نفسه لم يلبث أن فصل بدوره من مجلس قيادة الثورة لخلافه مع عبد الناصر، وفقد كل سلطاته.

ـ ٤ ـ

بعد نحو سبعة عشر عامًا من رحلتي إلى كوبا أتيحت لي لأول مرة فرصة رؤية روسيا. كان هذا في ١٩٨٤، وكان الاتحاد السوفيتي قد بدأ ينفتح إلى حد ما على العالم، وإلّا ما كان يتصور أن يسمح لطلبة وأساتذة من الجامعة الأمريكية بالقاهرة بأن ينظموا رحلة إلى روسيا؛ لمجرد أن يحصل الاتحاد السوفيتي على كمية من العملة الصعبة.

وعلى الرغم من أن الرحلة كلها لم تستغرق أكثر من أسبوع واحد، قسمناه بين موسكو ولينينجراد، فقد تركت لديَّ انطباعات قوية للغاية، دونتها بعد رجوعي إلى مصر على النحو التالي:

«لم تمضِ عليَّ في روسيا بضع ساعات حتى أدركت كم كنت كغيري ضحية

لذلك التشويه المتعمد أو الساذج لصورة الحياة الروسية. فلا أدري كيف استقرت في عقلي صورة للرجل الروسي وكأنه لا بد أن يكون رجلًا فظًّا غليظًا جاف الطباع قليل المرح. فمنذ أن وطئت قدمي أرض موسكو توالت أمامي صور تناقض هذه الصورة تمامًا. فالضابط الشاب الذي يفحص جواز سفرك لدى وصولك إلى المطار، قد يقلب صفحاته بتأن شديد ويطيل التأمل في صورتك ثم في وجهك للتحقق من أنك أنت صاحب الجواز، ولكنه لا تبدو منه أي غلظة ولا شبهة الاستخفاف بالأجنبي التي كثيرًا ما تواجهك في مطارات أوربا أو أمريكا. والفتيات اللاتي يستقبلن نزلاء الفندق قد لا تبدو منهن أي عبارات ترحيب، طبيعية أو مصطنعة، وقد تجد صعوبة بالغة في التفاهم معهن لجهلهن المفرط باللغات الأجنبية، ولكنك لا تجد من أي منهن مع ذلك، تلك العجلة أو قلة الصبر التي كثيرًا ما تقابلك من مثيلاتهن في الغرب».

والناس في شوارع موسكو ولينينجراد يسود وجوههم وحركاتهم هدوء وسكينة هما النقيض التام للعصبية والعجلة الهستيرية السائدتيْن في كثير من العواصم الغربية، ولم أشاهدهم يقبلون على شراء أي سلعة في الطرقات أكثر من إقبالهم على شراء الزهور.

والنساء الروسيات يذكرنك بالنساء الشرقيات في سكينتهن وعاطفتهن إزاء الأطفال. وخادمة الفندق إذ تجلب لك فنجان الشاي أو القهوة لا تثير لديك الشعور بأنها خادمة تعامل سيدًا بقدر ما تبدو وكأنها حريصة على راحتك. ومرشدتنا السياحية التي تجوب بنا شوارع موسكو لا تكف عن المزاح اللطيف وهي تحدثنا عن هزيمة نابليون أمام موسكو في عام ١٨١٢، أو تلفت نظرنا إلى تماثيل لينين، ولا تشكو من مجموعتنا المصرية إلّا من ضعف التزامنا بالمواعيد المقررة، ولكنها تتقبل هذا بروح صافية لا تخلو من بعض الإعجاب بقلة انضباطنا.

على أن غلظتك أو طيب معشرك، استعدادك أو قلة استعدادك للمرح، أشياء لا حيلة لك معها، وليس في هذا أو ذاك ما يمكننا أن نتعلمه أو نقلع عنه، وإنما الرائع حقًّا هو ذلك النجاح الذي حققه السوفيت في تجنب بعض الأخطاء الفاحشة التي وقعت فيها حضارة الغرب.

إن أجمل الأشياء في الاتحاد السوڤيتي هي أرخصها؛ فأقل الأشياء ثمنًا في روسيا هي الكتب والموسيقى والمسارح والمتاحف. وأنت تستطيع أن تذرع موسكو كلها، رائحًا غاديًا بالمواصلات العامة، بالغة الانتظام، دون أن يكلفك هذا أكثر من خمسة أو عشرة كوبيكات، أي ما لا يزيد على خمسة أو عشرة قروش. ومترو الأنفاق الروسي الشهير، بأسعاره الرمزية، لا يبخل على الناس بالثريات الفاخرة والصور والتماثيل المتدلية من الأسقف أو المعلقة بالجدران، وكأنها تقول للمواطن البسيط: «إن كنوز موسكو ليست بالغالية عليك». وأنت تستطيع أن تشترى سيمفونيات بيتهوفن برمتها، معزوفة أفضل عزف، بما لا يزيد على ما يعادل عشرين جنيهًا مصريًّا.

وموسكو ولينينجراد، من أكثر بلاد العالم الكبيرة رعاية لحدائقها، ومن أقلها تلوثًا وضوضاء. فإذا كانت كتب الاشتراكية تتكلم عن «إشباع الحاجات الإنسانية بدلاً من القدرة على الدفع» كمعيار لتنظيم الحياة الاجتماعية، فلأعترفْ بأني قد رأيت بعض ذلك بعيني. لقد مرضت فتاة أمريكية كانت ترافقنا في رحلتنا فالتزمت الفراش بالفندق، وهى تشك في مرض الصفراء، فعادها أربعة أو خمسة أطباء استدعتهم إدارة الفندق دون مقابل. وذهبت مع زوجتي للاستفهام عما يمكن الحصول عليه من تذاكر لأحد مسارح موسكو المكتظة، فإذا بالفتاة الروسية المسئولة تفيض لنا بشرح ما يعرض في هذا المسرح وذاك، وتخبرنا بأنه قد بقى لديها تذكرتان لأوبرا روسية قديمة، ويستبد بها الحماس في وصفها، ولكنها لا تريد التفريط فيهما إلّا لمن هو قادر بالفعل على استساغة موسيقاها، وتريد التحقق من جدارتنا بهما. و «السوبر ماركت» الروسي لا ينقصه أي شيء ضروري، ولكنه لا يكاد يحتوى على شيء يمكن الاستغناء عنه.

وتكاد موسكو ولينينجراد أن تخلوا من الفترينات، وهما خاليتان تمامًا من الإعلانات التجارية. وقد يضفى هذا عليهما مسحة من الجهامة ويحرمهما من بهاء الألوان والأضواء، ولكن الأمر يحمل أيضًا في طياته معنى ليس من السهل التقليل من شأنه. فأنت تذهب لشراء ما تعرف أنك تحتاج إليه لا لشراء ما يحتاج البائع لبيعه. وحاجاتك تتحدد بشعورك الطبيعي أو اختيارك الحقيقي لا باختيارات البائع وإلحاحه.

وقد يصدم الزائر لأول وهلة إذ يتساءل: «أين المتاجر والمطاعم؟» ثم يكتشف أنها كثيرة، ولكنها لا تعلن عن نفسها.

إن الاتحاد السوڤيتي سرعان ما تبين، بعد تجربة قصيرة فاشلة جرت بعد سنوات قليلة من قيام الثورة، أن «إلغاء النقود»، عمل طوباوي وغير عقلاني، وأن الاستغلال لا يكمن في استخدام النقود، بل في العلاقات الاجتماعية نفسها التي قد تتسم بالاستغلال أو لا تتسم به، مع استخدام النقود أو من دونها. ولكن من المؤكد أن النقود لا تلعب نفس الدور في الحياة السوڤيتية الذي تلعبه في الغرب. فأنت في موسكو لا تشعر بهذا الإحساس الممض الذي تشعر به في الغرب بالحاجة المستمرة إلى إخراج حافظة نقودك للحصول على أدنى سلعة أو خدمة؛ لإرضاء هذا أو إسكات ذاك. ولا تشعر كالمشلول عن الحركة إن لم تكن على أهبة الاستعداد دائمًا للدفع.

إن المرشدة السياحية الروسية تقول لنا بفخر إن مشكلة الندرة في المساكن، وهى ندرة شهيرة، قد أوشكت على الحل، ولم تعد العائلة الروسية مجبرة، كما ظلت عشرات من السنين بعد قيام الثورة، على مشاركة غيرها في نفس المسكن، بل أصبح أكثر من ٨٠٪ من العائلات الروسية، على حد قولها، يتمتعون بمسكن مستقل. ولم تتح لنا بالطبع فرصة التحقق من ذلك.

إن بضعة أيام في موسكو كافية لأن تجعل القادم من بلد اعتاد نمط الحياة الغربية يدهش أشد الدهشة لقلة ما يبدده السوڤيت من موارد. فأنت تذهب لتناول شراب أو طعام سريع في مقهى فلا تنهال عليك الأطباق والمعالق والأكواب وكأنك ستلتهم طعام الأمة بأسرها. وإنما يقدم لك الكوب اللازم، أو الطبق البسيط، وقطعة من الورق لا يزيد حجمها عن الحجم الأدنى الضروري لمسح فمك. والأسطوانة التي تحمل أفضل الموسيقى عزفًا وتسجيلًا مغلفة بغلاف غاية في البساطة هو الحد الأدنى لحمايتها، دون الإفراط في استعمال الورق والألوان. وقلْ مثل ذلك على تجليد الكتب أو تعبئة المواد الغذائية. قد يقال إن هذا الإمعان في التقشف والبساطة يفقد الحياة شيئًا من بهجتها، وهذا مؤكد، ولكن ما أجدر دولة فقيرة كمصر باتباعه. فإذا كان الاتحاد السوڤيتي بكل موارده يلتزم هذه الدرجة من التقشف فنحن أولى منه بالتزامها.

لا بد أن يشعر الزائر العابر للاتحاد السوڤيتي ببعض الضيق من هذا الجهل المطبق باللغات الأجنبية، أو هذا الإصرار الغريب على استخدام اللغة الروسية وحدها. وقد يصل الأمر أحيانًا إلى حد مدهش. فالفندق نفسه، الذي لا ينزل به إلّا غرباء، لا تكاد ترى فيه كلمة واحدة مكتوبة بغير الروسية، بما في ذلك الإرشادات المكتوبة خصيصًا للسياح. ولكني لا بد أن أعترف بأني أحسست بغيرة شديدة لهذا التمسك الصارم بلغتهم القومية، وكأنهم يقولون: «ليس علينا أن نرضخ للسائح، بل عليه هو أن يرضخ لنا إذا كان يريد زيارتنا». وهنا تشعر مرة أخرى بأن الأمر لم ينتهِ عندهم، كما انتهى في بلاد كثيرة، إلى عرض كل شيء للبيع، وتكريس الحياة لخدمة ميزان المدفوعات، والنظر إلى كل شيء، حتى الإنسان، وكأنه من الصادرات المحتملة أو الممكنة.

* * *

حينما زار الكاتبان البريطانيان الشهيران «سيدني وبياتريس ويب» (S. & B. Webb)، الاتحاد السوڤيتي في ١٩٣٢، وفى غمار حماسهما للتجربة الاشتراكية الجديدة، نشرا كتابًا عن انطباعاتهما عنه يحمل في عنوانه السؤال: «هل هي حضارة جديدة؟». ومازلت أعتقد أن اعتبار التجربة السوڤيتية بمثابة حضارة جديدة، على الرغم من أمثلة النجاح في التخلص من كثير من مثالب الرأسمالية، ينطوي على مبالغة شديدة، ليس فقط لأن حسن توزيع السلع لا يرقى إلى مرتبة إعادة النظر في طبيعة السلع المنتجة نفسها، ولكن لأن هناك من الدلائل ما قد يشير إلى أن قبول التكنولوچيا الغربية يحمل في طياته خطرًا لا يبدو أن الاتحاد السوڤيتي نفسه، بكل قوته وموارده، قادر على تجنبه.

إن للتكنولوچيا الغربية ومنتجاتها، فيما يبدو لي، منطقًا يؤدى كل جزء منه إلى ما يليه في حتمية مذهلة. إن من السهل نسبيًّا أن تتجنب مثلًا ازدحام مدنك بالسيارات، وأن تقلل من ضوضائها وضجيجها وتلويثها للهواء، كما أن من السهل نسبيًّا أن تحسن توزيع إنتاجك من السيارات، فتتجنب إنتاج السيارات الفاخرة وتجعل ملكية السيارة الصغيرة متاحة للجميع. ولكن للسيارة الخاصة نفسها منطقًا يكاد يستحيل عليك إذا قبلت إنتاجها، إلّا أن تتبعه إلى النهاية، ولو كان في ذلك حتفك. كذلك فإن للمدينة

الكبيرة منطقًا يستحيل عليك، إذا قبلت حجمها، أن تتجنب نتائجه. فمع ازدياد القوة الشرائية وتضخم حجم المدن، والإمعان في تطبيق أساليب الإنتاج الكبير، سوف يطلب الجميع أن تكون لهم سياراتهم الخاصة، وسيطلب الجميع أن يعيشوا بالقرب من مركز الثقافة والترفيه والسلطة. وستضطر الدولة، التي حرصت كل هذا الحرص على الاحتفاظ بمسافة شاسعة بينها وبين الغرب، إلى زيادة علاقاتها التجارية معه، ومع التجارة سيأتي نمط للحياة مختلف تمامًا، وسيعود للأسف إلى النقود سلطانها، وإلى الاستهلاك الضروري والكمالي سطوته.

وعلى الرغم من أننا لم نقض في الاتحاد السوفيتي إلّا أسبوعًا، فإننا شهدنا بداية كل ذلك. لقد بدأ يشيع ارتداء السراويل الزرقاء الأمريكية الشهيرة (الجينز)، وبدأت مسارح الرقص على الجليد والسيرك الروسي تعزف مقطوعات الموسيقى الغربية الخفيفة التي يقبل عليها الشباب الروسي إقبالًا غريبًا. وزاد التسامح مع الشباب الصغار في الخروج البسيط على القانون، هذا الخروج على القانون الذي وإن كان مازال يتسم ببراءة شديدة، فإنه ينبئ عن شيء آخر قادم. وبدأ الجيل السوفيتي الجديد يسمع أكثر فأكثر عن مفاتن الحياة الغربية ويسيل لعابه لها. وظهرت متاجر لبيع مجوهرات ثمينة، رأيت السيدات الروسيات الأكثر ثراء يتأملنها بإعجاب. وبدأ السويديون يقدمون للسوفيت خبرتهم في بناء الفنادق على أحدث طراز غربي، وشركة فيليبس تبيع لهم بعض الأجهزة الإلكترونية المتقدمة، كما رأيت أكشاكًا تبيع البيبسي كولا وإن كانت لا تزال تحمل على غطائها الاسم بالروسية.

كل هذا كفيل بتحذيرنا. إنه لا يحمل، في رأيي، أي سبب لليأس من إمكان الابتكار والإبداع، ولا يعنى بالضرورة أن الطوفان لا بد أن يشملنا كما شمل أو بدأ يحيط بغيرنا. ولكنه يحمل لنا التنبيه التالي: «المشكلة عويصة للغاية، وهي لا تحل لا بالإذعان ولا بالتظاهر بسهولتها».

- ٥ -

دونت هذه الانطباعات عن روسيا بعد عودتي منها في ١٩٨٤، وبعد خمس سنوات سقط حائط برلين الذي كان يفصل بين الدول الشيوعية والرأسمالية، ثم توالى سقوط

النظام الشيوعي في دولة بعد أخرى من دول أوربا الشرقية، ثم سقط النظام السوفيتي نفسه في ١٩٩١، وتحولت روسيا إلى نظام أقرب إلى الرأسمالية منه إلى الشيوعية.

أصيب الشيوعيون بالطبع بصدمة عنيفة في كل مكان، ولم يكونوا ليصدقوا أن هذا ممكن الحدوث. وقد كانوا يؤمنون إيمانًا قاطعًا بأن الرأسمالية لا بد أن تخلي مكانها للاشتراكية، وأن الاستعمار (كما قال لينين) هو أعلى مراحل الرأسمالية، فإذا بهم يرون ما قد يعني العكس بالضبط: أن الرأسمالية أعلى مراحل الاشتراكية (في روسيا على الأقل)، وأن الرأسمالية لا تكف عن تجديد نفسها إلى درجة أن يكتب أحد أنصارها في مطلع التسعينات كتابًا يحقق نجاحًا باهرًا اسمه «نهاية التاريخ»، ويقصد بذلك الانتصار النهائي للرأسمالية على الاشتراكية.

كان الدكتور فؤاد مرسي الزعيم الشيوعي العنيد، في زيارة لموسكو قبيل سقوط الاتحاد السوفيتي، فإذا به يستقبل في مطار موسكو استقبالًا فاترًا، ويقدم عليه مصريون حكوميون لا صلة لهم بالاشتراكية. وقد ذكر لي من رآه في هذا الموقف ما بدا على وجهه حينئذ من بؤس شديد. وقد سمعنا بعد ذلك بأشهر قليلة نبأ وفاته وهو يقود سيارته في طريق القاهرة - الإسكندرية؛ إذ اختلت في يده عجلة القيادة. ولم أستطع أن أطرد من ذهني خاطر أن الكمد والإحباط كان لهما دور في الحادث.

تظاهر بعض الماركسيين المصريين بأن سقوط النظام السوفيتي لم يفت في عضدهم، ولكن الحقيقة لم يكن من الممكن إخفاؤها. إذ ما أعظم الآمال التي بناها الماركسيون بالمقارنة بما أسفرت عنه الأحداث بالفعل.

* * *

كنت منذ أشهر قليلة أقرأ في كتاب عن تاريخ حياة «چورچ برنارد شو» (George Bernard Shaw)، ذلك الأديب الاشتراكي الأيرلندي الفذ، وأحد مؤسسي «الجمعية الفابية» (Fabian Society) التي أنجبت حزب العمال البريطاني. ولفت نظري ما ورد في الكتاب عن الأثر الذي ولّده قيام الثورة الروسية في أكتوبر ١٩١٧ على الاشتراكيين الإنجليز. كان الحماس منقطع النظير والآمال عالية، وكان برنارد شو

أحد هؤلاء المتحمسين الكبار لما يحدث في روسيا. وعلى الرغم من إيمانه العميق، هو وزملاؤه الفابيون، بالديمقراطية، فإنهم أبدوا استعدادًا لأن يغفروا للثورة قسوتها في معاملتها لأعدائها وديكتاتوريتها، على أساس أنها مرحلة مؤقتة، قد تكون ضرورية لتحقيق المساواة، ثم تعقبها الديمقراطية. ذهب برنارد شو كما ذهب زميلاه سيدني وبياتريس وب، لزيارة روسيا في أوائل الثلاثينات وقابلوا الزعيم السوفيتي ستالين، وعادوا إلى إنجلترا يكتبون بحماس عن الأمل في بزوغ عصر جديد يقوم على المساواة والعدل.

لفت نظري بشدة ما كان يشيع في العالم في ذلك الوقت (العشرينات وأوائل الثلاثينات) من تفاؤل بإمكان حلول الاشتراكية (بل الشيوعية) محل الرأسمالية، ومن ثَمَّ انتهاء عهد الاستغلال الذي لم يعرف الإنسان غيره في تاريخه الطويل منذ عهد الشيوعية البدائية، أي قبل أن يكتشف الإنسان الزراعة. فاعتراني عجب شديد من أن يحل محل هذا التفاؤل الشديد، ما نراه اليوم ونشعر به مما يشبه اليأس التام من أن تستطيع أي دولة تحقيق العدل المنشود والمساواة المفقودة.

(١٤)

«تمدين الفقر»

-١-

كانت السنوات الثلاث الفاصلة بين وفاة جمال عبد الناصر (١٩٧٠) وحرب أكتوبر(١٩٧٣)، من أشد السنوات كآبة في تاريخ المصريين، على الأقل طوال النصف الثاني من القرن العشرين. وفيما يتعلق بي، كانت أيضًا مليئة بالمنغصات.

أما الاكتئاب العام فأسبابه معروفة ومشهورة. ففي ١٩٧٠ كانت قد انقضت ثلاث سنوات على هزيمة ١٩٦٧ واحتلال إسرائيل لسيناء. وظهر أن هذا الاحتلال، الذي كنا نظن أنه لن يطول أكثر من بضعة أشهر، مازال قائمًا وقد يستمر سنوات طويلة، وقد لا ينتهي على الإطلاق. كان هناك الأمل في أعقاب الهزيمة في أن تؤدي المفاوضات الدولية وقرارات الأمم المتحدة ومجلس الأمن إلى انسحاب الإسرائيليين، ولكن المفاوضات طالت، وراح مندوب دولي وجاء غيره، وإسرائيل رافضة تنفيذ أي قرار، ولم تؤدِّ أعمال المقاومة البسيطة، التي سماها عبد الناصر «حرب الاستنزاف»، إلى استرداد أي شيء.

سمعنا فقط جعجعة مستمرة وشعارات تبعث على اليأس أكثر من الأمل، كشعار «ما أخذ بالقوة لا يسترد إلّا بالقوة»، ونحن نرى أنه لم تعد لدينا قوة تذكر، أو شعار «لا صوت يعلو فوق المعركة»، الذي كان يتخذ ذريعة لإسكات أي صوت يحاول أن يطالب النظام الحاكم بشيء.

وابتدعت الحكومة مختلف الوسائل لإيهام الناس بأنها تفعل شيئًا جادًّا لاسترداد سيناء، وأن الحرب مازالت مستمرة، فأمرت بطلاء النوافذ باللون الأزرق، وببناء حوائط أسمنتية أمام أبواب العمارات السكنية لحمايتها من الغارات، كما حاولت إيهامنا بأنها جادة في تعقب المسئولين عن الهزيمة ومعاقبتهم، أو في إشراك بعض الأشخاص الوطنيين في الحكم، ولكن كل هذا لم يأخذه المصريون مأخذ الجد، وكبتوا غيظهم الشديد لأنهم لم يروا أمامهم ما يمكن عمله.

ثم مات عبد الناصر فجأة، وكأنه هو نفسه لم يجد أمامه من مهرب إلّا الموت، فإذا بالذي يتولى الحكم بعده رجل لا يتمتع بثقة المصريين ولا حتى باحترامهم؛ لكثرة ما سمعوا عنه طوال العقديْن الماضييْن من قصص لا تبعث على الثقة ولا الاحترام. وعندما أطلق أنور السادات على انقلابه الصغير في مايو ١٩٧١، الذي أطاح فيه بخصومه الأقرب إلى السوڤيت منهم إلى الأمريكيين، اسم «ثورة التصحيح»، أثار هذا الاسم غيظ المصريين مثلما أغاظهم من قبل، تسمية الهزيمة المنكرة بـ«النكسة».

في أثناء كل ذلك كانت الحياة اليومية تتدهور لقلة ما بيد الحكومة من أموال (بسبب الهزيمة أيضًا)، فتركت المرافق العامة يسوء حالها يومًا بعد يوم؛ فطفحت المجاري في الشوارع، وتركت الحفر الكثيرة فيها دون ردم، وضاق الحرفيون بعجزهم عن استيراد المواد اللازمة لعملهم بسبب ندرة العملات الأجنبية، كما توقف تجديد الآلات في المصانع وأعمال الصيانة، ناهيك عن إنشاء مصانع جديدة أو استصلاح أراضٍ جديدة كانت مياه السد العالي قد توفرت لها.

في ١٩٧٢ هب الشباب من طلبة الجامعات في مظاهرات غاضبة يطالبون بإنهاء حالة «اللا حرب واللا سلم»، وبعمل جدي لاسترداد سيناء، فضلًا عن تخفيض أعباء المعيشة على الناس. وانضم كبار المثقفين والأدباء إلى الشباب الغاضب، فكتبوا عريضة وقع عليها بعض ممن كانوا ينأون بأنفسهم عادة عن الاشتراك في أي عمل سياسي؛ إذ لم يستطيعوا في هذه الظروف أن يلتزموا الصمت، أو أن ينشغلوا بشيء آخر غير ما يشغل الناس. حكى لي الكاتب المسرحي ألفرد فرج، بعد ذلك بسنوات، بأن توفيق الحكيم، الذي كان قد وضع توقيعه هو ونجيب محفوظ على عريضة

احتجاج قدمت إلى السادات، قال له يومًا في سنة ١٩٧٢، وهو عائد إلى بيته في سيارة ألفرد فرج، إنه لا يدري ماذا يصنع. الناس غاضبون بحق وقد وقَّع على البيان تأييدًا لهم، ولكن السادات غضب عليه بسبب هذا التوقيع ووصفه في أحد خطبه بـ«الشيخ المخرّف»، ورجال قريبون من السلطة يتصلون به تليفونيًّا المرة بعد المرة ليطلبوا منه سحب تأييده للعريضة. قال له أيضًا إن زوجته المريضة مرضًا خطيرًا في الفراش سمعت التليفون يدق فأفاقت من إغماءتها وسألت زوجها: من المتكلم؟ فلما قال لها اسمه، وكان معروفًا بقربه من السادات، قالت وهي في نصف غيبوبة: «والله لو سحبت توقيعك فلن يصفح الناس عنك أبدًا»، ثم راحت في غيبوبة طويلة.

-٢-

كان لا بد أن يكون لهذا المناخ العام أثره عليَّ أنا وعلى زوجتي، ولكن كانت لدينا أيضًا أسبابنا الخاصة للابتئاس.

كنت قد بدأت في ١٩٦٩ التدريس في الجامعة الأمريكية أستاذًا مساعدًا، معارًا من جامعة عين شمس لمدة عامَيْن، ثم حصلت بعد انتهائهما على منحة من مؤسسة فورد لمدة سنة لكتابة بحث في أي موضوع من اختياري، والسفر خلال ذلك إلى أي مكان أختاره؛ إذا كانت كتابة البحث تستلزم هذا السفر. فرحت بالمنحة واخترت موضوع «التطور الاقتصادي في البلاد العربية خلال ربع قرن» (١٩٤٥ - ١٩٧٠)، كما اخترت أن أقضي نصف السنة في بيروت والنصف الثاني في كامبردج بإنجلترا، فوافقت مؤسسة فورد على ذلك.

كان لبيروت في ذلك الوقت (أوائل السبعينات وقبل نشوب الحرب الأهلية) سحر قوي في أعين المصريين. كانت كل السلع الممنوعة في مصر، متاحة وبمختلف الأصناف في لبنان، وكان المصري إذا سئل من أين أتى بهذه الألعاب الرائعة لأطفاله، أو من أين له هذا الجبن المدهش، أو التفاح الذي لا يُرَى له مثيل في مصر، يجيب في الغالب بأنه من لبنان. كانت لبنان بلدًا مفتوحًا على العالم، ليس فقط فيما يتعلق

بالسلع، بل أيضًا بالكتب والصحف التي كان استيرادها يخضع لقيود شديدة في مصر. كانت فرصة قضاء ستة أشهر في لبنان تبدو رائعة، إذن، لأسرة مصرية فيها طفلان صغيران، وبعد حرمان من كل أنواع الكماليات لمدة سبع سنوات. كنت قد زرت لبنان قبل ذلك بنحو عشرين عامًا (١٩٥٣و١٩٥٤) في رحلة جامعية ثم في رحلة خاصة مع بعض الأصدقاء، ووجدتها بلدًا ساحرًا بجباله وشواطئه وخضرته ومناخه ونظافته وموسيقاه وطعامه... إلخ، فاشتقت إلى رؤيتها من جديد.

أما كامبردج فكنت لازلت أتذكر جمالها وسحرها منذ كنا، نحن الطلبة المصريين في لندن، نزورها من حين لآخر لقضاء عطلة نهاية الأسبوع. كنت قد وقعت في غرام كامبردج منذ رأيتها، ولازلت حتى الآن أعتبرها أجمل مدينة وأظرفها في الوجود، أو على الأقل أحب المدن التي رأيتها إلى قلبي. إذ أين هي المدينة الأخرى التي تستطيع فيها أن تقطعها كلها من أحد أطرافها إلى الطرف الآخر، سائرًا على الأقدام، فلا ترى أثناء سيرك إلّا حدائق غنّاء يجرى في وسطها نهر هادئ؟ على جانبي النهر بيوت صغيرة يندر أن يزيد ارتفاعها عن ستة أمتار، فلا يشعرك السير جوارها بضآلتك وتفاهتك (كما تشعر في مدينة كنيويورك مثلًا)، حتى تصل إلى مباني الجامعة رائعة الجمال، والتي تُركت في حالة لا تكاد تختلف عما كانت عليه عندما بنيت منذ خمسة أو ستة قرون. وفي تلك المدينة الهادئة والجميلة، تجد كل ما يمكن أن تحتاج إليه من ضروريات وكماليات، المسارح ودور السينما والمطاعم والمكتبات... إلخ.

لم أكن أستطيع أن أذكر لمؤسسة فورد أن من بين دوافعي لاختيار بيروت وكامبردج كمكانيْن للقيام ببحثي، جاذبية السلع الاستهلاكية في لبنان بعد حرمان طويل منها في مصر، أو جمال كامبردج ورغبتي في استعادة ذكريات ثمينة لي هناك. ولكن لحسن الحظ أن كانت لديَّ مبررات أخرى حقيقية أيضًا: وهى ثراء مكتبة الجامعة الأمريكية في بيروت بالمراجع المتعلقة باقتصاديات البلاد العربية، وثراء مكتبة جامعة كامبردج أيضًا بالكتب في أي موضوع يخطر بالبال، بما في ذلك الكتب العربية.

اعتبرت زوجتي أن من الضروري أن نصحب معنا إلى لبنان خادمة مصرية، وإلّا فكيف ستكون حياتها هناك ومعها طفلان صغيران، ونحن لا نعرف أحدًا في بيروت

يمكن أن نترك معه الطفليْن إذا أردنا الخروج؟ استطعنا أن نغرى خادمتنا النوبية بالسفر معنا تاركة وراءها زوجها وابنتها، بما عرضناه عليها من مرتب جيد ووعد بدفع نفقات سفرها للحج. وجاءت معنا بالفعل. ولكن ظهر أن فترة إقامتنا في لبنان ابتداء من صيف ١٩٧٢، لم تكن إلّا سلسلة متتالية من المتاعب وخيبة الأمل، فلم نتركها إلى كامبردج في مارس ١٩٧٢ إلّا ونحن في حالة إعياء تام، صحيًّا ونفسيًّا.

كانت خيبة الأمل الأولى في لبنان نفسها كبلد. فالجمال الذي كنت قد رأيته في أوائل الخمسينات، اعتدت عليه المباني اعتداء فاحشًا، وكأن لبنان شهدت شيئًا مثل «حركة التسوير» التي عرفتها أوربا في نهاية العصور الوسطى؛ حيث تحولت الأراضي المشاع إلى أراض مملوكة ملكية خاصة بوضع سور يمنع الغير من استخدامها؛ رغبة في الاستئثار بالربح الكبير الذي أصبحت تأتي به التجارة. هكذا رأينا الشواطئ الجميلة تحاط بأسوار تمنع الناس من دخولها إلّا بدفع رسم دخول، والاضطرار إلى شراء مشروب تافه بأسعار باهظة. وزحفت العمارات على الجبال، وأصبح من الصعب العثور على حديقة يمكن أن يلعب فيها الأطفال بحرية وبلا مقابل. وقد حاولت أن أصحب زوجتي وأولادي إلى أماكن جميلة في الجبل، كنت قد أعجبت بها منذ عشرين عامًا، فوجدتها قد تحولت إلى مبانٍ عالية أو محلات تجارية.

كان أول ما لفت نظري في لبنان هو هذه السطوة الكبيرة للمال في مختلف نواحي الحياة. تسير في شوارع بيروت فتروعك كثرة البنوك ومحلات الصرافة والمحلات التجارية من كل صنف، حتى قيل إن أكثر من ٦٠٪ من مساحة أرض بيروت تشغلها المحلات التجارية. ولكنك تحار في العثور على رصيف تمشي عليه، فقد صعدت السيارات على الأرصفة أو اعتدت عليها الدكاكين. وليس هناك سعر معروف للسلعة، فأنت قد تدفع لتاجر ضعف ما كان يمكن أن تدفعه للتاجر الذي يليه، والمسألة تتوقف في النهاية، كمعظم الأشياء في لبنان، على «الشطارة».

فوجئت بمعاملة لم أتوقعها من أحد المستشفيات، عندما وقعت خادمتنا (سميحة) التي أتينا بها من مصر، مغشيًّا عليها في البيت دون أن نعرف السبب. كنا قد تركناها مع ابني تامر الذي كان عمره أقل من سنتيْن، وذهبت أنا إلى مكتبة الجامعة الأمريكية

وخرجت زوجتي للتسوق. فإذا بزوجتي عند عودتها تدق الباب ولا من مجيب، وتسمع صوت تامر دون أن تسمع صوتًا من سميحة. كسرت زوجتي الباب بمعونة البواب، فرأتها راقدة على الأرض تتنفس ولكن بلا حراك. نقلناها بعربة الإسعاف إلى المستشفى، فرفضوا إدخالها حتى ندفع مبلغًا كبيرًا على سبيل التأمين ولم يكن في جيبي هذا المبلغ. لا يبدو مثل هذا التصرف غريبًا الآن بعد أن اعتدنا على نظام المستشفيات التجارية، ولكنه كان غريبًا عليَّ حينئذ. ذهبت بسرعة وأحضرت المبلغ ودخلت سميحة المستشفى، وبقيت فيه يوميْن أو ثلاثة، على نفس الحالة التي دخلت بها، حتى توفيت.

كان التشخيص ارتفاعًا مفاجئًا في ضغط الدم، وكانت بالفعل مريضة به ولكننا لم نكن نعرف مدى انتظامها في تناول الأقراص اللازمة. كنت حينئذ في السادسة والثلاثين من عمري، وصدمني الحادث بشدة وكأني اكتشفت واقعة الموت لأول مرة. وربما ضاعف من قوة الصدمة، شعوري بالذنب إذ جئنا بها إلى بيروت لتموت بعيدًا عن أهلها. دخلت مع السفارة المصرية في ترتيب إجراءات نقل الجثمان إلى القاهرة، وكان لا بد أن تذهب زوجتي إلى القاهرة لمرافقة الجثمان؛ إذ إن ذهابي أنا كان معناه دخولي في مصر في إجراءات الحصول على تأشيرة الخروج من جديد مع احتمال الفشل في الحصول عليها.

كانت وفاة سميحة مجرد البداية لمنغصات ومتاعب متتالية. إذ توالت على طفليّ نوبات من المرض، يشفى أحدهما ليمرض الآخر، ولم ينتهِ مرض الاثنيْن حتى مرضت زوجتي چان بدورها، وتفرغت أنا لخدمتها ورعاية الطفليْن من دون مساعدة من أحد، حتى مرضت أنا بدوري، وكان مرضي أخطر وأشد استعصاء على الشفاء.

عندما خرجت من مستشفى الجامعة الأمريكية في بيروت، دون أن نكتشف نوع مرضي ولا سبب شفائي، كنت قد وصلت إلى اقتناع تام بأننا لن نخرج من هذه الدوامة اللانهائية من المصاعب إلّا بخروجنا من بيروت، وكان لديّ أمل قويّ في أننا بمجرد أن نصل إلى بيت والدي زوجتي على شاطئ البحر في إنجلترا سوف تنتهي آلامنا. وبالفعل استرددنا جميعًا صحتنا بسرعة، وسافرنا إلى كامبردج متفائلين، وعدت إلى

ما كنت قد انقطعت عنه من قراءة وكتابة في بحثي الذي جئنا من أجله أصلًا. ولكني لم أكن أعرف ما ينتظرني من منغصات عند العودة إلى القاهرة، وهو ما كان أفظع بكثير مما قابلني حتى الآن، وقادني إلى القيام ببعض أعمال العنف المادي مما لم أقم به قط في حياتي، لا قبل ذلك ولا بعده.

-٣-

بدأت القصة عندما كنا نستعد للسفر إلى بيروت في صيف ١٩٧١؛ إذ خطر لي أن أؤجر بيتي خلال العام لمستأجر أجنبي، بما فيه من أثاث، بعد أن أكوّم ما أخاف عليه من كتبي وأوراقي وبعض قطع الأثاث في غرفة صغيرة أقوم بإغلاقها. كان بيتنا في المعادي جميلًا للغاية، على الأقل في نظري ونظر زوجتي، تجمعت لدينا فيه ذكريات عزيزة، خلال السنوات السبع الأولى من زواجنا، وكان قد وضع تصميمه مهندس معماري شاب من أصدقاء أخي أحمد، راقه أن أعطيه الحرية الكاملة في تطبيق أفكاره في المعمار، فبذل فيه كل جهده ونتج عن ذلك هذا البيت الجميل، بحديقته الداخلية الصغيرة التي تحيط بها الغرف، وتتوسط هذه الحديقة الداخلية نافورة صغيرة تستقبل الشمس، وفى نفس الوقت يتمتع الجالسون حولها بحصانة كاملة من أعين الغرباء أو الجيران. كان البيْت، على هذا النحو، ذا جاذبية خاصة لمن يحب أن يسكن المعادي من الأجانب، ورأيت من المفيد أن أؤجره لأحدهم، ممن أستطيع أن أثق بأنه سيترك لي البيت بعد الفترة المحددة للإيجار، وهو ما كان يستحيل توقعه من مستأجر مصري؛ حيث كان القانون المصري يعطى المستأجرين المصريين الحق في البقاء بالبيت إلى الأبد طالما يدفعون الإيجار، دون أن يكون للمؤجر حق إخراجهم منه أو حتى زيادة قيمة الإيجار.

جاءني شاب يعمل سكرتيرًا ثانيًا بسفارة بنما بالقاهرة، بدا لي طيبًا ومتمدينًا، وعرّفنا إلى خطيبته الأرجنتينية المقيمة أيضًا بالمعادي فوجدناها أنا وزوجتي، لطيفة بدورها ومتحضرة، فوقعنا معه عقد إيجار لمدة سنة واحدة، وكان من الواضح تمامًا أننا ننوي العودة إلى بيتنا بعد هذه السنة عندما تنتهي منحة مؤسسة فورد؛ إذ ليس أمامي بعد

هذا إلّا أن أعود إلى جامعتي بالقاهرة، وليس هناك أي احتمال لمد الإيجار لأكثر من ذلك. لم يثر في ذهني أي شك في سلامة نيته وصدقه، ولهذا استغربت بشدة عندما اتصلت به تليفونيًا من مدينة كامبردج قبل عودتي بنحو شهر لأخبره بموعد وصولي، فإذا به يعطيني إجابة غامضة مؤداها أنه يرجو أن يجد بيتًا آخر يمكن الانتقال إليه، ولكنه ليس واثقًا من سهولة ذلك. عندما أعدت قراءة العقد الذي وقعناه، تبين لي أن هناك نصًّا مطبوعًا لم نعلق عليه أي أهمية وقت توقيع العقد، يتجدد الإيجار بمقتضاه لمدة سنة أخرى إذا لم يرسل المؤجر إلى المستأجر خطابًا مسجلًا بإنهاء العقد في موعده، قبل حلول هذا الموعد بشهر على الأقل. لم أكن قد أرسلت له مثل هذا الخطاب، ولكني كنت قد كلمته تليفونيًا. إذن، فلم يكن للمستأجر أي سند أخلاقي في الامتناع عن تسليم البيت لي بعد انتهاء السنة، وإن كان لديه سند قانوني بسبب عدم إرسالي الخطاب المسجل في المدة المحددة. عندما بدأت أرتاب في الأمر أرسلت له الخطاب المسجل على أي حال، ولكن كان هذا بعد انتهاء الوقت المحدد قانونيًا لذلك، وعلمت فيما بعد أن الخطاب وصله ولكنه رفض التوقيع باستلامه.

عندما عدت أنا وزوجتي وأطفالي في أوائل سبتمبر إلى القاهرة، قابلته فإذا بي أكتشف عزمه الأكيد على نكوصه عن وعده وأنه متمسك بالبقاء في المنزل، وأنه سيحاول أن يتركه في عطلة الكريسماس ولكنه ليس واثقًا من ذلك. اضطررت إلى تأجير شقة مفروشة بالمعادي، وغاظني أشد الغيظ أن أجد نفسي ممنوعًا من الوصول إلى كتبي التي أحتاجها لتحضير محاضراتي، وأن أرى زوجتي وأطفالي محرومين من متاعهم وملابسهم وألعابهم نتيجة إصرار رجل سخيف على التمسك بأمر شكلي يتعارض على أي حال مع ما أقرّ به، واتفقنا عليه بكل وضوح قبل سفري إلى إنجلترا. فلما اقتربت عطلة الكريسماس ورفض الرجل أن ينفذ ما كان قد وعدني به بعد عودتي؛ جن جنوني وأصابتني حالة من الغضب وعدم التصديق لا أظن أني مررت بمثلها من قبل. استقر رأيي على أن مثل هذا الرجل لا يجوز التعامل معه إلّا بالعنف، وأنه بصرف النظر عما يقوله القانون، فإن استخدام العنف في مثل هذه الحالة مبرر تمامًا. وقد شرعت بالفعل في التصرف معه على نحو يشبه ما يمكن أن يصدر من

رجل فقد صوابه. وعبثًا حاولت زوجتي أن تثنيني عن عزمي، فقد بدا الأمر لا يطاق ولا يحتمل أي صبر.

بدأت بالذهاب إلى منزلي وتحطيم زجاج سيارته تحطيمًا تامًّا وتكسير بعض زجاج نوافذ بيتي نفسه. ذهب إلى قسم الشرطة واتهمني بالقيام بهذا العمل، وكان الضابط الذي يسألني ويكتب إجاباتي تلميذًا قديمًا لي في كلية الشرطة؛ إذ كان أساتذة كلية الحقوق بجامعة عين شمس يقومون بإلقاء نفس محاضراتهم مرة أخرى في كلية الشرطة، فقابلني أحسن مقابلة، وفهم بالضبط الوضع الذي أواجهه، وسبب ما أفعله وأقوله، فلم يحاول أن يزيد مهمتي صعوبة. ولكن هذا كان مجرد البداية. ففي اليوم التالي، وكان هو يوم عطلة الكريسماس، استيقظت في الصباح الباكر، والأدق أني لم أكن قد نمت لحظة واحدة طوال الليل من شدة الغيظ والغضب، وأقسمت أمام زوجتي أننا سننام الليلة التالية في سريرنا بمنزلنا الذي يرفض الرجل أن يرحل عنه. وذهبت فاستأجرت ثلاث عربات «كارو» تجرها ثلاثة من الحمير، ووضعت عليها بعضًا من حقائبنا ومتاعنا، وأمرت صاحب العربات أن يتبع سيارتي، وركبت أنا السيارة وكأني قائد حملة في طريقه لغزو بيته هو لإعادة احتلاله.

وقفت بسيارتي وورائي العربات الثلاث أمام باب بيتي في ساعة مبكرة من صباح يوم الكريسماس، فربما لم تكن الساعة تتجاوز الثامنة بكثير. وصعدت السلم وضغطت على الجرس فإذا بالسيد باتيستا، المستأجر الملعون، يفتح الباب وهو لا يكاد أن يكون قد استيقظ بعد. ذلك أني طوال الليل كنت جالسًا بجوار جهاز التليفون أدير رقم تليفونه كل بضع دقائق حتى حرمته من النوم. كان كلما رفع سماعة التليفون فلم يسمع صوتًا، عرف أنني أنا الذي وراء السماعة الأخرى فيصيح وقد فقد أعصابه بما يعني التهديد بقتلي. وذلك قبل أن أضع السمّاعة لأعيد الاتصال من جديد. كان الآن يتوقع أي شيء مني، بعد أن حطمت له زجاج سيارته وبعض زجاج بيتي، ولكنه فوجئ مع ذلك بوصولي مع متاعي أمام بيته في هذه الساعة المبكرة.

قلت له وقد فتح الباب أن عليه أن يترك البيت على الفور، فقد جاء يوم الكريسماس وقد سبق له أن قال إنه سيترك البيت في الكريسماس. قلت هذا وأنا

أرتعش من الغضب، فدعاني للدخول للحديث في هدوء ففعلت. وحاول أن يقنعني بالانتظار بضعة أيام ريثما يجد بيتًا آخر فرفضت. ثم استدرجني بطريقة أو بأخرى إلى الشرفة مرة أخرى، وإذا به يدخل ويغلق جميع الأبواب، ويرسل خادمه لمركز الشرطة لاستدعاء بعض رجالها، وراح هو يجري بعض المكالمات التليفونية لنفس الغرض. ووجدت نفسي خارج المنزل مهددًا بفقدان كل ما أحرزته من تقدم حتى الآن. زاد غضبي وانفعالي، وبدأت أتصرف دون وعي بما أفعل. ذهبت إلى سيارتي وأحضرت «الكوريك» الحديدي، وذهبت إلى حديقة البيت الخلفية متجهًا إلى باب زجاجي كبير كان يقود إلى الحديقة الداخلية، وعازمًا على تحطيم الزجاج بالكوريك والدخول إلى البيت من الخلف. كان يرى ما أنا مقدم على عمله فصاح بي ألا أفعل، ولكني نفذت ما خطر ببالي بالضبط. حطمت الباب الزجاجي ودخلت دون أن أرى قطع الزجاج المعلقة بأعلى الباب والتي شجت رأسي وأنا أعبر إلى داخل البيت، فسالت مني كمية كبيرة من الدم لا بد أن منظرها، وقد غطت ملابسي بأكملها، قد أثار ذعره على نحو لم يستطع أي من تصرفاتي السابقة أن يثيره. فإذا بمنظر الدم يحيله إلى شيء أقرب إلى الكلب المذعور لا يدري ما يفعل أو إلى أين يذهب. عندما رأيت ذعره شعرت لأول مرة بإمكانية الفوز بما أريد. فتحت الباب، وطلبت من صاحب عربات الكارو بلهجة حاسمة أن يدخل كل أشيائي إلى داخل البيت ففعل دون أن يعترض المستأجر طريقه.

كان الشجار والصياح قد بدآ يلفتان نظر الجيران والسائرين في الشارع، وكان من بينهم صبي هو ابن البستاني الذي يشعر بالولاء التام لي، فإذا به يركب دراجته ويسرع إلى زوجتي لإخبارها بما حدث لي، وإذا بها تركب وراءه على الدراجة وتأتي مذعورة في محاولة لإسعافي. دخلت زوجتي البيت فرأتني ممدودًا على سرير ابني، والمستأجر باتيستا يحاول أن يجلب إليّ كمية بعد أخرى من الثلج، وقد أراحه مجيء زوجتي خوفًا من أن ينتهي الأمر بمصيبة كاملة له. وقال لزوجتي إن عليها ألا تكف عن توجيه الكلام إليَّ حتى أظل محتفظًا بوعيي. قادتني زوجتي بالسيارة إلى أقرب مستشفى، حيث طلبتُ من الممرضة أن تلفّني بأكبر قدر ممكن من الأربطة الطبية حتى تظهر الإصابة بمظهر أكثر خطورة مما لها في الحقيقة. وأصررت على العودة

إلى بيتي. وعندما فتح المستأجر الباب ووراءه كلب أسود ضخم، لم يحاول منعي بل تركني أذهب إلى حيث أشاء، فإذا بي أقصد مباشرة سريري القديم وأمدد قدميَّ عليه بما فيهما من حذاء، وغطيت نفسي وكأني لم أترك هذا السرير قط طوال السنة السابقة. وطلبت كوبًا من الليمون فأتى به خادمه بالمطلوب على صينية رائعة.

حتى الآن، بدا وكأن الأحداث تسير في صالحي تمامًا. ولكن فجأة وصل ضابط شرطة لا يعرفني ولا أعرفه. دخل إلى حجرة نومي وجلس في مقعد أمامي، وجاءه المستأجر وعلى وجهه ملامح الانتصار، وسلّمه صورة من عقد الإيجار الموقع بيني وبينه، مشيرًا إلى أن العقد يلزمني بإرسال خطاب مسجل إذا أردت إنهاءه، وهو ما لم أفعله. قال لي الضابط بوجه متجهم إن العقد يقول كذا وكذا، والرجل يطلب فقط إمهاله بضعة أيام أخرى حتى يجد مسكنًا آخر، قلت له إنني كلمته تليفونيًّا من إنجلترا ثم أمهلته ثلاثة أشهر، وإني على استعداد أن أدفع له تكاليف إقامته بالفندق حتى يجد مسكنًا. ردّد الضابط عرضي للمستأجر فرفض، فعاد الضابط يطلب مني إمهاله بضعة أيام فرفضت، وطلبت منه أن يريني العقد فأعطاه لي فأخذته ومزّقته، وألقيت بقطع الورق على الأرض. كان هذا أقصى ما يمكن للضابط احتماله، فهب من مقعده غاضبًا وقال إن ما فعلته لا يفعله إلّا أصحاب السوابق، وخرج متوعدًا وخرج وراءه باتيستا.

شرعت في مواجهة الخطر على الفور. فأعطيت زوجتي عددًا كبيرًا من الأسماء وأرقام التليفونات للاتصال بها رغبة في تعبئة أكبر مساعدة ممكنة. طلبت منها مثلًا الاتصال بأستاذ أمريكي في الجامعة الأمريكية لتطلب منه الاتصال بالسفارة الأمريكية لمحاولة بذل الجهود مع سفير بنما، والاتصال بعميد كليتي لإخباره بما يحدث، والاتصال ببعض إخوتي للمجيء إليَّ على الفور، والاتصال بصديق محام لطلب النصيحة... إلخ، وقد أتت هذه الاتصالات بثمرات طيبة للغاية.

أوصاني المحامي بأن أوطد وجودي بمسكني؛ إذ المهم في مثل هذه الأمور هو «الأمر الواقع»، وليذهب المستأجر إلى القضاء إذا أراد، فهذا سيطول أمره ولن يعود عليه بنفع. أما عميد كلية الحقوق فقد وصلته رسالة غامضة كل ما فهمه منها أني

أتعرض لاعتداء من نوع ما وأنني في خطر يجب حمايتي منه، فاتصل بعميد كلية الشرطة وهو لواء كبير، وصلته رسالة أكثر غموضًا كانت نتيجتها أن أرسل إشارة لقسم شرطة المعادي بأن يفعلوا ما في وسعهم لمساعدتي.

انتظر المستأجر أن يفعل ضابط الشرطة الغاضب شيئًا لصالحه فلم يفعل، فإذا بي، لفرحتي الغامرة، أراه يبدأ في حزم متاعه، ولم تحل الساعة الرابعة أو الخامسة بعد الظهر حتى كان قد غادر البيت إلى الأبد. نعم، لقد اشتكاني في وزارة الخارجية المصرية، وطلبت مني الوزارة تعويضه عن الخسائر التي لحقته من جراء هجومي على البيت وتحطيم بعض متاعه، فدفعت كل ما طلب مني دون مساومة، ولكني شعرت بانتصار ورضا عن النفس يندر أن شعرت بمثلهما طول حياتي.

ـ ٤ ـ

بالرغم من كل ما صادفناه من متاعب خلال ذلك العام (١٩٧١ - ١٩٧٢)، كان عامًا مثمرًا فيما يتعلق بالبحث والكتابة. فلمجرد أني تحررت في تلك الفترة من جميع أعباء التدريس، وقضيت عدة أشهر بجوار مكتبتيْن ثريتيْن للغاية، لا أبحث في أيهما عن كتاب أو مقال إلّا وجدته، استطعت أن أكتب خلال ذلك العام، كتابًا جيدًا لا يخلو من ابتكار، كان هو أول إنتاج «أكاديمي» بمعنى الكلمة، منذ أنهيت رسالتي للدكتوراه منذ سبعة أعوام. كان هذا هو كتاب «تمدين الفقر» (The Modernization of Poverty)، وعنوانه الفرعي: (دراسة للنمو الاقتصادي في تسعة بلاد عربية، ١٩٤٥ - ١٩٧٠)، وقد جلب لي الكثير من السرور أثناء كتابته وبعدها. كتبته بالإنجليزية ونشرته لي في ١٩٧٤ دار نشر هولندية محترمة (Brill, Leiden)، وقد تكونت لديَّ أثناء اشتغالي على هذا الكتاب بذرة لم تكن لديَّ من قبل (في شكل واعٍ على الأقل) ونمت وترعرعت بعد انتهائي منه، وهي بذرة الاهتمام بما يحدث لـ«هوية» الأمة في غمار التنمية الاقتصادية.

كنت قد بدأت بحثي عن اقتصاديات البلاد العربية، وأنا في بيروت، بداية

تقليدية بحتة؛ إذ رحت أبحث عما حدث لمعدلات النمو والتصنيع، وعجز موازين المدفوعات، ومدى الاعتماد على القروض... إلخ، وإن كنت قد سمحت لنفسي، أكثر مما يسمح الاقتصاديون عادة لأنفسهم، بأن أتطرق إلى بحث العوامل السياسية والاجتماعية وراء هذا التطور الاقتصادي أو ذاك. ولكن مع تقدمي في التعرف على ما حدث في هذه الفترة في بلد عربي بعد آخر، لفت نظري أن ما مرت به البلاد العربية التسعة التي شملتها الدراسة، كان فيه من أوجه الشبه ما هو أهم بكثير من أوجه الاختلاف، على الرغم من كثرة ما كان يتردد من تمييز بين الأنظمة العربية «المحافظة»، كالسعودية والكويت والأردن، والأنظمة التقدمية أو «الثورية» كمصر وسوريا والعراق. خطر لي أن التشخيص الحقيقي لما كان يحدث في البلاد العربية كلها، قد لا يكون أنه نوع من أنواع التنمية، كما كان الميل الشائع ولا يزال، بل ربما كان التشخيص الأصح بكثير هو أنه «تغريب»، أي مجرد محاكاة لأنماط السلوك في الغرب. إنه لم يكن في الحقيقة مسيّرًا نحو القضاء على الفقر أو التخفيف منه، بقدر ما كان مسيّرًا لإعادة إنتاج النمط الغربي في الحياة. لهذا كان اختياري في النهاية لعنوان الكتاب: «تمدين الفقر».

هذه الفكرة التي يحملها الكتاب لم تظهر بوضوح إلّا في صفحات الكتاب الأخيرة؛ إذ كنت قد كتبت الفصول الأولى قبل أن تتضح لي هذه الصورة النهائية. ولكن هذه الفكرة ظلت معي ولم تفارقني بعد انتهائي من الكتاب، بل زاد اعتقادي بصحتها قوة مع مرور الوقت، ولازلت أعتقد أنها تشخيص أفضل لما حدث في البلاد العربية في الخمسين سنة الأخيرة، من أي تشخيص آخر يركز على النتائج الاقتصادية أو السياسية.

حقق هذا الكتاب نجاحًا أكبر بكثير مما توقعت، فكتبت عنه عدة «مراجعات» (reviews) في مجلات أكاديمية في الخارج، وتلقيت مكالمة تليفونية بعد صدور الكتاب، من اقتصادي بريطاني مرموق «Dudley Seers» أثنى فيها على الكتاب؛ إذ كان هو نفسه يتبنى موقفًا نقديًا للغاية من الكتابات السائدة في التنمية، والتي تهمل العنصر الإنساني.

يبدو أن الكتاب قد لفت أيضًا نظر بعض الاقتصاديين والمؤرخين في اليابان؛ ربما لتعاطف اليابانيين، بصفة عامة، مع من يعبّر من اقتصاديي العالم الثالث عن تمرده على الطريقة الغربية في التفكير، مثلما تمردوا هم. فظهرت ترجمة يابانية للكتاب، ووصلتني بعض نسخ من الترجمة، وإن كنت حتى الآن لا أستطيع أن أميز فيما كتب على الغلاف بين اسمي واسم الكتاب. وفي نفس السنة (١٩٧٦) حصلت بسبب هذا الكتاب على جائزة الدولة التشجيعية في مصر، ثم طلب مني الناشر الهولندي إعداد طبعة جديدة من الكتاب فظهرت الطبعة الثانية في ١٩٨٠.

يجب أن أعترف، مع هذا، بأن جزءًا كبيرًا من الاستقبال الجيد للكتاب في الغرب كان يعود إلى ما احتواه الكتاب من نقد لأخطاء السياسة الناصرية في مصر. لقد أنهيت كتابة هذا الكتاب في سبتمبر ١٩٧٢، وكانت قد مرّت على وفاة عبد الناصر سنتان، ولكن النظام الاقتصادي في مصر كان لا يزال كما هو؛ إذ لم يدشن أنور السادات سياسة الانفتاح الاقتصادي إلّا في ١٩٧٤، كما أن سياسة التصالح مع إسرائيل وتنكر السادات للقومية العربية لم تبدأ إلّا بعد حرب ١٩٧٣، ومن ثَمَّ كان لا يزال هناك كثيرون من المعلقين والمهتمين بشئون الشرق الأوسط ممن يسرهم بشدة قراءة نقد لسياسات عبد الناصر.

كان من بين هؤلاء أستاذ بريطاني من أصل يوناني اسمه («ب. فاتيكيوتس» (P. Vatikiotis))، كان يدرس في كلية الدراسات الشرقية والإفريقية بجامعة لندن أثناء سنوات دراستي بكلية لندن للاقتصاد. وكنا كثيرًا ما نلتقي في تلك الفترة، وكذلك خلال زياراته لمصر بعد عودتي. كان الرجل شديد الكراهية لأي شيء يمت لعبد الناصر بصلة، كما كان قريبًا جدًّا من دوائر المخابرات البريطانية (ثم الأمريكية، كما عرفت فيما بعد). عبّر الرجل عن ترحيبه الشديد بكتابي، وكتب عنه مقالًا طويلًا في مجلة أكاديمية بريطانية، عبّر فيه عن أسفه من أن تقوم بنشر مثل هذا الكتاب دار هولندية بدلًا من دار نشر بريطانية. سررت طبعًا بثنائه على الكتاب، ولم أكن أدرك حينئذ أن وراء هذا الثناء سروره بأي نقد لنظام عبد الناصر.

لم يترجم هذا الكتاب إلى العربية، لم أترجمه أنا ولم أسعَ إلى أن يترجمه غيري،

والسبب هو أنه لم تمضِ على ظهور الكتاب بالإنجليزية إلّا أشهر قليلة حتى رأينا أنور السادات ينقلب على السياسة الناصرية الاقتصادية والعربية والخارجية، انقلابًا تامًّا. وفجأة بدأت أنظر إلى التجربة الناصرية نظرة أكثر تعاطفًا، بل كتبت خاتمة جديدة للطبعة الإنجليزية الثانية (١٩٨٠) أذكر فيها ما طرأ على بعض أفكاري من تغير بعد ظهور الكتاب. ولم أجد لديَّ رغبة في ترجمة الكتاب إلى العربية، بما فيه من انتقادات لنظام عبد الناصر، في مناخ يمتلئ بالهجوم الظالم عليه.

(١٥)

عقدة الخواجة

- ١ -

لديَّ الكثير من الأدلة على أن جدي لأبي لم يكن يعاني مما نسميه اليوم «عقدة الخواجة»، أي الشعور بالنقص إزاء الأوربيين والأمريكيين، ليس بصدد صفة معينة، ولكن «بصفة عامة».

ولد جدي في منتصف القرن التاسع عشر، وعاش حتى أوائل العشرينات من القرن العشرين؛ إذن فقد عاش الجزء الأكبر من حياته في ظل الاحتلال الإنجليزي. ومع ذلك فإني من خلال ما سمعته من أبي عنه، ومما كتبه أبي في سيرته الذاتية، أستطيع أن أقطع بأن جدي لم يشعر بالنقص إزاء الإنجليز أو غيرهم من «الخواجات»، وأن ذلك لسبب بسيط هو إيمانه العميق بأن كونه مسلمًا يجبّ كل الفضائل الأخرى، وأن كل ما قد يكون بيد الأجنبي من سِلع، وما قد يزهو به من قوة، لا يساوي شيئًا في نهاية الأمر إذا قورن بأن يولد المرء مسلمًا وينفذ فرائض الإسلام. وعلى أي حال، فقد ظلت السلع التي يمكن أن يكون قد رآها جدي بيد الأجنبي ضعيفة الإغراء وقليلة الانتشار. لا بد أن جدي قد وجد مثلًا من السهل جدًّا في شيخوخته أن يستغني عن جهاز الراديو، وأن يقنع بما في بيته من أثاث بسيط، ولا أظنه ذهب مرة واحدة في حياته إلى المسرح، ناهيك عن السينما، ولا استمع إلى أغنية مسجلة على أسطوانة، كما أن من المؤكد أنه لم يخطر بباله أن يستبدل الزي الأوربي بزيّه الأزهري.

كان الأمر مختلفًا جدًّا مع أبي؛ مما جعل عقدة الخواجة عنده أقوى بكثير مما كانت عند

جدي، وإن كانت أقل قوة، بكل تأكيد، مما أصبحت في جيلي أنا وإخوتي. لم تنشأ عقدة الخواجة عند أبي (كما فهمت من كتابه «حياتي») مما شاهده من سلع استهلاكية فاتنة مما أنتجه الغرب، بل كانت بدايتها غريبة وغير مألوفة إذ كانت أخلاقية وعلمية. فهو يروي كيف أنه في مطلع شبابه، وكان قد اشتغل مدرّسًا للغة العربية بإحدى مدارس الإسكندرية، تعرّف إلى مدرس آخر يكبره كثيرًا في السن، ويدرس اللغة العربية أيضًا ولكن في مدرسة أخرى، فبهر بعلمه وخلقه ويصفه بقوله: «كان طويل القامة، معتدل الجسم، جميل الوجه، ذا لحية سوداء، نظيفًا في ملبسه، أنيقًا في شكله من غير تكلف... وكان متدينًا، بل كان صوفيًّا... وكان مع تصوفه هذا واسع الأفق حرّ الفكر، لا يدين بشيء من الخرافات والأوهام، ويؤيد الشيخ محمد عبده في دعوته إلى الإصلاح. وكان في مدرسته محبوبًا محترمًا، يجله زملاؤه ورؤساؤه وتلاميذه، أبي النفس، عزوفًا عن الصغائر، يعتمد في دروسه مع تلاميذه على الحب لا على الإرهاب، ويترك لهم الحرية في الحديث والنقد إلى درجة تشبه الفوضى، حتى كان تلاميذه يسمونه الشيخ الإنجليزي؛ لترفعه وحريته وصدق قوله وسعة أفقه».

هكذا كان رأي أبي في الإنجليز، إذن، وهو يكتب كتاب «حياتي»، أو على الأقل وهو في مطلع شبابه. ثم زادت قوة هذا الشعور بالنقص إزاء الخواجة؛ عندما شعر أبي بالغيرة مما كتبه المستشرقون الأوربيون والأمريكيون عن الإسلام، إذ يروي في نفس الكتاب: «ويومًا قابلت صديقي أحمد بك أمين (وهو سميّه أستاذ القانون) وجلسنا في مقهى، وذهب الحديث فنونًا إلى أن وجدته يقول إنه عثر على كتاب إنجليزي قيم لمستشرق أمريكي اسمه ماكدونالد «Theology of Islam»، وأنه قسّم كتابه إلى ثلاثة أقسام: قسم يتعلق بنظام الحكم في الإسلام، وقسم في تاريخ الفقه الإسلامي، وقسم في المذاهب والعقائد الإسلامية. وأخذ يطري الكتاب ويحكي بعض آرائه، فاستفزني الموضوع، وقلت: «هل تستطيع الآن أن تذهب معي إلى مدرسة (برلتيز) لأرتب دروسًا لي في الإنجليزية؟ فقبل، وأقسمت أن أتعلم وأن أقرأ هذا الكتاب بلغته. وذهبنا إلى المدرسة ورتبنا دروسًا ثلاثة في الأسبوع بمائة وخمسين قرشًا كل شهر».

لا بد أن أبي، بالإضافة إلى ذلك، قد بهرته أيضًا بعض منتجات التكنولوچيا الغربية؛

فقد ركب القطار كثيرًا (مما لم يفعله جدي إلّا نادرًا)، وركب الباخرة والطائرة (مما لم يره جدي قط)، ورأى إنجلترا وفرنسا وهولندا وبلچيكا وسويسرا، وكتب كلامًا مؤثرًا في مدح ما رآه من سلوك الإنجليز في بلادهم:

«... رأيت كبار الإنجليز وسمعت أقوالهم، وأصغيت إلى تفكيرهم... أكبر ما يمتازون به علينا توزيع الاختصاص، والنظام الدقيق، وثقة الكبير بالصغير، والصغير بالكبير، ومعالجتهم الأمور معالجة علمية منظمة، فكل شيء مدروس ولا شيء مرتجل، والغرض محدد وأساليبه مرسومة، لا ارتجال ولا فوضى ولا تفكير عفو الساعة. كما أعجبني في الشعب ديمقراطيته الحقة، فكل إنسان ينظر إليه على أنه إنسان، كبيرًا كان أو صغيرا... هذا وزير خارجية إنجلترا يلبس قميصًا بليت ياقته، وهذا وزير المستعمرات يقول في بعض أحاديثه معنا: إنه لم يشترِ بدلة جديدة منذ نشبت الحرب... وهذه الطوابير المنظمة في كل شيء لا يحق لأحد فيها أن يتقدم من قبله...».

إني لا أعلق أهمية كبيرة، من حيث قوة عقدة الخواجة عند أبي، على استبداله الزي الأوربي بالزي الأزهري، وهو في نحو الأربعين من عمره، فلم يكن هذا بسبب عقدة الخواجة فيما أظن؛ بل لاقتناعه بأن العمامة رمز لرجل الدين وقد أصبح، وقد انضم إلى هيئة التدريس بالجامعة المصرية، رجل علم وأدب، بالإضافة إلى: «ما كنت ألاقيه في لبس العمامة من عناء، فعامة الناس في مصر، وخاصة في المدن، يجلّون العمامة ظاهرًا ولا يجلّونها باطنًا؛ ويوقرون الطربوش غالبًا ويستخفون بالعمامة غالبًا، ويتغلغل في نفوسهم مبدأ مقرر وهو أن صاحب الطربوش يحترم إلّا إذا ظهر عكس ذلك، وصاحب العمامة يحتقر إلّا إذا ظهر عكس ذلك...».

ولكن من المؤكد أن أبي ظل خلال الجزء الأكبر من حياته، يقبل فكرة تقسيم العالم إلى قسميْن: قسم راق أو متقدم، وقسم غير راق أو متخلف، وكرس أكثر جهده للمساهمة في «تنوير» بني وطنه؛ بمحاولة إرساء أسس مدرسة جديدة (أو على الأقل تقديم إضافة مهمة لأسس هذه المدرسة) ترمي إلى ترسيخ فهم عقلاني للإسلام، وتقديم تفسير عقلاني للتاريخ الإسلامي، وهو ما أعتقد، ويعتقد الكثيرون، أنه نجح فيه نجاحًا باهرًا.

-٢-

كان حال جيلي أنا وإخوتي مع عقدة الخواجة مختلفًا عن حال أبي وجيله؛ إذ كان كل ما نتعرض له في المدرسة أو في حياتنا اليومية، وفي الحياة الثقافية السائدة في صبانا ومطلع شبابنا، يعمل على ترسيخ هذه العقدة.

من ذلك، مثلًا، ما أصبحت تحتله اللغة الأجنبية من أهمية في حياتنا. إن جدي لم يشعر قط بحاجته إلى تعلم لغة أجنبية، إذ ما الذي يمكن أن يجلبه ذلك من تقوية إيمان المرء أو جعله مسلمًا أفضل مما كان؟ أما أبي فلم يبدأ في تعلم لغة أجنبية إلّا في منتصف العشرينات من عمره، ومن ثَمَّ ظلت الأسس الراسخة لثقافته مستمدة من التراث. ولكن أبي عندما رزق بأول أولاده خلال الحرب العالمية الأولى كان قد استقر رأيه على أن أفضل مدرسة يمكن أن يرسل إليها هذا الابن هي «مدرسة الفرير»؛ حتى يتعلم لغة أجنبية منذ نعومة أظفاره. لم يكرر أبي هذا مع بقية الأولاد، فأرسل الباقين كلهم إلى مدارس حكومية تحاول الجمع بين الثقافتيْن، ولكنها كانت ترسخ فينا من دون وعي منا «أفضلية الأجنبي» (وبالذات الغربي على الوطني)، وأفضلية «المعاصر أو الحديث» على القديم.

أذكر جيدًا كيف أنه حتى السبعينات على الأقل (أي حتى قاربت الأربعين من العمر) كانت كلمة «بلدي» شائعة الاستعمال لوصف الأنواع الرديئة من السلع أو الذوق أو السلوك. لقد اختفت هذه الكلمة من الاستعمال اليوم، أو كادت، وحلت محلها كلمة «بيئة»، ولكن كلمة «بلدي» كانت أقوى بكثير في التعبير عن عقدة الخواجة. فالخبز «البلدي»، هو الخبز الأرخص والأقل نقاء، والذي يفضل عليه دائمًا الخبز الأجنبي متى كان متاحًا. والهدية فاسدة الذوق، إما بألوانها الصارخة وإما بعدم ملاءمتها للمناسبة التي تقدم فيها، هي أيضًا «بلدي»، وكذلك التحدث بطريقة غير مهذبة، أو الرقص بهز البطن... إلخ. كيف ترسخ هذا الشعور بأن أي شيء «بلدي» أسوأ من أي شيء «أفرنجي»؟

كنا في الشارع نرى من يلبس البدلة الأوروبية، أو القميص والبنطلون، وكذلك من

يلبس الجلباب، فكان الأول، في كل الأحوال تقريبًا، يبدو أعلى دخلًا وأكثر نظافة من الآخر، ويلبس حذاء، بينما كثيرًا ما يسير الآخر حافيًا. وفي وسائل المواصلات كان الأفرنجي دائمًا أسرع وأنظف من البلدي، إذا قارنا الترام أو المترو أو حتى الدراجة والموتوسيكل، بالعربة الكارو أو الحنطور. وفي المدرسة كان مدرس اللغة العربية (وكان عادة هو أيضًا مدرس الدين)، وإن كان رجلًا طيبًا جدًّا، يعتبر في نظرنا «بلدي» بالمقارنة بمدرس اللغة الإنجليزية. وقد أثر هذا في موقفنا من اللغتيْن؛ فعاملنا اللغة الإنجليزية، مثلما عاملنا مدرسها، باحترام أكبر مما عاملنا به اللغة العربية. من المؤكد أن السبب لم يكن أن اللغة العربية أقل جمالًا أو أقل قدرة على التعبير عما في النفس من الإنجليزية، ولا أن قواعد النحو في اللغة العربية أبعد عن المنطق. كل ما في الأمر أن طريقة تدريس اللغة العربية والأدب العربي والدين كانت أقل ملاءمة لسن التلاميذ من طريقة تدريس الإنجليزية، هذه الطريقة التي تعرضت للتطور منذ بداية النهضة الأوربية حتى أصبحت مستساغة تمامًا من جانب التلاميذ (أو على الأقل أكثر قابلية للاستساغة). العيب، إذن، لم يكن في المادة نفسها بل في طريقة تقديمها، كما أدركت فيما بعد، ليس فقط فيما يتعلق بتدريس اللغات، بل بجوانب كثيرة أخرى من الحياة، نعلي فيها من شأن الحضارة الغربية بالمقارنة بحضارتنا.

كانت في مدرستي (النموذجية) حصص للموسيقى نجتمع فيها مع مدرس لطيف في حجرة جميلة في حديقة المدرسة. ومن أجمل ذكريات صباي قيام فرقة الموسيقى بالمدرسة بالعزف في حفل ضخم أقيم في دار الأوبرا القديمة (بجوار ميدان العتبة)؛ حيث اشتركت مدارس كثيرة بإرسال فرقها لأداء قطع موسيقية، وكنت أنا أحد أعضاء فرقة مدرستنا، وقد دربوني على آلة سموها «الجازباند»، وهي عبارة عن مجموعة من الأدوات الموسيقية المتشابكة: طبلة كبيرة يدق عليها بمطرقة باستخدام القدم، وطبلة صغيرة يدق عليها بعصاتيْن رفيعتيْن، وأسطوانة نحاسية وقطعة خشبية يدق عليهما بنفس العصاتيْن. كنت أفعل هذا بسرور فائق. ولكني عندما أتذكر الآن ما كنا نفعله (وكنت وقتئذ في نحو العاشرة من عمري) لا أتذكر أننا عزفنا قطعة موسيقية عربية واحدة، بل كان كل ما نعزفه «غربيًّا»، ولا يشمل حتى موسيقى لمحمد عبد الوهاب الذي كان قد «تغرّب» وقتها بما فيه الكفاية. من أين كان يمكن أن يأتينا حب

أو تقدير الموسيقى العربية؟ كانت أجمل الأغاني العربية القديمة (التي لم أكتشف جمالها إلّا بعد سن الثلاثين)، لا تذاع إلّا نادرًا في الإذاعة المصرية، وفي ساعات متأخرة من الليل. والأفظع من هذا وذاك أن المغنّين الذين كانوا يؤدون هذه الأغاني في صباي كان يحظون منا بدرجة من السخرية (تقرب من الاحتقار) لا أجد لها الآن أي مبرر على الإطلاق. فما الذي كان يعيب صالح عبد الحي مثلًا، عندما كان يغني ألحان محمد عثمان إلّا أنه كان يغني بطريقة يعتبرها الغربيون الآن (ونحن بالتالي) مملة وبطيئة أكثر من اللازم، وأن كلماتها لم تعد مألوفة اليوم بينما كانت عادية تمامًا ومألوفة في نهاية القرن التاسع عشر، مثل الإشارة إلى الحبيب بكلمة «يا سيدي»، أو اعتبار «الوصل» شبه مستحيل بسبب ما كان شائعًا وقتها من فصل تام بين الجنسيْن؟ ما علاقة هذا ـ على أي حال ـ بجمال الموسيقى وقوة تأثيرها في النفس؟ الذي حدث أن الافتتان بكل جديد، وبالطريقة الجذّابة التي تقدم بها، جعلنا نُفتن أيضًا بكل ما هو غربي ونحتقر كل ما لدينا من قديم.

كانت السينما مصدرًا مهمًّا من مصادر المتعة والترفيه في سنوات الصبا ومطلع الشباب، وكان للسينما المصرية عندما بدأت أفهم قصص الأفلام في أوائل الأربعينات، تاريخ لا بأس به، بل أنتجت بعض الأفلام في الثلاثينات مما لازلت أعتبره من أظرف ما رأيت من الأفلام على الإطلاق ومن أتقنها تمثيلًا. ولكن المدهش أن تقديري الشديد لهذه الأفلام (وكذلك تقدير كثيرين من جيلي لها) لم يحدث إلّا بعد أن أخذت تضعف عقدة الخواجة، بل بعد ظهور هذه الأفلام بأكثر من ثلاثين عامًا. تمامًا مثلما حدث مع تقديرنا للموسيقى العربية القديمة. كانت الأفلام التي بهرتنا في الأربعينات والخمسينات هي أفلام هوليود، لا لأن قصصها أروع أو تمثيلها أفضل مما كانت تنتجه السينما المصرية؛ ولكن لأنها كانت أكثر جاذبية بفخامتها أو سرعة حركتها أو ألوانها ثم (في فترة المراهقة) بما تظهره من مفاتن نسائها. كانت هوليود أكثر مهارة أيضًا في جذب الصبية الصغار من أي شيء تنتجه السينما المصرية، فلم يكن لدينا مثيل ولا منافس لأفلام لوريل وهاردي، أو أفلام الطفلة شيرلي تمبل، أو الطفل ميكي روني، ناهيك عن أفلام طرزان المدهشة وأفلام الرسوم المتحركة لوالت ديزني وأشهرها أفلام ميكي ماوس... إلخ.

نعم، كان معظم الأفلام المصرية في ذلك الوقت مفرطًا في رومانسيته ومبالغاته مما لم ينطلِ علينا حتى ونحن صبية صغار، ولكني أزعم أنه في حالة السينما أيضًا، كما كان الحال مع اللغة والموسيقى، كان مصدر الجاذبية هو الطريقة التي كان يقدم بها العمل الفني، وربما أيضًا التجديد المستمر فيه، أكثر من عناصر الجمال الذاتي أو درجة العمق. بعبارة أخرى، كان الثراء وسرعة التغير سببيْن مهميْن لجاذبية ما يأتينا من الغرب، أي لوقوعنا بسهولة في براثن عقدة الخواجة، بينما كان الفقر وبطء التغيير سببيْن مهميْن لاحتقار ما هو وطني أو «بلدي»، ومنعانا من رؤية أوجه الجمال الحقيقية فيه، مثلما تنجح المرأة في جذب الأنظار إليها وتحويلها عن امرأة أخرى أجمل منها؛ لمجرد أن الأولى تستطيع أن تنفق أكثر على إبراز مفاتنها، ولا تكفّ عن تغيير ما ترتديه من ثياب أو ما تتحلى به من مجوهرات.

ـ ٣ ـ

كان تشبث أبي بفكرة إرسال أولاده لاستكمال دراستهم في أوربا يرجع جزئيًا، بلا شك، إلى عقدة الخواجة، وإن كان للفكرة ما يبررها بالطبع في حالة دراسة الهندسة (كما في حالة أخويّ محمد وعبد الحميد) أكثر منها في حالة الذهاب لدراسة الإنسانيات أو العلوم الاجتماعية أو الآداب (كما في حالة زوج أختي فاطمة ـ عبد العزيز عتيق ـ الذي ذهب إلى أكسفورد لدراسة شعر أبي فراس الحمداني!). وكانت الخطابات التي تأتينا من إنجلترا من محمد وعبد الحميد ومن أختي وزوجها، تدعم ما كان لدينا من قبل من عقدة الخواجة: «كل ما يفعله الإنجليز عظيم»، هكذا كانت تقول الخطابات الواردة من إنجلترا، ليس فقط في العلم والتكنولوچيا، ولكن أيضًا في العلاقات الاجتماعية. ولا شيء يعيب إنجلترا إلّا البرد الشديد، الذي لا ذنب للإنجليز فيه، والطعام المسلوق الذي هو أفضل للصحة على أي حال.

أذكر خطابًا من أختي فاطمة (في وقت ما في أواخر الأربعينات) تقول لنا فيه بفخر إن زوجها الدكتور عبد العزيز بدأ يتلقى دروسًا في الرقص الغربي، وإن كان يجد مشقة كبيرة في تعلم خطوات التانجو! كان الرقص الغربي الشائع في ذلك الوقت،

بعكس الشائع الآن، هو الرقص الثنائي حيث يحيط الرجل بذراعه خصر المرأة التي يراقصها، فاعتبرنا نحن أيضًا أنه هكذا يجب أن يكون الرقص، وأخذنا نتعلمه كمظهر من مظاهر التمدن والعصرية، واعتبرت الطبقة المتفرنجة في مصر أي شخص ينتقد هذا النوع من الرقص أو يظنه إفراطًا في الإباحية، شخصًا رجعيًّا ومتخلفًا، إذ كيف يظن أن مجرد أن يمسك الرجل بيد المرأة، ولو كانت غريبة عنه، أو أن يحيط خصرها بذراعه خروج عن الأدب، أو وقوع في الفاحشة؟ لا بد أن زوج أختي كان قد اقتنع بذلك عندما ذهب لأخذ دروس في الرقص أثناء إقامته بإنجلترا، ولم يمنعه من الاستمرار في ذلك أي شك في أخلاقية العمل، بل منعه فقط أنه لم يكن يمتلك أي حس موسيقي، فعجز عن التحرك الطبيعي مع الموسيقى، وأعلنت مدرّسة الرقص يأسها التام منه.

* * *

هكذا كان شعوري أنا أيضًا نحو الغرب عندما سافرت لدراسة الاقتصاد في لندن. وعندما أخبرت أستاذي سعيد النجار، الذي حصل على الدكتوراه في الاقتصاد من نفس الجامعة، وكان يعاني هو نفسه مثلنا جميعًا من عقدة الخواجة، بأمر البعثة، قال لي إني ذاهب بقدمي إلى «عرين الأسد». وعندما أسترجع ما قرأته خلال سنوات البعثة بإنجلترا، في خارج علم الاقتصاد، أجد أن أغلبه كان يدور إما حول الماركسية، وإما الوضعية المنطقية، وإما عن عصر النهضة الأوربية أو عصر التنوير الأوربي والثورة الصناعية في أوربا، كما كان كل ما قرأته في تلك السنوات في هذه الموضوعات بالإنجليزية. وقد ظللت مفتونًا طوال هذه الفترة بالمسرح الإنجليزي والسينما الإيطالية أو السويدية، كما سبق أن ذكرت، ولم أقرأ بالعربية إلّا الأجزاء التي لم أكن قرأتها من كتب أبي في الإسلاميات. ولا أذكر أني طلبت من أحد في مصر أن يرسل لي وأنا في إنجلترا أي كتاب باللغة العربية.

قد يبدو من المدهش الآن أن تلك السنوات (١٩٥٨ - ١٩٦٤) التي قضيتها في إنجلترا، والتي شهدت أعنف هجوم من جانب جمال عبد الناصر والثورة المصرية على الغرب، وتعاطفت أنا خلالها مع معظم انتقاداته للغرب والاستعمار، لا يبدو أن

كان لها أثر يذكر في إضعاف عقدة الخواجة لديّ أو لدى جيلي من المصريين. ولكن ليس من الصعب تفسير ذلك. فهجوم عبد الناصر العنيف على الغرب لم يكن مبعثه كراهيته لنمط الحياة الغربي، بل مجرد كراهيته للسيطرة الغربية، ومن ثَمَّ نلاحظ أنه كلما وجد عبد الناصر أنه قد حقق بعض التقدم في التحرر من هذه السيطرة راح يقلد النموذج الغربي بحذافيره، بما في ذلك تحويل مؤسسة الأزهر إلى نسخة بائسة من الجامعات الحكومية التي تطبق نفس النموذج الغربي في التعليم، مع إضافة اللغات الأجنبية إلى المقررات التقليدية في الشريعة وأصول الدين وقواعد اللغة العربية.

ـ ٤ ـ

الأصعب في التفسير هو ما حدث من تغير كبير في موقفي من الغرب في السنوات الأخيرة من الستينات وأوائل السبعينات، وكنت حينئذ في نحو الخامسة والثلاثين من عمري. هل يجوز أن أفسر هذا التحول بما كان يحدث في الغرب نفسه من تحولات؟ إن بعض الكتّاب يشيرون إلى منتصف الستينات كنقطة مهمة في تاريخ الغرب؛ إذ يشيرون إلى بداية ظهور المجتمع الاستهلاكي أو إلى بداية انتشار الحرية الجنسية، أو إلى بدء انتشار النمط الأمريكي في الحياة... إلخ. هل جعلني هذا، كله أو بعضه، أكثر استعدادًا مني في أي وقت في الماضي لاكتشاف بعض العيوب في نمط الحياة الغربي بل الشك في أفضليته على نمط حياتنا؟

أم أن للأمر علاقة بهزيمة العرب الفظيعة في ١٩٦٧؟ نعم، لقد انتشر بعد هزيمة ١٩٦٧ كثير من مظاهر الحنين إلى الماضي، كزيادة الكتابات التاريخية التي تعيد إلى الناس بعض الثقة في ماضيهم الأفضل من حاضرهم، وكالاهتمام بإحياء الموسيقى العربية، وكانتشار مظاهر التدين والتمسك بشعائر الدين، لدى المسلمين والأقباط على السواء. ولكن أكان هذا وذاك من مظاهر الشك في أفضلية النمط الغربي في الحياة، أم مجرد بحث عن وسيلة للعزاء والسلوى بعد هزيمة منكرة؟

هل كان ما أصاب عقدة الخواجة عندي من ضعف، ابتداء من أواخر الستينات

وأوائل السبعينات، ما قرأته في هذه الفترة من كتب في نقد الحياة الغربية، ونقد التكنولوچيا الحديثة، وتثير الشك في فكرة التنمية الاقتصادية من أساسها؟ لقد بدأ الغرب هو نفسه، في هذه الفترة، يعبّر عن شكوك قوية في طريقته في الحياة من أكثر من جانب. كانت ثورة الطلبة في ١٩٦٨ من هذا النوع، وكذلك زيادة الاهتمام بحماية البيئة وكثرة الكلام بين الشباب في الغرب عن «نوعية الحياة» (quality of life). وقد تابعت هذه الكتابات باهتمام، ووجدت ثورة الطلبة في فرنسا ثم في بقية أوربا والولايات المتحدة، صدى قويًا في نفسي، وقرأت بشغف كتاب هربرت ماركيوز (Herbert Marcuse) في نقد «الإنسان ذي البعد الواحد» (One Dimensional Man) وكتاب «شوميخر» (E. Schumacher) «الأصغر هو الأجمل» (Small is Beautiful)، فضلًا بالطبع عن كتب «إيزرا ميشان» (Ezra Mishan) في نقد التنمية الاقتصادية مما أفضت في شرحه في فصل سابق... إلخ. وكان لهذا كله أثر قوي في نفسي، ولكن المرء يبحث عادة عن الكتب التي تتفق مع مزاجه وتؤيد رأيه أو تدعم شعوره، فلا بد أن تغير مشاعري نحو الحضارة الغربية كان له أسباب أخرى غير مجرد قراءة كتب بعينها. وأعتقد الآن أن سببًا مهمًّا منها هو ما حدث في مصر في أعقاب حرب ١٩٧٣، وعلى الأخص ما سمي بـ«الانفتاح الاقتصادي».

- ٥ -

كانت السنوات العشر التالية لحرب أكتوبر ١٩٧٣ هي سنوات هجرة المصريين، بامتياز، وهو شيء قد يدعو إلى الدهشة من حيث إنها السنوات التالية لإنجاز عسكري عظيم كان من المفترض أن يؤدي إلى إحياء الشعور بالثقة والأمل في أحوال الوطن والاستبشار بالمستقبل، وأن يغري حتى من سبق أن هاجر من المصريين بالعودة إلى بلدهم والمساهمة في بناء وطنهم.

الذي حدث هو العكس بالضبط. سافر الملايين من المصريين إلى دول البترول في الخليج وليبيا، من مختلف الفئات، متعلمين وأميين، مثقفين وفنيين، عمال مهرة وشبه مهرة وفلاحين، مسيّسين وغير مسيّسين. كانت الأسباب الاقتصادية هي أهم

الأسباب بالطبع: ارتفاع أسعار البترول أضعافًا مضاعفة، وحاجة دول البترول الشديدة إلى عمالة إضافية، والتضخم الشديد داخل مصر مما رفع نفقات المعيشة فجأة، مع تراخي دور الدولة في خلق فرص عمالة جديدة. ولكن كانت هناك أسباب سياسية أيضًا. لقد شعر كثيرون من المثقفين المصريين بكراهية شديدة للانقلاب الذي أحدثه السادات في السياسة الداخلية والخارجية على السواء: نكوص عن سياسات عبد الناصر في إعادة توزيع الدخول، وسلوك طريق التبعية الكاملة للولايات المتحدة، والرضوخ للمطالب الإسرائيلية. حتى الأداء العسكري الباهر في ٦ أكتوبر، ظهر أن السادات لن يستثمره لصالح القضية الوطنية أو العربية أو لصالح الفلسطينيين، بل سيتخذ فقط مبررًا لسياسة المهادنة مع إسرائيل، وعقد اتفاق بعد آخر معها حتى انتهى إلى انسلاخ مصر تمامًا من القضايا العربية. وإذ بدأ نظام السادات يظهر العداوة للمثقفين المعارضين لهذا الانقلاب، أخذ كثير منهم يبحث له عن مكان يهاجر إليه: دول الخليج أو العراق أو فرنسا أو إنجلترا، أو عن وظيفة من وظائف الأمم المتحدة في أي بلد خارج مصر.

كان نصيبي من ذلك الذهاب إلى الكويت، وهناك تعرفت إلى عدد من المصريين العظام الذين ذهبوا إلى الكويت مدفوعين بهذه الأسباب، مثل أحمد بهاء الدين الذي قبل أن يصبح رئيس تحرير مجلة كويتية شهرية بعد أن كان رئيس تحرير أهم جريدة يومية في مصر، وعبد العظيم أنيس الذي قبل أن يذهب للتدريس في معهد التخطيط بالكويت بعد أن كان أستاذًا مرموقًا في جامعة القاهرة وكاتبًا سياسيًّا موهوبًا، وإبراهيم سعد الدين الاشتراكي العتيد، ليعمل مديرًا لهذا المعهد، وأسامة الخولي الأستاذ الفذ في كلية الهندسة ليعمل في مركز للتطور التكنولوچي في الكويت... إلخ، فضلًا عن عشرات غيرهم من أساتذة الجامعة المصريين الذين فتحت لهم جامعة الكويت أبوابها.

كنا نتابع بالطبع ما يحدث في مصر من تطورات يومًا بيوم، فإذا بنا نفاجأ كل يوم بخبر أسوأ من سابقه: اتفاقات متتالية مع الإسرائيليين سميت باتفاقيات فك الاشتباك، استقبال حافل للرئيس الأمريكي نيكسون ولتدشين عهد جديد من العلاقة الحميمة

مع الولايات المتحدة تقوم على تبعية كاملة في استيراد الغذاء والأسلحة، وفتح الأبواب أمام فروع البنوك الأمريكية، ثم إعلان السادات أن حالة الاقتصاد المصري قد وصلت إلى «درجة الصفر»، وتبريره لذلك بتبريرات مختلفة منها أنه كان يظن أن أرقام الديون المصرية للخارج التي قدمها إليه المسئولون، كانت بالدولارات، فإذا هي بالإسترليني، ثم زيارات متتالية من المسئولين المصريين لدول الخليج لطلب المساعدة لمواجهة «ظروف مصر الصعبة»، ثم مفاجأة زيارة السادات لإسرائيل، وذلك قبل أن يعقد اتفاق الصلح المنفرد بين مصر وإسرائيل في ١٩٧٩. كان كل هذا يصيبنا بشعور بالمهانة والحزن، ويقوّي رغبتنا في البقاء خارج مصر.

خلال هذه الفترة (السنوات الأولى من السبعينات) كثر الكلام عن ظاهرة «الشركات متعددة الجنسيات» (Multinationals) التي امتد نشاطها إلى مختلف أركان الأرض، وزاد حجم إنتاجها حتى فاق إنتاج كثير من الدول، ووصفت بأنها تحوّل العالم إلى «قرية عالمية واحدة» (one global village). ولكن زاد الكلام أيضًا عن خطر التبعية التي وقعت في إسارها دولة بعد أخرى من دول العالم الثالث، بعد فترة قصيرة من الاستقلال النسبي في الستينات. هكذا ظهرت مدرسة جديدة بين اقتصاديي أمريكا اللاتينية عرفت باسم «مدرسة التبعية» (Dependency School)، تفسر تدهور أحوال العالم الثالث بطبيعة العلاقة القائمة بينها وبين الدول الرأسمالية المتقدمة، وتدعو إلى «فك هذه الروابط» (delinking)، أي أن تحاول دول العالم الثالث الفكاك من علاقة التبعية هذه التي تكرس تخلفها الاقتصادي.

أطلق السادات ورجاله على انقلابه على سياسة الستينات اسم «الانفتاح»، ولكن كان مما يحدث أيضًا في مصر، وأراه في كل مرة أزور فيها مصر بدرجة أوضح وأقوى مما رأيته في المرة السابقة، هو «التغريب» المتسارع لكل نواحي الحياة. لقد أصبحت مظاهر التغريب هذه مألوفة لنا الآن، ولكنها في السبعينات كانت غريبة وجديدة علينا إذ كنا نراها لأول مرة، وكانت تحمل في نظري كثيرًا من مظاهر الحياة التي شهدتها في لبنان قبل عامين أو ثلاثة. فسياسة الانفتاح الاقتصادي التي أعلنها السادات في ١٩٧٤، باسم دفع عجلة التنمية بما تتيحه هذه السياسة من استيراد أدوات الإنتاج

للحرفيين والمستثمرين، ومن تجديد القطاع العام وتشغيل الطاقات العاطلة، طبقت على نحو يسمح باستيراد سلع استهلاكية من مختلف الأنواع، فدخلت هذه السلع مصر وفي أحشائها النمط الغربي في الاستهلاك وفي السلوك على السواء. أصبح تعريف «الحياة الحلوة» في ظل هذا النوع من الانفتاح الاقتصادي، هو تحقيق أعلى مستوى ممكن من استهلاك السلع الغربية التي تسمح أيضًا، بسبب ما يتمتع به مصدرها من جاذبية للمصريين، بالتظاهر والتفاخر بارتفاع مستوى الدخل والصعود الاجتماعي.

دخل التغريب، إذن، من هذا الباب أولاً، باب استيراد السلع الغربية، ولكن هذا الاستيراد سرعان ما اقترن بدخول الإعلانات التليفزيونية، وجلبت الإعلانات برامج ومسلسلات غربية تناسب الإعلانات، كما جلب المهاجرون المصريون عند عودتهم في عطلات من الخليج، سلعًا من نفس النوع، بالغوا في استعراضها أمام الجميع إمعانًا في إثبات صعودهم الاجتماعي، فإذا بالهجرة تسهم في دعم التغريب، والتغريب يغري من لم يهاجر بالشروع في الهجرة، وهكذا.

أدى الانفتاح أيضًا إلى دخول رجال الأعمال والسياح الأجانب بكثرة لم تعرفها مصر منذ قرن من الزمان؛ عندما أعرب الخديو إسماعيل عن أمله في «تحويل مصر إلى قطعة من أوربا». وقد خلق هؤلاء السياح ورجال الأعمال طلبًا على استيراد نفس السلع والخدمات، وقدموا باستهلاكهم وسلوكهم قدوة تُحتذى من جانب الطبقة الوسطى المصرية الجديدة، فزاد هذا من ضغط تغريب الحياة الاجتماعية في مصر.

أذكر أن صديقًا أمريكيًا لي، كان وقت ذهابي إلى الكويت رئيسًا لقسم الاقتصاد بالجامعة الأمريكية، وكان أيضًا ماركسي الميول ساخطًا على «المجتمع الاستهلاكي»، كتب لي خطابًا في بداية عهدي بالكويت يقول فيه: «إن بنك تشيس مانهاتن قد فتح له فرعًا في القاهرة. ومادام تشيس مانهاتن قد جاء إلى مصر فلا بد أن يكون هذا هو الوقت الذي يجب فيه أن أرحل عنها». وفعلا حزم أمتعته واستقال وهاجر إلى أستراليا.

كان لا بد أن تقوّي هذه التطورات الجديدة في مصر من اهتمامي بمشكلة الهوية

الذي بدأ أثناء اشتغالي على كتاب «تمدين الفقر»، في السنوات السابقة مباشرة على الانفتاح، فإذا بالانفتاح يجعل من موضوع الهوية شغلي الشاغل، ويزيد من خوفي من أن تكون بعض من أجمل صفات الشخصية والثقافة المصرية (بأوسع معاني الثقافة) مهددة بالضياع من جراء ما يجري من «تغريب».

كانت قراءاتي قد زادت حول ظاهرة الشركات متعددة الجنسيات ونظرية التبعية، ولكني أذكر أن ما كان يسترعي انتباهي بوجه خاص، من قراءاتي عن آثار هذه الشركات، هو أثرها في تخريب الثقافات الوطنية. بدا لي أن كتابات اقتصاديي أمريكا اللاتينية حول التبعية، تركّز على الآثار الاقتصادية للتبعية ونادرًا ما تتناول آثارها الثقافية، ولكن حازت إعجابي الشديد كتابات الكاتب النمسوي الذي اتخذ من أمريكا اللاتينية موطنًا له، «إيفان إيليتش» (Ivan Illich) إذ كان يؤكد على الأخص على تهديد التغريب لثقافات العالم الثالث.

-٦-

في هذا المناخ، عقد في الكويت في ١٩٧٦ مؤتمر كبير كان له صدى قوي في أوساط المثقفين المقيمين هناك، تحت عنوان «النظام الاقتصادي العالمي الجديد والعالم العربي». وكان الصندوق الكويتي للتنمية، الذي كنت أعمل فيه، هو الراعي والمنظم لهذا المؤتمر، فاشتركت أنا أيضًا في تنظيمه، وقدمت فيه ورقة بعنوان: «أتنمية، أم تبعية اقتصادية وثقافية؟». بدأت الورقة بتوجيه الانتقادات إلى «التبعية الاقتصادية» التي يفرضها علينا الانفتاح على الشركات متعددة الجنسيات، وفتح الأبواب أمام استيراد سلعها، والاعتماد على المعونات الأجنبية، ولكني خصصت جزءًا كبيرًا من الورقة لبيان آثار الانفتاح المدمرة على الثقافة الوطنية.

كان من بين ما ذهبت إليه في هذه الورقة أن جزءًا كبيرًا من المنتجات الجديدة التي تخرج من مصانع الغرب اليوم لا تقوم في الواقع بإشباع حاجات إنسانية جديدة، بل ليست أكثر من وسائل جديدة لإشباع حاجات قديمة، ومن المشكوك فيه أن كفاءتها

في إشباع هذه الحاجات هي أكبر مما حلت محله من سلع، إلّا إذا صدقنا الاقتصادي الغربي الذي يسوي بين وجود طلب على السلعة ووجود إشباع حقيقي. كذلك فإن كثيرًا مما يقدمه الغرب إلى بلاد العالم الثالث على إنه إضافة إلى ما لديهم من سلع وخدمات، ليس في الواقع أكثر من إحلال سلة من السلع والخدمات محل سلة أخرى. فوسائل الرياضة الغربية الحديثة مثلًا، التي كثيرًا ما تتطلب أدوات باهظة الثمن، ليست إلّا بديلًا للنشاط الطبيعي الذي يقوم به أغلب الناس في مجتمع فقير دون أن يتحملوا في سبيله أي نفقة. وبرامج التليفزيون ليست إلّا بديلًا عن الاتصال الإنساني المباشر بين أفراد العائلة، أو بين الأصدقاء. والتيار الذي لا ينقطع من المعلومات التي لا جدوى منها تعويض عن فراغ روحي. والكوكاكولا بديل سيئ عن الماء، والطب النفسي كثيرًا ما يكون بديلًا سيئًا عن الصلات الاجتماعية الوثيقة... إلخ.

بدا لي أن هذا الغزو الغربي لاقتصاديات بلاد العالم الثالث وثقافتها هو بالضبط ما يحدث منذ أن رُفع شعار تنمية هذه البلاد، وإطلاق اسم التنمية على هذا الغزو، وتسمية الدول الخاضعة له باسم الدول النامية، هو مثال من أسوأ ما يمكن أن يقدم من أمثلة على الاستعمال الفاسد للغة، وعلى تسمية الأشياء بغير أسمائها. ولكن أن نذهب إلى حد وصف تلك المجتمعات الرافضة أو المقاومة لهذا الغزو، أو التي لا ترضخ له بالسرعة الواجبة، بوصف «الدول المتخلفة»، فهذا هو ما بدا لي من قبيل عدم الاكتفاء بإيقاع الأذى بل إضافة الإهانة إليه. وهكذا انتهيت إلى أن الذي يحدث في دول العالم الثالث، برغم كل ما تقوله كتب التنمية والتحديث ووثائق الأمم المتحدة، ليس تنمية ولا تحديثًا، وإنما هو لا أكثر ولا أقل من مواجهة درامية بين حضارة الغرب وحضارات مغايرة، هذه المواجهة التي تدفع الحضارات الأضعف بسببها ثمنًا فادحًا. إن من غير المستغرب أن نرى الكتّاب الذين ينتمون إلى الحضارة الغالبة، يطلقون على هذه المواجهة أسماء تعكس تعصبهم لثقافتهم، كما تعكس شعورهم بالتفوق، فيسمونها تنمية وتحديثًا، مهما كانت نتائجها بائسة بالنسبة إلى دول العالم الثالث، ولكن أن ترضخ دول العالم الثالث نفسها لهذا الاستعمال، وتقبل أن تسمى محنتها بهذه الأسماء، فهذا هو الاستسلام والتخاذل الكامل.

-٧-

هبّ كثير من الاقتصاديين المصريين لمهاجمة الانفتاح الاقتصادي كما كان يطبق في ظل أنور السادات، ونظموا مؤتمرًا سنويًّا لمناقشة آثاره المختلفة. وقد اشتركت أنا في مؤتمر سنة ١٩٧٨ بورقة في نقد الانفتاح، أكدت فيها من جديد على تهديده للثقافة القومية، وذهبت إلى أن أخطر ما في الانفتاح الاقتصادي، على النحو الذي كان يجري تطبيقه في مصر، ليس مجرد أنه يؤدي إلى طرد عناصر الإنتاج التي تملكها من ميدان إشباع الحاجات الأساسية إلى إشباع «حاجات» ما كانت لتخطر على البال، ولا مجرد أنه يطرد القوة الشرائية المحدودة من سوق الحاجات الأساسية إلى سوق السلع التي يقوم الأجنبي ببيعها، بل إنه يؤدي بالأجنبي إلى أن «يغزوك داخل نفسك» وليطرد منها أي رغبات أو ميول أو قيم تتعارض مع الرغبة في استهلاك السلع التي يعرضها عليك. ذلك أن الدول الصناعية، في علاقتها بالدول الفقيرة، لا تصادف فقط مشكلة انخفاض الدخل في هذه الدولة الأخيرة مما يضعف من قدرتها على شراء ما تريد الدول الصناعية بيعه، بل تصادف أيضًا مشكلة ضعف الرغبة لدى سكان الدولة الفقيرة في شراء هذه السلع.

هذه المشكلة لا تحل بمجرد جعل توزيع الدخل أكثر سوءًا، فالأمر هنا لا يتعلق بالقدرة على الشراء بل بالرغبة فيه. ومن ثَمَّ لزم القيام بعملية طرد أخرى، ميدانها الآن ليس ميدان عناصر الإنتاج ولا القوة الشرائية، بل ميدان النفس البشرية ذاتها.

فكما أن عناصر الإنتاج والقوة الشرائية محدودة بطبيعتها، فالنفس البشرية هي ذات طاقات محدودة أيضًا؛ بحيث لا يمكن أن ترغب في الشيء ونقيضه في نفس الوقت. فإذا أردت أن تعلم العربي استهلاك أشرطة الموسيقى الغربية الحديثة؛ فعليك أن تصرفه عن الاستمتاع بالموسيقى العربية، وإذا أردت أن تعلمه استهلاك المعمار الغربي الحديث؛ فعليك أن تعلمه كراهية المعمار الإسلامي. بل إنك لكي تلقنه الرغبة في اقتناء السيارة الأمريكية الفارهة؛ عليك أن تعلمه العديد من الرغبات والميول التي تتعارض مع عادة استهلاك السيارة الخاصة. وبكلمة واحدة: إذا أردت

أن تخلق مستهلكًا جيدًا ومضمونًا للسلع الغربية، فعليك أن تخلق أولاً شخصًا غربي الفكر وغربي الثقافة.

هذه الصورة من صور الطرد، وهي طرد الثقافة الوطنية قد تكون أشد صور الطرد خطورة لسببيْن:

الأول: أنها بعكس صور الطرد الأخرى، متى تمت بنجاح يكون من أصعب الأمور إصلاحها أو التعويض عنها. فحرمان المجتمع الفقير من رأس المال أو العمل أو القوة الشرائية اللازمة لإشباع حاجاته الأساسية، قد يمكن إصلاحه في وقت ما في المستقبل بتغيير السياسة الاقتصادية، وتوجيه ما تجري إضافته من رأس مال جديد وقوة عاملة جديدة إلى إشباع الحاجات التي طال تجاهلها. أما طرد الثقافة الوطنية لإحلال ثقافة غربية محلها، فإن من أصعب الأمور الرجوع عنه. فلننظرْ، مثلًا، إلى ما يواجه الجزائري من صعوبة من أجل إحلال الثقافة العربية من جديد محل الثقافة الفرنسية، والعودة بالجزائري إلى الحديث والتفكير بالعربية بدلاً من أن يتحدث ويفكر بالفرنسية. إن التشويه والضياع هنا عميقان للغاية، وقد يحتاج الأمر إلى عدة أجيال قبل أن يتم إصلاحه، إذا تصورنا إمكانية ذلك على الإطلاق.

والسبب الثاني: هو أن خضوع أمة لغزو ثقافة غريبة. إذ يقترن بفقدان أفرادها لثقتهم في وجود أي فضل لثقافتهم الخاصة على غيرها، قد يفقد هذه الأمة في نفس الوقت أهم شرط من شروط النهضة والتقدم. إن من يتأمل التاريخ الاقتصادي للدول الصناعية، فلن يصادف مثالًا واحدًا لم تقترن فيه النهضة الاقتصادية، وعلى الأخص خلال ما يسمى «بمرحلة الانطلاق»، بشعور قومي عارم، وبالاعتقاد بالتفوق على الغير، أو على الأقل برغبة قوية في إثبات الذات وبأنها ليست بأقل قدرًا من الأمم الأخرى. ومن المؤسف أن الاقتصاديين في محاولتهم البحث عن شروط التنمية الاقتصادية تجاهلوا هذا العامل تجاهلًا يكاد يكون تامًّا، وركزوا بدلًا منه على مظاهره السطحية وآثاره، كارتفاع معدل الادخار والاستثمار، أو توفر الكفاءات والمهارات، أو تطوير فنون الإنتاج... إلخ، مع أن هذه كلها ليست إلّا نتائج لتفجر طاقة نفسية قد لا يفسرها أي عامل اقتصادي.

إن المجتمع قد ينجح في تحقيق أهدافه الاقتصادية لأسباب ليست اقتصادية على الإطلاق، بل هي بالضرورة لاعقلانية، وقد يفشل في تحقيقها، على الرغم من كل ما يتوفر له من أسباب اقتصادية، لأسباب لا علاقة لها بالاقتصاد. لا بد بالطبع من أن يرتفع معدل الادخار والاستثمار، وأن تتطور فنون الإنتاج، وأن تنمو طبقة جديدة من المديرين والمنظمين، ولكن كل هذا ليس إلّا تعريفًا لبعض جوانب التنمية وليس شرط حدوثها. إن نهضة عامة كالتي تستهدفها البلاد الفقيرة لا يمكن أن يتصور حدوثها نتيجة لتغيرات ميكانيكية صغيرة منعزلة، كتلك التي يمكن أن تحدثها سياسات اقتصادية، بل تحتاج إلى قوة دافقة قادرة على أن تمتد إلى جوانب الحياة الاجتماعية كافة. هذه القوة الدافقة لا بد أن يكون مصدرها غير مادي، بل الأرجح أن يكون محركها الأول لا يمت للاقتصاد بصلة. إن المهم أن يشتعل حماس الناس لقضية يعتقدون بعدالتها أو سموها أو إلحاحها أو كل هذا معًا، فتهون التضحية، ولا يفكر الفرد في نفسه بل في من حوله، وتتعلق الأبصار كلها بالمستقبل، وتعود إلى الناس ثقتهم بقدرتهم على النهوض من جديد.

أذكر أنني في بداية إقامتي بالكويت كنت جالسًا مع بعض الماركسيين المصريين وذكرت في تعليقي على كلام أحد المتحمسين للحضارة الغربية أن لكل حضارة (أو ثقافة) أساسًا ميتافيزيقيًا، وأن هذه الميتافيزيقا هي القوة الدافعة للنهضة، ولكنها لا يمكن إخضاعها للتقييم العقلي أو العلمي أو تفضيل إحداها على الأخرى. إن الغرب لم ينهض إلّا بسبب بعض المعتقدات اللاعقلانية أو التي، على الأقل، لا يمكن الدفاع عنها دفاعًا عقلانيًّا. هل تقديس الأمريكيين للدولار يمكن تبريره عقلانيًّا؟ أو حماس السوڤيت للديالكتية؟ والحضارة العربية والإسلامية لها أيضًا أساسها الميتافيزيقي الذي أشعل حماس العرب والمسلمين. استنتجت من ذلك أن من الخطأ الشديد تحقير «ميتافيزيقانا»؛ إذ إننا بذلك نتخلى طواعية عن الحافز الوحيد للنهضة. لم أجد أي استجابة لكلامي ممن كنت أحادثهم، وفسّرت ذلك بأن الماركسيين غير قادرين بتاتًا على التعاطف مع مثل هذا الكلام.

-٨-

أثناء عملي بالكويت مرّ علينا صديق قديم كان يحضر الدكتوراه في كامبردج أثناء دراستي للدكتوراه في لندن، وإن كان يسبقني في الدراسة ويكبرني في العمر. كان هذا الصديق (خير الدين حسيب) اقتصاديًّا عراقيًّا، قوي الإيمان بالعروبة، تشغل قضية الوحدة العربية فكره؛ فكرّس حياته لأجلها. أسس في بيروت مركزًا اسمه «مركز دراسات الوحدة العربية»، لا يزال حتى الآن ينشر الكتب ويصدر مجلة وينظم مؤتمرات وندوات تدور كلها حول القومية العربية والوحدة. كنا قد اكتشفنا منذ أيام الدراسة في إنجلترا أن لنا أفكارًا كثيرة مشتركة، فلما قابلني في الكويت عرض عليَّ وظيفة في مركزه الجديد ببيروت. ووجدت الفكرة جذابة، وطبيعة العمل المعروض عليَّ في بيروت أقرب إلى مزاجي وتكويني من طبيعة عملي في الكويت، وكنت قد بدأت أتساءل جديًّا عن جدوى الاستمرار في العمل بالكويت، وما إذا كان الأفضل العودة إلى مصر. ولكن لبنان في ذلك الوقت (١٩٧٧) كانت قد دخلت منذ سنتيْن في حرب أهلية طاحنة استمرت بعد ذلك أكثر من عشرة أعوام. ولم أرَ أي مبرر لأن أذهب إلى بيروت مع زوجتي وأولادي في ظروف حرب، أيًّا كانت طبيعة العمل الذي سأقوم به هناك. فاعتذرت عن ذلك، ولكني قبلت الالتزام بكتابة كتاب عن العلاقات الاقتصادية العربية يقوم المركز بنشره.

بعد ذلك بشهور قليلة جاءني عرض من مركز دراسات الشرق الأوسط في جامعة كاليفورنيا (لوس أنجلوس) أن أقضي عامًا دراسيًّا هناك، أقوم خلاله بعبء خفيف من التدريس بالإضافة إلى القيام ببحث عن أحد جوانب تطور الاقتصاد المصري، فقبلت بسرور، ورأيت أن من الممكن خلال ذلك العام (١٩٧٨ - ١٩٧٩) أن أقوم بالمطلوب مني من جامعة كاليفورنيا ومركز دراسات الوحدة العربية في نفس الوقت.

وقد حدث هذا بالضبط، قضيت عامًا في لوس أنجلوس، ألقيت فيها محاضرات عن التنمية الاقتصادية واقتصاديات البلاد العربية في النصف الأول من العام، وكتبت كتابًا باللغة العربية بعنوان «المشرق العربي والغرب: بحث في دور المؤثرات

الخارجية في تطور النظام الاقتصادي العربي والعلاقات الاقتصادية العربية»، نشره مركز دراسات الوحدة العربية في ١٩٧٩، وبحثًا بالإنجليزية عن تحول السياسة الاقتصادية في مصر إلى الانفتاح، نشر في كتاب: «Rich and Poor States in the Middle East, AUC» (١٩٨٢). كانت مكتبة جامعة كاليفورنيا رائعة، لا يمكن أن أبحث فيها عن كتاب أو مقال فلا أجده؛ ومن ثَمَّ تمكنت من قراءة مجموعة كبيرة من الكتب والمقالات الجيدة، ووثقت كتابي وبحثي توثيقًا جيدًا.

كانت فكرة التبعية لازالت غالبة على تفكيري، ومشكلة التبعية الثقافية بالذات هي الأكثر إلحاحًا على ذهني، فظهر ذلك بوضوح في كتاب (المشرق العربي والغرب). تناولت في هذا الكتاب تطور العلاقات الاقتصادية بين دول المشرق العربي والغرب عبر فترة طويلة تقرب من قرنيْن: منذ الحملة الفرنسية إلى مصر (في ١٧٩٨) وحتى سنة قيامي بالبحث (١٩٧٩) ومزجت، كما فعلت في كتابي «تمدين الفقر»، بين الاقتصاد والسياسة والثقافة، وحاولت أن أدلل في الكتاب على الأطروحة الآتية: أن هذه الفترة الطويلة من حياة العرب بدأت بظواهر مشجعة للغاية على حدوث نهضة عامة، ولكن بوادر النهضة هذه، ضربت كلها، تقريبًا في كل بلد عربي، بتدخل غربي قضى على أي إمكانية للنجاح. هكذا ضربت تجربة محمد علي في مصر (والتي امتدت في عهده إلى سوريا والسودان)، وضربت تجربة الأمير بشير (حليف محمد علي) في لبنان، وتجربة داوود باشا في العراق في نفس الوقت، كما وئدت الحركة السنوسية في ليبيا، والوهابية في الجزيرة العربية، والمهدية في السودان. كانت قصة محزنة ومؤثرة للغاية، أن تقضي على بوادر واعدة للغاية بنهضة حقيقية نابعة من تراث الأمة، أو على الأقل لا تتنكر له، وكان يمكن أن تؤدي إلى تقدم رائع في مختلف المجالات، دون أن يكون نسخة مكررة وممسوخة من التجربة الأوربية أو الأمريكية، (ودون أن تكون مجرد «تمدين للفقر»، ويكون السبب في هذا الفشل ضغوطًا خارجية تستهدف مصالح مادية وبالغة الأنانية.

عندما أعيد القراءة الآن في كتابي «المشرق العربي والغرب» يلفت نظري بشدة ما يظهر من سطور الكتاب من شعور حاد بالمرارة إزاء الغرب، ودوره فيما يمر به العرب

من انحطاط. لا بد أن حدة هذا الشعور كان سببها سخطي على الانفتاح الاقتصادي الذي حدث في مصر ابتداء من ١٩٧٤، وما أحدثه من تخريب اقتصادي وثقافي، ثم ما حدث من استسلام تجاه مطالب إسرائيل حتى انسحبت مصر تمامًا من الصف العربي. كنت قد أنهيت الكتاب في إبريل ١٩٧٩، كما يبدو من تاريخ كتابة المقدمة، أي بعد أسابيع قليلة من توقيع السادات لاتفاقية السلام مع إسرائيل في مارس. وقد بلغ حزني وغضبي على هذه الاتفاقية أقصاه وأنا أشاهد حفلة التوقيع في التليفزيون. لا عجب أني نقلت في أول صفحة في الكتاب فقرة من مجلة «العروة الوثقى» التي كان يصدرها جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده في باريس في ١٨٨٤، يظهر فيها أيضًا شعور قويّ جدًّا بمعاداة الغرب:

«ألا أيها الأمراء العظام، مالكم وللأجانب عنكم؟ ها أنتم تحبونهم ولا يحبونكم، قد علمتم شأنهم ولم تبقَ ريبة في أمرهم، ﴿إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ﴾ (آل عمران: ١٢٠). وعندما أردت أن أشكر من ساعدني على إتمام هذا الكتاب، وذكرت زوجتي من بين هؤلاء، وصفت زوجتي بأنها «اتخذت من مصر موطنًا لها، ومن العرب أهلًا، إن أصابت أحدًا منهم سيئة ساءتها، وإن مسّتهم حسنة فرحت بها».

وأنهيت الكتاب باقتطاف قول للمؤرخ البريطاني الشهير «أرنولد توينبي» (Arnold Toynbee) ترك أثرًا كبيرًا في نفسي، وهو بصدد تقييم التجارب التاريخية في تلاقي حضارة الغرب بالحضارات الأخرى، يعلق به على التجربة اليابانية. فقال إن التجربة اليابانية تعتبر في نظر الكثيرين من أكثر هذه التجارب نجاحًا، أو أقلها فشلاً، في مواجهة الغزو الغربي، فإذ شاهد اليابانيون تفوق الغرب الاقتصادي والعسكري راحوا يعلمون أنفسهم كيفية مواجهة هذا الغزو باستخدام الأسلحة الغربية نفسها، وهنا تبدو اليابان كما لو كانت قد نجحت حيث فشلت تجارب مشابهة قام بها أمثال محمد علي وجمال عبد الناصر في مصر، وكمال أتاتورك في تركيا. ولكن توينبي يعتبر أن استجابة اليابان لهذا التحدي قد فشلت في جانبيْن أساسييْن. فهو يصفها أولاً بأنها كانت في الأساس «مقلدة وليست خلاقة؛ بحيث لم يكن يُقدَّر لها، حتى

بفرض نجاحها، إلّا أن تؤدي في النهاية إلى مضاعفة كمية المنتجات المصنعة آليًا، والتي ابتدعها المجتمع المنقول عنه، بدلاً من أن تطلق عقال طاقات خلاقة جديدة من أعماق الناس». ووجه الضعف الآخر في التجربة اليابانية، في نظر توينبي، هو أن هذا النوع من الاستجابة «لا يمكن بطبيعته أن يحقق الخلاص، حتى مجرد الخلاص في هذا العالم الدنيوي، إلّا لأقلية صغيرة من أفراد أي مجتمع يسلك مثل هذا الطريق. أما الغالبية فإنهم، في مثل هذه التجربة، لا يمكن أن يطمحوا حتى أن يصبحوا أعضاء سلبيين في داخل الطبقة المسيطرة في الحضارة المنقول عنها، فمصيرهم لن يزيد على أن ينضموا إلى صفوف البروليتاريا في داخل هذه الحضارة».

هذان الخطران هما بالضبط ما حاولت أن أبينه في كتابي «المشرق العربي والغرب»، أي أن نصيب العرب، طالما استمر خضوعهم الاقتصادي .والثقافي للغرب، لن يكون إلّا مزيدًا من التفاوت في الدخول ومزيدًا من التحلل الحضاري.

* * *

كانت هذه الأفكار وأمثالها هي أيضًا ما دفعني إلى كتابة كتاب صغير بعنوان «التنوير الزائف» (دار المعارف، ١٩٩٩ ثَمَّ دار العين، ٢٠٠٥) وكتاب «خرافة التقدم والتخلف» (دار الشروق، ٢٠٠٥)، كما احتوى كتابي «العولمة» (دار الشروق، ٢٠٠٩) كثيرًا من أسباب سخطي على جوانب مختلفة من الحضارة الغربية.

-٩-

أتيحت لي في مطلع الثمانينات فرصة رؤية اليمن لأول مرة؛ إذ دعيت لإلقاء محاضرة في جامعة صنعاء في موضوع من اختياري، فاخترت، ولا عجب، موضوع الانفتاح والغزو الثقافي. وقد وجدت بعض الاستجابة من الطلبة اليمنيين ولكن الاستجابة كانت أقل مما توقعت، وفسرت ذلك بقرب عهد اليمن بالانفتاح على الغرب وانبهار اليمنيين بعجائب الحضارة الغربية، مثلما انبهر المؤرخ المصري الجبرتي لدى رؤيته الأعاجيب التي أتت بها الحملة الفرنسية إلى مصر، وكانت أيضًا أول مواجهة بين مصر والحضارة الغربية.

كنت أعرف عندما سافرت إلى اليمن أن الأمم المتحدة تصنف اليمن (مع ٢٢ دولة أخرى) في مجموعة تطلق عليها «أقل الدول نموًّا»، مع دول كالحبشة والصومال وأفغانستان، وهو وصف مهين لأي دولة، خاصة لدولة كانت تسمى حتى وقت قريب بـ«اليمن السعيد». فلما رأيت اليمن أدركت أن الوصف ليس فقط وصفًا وقحًا بل مدعاة للسخرية، ليس من اليمن، بل من الأمم المتحدة. فإذا قدم لي خبراء الأمم المتحدة أرقامًا تؤيد زعمهم، تتعلق بمستوى التصنيع أو الصحة أو التعليم، فإني سوف أنبههم إلى أشياء لا يمكن قياسها بالأرقام، وهي تصلح في نظري معيارًا للتقدم لا يقل أهمية عن مؤشراتهم الرقمية. إذًا فلتأتِ «أكثر الدول نموًّا» بمعمار أجمل من المعمار اليمني، وبنظام أنسب للاستغلال الزراعي من المدرجات اليمنية، أو بشعب أكثر اعتزازًا بلغته وتراثه من الشعب اليمني، أو بحياة اجتماعية أكثر صلابة، أو بعاصمة أكثر هدوءًا ووداعة من صنعاء، باستثناء الشوارع الثلاثة الرئيسة التي غزتها البلاد الصناعية «الأكثر تقدمًا»، بسياراتها وضجيجها وتلوثها وانكبابها على الربح. ثم إني لم أشهد، على الأقل بالعين المجردة، مظاهر لسوء التغذية أو الفقر المدقع في أكثر قرى اليمن عزلة، ولم أشهد على وجوه الأطفال اليمنيين ما يدل على أنهم «أقل أطفال العالم تقدمًا». نعم لا بد من تعميم المياه النقية الصالحة للشرب وتخفيض مستوى الأمية، وهذا ومثله هما المبرر الحقيقي لقيام ثورة اليمن قبل عشرين عامًا. ولكن هل يصح باسم القضاء على الركود، أن تأتي الدول الصناعية وجيوش الخبراء الأجانب لكي تبيع لليمن آلاف السيارات الخاصة، ولتبني لهم فنادق ليس هناك أدنى صلة بين معمارها والمعمار اليمني، أو مبنى للبنك المركزي اليمني يكاد يحجب الجبل المحيط بصنعاء، ويكاد يتسع لإيواء سكان صنعاء برمتهم؟ وهل كان خروج اليمن من عزلتها يفرض بالضرورة أن تضطر العائلة اليمنية إلى الجلوس لمشاهدة برامج تليفزيونية من نوع «العالم يغني».

قد نتفق أو نختلف عما إذا كان على المرأة اليمنية أن تنزع الحجاب عن وجهها، ولكن هل يجوز أن تضطر الفتاة اليمنية إلى أن ترتدي في استعراض عيد العمال قميصًا أبيض يحمل على ظهره إعلانًا عن «السفن آب»، كما رأيت بعيني على شاشة

التليفزيون اليمني؟ هل مثل هذا هو الذي يؤهل اليمن للخروج من فئة (أقل دول العالم نموًّا؟).

وقد يتجادل مثقفو اليمن وسياسيوها عما يجب أن يكون موقفهم من غرام اليمنيين (بالقات)، ولكن هل استقر الرأي على أن الخمر الأوربي والأمريكي أفضل للصحة والحياة الاجتماعية من القات اليمني؟ أو أن الشاب اليمني كان على صواب حينما قال لي: «والله لو منعونا من زراعة القات لصدّروه لنا معلبًا!».

وجدت أن محنة اليمن في هذا كله هي نفس محنة مصر. وقد يكون لهذا علاقة بذلك التعاطف القوى الذي يكنه اليمنيون للمصريين. فاليمنيون ليسوا من أغنياء النفط، والمنح والقروض تتدفق عليهم كما تتدفق علينا، وقد ورطوهم في الاستدانة كما ورطونا، وأهم مصدر للعملة الأجنبية لديهم هو تحويلات المهاجرين كما هو الأمر عندنا. ومعدل التضخم وإن زاد عن المعدل عندنا فالأسباب واحدة. وموظفوهم كموظفينا يواجهون نفس الحيرة في محاولة البحث عن مصدر إضافي للدخل. وثقافتهم تتعرض منذ ١٩٧٠ لنفس الأخطار التي تهدد ثقافتنا. وحزن مثقفيهم شبيه بحزننا. ولكنهم، كعادة كل العرب في كل الأوقات، يتطلعون إلينا في صمت، ويتساءلون عما يا ترى مصر فاعلة.

-١٠-

في مجتمع أغلب أفراده من الأميين وأنصاف المتعلمين، ولدى معظمهم استعداد قوي، لأسباب كثيرة أشرت إلى بعضها، للإصابة بعقدة الخواجة، كان لا بد أن يكتشف بعض المثقفين أن من الممكن استغلال هذا الوضع لصالحهم، بممارسة وسيلة أو أخرى من وسائل الاحتيال، ليس كلها على نفس المستوى من اللا أخلاقية، بل قد يفعل بعضهم هذا دون وعي وبحسن نية، ولكن منهم أيضًا ضعيفي الخلق بالسليقة، ومن ثَمَّ يمكن أن يمارسوا هذا الاحتيال عن وعي كامل بما يصنعون.

كان من الطبيعي أيضًا، منذ أن تخلصت أنا إلى حد كبير من عقدة الخواجة (دون

أن أستطيع الزعم بأني تخلصت منها تمامًا) وأدركت أهمية احترام الهوية، أن ألاحظ هذه الأمثلة المتكررة في حياتنا الثقافية من أمثلة الاحتيال عن طريق الاقتباس من الغرب، أو التظاهر بالاقتباس منه، وادعاء التفوق عن طريق التشبه بالغربيين بشكل أو بآخر، مما لم أكن ألاحظه أو ألتفت إليه عندما كانت عقدة الخواجة قوية لديَّ.

إن أمثلة الاقتباس من الغرب في حياتنا الثقافية كثيرة وقديمة، ترجع إلى الثلث الأخير من القرن التاسع عشر على الأقل، وقد مارسه بعض كبار كتابنا الكبار وبعض فنانينا العظام، ولم يكن هذا الاقتباس دائمًا مضرًّا، حتى لو كان الدافع النفسي شعورًا بالنقص. فطه حسين وتوفيق الحكيم، مثلًا، فعلا ذلك منذ نحو مائة عام مع بعض النتائج الباهرة، وإن كانا قد ذهبا أحيانًا في ذلك إلى أبعد من اللازم، كما أدرك الآن ولم أكن أدركه عندما قرأتهما في مطلع الشباب. إن كتاب «زهرة العمر» مثلًا لتوفيق الحكيم، أثار حماسي بشدة عندما قرأته في مطلع الخمسينات، ولم أكن قد تجاوزت الخامسة عشرة من عمري، ولكني وجدته عندما قرأته مرة أخرى بعد أن تجاوزت الستين، مثيرًا للدهشة لما فيه من سذاجة سببها الافتنان الزائد عن الحد بأي شيء غربي. كذلك شعرت بالأسف لنفس السبب عندما قرأت كتاب طه حسين «في الشعر الجاهلي» بعد أن تجاوزت الخمسين. وعلى الرغم من قدرتي على الاستمتاع بكل ما أنتجه محمد عبد الوهاب من موسيقى، فإني أعتقد أنه أخطأ نفس الخطأ، وبدرجة كبيرة، في أعماله التالية لانتهاء الحرب العالمية الثانية. وقد اكتشفت نفس الخطأ لدى زكي نجيب محمود الذي لم يكن له، بالإضافة إلى ذلك، ما كان لطه حسين أو توفيق الحكيم أو محمد عبد الوهاب من مواهب. ولكن أحدًا من هؤلاء لم يكن محتالًا، بل كانوا يفعلون ذلك مدفوعين باقتناع حقيقي بفائدته لنهضة المجتمع. وإنما أثار سخطي من اعتقدت أنه يقتبس ويتشبه بالغرب لتحقيق مصالح خاصة له، حتى ولو كان صاحب موهبة حقيقية.

شعرت بهذا، مثلًا، لدى مشاهدتي لأفلام يوسف شاهين ابتداء من فيلم «وداعًا بونابرت». ذلك أنه بحدوث الانفتاح في مصر في منتصف السبعينات لم يكن هناك بد من أن يساير بعض المخرجين المصريين ما يحدث في السينما الأوربية والأمريكية.

وكان من أبرز هؤلاء يوسف شاهين. كان يوسف شاهين قد أنتج في الستينات أفلامًا جيدة استقبلها الجمهور المصري استقبالًا حسنًا واعتبرت من أفضل الأفلام المصرية (مثل الأرض وباب الحديد)، وكانت أفلامًا ذات قصة واضحة ومفهومة، وتعالج مشكلات حقيقية تهم المصريين، فإذا به ينتج في السبعينات أفلامًا، وإن كانت متميزة من حيث التكنولوچيا المستخدمة، ومن ثَمَّ مبهرة للعين، كانت أيضًا مبهمة المعنى، غير متسقة الأجزاء، ومن دون قصة واضحة المعالم، وبها جرعات من الجنس مختلفة الأنواع يساير بعضها تصاعد الاعتراف بالعلاقات المثلية في الغرب، بالإضافة إلى لمحات نرجسية تعكس إعجابًا مفرطًا بالنفس من جانب المخرج.

لاحظت هذا لأول مرة في فيلم «وداعًا بونابرت» في أواخر السبعينات، ثَمَّ زاد نفوري مما أرى عندما رأيت فيلمي «المهاجر» و«المصير» في التسعينات، وتوقفت بعد هذا عن رؤية أي فيلم لهذا المخرج خاصة بعد أن وقعت بيني وبينه الواقعة الآتية:

عندما رأيت فيلم «المهاجر» بعد ضجة إعلامية نادرة المثال في تاريخ السينما المصرية، أصابني الاستياء الشديد من الفيلم، ليس فقط للأسباب التي ذكرتها حالًا، ولكن لأني قرأت في الفيلم إلى جانب كل هذا، دعوة للتطبيع مع إسرائيل. وكان ظهور الفيلم في أوائل التسعينات يقترن بظهور دعوة إلى ما سمي وقتها بالشرق أوسطية، وهي لا تعني أكثر من الترويج لهذا التطبيع. كتبت مقالًا نشرته إحدى صحف المعارضة، بعد تردد طويل من هيئة تحرير المجلة؛ خوفًا من جانبها من إغضاب يوسف شاهين الذي كان يحتل مكانة في الحياة السينمائية في مصر، في نظر الإعلام المصري، يمكن مقارنتها بمكانة أم كلثوم أو عبد الوهاب في الغناء: إشادة وثناء من الجميع وما يكاد يصل إلى حد الإرهاب إزاء أي محاولة للتشكيك في مقامه العالي. كان مقالًا طويلًا ذكرت فيه كل ما أردت ذكره: التحذلق، النرجسية، تحقير المصريين والدعوة المستترة إلى التطبيع مع إسرائيل، التي كانت تمثلها في الفيلم شخصية سيدنا يوسف، وسميت المقال «فيلم مبهر للعين، ثقيل جدًّا على القلب».
وصلني في البداية رد الفعل الغاضب من جانب يوسف شاهين عن طريق زميل لي على صلة شخصية به. ثم فوجئت بمكالمة تليفونية من سكرتيره أو مدير أعماله يخبرني فيه بأن يوسف شاهين، بعكس ما قد أظن، أعجبه مقالي ويريد مقابلتي، وأنه

على استعداد أن يأتي إليّ أو أن يستقبلني في مكتبه. فقلت بل أذهب أنا إلى مكتبه. وذهبت بالفعل فاستقبلني هذا السكرتير بالترحاب وقدم لي بعض المشروبات قبل أن يظهر الأستاذ بلحمه ودمه. وكنت أظن أنه سيشرع بعد مقدمة قصيرة منه، أو بعد تبادل السؤال عن الصحة والأحوال، أن يناقشني في بعض النقاط التي ذكرتها في نقد الفيلم فيستوضحني رأيي ويدافع هو عن رأيه، ولكن شيئًا من هذا لم يحدث. استمر الأستاذ الكبير يتكلم عن نفسه وتاريخه وأعماله لمدة تقرب من ساعة، دون أن يتعرض بكلمة واحدة للفيلم الذي كتبت عنه، ودون أن يسألني عن رأيي في أي شيء أو حتى أن يسمح لي بمقاطعته. وعندما انتهى من قول ما يريد، سمح لي بأن أسأله عن موضوع فيلمه القادم، فقال «موضوعه ابن رشد»، فقلت مبتسمًا: «أرجو مع ذلك ألا تحوّله إلى هجوم على الإسلاميين وتشيد من جديد بالحضارة الغربية». فرد على ذلك بكلام خارج عن الموضوع، وانتهت المقابلة نهاية ودية في الظاهر، ولكنها في الحقيقة تركت أسوأ انطباع في نفسي عنه. قلت لنفسي: «إن كل ما خمّنته عن طريقة تفكيره، وعن رأيه في نفسه، ظهر أنه صحيح. النرجسية والإعجاب بالنفس منقطعا النظير، ولكن يضاف إليهما درجة لا بأس بها من الخبث، وعناد لا مثيل له، مع انتفاء أي استعداد للرجوع إلى الحق». وعندما ظهر بعد ذلك بعام فيلمه عن ابن رشد باسم «المصير»، كرهته أكثر مما كرهت فيلم المهاجر، وكان بالضبط كما توقعت: هجومًا على الإسلاميين مع تصويرهم وكأنهم كلهم متطرفون، باستثناء قلة ضئيلة، من بينها ابن رشد، متعاطفة مع فرنسا العظيمة التي لا تحاول إلّا إنقاذ الكتب العظيمة من الضياع والحرق الذي شرع فيه المتطرفون. وحيث إن ابن رشد يحب الحياة، كأي رجل غير متزمت، ومثل يوسف شاهين بالضبط، فقد صوّره الفيلم في صورة رجل ذي شهية كبيرة للطعام، ويستطيب التفرج على رقص ليلى علوي. ومن ثَمَّ اخترت العنوان الطويل التالي للمقال الذي نشرته في نقد هذا الفيلم «فيلم المصير يقول إنه لا يوجد إلّا طريقان: إما التطرف والإرهاب، وإما الرقص مع ليلى علوي!».

ولم أتلق بالطبع في هذه المرة أي مكالمة تليفونية من يوسف شاهين أو من سكرتيره أو مدير أعماله؛ إذ لا بد أنه يئس مني يأسًا تامًّا.

* * *

ولكن يوسف شاهين لم يكن بالطبع هو الوحيد في هذا النوع من السلوك. فهناك من كتابنا المشهورين من اكتشف انبهار كثير من القراء ببعض التعبيرات الضخمة التي يشعرون بأنها تدل على اتصال الكاتب بالحضارة الغربية بدرجة أكبر من اتصالهم بها، وبأنها تدل على أشياء عميقة ومهمة، وإن كانت مبهمة ولا يعرفون معناها بالضبط، فملأوا مقالاتهم أو كتبهم بها دون أن يقولوا في الحقيقة أي شيء على الإطلاق. ومن كتاب القصة والرواية من استخدم صيغًا بالغة التعقيد، دون أن تكون لديهم في الحقيقة أي قصة أو حكاية تستحق أن تروى، بل قد لا تكون هناك قصة ولا حكاية على الإطلاق؛ اعتمادًا على أن هذا التعقيد سينجح في إيهام القارئ بأن هذه الطريقة في الكتابة قد تكوِّن أثرًا من آثار الاطلاع على آخر مذهب أدبي تنتجه الحضارة الغربية، ولم تتح للقارئ المسكين فرصة للاطلاع عليه.

هناك أيضًا من كتاب القصة والرواية والشعر عندنا من طمح إلى تحقيق النجاح والرواج عن طريق اقتباس موقف الغرب الحديث في معاداة الدين أو التنكر له. واعتمدوا على أن ما يكتبونه في نفس الاتجاه سوف يجد دائمًا المدافعين عنه من النقاد، ممن اقتبسوا من الغرب تفسيرًا للحرية يسمح بالتطاول على الدين، وتقديس الفن بدلًا من تقديس الدين، إلى حد اعتبار التطاول على الفن معصية على نفس مستوى التطاول على الدين في العصور الوسطى. وهم في كل هذا يستمدون الدعم مما تبثه عقدة الخواجة في النفوس من اعتبار ما يأتي من الغرب الكلمة الأخيرة والحاسمة في أي موضوع.

هذا السخط من جانبي، إزاء هذه الأمثلة للاقتباس من الحضارة الغربية، سواء ما جاء منها بحسن أو سوء نية، دفعني إلى مهاجمة بعض من قاموا بهذه الممارسات من كتاب الأدب والشعر، ومن الفنانين، ومن المتخصصين في العلوم الاجتماعية الذين تعاونوا مع هيئات دولية لتحقير العرب والاستهزاء بهم، عندما كان هذا ملائمًا لبعض مصالح الدول الكبرى، مدفوعين بتحقيق مصالح خاصة وبعقدة الخواجة في نفس الوقت.

-١١-

لا يمكن أن أزعم أن موقفي هذا من الحضارة الغربية، وحماسي للاستقلال الثقافي وللدفاع عن الهوية القومية، هو موقف «فكري» بحت، فلا شك في أن وراءه عوامل نفسية أيضًا.

لقد تلقيت أكثر من مرة نقدًا من بعض أصدقائي وغيرهم، يوجه إليَّ بمودّة أحيانًا وبقسوة وسخرية في أحيان أخرى، مداره أن في موقفي من الغرب تناقضًا مدهشًا مع مواقف أخرى لي، بل مع نمط حياتي بوجه عام. فأنا لا أكف عن نقد الحضارة الغربية وتعداد مساوئها، ولكني أعيش عيشة غربية تمامًا: أستهلك سلع الغرب وأتمتع بمنتجاته، فأركب سيارة وأشاهد التليفزيون، وأسمع الموسيقى المسجلة على أسطوانات أو أشرطة التسجيل المنتجة في الغرب، وأجلس في حجرات مكيفة الهواء... إلخ. بل أنا فوق هذا كله متزوج من إنجليزية، وأدرّس في جامعة أمريكية، ومعظم عطلات الصيف أقضيها في إنجلترا، وأصغر أولادي تزوج من أمريكية، وأرسلت أولادي الثلاثة إلى نفس الجامعة الأمريكية التي أدرّس بها، وبنتي تعمل في مدرسة أمريكية بالقاهرة... إلخ «فما كل هذا الكلام المضاد تمامًا لما تفعل؟».

على الرغم مما يبدو لهذا النقد من قوة، فالحقيقة أنني لم أهتز له قط، واستقبلته دائمًا بصدر رحب، ولم أشعر بأن نقدي المستمر للحضارة الغربية ينطوي على نفاق من أي نوع. كان يطمئنني قبل كل شيء شعوري بأني صادق في هذا النقد، وأن دوافعي إليه بريئة ولا تنطوي على محاولة لمجاراة تيار شائع أو تحقيق مكسب خاص. لم أشعر قط بأن هناك أي غرابة أو نفاق في جلوسي في حجرة مكيفة الهواء لكتابة مقال في نقد الحضارة الغربية، مع أن جهاز التكييف من إنتاج هذه الحضارة، ولا في ركوبي سيارة من إنتاج الغرب للذهاب للاشتراك في ندوة لمهاجمة الحضارة الغربية والدفاع عن الاستقلال الثقافي والحضاري.

كان مما سرني جدًّا، مما يتعلق بهذا الموضوع، أن قرأت مرة قولًا صدر عن چورچ أورويل عندما وجه إليه البعض تهمة مماثلة؛ إذ كان ينتقد نظام المدارس الخاصة التي

يذهب إليها أولاد الأرستقراطيين الإنجليز (وتسمى في إنجلترا بالمدارس العامة) (Public Schools) بينما أرسل ابنه بالتبني إلى إحدى هذه المدارس. كان رد أورويل إنه فعلًا يكره نظام المدارس الخاصة، ويتمنى زوالها أو إلغاءها، ولكن طالما استمرت هذه المدارس موجودة فسيظل يرسل ابنه إليها!

قلت لنفسي إن شيئًا قريبًا جدًّا من هذا يفسر الموقف الذي أُنتقد أنا بسببه: لقد كنت أتمنى لو أن الجامعات الأجنبية غير موجودة في مصر أصلًا، وأن المزايا التي تقدمها الجامعة الأمريكية القائمة بالقاهرة لطلبتها وأساتذتها، تقوم بتقديمها جامعاتنا الحكومية، ولكن في ظل وجود الجامعة الأمريكية بالقاهرة، مع تدهور جامعاتنا الحكومية إلى الدرجة التي نعرفها، فإن القرار الأفضل في حالتي إرسال أولادي إلى الجامعة الأمريكية. نعم، السيارة التي أركبها أوربية، وقد كنت أتمنى لو كانت مصر هي التي تنتجها، بل كان الأفضل في رأيي أن تكون حالة المواصلات العامة في مصر من الجودة بحيث لا أحتاج معها إلى ركوب سيارة خاصة أصلًا، وربما كان الأفضل من هذا وذاك أن تكون مدننا قد بقيت بحجم معقول، ولم يتركز السكان في القاهرة إلى هذه الدرجة، بحيث لم نكن بحاجة إلى أكثر من دراجة أو حتى المشي على أقدامنا، للانتقال من مكان إلى آخر. أما وقد حدث ما حدث، ولم يعد الوضع الأفضل في رأيي متاحًا، فعليّ أن أختار من بين الفرص المتاحة ما يحقق مصلحتي ومصلحة أولادي.

هكذا يمكنني الدفاع عن نفسي، وأن أستمر في حالة من راحة البال والضمير، باستخدام حجج منطقية، ولكن هذا لا ينفي أن موقفي من الحضارة الغربية لم يكن مبنيًّا فقط على حجج منطقية. ولا أشك أنه كانت لديَّ (ولا تزال) دوافع نفسية لا علاقة لها بالتفكير المنطقي، أسهمت في دفعي دفعًا إلى اتخاذ هذا الموقف. فما هي يا ترى هذه الدوافع؟

لقد عرفت في حياتي أشخاصًا كثيرين، يعرفون بالضبط ما أعرفه عن الغرب، وخبروه عن قرب كما خبرته، وبعضهم مثقفون ثقافة عالية، ولديهم درجة عالية من الإخلاص لبلدهم وقومهم، ولكنهم اتخذوا من الحضارة الغربية موقفًا هو عكس

موقفي بالضبط. فقد تحمسوا لها تحمسًا شديدًا، ولا يكفون عن الثناء على إنجازاتها، ولا يتمنون لبلادهم شيئًا أفضل من السير في ركاب هذه الحضارة والنقل عنها. وهم دائمو المقارنة بين سوء حالنا وروعة الحياة في الغرب. منهم المغرم بالتأكيد على الديمقراطية والحرية، ومنهم المهتم بالرفاهية المادية وسهولة الحياة، أو بالكفاءة وارتفاع الإنتاجية، أو بالنظافة والهدوء، أو بطريقة معاملة الناس بعضهم لبعض، واحترام حقوق الإنسان وآدميته... إلخ. ومن هؤلاء من لا يطيق سماع نغمة الغزو الثقافي أو الاستقلال الحضاري أو التغني بمزايانا بالمقارنة بالغرب... إلخ.

بل إن من هؤلاء الذين يتخذون هذا الموقف المضاد تمامًا لموقفي من الحضارة الغربية، أشخاصًا أحببتهم حبًّا جمًّا، وكنت ولا أزال أحمل تقديرًا فائقًا لشخصياتهم ولفكرهم بوجه عام. من هؤلاء الكاتب الصحفي المعروف أحمد بهاء الدين الذي سمعته يقول إنه لا يقبل بتاتًا عبارة «الغزو الثقافي»، على أساس أن الثقافات يتفاعل بعضها مع بعض طوال التاريخ، والذي يحدث هو تفاعل وتلقيح وليس غزوًا. كما سمعته أكثر من مرة يروي بإعجاب كيف أن الفرنسيين أثناء حملتهم على مصر، كانوا عندما يقبضون على مصري أو عربي متهم بتهمة فظيعة، ولو كانت تهمة قتل أحد من قوادهم، يجرون له محاكمة قبل أن يوقعوا العقاب به.

كان أستاذي القديم سعيد النجار من هؤلاء المفتونين بالغرب أيضًا، وكان يؤكد بالذات على العقلانية والديمقراطية، ولا يتسع صدره لأي شك يثار حول عقلانية الغرب أو ديمقراطيته، كالذي كنت أنا أميل إلى إثارته. ناهيك بالطبع عن إعجابه الشديد بالنظام الرأسمالي وحرية السوق مما كنت أضيق به وأرى له من السيئات ما يفوق محاسنه. لهذا كان سعيد النجار يحب العمل في المنظمات الدولية، وقضى بالفعل كثيرًا من سنوات حياته يعمل بهذه المنظمة الدولية أو تلك، في چنيف ثم واشنطن، واستمر يتعاون مع البنك الدولي وصندوق النقد الدولي بكتابة البحوث وتنظيم الندوات إلى قبيل وفاته، بينما كنت أنا أرى هذه المنظمات في الأساس أبواقًا من أبواق الحضارة الغربية الكثيرة، والمتعددة الأصناف واللغات.

كنت ولا أزال أستطيع أن أفهم بسهولة حماس هؤلاء الرجال المرموقين للحضارة

الغربية. فمن ناحية، ينتمي بعضهم إلى جيل تربى في ظل إعجاب عام بالحضارة الغربية، ومن ثَمَّ لم تؤثر فيه، مثلما أثرت في جيلي، الانتقادات والشكوك المتوالية التي أخذت توجه إلى هذه الحضارة في الأربعين سنة الأخيرة، ومن جانب كتّاب من الغرب نفسه، وعلى الأخص بعد انتقال قيادة هذه الحضارة من أوربا إلى الولايات المتحدة. هكذا كان حال رجال مثل أحمد بهاء الدين وسعيد النجار، فيما أعتقد، وكثيرين غيرهم. ولكن الافتتان بالغرب له طبعًا دوافع أخرى. منها نفور قويّ من بعض الجوانب السلبية في ثقافتنا وحياتنا نحن. فهناك من يعشق النظام عشقًا، ويقدر الكفاءة في العمل تقديرًا عاليًا جدًّا، ولا يطيق أي نوع من التفكير الخرافي... إلخ. وهؤلاء لا يميلون عادة إلى إجراء مقارنة بين ثقافتيْن تنتهي بقرار لصالح ثقافتنا، وينتظرون بفارغ الصبر اليوم الذي نصبح فيه «مثل» الغرب.

ولكن هناك أيضًا من المفتونين بالغرب من يرجع افتتانهم إلى أسباب ودوافع أقل نبلاً، بل قد يرجع إلى أسباب نفسية بعيدة الصلة جدًّا بقضية الحضارة والاستقلال الثقافي. من بين معارفي وأصدقائي، مثلًا، من يتحمس للحضارة الغربية بسبب ضعف شديد متمكن منه إزاء جهاز يعمل أوتوماتيكيًّا فيوفر عناء أي جهد عضلي. (وأتساءل أحيانًا عما إذا كان لهذا علاقة بحرمان شديد في سنوات الطفولة والصبا، اقترن ببذل جهد عضلي كبير في أداء بعض مهام الحياة اليومية الضرورية). ومنهم من كره حياته في مصر كرهًا شديدًا، وربما ترك مصر لغير رجعة؛ بسبب ما تعرض له من تمييز طبقي وظلم في المعاملة نتيجة لطبقته الاجتماعية أو لاختلاف دينه عن دين الأغلبية؛ أو حتى بسبب تعرضه لمعاملة قاسية من أبيه الذي نشأ نشأة تقليدية، فاقترنت في ذهنه القسوة الطبيعية في أبيه ببعض حماقات نظامنا التقليدي في التعليم والتربية.

لاحظت أيضًا أن بعض تلاميذي الذين اشتغلوا بعد تخرجهم في شركات أجنبية عملاقة، تدفع لهم مرتبات ممتازة، وتمنحهم امتيازات لا يتمتع بها أقرانهم، لم يبدوا أي استعداد للتعاطف مع موقفي النقدي من الحضارة الغربية، إذ أصبحوا هم أنفسهم، بنمط سلوكهم بعد حصولهم على هذه المزايا، من الأنصار المتحمسين لهذه الحضارة.

قد يدافع كل هؤلاء بحماس عن الحضارة الغربية، ولكن لدى كل منهم، بالإضافة إلى حججه المنطقية، دوافع نفسية دفينة، واضحة أو مجهولة. فلا بد أن يكون هذا هو حالي أيضًا في موقفي المناهض للحضارة الغربية، واستعدادي دائمًا لاكتشاف عيوبها ونقائصها. فما هي يا ترى الدوافع النفسية في حالتي؟

لا بد أن أذكر أولًا أني بتكويني النفسي والذهني، ولأسباب لا أعرفها، ولا يمكن فيما أظن أن أعرفها، لا أميل بطبعي إلى أي شيء يتعلق «بالآلة التي تعمل أوتوماتيكيًا». لا أحبها ولا أستسيغها ولا أفهمها ولا أريد أن أفهمها. لم أشعر قط في أي يوم في حياتي بجاذبية السيارة الخاصة مثلًا، وأفضل عليها دائمًا ركوب القطار (على الرغم من إدراكي أن القطار أيضًا له آلة أوتوماتيكية ولكني على الأقل لا أراها وليس مطلوبًا مني استخدامها) نعم، إني طالما استخدمت آلات التسجيل المختلفة القديمة والحديثة، ولكني لم أشعر نحوها أبدًا بأي مودة، بل أكاد أستغرب في كل مرة أن أجدها تعمل بكفاءة، وكأني أتوقع دائمًا أن تكف عن الدوران. أشعر دائمًا بالإعجاب نحو المصعد الكهربائي عندما يحملني إلى أدوار عالية جدًّا بمجرد الضغط على زر من الأزرار، ولكنه إعجاب مقترن بشيء من الكراهية وتوجس الشر. لم أشعر أيضًا بأي جاذبية في التليفزيون. وعلى الرغم من أني شاهدت من خلاله بعض الأفلام والبرامج الممتازة، فإني نادرًا ما استخدمه، بل يقل استخدامي له أكثر فأكثر مع مرور الزمن. ناهيك بالطبع عن شعوري نحو الكومبيوتر، وكل ما يتصل به، كالبريد الإلكتروني والإنترنت. وعندما اضطررت بعد سنوات طويلة من المقاومة والرفض، إلى أن يكون لي عنوان بالبريد الإلكتروني؛ إذ أصبحت الرسائل التي ترسلها الجامعة إلى الأساتذة لا تأتي إلّا عن هذا الطريق، اعتمدت على سكرتيرة بقسم الاقتصاد في أن تطبع لي في كل يوم أذهب فيه إلى الجامعة ما جاءني من رسائل، وأن تقوم هي بإرسال ما أكتبه من ردود. ومن ثَمَّ فالبريد الإلكتروني تحول لديّ إلى مراسلات عادية تقرأ من الورق ويرد عليها بالقلم والورق، ولا يضايقني منها إلّا كثرة ما يرد من رسائل عن هذا الطريق دون أي نفع، والتي لم يرسلها مرسلوها إلّا بسبب سهولة هذا الطريق؛ مما يؤكد صحة ما قاله أحد منتقدي الحياة الحديثة: «ليس كل شيء يصبح

ممكنًا، يكون بالضرورة مرغوبًا فيه». أما التليفون المحمول، فحدّث عن كراهيتي له بلا حرج، أمقته ولا أطيقه، فضلًا عن أني لا أحوزه ولا أفكر في اقتنائه.

لا شك أن لهذا الموقف النفسي الذي يستعصي على التفسير، علاقة بموقفي من الحضارة الغربية. ولكن لا بد أن هناك أكثر من ذلك. إن نقد الآلة مفهوم، فمساوئها كثيرة، ولكن ما سر هذا التعاطف مع القديم، حتى لو بدا لاعقلانيًّا؟ وما سر استعدادي للشك في التعليم النظامي بأكمله، بل استعدادي لتفضيل بعض الأميين على المتعلمين؟ وما سر هذا الميل القوي إلى اكتشاف محاسن التراث، وأوجه جمال اللغة العربية، ورؤية محاسن بعض العلاقات الاجتماعية في ثقافتنا على الرغم من كثرة ما تقترن به أيضًا من مساوئ؟ ما السر أيضًا في الشك في أن الديمقراطية الغربية قد تنطوي على درجة من الحرية أقل مما تنطوي عليه الحياة الاجتماعية والسياسية لدى بعض الأمم التي لم تمسها بعد الحضارة الغربية؟ ما سر الشك في قيمة الوظيفة التي تؤديها الألعاب الرياضية في الغرب، والأهمية المبالغ فيها التي تعطي للرياضة عندهم، وبالتالي عندنا؟ ما سر الشك في أن رضا الغربيين عنا ليس دليلًا على وجود ميزة فينا، وأنه كثيرًا ما يكون مدفوعًا بدوافع خبيثة، فيرضون عنا عندما نقوم بخدمتهم ويذموننا عندما نتمرد عليهم ونطالب بحريتنا في التصرف؟ هل كل هذه المواقف من جانبي أساسها عقلاني محض؟ لا أظن ذلك. فكل ما يمكن أن أقدمه من حجج للدفاع عن هذه المواقف يمكن أن يرد عليه بحجج قد لا تقل قوة. فما السر النفسي وراء هذا الموقف الحاد والمناهض للحضارة الغربية؟

تثور في ذهني عدة احتمالات. قد يكون للأمر علاقة بميلي الطبيعي الذي ولدت به إلى الشك في صحة ما يقال لي، والاستعداد دائمًا لافتراض أن الأمور ليست في الحقيقة كما تبدو في الظاهر. بل قد يكون له علاقة بأني أصغر إخوتي في عائلة كبيرة لا ينال فيها أحد من الأطفال الاهتمام الذي يستحقه أو يرغب فيه، ومن ثَمَّ تشتد الرغبة في إثبات النفس وإعلان الوجود، مما سبق لي شرحه في فصل سابق عنوانه «حرب جلال». هل نقدي الشديد للحضارة الغربية هو أيضًا حرب من حروبي التي لا أكف عن شنّها؟ نعم، قد يكون من دوافعي إلى هذا النقد هذا العامل النفسي أو

ذاك، ولكن إدراكي لذلك لا يسبب لي أي خجل، ومن ثَمَّ، فهاأنذا أعترف به. أرجو فقط (وإن كنت لست واثقًا من ذلك) ألا يسيء القارئ الظن بي لاعترافي به، مثلما لا أسيء الظن بنفسي بسببه. كما أرجو (وهذا مهم لي أيضًا) ألا يطرح القارئ جانبًا كل ما كتبته في نقد الحضارة الغربية بسبب هذا الاعتراف. فإن فعل، فإنه سيكون في رأيي مخطئًا تمامًا.

ذلك أني أعتقد اعتقادًا راسخًا بأنه ليس هناك موقف فكري لا توجد وراءه دوافع نفسية من نوع أو آخر. ليس هناك رأي، مهما بدا لنا أنه عقلاني وعلمي، إلّا ووراء اعتناقه أيضًا، بالإضافة إلى الأساس العلمي والحجج العقلية، مشاعر وعواطف قد لا يكون لها أي أساس علمي أو عقلي بالمرة. قرأت مرة للكاتب النرويجي «Knut Hamsun» في كتاب له ينتقد فيه بشدة نمط الحياة في الولايات لمتحدة، عبارة أعجبت بها، إذ يقول:

«الحقيقة ليست شيئًا ذا جانبيْن ولا هي موضوعية، إنها ليست إلّا موقفًا شخصيًّا وذاتيًّا، ولكنه خال من الغرض» (Truth is neither two-sided nor objective; truth is precisely disinterested subjectivity) وأنا أضيف إلى هذه العبارة أن الذي يميز رأيًا عن آخر، من حيث الموضوعية، ليس وجود أو عدم وجود دوافع نفسية له، بل مدى استعداد صاحبه للاستماع إلى الرأي المعارض، وإلى الاقتناع به إذا كان وجيهًا، أي مدى استعداده لتغيير موقفه إذا اقتنع بوجاهة الموقف الآخر.

إذا كان الأمر كذلك، فيجب ألَّا يكون هناك أي أثر لدوافعي النفسية، أو لدوافع غيري ممن يتخذون الموقف المضاد تمامًا من الحضارة الحديثة، في تحديد من منا على صواب. إني لازلت أعتقد أني على صواب، ولازلت أتمنى أن يقتنع القارئ بحججي وألا يقتنع بالحجج المضادة.

-١٢-

مع مرور الزمن، وجدت أن ثقتي بصحة موقفي من الحضارة الغربية تزداد قوة،

ولكني وجدت أيضًا أن حماسي للتعبير عن هذا الموقف آخذ في الضعف. فمع استمرار قراءاتي في نقد هذه الحضارة، وتكرار زياراتي لأوربا والولايات المتحدة مرة بعد أخرى، زاد ما رأيته وما قرأت عنه مما يسبب السخط. ولكني أجد نفسي مع ذلك أقل رغبة في الكتابة في هذا الموضوع من جديد، ولا أرحب بالاشتراك في ندوة تدور حول موضوع الهوية والتراث والتنديد بالغرب. وإذا عبرت عن رأيي في هذا الموضوع، في حديث صحفي أو تليفزيوني، عبرت عنه بسرعة، ورحبت بتحويل موضوع الحديث إلى غيره. فما الذي حدث بالضبط؟

أما ازدياد ثقتي بصحة موقفي، فمن السهل اكتشاف أسبابه. فخلال الثلاثين عامًا التي انقضت منذ كتبت «المشرق العربي والغرب»، تغير الغرب نفسه إلى الأسوأ، وباعتراف الغربيين أنفسهم، فكثرت الكتابات المندّدة بالحياة الحديثة، وانتقلت من الكتب إلى الصحف وسائر وسائل الإعلام. ولم يكن غريبًا بالطبع أن أسرّ بكثرة هذه الانتقادات، خاصة إذا تعلقت بجوانب جديدة في حضارة الغرب أو في تطور الحياة الحديثة لم أكن قد لاحظتها من قبل.

أما أن المجتمع الاستهلاكي قد زاد فحشًا، فقد أصبح واضحًا لكل ذي عينيْن بل كاد أن يصبح كوميديًّا. وعندما أرى تغلغل مظاهر هذا المجتمع الاستهلاكي في حياتنا نحن في مصر، وفي المجتمعات المماثلة لنا في الفقر، يبدو المنظر مزيدًا من الكوميديا والمأساة. فالفحش في الاستهلاك يصبح أكثر استفزازًا وأصعب على النفس عندما تراه جنبًا إلى جنب مع مظاهر الفقر المدقع، أو مقترنًا بتمسك شكلي بالهوية والتراث، كاستخدام طقوس شهر رمضان مثلًا للترويج للسلع الاستهلاكية، أو كقبول بعض رجال الدين الكبار الاشتراك في برامج تليفزيونية تبث خلالها إعلانات تحتوي على رقص خليع للترويج لسلع تافهة لا يحتاج إليها أحد على الإطلاق.

* * *

مع تعدد مشاهداتي للأوجه القبيحة للحضارة الغربية، ومع ازدياد الأمثلة التي أصادفها في الخارج وفي مصر على السواء على توحش المجتمع الاستهلاكي، وما نقدمه من تضحيات أكبر فأكبر، ببعض الجوانب الناصعة في ثقافتنا التقليدية ونمط

حياتنا، أصبحت نظرتي إلى كثير من قضايانا الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية، خاضعة أكثر فأكثر، لموقفي السلبي من الحضارة الغربية. ففي كثير من هذه القضايا أصبحت المسألة الأساسية في نظري هي مسألة التراجيدي الناجمة عن التقاء حضارات مختلفة، وهو التقاء قهري طرفاه ليسا على نفس الدرجة من القوة. أصبحت أرى كثيرًا من مشاكلنا في مصر وكأنها نتيجة مباشرة لهذه المواجهة القهرية، وأنه لا يمكن أن تحل حتى تحل مشكلة هذه المواجهة. الأمر واضح فيما يحدث مثلًا للغة العربية والموسيقى العربية، وأنماط سلوك الشباب، وتغير القيم الاجتماعية... إلخ، ولكن هكذا أصبحت أنظر أيضًا إلى قضية مثل قضية الخصخصة وبيع القطاع العام. فما مصير المجتمع المصري إذا استمر الاتجاه نحو الخصخصة وبيع القطاع العام لشركات أجنبية متعددة الجنسيات، لا تفعل أكثر من فتح الأبواب أمام نمط المجتمع الاستهلاكي ونوع الحياة السائدة في الغرب؟ وهكذا ما يتعلق بمشكلة الديمقراطية والحريات وحقوق الإنسان. ما الذي يحدث لكل هذا في مصر إلّا استيراد أفكار بائسة ومفاهيم قاصرة جدًّا عن الحرية وحقوق الإنسان من الغرب، طبقًا لآخر موضات الغرب السياسية؟ وما الذي تكتبه تقارير منظمات الأمم عنا، وما مغزى هذا النقد الشديد الذي توجهه لنا إن لم يكن المقصود (أو على الأقل إن لم تكن النتيجة النهائية) دعم عملية القهر التي تمارسه الحضارة الغربية ضد ثقافتنا ونمط حياتنا، مستغلة حالة الضعف الشديد الذي نعيش فيه، هذا الضعف الذي كانت هي، على أي حال، المسئول الأساسي عنه؟

بل هكذا أصبحت أنظر، أكثر فأكثر، إلى مشكلة إسرائيل وقضية فلسطين. ما الخطر الأساسي الذي تمثله إسرائيل بالنسبة إلينا؟ أهو احتلال أرض قد يمكن استردادها بتدخل دولي أو بمفاوضات أو مقاومة مسلحة.. أم هو هجوم حضاري وثقافي عاتٍ ضرره أعمق من ضرر احتلال أرض، وأثره أطول مدى وتحتاج مقاومته إلى أساليب مختلفة تمامًا؟[٣٢]

ذكرني هذا بقول للمهاتما غاندي عن الاستعمار البريطاني للهند، إذ قال إنه ينظر إليه لا على أنه احتلال للهند بالجيوش البريطانية، بل على أنه احتلال للهند من الحضارة الغربية.

كلا، لم تضعف ثقتي بصحة نقدي للحضارة الغربية، بل أصبحت أتعاطف الآن، أكثر مما كنت في أي وقت في الماضي، مع أي شيء أقرأه، أو أعيد قراءته في هذا الموضوع، لأولئك الرافضين العظام الذين لم يخل منهم عصر من العصور منذ عصر النهضة الأوربية. نعم، مرت بي خلال الثلاثين عامًا الماضية أحداث صغيرة ومناسبات كانت ثقتي بصحة موقفي تهتز لفترة وجيزة، ولكنني سرعان ما كنت أستعيد هذه الثقة من جديد. من ذلك ما سبق أن أشرت إليه من الاعتراض الشديد الذي سمعته على بعض كتاباتي في هذا الموضوع، من أشخاص أقدرهم وأحترم طريقة تفكيرهم، ولكني كنت أميل في النهاية إلى تفسير موقفهم بأسباب لا تفرض عليَّ مجاراتهم في رأيهم. كذلك كانت تمرّ بي بعض التجارب التي تذكرني بقوة بالفوائد الكبيرة التي تؤديها الحضارة الغربية لكثير من الناس، دون أن يكونوا في وضع يسمح لهم بتعليق أي أهمية على أسباب رفضي لها.

من هذه التجارب ما تعرضت له مرة في أوائل الثمانينات عندما دعيت لإلقاء محاضرة في أي موضوع أختاره في مقر حزب التجمع بالزقازيق، فاخترت موضوعًا يتعلق بالتمسك بالهوية والتهديد الذي نتعرض له من الانفتاح والتغريب. ثم فوجئت بأن ردود الفعل من الحاضرين لم تكن إيجابية بالمرة. كانت التعليقات بعد المحاضرة تدور كلها حول المعنى التالي: ما أهمية هذا الذي تتكلم عنه في ظل الفقر وظروف المعيشة التي نحياها؟ وأذكر أن أحد المعلقين أشار إلى حالة مياه الشرب في الزقازيق وأن نسبة عالية منها (ربما قال الثلثيْن) لا تصلح للشرب أصلًا. في مثل هذه الظروف كيف يأتي أحد من القاهرة ليكلمنا عن الهوية؟ تأثرت كثيرًا بهذا الكلام؛ إذ وجدته يحتوي على جزء كبير من الحقيقة، وليس مجرد تعبير عن الموقف الماركسي الذي يتبناه معظم أعضاء حزب التجمع، والذي يؤكد على مشكلة الفقر ولا يعبأ كثيرًا بمشكلة مثل قضية الأصالة والمعاصرة.

تكرر هذا الشعور لديَّ كلما واجهت حالة من حالات البؤس الشديد الناتج عن قلة الدخل، مما لا يمكن أن يترك لصاحبها أي طاقة للتفكير في أي شيء آخر غير

الحاجات البيولوچية، وتساءلت عما إذا كان اهتمامي بمسألة الهوية هو مجرد اهتمام شخص مترف، أشبع كل حاجاته الضرورية، ولديه من الوقت ما يمكن إنفاقه في المناداة بحماية الثقافة الوطنية. ولكن حتى هذه التجارب كان تأثيرها عليَّ قصير العمر، وكنت أجد من الأسباب ما يجعلني أسترد ثقتي بصحة موقفي. فأنا لم أنكر في أي وقت من الأوقات المنافع الكثيرة التي حققتها هذه الحضارة، ولكني كنت ولا أزال أعتقد أن القضاء على الفقر أو التخفيف منه لا يفرض علينا مجاراة هذه الحضارة أيضًا في أخطائها الكثيرة. كنت ولا أزال أعتقد أننا «فقراء ولكننا لسنا متخلفين»، وأن التخلص من الفقر له طرق مختلفة ليست الحضارة الحديثة إلّا واحدة منها. وقد كان الإهداء الذي كتبته في مطلع أحد كتبي، وكان أول ما كتبته مما يمس هذا الموضوع («تمدين الفقر» (The Modernization of Poverty)) هو: «إلى أولادي، دانية وتامر وأحمد، آملًا أن يكون مستقبلهم أكثر رخاء وأقل حداثة».

* * *

كلا، لم ينجح لا هذا ولا ذاك ولا غيرهما في تغيير موقفي، فلماذا، إذن، ضعف حماسي له، ولم أعد راغبًا في اقتناص الفرص للتعبير عنه؟

ربما كان من أسباب ذلك ما حدث في مصر وفي العالم كله مما يدعو إلى اليأس من جدوى المقاومة. واليأس طبعًا شيء مختلف عن التسليم بالخطأ. عندما بدأت أفكر وأتكلم عن الاستقلال الحضاري ومقاومة الغزو الثقافي ونقد الغرب والمجتمع الاستهلاكي، كانت مصر في بداية سنوات الانفتاح، أي منذ ما يقرب من أربعين عامًا. ونحن نعرف ما حدث لمصر خلال الأربعين سنة التالية، من انتشار المجتمع الاستهلاكي ومظاهر الافتتان بالغرب والاستعداد المتزايد للتضحية بما يميز الثقافة العربية والمصرية، من اللغة العربية، إلى السمات الخاصة بالموسيقى أو الطعام أو الزي أو العلاقات الاجتماعية... إلخ. فمع مرور الزمن على بداية الانفتاح، أصبح ما كان يبدو غريبًا مدهشًا من مظاهر التغريب والتنكر للثقافة الوطنية، يقبله الناس أكثر فأكثر، كجزء من المظاهر المألوفة في الحياة اليومية. وارتبط التغريب أكثر فأكثر بمصادر الرزق لعدد متزايد من الناس، ممن يعتمدون في الحصول على دخلهم على

العمل في شركات أو مؤسسات أجنبية، أو على السياح أو كل ما يتصل بالتسويق الذي تزداد دائرته اتساعًا يومًا بعد آخر؛ بحيث أصبحت مطالبتهم برفض هذا التغريب تنطوي على تعسف أو بعد صارخ عن الواقعية.

والذي حدث في مصر حدث مثله في مختلف أنحاء العالم الثالث، كما انهار حصن بعد آخر من حصون المقاومة في الاتحاد السوڤيتي والصين والهند... إلخ، بل ضعفت المقاومة حتى في داخل الحضارة الغربية نفسها. أصوات النقد والاحتجاج موجودة، بل ربما تزداد ارتفاعًا، ولكن المجتمع الاستهلاكي لا يسمع، ولا يتوقف عن الزحف، بل بسرعة متزايدة. ثم أتيحت لي منذ أشهر قليلة فرصة رؤية السودان، فرأيت الخرطوم لأول مرة، فإذا بي أجد السودانيين الذين أحببتهم دائمًا وقدرت صلابتهم في التمسك بثقافتهم، قد بدءوا يعانون من الآثار الأولى لتدفق البترول في أراضيهم، وما أحدثه من إسالة لعاب المستثمرين الأجانب الذين بدءوا يفدون على السودان بنشاط وحماس مدهشيْن؛ مما يعد بتشوه متسارع في نمط الحياة في السودان والتضحية المتزايدة بسمات غالية من سمات ثقافتهم. بل ربما أصبح هذا التشوه أسوأ وأسرع؛ إذ إنه يأتي متأخرًا من ناحية، وفي بلد كان أفقر بكثير من غيره من البلاد العربية من ناحية أخرى؛ فالتغريب هنا يبدأ من مستوى منخفض جدًّا من الدخل، وفي وقت بلغ المجتمع الاستهلاكي فيه درجة عالية من التوحش.

أدى هذا الانتشار السريع للمجتمع الاستهلاكي والغزو والثقافي في بلادنا إلى نمو الحركات المتطرفة، وإلى ازدياد الميل إلى مواجهة التطرف بالتطرف، فإذا بشخص كاره مثلي للحضارة الغربية، يحار فيمَ يصنع، وهو يرى الحماقة تواجه بالحماقة، وإذا به يشعر بأن أي جهد يبذله للدفاع عن الثقافة القومية وضد الغزو الثقافي قد لا ينتج عنه إلّا نفي الثقافة أصلًا، وإذا بمقاومة التنوير الزائف تسهم في الإسراع بحلول الظلام التام.

إن هذا الانتشار المذهل للحضارة الغربية في مختلف أنحاء العالم، كما تنتشر النار في الهشيم، ونجاحها الذي لم تحقق مثيلًا له أي حضارة سابقة، في إخضاع الثقافات المغايرة، واستعداد هذه الثقافات المغايرة للتسليم للحضارة الغربية بالتفوق، كل هذا

لا يعود فقط إلى جاذبية السلع الغربية، ولا إلى سحر الرفاهية والقوة، ولكنه يعود أيضًا إلى التفوق في شيء آخر شديد الأهمية، علينا جميعًا، فيما أظن، أن نسلم به، وإن كان التسليم به لا بد أن يقترن، في نظري، بشعور قوي بالأسف. هذا التفوق يتعلق بمسألة كمية بحتة، وهي مجرد التكاثر العددي.

فالحضارة الغربية الحديثة نجحت نجاحًا باهرًا في تمكين الجنس البشري من التكاثر بمعدل لم يعرفه من قبل، لا البشر ولا أي نوع من أنواع الحيوان الأخرى. لقد تسلمت الحضارة الغربية العالم وبه نحو ٧٥٠ مليونًا من البشر في سنة ١٧٥٠ فبلغت به ما يزيد على ستة بلايين، أي أنها أدت إلى تضاعف عدد البشر خلال قرنيْن ونصف، نحو تسع مرات. والذي جعل هذا ممكنًا هو بالطبع التكنولوچيا الحديثة التي هي من ثمار هذه الحضارة، أو سمتها الأساسية؛ إذ مكنت هذه التكنولوچيا الإنسان من توفير ضروريات الحياة لعدد أكبر من الناس، وإذ زاد عددهم تطلب هذا تقدمًا تكنولوچيًّا جديدًا، فإذا حدث هذا التقدم التكنولوچي الجديد، زاد الناس أكثر، ثم نشأت الحاجة إلى تقدم تكنولوچي آخر، وهكذا.

نجاح الحضارة الغربية إذن، وانتشارها على هذا النحو غير المسبوق، ظاهرة داروينية بمعنى الكلمة؛ إذ أثبتت هذه الحضارة قدرتها الفائقة على تمكين البشر من البقاء والتكاثر، فبقيت هي وانتشرت. ولكن هذا شيء، ومسألة «الجدارة» طبقًا لأي معيار آخر، شيء مختلف تمامًا. فداروين نفسه لم يزعم قط أن القدرة الأكبر على البقاء على قيد الحياة معناها «الأفضلية» في أي شيء آخر، أو أن القول بأن «البقاء للأصلح» (Survival of the Fittest)، يعني أكثر من القدرة على البقاء والانتشار، أي أنه لا يعني بأنه الأجمل أو الأذكى أو الأنبل، أو أنه «أرقى» من غيره بأي معنى من المعاني غير هذه القدرة الأكبر على البقاء. إذا كان الأمر كذلك، فإنه قد يكون فعلًا سببًا قويًّا لليأس من محاولة «صدّ» الحضارة الغربية والوقوف ضدها، ولكنه يمكن أن يكون مع ذلك سببًا قويًّا للشعور بالأسف، على أن الأمر هو بالفعل كذلك.

لا شك في أن هذه الفكرة كانت سببًا من أسباب ما اعترى حماسي للدفاع عن الهوية من ضعف، وزهدي في الاسترسال في نقد الحضارة الغربية، على الرغم من

تعدد أسباب سخطي عليها وازدياد هذه الأسباب مع الوقت. ولكن ربما كان هناك أيضًا سبب آخر أقوى، وهو مجرد دخولي في مرحلة الشيخوخة أو مجرد التقدم في السن. فلا شك في أن المرء يضعف حماسه لأي شيء مع تقدمه في السن. إنه قد لا يغير رأيه ولكنه يصبح أقل حماسًا في التعبير عنه، وأكثر استعدادًا للاعتراف باحتمال خطئه. وهو موقف يتسم بلا شك بدرجة أكبر من الحكمة من موقفي القديم، ولكني مع ذلك أفضّل عليه موقفي القديم، أي ما كنت عليه منذ عشرين أو ثلاثين عامًا، عندما كنت أقل حكمة وأكثر حماسًا.

(١٦)

المعادى

-١-

عندما قرر أبي في أواخر العشرينات من القرن الماضي، أي منذ ما يقرب من ثمانين عامًا، أن ينقل سكناه من الحيّ القديم الذي كان يسكنه أبوه وأمه (حيّ عابدين)، إلى ذلك الحيّ الأنيق الجديد (مصر الجديدة)، لا بد أن دافعه إلى ذلك كان تدهور نمط الحياة في ذلك الحيّ الشعبي مع زيادة سكانه وضيق شوارعه وحاراته.

كان أبي قد عُيِّنَ حديثًا مدرسًا بكلية الآداب، فها هو إذن قد انضم بلا شك إلى شريحة أعلى من الطبقة الوسطى الآخذة في الازدياد، والتي ضاقت بها أحياء القاهرة القديمة فوجدت الحلّ في الخروج إلى الصحراء، وكانت «مصر الجديدة» مناسبة تمامًا.

اشترى أبي بيتًا صغيرًا بالقرب من ميدان الجامع بمصر الجديدة، وهو البيت الذي ولدت فيه في منتصف الثلاثينات، وسرعان ما أضاف إليه دورًا آخر. كنت كلما عدت، بعد مرور سنوات كثيرة، لألقي نظرة من جديد على هذا البيت الذي تركناه في ١٩٤٧، مدفوعًا بلا شك بالحنين إلى أيام الطفولة والصبا، رأيتُ فيه بيتًا جميل المعمار، ذا شرفات واسعة وحديقة صغيرة لا بد أنها كانت تبدو لنا في صبانا شاسعة الأرجاء، عندما كنا نتسلق شجرة الجوافة العظيمة التي تمتد فروعها وأغصانها لتغطى سقف الجراج، أو نحاول الاختفاء في هذا الركن أو ذاك أثناء لعبة «الاستغماية»، حيث يغطى أحدنا عينيْه بيديْه ريثما يختفي الآخرون ثم يجري للبحث عنهم، أو لعبة «عسكر وحرامية» عندما يبحث بعضنا، وقد تقمصوا شخصيات رجال البوليس، عن الآخرين المتقمصين دور اللصوص.

كان يسكن في مصر الجديدة في الثلاثينات والأربعينات الكثير من الأجانب، ولكن مصر الجديدة كانت في الأساس هي الحي السكني للطبقة المتوسطة الجديدة في مصر، وهي طبقة كانت قد اكتسبت مكانتها أساسًا من التعليم، ولا بد أن هذا قد طبع الحيّ كله بطابعه الراقي، بالغ الجاذبية. كانت الطبقة الوسطى المصرية في ذلك الوقت طبقة راضية عن نفسها، سعيدة بما أحرزته من تقدم تعتقد أنها تستحقه، وليس لديها مطامح مبالغ فيها لتحقيق المزيد من الثراء. كانت سمات التظاهر والادعاء بغير الحقيقة نادرة، ومظاهر الجمال والنظافة في الشوارع كثيرة، كما كانت المدارس المتاحة لأبناء هذه الطبقة تحظى بأفضل المعلمين وتنفق عليها الدولة بسخاء.

مما ساعد بلا شك على حصول هذه الطبقة على مستوى عالٍ من الرفاهة والراحة، توفر عدد كبير من الأيدي العاملة التي كانت على استعداد لخدمة الطبقات الأعلى على أي نحو بأقل أجر. كانت الزيادة الكبيرة في السكان في فترة ما بين الحربيْن مع ثبات ملحوظ في مساحة الأرض الزراعية، قد ضاعف من أعداد الزائدين عن الحاجة في الريف المصري، فزاد بشدة عدد الأسر الريفية المستعدة لإرسال أولادها وبناتها في سن صغيرة للغاية، إلى من يريد استخدامهم في المدن كخدم في المنازل بأجر زهيد للغاية، بل حتى مقابل مجرد إطعامهم وكسوتهم.

* * *

لاشك أن هذه الميزات التي كانت تتمتع بها الطبقة الوسطى في مصر في ذلك الوقت، في وسط بحر واسع من الفقر، هي التي سمحت لأبي، وهو لا يحصل على دخل غير مرتبه ومكافآت مقالاته، بأن يضيف إلى مقتنياته بيتًا جميلًا من دوريْن، في حي الدقي، انتقلنا إليه في سنة ١٩٤٧.

كان دافع أبي إلى هذا الانتقال قرب الدقي من الجامعة؛ إذ كان أكثر إخوتي قد دخلوا الجامعة أو أوشكوا على دخولها. ولكن جامعة القاهرة (أو جامعة فؤاد الأول كما كانت تسمى قبل الثورة، والتي كانت أيضًا الجامعة الوحيدة في مصر عدا الأزهر) لم تكن تكفي حينئذ لجذب عدد كبير من الناس لسكنى هذه الضفة الغربية من النيل؛ إذ ظلت أعداد الطلبة الذين يلتحقون بالجامعة محدودة للغاية حتى قيام الثورة، ومن

ثم بقيت الدقي والعجوزة وذلك الجزء من الجيزة المحيط بالجامعة، تتكون أساسًا من الحقول والحدائق والمشاتل، بما في ذلك حديقة الحيوان البديعة، وحديقة الأورمان الملاصقة لها والتي لم تكن تقل عنها جمالًا، وحديقة المتحف الزراعي بأشجاره ونباتاته النادرة. كان حيّ الدقي في ذلك الوقت يتكون أساسًا من ڤيلات أنيقة، وبعض المستشفيات الأنيقة أيضًا، وكازينوهات قليلة أنشئت في الأصل للترفيه عن الجنود الإنجليز (ككازينو بديعة مصابني على ضفاف النيل، مكان فندق شيراتون الجيزة الآن) أو للعدد القليل من العشاق الراغبين في الابتعاد التام عن الأنظار.

عندما انتقلنا إلى بيتنا الجديد في الدقي بالقرب من حديقة الأورمان في ١٩٤٧، كان السير ليلًا في اتجاه المتحف الزراعي مهمة مخيفة تتطلب قلبًا جسورًا؛ إذ كان علينا اختراق شارع خافت الإضاءة (وهو شارع الدقي الآن) تحيط به من الجانبيْن مساحات شاسعة غير مبنيّة، وتستعمل كمشاتل للزهور. فلما تركت هذا البيت بعد عشرة أعوام مسافرًا في بعثتي إلى إنجلترا، كان حيّ الدقي قد زحفت عليه حشود جديدة من الطبقة الوسطى التي خلقتها ثورة ١٩٥٢، فاختفت الحقول والمشاتل وبدأت تحل محلها العمارات، وبدأت الحدائق الجميلة في التدهور مع زيادة عدد مرتاديها. ومع ذلك كانت أمي لا تزال قادرة على المشي إلى حديقة صغيرة في وسط ميدان المساحة، فتجلس في وسطها تستنشق بعض الهواء النقي؛ إذ لم يكن يحيط بهذا الميدان وقتها إلّا مجموعة من الڤيلات التي لا تفسد جمال الميدان، ومستشفى جميل صغير بديع المعمار (مستشفى الدكتور مورو)، لا يزيد ارتفاعه عن دوريْن، وله حديقة واسعة تطل عليها كل حجرات المستشفى. عندما عدت من البعثة بعد ست سنوات (في ١٩٦٤) لم يكن من السهل عليَّ أن أتبين معالم الحيّ الجميل القديم، وكان عليَّ أن أبحث عن مكان آخر أسكن فيه.

-٢-

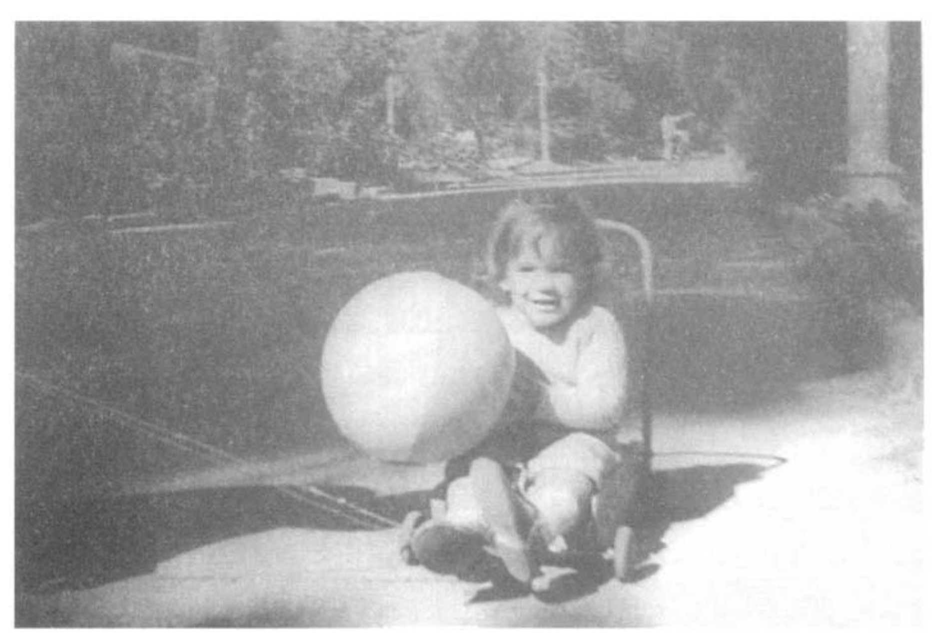
كانت لديّ بعض الذكريات الجميلة عن حيّ المعادي. أذكر يومًا وأنا في نحو العاشرة من عمري، ذهبت فيه مع أبي في سيارته إلى المعادي؛ لزيارة صديق له متزوج من إنجليزية (هو الدكتور أحمد زكي)، وقد التصقت بذهني صورة الڤيلا

الساحرة التي كان يسكنها، وكذلك توقفنا في الطريق إليه (والذي يسمى الآن الطريق الزراعي، ولكنه كان حينئذ الطريق الوحيد إلى المعادي) حيث نزلنا لشراء كمية من الفول الأخضر، ووقوفنا لنأكله وسط الحقول التي كانت تفصل المعادي عن القاهرة، ولا شك أن أبي كان بذلك يستعيد ذكرى بعض نزهاته مع أبيه عندما كانا يذهبان لزيارة بعض أصدقاء جدي من الفلاحين في قرية لا تبعد كثيرًا عن القاهرة.

اشتريت في ١٩٦٢ قطعة أرض صغيرة في جزء من حيّ المعادي، لا هو أرستقراطي ولا شعبي، اسمه «ثكنات المعادي»، ويقع بين ذلك الحيّ الأرستقراطي البديع المسمى بـ«سرايات المعادي»، وذلك الحيّ الشعبي الفقير «طرة». كانت شركة المعادي تبيع الأرض وقتها بالتقسيط، فلم يكن عليَّ أن أدفع أكثر من خمسمائة جنيه كقسط أول ثم أقسّط الباقي على خمسة عشر عامًا، ولا يزيد ثمن الأرض الإجمالي على ٢٥٠٠ جنيه؛ إذ لم يكن سعر المتر وقتها أكثر من أربعة جنيهات.

بدا لي المكان ملائمًا تمامًا للسكنى: هدوء مطبق، وأشجار باسقة، وهواء نظيف. كنا في الليل نسمع نقيق الضفادع يأتينا بلا توقف من الترعة التي تقسم حيّ المعادي والثكنات إلى نصفيْن، ولا يقطع هذا النقيق إلّا نباح بعض الكلاب القليلة ونداء الخفراء الليليين، بعضهم على بعض «مين هناك؟»؛ كنوع من التسرية عن أنفسهم والتخفيف من وحشة الليل.

كانت المعادي عندما بدأت سكناي بها في ١٩٦٤، مثلما كانت الدقي والعجوزة في ١٩٤٧، مجموعة من الفيلات التي تحيط بكل منها حديقة وتسكنها عائلة صغيرة. ولضآلة حجم سكان المعادي وانخفاض كثافتهم ظلت المحلات التجارية قليلة بدورها، وتكاد أن تكون محصورة في شارع واحد أو حتى في جزء من شارع؛ إذ لم يكن أحد يتوقع أن يحقق ربحًا وفيرًا من إقامة مطعم أو فتح محل لبيع الملابس، بل اقتصرت المحلات في ذلك الشارع «التجاري» الوحيد (شارع ٩)، على بيع الضروريات: محلان أو ثلاثة للبقالة، ومخبز ومحل ألبان، بالإضافة إلى مكوجي ونجار وصالون للحلاقة، ومحل لتحميض الأفلام وبيع الجرائد الأجنبية، وآخر لبيع الأقلام والكراريس. كان هذا هو كل ما تحتويه المعادي من محلات تجارية في منتصف الستينات.



ابنتي دانية أمام بيتنا بالمعادى، ولا ترى في الشارع سيارة واحدة (١٩٦٩)

وفى ظل قلة السكان والمحلات التجارية، كان عدد السيارات بدوره محدودًا، وكان هذا يسمح لي ولأولادي الصغار باللعب بالكرة لمدة طويلة في الشارع وأمام المنزل، دون أن نخشى أن يعكّر صفونا مرور سيارة. وحتى إذا ظهرت سيارة فإن صاحبها كان يلاحظ في الوقت المناسب بعض لاعبي الكرة؛ إذ كان يعتبر نفسه هو وسيارته غريبيْن على الشارع، ومن ثَمَّ لم يكن هناك خطر من أن يصيبنا بسوء.

كانت المعادي بهذا العدد الضئيل من السكان، وقلة السيارات، مكانًا مناسبًا تمامًا لاستخدام الدراجات بكثرة، وهكذا كثيرًا ما كنا نرى الرجال والنساء والأطفال، من الأجانب والمصريين، يتنقلون بدراجاتهم من البيت إلى النادي الرياضي، أو إلى محل البقالة. وقد اشترينا دراجات لزوجتي وأولادي، كما اشتريت لنفسي دراجة استخدمتها سنوات قليلة حتى أصبح من غير المألوف، حتى في المعادى، كما كان من غير المألوف في بقية أحياء القاهرة، أن يرى الناس مدرسًا بالجامعة، حاصلًا على الدكتوراه، وهو راكب دراجة في طريقه إلى بيته. أما زوجتي فاستمرت تستخدم الدراجة مدة أطول مني، حتى تعرضت لسخرية بعض جنود الشرطة الذين كانوا

مارين بسيارتهم المكشوفة أثناء ركوبها للدراجة، ورموها ببعض الطماطم التي كانت في أيديهم. ولا أذكر أن زوجتي ركبت دراجة منذ ذلك اليوم.

كان على بُعد منزليْن من منزلي مسجد صغير، لا يكاد يستخدم إلّا في أيام الجمعة. فلم أكن أرى فيه في بقية أيام الأسبوع إلّا بعض الجالسين الذين يحتمون في داخله من شدة الحَرِّ في الخارج. لم يكن للمسجد مكبّر للصوت، بل كان المؤذن يؤذن بصوته المجرد من أعلى المئذنة. كذلك كان قارئ القرآن وخطيب الجمعة يعتمدان على صوتيْهما الطبيعيْن اللذيْن كانا كافييْن لإسماع الجالسين داخل المسجد، دون أن يصل صوتاهما إلى المنازل المجاورة.

كنت أذهب إلى مكان عملي في العباسية (كلية الحقوق بجامعة عين شمس) بأن أركب القطار الشهير بقطار حلوان، فأستقله حتى ميدان باب اللوق أولاً، ثم أركب الأتوبيس إلى ميدان العباسية، وكان سعر تذكرة القطار ثلاثة قروش، تزيد إلى خمسة بإضافة الغرامة التي تفرض على الراكب الذي لا يشترى تذكرته قبل الركوب، وتدفع للكمساري الذي يمرّ بالركاب لهذا الغرض. ولكن حيث إن الكمساري كان نادرًا ما يجيء أصلاً، أصبح الركوب في معظم الأحوال من دون تذكرة ولا غرامة، ومن ثَمَّ كانت خدمة ركوب القطار، في نظر معظم الركاب، خدمة مجانية، مثلما كانت في الاتحاد السوفيتي في ظل الاشتراكية. ومادامت الخدمة في الحقيقة مجانية، سمح الأمر بركوب القطار لمختلف أنواع البائعين، من بائعي النعناع إلى الأمشاط، بل بائعي الصحف أحيانًا. كان من الممكن لهؤلاء التنقل من عربة إلى أخرى، ليس فقط بسبب ندرة ظهور الكمساري، بل أيضًا لوجود بعض الفراغ بين المقاعد وبين راكب وآخر يسمح لهم بالسير فيه.

* * *

لم يتغير حال المعادي كثيرًا خلال السنوات العشر الأولى من إقامتي بها، أي من منتصف الستينات إلى منتصف السبعينات. ثَمَّ حدث الانقلاب الكبير مع بداية عصر الانفتاح في ١٩٧٤. كانت تلك السنوات العشر (١٩٦٤ - ١٩٧٤)، كما ظهر فيما بعد، من أسوأ ما مرّ على مصر من سنوات، اقتصاديًّا وسياسيًّا. أصاب فيها مصر ركود

ووجوم واكتئاب جلبتها حرب اليمن أولاً، ثم هزيمة ١٩٦٧، وانقطاع المعونات الخارجية، ونضوب كثير من الموارد الداخلية للدولة. لم يكن الوقت وقت رواج، أو إثراء سريع، أو تعمير أراض، أو بناء أحياء سكنية جديدة، بل كان وقت تدهور المرافق العامة وتركها دون صيانة ولا إصلاح، وتدهور السياحة، كما قبضت الحكومة يدها عن الاستثمار في مشروعات جديدة.



بيتنا بالمعادي

في ذلك الوقت (١٩٦٨) اشتريت أول سيارة لي، وكانت سيارة صغيرة قديمة من ماركة أوستن موديل ١٩٥٨، باعها لي صديق مهاجر بأربعمائة جنيه، على أن أدفع ثمنها بالتقسيط على عشرين شهرًا؛ إذ لم أكن أستطيع أن أدفع أكثر من ذلك. وكان من المناظر المألوفة أمام كلية الحقوق بجامعة عين شمس، منظر مجموعة من الطلاب الذين يحاولون في مرح، دفع سيارتي بعد انتهاء محاضراتي، دفعة قوية تحفز موتورها على الدوران. وكان المنظر يتكرر أيضًا أمام منزلي في المعادي، إذا غامرت بركوب السيارة بدلاً من القطار. على أني لم أكن حالة استثنائية، فأكثر السيارات في ذلك الوقت كان متهالكًا قديمًا يدعو إلى الرثاء؛ بسبب القيود الصارمة المفروضة على الاستيراد. وكذلك كان من المناظر المتكررة في شوارع المعادي منظر المجاري

الطافحة، أو منظر شجرة سقطت أو أسلاك تليفونات متدلية من عواميدها بسبب هبوب عاصفة أو سقوط أمطار، فتركت على حالها دون إصلاح لعدة أسابيع أو أشهر. كان هذا هو أيضًا حال نادى المعادي الذي شهد قبل ذلك عصرًا أجمل بكثير، ثم أصبح منظر أحواض الزهور يدعو للرثاء، مثلما كان حال الموظفين والخدم العاملين فيه.

-٣-

جاء الانفتاح في ١٩٧٤، فتدفقت الأموال فجأة على شرائح واسعة من المصريين، وتغيرت أحوال المعادي مثلما تغيرت أشياء كثيرة أخرى في مصر. ظهرت على السطح طبقة وسطى جديدة تختلف بشدة عن تلك التي ظهرت في مصر فيما بين الحربيْن العالميتيْن، والتي أدت إلى النمو السريع في مصر الجديدة، وكان صعودها بسبب انتشار التعليم وما أحرزته الصناعة المصرية من تقدم في سنوات الحرب وسنوات الأزمة العالمية بين الحربيْن، التي فرضت على مصر إنتاج ما كانت تقوم من قبل باستيراده. ثم جاءت طبقة وسطى جديدة في الخمسينات والستينات، وهي التي أدت إلى النمو السريع في أحياء مثل الدقي والعجوزة، وهي طبقة تدين أساسًا في صعودها إلى ما فعلته حكومة الثورة، خلال هذيْن العقديْن، في نشر التعليم والتصنيع وزيادة إنفاقها على مختلف الخدمات الحكومية والجيش؛ فزاد حجم البيروقراطية المصرية زيادة كبيرة. أما في السبعينات والثمانينات، فكان نمو الطبقة الوسطى راجعًا إما إلى ازدهار أعمال الوساطة المرتبطة بالانفتاح، كالاستيراد والتجارة والمقاولات والسياحة، وإما إلى الهجرة إلى دول الخليج؛ حيث أرسل المهاجرون فوائض دخولهم إلى أسرهم وإما عادوا بمدخراتهم لاستثمارها في مصر، أو يرجع حتى إلى مجرد التضخم الجامح الذي نشأ عن الانفتاح. كان لا بد لهؤلاء أن يبحثوا عن أراض جديدة؛ ذات أسعار معقولة؛ لاستثمار أموالهم في بناء مساكن لهم، أو حتى لأطفالهم، ولو تركوها مغلقة لسنوات طويلة حتى يشب هؤلاء الأطفال ويرغبوا في مساكن مستقلة، فلا يضطروا إلى شراء بيوت أو شقق زادت أسعارها أضعافًا مضاعفة بسبب التضخم.

بدت المعادي والصحراء المتلاصقة لها في الشرق، والحقول التي تفصل بينها وبين القاهرة شمالًا، وحلوان جنوبًا، مكانًا جذابًا لهذه الطبقة الوسطى الجديدة، فلم تقف في وجوههم عقبة بل كسروا كل القواعد، وخرجوا على كل الشروط القديمة التي كانت تحمى المعادي من التدهور، لعشرات السنين. فوجئ سكان المعادي القدامى بالعمارات الشاهقة تبنى بين الڤيلات، أو حتى مكان الڤيلات التي جرى هدمها أو تعليتها، والمحلات التجارية والمطاعم تزحف على الشوارع التي كان من الممنوع من قبل اقتراب المحلات منها، وبدأت المجمعات التجارية في الظهور في المعادى، كما ظهرت في غيرها، فزادت أعداد السيارات التي كان عليها أن تعبر شريط القطار لتصل إلى التجمعات السكنية الجديدة. وإذ أصبح من المستحيل إجبار العدد الهائل من السيارات على الوقوف كل بضع دقائق حتى يمر القطار، أقيمت الكباري العلوية فوق شريط القطار، فأصبح أصحاب الڤيلات يطلون من شرفاتهم على تيار لا ينقطع من السيارات.

في السبعينات والثمانينات إذن، انفتحت المعادي على العالم كما انفتحت مصر كلها، فظهرت في المعادي أشياء كانت قد اختفت من مصر في الخمسينات والستينات، كمحل لتوماس كوك مثلًا لخدمة السياح والأعداد المتزايدة من المصريين المسافرين إلى الخارج، وافتتحت مدارس خاصة كثيرة تعلم التلاميذ الإنجليزية، وقد وجدت في طبقة المصريين الجدد الذين يكسبون دخولهم بالعملة الأجنبية مصدرًا مجزيًا للربح. كان لا بد أن تختفي المحلات القديمة التي تحتل مساحات من الأرض عالية الثمن ولا تدرّ ربحًا كافيًا، كالمخابز القديمة ومحلات منتجات الألبان قليلة العائد، أو المحلات التي تبيع الكراريس والأقلام الرخيصة لتحل محلها محلات الملابس المستوردة. كما اختفى المكوجي القديم الذي يعمل وحده في دكانه ويساعده صبيّ صغير يحمل الملابس من المنازل ويعيدها إليها، ليحل مكانه محل للتنظيف بالبخار. واختفى كذلك صالون الحلاقة القديم وصاحبه العجوز الذي يستقبل الرجال فقط، ليحل محلّه الكوافير الذي يقوم بخدمة الرجال والنساء على السواء.

لا بد أن الانتشار الذي حققه التليفزيون في ذلك الوقت، بعد أن كان محصورًا في

دائرة ضيقة من المستهلكين في الستينات، كان له دوره في تشجيع هذه التحولات. إذ كيف كان من الممكن أن يعرف المصريون ما ينتجه العالم من سلع جديدة إلّا عن هذا الطريق؟ كيف كان يمكن أن يعرف الشباب الموضات الجديدة في الملابس، وأن تفتن النساء بتسريحات جديدة للشعر، ويزيد الحماس لتعلم لغة أجنبية، إلّا بالتعرض المستمر للإعلانات والمسلسلات التليفزيونية؟ كانت القدرة الشرائية قد زادت بما يسمح بدخول التليفزيون حتى في بيوت الشرائح الدنيا من الطبقة المتوسطة، ومن ثَمَّ كان على التليفزيون أن يتطور ليلاحق هذا الطلب المتزايد عليه، فحل التليفزيون الملون محل الأبيض والأسود، وازدادت برامجه جاذبية، حتى أثناء شهر رمضان، بل على الأخص في خلال شهر رمضان، فعرفنا لأول مرة فوازير رمضان ومسلسلاتها التي أصبحت سمة من السمات الأساسية للتليفزيون المصري في الشهر الكريم. وحصل امتزاج مدهش، ومنافٍ للذوق، بين برامج تتسم بقدر كبير من الإباحية، يزيد حتى على ما كان مسموحًا به في الأفلام السينمائية، وبين برامج ممعنة في صرامتها الدينية وتشددها وتجهمها. فإذا بمناظر الرقص تأتي بعدها أحاديث منتظمة للشيخ متولي الشعراوي، ولا تجد إدارة التليفزيون بأسًا من ذلك طالما جاءت بفاصل قصير بين الاثنيْن يتكون من أذان لإحدى الصلوات، أو حتى قطعة موسيقية قصيرة تتضمن نفس لحن الأذان.

هل كان لهذا كله علاقة بالتطور الذي لحق الجامع القريب من منزلي؟ لقد زادت بلا شك أعداد المصلين المواظبين على المجيء إلى الجامع؛ مما يمكن أن يفسر بسهولة بزيادة عدد سكان المعادي وارتفاع كثافتهم مع زيادة عدد العمارات العالية. ولكن هذا لا يكفي بالطبع لتفسير تطورات أخرى مهمة. فقد أصبح المصلّون في الجامع ينتمون أكثر فأكثر إلى مختلف الأعمار، بل زاد أيضًا عدد السيدات اللاتي يقصدن المصلّى الصغير المخصص لهن داخل الجامع. زاد أيضًا عدد القادمين للصلاة في غير أيام الجمعة، فبعد أن كان الجامع شبه خاوٍ في تلك الأيام، زاد عدد الآتين إليه لأداء الصلوات الخمس في جميع أيام الأسبوع. واستجاب القائمون بخدمة المسجد لهذا الإقبال المتزايد، فاستعاضوا عن الصوت المجرد بميكروفون

جبّار يذاع منه الأذان مرتيْن لكل صلاة، في جميع أيام الأسبوع، كما يذيع كل مراسم صلاة الجمعة.

مع مرور السنوات على الانفتاح بدأت تختفي السيارات القديمة المتهالكة والمحتاجة إلى دفعة قوية بالأيدي قبل أن تبدأ في السير، ناهيك عن الدراجات التي جعلتها كثرة السيارات وسيلة غير آمنة للانتقال فكادت تختفي بدورها. وحلت محل هذه وتلك سيارات حديثة من مختلف الأنواع، مستوردة أو جرى تجميع أجزائها في مصر. ومع ارتفاع معدل التضخم زاد عدد النساء اللاتي يخرجن من منازلهن. ومع ازدياد الازدحام في القطار الذاهب إلى وسط المدينة ازداد احتياج بعض الأسر إلى سيارة إضافية تحمل الزوجة إلى مكان عملها والأولاد والبنات إلى جامعاتهم. هكذا امتلأ الشارع الذي أعيش فيه، كما امتلأ غيره، بالسيارات من كل صنف، تقطعه جيئة وذهابًا، أو تقف بحذاء الرصيفيْن، حتى أصبح من الصعب عبور سيارتيْن في اتجاهيْن مختلفيْن في نفس الوقت. واحتاج الأمر إلى درجة عالية من الصبر وضبط النفس والتفنن في العثور على طريقة لتلبية حاجة كل من السائقين. وكان لا بد كل يوميْن أو ثلاثة، أن تسمع أصوات الشجار والسباب بين صاحبي سيارتيْن يسيران في اتجاهيْن متعاكسيْن؛ إذ يرفض كل منهما التراجع بضعة أمتار حتى يتمكن الآخر من المرور. في ظروف كهذه، كيف يمكن لأي شخص أن يلعب الكرة مع أولاده في وسط الشارع كما كنت أفعل في مطلع السبعينات؟ من حسن الحظ أن أولادي كانوا قد بلغوا سنًّا لا يحتاجون فيها إلى مثل هذا اللعب، أما أولادهم هم فلا يكادون يطئون بأقدامهم أي شارع على الإطلاق، إذ يخرجون من منزلهم ليدخلوا مباشرة في سيارة يقودها أبوهم أو أمهم، والأرجح أن تقود السيارة أمهم؛ إذ إن الأب مشغول بتدبير طريقة لمواجهة الزيادة الكبيرة التي طرأت على نفقات المعيشة بسبب كل هذه التطورات.

أما القطار فلم يعد من الممكن أن يستمر حاله على النحو الذي وصفته. فمن أجل مواجهة الملايين الجديدة من ركّاب القطار لم يعد هناك مفرّ من مضاعفة عدد العربات في كل قطار، ومضاعفة عدد القطارات، وتقصير المدة الزمنية الفاصلة بين كل قطاريْن. ومتى زاد عدد القطارات وسرعتها على هذا النحو، كان لا بد أن يقام سور شاهق يمنع

الناس من السير على القضبان، وإلغاء التقاطعات التي تسمح للسيارات أحيانًا بالعبور فوق هذه القضبان، وكان لا بد في النهاية من قبول العرض المقدم من شركة فرنسية لتحويل قطار حلوان إلى «مترو أنفاق» بحفر أنفاق تسير تحت شوارع المدينة. لم يعد من الممكن، في ظل هذا كله، أن يظل ركوب القطار مجانيًّا كما كان، بل اضطرت الحكومة، عبر فترة قصيرة من الزمن إلى زيادة ثمن التذكرة، حتى بلغ سعرها جنيهًا كاملًا، مع القبض على أي شخص يضبط وهو يحاول التهرب من دفعه. كانت النتيجة أن اختفت طبقة كاملة من طبقات الشعب المصري عن أنظار ركاب المترو، وهى طبقة تضمّ كل العاجزين عن دفع هذا الثمن المرتفع لتذكرة القطار، كما اختفى بائعو النعناع والأمشاط والصحف، واقتصر راكبو القطار على أفراد من الطبقة الوسطى الدنيا، لا يمكن أن يحلموا بحيازة سيارة خاصة، ولكنهم قادرون، ولو بشيء من المعاناة، على دفع ثمن تذكرة القطار.

- ٤ -

خلال العشرين سنة الأخيرة، بدأت تظهر أعراض جديدة على المعادي تشبه أعراض الشيخوخة التي تنبئ بأن الوقت قد حان لأي حشود جديدة من الطبقة الوسطى أن تبحث لنفسها عن مكان آخر. كانت لا تزال هناك بالطبع إمكانية التوسع في الصحراء المترامية في الشرق، ولكن هذا لم يعد توسعًا في المعادي المعروفة، بل كان بمثابة بناء أحياء جديدة، أما في المعادي نفسها فقد أصبحت مساحات الأرض التي لازالت خالية نادرة للغاية، كما قلّت فرص هدم ڤيلات قائمة لإحلال عمارات عالية محلها. على أي حال، كانت أسعار الأراضي قد ارتفعت لدرجة لم يعد قادرًا على تحملها إلّا شريحة صغيرة للغاية من علية القوم، لهم متطلبات في السكنى تختلف عن متطلبات الشرائح القديمة من الطبقة الوسطى التي أتت إلى المعادي، مثلما أتيت أنا، في فترة «الاشتراكية» في الخمسينات أو الستينات، أو في فترة «الانفتاح» في السبعينات والثمانينات. إن هؤلاء القادمين الجدد ينتمون إلى حقبة مختلفة تمامًا تتسم ببروز تفاوت طبقي حاد. كانت زيادة حدة الانقسام الطبقي في العشرين سنة الأخيرة أكبر بكثير مما عرفته سنوات

الانفتاح الأولى، وأكبر بالطبع مما عرفته مصر في أيام إعادة توزيع الدخل في الستينات. كان السبب زيادة أعداد من يحصلون على دخولهم من شركات أو مؤسسات أجنبية، فضلًا عن خضوع أموال الدولة لابتزاز متزايد ممن وجد لديه القدرة على ذلك. لم يعد القادمون الجدد، من هذه الصفوة الجديدة الممتازة، يأتون لبناء ڤيلات صغيرة جميلة أو لشراء شقة فاخرة في عمارة شاهقة، بل أتوا لبناء قصور بمعنى الكلمة، سواء كانت قصورًا مستقلة، بحمامات خاصة للسباحة، وتحيط بها أسوار عالية يستحيل تسلّقها أو رؤية ما يجرى وراءها، أو قصورًا داخل عمارات شاهقة تتمتع أيضًا بحراسة مشددة يقوم بها رجال ينتمون إلى شركات متخصصة في الأمن، طوال ساعات النهار والليل، ويرتدون زيًّا خاصًّا بهم يسهل به تمييزهم عن البوابين التقليديين.

ولكن إذا كانت هذه الصفوة من الأثرياء الجدد في مصر قادرة على أن تحقق لنفسها كل هذه المزايا، فما الذي يجبرها على أن تأتي إلى المعادي التي أصابت الشيخوخة شوارعها وناديها الرياضي، والتي أصبحت مكتظة بالسكان، والتي لم يعد بها، على أي حال، مكان لقدم جديدة؟ لماذا لا تبحث هذه الصفوة عن أراضٍ جديدة شاسعة في أحياء جديدة مثل٦ أكتوبر، أو في مدينة الشروق، أو فيما سمي بالقاهرة الجديدة... إلخ؟ أحياء لا حدود فيها للمساحة التي يمكن أن تستخدم كحديقة، أو كنادٍ رياضي جديد يحتوي على أقصى ما يمكن أن يحتوي عليه أروع نادٍ رياضي في الغرب، ولا تهدد سكانها شبهة أي اعتداء من أناس حاقدين أو غير حاقدين بسبب حرمانهم من مثل هذه المتع؟ ذلك أن هذه الأحياء (أو ما يسمى بالمدن الجديدة)، ليس فيها سكان أصلًا، حاقدون أو غير حاقدين، باستثناء هذه الصفوة الممتازة من الناس. بل إن أجزاء كبيرة منها خالية من أي نوع من الناس، من الصفوة أو غير الصفوة؛ بنيت فقط انتظارًا لبلوغ أطفال الصفوة سنًّا يستطيعون فيه الانتقال إلى مساكنهم الجديدة.

(١٧)

الأولاد

ـ ١ ـ

من بيننا نحن الإخوة الثمانية، رزق ثلاثة فقط (أنا وأخي حافظ وأختي نعيمة) بخليط من الأولاد والبنات، بينما رزق أخي محمد بأربع بنات ولم يرزق بصبي، وأخي عبد الحميد بولديْن ولم يرزق ببنت، وأحمد ببنت واحدة، وحسين بثلاث بنات وأختي فاطمة ببنتيْن. لم أشعر بأن هذا الأمر كان يشكل أي مشكلة على أي نحو إلّا في حالة أخي محمد، الذي كان من الواضح أنه كثيرًا ما يتمنى لو رزق بولد، وأن زوجته الثانية كانت دائمًا تحاول حمايته من ثقل هذا الشعور، فضلاً بالطبع عن حماية نفسها مما يمكن أن يترتب على هذا الشعور من آثار على مركزها في نظره. ولا أظن أنها غفرت لي قط عملًا أحمق ارتكبته دون وعي أثناء إقامتي في لندن، عندما سمعت أن أخي محمد قد أنجب البنت الرابعة. كنت أعرف ما لا بد أن يجلبه له هذا من خيبة أمل، وذكرت هذا لصديقتي الإنجليزية فإذا بها بعد أيام تعطيني مقالًا منشورًا في مجلة إنجليزية عن طريقة، وصفتها المجلة بأنها طريقة فعّالة للغاية، للتحكم في جنس المولود، فقصصت المقال وأرسلته إلى أخي محمد من باب المساعدة. لم أتلق منه ردًّا ولكن لا بد أن خطابي أحدث استياء شديدًا؛ إذ إن آثاره كانت لا تزال باقية عندما ذهبت إلى مصر في إجازة بعد إرسالي الخطاب بعدة سنوات.

كنا جميعًا، أنا وكل إخوتي في مطلع شبابنا، مثلما كان أبي في مطلع شبابه، نبالغ جدًّا

في أهمية نوع التربية التي يتلقاها الطفل ونوع المدرسة التي يمكن أن نرسله إليها في تشكيل شخصيته وسلوكه، وفى أهمية أي عبارة قاسية يمكن أن تصدر منا في لحظة انفعال طارئة... إلخ. ثم تبين لي مع مرور الزمن ضعف الأثر الذي يمكن أن يترتب على هذا كله، بالمقارنة بالاستعداد الطبيعي للطفل، ونوع مزاجه وميوله التي ولد بها. تبين لي أيضًا كم كنا نقسو على أنفسنا من دون داعٍ، إذ نشعر بالذنب إزاء أولادنا إذا قصرنا أدنى تقصير فيما كنا نعتبره من واجباتنا، وإذ نظن أننا مسئولون عن هذا العيب أو ذاك في بعض أولادنا، وكأننا نحن الذين نشكّل شخصياتهم بتصرفاتنا، أو كأنه كان من الممكن أن تكون النتيجة مختلفة لو تصرفنا إزاءهم تصرفات مختلفة.

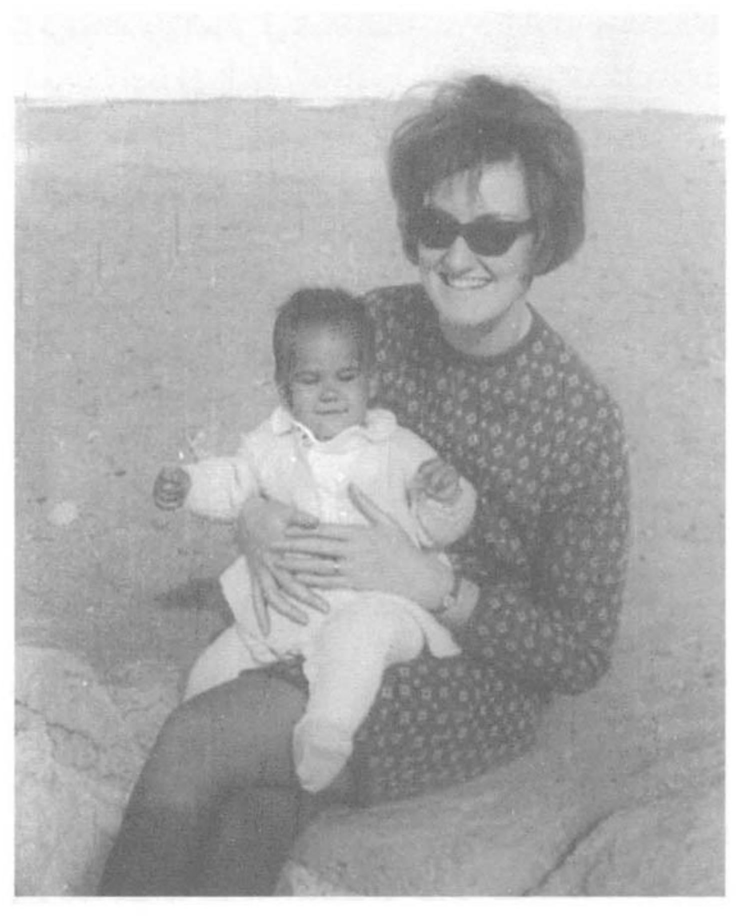


جان وابنتها دانية، وفيفى (زوجة أخي حسين) وابنتها نسرين (١٩٦٩)

ها أنذا أنظر إلى النتيجة بعد أربعين عامًا من تلك الأيام التي كنا نراقبهم فيها وهم يلعبون في حديقة الأطفال بنادي الصيد، وقد تزوج معظمهم، وأصبحوا رجالًا ونساء يكسبون قوتهم بأنفسهم، ويتخذون قراراتهم بأنفسهم، فإذا بالنتيجة مختلفة جدًّا عما كنا نتوقعه أو نتصوره، بل ليست، في الغالبية العظمى من الحالات، بالنتيجة السارة التي كنا نطمح إليها. عندما أتأمل حالات النجاح والفشل، سواء كان نجاحًا أو فشلًا في العلاقة الزوجية، أو في العلاقات الاجتماعية بوجه عام، أو في التقدم المادي أو الوظيفي، أجد أدلة كثيرة جديدة على أن الأمر أبعد ما يكون عن ظروف التربية أو البيئة التي وجد فيها الولد أو البنت، سواء في البيت أو المدرسة، وأبعد ما يكون عن خطأ يكون قد ارتكبه الأب أو الأم، كالخطأ في اختيار المدرسة مثلًا، أو ككثرة الترحال والتنقل من مكان إلى آخر، أو التقتير في الإنفاق، أو المبالغة في التدليل وفى الاستجابة لرغبات الولد أو البنت... إلخ. بل أجد أن النتيجة تكاد أن تكون مقررة سلفًا، حددتها أمور تكاد أن تكون منبتة الصلة بأي شيء كان يمكن أن يفعله الأب أو الأم. إن شخصية كل من إخوتي السبعة وميولهم ومزاجهم، وكل ولد أو بنت من أولادهم وبناتهم، تختلف عن شخصية الآخرين وميولهم ومزاجهم بقدر الاختلاف في شكل الأنف والفم. بل يشمل هذا الاختلاف الكبير تلك الشمائل والميول التي كثيرًا ما نظن أن التربية تلعب دورًا حاسمًا فيها، كقوة الحس الأخلاقي أو الجمالي أو ضعفه، أو حب المال والحرص على جمعه أو الزهد فيه، ناهيك بالطبع عن درجة الذكاء والغباء.

إن تصوير الأمر على هذا النحو لا بد أن يبدو مفرطًا في القدرية، برد الأمور إلى عوامل لا سلطان لنا عليها. ولكنني لا أشعر بالحرج من التعبير عن هذا الرأي من جانبي لاعتقادي بأن معظمنا يطوى قلبه على رأي متطرف في هذه المسألة، إن لم يكن في الاتجاه الذي عبرت عنه حالًا، أي في الاتجاه المضاد. فاختلافنا في هذه المسألة ليس اختلافًا في درجة التطرف بل في الاتجاه الذي استقر رأينا على التطرف فيه. كما أني أعتقد أن التطرف في رد الأمور إلى عوامل خارجة عن إرادتنا وسيطرتنا، كعوامل الچينات والوراثة، ليس بالضرورة أقل حظًّا من العلم والعقلانية من التطرف في رد الأمور إلى عوامل البيئة والتربية. إن التطرف في أي من الاتجاهيْن إنما يعود إلى قبولنا لبعض

المسلمات التي لم ينهض أي دليل قاطع على صحتها. فالميل إلى التركيز على عوامل البيئة والتربية في تفسير تصرفات الناس وميولهم، يعود، على الأرجح، إلى اتجاه بدأ منذ أقل من ثلاثمائة عام، تحت تأثير التقدم التكنولوجي والصناعي السريع الذي شجع على الاعتقاد بأن ميول الإنسان وأفعاله وأنماط سلوكه، يمكن التحكم فيها بسهولة تماثل السهولة التي يمكن بها التحكم في الظواهر المادية وإنتاج السلع. وقد لا يمر وقت طويل قبل أن يبدأ الإنسان في الشك بشدة، إن لم يكن قد بدأ بالفعل في الشك، في أن قدرته على التحكم في تلك الأمور غير المادية أقل بكثير مما يتصور.



جان ودانية (١٩٦٩)

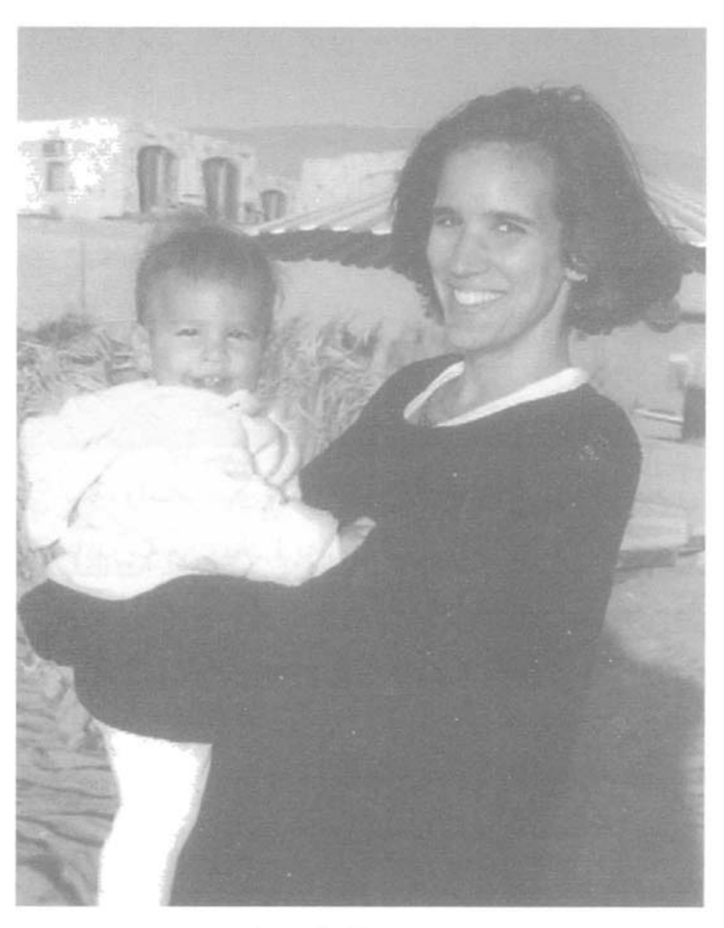
ها قد شب أولادي الثلاثة عن الطوق، وحققوا جميعًا استقلالهم المادي والعاطفي، وجاوز أصغرهم الخامسة والثلاثين، وتزوجت كبراهم وأنجبت طفليْن، فإذا بالاختلاف الشاسع بين ميولهم وشخصياتهم يؤكد ما سبق أن لاحظته في إخوتي وأولادهم، وإذا بما أراه من سلوك كل منهم ومشاعره يؤكد اعتقادي بأن كلًّا منهم قد ولد وهو تقريبًا كامل التكوين، وإنما تنكشف هذه الميول والقدرات يومًا بعد يوم، وتفصح عن نفسها مع تقدم الطفل في السن، وزيادة قدرته على التعبير عن نفسه.

شيء واحد آخر غير الوراثة واختلاف الچينات لاحظت أهميته مما لا علاقة له ألبتة لا بالوراثة ولا بالبيئة، وهو ترتيب الابن أو البنت بين أطفال العائلة. وقد سمعت طبيبًا نفسيًّا مرة يشبّه هذا العامل في نفسية الطفل بمركز أطفال العائلة المالكة من حيث قربهم من العرش. فهذا وليّ العهد، يعامل منذ مولده كخليفة للملك، وهذا لا يمكن أن يعتلي العرش طالما كان وليّ العهد حيًّا، وذلك لا أمل لديه ألبتة في اعتلاء العرش... إلخ. لقد رأيت أثر هذا الترتيب في كثير من الأسر، بل فيَّ أنا شخصيًّا؛ إذ قد يكون ميلي الدائم إلى المعارضة له علاقة بأني أصغر إخوتي طرًّا، وقد يكون الابن الأول دائمًا، كما كان الحال مع أخي الأكبر محمد، محافظًا ويمينيًّا أكثر من بقية إخوته، إذ لديه قطعًا ما يخسره إذا حدث أي تغيير في النظام القائم، وله مصلحة في استقرار الأوضاع على ما هي عليه. وقد يولّد المركز المتوسط ميولًا لا يشجع على وجودها أن يكون الطفل في أول الصف أو آخره.

-٢-

نشب بسبب هذا الاعتقاد من جانبي، الذي كان يزداد قوة مع مرور الزمن، خلاف شديد بيني وبين زوجتي في أمر يتعلق بابني الأصغر، عندما كان في العاشرة من عمره. كنا في سنة ١٩٨٤ وكانت بنتي قد أتمت دراستها الثانوية في مدرسة النصر بالمعادي، وابناي تامر وأحمد يدرسان في نفس المدرسة وتفصل بينهما سنتان دراسيتان. لم يكن في المدرسة الكثير مما يمكن أن يسرّ القلب، لا قلوب التلاميذ ولا قلوب الآباء والأمهات. المدرسون الأكفاء فيها قلة نادرة، والنشاط الاجتماعي شبه منعدم، والملاعب الرياضية الواسعة، التي ورثتها المدرسة من أيام الإدارة الإنجليزية السابقة، مؤجرة للمدرسة

الأمريكية المجاورة لضيق ذات اليد، والمكتبة لا تكاد تفتح أبوابها خوفًا مما قد يسفر عنه الجرد السنوي من ضياع بعض الكتب... إلخ. ومع كل هذا فقد كانت من أفضل المدارس المتاحة في ذلك الوقت. من حين لآخر يأتي للتلاميذ مدرس عبقري في الطبيعة أو الرياضيات، أو مدرسة للغة العربية تعشق هذه اللغة عشقًا، وللمدرسة سيارة تجلب التلاميذ إليها وتعيدهم إلى منازلهم في مواعيد منتظمة، والناظرة، على الرغم من ديكتاتوريتها، لا تقبل لا من التلاميذ ولا من المدرسين أي خروج عن النظام، وهى وإن كانت تخضع «مجلة الحائط» للرقابة الصارمة حتى لا ينشر فيها أي شيء يمكن أن يغضب الوزارة، كانت على الأقل تسمح للتلاميذ بأن يصدروا هذه المجلة.



دانية وابنتها لارا (١٩٩٨)

كانت مصاريف المدرسة معقولة ولا تسبب أي إرهاق لي، مثل بقية المدارس التي كانت تسمى في تلك الأيام بمدارس اللغات، وهى المدارس التي كانت من قبل تخضع لإدارة أجنبية ثم جرى تمصيرها في أواخر الخمسينات وأخضعت لإشراف الحكومة إخضاعًا تامًّا، ولكن استمرت تدرس العلوم الطبيعية والرياضيات بالإنجليزية، وتدرس اللغة الإنجليزية بمستوى أعلى من المستوى المألوف في المدارس الحكومية. لم تكن المدارس الأجنبية قد شاعت في مصر بعد، بل كنا قد بدأنا نسمع عن البدايات الأولى لهذه الظاهرة التي سرعان ما انتشرت كالنار في الهشيم. كانت هذه بالضبط هي المشكلة. فقد سمعنا عن مدرسة جديدة سوف تفتح في بداية العام الدراسي التالي، تملكها سيدة مصرية وزوجها الإنجليزي، وتديرها ناظرة إنجليزية لها تاريخ طويل ومحترم في التعليم الأجنبي في مصر.

اهتمت زوجتي بالخبر اهتمامًا كبيرًا واعتقدت أن من الضروري، لمصلحة ابننا الأصغر، أن نخرجه من مدرسة النصر بالمعادى ونلحقه بهذه المدرسة الجديدة التي بدأ يتردد الكثير من الكلام عن الأفكار التعليمية العظيمة التي سيجرى تطبيقها فيها ولأول مرة في مصر. كانت المصاريف المدرسية المطلوبة باهظة. لم تكن تفوق قدرتي المالية ولكنها لم تكن مما يُضرب الصفح عنه بسهولة. على أن هذا الاعتبار لم يكن هو مصدر قلقي ولا اعتراضي. لقد ذهبت لرؤية المدرسة ومقابلة صاحبها وزوجته، فلم يبعثا في نفسي الثقة، واستقر لديَّ شعور يقيني بأن الشاغل المهم الوحيد في نظرهما هو ما سوف تحققه المدرسة من ربح. لم يؤثر في نفسي كثيرًا كل ما سمعته منهما عما تنوي المدرسة فعله في هذا الأمر أو ذاك، بسبب تلك العقيدة المستقرة لديَّ، والتي أفضت في شرحها، بأن كل هذه الأمور ليست في نهاية الأمر ذات الأثر الحاسم فيما سيخرج به التلميذ من المدرسة، فضلاً عن شكي في أن المقصود بهذا كله هو فقط إغراء الآباء والأمهات بقبول دفع هذه المصاريف الباهظة، التي لا بد أن تزيد عامًا بعد عام، مع التهاون من جانب المدرسة عامًا بعد عام، في المحافظة على مستوى ما تقدم من خدمات للتلاميذ، ما دام الهدف الأساسي أو الوحيد هو تحقيق أقصى ربح. عندما قارنت ما تعد المدرسة بعمله، بما لا بد أن تؤدي إليه من تفريق الولديْن، تامر وأحمد، ومن ثَمَّ حرمانهما

من أن تكون لديهما ذكريات مشتركة عن نفس المدرسة ونفس المدرسين، وهي نفس ذكريات أختهما الكبرى، لم يثر لديَّ أي شك في أن القرار السليم هو أن تبقى الأمور على ما هي عليه، ويبقى الولد الأصغر في نفس المدرسة التي يذهب إليها أخوه وتخرجت منها أخته.



چان وتامر (١٩٧١)

صدمت زوجتي صدمة شديدة، وكانت هذه هي إحدى المرات القليلة التي رفضت لها طلبًا مهمًّا، وشعرتُ بخيبة أمل كبيرة بسبب هذا الرفض. كانت النتيجة أن تخرّج الولد الأصغر مثلما تخرج أخوه وأخته من مدرسة النصر بالمعادي. كانت هذه المدرسة أفضل بكثير قبل أن يدخلها أولادي بعشرين أو ثلاثين سنة، ولكنها كانت أيضًا أفضل بكثير عندما كان يدرس فيها أولادي، مما أصبحت عليه بعد عشرين سنة. وعندما أنظر الآن إلى المحصلة النهائية، أميل إلى الاعتقاد بأني كنت على صواب في استبقاء ابني فيها، وعلى الأخص عندما أرى ما أحرزه من تفوق في السنوات التالية على الرغم من كل شيء. عندما يثير أحدنا ذكرى هذه الأيام، ونعيد التساؤل عما إذا كان ابني قد خسر شيئًا

مهمًّا بعدم ذهابه إلى تلك المدرسة الحديثة، تصرّ زوجتي على أنه كان من الأفضل الأخذ برأيها، ويعبر ابني عن نفس الرأي ولكن بقوة أقل، ويذكر من بين حججه لتأييد هذا أنه يعرف الآن، من أصدقائه وزملائه في العمل، مَنْ هم أوسع منه إدراكًا بكثير، وأعمق ثقافة، وأكبر دراية منه بالأعمال الأدبية الكبيرة وبالتاريخ، ويفسر هذا بأنهم ذهبوا إلى مدارس أفضل من المدرسة التي ذهب إليها. وأنا أقول لنفسي ردًّا على ذلك، دون أن أجد دافعًا قويًّا للاسترسال في الجدل: «وهل كان يتعذر عليه حقًّا قراءة هذه الأعمال الأدبية الكبيرة، وكتب التاريخ العظيمة، في أي وقت خلال السنوات الكثيرة الماضية، لو كان لديه حقًّا ميل قوى إلى ذلك؟».

لم يكن هذا الخلاف بيني وبين زوجتي حول المدارس هو أهم خلاف نشأ بيني وبينها فيما يتعلق بأولادي. كان الأهم من هذا بكثير الخلاف حول اكتسابهم الجنسية البريطانية مع الاحتفاظ بالجنسية المصرية في نفس الوقت. ففي أوائل الثمانينات، وكانت بنتي الكبرى في نحو الرابعة عشرة من عمرها وابني الأصغر لم يتم العاشرة بعد، ظهر قانون في إنجلترا، تحت تأثير الحركات النسوية وزيادة نفوذها، يعطى الأم الإنجليزية الحق في أن تطلب الجنسية البريطانية لأولادها من أب غير بريطاني، أسوة بالرجل الإنجليزي الذي كان له دائمًا هذا الحق فيما يتعلق بأولاده من أم غير بريطانية. إذ مادام هذا هو حق الرجل فيما يتعلق بأولاده، فلماذا لا يكون أيضًا حقًّا للمرأة وأولادها؟ كان لهذا شروط، فهو لا يتحقق تلقائيًّا بل لا بد أن تطلبه الأم البريطانية رسميًّا، وكان هذا سهلًا بالطبع، ولكن كان لا بد أيضًا من موافقة الأب غير البريطاني، وكنت أنا غير مقتنع به. وقد حدد القانون مدة معينة لتقديم الطلب، تنتهي ببلوغ الأولاد سنًّا معينة، يسقط بعدها إلى الأبد حقهم في طلب الجنسية. لم تتصور زوجتي أن نمتنع عن اقتناص هذه الفرصة. كان للأمر في نظرها أهمية كبرى من أكثر من ناحية. فهو أولاً يعطي للأولاد حقوقًا في إنجلترا تتعلق بالدخول والخروج، والتعليم والتأمينات الاجتماعية والخدمة الطبية المجانية... إلخ، مما لا يتمتع به الأجنبي. وجواز السفر البريطاني له مزاياه واحترامه في معظم بلاد العالم ولا يتمتع بمثلها الجواز المصري. وهناك أيضًا الاعتبار النفسي البحت الذي يتعلق بشعورها أن حقها على أبنائها لا يمكن أن يقل عن حق زوجها عليهم، وأن

چان ووالدها وابننا تامر (١٩٨٤)

ابني تامر مع جده (١٩٨٤)

عدم تطبيق مثل هذا القانون معناه تمييز غير مبرر بالمرة بين الرجل والمرأة، ناهيك عن أن حصول أولادها على هذا الحق لم يكن من شأنه أن يحرمهم من أي حق يتمتعون به بالفعل في مصر؛ إذ كان كل من القانونيْن المصري والإنجليزي يبيح ازدواج الجنسية؛ فمن حق الأولاد أن يحصلوا على الجنسية البريطانية ويحتفظوا في نفس الوقت بجنسيتهم المصرية الأصلية، فما المشكلة بالضبط؟ وأي ضرر يمكن أن يترتب على وجود جوازيْن في يد كل منهم فيتمتعوا بمزايا هذا أو ذاك وفقًا للظروف؟

ومع كل هذا فقد رفضت رفضًا جازمًا، بل بدا الأمر لي وقتها غير قابل للتفكير أو المناقشة. كان عمري وقتها أقل من الخمسين، وكنت لازلت في عنفوان صحتي، ولازال المستقبل أمامي يبدو ممتدًا لا أرى له أفقًا قريبًا. كنت أيضًا قد عدت لتوي من إقامة طويلة في خارج مصر، أربع سنوات في الكويت تلتها مباشرة سنة في لوس أنجلوس، وكانت فرحتي شديدة بالوجود من جديد في مصر. أظن أن مما أثر فيَّ أيضًا عند اتخاذ هذا الموقف، انتهاء عصر السادات فجأة في أواخر ١٩٨١، وقد بعث هذا الحادث في نفسي درجة من التفاؤل بمستقبل مصر كانت غائبة عني تمامًا منذ هزيمة ١٩٦٧. تصوّرت الموقف التالي ولم يعجبني بالمرة: بنتي أو ابني يتشاجر أحدهما مع صبي أجنبي، فيقول هذا الصبي الأجنبي شيئًا ضد مصر والمصريين، فينفي ابني أو بنتي التهمة عن نفسه بإعلان أن لديه جواز سفر بريطانيًّا، أو أن يقول حتى إنه ليس مصريًّا بل بريطاني! قلت لنفسي: إن مجرد وجود إمكانية للتخلص أو التبرؤ من الجنسية المصرية قد يدفع المرء إلى مواقف لم يكن من الممكن تصورها طالما ظل هذا هو الواقع الوحيد الممكن. إني مصري وليس أمامي إلّا أن أكون مصريًّا، فهكذا أظل ولا بد أن أقبله وأعتز به. أما حرية الاختيار في أن أكون مصريًّا اليوم وشيئًا آخر غدًا، فلا يمكن أن تنتج عنه آثار طيبة. هكذا كان مسار تفكيري فقررت الرفض وأصررت عليه. لم تهدأ زوجتي وبكت وصاحت فلم أغيّر موقفي. وقد علمت منها بعد ذلك بسنوات أن غضبها وضيقها بلغا بها حدًّا دفعها إلى الذهاب لمقابلة القنصل الإنجليزي لسؤاله عن مدى ضرورة موافقتي والحصول على توقيعي، فأكد لها ضرورة ذلك، مع إبدائه استغرابه الشديد من أن يرفض أي رجل هذه «الفرصة العظيمة» التي لم يسمع أن أحدًا

رفضها من قبل، والناس في كل مكان يتمنّونها. وكان مما زاد من ضِيق زوجتي وغيظها أن صديقاتها الإنجليزيات المتزوجات من مصريين أبدوا جميعًا دهشتهن من موقفي، بالمقارنة بسعادة أزواجهن باقتناص هذه الفرصة لأولادهم.



ابني أحمد مع جده (١٩٨٤)

ثم حدث بعد ثلاث أو أربع سنوات ما جعلني أستيقظ في أحد الأيام وقد استقر عزمي على الموافقة على تقديم الطلب لحصول أولادي على الجواز البريطاني مع الاحتفاظ بجوازهما المصري. كنت واثقًا هذه المرة أيضًا من أن هذا القرار هو القرار السليم، تمامًا كما كنت واثقًا من قبل من صحة القرار العكسي بالضبط. ليس من السهل عليَّ أن أعرف بالضبط ما سبّب هذا التغير. إني أذكر دهشة زوجتي وفرحتها، مع أنها

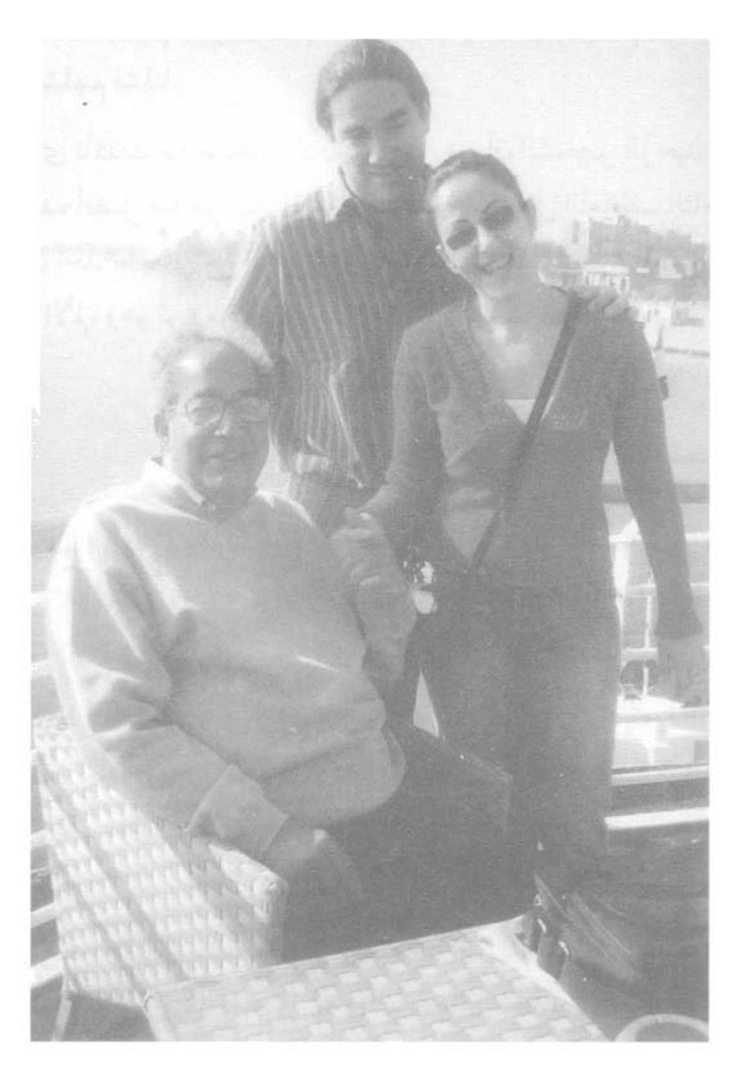
كانت قد نسيت الأمر كله، أو هكذا كان قد بدا لي، ولم يكن الموضوع مثار نقاش بيننا طوال السنوات الثلاث أو الأربع السابقة. ولكن من المؤكد أنه خلال هذه الفترة طرأت تغيرات كبيرة على نظرتي إلى بضعة أمور مهمة.

حدث أولًا أن بدأت أرى مستقبل مصر على نحو مختلف؛ بسبب ما حدث من تغيرات في السياسة، أو بالأحرى ما اتضح من أنه لن تحدث تغيرات ذات بال لا في السياسة ولا في غيرها، وأن الطريق الذي شقه السادات هو الطريق الذي سوف تستمر مصر في السير فيه في المدى المنظور على الأقل. ولكنني أظن أن سببًا أهم من هذا كان ازدياد شعوري قوة، مع تقدم أولادنا في السن، بأنه من الخطأ الشديد النظر إلى الأولاد وكأنهم مجرد امتداد للأب والأم. ازداد شعوري، أكثر فأكثر، كلما رأيت أولادي يكبرون، بأنه ليس من حقي أن أتخذ قرارًا قد يضيِّق بشدة من دائرة الحرية المتاحة لهم في المستقبل؛ وذلك بناء على مشاعر وآراء خاصة بي أنا وقد لا يشاركونني فيها في المستقبل.

كانت نتيجة هذا التفكير أن وافقت على تقديم طلب بحصول أولادي على جواز سفر بريطاني بالإضافة إلى جواز سفرهم المصري، وأصبحوا بهذا يتمتعون بمزايا جديدة ليس فقط في بريطانيا بل أيضًا في أي دولة أوربية، بعد أن توحّد جواز السفر الأوربي بعد ذلك ببضع سنوات. ولم يحدث منذ ذلك الحين ما جعلني أندم على قراري هذا، أو ينغص عليَّ أو يذكرني بأن أولادي يحملون ولاءات تختلف عما أحمله من ولاء. فالمسألة لا تثور حتى الآن إلّا في مسائل مادية بحتة، تتعلق بالانتقال من مكان إلى آخر، أو في توفير بعض وسائل الراحة بدرجة أكبر مما كان متاحًا لهم من قبل. ولا يبدو لي أولادي، على أي حال، بحيازتهم لجواز سفر بريطاني إلى جانب جواز السفر المصري، أقل شعورًا بالولاء أو الانتماء لمصر من كثيرين جدًّا من الأولاد والبنات، بما في ذلك معظم أولاد إخوتي وبناتهم، ممن لا يحوزون غير جواز السفر المصري.

* * *

هذا الإدراك الذي جاءني متأخرًا نسبيًّا، وهو أن أولادي ليسوا مجرد امتداد لي ولا



جلال وتامر وزوجته لينا (٢٠٠٧)

لأمهم، وإنما هم شخصيات مستقلة ويجب أن يعاملوا على هذا الأساس، وإن كان في رأيي يصيب كبد الحقيقة، ظل إدراكًا عقليًا بحتًا ولم يمس شعوري الدفين بأن أولادي هم في الحقيقة امتداد لي. إن حبنا لهم وخوفنا عليهم، وقلقنا إذا مرضوا أو غابوا عن أعيننا، وتعاطفنا الشديد معهم إذا شعرنا بأنهم يتألمون لأي سبب، كل هذا أساسه شعور لا يمكن التخلص منه بأنهم في الحقيقة ليسوا أشخاصًا مختلفين عنا، بل جزء لا

يتجزأ منا. ما يجلب لهم السرور يجلب لنا السرور أيضًا، وما يؤلمهم يؤلمنا، ونجاحهم نجاح لنا وفشلهم فشلنا.

مرة أخرى تأكدت من صحة ما كان يقوله أبي من أن الشخص الوحيد الذي يفرح المرء إذا وجده أفضل منه هو ابنه. لقد خبرت قدرة المرء على التعاطف التام مع ابنه أو بِنته، إذا كان أحدهما يعاني من ألم من أي نوع، ومدى استعداد المرء للتضحية في سبيل تجنيبهما هذا الألم، وهو نوع من الشعور لا أذكر أني شعرت بمثله تجاه أبي أو أمي.

(١٨)

الاكتئـاب

-١-

لا يمكن أن أضرب الصفح، وأنا أروى قصة حياتي، عن تلك السنتيْن اللعينتيْن (١٩٨٧- ١٩٨٩) اللتيْن عانيت خلالهما من اكتئاب فظيع، وكانتا بلا شـك أيأس سنوات حياتي.

لست واثقًا حتى الآن من سبب وقوعي في هذه الهاوية السحيقة من الاكتئاب، وهو بالفعل كالهاوية السحيقة، إذ مهما حاولت التسلق للصعود إلى سطح الأرض كانت محاولاتي تبوء دائمًا بالفشل، إذ سرعان ما تنزلق أصابعي وتنفك قبضتي عما كنت أمسك به، فأعود إلى السقوط إلى القاع.

لديَّ الآن، بعد مرور سنوات كثيرة على انقضاء تلك المحنة، بعض التفسيرات المحتملة مما لم أكن أدركه وقتها، ولم يحاول أي من الأطباء الذين لجأت إليهم أن يخمنوا السبب، ولا مجرد محاولة، إذ اكتفوا، طبقًا للنظرية الحديثة في العلاج النفسي، بإعطائي الأدوية والحبوب. وأعتقد الآن أنه حتى لو كانت لهذه الأدوية والحبوب فائدة في بعض الحالات، فإنها لم تكن ذات فائدة على الإطلاق في حالتي، ولا حتى في بث بعض الأمل في نفسي؛ إذ إني لم أثق فيها قط.

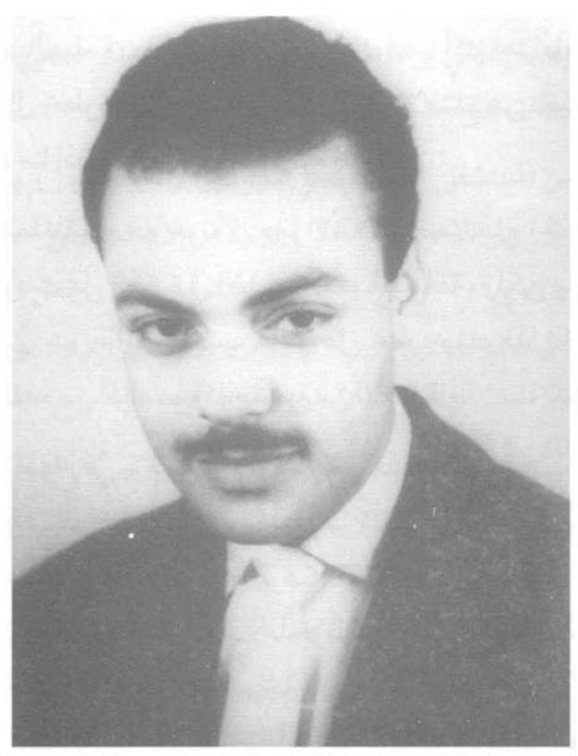
سأبدأ من البداية، أو ربما حتى من قبل البداية. ففي يناير ١٩٨٧ اشتركت في ندوة عقدت في مدينة أكسفورد، ضمت عددًا من المثقفين العرب، كان المفروض أن تثير في مجرد دعوتي للاشتراك معهم في ندوة سرورًا وثقة بالنفس، ولكنها لم تفعل. كان

صاحب الدعوة أستاذًا بريطانيًا مهتمًا بشئون العرب (إذ إنه ولد في الإسكندرية وتعلم في مدارسها وظل يعشق مصر ويحن إليها) هو «روبرت مابرو» (Robert Mabro)، وكانت فكرته أن يدعو نحو عشرين من المثقفين العرب لقضاء ثلاثة أو أربعة أيام في بيت في ضواحي أكسفورد، لا مثيل له في جماله وجمال حديقته؛ لتبادل الرأي حول السؤال التالي: «ما الذي أدى بالعرب إلى هذه الحالة المتردية، وكيف الخروج منها؟». كان هذا البيت، واسمه «Ditchley Park»، مملوكًا في يوم ما لإقطاعي بريطاني كبير ثم آل، مثل معظم هذه الممتلكات، إلى الحكومة البريطانية، وقيل إن ونستون تشرشل كان يلجأ إليه في بعض الفترات الصعبة أثناء الحرب العالمية الثانية؛ ليعتزل العالم ويفكر. هكذا ظن روبرت مابرو أن أحوال العرب تحتاج إلى مثل هذا الاعتزال والتفكير؛ فنظم هذه الندوة، ودعا بعض من اعتقد أن من الممكن أن تخرج منهم بعض الأفكار النيّرة.

كان من هؤلاء بلا شك من يستحقون بجدارة مثل هذه الدعوة الجميلة. كان منهم أحمد بهاء الدين (الذي أعتبره بحق من صفوة المفكرين العرب، على الرغم من أنه قد يشار إليه بأنه فقط «كاتب صحفي») والاقتصادي الفلسطيني يوسف صايغ، والكاتب والناشط السياسي الفلسطيني إبراهيم أبو اللغد، والمثقف المصري الكبير مجدي وهبة، ورئيس وزراء اليمن الأسبق، محسن العيني، والناشط السياسي اليساري الكويتي عبد الله النيباري، وستة أو سبعة آخرون لا أذكر الآن أسماءهم، ولكني أذكر جيدًا أن مناقشاتنا التي استمرت ثلاثة أيام لم تسفر عن أي نتيجة تستحق الذكر.

تلقيت أثناء هذه الندوة خبرًا سيئًا عن مرض صديق قديم وعزيز لديَّ هو الدكتور علي مختار، بمرض خطير، ومحاولات يائسة لعلاجه في لندن. ولكني أذكر أيضًا أنني كنت طوال الندوة سيئ المزاج حتى من قبل أن يأتيني هذا الخبر. كنت على الرغم من قبولي الاشتراك في الندوة، وعلى الرغم من الصحبة الرائعة، والراحة الفائقة، والموقع بالغ الجمال، لا أجد أي دافع لشحذ الفكر في البحث عن الإجابة عن السؤال المطروح علينا.

عندما أعصر ذهني لأحاول أن أتذكر ما الذي كان يمكن أن يكون قد أدى إلى تعكير مزاجي إلى هذا الحد، لا أستطيع أن أتذكر إلّا أنني في الشهور السابقة مباشرة على



علي مختار صديقي طوال ٤٠ عامًا (١٩٤٧ ـ ١٩٨٧)

تلك الندوة، كنت قد فقدت حماسي للكتابة في الصحف بعد تغير سياسة مجلة الأهرام الاقتصادي، وتوقف نشر مقالاتي فيها، وشيوع نوع من اليأس في صحف المعارضة التي كنت أكتب فيها أحيانًا (كجريدة الأهالي مثلًا) بعد أن ضعفت بشدة الآمال في حدوث تغيير في اتجاهات الحكم بعد مرور خمس سنوات على مقتل الرئيس السادات دون أن تبدو أي بادرة لهذا التغيير. ولكن ربما كان من الأسباب أيضًا بعض التدهور في صحتي، بدأ في نهاية إقامتي في لوس أنجلوس في ١٩٨٦، واقترن بارتفاع غير معهود في ضغط الدم. استمر هذا المزاج السيئ، وازداد سوءًا حين سمعت بوفاة صديقي علي مختار.

كنت قد قابلت «مختار» (وهكذا كنا نسميه) لأول مرة وأنا وهو في الثانية عشرة من عمرنا، عندما التحقت بمدرسة الأورمان النموذجية وأصبحنا عضوين في شلة واحدة من الأصدقاء، ولكنه كان بالمقارنة ببقية أفراد الشلة، ينفرد بالجمع بين مجموعة

من الصفات الطيبة: درجة عالية من الحيوية والذكاء، وقوة الشخصية والجاذبية، وحب الثقافة والاهتمام بالسياسة، والبراعة في الرسم. كان أيضًا أكثر اهتمامًا بصحته منا جميعًا، وكثيرًا ما ينبهنا إلى خطورة الإسراف في عمل ما، أو الامتناع عن القيام بعمل ما، ومن ثَمَّ كان أبعد فرد منا إذن، في أذهاننا، عن فكرة الموت.

أذكر أني عندما تلقيت خبر موته في مايو ١٩٨٧، لم يصدمني الخبر بدرجة شديدة؛ فقد كنت قد تعودت على الفكرة في الأشهر الخمسة السابقة، ولكن يبدو أن الخوف من الموت ترسخ لديَّ بدرجة أكبر بسبب موت علي مختار، وزاد هذا الخوف قوة أن كان مختار أول فرد نفقده من أفراد هذه المجموعة من الأصدقاء.

ظهر الأثر بوضوح في يوم من أيام نوڤمبر من هذه السنة؛ إذ كنت جالسًا القرفصاء في سريري أقوم بتبييض مقال كنت قد كتبته بغير شغف، وأنا أدخن سيجارة في حجرة مغلقة النوافذ. عندما تركت السرير وشرعت في النزول إلى الدور الأرضي شعرت بأن إحدى ساقيَّ، قد أصابها ضعف ملحوظ، وأصابع يدي الممسكة بالسيجارة يصيبها ضعف مماثل حتى كادت السيجارة تسقط من يدي. إني لا أذهب عادة إلى الطبيب بمجرد شعوري بأي عارض من أعراض المرض، ولكني ذهبت إليه في هذه المرة، في مساء نفس اليوم، وذكرت له، من بين ما ذكرت له من أعراض، أني منذ فترة ليست بالقصيرة أعاني من تقرحات مستمرة في اللسان، وذكرت له زوجتي أنني أصبت بمثل هذه التقرحات مع نزيف مفاجئ منذ خمسة عشر عامًا في بيروت، وانتهى الأطباء وقتها، بعد الكثير من التحليلات، إلى أن السبب «فيروس غير معروف الهوية». نصحني الطبيب بدخول المستشفى لإجراء بعض الفحوصات، ولكنها لم تسفر بدورها عن أي شيء يساعد على تشخيص المرض. سألني الطبيب: «هل مات شخص عزيز عليك مؤخرًا؟»، ولعله رأى أن قلقي لا يبرره ما طرأ عليَّ من أعراض، ثم قال، استجابة لما قالته زوجتي عما حدث لي في بيروت: إن المرض قد يكون «Behcet» وهو مرض قد تتفق أعراضه مع بعض ما طرأ عليَّ: تقرحات شديدة في الفم، وربما اقترنت بتجلط في بعض الأوعية الدموية، ولكن المرض على أي حال ليس له علاج أكيد معروف.

إلى هذا الحد لا يبدو أن الأمر يمكن أن يفسر ما أصابني من قلق، ولكن حدث بعد ذلك ما ضاعف من قلقي يومًا بعد يوم إلى أن انتهى بانهيار عصبي شديد في فبراير ١٩٨٨ . فما الذي حدث بالضبط؟

بعد خروجي من المستشفى قضيت نحو أسبوعيْن لا أكاد أغادر فيهما السرير، دون أن يكون لهذا أي مبرر على الإطلاق (هكذا أرى الأمر الآن). لم أكن أعاني من أي شيء يمنعني من القيام أو المشي أو الخروج، ولكني اقتنعت تمامًا بأني مريض، وأن المرض على الأرجح خطير، ومن ثَمَّ يستوجب البقاء في السرير وقياس الحرارة كل ربع أو نصف ساعة، فإذا بها تزيد قليلًا أو تقل قليلًا عن الدرجة العادية. ومع ذلك كنت أتناول الطعام كالمعتاد، ولكن في السرير، وبعضه طعام عالي الدسم، فإذا بي بعد أسبوعيْن من هذا الروتين اللاعقلاني تمامًا، تصيبني أوجاع فظيعة في إحدى الساقيْن ثم في الساق الأخرى، ولم يكن لهذه الأوجاع من سبب بالطبع، إلّا هذا الامتناع الطويل عن الحركة، ولكني ظننت وقتها أنها نتيجة لنفس المرض «غير معروف الهوية».

زاد الأمر سوءًا أن زوجتي كتبت خطابًا إلى أختها المقيمة في كاليفورنيا، وكانت تعمل ممرضة، ومدربة تدريبًا عاليًا، فوصفت لها زوجتي حالتي فإذا بأختها ترسل إليها صفحتيْن مصورتيْن من كتاب طبي عن مرض «Behcet»، سببت لي قراءتهما أعراضًا أشد خطورة مما كان لديَّ قبلها. المرض سمي بهذا الاسم نسبة إلى طبيب تركي اسمه «بهجت» هو الذي اكتشفه، وهو أكثر انتشارًا في بعض مناطق من العالم، كالشرق الأوسط واليابان، منه في غيرها، وله عدة أعراض قد لا تظهر كلها مجتمعة، ولكن يكفي اثنتان منها للقول باحتمال أن يكون المرض هو هذا المرض المفزع. إنه قد يصيب العينيْن فيؤدي إلى العمى، وقد يصيب الأوعية الدموية فيؤدي إلى الموت. ولكن ليس له هناك علاج معروف ولا مؤكد النجاح. فما فائدة كل هذه المعلومات إذن؟

قضيت نحو ستة أشهر وأنا مهووس تمامًا بمرضي، وفى الجري من طبيب لآخر، ثم السفر إلى لندن للجري أيضًا من طبيب لآخر، وأضيف دواء نصح به طبيب إلى الأدوية التي نصح بها الآخرون. فإذا لاحظت بعض الاحمرار في إحدى عينيّ ظننت أن هذا من أعراض مرض «Behcet» وأني قد أكون في سبيلي لفقد بصري. أذكر أيضًا أني صمّمت

جدولًا معقدًا يتضمن التطور التفصيلي لأعراض مرضي وتواريخها، وكل ما أتناوله من أدوية وجرعاتها وأوقات تناولها، وكأني أقوم ببحث تاريخي موثّق توثيقًا كاملًا؛ ظنًّا مني بأني بمجرد أن أعرض هذا الجدول على طبيب حصيف في لندن، سوف يكتشف على الفور ما أنا مريض به وطريقة علاجه. لم يحدث هذا بالطبع، فقد ظهر أن أعظم أطباء لندن يحتارون مثل أطبائنا بالضبط إزاء حالة مرض «غير معروف الهوية». ذهبت إلى أكثر من طبيب كبير في الأوعية الدموية في شارع هارلي المشهور بالطب والأطباء في لندن، وإلى أكبر طبيب إنجليزي متخصص في مرض الـ«Behcet». ووضعت فيه أملي كله عندما عرفت أن له كتابًا مهمًّا مخصصًا كله لهذا المرض. وقال لي الدكتور مجدي وهبة، أستاذ الأدب الإنجليزي والذي يعرف لندن عن ظهر قلب، إنه يعرف طبيبًا مصريًّا هاجر منذ فترة طويلة إلى إنجلترا وله مكتب في نفس ذلك الشارع الشهير في لندن، وهو وإن لم يكن يمارس الطب فإنه تخصص في استقبال المرضى (خاصة من العرب) وإرشادهم إلى أفضل الأطباء الإنجليز المتخصصين فيما يعانون منه، أو فيما يشكون أنهم يعانون منهم، ثم يتصل هو بهؤلاء الأطباء ويحجز للمرضى مواعيد معهم قد يتعذر عليهم تمامًا الحصول عليها من دونه.

ذهبت إلى هذا الطبيب أيضًا فقال لي: «هل تريد أكبر طبيب؟ قلت: «نعم»، فحجز لي موعدًا مع طبيب إنجليزي شهير متخصص في الأوعية الدموية، قيل لي إنه كان عائدًا لتوه من الرياض حيث كان واحدًا من الأطباء الذين استدعوا على عجل من إنجلترا لعلاج الملك فهد. ذهبت إلى هذا الطبيب أيضًا، وكأني أريد أن أستمع أولاً إلى كل الآراء الممكنة لأصل بنفسي إلى العلاج الصحيح. كان هذا الرجل هو بالفعل أكثر من حاز تقديري ممن مررت بهم من الأطباء. كان أكبرهم سنًّا، لعله تجاوز السبعين، ووجدت من تصرفاته ما يوحي لي بأنه لازال يطبق بعض التقاليد العريقة في الطب والآخذة في الزوال. كان، فيما بدا لي، يثق فيما يحسّه بيديه ويراه بعينيْه ويسمعه من المريض، أكثر مما يثق في رسوم الأشعة، وأرقام التحليلات. وعندما مددت له يدي بالأوراق والصور العديدة التي جمعتها من الأطباء السابقين والمستشفيات، قال: «لا. لو نظرت إلى هذه الأوراق والصور الآن لكنتُ غشاشًا. دعني أفحصك أولاً». عندما أتم الفحص، قال مبتسمًا: «إن حالتي لا تستدعي منه التدخل بالجراحة الآن. وعلى الأرجح أني لن أحتاج

إلى هذا أبدًا». ونصحني بالتوقف عن كل ما كنت أتناوله من أدوية، وأن أعود إلى ممارسة حياتي الطبيعية، وإن كان لا يمانع من أن أرى أستاذ الـ «Behcet» الشهير. سألته: «إذا كانت لديه نصيحة واحدة يوجهها إليّ، فما هي؟» فقال: «Do not sit about»، أي (لا تتعود الجلوس الطويل بلا حركة).

في طريقي للخروج كان الرجل قد اكتسب ثقتي تمامًا، وشعرت باطمئنان أكبر بكثير مما كنت أشعر به عند دخولي، وعندما تلقيت فاتورة بأتعابه (حيث إن العادة في إنجلترا أن تتم مطالبة المريض بالبريد بعد الكشف بأيام وربما أسابيع)، كانت قيمتها أقل من نصف ما دفعته لأي طبيب آخر في إنجلترا. ولكن قلقي سرعان ما عاد إليّ بعد بضع ساعات، فعادت الوساوس التي لا أجد إجابة عنها.

قابلت الطبيب الكبير صاحب الكتاب الشهير في مرض (Behcet)، وهو إنجليزي من أصل تشيكي، فطلب مني بدوره مختلف التحليلات والأشعات، ولكن كل هذا لم يضف إلى علمي (ولا إلى علمه) شيئًا ذا شأن فيما يتعلق بحالتي. بل لم يستطع الجزم على الإطلاق بما إذا كان مرضي هو الـ«Behcet» أو شيئًا آخر. كان مما قاله إن هذا المرض أكثر انتشارًا في اليابان منه في معظم بلاد العالم، وإنه ربما كان أسهل عليَّ، إذا أردت استشارة طبيب في المستقبل في أمر الـ «Behcet»، أن أذهب إلى تركيا وهي الأقرب إلى مصر، فهناك يوجد أطباء متبحرون في هذا المرض بحكم اكتشاف الأتراك له.

لم تكن، إذن، حصيلتي من أطباء إنجلترا كبيرة، بل ربما لم تكن هناك حصيلة على الإطلاق. فلما عدت إلى مصر تذكرت ما قيل لي عن انتشار المرض في اليابان، وتذكرت أصدقائي اليابانيين الذين تعرفت إليهم بمناسبة رحلتي إلى طوكيو في العام السابق، فكتبت خطابًا إلى أحدهم أذكر فيه مرضي، ولا بد أن راعته دقته وما احتواه من تفاصيل. وردّ عليَّ الرجل بسرعة وبكفاءة منقطعتي النظير (مما رسّخ في نفسي مرة أخرى تقديري الشديد لكفاءة اليابانيين وقوة شعورهم بالواجب)، وأرسل إليّ بعض المعلومات، ووعدني أنه عند قدومه القريب إلى مصر سيحضر لي دواء معينًا يُعتقد في اليابان باحتمال جدواه في علاج المرض. وكان هذا هو ما حدث بالفعل، أحضر لي كمية كبيرة من هذا الدواء وشرح لي طريقة استخدامه. ولكني لا بد أن أعترف بأن قوله لي إن جدوى هذا

الدواء في علاج مرض «Behcet» هو مجرد احتمال وليس مؤكدًا؛ جعلني لا أستخدمه على الإطلاق، وكنت قد دخلت بلا شك في حالة الاكتئاب التي تختلف تمامًا عن مجرد الشعور بالحزن أو حتى البؤس، فقد كانت حالة جديدة عليَّ تمامًا.

* * *

ربما كانت أهم سمات هذه الحالة، كما شعرت أنا بها، فقدان الإرادة أو الضعف الشديد الذي يصيب القدرة على اتخاذ أي قرار، مهما كان بسيطًا، ومن ثَمَّ التردد الشديد حول أي عمل كان المرء يتخذه قبل ذلك بسرعة وبمنتهى السهولة ودون تفكير. هذا الضعف الشديد الذي يصيب الإرادة، ينطوي على فقد أي قوة تدفع المرء إلى الرغبة في الاستمرار في الحياة. ولهذا ما أكثر ما كنت أردد لنفسي، وأحيانًا لزوجتي: «إني لا أرغب في الاستمرار في الحياة»، مع ذرف الدموع أو الانخراط في نوبة بكاء.

يقترن هذا بالفزع الشديد من أي تطور طارئ يختلف عن المعتاد، مهما كان شيئًا تافهًا، كالوصول إلى محل تجاري بعد موعد إغلاقه، أو توقف جهاز التكييف عن العمل... إلخ، وكأن معنى هذا الحدث التافه أن الدنيا قد توقفت، ولم يعد هناك أي أمل! فضلاً عن التشاؤم الشديد والشعور بأن أسوأ الاحتمالات هو الذي سيتحقق، فتأخر ابن عن موعد مجيئه لا بد أن ينطوي على حادث خطير؛ وعدم لحاقه بالطائرة في طريق عودته إلى مصر، يعني تشرده إلى الأبد... إلخ.

كل هذا لا بد أن يتضمن فقدان الثقة بالنفس أو إصابتها بضعف شديد، ومن ثَمَّ الخوف من مواجهة الطلبة بإلقاء المحاضرة؛ إذ يخيل إليَّ أني سأعجز عن البدء في الكلام ولن أتم المحاضرة بكل تأكيد. والأفكار السيئة تتلاحق، كل منها يقوي الأفكار الأخرى، فيزداد التشاؤم وتعود من جديد الرغبة في البكاء. ويؤدي كل ذلك إلى أن يتطور شعور المحيطين بالمرء إلى شعور بالملل والضيق وقلة الصبر؛ إذ تصبح صحبته باعثة بدورها على الرغبة في البكاء، وتنفد كل وسائل التخفيف عنه وييأس الجميع من إصلاح أمره.

في غمار هذا كله تضعف بشدة أو تزول تمامًا أي شهية للطعام. فلا يأكل المرء إلّا مرغمًا ويصيب الجسم الهزال، كما يزول عهد النوم الطويل؛ إذ يقوم المكتئب من نومه

فزعًا كل ساعة أو أقل، وقد خطر بباله أثناء نومه خاطر مزعج فيأخذ في البكاء أو الصياح. أذكر أني كنت أقضي بضعة أيام في منزل والد زوجتي في إنجلترا في الفترة بين موعدي مع طبيب وموعد آخر، وكان والد زوجتي يحاول مثل غيره أن يسهم في التخفيف عني، ولكنه إنجليزي يصعب عليه بشدة التدخل في شئون الآخرين، ويخشى أن يكون في ذلك إقحام لنفسه عليَّ دون مبرر، فإذا به يأتيني مترددًا، وأنا جالس لا أفعل أي شيء إلّا مجرد التفكير في مرضي، ويضع إلى جانبي رواية بوليسية، على استحياء، قائلًا عبارة قصيرة أملًا في تشويقي لقراءتها، ثم ينصرف بسرعة. وإذا بي لا أستطيع إتمام فقرة واحدة قبل أن أعود إلى ما كنت فيه.

أذكر أيضًا أني خلال هذه الفترة، تلقيت دعوة من زميل لي بالجامعة الأمريكية يعرف الأستاذ إدوارد سعيد، الكاتب والمفكر الشهير، معرفة جيدة؛ لتناول العشاء معه ومع إدوارد سعيد الذي كان في زيارة قصيرة للقاهرة، في نادي الجزيرة بالزمالك. لم أستطع الرفض، على الرغم من حالتي التي وصفتها، وذهبت وليتني ما فعلت، إذ أتذكر أن الجلسة الطويلة كانت عبئًا ثقيلاً شديدًا على نفسي، على الرغم من حبي الشديد لإدوارد سعيد. ولا بد أني كنت أيضًا عبئًا ثقيلاً على الآخرين، لا أستجيب لشيء مضحك بالضحك، ولا أدلي برأي عندما يتطلب الحديث رأيًا، وأسكت حيث لا ينتظر أحد سكوتي. ولكن هذه المقابلة لم تكن لحسن الحظ، آخر مقابلة لي مع إدوارد سعيد، فقد أتيحت لي بعد شفائي من الاكتئاب عدة فرص لتحسين رأيه فيَّ.

كان لا بد بالطبع أن تؤثر هذه الحالة في علاقتي بزوجتي، ومع كل ما تتمتع به زوجتي من صبر، كان لا بد أن يصدر عنها (ولو بمجرد السكوت) ما يبين ضيقها؛ فيؤدي إدراكي لهذا الضيق إلى زيادة حالتي سوءًا. وإذا بها حلقة مفرغة جهنمية، أي تدهور يؤدى بالضرورة إلى مزيد من التدهور، وأي محاولة للخروج من هذه البئر التي سقطت فيها تبوء بالفشل.

كنت قد توقفت عن التدريس خلال النصف الثاني من العام الدراسي (١٩٨٧ - ١٩٨٨)؛ بناء على عرض كريم من رئيسة القسم (هبة حندوسة) قبل أن أطلب أنا ذلك. وإذ سافرت إلى إنجلترا، كما وصفت؛ لاستشارة الأطباء، نُصحت أيضًا بأن أذهب إلى

أشهر طبيب نفسي في لندن اسمه «Lipsedge»، وكان اسمه يرد بين الحين والآخر في الجرائد الإنجليزية إذا حدثت حادثة اختطاف طائرة وأصيب بعض ركابها بصدمة عصبية؛ فإذا بهذا الرجل يستدعى لمقابلتهم وتقديم العلاج.

وجدته رجلًا لطيفًا ولكنه كفء أكثر من اللازم، بمعنى أنه لا يقبل تضييع وقته في تبادل الحديث مع المريض أملًا في اكتشاف سره الخاص. كان ينتمي إلى المدرسة الحديثة في الطب النفسي التي أشرت إليها والتي لا صبر لديها على «التحليل النفسي» وتسرع بالايصاء بالحبوب. هذه الحبوب مختلفة الأصناف بالطبع، وقد يناسب بعضها مريضًا دون آخر، والجرعات مختلفة أيضًا، ولا أشك في أنها لا بد أن تساعد على «تهدئة» المريض وتقليل أو تبديد مخاوفه، وقد تساعده أيضًا على النوم نومًا أعمق، وقد تفتح شهيته للطعام، ولكني، بعد أسبوع أو أسبوعيْن من تناول الحبوب التي كتبها لي بسرعة ودون تردد، لم ألاحظ أني أحرزت أي تقدم. فتوقفت عن تناولها، وفقدت الثقة فيها، على الرغم من احتجاج بعض من عرفوا بذلك قائلين: «كيف تذهب إلى أكبر طبيب نفسي، وأعلاهم أجرًا، وتشترى كمية من الدواء الذي وصفه، تكفيك حتى بعد رجوعك إلى مصر، ثم تقرر التوقف عن تناول الدواء بهذه البساطة؟».

استمرت حالتي على هذا النحو، لا تتخللها من فترات التحسن البسيط جدًّا والقصير جدًّا إلّا فترات المشي، إذ يبدو أن حركة الدم في الجسم كانت ذات أثر طيب في بعث جزء من إرادة الحياة من جديد. مع مرور شهر بعد آخر بدأت أشعر بتحسن بطيء، ولكني لم أشعر بالأمل في احتمال خروجي من هذه الهوة العميقة إلّا بعد مرور ما يقرب من عاميْن من بداية الاكتئاب.

كنت أجلس في حديقة منزلي، في يوم مشمس لطيف من أيام نوفمبر أو ديسمبر ١٩٨٩، أراجع بروفات جاءتني من المطبعة لكتاب كتبه أخي حسين، الذي كان يعمل وقتها سفيرًا في الجزائر، وطلب مني قبل سفره أن أقوم أنا بمراجعة البروفات بدلًا منه؛ لأنه يخشى أن تضيع في البريد. وقد قمت بهذا بالفعل، وأثناء قراءتي للكتاب لاحظت أني أستطيع القيام بالمهمة بسهولة أكثر مما كنت طوال الشهور السابقة، ودون أن أدخن أي سيجارة، وهو ما كان شبه مستحيل قبل إصابتي بالاكتئاب. هل أنا أتماثل للشفاء

إذن؟ كان هذا هو ما يحدث بالفعل. فيومًا بعد يوم، ابتداء من تلك اللحظة، وجدت الشمس تشرق، والحياة تعود إلى طبيعتها كما كنت أراها من قبل. لم يكن السبب في انقضاء الاكتئاب أي حادث بعينه، سعيد أو مبهج، بل جاء انقضاؤه بالتدريج مع سير الحياة سيرًا طبيعيًّا. وجدت نفسي فجأة قادرًا على اتخاذ قرارات كنت عاجزًا عن اتخاذها، وإعداد محاضراتي والذهاب لإلقائها بالسهولة القديمة، والتطلع بسرور إلى لقاء صديق أو إلى تحقق شيء مفرح. عادت أيضًا شهيتي إلى الطعام كما كانت، وكأنني عدت إلى تقمص شخصيتي القديمة بعد أن كنت خلعتها عند بداية الاكتئاب.

بعد مرور سنتيْن أو أكثر على شفائي، دعيت للاشتراك في ندوة في إستانبول، فخطر لي أن أنتهز الفرصة، على الرغم من ثقتي بزوال الاكتئاب زوالًا تامًّا، فأقابل طبيبًا تركيًّا مختصًّا بمرض«Behcet»، كما سبق أن نصحت من أطباء لندن؛ لأعرف المزيد عن المرض وعن مدى احتمال أن يكون ما أصابني هو هذا المرض بالفعل. شرحت الأمر لمنظمي الندوة من الأتراك، فكانوا من الكرم بحيث رتبوا لي موعدًا مع أكبر طبيب تركي من المختصين في هذا المرض، وقابلته بالفعل، فإذا بي أجد نفسي أمام رجل رائع وحكيم، تمنيت لو كنت قابلته في بداية مرضي. قال لي بعد أن استمع إليَّ بإصغاء تام، إنني يجب أن أنسى هذا المرض بتاتًا، وإنه لا يصيب أحدًا في مثل سني، وأكد لي أن ما ذكرته من أعراض لا يكفي بالمرة لتشخيص حالتي بأنها حالة «Behcet».

* * *

خطر لي بعد زوال الاكتئاب خاطر أصابني بالفزع : «هل من الجائز أن يكون كل هذا العذاب نتيجة سبب تافه لا علاقة له بكل ما ذكرت من أسباب؟ وأن كل الأطباء الذين قابلتهم طوال هذيْن العاميْن عجزوا عن اكتشافه لمجرد أن أحدًا منهم لم يخطر بباله أن يسألني سؤالًا واحدًا بسيطًا؟».

كنت قبل إصابتي بالاكتئاب بنحو أربعة أشهر مدخنًا شرهًا؛ إذ بدأت التدخين في آخر سنة لي في دراستي الجامعية، أي وأنا في العشرين من عمري، وزاد تعلقي بالتدخين أثناء دراستي بإنجلترا، حتى وصلت إلى تدخين ما يقرب من ٤٠ سيجارة يوميًّا. أصبح التدخين لديَّ شرطًا ضروريًّا لكل شيء: للاستمتاع بكوب الشاي في الصباح،

وقبل أي طعام، ثم بعد تناول أي طعام، وشرطًا لتحضير محاضرة، ثم بعد انتهائها، وعند البحث عما أريد أن أقول، ثم عندما أجد ما أريد قوله، وفي حجرة النوم انتظارًا لزوجتي، ثم بعد انتهاء لقائي بها... إلخ. باحت لي زوجتي بسرّ، بعد أن اطمأنت إلى أني قد أقلعت فعلاً عن التدخين. ففي كل حفلة من حفلات الكريسماس التي واظبنا على إقامتها كل عام، كان من بين أصناف الطعام التي لا يمكن أن يخلو منها العشاء (كعكة الكريسماس أو البودينج) وهي كعكة من نوع خاص مصنوعة من خليط من الزبيب والعجين والدهن، وتطهى على نار هادئة لعدة ساعات، ولكنها قبل أن توضع على النار لا بد أن تقلب تقليبًا جيدًا ولمدة طويلة، حتى إنه قد يطلب من أكثر من شخص المساهمة في عملية التقليب هذه. ويبدو أنه لتشجيع أكثر من شخص على القيام بهذه المهمة، ابتدع شخص ما فكرة أن الشخص الذي يقلّب عجين الكعكة، ويسرّ لنفسه أثناء ذلك برغبة قوية أو أمنية يتمنى تحقيقها، سوف تتحقق أمنيته؛ بشرط أن يحتفظ بما قاله لنفسه أثناء عملية التقليب سرًّا لا يبوح به لأحد. كنت أفعل أنا ذلك، وكذلك زوجتي وكل طفل من أطفالنا، وكنت إذا سألت زوجتي عما تمنته، امتنعت عن البوح به أملًا في تحققه. الآن بعد أن أقلعت عن التدخين باحت لي بالسر، وهو أن أمنيتها ظلت لسنوات عديدة أن أقلع عن التدخين.

إني أذكر بالضبط اليوم الذي بدأت فيه الامتناع عن التدخين، ففي ١٥ نوفمبر ١٩٨٧، عندما ذهبت إلى أول طبيب في تلك السلسلة الطويلة من الأطباء؛ لأستشيره في أمر الضعف الذي أصاب ساقي وأصابع يدي في نفس اليوم، وأخرجت سيجارة أمامه بحركة لا إرادية، عبّر عن استغرابه الشديد، وكان صارمًا في تحذيري من الاستمرار في التدخين، واستجبت لطلبه منذ تلك اللحظة حتى اليوم، فلم أضع بين شفتيّ طوال الاثنيْن والعشرين عامًا الماضية إلّا سيجارة واحدة، بعد بدء امتناعي بشهريْن أو ثلاثة، فوجدت لها طعمًا يشبه طعم شيء محترق فأطفأتها ولم أعد إلى مثل هذا قط، وقد تكون هذه هي الفترة التي ظل الجسم خلالها يتحمل حرمان ما تعوّد إدخاله فيه لمدة ثلث قرن، ثم ثار الجسم فجأة على هذا الحرمان في صورة ما وصفته بـ«انهيار عصبي» في فبراير ١٩٨٨، والذي كان بداية لفترة اكتئابي الطويل. ربما كان هذا هو التفسير البسيط

لكل ما حدث، ولكن أحدًا من الأطباء لم يسألني عما إذا كنت مدخنًا، أو ما إذا كنت قد أقلعت عن التدخين فجأة.

-٢-

مع كل هذا لم تكن هاتان السنتان (١٩٨٧ – ١٩٨٩) عقيمتيْن تمامًا. ففضلًا عن أني كسبت مقابل الاكتئاب، إقلاعي التام عن التدخين، وهو ما قد يكون أضاف إلى عمري بضع سنوات، لم أمتنع عن التدريس إلّا فصلًا دراسيًّا واحدًا (فبراير – يونية ١٩٨٨)، عدت بعده إلى التدريس بشق الأنفس، وساعدتني چان في هذا مساعدة رائعة؛ إذ كانت أحيانًا تصر على أن أقوم لارتداء ملابسي للذهاب إلى الجامعة وأنا لا أتصور أن يكون بقدرتي الوقوف أمام التلاميذ والتحدث إليهم في أي شيء على الإطلاق، ثم تقوم بقيادة السيارة؛ إذ كنت عاجزًا تمامًا عن ذلك، وتوصيلي إلى باب الجامعة. مرّ، إذن، فصلان دراسيان على هذا النحو وكنت آمل ألا يلاحظ الطلبة تغيرًا كبيرًا في سلوكي، ولكني أستبعد هذا جدًّا، كما أني أذكر جيدًا ترددي الطويل وحيرتي الشديدة أثناء تصحيحي لأوراق الامتحانات، حول الدرجات التي يجب أن أعطيها للإجابات.

كنت في العام الدراسي السابق على مرضي (١٩٨٦ ـ ١٩٨٧) قد قمت بتدريس مقرر جديد عن تطور الديون الخارجية في مصر. وكانت هذه المشكلة من أكثر المشاكل المصرية إثارة للاهتمام والحديث؛ إذ بلغت ديون مصر الخارجية في منتصف الثمانينات حدًّا لا يمكن أن يستمر، لما كان يلتهمه دفع الأقساط والفوائد من إيرادات مصر بالعملة الأجنبية. كان السادات قد ارتكب أخطاء شنيعة في هذا الصدد؛ إذ كان يقترض بلا حساب في الوقت الذي كانت تتدفق فيه العملات الأجنبية على مصر من مختلف المصادر (البترول، وقناة السويس، وتحويلات المهاجرين المصريين، فضلًا عن المعونات الأجنبية التي تدفقت بسبب رضا الأمريكيين عن سياسة السادات). لم يخطر ببال السادات ولا نبهه أحد إلى ما لا بد أن يترتب على هذه الديون من أعباء إذا انخفضت هذه الإيرادات فجأة. كان السادات قد قال مرة في أعقاب حرب أكتوبر بأن هذه الحرب هي آخر الحروب، ومع ذلك أخذ يقترض قروضًا عسكرية بأسعار فائدة

باهظة. واستمرت الديون في الزيادة في عهد مبارك، وإن كانت بمعدل أقل، حتى بلغ السيل الزبى. وعندما ظهر عجز مصر عن تسديد الديون وفوائدها بدأ صندوق النقد الدولي يفرض شروطه ورضخت مصر لهذه الشروط.

بدا لي الموضوع مهمًا، وشاقني أن أستعرض قصة الديون المصرية عبر فترة طويلة؛ إذ كانت ديون السادات وما حدث بسببها تذكّر بشدة بديون الخديو إسماعيل، وما أدت إليه من احتلال مصر. وكان من الشيق جدًّا ملاحظة أوجه شبه أخرى بين الحقبتيْن؛ إذ اقترضت مصر في الحالتيْن أموالًا طائلة عندما لم تكن في حاجة إلى ذلك على الإطلاق؛ بسبب إغراءات المقرضين، ثم امتنع المقرضون عن الإقراض وكشروا عن أنيابهم بمجرد أن ظهر عجز مصر عن السداد. وإذ ظهر العجز جاء وقت اقتطاع رطل اللحم من جسم مصر، مرة بعزل الخديو ثم الاحتلال العسكري، ومرة بإجبار مصر على الاستجابة لكل طلبات المستثمرين والمصدرين والأمريكيين والإسرائيليين. كانت في القصة دراما تستحق أن تروى من أولها، فبدأت محاضراتي بعهد محمد علي، وتتبعت تطور الديون حتى ١٩٨٧ في عهد مبارك، واستخرجت منها سلسلة من المقالات نشرت في مجلة الهلال، ورأيتها تصلح للجمع في كتاب صغير سميته «قصة ديون مصر الخارجية من عصر محمد علي إلى اليوم». وهو كتاب لازلت أعتبره جيدًا؛ إذ وثقت هذا التطور توثيقًا جيدًا، واستطعت أن أتخذ قصة الديون وسيلة لوصف جوانب مهمة من تطور الاقتصاد المصري بصفة عامة.

كان الكتاب جاهزًا تقريبًا للنشر عندما توفي صديقي علي مختار، وقررت ابنته «منى» أن تنشئ دارًا للنشر تحمل اسم أبيها، فعرضت عليها كتابي كهدية مني، فنشرته بالفعل وظهر مطبوعًا طباعة جميلة، وكتبت الإهداء على النحو التالي :

> إلى علي مختار (١٩٣٥- ١٩٨٧) الذي عاش طامحًا إلى تحقيق الاستقلال الكامل لنفسه وبلده، ومات وقد حققه لنفسه، ولما يتحقق لوطنه.

ولكن هذه الدار التي سميت «دار علي مختار للدراسات والنشر» لم تستمر طويلًا، فلا أظن أنه ظهر منها أكثر من كتابيْن أو ثلاثة، أحدها مجموعة من الأوراق والبحوث التي كتبها علي مختار ولم تكن نشرت بعد (حول القومية والعروبة والنهضة، ١٩٨٨). كان علي مختار مؤمنًا متحمسًا للقومية العربية، وظل يدافع عنها بحجج قوية حتى

بعد أن تنكر لها السادات ومبارك، ومعظم الذين كانوا يدافعون عنها في الخمسينات والستينات. وهذا بدوره يدل على صلابة علي مختار ونوع خلقه. كان أيضًا مشغولًا بقضية العلاقة بين العلم، اجتماعيًا أو طبيعيًا، وبين التحيزات المذهبية والسياسية، وكان قد تأثر بشدة في موقفه في هذا الأمر، بالنظرية الماركسية دون أن يقبلها برمتها؛ إذ كان موقف الماركسية دائمًا قليل المبالاة بالالتزام القومي. كان هناك، إذن، الكثير من كتابات علي مختار ومداخلاته في الصحف والندوات مما يستحق النشر بجدارة، فساعدت ابنته منى في جمعها في كتاب آخر بعنوان (علوم أم مذاهب ؟)، وكتبت مقدمة له.

ظهر كتابي وكتابا علي مختار أثناء فترة «الاكتئاب العظيم». فلم تبعث في نفسي السرور الذي كان يمكن أن تبعثه لو كنت أحسن حالًا. كما أن صغر حجم الدار، وما صادفته منى مختار من صعوبات التوزيع الذي كانت حديثة العهد به، لم يسمحا بأن يسمع الكثيرون بهذه الكتب، كما أن قضية ديون مصر الخارجية سرعان ما خبا الاهتمام بها عندما قامت حرب الخليج الأولى في ١٩٩١، عقب هجوم صدام حسين على الكويت، وأجبرت مصر على تأييد الغزو الأمريكي للخليج، بل أرسلت بعض القوات للقتال إلى جانب الجيش الأمريكي، فحصلت مصر في مقابل هذا الموقف المهين على إعفاءات من جزء كبير من ديونها. وهي قصة لا تختلف كثيرًا عن تخفيف أعباء ديون الخديو إسماعيل في أعقاب الاحتلال الإنجليزي لمصر في سنة ١٨٨٢.

(١٩)

نكبة الكويت

ـ ١ ـ

لا بد أني في أغسطس ١٩٩٠ كنت قد شفيت تمامًا من حالة الاكتئاب؛ إذ إنني تتبعت باهتمام شديد أخبار هجوم صدام حسين على الكويت في ٢ أغسطس، ثَمَّ التدخل العسكري الأمريكي، وحتى وقف القتال في ٢٨ فبراير ١٩٩١. وقد كتبت مقالات كثيرة عن تطور هذه الأحداث، خطوة بخطوة، جمعتها في كتاب بعنوان «العرب ونكبة الكويت» (مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩١).

كان الوضع العربي مأساويًّا بدرجة كافية حتى قبل غزو العراق للكويت، وإن لم يخلُ هذا الغزو من مفارقات مدهشة تستدعي الضحك والسخرية. كانت الحرب الباردة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي قد انتهت بسقوط حائط برلين في ١٩٨٩، أي قبل غزو الكويت بأشهر قليلة، وأخذت الدولتان العظميان في تسوية أوجه الخلاف بينهما، فكان من الطبيعي أن تعكس المنطقة العربية، شأنها شأن سائر مناطق العالم، ما يطرأ من تطورات على العلاقة بين هاتيْن الدولتيْن، وتطور مصالح هذه الدولة العظمى أو تلك ورغباتها، فضلاً عن مصالح إسرائيل المحمية من الولايات المتحدة ورغباتها. فما إن انتهت الحرب الباردة حتى شهدت منطقتنا، وكثير من مناطق العالم الأخرى، تقلصات وارتباكات عنيفة كان من بينها الغزو العراقي للكويت.

كان صدام حسين طوال العشرين عامًا السابقة على هجومه على الكويت يقدم نفسه للعراقيين والعرب على أنه الزعيم العربي الرافض للسيطرة الأجنبية ولإسرائيل، والحاكم

العربي الوحيد القادر على توحيد العرب وإعادة الحقوق الضائعة للفلسطينيين. وقد نجحت هذه المزاعم في إغراء بعض المصريين الساخطين على حكم السادات بالذهاب إلى العراق للإسهام في إعادة بناء العراق بعد التدهور الذي أحدثه توالى الانقلابات العسكرية منذ ١٩٥٨. ولكن كان من المدهش حقًّا، أن يستمر انخداع عدد كبير من المثقفين المصريين بمزاعم صدام حسين حتى بعد هجومه على إيران في ١٩٨٠ في أعقاب قيام نظام الخوميني. بدا لي أنه لا بد أن يكون من الواضح لكل ذي عينيْن أن صدام حسين بشنّه حربًا على إيران أضاعت عقدًا كاملًا من عمر العراق وإيران معًا، فضلاً عن ضحاياها من البشر، كان ينفذ مخططًا خارجيًّا لم يكنْ هو فيه أكثر من أداة. كان بعض الصحفيين والكتّاب المصريين يذهبون إلى بغداد خلال الثمانينات ـ تلبية لدعوة من صدام حسين بزعم دعمه في دفاعه عن «البوابة الشرقية» للوطن العربي ضد العدوان الفارسي ـ ثم يعودون من بغداد بهدايا ثمينة من بينها سيارة مرسيدس لكل منهم، فيقومون ببيعها لدى وصولهم إلى مصر. وقد اتصلت بي في ذلك الوقت كاتبة مصرية عرفت عنها حماسها الشديد لقضايا الكادحين والمظلومين، ودفاعها عن قضايا الوحدة العربية والاشتراكية، دون أن تبعث في نفسي قط الثقة بصدق شعورها في أي من هذه المواقف. قالت لي إن علينا ـ نحن المثقفين المصريين ـ أن نقف إلى جانب صدام في دفاعه عن العرب ضد إيران، فاستغربت هذا القول جدًّا ولفتّ نظرها إلى أنه هو الذي هجم على إيران وليس العكس، وأني أرجح أنه يقوم بدور مرسوم له، لا هو في صالح العرب ولا العراق ولا في صالح إيران. استنكرت هي هذا الموقف مني، واستمرت بفصاحتها المعهودة تكيل الثناء على صدّام حسين وتتهمني بالإيمان بنظرية المؤامرة.

فلما قام صدام حسين بالهجوم على الكويت في ١٩٩٠ زادت ثقتي بصحة رأيي في الدور الذي يقوم به في المنطقة، ولم أكن في حاجة إلى قراءة ما دار بينه وبين السفيرة الأمريكية في العراق قبيل هذا الهجوم، إذ قالت له في لقاء معه إن الحكومة الأمريكية في حالة هجومه على الكويت، سوف تعتبر هذا الهجوم «مسألة داخلية» بين دولة عربية وأخرى ولا شأن لها بها. ومع ذلك فبمجرد هجوم الجيش العراقي على الكويت أعلنت الإدارة الأمريكية أنها لا يمكن أن تسكت على هذا، وإن كانت استمرت، يومًا بعد

آخر، ممتنعة عن الإيضاح عما تنوي القيام به، حتى أتم الجيش العراقي دخوله الكويت واحتلال ما أراد احتلاله منها.

في الأيام القليلة التالية للغزو العراقي للكويت دار حوار بيني وبين صديق أردني كان زميلًا لي في الدراسة في سنوات البعثة بإنجلترا، وكان قد بهرني بذكائه وفطنته وحكمته، ثم احتل مناصب رفيعة بعد انتهاء دراسته في مؤسسات دولية وفي الحكومة الأردنية، فعبرت له عن رأيي في حقيقة دوافع هجوم صدام حسين على الكويت، وعن رأيي في صدام حسين نفسه. فإذا به يفاجئني بالدفاع عن صدام حسين، ويتكلم عن صدق وطنيته، ويقول إنه في رأيه الأمل الوحيد الباقي للعرب للنهوض من كبوتهم.

* * *

انقسم المثقفون المصريون أقسامًا في تناولهم للموضوع. هناك حفنة ضئيلة للغاية لم تجد غضاضة فيما فعله صدام حسين، مدفوعة إما بمصالح شخصية وإما بخطأ فادح في رأيي في تشخيص دوافع التصرفات العراقية. الغالبية ذهبوا إلى شجب العدوان العراقي ووقفوا إلى جانب الكويت، لا بد أن بعضهم قد دفعه إلى ذلك أن هذا هو الموقف الرسمي المصري، ولكني أعتقد أن رد الفعل الطبيعي لدى المصري هو الامتعاض من مثل هذه الأعمال الخالية من الإنسانية والتعاطف مع «عزيز قوم ذل». إن المصري على استعداد دائمًا للتغاضي عن أي تفاوت غير مبرر في الثروة، وقبول مركزه الطبقي، ونسيان أي إساءة قديمة، ومن ثَمَّ فإنه سرعان ما يضع نفسه موضع الكويتي ويتصور كيف يمكن أن يكون شعور الكويتي وقد فقد ماله وبيته ووطنه. على أن جزءًا من المثقفين المصريين بلغ بهم الحماس ضد الغزو العراقي حدًّا منعهم من رؤية الدوافع الحقيقية لمجيء القوات الأمريكية إلى الخليج، فتحمسوا لهذه القوات وكأنها هي المنقذ للعرب.

إلى جانب هؤلاء كان هناك عدد صغير من المثقفين تعوَّدوا اتخاذ الحيطة والتزام الحذر. إذ إن الأمور لم تتضح بعد، وهم لا يستطيعون التكهن بما إذا كان صدام حسين سوف يسقط أو لا يسقط، سينسحب من الكويت أو لن ينسحب، ولا ما إذا كانت عائلة الصباح سوف تعود إلى حكم الكويت أو لا تعود، ومن ثَمَّ فهم يرون أن من الحكمة عدم التعبير عن رأى واضح أو مفهوم، إذ ربما قالوا شيئًا ندموا عليه في المستقبل.

وهناك على أي حال الكثير مما يمكن أن يقال مما لا يغضب صدام حسين بشدة ولا عائلة الصباح، كأنْ يتكلمون عن عيوب العرب بصفة عامة، وعن أن ما حدث كان نتيجة لغياب الديمقراطية بصفة عامة، أو بسبب لا عقلانية العرب بصفة عامة. ولا بأس من الإقرار بخطأ مغتفر لصدام حسين وخطأ مغتفر لعائلة الصباح، من النوع الذي لا يترك أثرًا عميقًا في النفس ويسهل نسيانه. أسلم السبل إذن هو أن ننقد العرب دون أن ننقد حاكمًا بعينه، والعرب على أي حال قد مرّ عليهم زمن طويل وهم «ملطشة» العالم، فليس هناك ضرر كبير من أن تنضم إلى زمرة الضاربين والشاتمين، ولن يعتب عليك أحد، لا من الغرب ولا من الشرق، بل لا حتى من العرب أنفسهم.

* * *

لفت نظري وأنا أتابع أحداث غزو الكويت، كثرة تردد الإشارة إلى جهاز الڤيديو في مناسبات مختلفة، فقد كان هذا الجهاز في ذلك الوقت (١٩٩١) اختراعًا جديدًا يخلب اللب وتطمح إليه القلوب. ففي الأيام الأولى، تضمنت الأنباء إشارات متناثرة إلى أن الجنود العراقيين كانوا يستولون على أجهزة الڤيديو التي يجدونها فيها يقتحمونه من بيوت. ثَمَّ دلت التقارير الواردة من الكويت والعراق، والتي تصف أحوال الهاربين من الكويت، على أن الشيء الذي يتكرر ظهوره في أمتعتهم هو جهاز الڤيديو، وأنهم كانوا أحيانًا يخبئونه في داخل أحشية السيارات لمنع وقوعه في أيدي الجنود العراقيين، وأن الجنود العراقيين الواقفين على الحدود كان أول ما يسألون عنه هؤلاء المتلهفين على عبور الحدود هو ما إذا كان هؤلاء الهاربون يحملون جهازًا للڤيديو. فإذا عبروا الحدود، كانوا كلما مرّوا بمدينة أو قرية عراقية استوقفهم الناس يعرضون عليهم شراء أجهزة الڤيديو منهم؛ مقابل تقديم ما يحتاجونه من غذاء أو ماء.

هذا التكرار المستمر للإشارة إلى جهاز الڤيديو والدور المهم الذي بدا لي أنه يلعبه في أيام الحرب، أمدني بفكرة بدت لي جيدة جدًّا، وهي أن من الممكن أن يتخذ جهاز الڤيديو كرمز للهدف الحقيقي من هذه الحرب كلها، ولكنها فكرة لم يكن يصلح للتعبير عنها مقال تحليلي، بل تحتاج إلى كتابة ما يشبه الفانتازيا، أي القصة الخيالية، وأن من الممكن أن أضمّن هذه الفانتازيا كل ما لديّ من أفكار وتفسيرات لهذه الحرب، بل أيضًا

رأيي في الحضارة الغربية كلها، خاصة في صورتها الأمريكية، بل كذلك رأيي في قضايا أخرى مهمة كقضية التنمية الاقتصادية، أو المجتمع الاستهلاكي، أو التجربة السوڤيتية، أو الخطاب الديني السائد.

نفذت هذا بالفعل، فكتبت مقالًا طويلًا أشبه بالقصة، نشرته جريدة الأهالي في ١٩٩١، في صفحة كاملة. كنت فرحًا جدًّا بالفكرة ولازلت أعتقد أنها جيدة، ولكن المقال، ربما لطابعه الرمزي، لم يجذب نظر أحد، فلا أذكر أن أحدًا أبدى لي أي تعليق عليه، بعكس مقالاتي الأخرى، لا بالمدح ولا بالذم.

زعمت في هذا المقال أن الإشارات المتعددة إلى جهاز الڤيديو أخذت تتراكم في عقلي الباطن حتى كنت كلما استسلمت للنوم، حلمتُ أحلامًا تدور كلها حول جهاز الڤيديو. ولكن حلمًا واحدًا مزعجًا كان يتكرر أكثر من غيره ويجعل نومي مضطربًا للغاية، واستمر يلازمني نحو أسبوع، ثم انقطع عني الحلم تمامًا، وشعرت بعد ذلك براحة ما بعدها راحة، ليس فقط لذهاب هذا الكابوس الفظيع، ولكن لأني عندما استرجعت أحداث الحلم بتأنٍ، تبينت أنه كان يتضمن تفسيرًا شاملاً لنكبة الكويت من أولها لآخرها، بل لأشياء أخرى غيرها، ولم تعد تعذبني بعد ذلك محاولة البحث عن تفسير للهجوم العراقي، أو قدوم الجيش الأمريكي، أو تصرّف هذه الحكومة العربية أو الأوربية أو تلك. واتضح لي أن السبب الحقيقي لنكبة الكويت ليس هو الرئيس صدام حسين، ولا الرئيس بوش، ولا سلوك الأسرة المالكة الكويتية، ولا شيء من هذا القبيل على الإطلاق، بل إن السبب الحقيقي ليس إلّا جهاز الڤيديو.

في غمار أحداث غزو الكويت، قرأت لبعض الكتّاب الذين أيدوا الغزو ودافعوا عن صدام حسين لسبب أو لآخر، قولهم إن حرب الخليج هي حرب الفقراء ضد الأغنياء. كان هؤلاء يقصدون بالطبع أن جبهة العراق تمثل فقراء العرب، وجبهة الكويت تمثل أغنياءهم. ولم أستسغ هذا القول قط لأكثر من سبب. فالعراق لم يكن في ذلك الوقت من البلاد العربية الفقيرة، بل كانت قبل حربها مع إيران على الأقل، من أعلى البلاد العربية دخلًا. والنظام العراقي لم يشهد له تاريخه، منذ ١٩٦٨ على الأقل، بأنه كان نصيرًا للفقراء، سواء في معاملته لفقراء العراق أو في معاملته لبؤساء الأكراد، أو

للمشردين من العمال المصريين. وسكان الكويت، وإن كانوا يضمّون بعضًا من أغنى أغنياء العرب، يتكوّن معظمهم من عمالة مهاجرة من مصر أو اليمن أو الأردن أو الهند أو الفلبين... إلخ، ممن هم أقرب إلى الفقر منهم إلى الثراء.

وعندما بدأ الغزو العراقي للكويت في ٢ أغسطس كان من الطبيعي أن يكون أول من يغادر الكويت أغنياؤها. بل الواقع أن معظم أغنيائها كانوا قد غادروها بالفعل قبل أن يهجم حر أغسطس؛ الأمر الذي لا يقدر على تحمل نفقاته بالطبع فقراء الكويت وفقراء الهند وسيريلانكا ومصر... إلخ المقيمون بالكويت. فلما حدث الغزو، كانت سهولة الرحيل وسرعته تتناسب مع القدرة الشرائية.

ولكن إذا كان الفقراء هم آخر من يرحل، فالأرجح أنهم هم أول من يرجع. فالبيوت المهدمة تحتاج إلى إعادة بناء، والطرق والمرافق تحتاج إلى إصلاح، والمتفجرات المخبأة تحتاج إلى من يبحث عنها ويبطل مفعولها، وهذا كله يحتاج إلى عمالة تنتظر على أحر من الجمر فرصة العودة لكي تتمكن من ادخار ما ترسله إلى الأهل المتطلعين إلى هذه التحويلات في شوق. بعد إتمام ذلك يمكن للميسورين من «أصحاب المصالح الحقيقية» أن يعودوا على مهل؛ حيث يجدون الجميع في استقبالهم، وقد تم إصلاح كل شيء، وعادت الحياة إلى ما كانت عليه.

كان من بين ما لفت نظري في هذا الجانب من أحداث الكويت، قائمة نشرتها بعض الجرائد المصرية في صفحاتها الأولى بمجرد أن أعلن عن وقف إطلاق النار، وتضمنت أسماء عشرة شهداء مصريين، قُتِلوا في الحرب، وأسماء المدن والقرى المصرية التي أتوا منها. تصدر القائمة اسم الشهيد النقيب شريف مصطفى عبد الرازق، ثم جاءت بعد ذلك أسماء تسعة جنود. أصابتني دهشة شديدة إذ وجدت أنه، فيما عدا النقيب «شريف» الذي أتى من محرم بك بالإسكندرية، لم يكن من بين التسعة الآخرين شخص واحد مسقط رأسه القاهرة أو عاصمة محافظة، وإنما كان مسقط رأس الشهداء التسعة : كفر عسكر، مركز تلا ـ كفر بهنس، مركز قويسنا ـ البلينا، سوهاج ـ نجع سرور، سوهاج ـ عزبة جزيرة الشافعي التابعة لعزبة الصوفية، مركز أولاد صقر، شرقية ـ قرية عرب درويش، مركز فاقوس ـ بلدة المسيحة من نواحي المنصورة ـ التل الكبير، شرقية ـ دسوق، كفر الشيخ.

لم يكن هناك، إذن، شهيد واحد من مصر الجديدة أو الدقي أو المهندسين، ناهيك عن الزمالك أو جاردن سيتي. في اليوم التالي قامت جريدة الأهرام مشكورة بنشر تحقيق أجرته عن الشهداء العشرة. قلت لنفسي وأنا أقرأ التحقيق: هذا هو في نهاية الأمر ما يهم من القصة كلها: شباب يتراوح عمره بين ٢٢ و ٢٨ سنة، بعضهم كان يحمل شهادة عليا وبعضهم لا يحملها، ولكنهم كلهم لهم آباء وأمهات وأشقاء وشقيقات كانوا يأملون أن يعود إليهم أولادهم أو أشقاؤهم بالسلامة فلم يتحقق أملهم. مرة أخرى لفت نظري ما ذكرته جريدة الأهرام عن وظيفة أو مهنة كل من الشهداء قبل الحرب، فإذا بي لا أجد شخصًا واحدًا منهم ينتمي إلى تلك الشرائح الاجتماعية التي اصطلحنا في السبعينات على تسميتها «بالطفيلية»، بل هم بين مزارع ومدرس ومهندس زراعي، وأسماؤهم مصرية صميمة كخميس وعلام وحامد وعبد العظيم وصبحي وزغلول وصفوت عجيب، وشقيقاتهم أم هاشم والسيدة وسامية وبدرية وعواطف وهنية ورضا.

بعد إعلان وقف القتال التقط بعض المراسلين صورًا لأعداد غفيرة من الجنود العراقيين السائرين في الصحراء شمالًا عائدين إلى العراق، وصفهم المراسلون بأنهم في حالة يرثى لها من التعب والجوع، وأن كثيرين منهم فقدوا أحذيتهم فساروا حفاة، ثم صورًا لأعداد غفيرة أخرى تسير في الاتجاه المضاد: كويتيين ومصريين راجعين من العراق ويتجهون جنوبًا إلى الكويت، بعد أن أطلقوا من الأسر أو أصبح رحيلهم من العراق ممكنًا. تقابل الفريقان في الطريق: العراقيون المتجهون إلى الشمال، والكويتيون والمصريون المتجهون إلى الجنوب، والتقطت لهم صور وهم يلوّحون لبعضهم البعض بالتحية. ولِمَ لا، لا هؤلاء ولا هؤلاء حملوا للآخرين أي ضغينة في أي وقت من الأوقات، ولم يكن لأي منهم ناقة ولا جمل في هذه الحرب.

ـ ٢ ـ

في أثناء الهجوم الأمريكي على العراق، دخلت مصر لأول مرة شبكة التليفزيون الأمريكي «CNN»، وكان من السهل التقاط برامجها، إذ ظلت فترة معينة تُبث مجانًا حتى تكوّن لها جمهور، ثم تشرع في اشتراط دفع قيمة الاشتراك.

وقد جلست عند بداية الحرب أمام التليفزيون بضع مرات، لأشاهد هذه القناة الخطيرة، واستمعت إلى المتحدث باسم وزارة الدفاع الأمريكية وهو يدلي بتصريحات عن آخر تطورات الحرب، وقد جلس أمامه عشرات من مندوبي الصحف والإذاعات وشبكات التليفزيون يسجلون تصريحاته بعناية واهتمام لا حد لهما، ويمطرونه بالأسئلة، وهو يجيب عنها رابط الجأش، وبكفاءة وفصاحة منقطعتي النظير.

ولكني بعد أن رأيت هذا على قناة «CNN» مرتيْن أو ثلاث مرات، واستمعت إلى نشرتها الإخبارية مرة أو مرتيْن، توقفت تمامًا عن مشاهدتها، وكنت كلما مررت بالحجرة التي وضع فيها التليفزيون، ورأيت اسم «CNN» على الشاشة، وقد تجمع حولها بعض أفراد أسرتي بانتباه شديد، أسرعت بالهرب حتى لا أرى ما يعرض من صور ولكيلا أسمع ما يقال.

ذلك أني منذ رأيت لأول مرة ذلك الشاب النحيف الأنيق المتحدث باسم وزارة الدفاع الأمريكية يجيب عن أسئلة الصحفيين، شعرت بنفور عظيم منه. إذ إنه بدا لي وكأنه يجسّم كل ما أكرهه فيما يسمى بوسائل الإعلام الحديثة: الكفاءة منقطعة النظير في الكذب، والإلحاح المستمر على الناس لحملهم على تصديق ما لا يجب أن يصدق، والبرود وانعدام الإحساس في نقل أفظع الأخبار، وتضخيم أتفه الأخبار وكأنها بالغة الأهمية، وإهمال أخطر الأمور وكأنها شديدة التفاهة. ثم جاءت وجوه المذيعات وطريقتهن في الكلام لتؤكد شعوري بأني لست أمام كائنات بشرية، بل أمام وجوه من الشمع تتحرك شفاهها طبقًا لنظام مبرمج معد سلفًا، وجرى التدريب عليه، ويستهدف لا الإعلام بل غسيل المخ، أو بالأحرى تلويثه.

توقفت، إذن، عن متابعة شبكة «CNN» بعد أيام قليلة من بداية الحرب، ولكن هذا لم يمنع من أن أسمع من الآخرين إشارات متناثرة إلى ما يقال فيها، أو أن أرى رغمًا عني لبضع دقائق ما تبثه هذه الشبكة على الناس. وأكد لي ما سمعته أو رأيته شعورًا كان ولا يزال يتنامى لديّ منذ سنوات، وهو أن ما كان يتوقعه چورج أورويل قد تحقق بالفعل أو كاد أن يتحقق بالكامل. وجاءت شبكة «CNN» لتنبئنا على نحو لا يقبل الشك بأن عالم چورج أورويل قد حلّ بنا بالفعل.

من بين ما عرضته هذه الشبكة صورة قيل لنا إنها لطائر بحري مسكين أصابته بقعة الزيت التي انتشرت في مياه الخليج منذ أن فجرّ صدام حسين آبار النفط، ثم عرفنا أن الصورة التي رآها الناس لم تكن لطائر بحري في الخليج، بل لطائر بحري أصابه مكروه مماثل ولكن في مكان آخر من العالم، ومنذ سنوات عديدة، واستعيرت الصورة لإحداث الأثر المطلوب. إن چورج أورويل كان قد حكى في روايته الشهيرة (١٩٨٤) أشياء كثيرة مماثلة، مما كان يقوم به بطل الرواية الذي كان يشتغل في وزارة الحقيقة (وزارة الإعلام الآن)، فقد كان من مهامه القيام بمثل هذا الاستبدال لصورة بأخرى، وخبر بغيره، وإحلال اسم محل اسم... إلخ، وذلك خلال عمله الخاص بالتصحيح المستمر للتاريخ طبقًا لآخر التعليمات. ولكن چورج أورويل ذهب إلى أبعد من هذا بكثير، فقد تكلم عن «لغة جديدة» تمامًا، تصور أنها سوف تظهر في المجتمع الحديث، يستغنى فيها عن كلمات قديمة كانت شائعة ثَمَّ لم تعد ثمة حاجة إليها، كـ«الشرف» و«العدل». وتدخل فيها كلمات جديدة لم تكن معروفة للتعبير عن أنواع جديدة من السلوك والعلاقات، وتتعرض فيها بعض الكلمات لتغيير أساسي في معناها بحيث يصبح من الممكن عن طريقها قبول المتناقضات المستحيلة وكأنها ممكنة. تذكرت ذلك عندما سمعت تلك العبارة الرائعة «Friendly Fire» أي (النيران الصديقة)، والمقصود بها الحالة التي يحدث فيها القتل بيد صديقة أو حليفة؛ تمييزًا لها عن حالة القتل الذي يرتكبه عدوّ. ولكني احترت حيرة عظيمة وأنا أحاول أن أقرر ما إذا كان الموت يعتبر بنيران صديقة أو لا يعتبر كذلك في حالة ما إذا حدث مثلًا أن قُتل مصري وهو يحارب في صف الكويتيين، بيد مصري آخر يحارب في صفوف العراقيين: أتعتبر النيران في هذه الحالة صديقة أم غير صديقة؟ وبالعكس، لنفرضْ أن المصري الذي يحارب في صفوف الكويتيين قُتل خطأ بيد أمريكي يحارب في صفوف الكويتيين أيضًا، هل يعتبر الموت في هذه الحالة قد حدث بيد صديقة أو عدوّة؟

من ملامح اللغة الحديثة أيضًا الاختصار الشديد في كتابة كثير من الكلمات، والاكتفاء بالحروف الأولى في الإشارة إليها حين يراد إخفاء حقيقة أو تجنب إثارة المشاعر التي تثيرها الكلمات الكاملة. ففي حرب الخليج استخدمت الحروف الأولى: (كيه. آي. إيه. K.I.A.) و(دبليو. آي. إيه. W.I.A.) و(إم. آي. إيه. M.I.A.) للإشارة إلى من

«قتل في الحرب» أو «جرح في الحرب» أو «فقد في الحرب»، كما استخدم الحرفان (تى. أو. .T.O) للإشارة إلى «أرض المعركة». التي تسمى الآن «مسرح العمليات»، وكأننا بصدد مسرحية للتسلية وليس حربًا تسال فيها الدماء.

لاحظت أيضًا في المرات القليلة التي شاهدت فيها «CNN» أن هذه الشبكة كانت حريصة على أن ترينا دموع سيدة إسرائيلية هدم بيتها، ولكنها لم ترنا دموع العراقيين الذين رأوا أهوالًا أكبر بكثير. لا بد أن الشبكة تعتبر أن الحياد يتأتى بإذاعة بيانات صدام بعد إذاعة بيانات بوش، وأن إذاعة كذب من هنا وكذب من هناك معناه إذاعة الحقيقة كاملة. لاحظت أيضًا على كثير من أصدقائي الذين كانوا يواظبون على مشاهدة ما تبثه شبكة «CNN»، أنهم كانوا يعانون بشدة مما يرون ويسمعون منها، تبرمًا وضيقًا وحزنًا وكآبة، ومع ذلك استمروا في متابعتها ظنًّا منهم أن هذا الحزن وهذه الكآبة سببهما ما يحدث، وليس السبب طريقة «CNN» في رواية ما يحدث. لقد كان الأمر بالطبع مأساة نادرة المثيل، ولكني لا أجد أي سبب معقول يضطرني إلى أن أتتبع أخبارها طوال اليوم بأكمله، من فم أفاك.

هذه المأساة عانى منها عامة الناس وبسطاؤهم أكثر مما عانى الصفوة وعلية القوم، كما سبق أن ذكرت، ولكن شيئًا واحدًا فقط امتاز به عامة الناس وبسطاؤهم ولم يعانوا منه مثلما عانى الصفوة وعلية القوم، وهو أنهم كانوا أقل قدرة على متابعة ما تبثه شبكة «CNN»، وأقل قدرة على فهم ما تقول. فحتى إذا جلسوا أمام شاشة التليفزيون واستمعوا إلى ما تقوله «CNN»، فالأرجح أنهم لن يضاروا منها بنفس القدر الذي يضار به المتعلمون والمثقفون. هذا أيضًا أدركه چورچ أورويل، كما تتبين مما كتبه في رواية «١٩٨٤»:

«إن عامة الناس هم وحدهم الذين لا زالوا يحتفظون بقواهم العقلية؛ وذلك بفضل عجزهم عن الفهم. لقد بلعوا كل شيء ولم يلحقهم الضرر من وراء ذلك؛ إذ إن ما دخل أمعدتهم خرج منها دون أن يترك وراءه أي أثر، وكأنه حبة من الذرة تمر بجسم العصفور وتخرج منه دون أن يهضمها».

* * *

عبرّت عن هذه الانطباعات عن شبكة «CNN» في مقال نشرته في جريدة الأهالي في١٩٩١، وأعطيت المقال العنوان الآتي: «حرب الخليج وعالم چورچ أورويل». فلم تمضِ على نشر المقال أيام قليلة حتى تسلمت في بريدي بالجامعة الأمريكية خطابًا بالإنجليزية، ومكتوبًا على الآلة الكاتبة، ولكنه من دون توقيع، وكان من الواضح أن مرسله يريد إخفاء شخصيته. كان الخطاب يحذرني من الاسترسال في نقد شبكة «CNN». كانت اللغة الإنجليزية التي كتب بها الخطاب عالية المستوى، فخمنت أن كاتبها ينتمي بشكل أو بآخر إلى أسرة «CNN»، أو أنه، لسبب أو لآخر يهمه ألا يسيء أحد إلى سمعتها. وهذه هي الترجمة الحرفية للخطاب :

١٤ إبريل ١٩٩١

«لقد أصابتني الدهشة عندما قرأت تعليقاتك حول أورويل، وأعتقد أن عليك أن تكتب مقالًا آخر في الأهالي تسحب فيه أقوالك. إن هناك فارقًا كبيرًا بين أحداث كتاب (١٩٨٤)، وما حدث خلال حرب الخليج مع شبكة «CNN».

إن شبكة «CNN» لا تخضع لإدارة أي حكومة. إنها مملوكة ملكية فردية لشخص هو «تيد تيرنر» (Ted Turner). إن الناس لديهم حرية الاختيار، بعكس رواية أورويل، في الحصول على الأخبار من مكان آخر، وكان عليهم أن يتبينوا هذه الحقيقة، ويغلقوا جهاز التليفزيون، ويشرعوا في قراءة جرائد مثل «إنترناشيونال هيرالد تريبيون» (International Herald Tribune) التي كانت تعرض الجوانب المختلفة للقضايا المطروحة.

إذا أردت الاحتفاظ بمصداقيتك، فالرجا الرجوع عما عرضته من معلومات مغلوطة. إن الحرب ربما تكون قد قادتها الحكومة الأمريكية، ولكن ليس هذا شأن «CNN». إن الحكومة الأمريكية لا تسيطر على أي قناة تليفزيونية، أو جريدة، أو كنيسة، أو مدرسة».

انقبض صدري لدى قراءة هذا الخطاب؛ إذ وجدت فيه مثالًا آخر للعالم الأورويلي الكئيب الذي كتبت المقال بسبب خوفي من مجيئه.

-٣-

بعد أن أجبرت الولايات المتحدة صدام حسين على الانسحاب من الكويت ذليلًا مدحورًا، اختارت الإدارة الأمريكية عدم الإجهاز على نظامه في العراق في ذلك الوقت، مدفوعة بلا شك بقرارها بأنه لازال أمامه من المهام التي لم ينجزها بعد، فتأجل القضاء على نظام صدام حسين اثني عشر عامًا، ظل فيها هو الحاكم بأمره في العراق وخضع العراقيون خلالها لمحنة الحصار والإفقار؛ لأسباب خفية تتعلق في رأيي بالعلاقات بين الدول الكبرى، ونصيب كل منها من نفط العراق أكثر مما تتعلق برأي الولايات المتحدة في صدام حسين.

كنا قد سمعنا خلال الثمانينات عن العلاقات الوثيقة التي كانت تربط الإدارة الأمريكية بنظام صدام حسين، وما كان يصدر من كبار السياسيين من عبارات الثناء عليه، أثناء حربه مع إيران، وما كانوا يغدقونه عليه من معونات عسكرية، فلما انقلب الثناء إلى هجوم عنيف في التسعينات، مع التهديد المستمر بالإطاحة به، وتقديم الدعم لرجال المعارضة العراقيين المقيمين في خارج العراق، بدا الأمر مقززًا ومثيرًا لشعور قوى بالمرارة إزاء السياسة الأمريكية في المنطقة، وإزاء طريقة تعاملها مع العرب منذ حرب ١٩٦٧ على الأقل؛ إذ بدت هذه السياسة سلسلة مستمرة من الإذلال.

وعندما انتهى الأمر بسقوط صدام حسين ونظامه في سنة ٢٠٠٣، ورأينا على شاشة التليفزيون منظر تمثاله الضخم وقد أحاطت به مجموعة من الشبان العراقيين الذين بدوا وكأنهم مجموعة من المتبطلين تم جمعهم خصيصًا لإسقاط التمثال، على أن تجري عملية إسقاط التمثال أمام آلات التصوير المستعدة لالتقاط الصور التي سوف تبث في العالم بأسره، بدا لي الأمر كله، من جديد، خدعة كبيرة؛ إذ سمح لصدام حسين أن يصور نفسه كبطل مغوار يقود العرب إلى النصر والتقدم، طالما كان يؤدى خدمات مهمة للدول الكبرى صاحبة المصلحة في بترول المنطقة وأسواقها، وسمح له أثناء ذلك بارتكاب جرائم كثيرة لم يعاقب عليها ولا حتى وُجّه إليه اللوم بشأنها، ثم لما انتهى الدور المعدّ له وأصبح زائدًا عن الحاجة، بدأ الكلام عن دكتاتوريته وطغيانه، وعن امتلاكه أسلحة الدمار الشامل؛ فجرى إسقاطه ومحاكمته ثم إعدامه.

(٢٠)

«الحراك الاجتماعي»

-١-

من بين الكتّاب الذين قرأت لهم، من وجدتهم إذا تعرضوا لتفسير ظاهرة ما، انصبّ اهتمامهم كله على عامل واحد، وأهملوا ما عداه، فلا يعترفون بأثر أي عامل آخر إلّا على مضض، ويحاولون المستحيل لرد أي عامل آخر إلى ذلك «العامل الأوحد» الذي ركزوا كل الضوء عليه.

لفت هذا نظري؛ لأني أنا أيضًا أميل بطبعي إلى «التفسير الأوحد»، ويضايقني بشدة، كلما قدمت تفسيرًا لظاهرة من الظواهر الاجتماعية، وأكدت عليه وكأنه العامل الوحيد، أن يقول لي البعض: «ولكن هذا ليس العامل الوحيد!». أشعر في هذه الحالة وكأن أحدًا قد وضع أمام قدميّ، أثناء جريي بسرعة، حجرًا أو طوبة ليمنعني من الاستمرار في الجري، وربما لكي يوقعني على وجهي. إنه كإلقاء الماء على النار، يطفئ الحماس، إذ يحلّ محل فكرة جذابة، أفكارًا معروفة وربما بدهية، أو هكذا كنت أشعر.

للكاتب الإيرلندي الشهير «برنارد شو» (Bernard Shaw) مسرحية بعنوان (Too true to be good) يمكن ترجمته إلى (حقيقي لدرجة تجعله قليل القيمة) وهو مقلوب عبارة (Too good to be true) أي (طيب وجميل لدرجه تجعله غير حقيقي). وفى العبارتيْن في رأيي، بلاغة وطرافة، بل أيضًا حكمة.

نعم، يمكن أن نعدد أسبابًا كثيرة لتفسير أي ظاهرة، ولكن أليس من بين هذه

الأسباب عادة سبب واحد أهم بكثير من الأسباب الأخرى، بل كثيرًا ما يمكن تفسير هذه الأسباب الأخرى بهذا السبب الواحد؟ ثم إنه، حتى لو لم يكن من الممكن ردّ بعض الأسباب الأخرى أو كلها إلى هذا السبب الواحد، ألا يؤدى ذكرها جميعًا إلى تشتيت الذهن، ويضعف الاهتمام بالسبب الأساسي للظاهرة، وقد يؤدي إلى تجاهله تمامًا فتكون الخسارة كبيرة؟ إن محاولة التذكير بالعوامل الأخرى في وجه من يؤكد على عامل واحد أساسي، والإلحاح على تلك العوامل الأخرى، كثيرًا ما يكون كمجرد «شوشرة». قد تؤدي إلى إفساد النقاش بدلاً من إثرائه. هكذا كنت ولازلت أعتقد، ولهذا السبب لم أتحمس مثلًا لمنتقدي النظرية الماركسية في التاريخ، عندما يقولون: «إن العامل الاقتصادي ليس هو العامل الوحيد في تفسير التاريخ»، أو لمنتقدي فرويد عندما يقولون: «إن الجنس ليس هو المحرك الوحيد للسلوك الإنساني»، وكأن لسان حالي يقول لهم: «نعم، نعم، ولكن ما أجمل التأكيد الماركسي على العامل الاقتصادي وما أعظم فائدته، وكم كان مفيدًا تأكيد فرويد على الرغبة الجنسية، وما أعظم الخسارة التي كانت ستصيب الدراسات التاريخية والنفسية، لو لم يفعل ماركس وفرويد ما فعلاه، مع كل مبالغاتهما».

قيل قديمًا عن الشعر العربي: «أجمل الشعر أكذبه»، ولا أحد بالطبع يستطيع أن يأخذ هذه العبارة مأخذ الجد وكأنها تعبير دقيق عن الحقيقة، ولكني أجد فيها نفس القدر من الطرافة والحكمة الذي أجده في عبارة برنارد شو «Too true to be good» أى (صحيح لدرجة لا يمكن معها أن يكون مفيدًا!) بل أقتطفها أحيانًا لطلبتي في محاضراتي في تاريخ الفكر الاقتصادي عندما أصل إلى نظرية دافيد ريكاردو في تفسير الأثمان؛ إذ ذهب ريكاردو إلى أن كمية العمل المبذول في إنتاج السلعة هي العامل الوحيد في تحديد ثمنها. فإذا كان ثمن سلعة ما ضعف ثمن سلعة أخرى؛ فالسبب أن السلعة الأولى بذل فيها من العمل ضعف ما بذل في الأخرى. أقول لطلبتي إن النظرية ثبت خطؤها، على الرغم من إصرار ريكاردو عليها وسير بقية الاقتصاديين التقليديين وراءه عشرات من السنين، واعتماد ماركس عليها في تفسير ظاهرة الاستغلال، ولكن هذه النظرية مكّنت ريكاردو من تقديم تحليل بديع كشف به عن حقائق كانت غائبة، وسمحت له بالتعمق في وصف ظاهرة الإنتاج لدرجة لم يصل إليها غيره ممن قبل بسهولة التفسير البسيط

(العرض والطلب)، وهو التفسير الصحيح ولكنه «صحيح لدرجة تجعله قليل القيمة»!
لقد وُصف ريكاردو بأنه كان مغرمًا بـ«الحالات القوية» (strong cases) ولا شك أن هذا الميل لديه كان السبب ليس فقط في لفت الأنظار إليه أكثر مما التفتت إلى غيره، من أصحاب «الحالات أو التقريرات الضعيفة»، ولكنه كان أيضًا سببًا من أسباب استمرار تأثيره في الاقتصاديين التالين، والمكانة العالية التي لازال يحتلها في تاريخ علم الاقتصاد.

* * *

منذ بدأت أقضي فترات طويلة خارج مصر، أنا وعائلتي، ابتداء من سنة ١٩٧١، كنت ألاحظ كلما عدت إلى مصر، لفترات قصيرة أو طويلة، تغيرات اجتماعية مهمة وسريعة نسبيًّا، إذا قورنت بما كان يحدث في صباي، بل حتى إذا قورنت بالعقدَيْن التاليَيْن مباشرة لثورة يوليو، على الرغم من كثرة ما اتخذته حكومات الثورة من قرارات مهمة، أحدثت بدورها تغيرات مهمة في المجتمع المصري. ابتداء من السبعينات بدأت ألاحظ تسارع هذه التغيرات، وظهور أعراض جديدة وغريبة في سلوك المصريين، وفي مختلف جوانب الحياة الاجتماعية: في المدارس والنوادي والشواطئ وأماكن الترفيه، في الصحف وسائر وسائل الإعلام، في السلع والخدمات المعروضة والمطلوبة، في لغة التخاطب وطرق التعبير، في موضوعات الأفلام والمسرحيات، في طريقة الاحتفال بالأفراح وأعياد الميلاد، في نوع النظرة إلى الوظيفة الحكومية وإلى السيارة الخاصة... إلخ. وكنت ألاحظ اشتداد قوة الظواهر الجديدة، سنة بعد أخرى؛ مما جعل الكثيرين من الكتّاب والمعلقين يقولون: «إن الإنسان المصري قد تغيَّر»، ويتأسفون لما أصاب القيم والأخلاق من انحطاط، ويتحسرون على الماضي الجميل حيث كانت القيم والأخلاق أفضل، بل كتب البعض عن ضرورة «إعادة بناء الإنسان المصري».

كان أكثر التفسيرات شيوعًا لما يحدث هو «الانفتاح الاقتصادي»؛ إذ كان من الواضح ما أدى إليه فتح الأبواب فجأة على الغرب، وتدفق سلعه وشركاته وسيّاحه وأفلامه على مصر، من آثار على سلوك المصريين، فاعتبره الكثيرون هو المسئول عما بدأ يطبع سلوك المصريين من «مادية» و«جشع»، وابتعاد عن «المروءة»... إلخ. وهو

تفسير ليس خاطئًا بالطبع، وقد ملت إلى التأكيد عليه لعدة سنوات شعرت بعدها بأنه لا يصيب كبد الحقيقة، وأنه غير كافٍ، ولكني لم أقتنع بإضافة «عوامل أخرى» إلى الانفتاح الاقتصادي؛ بسبب نفوري الطبيعي من هذا المسلك، كما بينت حالاً، وظللت أبحث عن عامل واحد حتى وجدته، فطرت به فرحًا، وملك عليَّ تفكيري لمدة طويلة، وأخذت، جريًا على عادتي، أحاول أن أفسر به كل العوامل الأخرى، وكان فرحي يزيد كلما نجحت في ذلك.

كان هذا العامل الذي فسرت به ما يحدث في مصر هو «الحراك الاجتماعي»، وهو ترجمة لتعبير إنجليزي مستقر في علم الاجتماع هو (Social Mobility). وبدت الفكرة واعدة جدًّا وقريبة جدًّا من أن تقدم أكثر التفسيرات الممكنة إقناعًا، وأقدرها على تفسير أكبر عدد ممكن من التغيرات التي طرأت على سلوك المصريين خلال العشرين أو الثلاثين سنة السابقة.

كان هذا في أوائل سنة ١٩٨٥، قبل أن أسافر إلى الولايات المتحدة لقضاء عام للتدريس في لوس أنجلوس، وكانت فكرتي كالآتي: شهدت مصر منذ أوائل الخمسينات ارتفاعًا ملحوظًا في «معدل الحراك الاجتماعي»، لم تشهد مثيلًا له من قبل لعدة قرون، بل ربما في تاريخها كله. وأقصد بذلك صعود شرائح اجتماعية كانت في مستوى متدنٍّ من السلم الاجتماعي، فارتفعت إلى مكانة أعلى، وبسرعة غير معهودة، بينما تدهورت شرائح اجتماعية أخرى. وكان لابد لهذا أن يحدث آثارًا بالغة الأهمية والوضوح في سلوك المصريين وأفكارهم ونظرتهم إلى مختلف العلاقات الاجتماعية. مرّت بذهني صورة عمارة عالية شرع سكانها فجأة في تبادل الشقق التي يسكنونها، فإذا بسكان البدروم والأدوار الأولى يصعدون بأولادهم وأثاثهم إلى الأدوار العليا، بينما أخذ سكان الأدوار العليا في الهبوط، وتقابل الفريقان على السلم، فعلا الضجيج والصراخ، واشتبكت الأيدي، وعمت الفوضى. وبدا لي أن هذا الضجيج وهذه الفوضى يشبهان ما أخذ يظهر في مصر ابتداء من السبعينات.

بدا لي أيضًا أن من الطبيعي جدًّا أن يكون لهذا الحراك الاجتماعي السريع آثار مهمة على السلوك والأفكار؛ إذ إن مما يجب الاعتراف به أن من أشد العوامل أثرًا في نفسية

المرء مركزه النسبي في المجتمع، أو تصوره هو لهذا المركز ولنظرة الآخرين إليه. وكأن احتفاظ المرء بمركز «لائق» بين أقرانه ومن هو أقل أو أعلى منه، يكاد أن يكون «حاجة بيولوچية» تتعلق، من قريب أو بعيد، بالمحافظة على الحياة، وتشبه حاجة الطفل، ولو كان لا زال رضيعًا، إلى لفت الأنظار إليه، وإلّا انفجر بالبكاء والصراخ.

-٢-

في أثناء إعادة قراءتي لمجموعة الخطابات التي كنت أرسلها إلى أخي حسين كلما كنا في بلديْن مختلفيْن، (وكنت قد استعدتها من حسين واحتفظت بصور منها) عثرت على خطاب بتاريخ ٢٧ يوليو ١٩٧٢، أرسلته من كامبردج؛ حيث كنت أشتغل على كتاب «تمدين الفقر»، ووجدت في الخطاب، بالإضافة إلى الكلام عن أمور شخصية وعائلية، بضع فقرات تتعلق «بالحراك الاجتماعي» في مصر، دون أن أستخدم هذا الاصطلاح الذي لم أستخدمه إلّا بعد ذلك بأعوام كثيرة. تبينت من الخطاب أن الفكرة خطرت لي حتى قبل الانفتاح الاقتصادي، ولا بد أن السبب أن آثار الحراك الاجتماعي قد بدأت تظهر بوضوح بعد مرور عشرين عامًا على قيام ثورة ١٩٥٢. كتبت إلى حسين ما يلي (بالنص، باستثناء حذف سطر أو سطريْن بغرض تضليل القارئ عن اسم الشخص الذي أتكلم عنه، ولكنه «تضليل» لا ضرر منه بتاتًا في هذا الأمر الذي نحن بصدده):

«تؤرقني بشدة من حين لآخر فكرة أننا نعيش عيشة بورجوازية أكثر من اللازم: انقطعت صلتنا بالطبقات الأدنى من الناس، من ناحية، وتعودنا الترف – وهذا الكلام ينطبق على الأخوة جميعًا. وتعود إلى ذهني بهذا الصدد، من حين لآخر، صورة العائلة المنهارة في مسرحية تشيكوف: بستان الكرز.. إن فينا الصفات الطيبة التي تميز تلك العائلة، ولكننا أيضًا، ولا مؤاخذة، نحمل بذور التدهور! - فيما يبدو لي - هل ترى ما أعنيه؟ إن صورة المهندس حامد الذي يشتري أو يريد أن يشتري أرضنا بالتدريج، تذكرني من ناحية أخرى بصورة الرجل الذي أتى ليشتري بستان الكرز.. قد تحتقره حقًّا ولكنه هو صورة النجاح.. أرجوك ألا تقول: ولكن ما النجاح؟ إني بالطبع لا أقصد مجرد المال، وليس هو معيار النجاح في نظري.. ولكن يُخيّل إليّ أن هناك وراء

نجاح المهندس حامد (أو أشباهه) شيء آخر غير مجرد الشطارة المادية: هل هي العزيمة القوية؟ هل هو التقشف؟ هل هو الأمل في الارتقاء؟ لا أدري. كما تعود إليّ جملة ذكرها مرة السنهوري لأمين (عبد الحميد) عندما عرف أننا نبيع الأرض بالتدريج: «أليس هناك واحد منكم يستطيع أن يشتري الأرض من الآخرين لكيلا تخرج الأرض من العائلة؟». فكّر في الموضوع يا حسين فأنا أعتقد أنه جدير بالاهتمام ـ ولعلك تناقشه مع حافظ وأمين (عبد الحميد) وأحمد.. إني يطغى عليَّ الشعور بأننا يجب أن نلحق أنفسنا بسرعة.. قبل فوات الأوان. ودعني أستطرد إلى شيء آخر قد يلقى بعض الضوء على ما أعنيه. قابلت هنا من أسبوع شابًّا مصريًّا يصغرني بست سنوات. حصل على الدكتوراه من أمريكا في علم الاجتماع منذ شهر، وأتى إلى كامبردج ليحصل على المزيد من العلم، قبل أن يعود للتدريس في أسيوط: أي إرادة قوية يمتلكها! وأي حيوية ونشاط! لا تعتريه ذرة مما يعترينا (ويعتري الأخوة كلهم من «cynicism» و«apathy»..) وخطر لي فجأة هذا الخاطر المقلق: أهذا هو طراز جديد من الشبان سيحل محلنا؟ أصغر بستّ سنوات أو نحوها.. وهزيمة ١٩٦٧ لم تفعل به مثلما فعلت بنا (رغم أننا لا نقر بأثرها علينا).. وأهم من ذلك : ترى أي طبقة ينتمي إليها؟ لم أستطع بعد أن أتبين، ولكني أنوي أن أسأله عن طفولته.. وأكاد أقطع من الآن أني سأجد أنه يأتي من عائلة متواضعة الدخل، ووصل إلى الجامعة بفضل مجانية التعليم التي أدخلها طه حسين في ١٩٥٠ ثم عبد الناصر فيما بعد.. هذا الطراز لا نعرفه ولكننا سنصادفه أكثر فأكثر... هذا الطراز (أو الجيل إذا أردت) سيقود مصر خطوة أخرى إلى الأمام.. ماذا سيفعل بالضبط؟ لا أستطيع أن أعرف (ولكننا قد نصل إلى ذلك بالتفكير) ولكني شبه متأكد أن ما سيفعله هذا الجيل بمصر سيمثل نقلة أخرى شبيهة بما فعله عبد الناصر.. إن هذا الطراز مفتون بالغرب (وبالمناسبة مفتون أيضًا بالـ «gadgets»، ويفرح بها فرح الأطفال.. لماذا؟ لعل السبب مرة أخرى يرجع إلى طفولته) بينما نحن نترحم على التراث العربي (وبحق ربما). هل من المهم يا ترى أن هذا الطراز أيضًا لا يعي في ذاكرته تاريخ مصر قبل١٩٥٢؟ دعني أختم هذا بقولي: حذارِ.. حذارِ.. دعنا على الأقل نتوقع ما سيحدث حتى لا نصاب بصدمة يصعب علينا تحملها.. أو دعني أطرح عليك بعض الأسئلة: ما مغزى إحالة حمادة (أخي محمد) على المعاش، وما أصاب أمين (أخي عبد الحميد)، وحالة

أحمد النفسية السيئة، وما ذكرته أنت في خطابك عن سن الأربعين؟ تقول: «فكرة مؤلمة مع عدم تحقيقي لأي شيء غير تكويني لذاتي.. ووظيفة لا أبني بها مستقبلا أريده ولا وجدت فيها نفسي»، وما يصيب حافظ من خيبة أمل في تمثيل مسرحياته، وما أشعر به أنا من فقداني لطموحي القديم؟ هل من الممكن ألا يكون هناك عامل مشترك في كل هذا؟

أغفر لي إثارة هذا الموضوع إن لم تكن وجدت فيه ما أجد فيه من أهمية. وعلى العموم سنتكلم كثيرًا عند عودتي...».

-٣-

في ١٩٨٥، أي بعد كتابة هذا الخطاب بثلاثة عشر عامًا، كانت مظاهر الحراك الاجتماعي في مصر قد أصبحت بالغة الوضوح، فبدأت أبحث عن كتابات في هذا الموضوع، سواء عن الحراك الاجتماعي في مصر أو بصفة عامة. دهشت لقلة ما وجدت من كتابات لعلماء اجتماع مصريين عن ظاهرة الحراك الاجتماعي، ولكني أفدت كثيرًا من قراءتي لكتاب لعالم الاجتماع الأمريكي ذي الأصل الروسي «سوروكن» (P. Sorokin)، يحمل هذا الاسم نفسه «الحراك الاجتماعي» (Social Mobility)، ووجدت فيه ما يؤيد ملاحظاتي عن التغير في سلوك المصريين. فرحت جدًّا بالفكرة، وطلبت من إحدى الجمعيات الثقافية بالجامعة الأمريكية تنظيم محاضرة لي، وعرضت فيها ما توصلت إليه من أفكار، وسميت المحاضرة: «نحو تفسير جديد لأزمة الاقتصاد والمجتمع في مصر»، وكان هذا التفسير الجديد هو «الحراك الاجتماعي». أعطيت المحاضرة للدكتور محمد أحمد خلف الله لنشرها في مجلة مغمورة كان يصدرها في ذلك الوقت اسمها «اليقظة العربية»، عندما طلب مني الكتابة لها. فنشرت المحاضرة في جزأيْن في عددَيْن متتاليَيْن، ولم أسمع أن أحدًا قرأها إلّا الدكتور خلف الله نفسه؛ باعتباره رئيس تحرير المجلة. ثم أعدت نشر المقال مع مقالات أخرى في كتاب بنفس الاسم «نحو تفسير جديد..»، نشرته لي مكتبة مدبولي في ١٩٨٩، فلم يستجب له أحد هذه المرة أيضًا، والأرجح أن مما أضرّ بالمقال حينئذ، نشره مع مقالات أخرى في موضوعات مختلفة ومتفاوتة الجودة.

على أي حال، لم يفت في عضدي قلة ما صادفته الفكرة من تأييد أو تشجيع؛ إذ كنت واثقًا من صحة الفكرة. ثَمَّ نسيت المقال تمامًا نحو عشر سنوات، ولكن ظلت فكرة الحراك الاجتماعي تدور في ذهني كلما صادفت ظاهرة اجتماعية يمكن أن يلقى عليها الحراك الاجتماعي ضوءًا ما. في سنة ١٩٩١ أخبرتني مجلة «الهلال» بأنها تزمع فتح ملف بعنوان «ماذا حدث للمصريين؟» يسهم فيه بعض كتّابها بالإجابة عن هذا السؤال من أي زاوية يشاءون. أعجبتني الفكرة، وكنت وقتها أفكر في المقارنة بين نمط حياة ابنتي المتزوجة والموظفة والمشغولة باستمرار بأعمال خارج المنزل وداخله، وبين طريقة حياة أمي التي لا أتذكر أن شيئًا كان يشغل وقتها إلّا شئون البيت والأولاد، وعلى الأخص طهي الطعام. كتبت مقالًا للهلال عن ثلاثة أجيال من النساء المصريات؛ إذ أضفت جيل أختيّ إلى جيل أمي وجيل ابنتي. وفى الشهر التالي خطر لي أن أكتب في نفس الموضوع «ماذا حدث للمصريين؟» ولكن بتناول ما حدث من تغير في نظرة المصريين للقطاع العام والقطاع الخاص. وهكذا استمرت كتابتي شهرًا بعد شهر، حتى فكّرت في جمع هذه المقالات في كتاب بعنوان «ماذا حدث للمصريين؟». ولكني عندما أعدت قراءة المقالات التي نشرت في مجلة الهلال فوجئت بأن فكرة الحراك الاجتماعي تسري في كل المقالات، ربما من دون استثناء، فتذكرت مقالي القديم عن هذا الموضوع، والذي كتبته منذ ثلاثة عشر عامًا، فقررت أن يكون هو الفصل الأول في الكتاب، على أن تصبح المقالات الأخرى بمثابة «تطبيقات» له.

ظهر الكتاب في ١٩٩٨، منشورًا في سلسلة «كتاب الهلال»، ففوجئت بالترحيب الشديد به، وإقبال القراء عليه، وكثرة ما كتب في الثناء عليه في الصحف والمجلات، ثم بقرار الهيئة العامة للكتاب بأن تعيد طبعه في مكتبة الأسرة، فتطبع منه خمسين ألف نسخة، بمقتضى تعاقد بين الهيئة ودار الهلال. ثم سرعان ما سمعت أن هذه الخمسين ألف نسخة قد نفدت بدورها فأعادت دار الهلال إصدار طبعة ثالثة. وأغرى هذا الجامعة الأمريكية بإصدار طبعة إنجليزية منه فتعاقدت عليها معي، ولكن المترجم الذي اختارته الجامعة أساء الترجمة فاضطررت إلى ترجمة الكتاب بنفسي من جديد، وإذا بالطبعة الإنجليزية تصادف نجاحًا كبيرًا بدورها، فظهرت منها ثلاث طبعات في أقل

من عام، وبلغت حتى الآن ١١ طبعة، كما استمرت إعادة طبع النسخة العربية، مرة بعد أخرى.

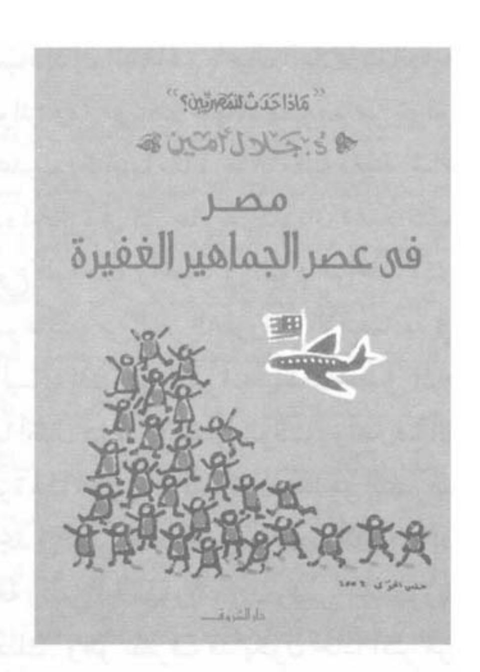
-٤-

كان هذا الكتاب «ماذا حدث للمصريين»؟ بلا شك أنجح كتبي طرًّا، وكان من أكثر ما سرني في نجاحه أن كثيرًا من فصوله اختلط فيه الشخصي بالعام، الذكريات الخاصة بي أو بأسرتي، بالتغيرات التي طرأت على المجتمع المصري ككل. وقد طمأنني هذا على أني أستطيع أن أتكلم عن أمور ذاتية دون أن أفقد قارئي أو أصيبه بالملل. إنه سرور أقرب، إذن، إلى سرور كاتب القصة بنجاح قصته، الذي يفوق سرور عالم الاجتماع أو الاقتصاد باستقبال مقال أو كتاب له استقبالًا حسنًا. وكأن الرضا في الحالة الثانية هو رضا عن عمل قمت به، وفي الحالة الأولى رضا عني أنا شخصيًّا، وهو باعث أقوى على السرور.

أما حصول الكتاب على جائزة «أحسن كتاب في معرض القاهرة الدولي للكتاب»، فقد كان طريفًا أكثر مما كان باعثًا على الفخر. سرني بالطبع أن يتكرر ذكر الكتاب في الصحف والمجلات باعتبار أنه حصل على هذه الجائزة، خاصة أن تسميتها «جائزة أحسن كتاب» لا بد أن توحي بشيء عظيم للغاية، كما أن وسائل الإعلام تغطي هذا الخبر تغطية واسعة ومفصّلة لاقترانه باسم رئيس الجمهورية. ذلك أن الجائزة لا تزيد في الواقع على قيام رئيس الجمهورية بمصافحة الحاصل على الجائزة، ثم قيام وزير الثقافة في اليوم التالي بمصافحته مرة أخرى وتسليمه تمثالًا صغيرًا، ذهبيّ اللون، كتب عليه اسم الجائزة، واسم الحاصل عليها، واسم الكتاب الذي أعطي الجائزة من أجله. ولكن هناك من الملابسات الأخرى المرتبطة بهذه الجائزة ما لا يجب أن يبعث على الاغتباط على الإطلاق. أهم هذه الملابسات وأسوأها أنه من بين نحو عشر جوائز تعطى كل عام، تعطى الجائزة لنحو ستة أو سبعة كتب يمكن اعتبارها من أسوأ ما ظهر من كتب خلال العام. كتب لا يقرأها أحد، ولا يريد أحد أن يقرأها، ولكن مؤلفيها يحتلون مناصب كبيرة في ميدان الإعلام، كرئيس مجلس إدارة هذه الصحيفة الكبرى أو تلك،

د. جلال أمين
ماذا حدث للمصريين؟

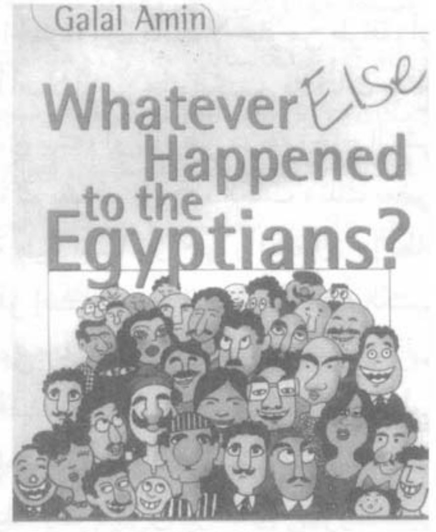




Galal Amin

Whatever Happened to the Egyptians?

Changes in Egyptian Society
from 1950 to the Present



From the Revolution
to the Age of Globalization

أو بعض المقربين جدًّا من رئاسة الجمهورية. بل لقد شاع الاعتقاد أيضًا أن هؤلاء الستة أو السبعة ليسوا هم حتى مؤلفي هذه الكتب؛ إذ إن انشغالهم بأعمال العلاقات العامة (الأكثر أهمية في تمكينهم من مثل هذه الجوائز وما هو أهم منها)، يمنعهم من توفير الوقت اللازم للكتابة، فيكلفون بعض مساعديهم بكتابتها مقابل مزايا مالية معينة. شاع مثلًا وصف أحد هؤلاء، ممن تعطى لهم هذه الجائزة في كل عام تقريبًا، بأن «عدد كتَّابه أكثر من عدد قرائه»، إذ يظهر له في الأسبوع الواحد، وأحيانًا في اليوم الواحد، أكثر من مقال وأكثر من عمود في مختلف الموضوعات، من آخر التطورات الاقتصادية في الصين، إلى المعنى الحقيقي للحب... إلخ. ليس، إذن، من المشرّف أبدًا أن يحصل المرء على جائزة «أحسن كتاب»؛ إذا حصل عليها أمثال هؤلاء في نفس الوقت. وأعترف أنه قد طاف بخاطري أن أعتذر عن قبولي الجائزة لهذا السبب. وقد يكون هذا هو التصرف الصحيح في مثل هذه الظروف، ولكني لم أجد في نفسي القدرة على مواجهة آثاره؛ إذ إن الاعتذار في هذه الحالة معناه رفض مصافحة رئيس الجمهورية، وإن رئيس الجمهورية أعلن أنه يريد لقاءك وتكريمك فرفضت ذلك. وهو تصرف قد يكون حادًّا أكثر من اللازم، وقد يخلق من المتاعب ما قد يكون ضرره في النهاية أكثر من نفعه.

من الملابسات البغيضة أيضًا في منح هذه الجائزة، وإن كانت لا تخلو من طرافة، أن اللجنة التي تقرر أسماء الكتب الفائزة، لا تقرأ أصلًا أيًا من هذه الكتب. فالكتاب يمنح الجائزة بناء على اسم الكاتب، على النحو الذي بينته، أو بناء على درجة إلحاح الناشر الذي يطمح إلى بعض الرواج لكتبه ونفوذه، ثم يضاف إلى هذه الكتب وتلك بعض الكتب الأخرى التي يتمتع مؤلفوها بسمعة طيبة نسبيًّا بين جمهور المثقفين. وإعطاء هؤلاء الجائزة يحقق هدفيْن مهميْن: الأول هو إضفاء بعض القيمة على تلك الكتب السيئة التي يعرف الجميع سبب حصولها على الجائزة، ومن ثَمَّ الإمعان في تكريم أصحابها الذين لا يستحقون التكريم في الحقيقة، والسبب الثاني هو ألا يصبح أمر الجائزة برمته أضحوكة لا تثير إلّا السخرية. بإضافة بعض الأسماء المقبولة، يصبح الأمر كله «معقولًا» بعض الشيء، وإن كان يخلق بلا شك بلبلة وحيرة لدى جمهور المثقفين والقراء، لا تختلف على أي حال عن البلبلة والحيرة التي تخلقها كثير من التصرفات الأخرى. ذهبت، إذن، لاستلام الجائزة في شهر يناير ١٩٩٩ وصافحت بالفعل رئيس

الجمهورية، ولكن المناسبة كانت من الطرافة والغرابة بحيث تستحق بلا شك أن تروى ولو باختصار.

تسلمنا الدعوة لحضور الاحتفال وقد كتب عليها أن الاحتفال يبدأ في العاشرة، ولكن المطلوب منا الوصول قبل ذلك بساعة. وجلست في مقعدي في انتظار وصول الرئيس. ولكن الساعة بلغت العاشرة والنصف ولم يكن الرئيس قد وصل بعد. خطرت ببالي فكرة ذكية وهي أن من الحكمة أن أذهب الآن إلى مكان دورة المياه قبل أن يصبح ذلك مستحيلًا، وأجد نفسي فجأة في وضع لا أحسد عليه. كنت أذكر، من مرة سابقة دعيت فيها إلى لقاء الرئيس بالكتّاب والمثقفين، أن دورة المياه الوحيدة في هذا المكان تقع وراء منصة الرئيس مباشرة، وأن الحراسة المفروضة عليها شديدة، وأن من الممكن جدًّا أن يمنع الناس من دخولها بعد وصول الرئيس. أسرعت إليها فاكتشفت على الفور أني كنت على صواب. فقد كانت دورة المياه الخاصة بالرجال قد تم تنظيفها وإغلاقها بالفعل، لكي تكون معدة لاستخدام الرئيس إذا شاء استخدامها. وأن الحجرة المفتوحة هي فقط تلك الخاصة بالسيدات، ولكن من المسموح للرجال استخدامها في هذه الظروف الاستثنائية. دخلت دورة مياه السيدات، وعدت إلى مكاني ظافرًا. وعندما سألني جاري، وهو أستاذ علوم سياسية مشهور في كلية الاقتصاد، عن مكان دورة المياه، أخبرته بمكانها وشجعته بشدة على استخدامها فورًا حيث لا يمكن التكهن بما سيحدث في المستقبل. أسرع الرجل إلى دورة المياه ولكنه عاد وقد ارتسمت عليه علامات الحزن، إذ وجد كلتا الحجرتيْن مغلقة.

سألت نفسي عن مصير المثقفين والكتّاب في هذه الظروف، ومعظمهم من كبار السن ممن لا يستطيعون بسهولة تأجيل مثل هذه الحاجات الأساسية التي تعتبر الثقافة والكتابة والإعلام بالمقارنة بها، من الكماليات والأمور الترفية. بدا لي هذا الوضع كوميديًّا للغاية، وإن كان أحد لا يستطيع التعبير عنه بصراحة، كما أن جمهور المشاهدين للحفلة على شاشة التليفزيون لا يمكن أن يخطر ببالهم ما يمكن أن يشعر به في ذلك الوقت بعض من أشهر كتّابنا وأكبر مثقفينا. فجأة، في حوالي الحادية عشرة، بدأت تحدث حركة غير عادية؛ إذ يدخل بعض الرجال ثم يخرجون في عجلة واضحة وعلى وجوههم

منتهى الجدية والصرامة؛ مما فسرته بأنهم من الرجال المسئولين عن حراسة الرئيس. ثم بدأ يدخل بعض الرجال من أصحاب الوجوه المألوفة لنا تمامًا، من كبار الصحفيين ورجال الإعلام وبعض الكتاب المشهورين من المقربين للرئيس، وهم في أكمل هندام ممكن، وعلى وجوههم سمات سعادة غامرة وصادقة، لا بد أن مبعثها قربهم المادي من رئيس الجمهورية. وفجأة هب جميع الجالسين واقفين، وانفجرت القاعة بالتصفيق؛ إذ ظهر قرب الباب وجه رئيس الجمهورية وعليه ابتسامة واسعة وهو يشير للمصفقين بالتحية.

بدأت كلمات التقديم والافتتاح، ثَمَّ ألقى الرئيس كلمة، ثم تتابعت الأسئلة والأجوبة، وهو ما استمر نحو ساعتيْن ونصف الساعة. وفى الواحدة والنصف بدأ الرئيس بالتحرك نحو الصالون المعد له، وكان قد قال في الرد على بعض سائليه إنه يمكن أن يعطيهم الإجابة عن أسئلتهم الحرجة في السرّ بعد انتهاء اللقاء العلني، فلا بد أنه سيلتقي بهؤلاء في الصالون ليخبرهم بإجاباته. ما إن ترك الرئيس المنصة حتى تدافع عشرات المثقفين في محاولة للخروج من القاعة ليقصدوا المبنى المجاور، ليستخدموا دورة مياه أخرى غير تلك الواقعة بجوار صالون الرئيس. ولكن حارسًا ضخم الجثة كان واقفًا عند باب الخروج، وأخبرهم بنبرة حاسمة لا تحتمل نقاشًا أن الخروج ممنوع حتى تبدأ سيارة الرئيس في التحرك، وهو ما لم يحدث بعد. ألقيت نظرة على بعض كبار المثقفين المصريين وهم يتلقون هذا الأمر بالانتظار، فلما عبر أحدهم عن استيائه، وصدرت منه عبارة يفهم منها حاجته الشديدة والعاجلة إلى استخدام دورة المياه، أجابه الحارس بأدب، ولكن بصرامة وحزم، بعبارة لا يمكن أن تجلب أي عزاء، مؤداها أنه هو نفسه في وضع مماثل لوضع سائر المثقفين.

* * *

في العام التالي تلقيت دعوة لحضور هذا اللقاء ولكن دون مصافحة الرئيس؛ حيث إني لم أؤلف كتابًا يستحق جائزة طوال العام، فلم أذهب إلى هذا اللقاء لأسباب لا يصعب على القارئ تخمينها. ولكن في السنة التالية (يناير ٢٠٠١) دعيت مرة أخرى لحضور هذا اللقاء، وما أشد دهشتي من أن هذه الدعوة كانت تقترن أيضًا بحصولي

على جائزة أحسن كتاب، للمرة الثانية، وذلك عن كتاب اسمه «وصف مصر في نهاية القرن العشرين». كنت قد جمعت ما اعتبرته أفضل مقالاتي عن الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية في مصر، التي سبق لي نشر معظمها من قبل في كتب لم تعد متاحة، ففضلت بدلًا من أن أعيد طباعة هذه الكتب أن أختار من فصولها فقط ما أعتبره جديرًا بذلك؛ حفاظًا عليها من الزوال التام. ونشرت لي دار الشروق هذا الكتاب خلال سنة ٢٠٠٠، فإذا به يحصل على الجائزة ويعلن عن ذلك في يناير ٢٠٠١.

كانت دهشتي من حصول هذا الكتاب على الجائزة تفوق الوصف ولا تزال. كنت أعرف العامليْن المهميْن اللذيْن يحددان حصول بعض الكتب على الجائزة، مما ذكرته من قبل: همة بعض الناشرين ونفوذهم، وحاجة هيئة الكتاب إلى ضم بعض الأسماء المقبولة من جمهور المثقفين لتبرير إعطاء الجائزة لبعض الأسماء غير المقبولة. ولكن كلا العامليْن لم يكونا كافييْن بالمرة لتبرير حصول كتابي «وصف مصر» على الجائزة؛ وذلك لسبب بسيط، وهو أن الكتاب كان يحتوي على بعض المقالات، التي قد يصل عددها إلى عشرة أو أكثر، والتي تحتوي على نقد شديد جدًّا، مليء بالسخرية التي قد تصل في نظر البعض إلى حد القسوة، من بعض الشخصيات المهمة للغاية، مما لا يمكن أن أتصور أن تسمح اللجنة التي تمنح الجوائز، بإعطاء الجائزة لمثله. لم يكن لديّ إلّا تفسير واحد كنت ولا أزال واثقًا من صحته، وهو أن الكتاب لم يقرأه أحد من أعضاء اللجنة، وأن المسئولين في رئاسة الجمهورية، الذين يفترض أنهم يراجعون مثل هذه القرارات قبل أن يقوم الرئيس بمصافحة شخص يكتب كلامًا من هذا النوع، صرفتهم مشاغلهم العديدة عن إلقاء نظرة ولو سريعة على محتويات الكتاب. المهم هو أني حصلت على الجائزة، وصافحت الرئيس وتسلمت التمثال، ولم يخبرني أحد حتى الآن بسحبها منّي.

(٢١)

١١ سبتمبر

-١-

في ١١ سبتمبر ٢٠٠١ وقع في الولايات المتحدة ذلك الحادث المروّع: سقوط البرجيْن الشاهقيْن لمركز التجارة العالمي في نيويورك، وتفجير وزارة الدفاع الأمريكية في واشنطن. كنا نظن وقتها أن فظاعة الحادث تتمثل في سقوط عدد كبير من القتلى الأبرياء الذين كانوا وقت التفجير في داخل البرجيْن أو في وزارة الدفاع (قيل في البداية إن عددهم خمسة آلاف ثم ظهر أنهم نحو ألفيْن). ولكن مع مرور الوقت تبين أن فظاعة الحادث الحقيقية تكمن في شيء آخر، وهو اتخاذه مبررًا من جانب الحكومة الأمريكية للقيام بأعمال أكثر بشاعة في أفغانستان ثم في العراق، واتخاذه مبررًا أيضًا لشن حملة شعواء لتشويه سمعة العرب والمسلمين، اتخذت أيضًا من جانب إسرائيل لتبرير أعمال القتل والتعذيب للفلسطينيين.

كان لفظ «الإرهاب» قد بدأ استخدامه قبل الحادث، ولكنه بعد ١١ سبتمبر أصبح شعار العصر، تُشن الحروب باسمه، وتبرر باسمه سياسات القمع الداخلي، حتى في داخل الولايات المتحدة نفسها، ويبرر باسمه أيضًا الاستمرار في إنتاج الأسلحة وبيعها على الرغم من زوال الخطر الشيوعي. وشاع ترديد لفظ الإرهاب في وسائل الإعلام حتى صدق الناس أنه ظاهرة حقيقية وخطيرة، على الرغم من أنه لفظ بالغ الغموض وخالٍ من المضمون، ويمكن استخدامه لوصف أي عمل لا يعجب القائمين «بمكافحة الإرهاب».

لم يستغرق التحقيق في الحادث أكثر من ساعات قليلة (بفرض أن كان هناك أي تحقيق على الإطلاق) أعلنت بعدها أسماء المتهمين بهذا العمل وصورهم، فإذا بهم كلهم إما سعوديون وإما مصريون. وكانت الأدلة المعلنة على هذا الاتهام من الضحالة والسخف، بحيث وُصفت بعد قليل في تقرير قانوني بريطاني بأنها لا تكفى حتى لتقديم أي شخص للمحاكمة، ناهيك عن إدانته.

مما أذكره أنه بعد ١١ سبتمبر بأيام قليلة، أدلى الرئيس حسنى مبارك بتصريح مؤداه إنكار ما تزعمه الإدارة الأمريكية من أن الذين قاموا بتفجيرات نيويورك وواشنطن هم من العرب أو المسلمين. وبعد هذا بيوم أو يوميْن نشرت جريدة الأهرام المصرية مقالاً لأستاذ مصري بكلية الهندسة يشرح فيه كيف أن من الممكن جدًّا أن يكون تفجير الطائرات قد تم بعمل من الأرض وليس بعمل إرهابيين من داخل الطائرة. ولكن الرئيس المصري سافر فجأة إلى فرنسا لمحادثات مع الرئيس الفرنسي، ومنذ ذلك التاريخ لم ينبس أي مسئول مصري بأي تصريح ينكر فيه التفسير الرسمي الأمريكي للأحداث، كما امتنعت وسائل الإعلام الرسمية في مصر عن ذكر أي تفسير يتعارض مع هذا التفسير، صراحة أو حتى بمجرد التلميح.

لم يستمر تصديقي للرواية الرسمية لأحداث ١١ سبتمبر أكثر من يوم واحد، استقر رأيي بعده على أنه لا العرب ولا المسلمون هم الذين ارتكبوا هذا العمل أو خططوا له. إذ بدت لي أسباب واضحة كالشمس تلقي بالمسئولية على غيرهم. لم يظهر لي أي سبب وجيه لتصديق ما تقوله الإدارة الأمريكية ووسائل الإعلام المسايرة لها، لا قدرات المتهمين الشخصية على ارتكاب هذه الأعمال الجهنمية، ولا شخصية المستفيدين الحقيقيين من هذه الأعمال، ولا السرعة التي تم بها توجيه الاتهامات على الرغم من خطورة ما حدث، ولا ما عرفناه بعد هذه الأحداث من معلومات عن مشروع القرن الأمريكي الجديد الذي ذكرت فيه حاجة الولايات المتحدة الماسة إلى حدوث حادث من هذا النوع، ولا ما تبع الأحداث مباشرة من استعدادات للهجوم على أفغانستان، ثَمَّ على العراق، دون ظهور علاقة بين أحداث سبتمبر وهذيْن الهجوميْن، مع إصرار الإدارة الأمريكية على وجود هذه العلاقة... إلخ.

-٢-

تلقيت دعوة بعد ١١ سبتمبر بخمسة أسابيع للالتقاء بالسفير الأمريكي (الذي رقي فيما بعد إلى وظيفة مساعد وزيرة الخارجية الأمريكية كونداليزا رايس) بمنزل الملحق الثقافي الأمريكي بالقاهرة (في ٢٢ أكتوبر ٢٠٠١)، مع عدد لا يزيد عن أربعة أو خمسة من الكتّاب المصريين، وذهبت متشوقًا لسماع ما يمكن أن يكون السفير راغبًا في قوله للمثقفين المصريين. وقد علمت فيما بعد أن مثل هذا اللقاء قد تكرر بين السفير ومجموعة صغيرة بعد أخرى من المثقفين والكتّاب. ولم يكن من الصعب اكتشاف الغرض من هذه الدعوات. فقد خرجت من هذا اللقاء مقتنعًا بأن توجيهات جاءت إلى السفير الأمريكي في القاهرة، ولا بد أن مثلها قد وجهت إلى سفراء الولايات المتحدة في عواصم كثيرة أخرى، خاصة العواصم العربية والإسلامية، مضمونها أن من الضروري إفهام الكتاب والصحفيين ممن يمكن أن يتناولوا أحداث ١١ سبتمبر بالتعليق والتفسير، أن الحكومة الأمريكية لن تقبل بأي حال أي تفسير لهذه الأحداث يتعارض مع تفسيرها. وقد دعم ما رأيته من شدة لهجة السفير وحدته وقسوته في الكلام معنا، اعتقادي بصحة التفسير الذي وصلتُ إليه، والذي يتعارض تمامًا مع التفسير الأمريكي الرسمي. في اليوم الثاني لهذا اللقاء بالسفير الأمريكي دوّنت ملخصًا لما دار من نقاش، وفيما يلي بعض ما دوّنته.

بدأ السفير كلامه بقوله: «ما الذي يمكن أن تطلبوا من سفير الولايات المتحدة أن يفعله في هذه الظروف التي نمرّ بها؟ ما تفسيركم لكون هذه المنطقة (يقصد العربية)، دون أي منطقة أخرى في العالم، تتخذ هذا الموقف المدهش والمرفوض تمامًا، مما حدث (يقصد الحادث الإرهابي). فعندما يموت كل هذا العدد الكبير من الناس في ١١ سبتمبر، لا يبدو منكم أي تعاطف، ولكن عندما تسقط بضع قنابل، عن طريق الخطأ، على المدنيين في أفغانستان، تجدون في هذا عملًا فظيعًا لا يمكن أن يغتفر.

كذلك فإنكم لا تبدون أي تعاطف إزاء مقتل عدد من الشباب الصغار في ملهى للرقص في إسرائيل (بأعمال إرهابيين).

طوال عشر سنوات من أعمال العنف في أفغانستان، التي وقعت في أعقاب انسحاب

الاتحاد السوفيتي من هناك، وتقتيل الناس بعضهم بعضًا (وكذلك في الجزائر)، لا يصدر منكم أي شجب ولا تعبير عن الغضب، ولا تفعلون أي شيء للتعبير عن إدانة هذه الأعمال، ولكن عندما نتدخل نحن، تتصرفون وكأن هذه نهاية العالم.

نعم، إني اعترف أننا (أي الولايات المتحدة) نتصرف أحيانًا وكأننا نكيل بكيليْن، ولكنكم أيضًا تفعلون نفس الشيء».

قلت له، بعد أن بقيت صامتًا مدة طويلة استمع فيها إلى ردود الآخرين:

«إنكم دولة عظمى، وتتصرفون باعتباركم كذلك، وأنا لن أحاول إلقاء مواعظ (حول كيف يجب أن تتصرف دولة عظمى)، ولن أقول إن عليكم مراعاة المبادئ الأخلاقية في تصرفاتكم. فليست هناك دولة عظمى تفعل هذا، لا في الحاضر ولا في الماضي. ولكني سأقول فقط إن توحّدكم التام مع إسرائيل جعلنا، نحن العرب والمسلمين، ندفع ثمنًا باهظًا. إنكم تشهرون بنا، وتشوهون سمعتنا أمام العالم كله، لمجرد أن هذا يخدم مصالح إسرائيل.

إننا شعب كريم وطيب، ونحن آخر من يغتبط بمصائب الآخرين.. ولكن كيف يكون شعورنا إزاء أحداث ١١ سبتمبر؟ في نفس وقت وقوع هذه الأحداث ارتكب الإسرائيليون أعمالًا فظيعة ضد الفلسطينيين، ليس في الشهر أو الأسبوع السابق بل في نفس الوقت، وننظر فنراكم تقفون دائمًا في صف إسرائيل. ما الذي يمكن أن تتوقعوا أن نشعر به؟ إن العقل الإنساني لا يعمل في جانبيْن مختلفيْن: جانب يتعامل مع ما يحدث للفلسطينيين، وآخر مع ما يحدث للأمريكيين. لا يمكن الفصل بين الاثنيْن.

إنكم تسيطرون على وسائل الإعلام، ليس فقط في داخل الولايات المتحدة بل في العالم كله، وقد استخدمتم ذلك لتشويه سمعتنا، نحن العرب والمسلمين.

إني لا أصدق أن بن لادن هو الذي فعل هذا. إن «الأدلة» التي قدمتموها «لـ«إثبات» ذلك لا تكفي، حتى لتقديمه للمحاكمة، ناهيك عن إدانته. (هنا أضاف مصطفى كامل السيد ووليد قزيها، أستاذا العلوم السياسية، أن التسعة عشر شخصًا الذين اتهموا بتنفيذ الانفجارات ثبت أن بعضهم لازال على قيد الحياة).

إني أعتقد فيما يسمى «بنظرية المؤامرة»، ولا يمكنني أن أشرح لك ما أقصده بذلك بالضبط أثناء تناولنا العشاء (قال المضيف ضاحكًا: ربما أثناء تناول القهوة!).

ما هذا الذي تقولونه عن أشخاص «لهم ملامح شرق أوسطية؟». إن أي شخص له «ملامح شرق أوسطية» تعتبرونه مجرمًا (باستثناء الإسرائيليين بالطبع). هذا موقف عنصري مائة في المائة.

ما الذي تتوقعون أن يشعر به رجل الشارع في مصر عندما يراكم تلقون بالقنابل على المسلمين، وتهددون العراق ولبنان وسوريا... إلخ. وهم أشقاؤه العرب والمسلمون؟ طبعًا لا بد أن يشعر أهل «هذه المنطقة» شعورًا مختلفًا عن شعور الآخرين؛ لأن في هذه المنطقة يعيش العرب والمسلمون.

هل خطر ببالك مرة أن الأعمال الإرهابية التي تحدث في مصر قد تكون من فعل الموساد؟ خذ مثلا مذبحة الأقصر (١٩٩٧). إن المصريين لا يمثلون بالجثث بعد قتل أصحابها. أو خذ حادث الاعتداء على نجيب محفوظ. إنه آخر شخص يمكن أن يثير غضب المتطرفين الإسلاميين، والمطلوب منا أن نصدق أنه اعتدي عليه بسبب رواية نشرها في ١٩٥٩ (أي قبل الاعتداء عليه بخمسة وثلاثين عامًا)، وهو بالمناسبة لم يسمح بإعادة طبع الرواية منذ ذلك التاريخ. ولكنه بالطبع كان وسيلة ممتازة للتشهير بالعرب والمسلمين في عيون العالم كله؛ إذ وقع الحادث في نفس اليوم الذي أعلنت فيه جوائز نوبل، وكان محفوظ قد حصل على نفس الجائزة قبل ذلك بسنوات قليلة.

كيف ينتقد السيد الملحق الثقافي (الذي كان حاضرًا) المثقفين المصريين؛ لأنهم يقاطعون مقهى في وسط البلد (كان قد ذكر مقهى بجوار مطعم الجريون، هل يقصد مقهى ريش؟) وهو الذي بدأ يقصده إسرائيليون من محبي السلام؟ ما الذي يتوقعه الملحق الثقافي؟ إن قليلين جدًّا من المصريين هم من يعتقدون أن هناك شيئًا اسمه «إسرائيلي محب للسلام»، إذا عرّفنا السلام تعريفًا معقولًا. (هنا اعترض د. طه عبد العليم قائلًا إن ٥٠٪ من الإسرائيليين يريدون السلام، فرددت عليه بأنه واحد من هؤلاء المصريين القليلين جدًّا الذين يصدقون هذا، أنت ولطفي الخولي. تدخل هنا د.مصطفى كامل السيد قائلًا: إن جميع الإسرائيليين تقريبًا يؤيدون شارون).

ما المعاملة التي يتوقع الملحق الثقافي منا أن نعامل بها الإسرائيليين وهم الذين سمموا كل جوانب حياتنا (السياسية والاقتصادية والثقافية) لمدة تزيد عن خمسين عامًا؟».

بعد انتهاء العشاء، حاولت أن ألطّف الجوّ قليلًا فحكيت للسفير قصتي مع أستاذي الإنجليزي ليونيل روبنز، أثناء دراستي في لندن، عندما بدأت أنتقد له السياسة الإنجليزية وكيف أدت إلى تعطيل التصنيع في مصر في فترة الاحتلال؛ فأجابني روبنز بقوله: «إن هذا ليس صحيحًا على الإطلاق، لقد كنت أعمل وقتها في وزارة الخارجية البريطانية ولم يحدث بالمرة شيء كهذا!». (كنت أقصد برواية هذه القصة للسفير الأمريكي أن أقول له إن أشخاصًا طيبين للغاية ـ مثل روبنز مثلًا ـ وربما مثله هو أيضًا ـ قد لا يكونون واعين بالمغزى الحقيقي لما تفعله حكوماتهم بشعوب أخرى، على الرغم من وظائفهم التي يظنون أنها قريبة من مراكز صنع القرار).

رويت له أيضًا نكتة أخرى عن الفرق بين العمل الإرهابي وغيره، وهي أن الشخص إذا ضرب أحد المباني من الجنب فهو إرهابي، ولكنه ليس إرهابيًّا إذا ضربه من فوق!

قرب نهاية اللقاء قال السفير:

«إذا كان هذا هو شعور الناس في هذه المنطقة، فيجب أن تتوقعوا أن «يجري عزلهم» (being isolated) عن بقية العالم..» (كان هذا هو تهديده الأول!).

وأضاف:

«إذا كان الأمر كذلك إذن، فإن عليَّ أن أنصح حكومتي بأن تسعى لحل المشكلة الفلسطينية ثَمَّ تنسحب بعد ذلك تمامًا إلى داخل حدودها، ولا يكون لها شأن بالمرة بعد ذلك بهذه المنطقة.. (يقصد المساعدات الاقتصادية... إلخ)» (كان هذا هو تهديده الثاني).

* * *

الذي أدهشني جدًّا أننا قبيل انصرافنا، وبعد أن قلت له نكتتي عن الإرهابي، اقترب مني وهمس في أذني قائلًا إنه «لو لم توجد سيدات في الغرفة لقال نكتة لطيفة عن بن لادن، ولكنها ليست نظيفة تمامًا!» أي أنه، على الرغم من كل شيء، إنسان طيب ولا يختلف كثيرًا عن غيره من الناس.

-٣-

في الشهور التالية لهذا اللقاء مع السفير الأمريكي، كتبت عدة مقالات أعبر فيها عن رفضي البات أن أصدق هذه الرواية الرسمية، ونشرت كتابًا بعنوان «عولمة القهر» ضم بعض هذه المقالات. وعندما مرّ ما يقرب من عام على أحداث ١١ سبتمبر، طلب مني المشرفون على تنظيم محاضرات عامة باللغة العربية في الجامعة الأمريكية بالقاهرة أن ألقي محاضرة في نفس يوم ١١ سبتمبر، في ذكرى مرور عام على الحادث، وأن أتكلم فيها عن مضمون كتابي «عولمة القهر»، فقبلت وألقيت بالفعل محاضرة باللغة العربية كان معظمها يدور حول أسباب رفضي الرواية الرسمية الأمريكية بإدانة بعض العرب والمسلمين بتدبير هذا العمل.

امتلأت القاعة الشرقية بالجامعة بالحاضرين من داخل الجامعة وخارجها، وكان من بينهم، كما نبهني البعض، أحد كبار موظفي السفارة الأمريكية بالقاهرة ممن يفهمون العربية. وفهمت من ردود المستمعين بعد انتهاء المحاضرة، وما ذكروه من تعليقات في المناقشة التي تلتها أن المحاضرة كانت ناجحة تمامًا، وأن معظم الحاضرين وجدوا وجهة نظري معقولة جدًّا، وأن هناك بالفعل أسبابًا قوية لرفض الرواية الرسمية عن أحداث سبتمبر.

بدأت هذه المحاضرة بالتعبير عن رفضي للزعم بأن الذين دبروا أحداث ١١ سبتمبر مسلمون أو عرب، فإذا قيل إن موقفي هذا ينطوي على استهانة بأرواح ضحايا الحادث أجبت بأن الاحترام الحقيقي لأرواح هؤلاء الأبرياء، هو بالكشف عن الحقيقة وليس بتصديق أي شيء يقال عن مرتكبي الحادث. قلت أيضًا إنني لن أحاول تقديم تفسير بديل للحادث بل سأتصرف كالمحامي المقتنع بأن المتهم بريء فيقبل الدفاع عنه، ولكن ليست مهمته القبض على المجرم الحقيقي، وإنني وإن كنت أرتاح لتفسير معين وتحديد معين لشخصية المجرم الحقيقي أكثر مما أرتاح لغيره، فإني لن أخبركم به. سأحاول فقط تبرئة المتهم، أي العرب والمسلمين. ثَمَّ ذكرت ثمانية أسباب لرفضي الرواية الرسمية ملخصها ما يلي:

السرعة المدهشة التي تم بها تحديد المذنب وتوجيه الاتهام إليه، مع أن المرء لا بد أن يتوقع عكس ذلك في جريمة كبيرة من هذا النوع وذات آثار مروّعة بهذه الدرجة. إن هذه السرعة تظهر الإدارة الأمريكية بمظهر من يهمه إعلان الاتهام أكثر مما تهمه معرفة المجرم.

المصادفة الغريبة في أن الذين يوجه إليهم الاتهـام، الذين يسمون بالمتطرفين الإسلاميين، لم تكف الولايات المتحدة عن توجيه الاتهامات إليهم وتحقيرهم منذ أكثر من عشر سنوات، بمناسبة أو غير مناسبة، حتى عندما يثبت أن الفاعل ليس منهم (كما حدث في انفجار أوكلاهوما مثلًا). والولايات المتحدة تظهر عاجزة تمامًا طوال عشرة أعوام أو أكثر عن القبض عمن تكيل له الاتهام. والمتهم الآن، وهو بن لادن، مهما بلغ ذكاؤه وألمعيته، هو في نهاية الأمر رجل بدوي بسيط، قليل الحظ من التعليم، بينما الولايات المتحدة أقوى وأغنى دولة في العالم، ولها جهاز مخابرات ممتد في مختلف بلاد العالم. وتاريخ المتهم لا ينسجم مع ما يوجه إليه من تهم، ففي بداية شبابه كان يقضي وقته لاهيًا في النوادي الليلية في بيروت، ثم اشتغل مقاولًا وجمع ثروة طائلة، ثم عمل في خدمة الولايات المتحدة مستخدمًا الإسلام في مكافحة النظام الشيوعي في أفغانستان، وأثناء ذلك تاجر في المخدرات، ثم يقال بعد هذا إنه انقلب فجأة ضد الولايات المتحدة بسبب شدة ورعه وتقواه. واستغربت أن يكون جهاز بقوة جهاز المخابرات الأمريكي عاجزًا عن اختراع قصص أفضل من هذه!

ضعف الأدلة المقدمة لإثبات التهمة على الإسلام والمسلمين، بل إن بعض هذه الأدلة يثير الضحك والسخرية، منها العثور على سيارة بالقرب من مكان الانفجار وفيها مصحف، وكتاب بالعربية عن طريقة قيادة الطائرات... إلخ، وهي حيلة لا يجرؤ على استخدامها أي مخرج مبتدئ لأي فيلم من أفلام الجريمة. فضلًا عن القول بأن بن لادن سجلت له مكالمة تليفونية قبل الحادث بأيام مع أمه في دمشق، يقول لها فيها إنه يزمع القيام بعمل خطير يوم ١١/ ٩! أما الأدلة التي لا تثير السخرية والضحك فمعظمها تذكر في غموض شديد ودون تفصيل، وتقول هيئات التحقيق الأمريكية بشأنها «إنها تكتفي بذلك لأن الإفصاح عن أكثر من هذا قد يضر بالقضية!».

السرية الغريبة والتكتم اللذان أحيط بهما التحقيق، ومنع أي شخص أو دولة من الإطلاع على نتائجه أولاً بأول، حتى ولو كان من الدول الصديقة والمهتمة بما حدث. فالاتهامات منذ اليوم الأول وجهت إلى السعودية ومصر، ومع ذلك ظلت الحكومتان المصرية والسعودية مستبعدتيْن تمامًا من متابعة ما يجري في واشنطن من تحقيقات. الدولة الوحيدة التي سمح لها بالمساعدة في التحقيق هي إسرائيل، وهي دولة لم تشتهر بحب الحقيقة المجردة عن أي مصلحة.

حملة التخويف التي أطلقت من اليوم الأول، تجاه أي شخص تسوّل له نفسه الشك فيما تقوله الحكومة الأمريكية، سواء كان أمريكيًا أو أجنبيًّا. وكأننا بصدد الكلام عن الهولوكوست الذي يحاكم من يتجرأ على إنكاره أو التقليل من عدد ضحاياه.

التذبذب في تصريحات الإدارة الأمريكية بشأن ما حدث بالضبط، والتناقض بينها وبين تصريحات أخرى أو بين وقائع لاحقة. فبعض الأشخاص التسعة عشر المتهمين بالاشتراك في تفجير الطائرات كعملية استشهادية، تبين بعد أيام أنهم لازالوا على قيد الحياة. والجمرة الخبيثة التي اتهم باستخدامها في البداية نفس المتهمين في حوادث التفجير، ظهر أن مصدرها أمريكي لا علاقة له بالإسلام والمسلمين. وأرقام الضحايا تبدأ بخمسة آلاف وتنتهي بثلاثة أو أقل.

من المستفيد من الجريمة؟ لا يمكن أن يكون المستفيد الإسلام أو العرب أو المسلمين؛ إذ ليست هناك دولة عربية ولا إسلامية استفادت مما حدث، ولا استفاد منه بن لادن ولا الإسلام. بل الضرر في حالتهم جميعًا محقق. إدا نُظر إلى حال العرب والمسلمين الآن بالمقارنة بحالهم قبل ١١ سبتمبر، سواء في أفغانستان أو فلسطين أو في أي بلد عربي صديق أو غير صديق للولايات المتحدة، تجد حالهم الآن أسوأ مما كان قبل الحادث.

وهؤلاء العرب والمسلمون الذين يُزعم أنهم خططوا ونفذوا الحادث يبدو أنهم، على الرغم من كل هذه الكفاءة التي أظهروها في التخطيط والتنفيذ، يبدو أنهم نسوا أن يحاولوا أن يحققوا أي منفعة مما فعلوه ومن المشاق التي تكبدوها. إنهم لم يوجهوا إنذارًا مثلًا إلى الولايات المتحدة بأنهم سيفعلون كذا وكذا إن لم تفعل الولايات المتحدة كذا

وكذا. بل نسوا حتى أن يتركوا ورقة صغيرة مثل التي يتركها المنتحرون عادة، يشرحون فيها أسباب عمليتهم الانتحارية. لا، لم يحدث شيء من هذا. ولكن انظرْ إلى من استفاد فعلًا من هذه الأحداث.

هناك أولًا الولايات المتحدة: خسرت طبعًا أرواحًا بريئة وبضعة بلايين من الدولارات ولكنها كسبت أشياء أخرى مهمة: تواجدًا عسكريًّا واقتصاديًّا مهمًّا في وسط آسيا؛ حيث توجد احتياطيات بترولية مهمة وحركة تنشيط كبيرة لصناعات السلاح الأمريكية، وأرباح كبيرة لأصحابها، وهم ذوو صلة وثيقة بمتخذي القرارات. هذا فضلًا عن وضع العالم كله في حالة التزام الأدب التام، في انتظار الأوامر المزمع إصدارها بصدد إعادة ترتيب العالم لصالح الولايات المتحدة وإسرائيل.

هناك أيضًا من بين المستفيدين: إسرائيل، التي استمرت في سياسة قمع الفلسطينيين والتنكيل بهم بعنف وجرأة أكبر بكثير مما كان قبل ١١ سبتمبر، كما جعلت العرب والمسلمين (بمن فيهم الفلسطينيون بالطبع) يبدون في نظر العالم، مثلما كان يبدو اليهود في ظل النازية. لقد أدت أحداث ١١ سبتمبر إلى قلب الموائد تمامًا، فأصبح العربي والمسلم الآن هو الذي يتمتع بكراهية العالم وازدرائه بدلًا من اليهودي؛ تمهيدًا بالطبع لأشياء أخرى سوف تأتي.

الغياب الكامل لأي تناسب، سواء في حجم العمل أو طبيعته، بين ما جرى في نيويورك وواشنطن في ١١ سبتمبر، وبين رد الفعل الأمريكي لما حدث. إن أمريكا بمجرد أن حدث الحادث قالت إنها ستشن «حربًا ضد الإرهاب». ما معنى هذا الكلام؟ إني أتصور شخصًا نزل على الأرض من كوكب آخر ولم يتعرض لعمليات غسيل المخ من جانب وسائل الإعلام كما تعرضنا، ثم سمع هذه العبارة «حرب ضد الإرهاب». ما الذي يمكن أن يفهمه منها؟ ما هذا الإرهاب الذي يمكن أن يُستأصل بـ«حرب»؟ وإذا فرضت أنك شننت حربًا ضده، فما الذي يضمن لك أنك تضرب الكوخ الصحيح، الذي يأوي إرهابيًّا، وليس الكوخ المجاور له؟

وما كل هذا الكلام الفارغ عن «محور الشر»، و«العدل المطلق» أو «الدائم»، و«الدول المارقة»؟ ما الذي جرى للغة السياسة؟ إذ من الذي يملك أن يحدد ما الخير، وما الشر؟

ومن الذي يعرف معنى العدل بالضبط ومعنى الظلم؟ والدول المارقة: مارقة ضد من؟ ومن الذي له حق الحكم فيما إذا كان هذا المروق محمودًا أو غير محمود، مشروعًا أو غير مشروع؟ إن تصرف الولايات المتحدة بعد تفجيرات سبتمبر يشبه تصرف رجل راكب في قطار، وصاح فجأة إن محفظة نقوده قد سرقت منه، ثم راح يطلق الرصاص على جميع الركاب بدعوى مكافحة السرقة؛ مما يجعلنا نشك في أن محفظته قد سرقت أصلًا.

قلت أيضًا في كلمتي إن التاريخ يعلمنا أن أي حرب كبرى وأي هجمة استعمارية لا بد لها من حادثة تسمح بخلق خطاب إنشائي يسهّل العمل، ويعطيه مبررًا أخلاقيًّا أمام الرأي العام؛ إذ إن الأهداف الحقيقية من الحرب أو الهجوم الاستعماري أهداف حقيرة من الناحية الأخلاقية. فالاحتلال الإنجليزي لمصر مثلًا في سنة ١٨٨٢، بدأ بحادثة شجار بسيط بين حَمَّار مصري ورجل مالطي من رعايا بريطانيا، حول الأجرة الواجب دفعها لصاحب الحمار. انقلب حادث الشجار إلى حادث قتل، ثم دخلت بريطانيا بجيوشها بدعوى الحفاظ على الأمن، واستمر الاحتلال نتيجة لذلك ٧٤ عامًا. ربما كان الاهتمام كبيرًا وقت وقوع حادث الشجار بتحديد المذنب، أهو الحَمَّار أم المالطي؟ ولكن بعد بضع سنوات، عندما ظهر أن الغرض كان هو الاحتلال، لم يعد أحد يبالى بما أدى إلى الاحتلال، بل حتى لا يذكره.

الحادثة المطلوبة الآن، لإعادة ترتيب العالم في أعقاب سقوط المعسكر الاشتراكي، لا بد أن تكون من نوع مختلف عن حادث الحمّار المصري والراكب المالطي، بما يتناسب مع ما طرأ على العالم من تغير خلال المائة والعشرين عامًا الماضية، ويتناسب مع حجم الرأي العام المطلوب الآن مخاطبته وإقناعه ونوعه. كان إقناع الرأي العام منذ ١٢٠ عامًا يكفي له شجار بين حَمَّار مصري وراكب مالطي، أما الآن فالأمر يحتاج إلى سقوط مبنييْن شاهقيْن، بحجم برجي مركز التجارة العالمي بنيويورك، ووزارة الدفاع في واشنطن. كذلك فإن تطور وسائل الإعلام والاتصال جعلنا نعيش عصرًا يختلط فيه إلى حد كبير الواقع بالخيال. القصص تُخترع، وتُخلط الصور بعضها ببعض (كوضع صورة برجي التجارة مثلًا وراء صورة بن لادن، وهو يدلي بحديثه لتليفزيون قطر)، والصوت يُزيف، والأحاديث المسجلة تختصر ويخلط بعضها ببعض. بل إن مجرد وضع صور معينة بعد غيرها، بترتيب معين، يمكن أن يخلق لدى المشاهد أي انطباع تريد أن

تخلقه. نحن نعيش في عصر حوّلت فيه وسائل الإعلام امرأة بسيطة وعادية هي الأميرة ديانا إلى قديسة، باستخدام عدد من الصور والتسجيلات. في مثل هذا العالم يمكن أن تجعل الناس يصدقون أي شيء بمجرد نشر الخبر والصور بطريقة معينة، وتكرار ذلك عددًا كافيًا من المرات.

في نهاية المحاضرة طرحت السؤال الآتي:

لنفرضْ أن الأمر تطور، مع مرور الوقت، إلى أشياء أخطر بكثير مما حدث بالفعل في ١١ سبتمبر، مثل: تسليم بترول قطر وغازها لإسرائيل، واقتطاع جنوب لبنان بمواردها المائية وتسليمها لإسرائيل، واستغلال الضعف المصري بإجبار مصر على قبول دولة جنوبية في السودان تسيطر على منابع النيل ولها أيضًا علاقات وثيقة بإسرائيل، وأن أعمال العنف الإسرائيلية انتهت بتحويل الفلسطينيين إلى ما كان عليه حال السود في جنوب إفريقيا قبل الإطاحة بحكم البيض... إلخ. ولنفرضْ أن هذا كله تم تحت شعار «مكافحة الإرهاب الذي تجلّى فى١١ سبتمبر». هل يصبح ما يقدم الآن من تفسيرات لحادث ١١ سبتمبر مما يمكن أن يقبله العقل؟

-٤-

فوجئت بعد أيام قليلة من المحاضرة بظهور مقالة بأهم جريدة يومية في مصر تحمل توقيع السفير الأمريكي بالقاهرة، وتذكر بصراحة محاضرتي في الجامعة الأمريكية، فتستسخف حججي، وتعبر عن استنكارها الشديد أن يقول أستاذ مصري مثل هذا الكلام في نفس الوقت الذي يتوافد فيه الناس على السفارة الأمريكية، معزين وآسفين ومعبرين من جديد عن حزنهم ومواساتهم، في ذلك المصاب الجلل الذي أصاب الأمريكيين في ١١ سبتمبر الماضي.

نُشر المقال باللغة العربية في جريدة الأهرام اليومية في ٢٠/ ٩/ ٢٠٠٢، وتحت عنوان «وضع النقاط فوق الحروف» وها هو ذا نص المقال:

«أعاد إلى الأذهان مرور عام على هجمات الحادي عشر من سبتمبر الإرهابية، الكثير

من الذكريات، وواكبه ظهور كتابات وتحليلات عدة في الإعلام المصري عن مدى أهمية هذه الأحداث، والتغير الذي طرأ على أمريكا والعالم منذ ذلك اليوم المشئوم. نحن نشعر بالامتنان تجاه الكتاب الذين جددوا تقديم التعازي لنا بهذه المناسبة، وكذلك للمساعدة التي توفرها مصر لتقديم المسئولين عن تلك الجرائم للعدالة. لقد أعرب الرئيس بوش عن شكره للرئيس مبارك على ذلك التعاون، مدركا أن المصريين يعلمون تمام المعرفة الأهوال التي يمكن أن تقع على أيدي هؤلاء الإرهابيين، ويتفهمون الحاجة إلى ملاحقتهم قبل إقدامهم على القيام بالمزيد من العمليات الإجرامية.

ومما يؤسف له أن حلول هذه الذكرى أفرز أصواتا أخرى كثيرة تلقي بالشكوك حول هوية مخططي ومنفذي هذه الهجمات، عارضين في هذا الإطار لمؤامرات غير مستساغة دون أي سند أو دليل يعضدها. فلقد شهد الأسبوعان الماضيان وحدهما مقالات لكبار الكتاب في صحف ومجلات مصرية بارزة، ألمحت إلى مسئولية حكومات أو جماعات ـ بخلاف تنظيم القاعدة ـ عن تلك العمليات الإرهابية، وأعطى الإعلام اهتمامًا كبيرًا ومصداقية لكتاب صدر عن مؤلف فرنسي كان قد تم دحض ادعاءاته جملة وتفصيلا عن طريق مؤلفين فرنسيين أكثر تدقيقا وحرصا على الحقائق. وفى ذات يوم إحياء ذكرى فجيعة الحادي عشر من سبتمبر، أخذ أستاذ علم اجتماع بارز، على مدار نصف الساعة من محاضرته المفتوحة للعامة، يحاول إلقاء ظلال الشك حول مسئولية تنظيم القاعدة، ذاهبًا إلى حد توريط الحكومة الأمريكية، مؤكدًا استفادة الولايات المتحدة من هذه الهجمات.

لا يوجد على الساحة الآن أي جدل جدي حول مسئولية القاعدة عن أحداث الحادي عشر من سبتمبر. لقد تقبلت معظم دول العالم الكم الهائل من الأدلة ضد هذا التنظيم، والتي تناولتها آلاف المقالات في الإعلام المستقل ببلاد عديدة، وهي مقالات متاحة لأي شخص عن طريق الإنترنت. إضافة إلى ذلك، أقر تنظيم القاعدة بمسئوليته عن تلك الجرائم في لقاءات عقدت مع مراسل قناة الجزيرة يسري فودة في شهر يونيو، وتم بثها الأسبوع الماضي. لذا فإنه من الصعب بمكان تفهم إغفال المعلقين لجميع الأدلة المتاحة. وفي مقدمتها الاعترافات المشار إليها.

إن استمرار تشكك كتاب وأساتذة مثقفين فيمن خطط ونفذ هذه الهجمات يدعونا للتساؤل: هل تم إمدادهم بمعلومات خاطئة، أم هم ببساطة يشعرون باستياء شديد تجاه السياسة الأمريكية في تناولها لقضايا أخرى مما يحول دون تقبلهم الحقيقة في الموضوع الذي نحن بصدده؟ إذا كان السبب الافتراض الأول، فإن مصادرهم معيبة ومغلوطة. أما إذا كان رد الفعل العاطفي البعيد عن الموضوعية وراء هذا التشكك المستمر، فإنهم بذلك يسيئون لقيمة إعلاء الحقيقة وتوخي الدقة في الكتابة.

إنه لمن المحزن أن مثل هذه الاستهانة بالحقائق في مسألة خطيرة كتلك، من الممكن أن تلحق الضرر بسمعة الإعلام المصري في أعين العالم. لذا أتمنى أن يأخذ رؤساء التحرير ذلك في الاعتبار عند مراجعتهم المقالات قبل نشرها. الإعلام المسئول يجب - على أقل تقدير - أن يكرس لنشر الحقيقة وليس الأكاذيب، ويتعين على الناس معرفة الفارق».

بمجرد ظهور مقالة السفير الأمريكي تتابع ظهور مقالات وتعليقات في صحف المعارضة المصرية، تحتج بشدة على هذا التصرف «غير المسبوق» من سفير أجنبي، واعتبره الصحفيون المصريون «تدخلًا سافرًا وغير مقبول» في حرية الرأي في مصر، من دولة تزعم أنها ترفع لواء الحرية، خاصة وأن المقال تضمن ما اعتبره هؤلاء الصحفيون تهديدًا صريحًا لرؤساء تحرير الصحف المصرية ومطالبتهم بوقف نشر آراء تلقى الشكوك حول الرواية الأمريكية لأحداث ١١ سبتمبر. وأصدر بعض الصحفيين المصريين بيانًا وصف السفير الأمريكي بأنه يتعامل مع الإعلام المصري «وكأنه يخاطب عبيدًا أو رعايا إحدى جمهوريات الموز».

* * *

كان كل يوم يمر على حادث ١١ سبتمبر يؤكد لي صحة تفسيري له وللدوافع الحقيقية وراء حدوثه. من ذلك ما لاحظته من أن التحقيقات التي يعلن عنها كثيرة، والقبض على المشتبه فيهم باعتبارهم «إرهابيين»، لا يتوقف، ولكن ما السبب في هذه الندرة المدهشة فيما يذاع علينا من نتائج التحقيقات؟ ما أكثر ما ينشر عن هذه الجرائم وضحاياها، ولكن ما أقل ما ينشر عن تفاصيل حياة المجرمين منذ نشأتهم، وعن بيئتهم الاجتماعية، وبالذات عن أقوالهم أثناء التحقيق معهم، ومضمون اعترافاتهم (إن كانوا

قد اعترفوا بشيء)، والأسباب التي قدموها لتبرير أفعالهم، على الرغم من الأهمية القصوى لهذه المعلومات والفائدة الكبرى التي يمكن أن نجنيها من ورائها لاجتثاث الإرهاب من جذوره. هل هناك يا ترى الكثير من نتائج هذه التحقيقات وهذه الأقوال مما لا يراد معرفته وإذاعته بين الناس؟

والشك يزداد كلما سمعنا عن شريط مسجل يصل إلى قناة تليفزيونية شهيرة، يحتوي على كلام وصور المفروض أنها لزعيم التنظيم أو مساعده، وقد ظهرت إلى جانب الزعيم أو المساعد بندقية، والكلام كله، عدا أنه يتضمن الاعتراف بالجريمة، يتوعد ويرهب بمزيد من الهجوم والمزيد من الخراب، ففي هذا كله أكثر من شيء محير. القناة التليفزيونية التي تذيع هذه الشرائط المسجلة تنتسب إلى دولة بينها وبين الدولة المعتدى عليها، صداقة حميمة، فلماذا لم تتدخل هذه الدولة الكبرى أو تلك الدولة الصغيرة الصديقة، لمنع إذاعة مثل هذه التسجيلات مع أن هناك سببًا وجيهًا للظن (إذا كانت النظرية السائدة عن الإرهاب صحيحة) بأن هذه التسجيلات قد تحفز بعض المجرمين المحتملين على أن يصبحوا مجرمين حقيقيين؟ هناك شيء آخر محيّر. ففي إحدى قصص «علي بابا والأربعين حرامي» أرسلت مرجانة (خادمة علي بابا) من يسير وراء اللصوص حاملًا كيسًا من الدقيق به ثقب، فكان يسقط منه الدقيق طوال سيره حتى وصل إلى بيت اللصوص، وبهذا تمت معرفة مكانهم وسهل القبض عليهم. فهل أجهزة المخابرات العالمية عاجزة حقًّا عن ابتداع طريقة مماثلة لتتبع الشخص القادم بالشريط، وهو في طريق عودته بعد ذلك إلى قادة التنظيم؟

ثم إن الثمن الذي يدفعه المنتحر، وهو حياته، لا يبدو أنه يتناسب أبدًا مع ما يطلبه، أو ما يزعم أنه يطلبه، وهو تحرير فلسطين. لا أعني بذلك بالطبع أن تحرير فلسطين أو العراق ليس مطلبًا غاليًا يستحق التضحية من أجله بالنفس والنفيس، ولكني أقصد المقارنة بين حجم التضحية (قتل النفس) وبين حجم الأثر المحتمل لهذه التضحية في تحقيق هذا التحرير. بعبارة أخرى، ما نوع التفكير الذي طاف بذهن مرتكب الجريمة ودفعه إلى الاعتقاد بأن تفجير بعض عربات مترو الأنفاق في لندن، أو حتى برجي التجارة العالمية في نيويورك، يمكن حقًّا أن يؤدي إلى تحرير العراق وفلسطين، وبأن

احتمال أن يتحقق هذا التحرير كبير لدرجة تبرر التضحية بنفسه؟ تفكير غريب وغير طبيعي وغير متوقع.

ثم ألا يجدر بنا أن نسأل: أليست هناك نسبة معينة من المقبلين على الانتحار يتوقع أن يعيدوا التفكير في الأمر، وأن يعدلوا عن فكرتهم الفظيعة؛ بسبب الدافع الطبيعي للتمسك بالحياة والخوف الطبيعي من الموت؟ أليس من الطبيعي جدًّا أن يفكر بعض هؤلاء في الذهاب إلى أحد أقسام الشرطة، ويعلنوا عن ندمهم وتوبتهم، بل قد يبدون استعدادًا للإفصاح عن أسماء زملائهم وموجهيهم إلى هذا العمل الخطير؟ أليس غريبًا أن هذا لا يحدث أبدًا؟ الانتحار دائمًا يتم، ولا يتحول أبدًا إلى شروع في الانتحار أو عدول عنه. شيء يثير الريبة حقًّا!

-٥-

ابتداء من السنة التالية لوقوع الحادث (٢٠٠٢) أخذت منظمة من منظمات الأمم المتحدة، وهي المسماة ببرنامج الأمم المتحدة (UNDP) تنشر تقارير سنوية، غريبة وغير مألوفة، بعنوان: «تقارير التنمية الإنسانية العربية» (Arab Human Development Reports). وجدت هذه التقارير مملوءة بالنقد اللاذع للأحوال العربية في مختلف المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية، وعلى نحو لم نألفه ألبتة في طريقة حديث الأمم المتحدة عن أي دولة من الدول الأعضاء فيها. لم يتطرق إليَّ أي شك في أن توقيت إصدار هذه التقارير كان جزءًا من الإجراءات التي قصد منها خدمة المخطط الرئيس بإعادة ترتيب المنطقة العربية بما يتفق مع مصالح الولايات المتحدة وإسرائيل، بما في ذلك إحكام السيطرة على مصادر النفط وإخضاع توزيع إمداداته وأرباحه لما تمليه هذه المصالح. وقد زاد من ثقتي بصحة هذا التفسير ما صدر عن الإدارة الأمريكية من تصريحات، بما في ذلك تصريحات للرئيس الأمريكي نفسه وبعض كبار مساعديه، تقتطف فقرات من هذه التقارير وتقدمها كمبرر للتدخل العسكري في العراق.

وجدت التقرير الخاص بأحوال التعليم والمعرفة في العالم العربي، والذي حمل العنوان

الفرعي التالي: «نحو إقامة مجتمع المعرفة»، مثيرًا للاستياء والسخرية بوجه خاص. لم يكن عيبه أنه نسب إلى العرب من النقائص ما ليس له وجود؛ فالنقائص التي ذكرها التقرير صحيحة، كلها تقريبًا، ولا أحد راضٍ عن حالة التعليم والمعرفة في العالم العربي، ولكن العيب كان في الطريقة التي عرضت بها هذه النقائص، وذكرها مبتورة عن السياق السياسي العام الذي أدى إليها، فبدا التقرير أقرب إلى السب والقذف منه إلى التحليل، وبدا الدافع الحقيقي وراءه أقرب إلى تشويه السمعة والإذلال منه إلى الإصلاح.

هكذا قرأت التقرير وهكذا وجدته، فكتبت عنه عددًا من المقالات أحاول فيها التنبيه إلى خطأ الإشادة بهذه التقارير وعدم الالتفات إلى دوافع إصدارها في هذا الوقت بالذات الذي تشير فيه كل الدلائل إلى وجود مشروع كامل لإعادة ترتيب المنطقة لا لصالح أهلها، بل لتحقيق مصالح متناقضة تمامًا مع مصالحهم. وقفزت إلى ذهني وأنا أطالع هذا التقرير الخاص بالتعليم والمعرفة ذكرى كتاب قديم صدر قبل هذا التقرير بخمسة وستين عامًا (في ١٩٣٨)، ويناقش نفس القضية التي يناقشها هذا التقرير، وهو كتاب «مستقبل الثقافة في مصر» لطه حسين. لم يكن هذا الكتاب يحمل إلّا اسمًا واحدًا، وهو اسم طه حسين، بعكس هذا التقرير الصادر من الأمم المتحدة الذي اشترك في كتابته عدد كبير من الكتّاب، ومن ثَمَّ فقد كان طه حسين هو وحده الذي يتحمل مسئولية الكتاب، ويتمتع فيه بمنتهى الحرية في تحديد ما يقول وما لا يقول، فلم يطلب منه ذلك هيئة دولية ولا «برنامج للإنماء». وعندما كان طه حسين يكتب صفحة من هذا الكتاب كان يعرف أن هذه الصفحة ستظهر كما هي في الكتاب، وليست كمجرد صفحة من «ورقة خلفية» من سلطة رئيس الفريق أن يبقيها أو يحذفها أو يعدلها، دون أن يكون هذا الرئيس مضطرًا لاستشارة صاحبها والحصول على إذنه في الحذف أو التعديل. فوق كل هذا كان الكاتب في حالة «مستقبل الثقافة في مصر»، ليس فقط رجلًا مرموقًا ومعترفًا بفضله، بل كان أيضًا رجلًا يعترف الجميع بأنه مفكر وصاحب موقف، قد تختلف معه ولكن موقفه واضح ولا يختفي وراء عبارات مبهمة، بعضها مبهم لأنه مترجم من لغة أجنبية، وبعضها مبهم لأن كاتبه يتعمد الإبهام.

كم تغيرت الدنيا في هذه العقود السبعة الماضية! فآلت مسئولية إصلاح أحوال

الثقافة والتعليم والمعرفة في البلاد العربية إلى هيئة لها اسم غريب هو «برنامج الأمم المتحدة للإنماء»، أهدافه مستوحاة من خارج المنطقة العربية، ولكنها لا تصرّح بهذه الأهداف وإنما تتظاهر بعكسها. وفى سبيل ذلك تعهد بأداء المهمة إلى مجموعة من العرب المرموقين يرأسهم «فريق مركزي»، يقوم هذا الفريق المركزي بتكليف كتّاب ذوي مشارب متفرقة ومتعارضة أشد التعارض؛ ففيهم اليساري واليميني، المؤيد بشدة للهجوم الأمريكي على العراق والمعارض بشدة، الأكاديمي المسالم والسياسي النشط، الغاضب غضبًا شديدًا على ما تفعله إسرائيل بالفلسطينيين، والمؤيد بشدة لأي مشروع للتصالح معها، المفكر واسع الأفق، والعالم المتخصص تخصصًا ضيقًا وقليل الصبر على قراءة قصة أو رواية... إلخ. هؤلاء جميعًا يُكلفون بكتابة أوراق خلفية وأمامية، ولكن بشرط واضح وصريح: أنهم متى سلموا هذه الأوراق انتهت مهمتهم، ولا يستطيعون مطالبة «الفريق المركزي» ، وهم في مقابل ذلك يعفون تمامًا من المسئولية عن الحالة التي يظهر بها التقرير في صورته النهائية. أما هذه الصورة النهائية، فهي لا تحتوي على أكثر من التشهير بالعرب، وإثبات عجزهم؛ مما يبرر بالطبع اتخاذ أي إجراء لقهرهم.

كم سرني إذن، أن أسمع ما حدث عندما أراد (برنامج الأمم المتحدة للإنماء) إصدار تقرير جديد عن أحوال العرب في سنة ٢٠٠٩، وعهد بمهمة «المنسق العام» إلى رجل أحبه وأحترمه. فقد لاحظ الرجل ما لاحظته من مصالح خفية تؤثر تأثيرًا قاطعًا في الشكل النهائي للتقرير، والصيغة النهائية التي يظهر بها، ومن ثَمَّ في نوع «الرسالة» التي يحملها التقرير للعالم، عن أحوال العرب. فانسحب الرجل قبيل صدور التقرير عندما رأى تجاهل المسئولين الكبار لما أبداه من ملاحظات من هذا النوع، وأعلن على الملأ أسباب انسحابه وفيها شبه قوي بما كتبته عن التقارير السابقة.

(٢٢)

لماذا تخيب الآمال؟

- ١ -

بعد عودتي النهائية من البعثة في لندن، كنا نحن الإخوة الثمانية، أو من كان منا في القاهرة في منتصف الستينات، نتقابل في كثير من أيام الجمعة في نادى الصيد بالدقي، وقد أتى كل منا مع زوجته وأولاده، فنجلس حول مائدة طويلة جدًّا؛ حتى تتسع لهذا العدد الكبير من الإخوة والزوجات والأولاد، ونحاول بمنتهى الاهتمام أن نختار أفضل المأكولات المتاحة لنا ولأولادنا، وقد وقف الخادم يتلقى الطلبات، وهو يتعجب بلا شك من هذا القدر من الأهمية الذي نعلقه على نوع الأكل المطلوب؛ إذ لا بد أن الأطباق كلها بدت في نظره متشابهة جدًّا، وتؤدي نفس الغرض، كما أدركت أنا فيما بعد، بعد أن تقدمت بي السن. ولكن آمالنا وطموحاتنا لم تكن تقتصر فقط على ما يمكن أن نحصل عليه من متعة الأكل، بل كنا بلا شك نطمح أيضًا إلى أشياء أخرى أهم، كأن يكون أولادنا أذكى الأولاد، وأن يصبحوا أنجح الأولاد وأغناهم، بل لم يكن يدور في أذهاننا شك كبير في أن هذا هو ما سيحدث بالفعل، فضلًا عن تحقيق كل منا، نحن الإخوة، كل ما يصبو إليه من نجاح وثراء وشهرة ومنصب كبير... إلخ. كم كنا نبالغ في اعتقادنا في الذكاء اللامع لهذا الطفل أو ذاك، أو في شخصيته الجبارة، ونستخلص أعظم النتائج من أي عبارة تافهة يفوه بها، أو من تصرف عادي جدًّا يصدر عنه.

أنظر الآن بعد مرور أربعين عامًا على تلك الأيام، فأجد أن الحياة لم تعاملنا المعاملة التي كنا نريدها أو نتوقعها، بل أساءت إلى صحة بعضنا، ومات بعضنا في سن صغيرة،

وخابت آمال معظمنا في الشهرة أو المنصب الكبير، كما خاب زواج الكثير من أولادنا، وتشاجر بعض الإخوة مع البعض الآخر لدرجة القطيعة الكاملة... إلخ.

كنت قد رأيت مسرحية «الملك لير» لشكسبير على المسرح أثناء دراستي في إنجلترا، وفتنت بها بشدة وأنا في الخامسة والعشرين من عمري، ولكن لم تسترعِ انتباهي فقرة *محزنة تصف بدرجة عالية من التشاؤم ما يحدث للناس مع مرور الزمن. ثم عدت* ورأيت نفس المسرحية من جديد وقد قاربت السبعين من عمري، وقرأت نص المسرحية قبل الذهاب لرؤيتها، فلفتت نظري الفقرة التالية وأثرت في نفسي بشدة. هذه هي بلغتها الأصلية: «Love cools, friendships fall off, brothers divide; in cities mutinies, in countries, discord, in palaces treason; and the bond cracked, twixt son and father».

وهذه هي ترجمتها:

«الحب يبرد، والصداقة تتصدع، والأشقاء ينقسم بعضهم على بعض. في المدن تمرد، وبين البلاد عداوة، وفى القصور خيانة، والحبل الذي كان يربط بين الابن وأبيه قد انقطع».

من منا لم يجد في حياته، إذا امتدت حياته إلى السبعين أو أكثر، مصداقًا لهذا القول أو لبعضه؟ إني لا أعتبر نفسي فاشلًا ولا بائسًا ولا قليل التعلق بالحياة، بل أجد نفسي راضيًا في معظم الأوقات، وقادرًا على الاستمتاع بأشياء كثيرة. كما أني لا أعتبر نفسي سيئ الحظ بالمرة، ومع هذا أستطيع أن أتفهم قول شكسبير وأن أتعاطف معه. بل أريد أن أضيف أسبابًا أخرى إلى الأسباب التي ذكرها شكسبير. فالجسم يضعف، والأحباء يفترقون... إلخ. ولكن المرء لا يحتاج إلى البحث عن أحداث من هذا النوع المأساوي لكي يفسر خيبة الآمال. فأظن أن الظاهرة حتمية حتى في ظروف الحياة العادية جدًّا؛ لسبب واحد أساسي: وهو أننا نبالغ جدًّا فيما نريده ونطمح إلى تحقيقه. وإذا كنا نبدأ بالطموح الزائد عن الحد، فما الذي يجب أن نتوقعه سوى تعرضنا للكثير من خيبة الأمل؟

إن كثيرًا من أسباب خيبة الأمل التي يتعرض لها الإنسان يشترك فيها الإنسان مع الحيوان بدرجة أو بأخرى: الجسم يضعف، والموت يفرّق... إلخ. ولكن هناك سببًا

لخيبة آمال الإنسان لا يعرفه الحيوان، أو الأرجح أنه لا يعرفه بنفس الدرجة، وهو قوة الخيال التي تدفع الإنسان إلى أن يمتد بآماله إلى آفاق بعيدة، فلا يتوقف عند الآمال التي يمكن تحقيقها.

نحن نتطلع إلى هدف ونتلهف على تحقيقه، فإذا حققناه سرعان ما نفقد الحماس له، بل ربما فقدنا حتى الرغبة فيه، فنتطلع ونتلهف إلى ما هو أبعد منه، ثم نفقد الحماس وربما الرغبة في هذا أيضًا بمجرد فوزنا به، ونتطلع إلى ما هو أبعد منه فإذا به عصيّ صعب المنال، فنصاب بخيبة الأمل.

تعجبني في التعبير عن هذا المعنى قصة جميلة لتولستوي عن رجل وجد نفسه أمام مساحة شاسعة من الأرض الخصبة والمثمرة فطمع في تملكها، فقيل له إن أي مسافة يستطيع أن يقطعها مشيًا أو جريًا، تجعل الأرض التي مرّ بها ملكًا له. ولكن بشرط واحد هو أن يعود إلى النقطة التي بدأ منها قبل اختفاء آخر شعاع للشمس. فرح الرجل بما عرض عليه وظن أنه لا يمكن أن يسفر إلّا عن مكسب صافٍ له. ولكنه إذ شرع في الجري واستولى على مساحة من الأرض، وجد أن قطعة أرض أخرى جميلة ظهرت أمام عينيْه فطمع في إضافتها إلى ما سبق له جمعه، وإذا بهذا الإغراء يتكرر حتى اكتشف بعد فوات الأوان أنه ذهب في جريه إلى أبعد مما يسمح له بالعودة قبل غروب الشمس؛ إذ لم يبق له لا من الوقت ولا من القوة ما يسمح بذلك.

هناك قانون يعرف باسم «قانون باركنسون» (Parkinson's Law) يجمع بين الطرافة والصدق في وصف البيروقراطية. ويقول إن الشخص يظل يترقى في السلم الوظيفي حتى يصل إلى أعلى مستوى من «قلة الكفاءة». وتفسير ذلك أن الإنسان كلما أجاد أداء وظيفة رقي إلى وظيفة أعلى منها؛ حتى يصل إلى وظيفة أكبر من قدراته، فيسيئ أداءها فلا يحصل على الوظيفة الأعلى منها؛ ويظل في هذه الوظيفة التي أساء أداءها إلى الأبد. أظن أن شيئًا مماثلًا يمكن قوله عن سعي الإنسان إلى تحقيق السعادة والنجاح والحياة. إذ كلما نجح في تحقيق أمل تاق إلى شيء أكبر منه؛ حتى يصل إلى مطمح لا يستطيع تحقيقه فيخيب أمله ويبقى ثابتًا على ذلك.

هكذا أشعر الآن، وقد تجاوزت السبعين، أني بنيت من الآمال أكثر بكثير مما يمكن تحقيقه، سواء لنفسي أو لأولادي أو لبلدي وأمتي. ولا أعتبر نفسي في هذا مختلفًا عن غيري. وهذا الشعور يضفى على الشيخوخة بالطبع بعض الحزن، وبعض الشعور بخيبة الأمل، الذي يتولد من إدراك يقيني بأنه لم يبقَ لا من الوقت ولا من القوة ما يسمح بالعودة إلى نقطة البداية، وفى أيدينا كل ما أملنا في جمعه خلال الرحلة.

-٢-

سمعت أبي أكثر من مرة، بعد أن بلغ الشيخوخة، يشكو من أن الدنيا «تعطى الحلق لمن لا أذن له»، وكان يقصد أن المال يأتي بعد أن يفقد المرء القدرة على الاستمتاع به، فلا يستطيع، مثلًا، التمتع بطعام شهي لأن الطبيب منعه من ذلك، ولا برؤية بلاد جديدة بسبب ثقل حركته، ولا بشراء هدية ثمينة لامرأة جميلة لأنه لم يعد لديه أمل في الحصول على حبها. ولكن ربما كان الأسوأ من فقد القدرة على التمتع بشيء ما، فقد الرغبة فيه أصلًا. فالأسوأ من أوامر الطبيب بالامتناع عن تناول طعام شهي أن يفقد المرء شهيته، والأسوأ من الفشل في الحصول على رضا امرأة جميلة فقدان الرغبة فيها من الأصل.

وفقدان الرغبة أو ضعفها قد يأتي لأكثر من سبب. هناك طبعًا تدهور الصحة أو ضعف الجسم بالتقدم في السن، ولكن هناك أيضًا مجرد التكرار. فكل المتع تبدو وكأنك جربتها من قبل، وكل البلاد تبدو وكأنك رأيتها، أو رأيت مثيلًا لها، فتغنى رؤية بعضها عن بعض. بل حتى الأشخاص الجدد الذين تقابلهم لأول مرة، سرعان ما تتبين أنك قابلت من قبل أشخاصًا آخرين من نفس الطراز؛ فتفقد الرغبة في رؤيتهم من جديد.

والرغبة قد تضعف أيضًا عندما تكتشف تفاهة الهدف الذي كنت ترمي إليه ولم تكن تدرك مدى تفاهته من قبل. أكتشف، مثلًا، أنني كنت أريد شيئًا لمجرد الرغبة في التفوق على غيري، ثم أدرك كم كانت هذه الرغبة سخيفة ولا طائل من ورائها. أو كنت أطمع في اقتناء بيت على شاطئ البحر أو في الريف أستريح فيه من عناء العمل، فيتبين لي أن المرء لا يملك كل هذا الوقت الذي يسمح له بالذهاب إلى شاطئ البحر أو إلى الريف

إلّا لمامًا، ناهيك عن الذهاب إليهما في نفس الوقت. وعلى أي حال، فما الذي جلبه لي هذا البيت أو ذاك من متع لم أكن أستطيع الحصول عليها وأنا قابع في منزلي، أو بالسير خطوات قليلة من منزلي إلى نادٍ قريب، أو مقهى صغير على شاطئ النيل؟

بنيت، مثلًا، منزلًا صغيرًا في دهشور، وقمنا أنا وزوجتي بتأثيثه ببعض الأثاث الضروري على أمل أن نقضي فيه بضعة أيام في العطلات. فما قد انقضى على بنائه وتأثيثه أكثر من خمسة عشر عامًا دون أن نقضي فيه ليلة واحدة. وإنما اقتصر استخدامنا له على زيارات قليلة لا تستغرق أي منها أكثر من بضع ساعات وتنتهي دائمًا قبل الغروب، بل كانت أغلب هذه الزيارات القليلة بدافع القيام ببعض أعمال الصيانة الضرورية أو لدفع أجرة الخفير وتسوية الحسابات معه. لم نكتشف نحن فقط هذا الأمر، بل سرعان ما اكتشفته أيضًا العصافير، فتصرفت تصرفًا عقلانيًّا تمامًا؛ إذ استغلت اتساع فتحات النوافذ الخشبية، التي كنا قد حرصنا على أن تكون ذات نقشة عربية جميلة، فدخلت وبنت أعشاشها واستقرت استقرارًا نهائيًّا في هذا البيت الذي هجره أصحابه، حتى أصبحتُ أتردد في فتح هذه النوافذ إذ أرى الجهد الذي بذلته العصافير في تجهيزها للإقامة.

نحن جميعًا نتحايل بالطبع على كل هذا بأن نضم أعمار أولادنا وأحفادنا إلى أعمارنا نحن؛ على أمل أن تتضاعف بذلك قدرتنا على الاستمتاع بمزيد من الثراء. وقد استغربت جدًّا قيام أحد أقاربي، وكان قد جاوز الثمانين من العمر، بشراء شقة في مصيف جديد بالقرب من مرسى مطروح بالإضافة إلى ما يملكه من منازل هنا وهناك. وعندما سألته عن سبب شرائه لهذه الشقة قال: «للمستقبل!». ولا بد أنه كان يعني بالإضافة إلى مستقبله هو، مستقبل أولاده وأحفاده. ولكن حتى بعد أن نضيف إلى أعمارنا أعمار أولادنا وأحفادنا، تظل قدراتنا كلنا على الاستمتاع بما جمعناه من أموال أقل بكثير مما نتصور.

ومع هذا فقد اكتشفت مؤخرًا ميزة عظيمة يتمتع بها كل من عرفته من الأشخاص الذين يتسمون بالحرص الشديد على المال والولع الشديد بجمعه وتكديسه. ذلك أن هذا الحرص الشديد وهذا الولع يؤديان إلى تبسيط رائع للأمور، ويجعلان الحياة مهمة

بالغة السهولة؛ إذ يعفيان صاحبهما من عبء اتخاذ الكثير من القرارات الصعبة. فترجمة كل شيء إلى شيء واحد هو زيادة المال أو نقصانه، تجعل كل شيء قابلًا للحساب، وكل المنافع والأضرار قابلة للجمع والطرح. بل إن مثل هذا الحب الشديد للمال قد يضفي على الحياة معنى قد تفقده بغير هذا الحب، ويخلق من الهمة والحماسة ما قد يفتقده امرؤ أكثر زهدًا في المال وأبعد نظرًا.

ـ٣ـ

منذ كنت صبيًّا صغيرًا كانت تستهويني ملاحظة علاقة الناس من حولي بعضهم ببعض. وقد لاحظت منذ وقت مبكر هشاشة هذه العلاقات، بل أظن أن كان لديَّ ميل طبيعي إلى ملاحظة هذه الهشاشة أكثر من ملاحظة الأمثلة العكسية على قوة العلاقات الإنسانية وصلابتها. ولازالت لديَّ كراسة كنت أدون فيها وأنا في الخامسة عشرة والسادسة عشرة من العمر أمثلة على ما كنت ألاحظه على علاقة أبي وأمي، أو علاقة الإخوة بعضهم ببعض مما كان يؤكد لي أن ما يقوله الناس بعضهم لبعض كثيرًا ما يختلف عن حقيقة مشاعرهم.

مع مرور السنين تأكدت هذه الفكرة في ذهني ولم أصادف في حياتي ما يكفي لدحضها أو حتى لإضعافها. نعم، الناس يحتاج بعضهم إلى بعض بشدة، ولكنهم أيضًا لا يطيق بعضهم البعض. نحن لا نستطيع أن نعيش فرادى، ولكننا أيضًا لا نطيق الآخرين. المثل المصري الشعبي الذي يقول: «الجنة من غير ناس ما تنداس» صحيح تمامًا، ولكن قول چان بول سارتر إن «جهنم هي الآخرون» صحيح تمامًا أيضًا.

أذكر أن أبي في السنوات الأخيرة من حياته كان كثير الشجار مع أمي لأسباب مهمة أحيانًا؛ ولأسباب تافهة في معظم الأحيان. وقد اشتد الخلاف بينهما مرة حتى خطر لأبي أن يترك البيت عدة أيام يقضيها عند أخي الأكبر في الإسكندرية؛ أملًا في أن «يريح أعصابه» على حد قوله. أعلن أبي عند خروجه أنه سيقضي في الإسكندرية أسبوعًا، ولكننا فوجئنا بعودته بعد يومين. وقد قال في تفسير عودته قبل موعده إن المرء

لا يستريح إلّا في بيته، ثم أضاف: «والقط لا يحب إلّا خنّاقه»، وهو مثل شعبي مصري آخر يعني أن الإنسان يشتاق إلى من يعرفه، ولو كان يقهره، كما يشتاق القط إلى صاحبه، مع أنه هو الذي يحيط رقبته بقيد لا يستطيع الفكاك منه.

أذكر أيضًا ملاحظة ذكرها برتراند رسل في مقال له عن شعور المرء منا إذا ركب طائرة ووجد شخصًا جالسًا إلى جواره؛ إذ يعتريه أولًا الخوف من أن يفرض هذا الجار نفسه عليه، ويقتحم عالمه الخاص فيفسد عليه وحدته، ومن ثَمَّ يلتزم كل منا الحذر ويتجنب أن يصدر منه ما يشجع هذا الجار على هذا الاقتحام. ولكن الأمر يتغير بمجرد حدوث أي حادث طارئ يبعث الخوف في نفوس الركاب، كخطر مفاجئ أصبح يهدد الطائرة مما قد يعرض الجميع للهلاك؛ إذ يحاول كل منا في هذه الحالة أن يستدر بعض الكلمات المطمئنة أو المهدئة ممن يجلسون إلى جواره. هنا تظهر فجأة حاجتنا الماسة إلى الآخرين وصعوبة الاستغناء عنهم.

* * *

عندما كنت في السادسة عشرة من عمري، ركبت باخرة من الإسكندرية إلى إنجلترا، وكانت مدة الرحلة ثمانية أيام يقضيها الركاب على الباخرة دون أن ينزلوا قط إلى الشاطئ، بل لا يرون خلالها منظر البرّ إلّا أثناء عبورهم مضيق جبل طارق. تعرّفت في الساعات الأولى من الرحلة إلى رجل مصري كبير السن، كان مثلي يشعر بوحدة قاتلة ويشتاق بشدة إلى اليوم الذي تصل فيه الباخرة إلى إنجلترا فيستقبله فيها واحد من أقاربه، بينما كنت أنا ذاهبًا لزيارة أخي وأختي اللذيْن كانا يعيشان وقتئذ في إنجلترا، وأتشوق أيضًا إلى رؤية أخي لدى نزولي من سلم الباخرة. أدى هذا الشعور المشترك بالوحدة إلى التقريب بيني وبين المصري العجوز على الرغم من أنه لم يكن ثمة شيء آخر قط يجمع بيننا. كان أحدنا يبتهج لدى رؤية الآخر ويبش له، يبحث عنه إذا حلّ وقت الغذاء أو العشاء حتى يتجنب كل منا تناول الطعام بمفرده أو مع مجموعة من «الغرباء». كان الذي يرانا خلال هذه الأيام الثمانية لا بد أن يظننا صديقيْن قديميْن، أو رجلًا وابنه. ولكن أنظر إلينا بمجرد اقتراب الباخرة من شاطئ إنجلترا، وقد انصب تفكير كل منا على الشخص الذي ينتظره على الرصيف، فقد انتهت الرحلة ولم يعد

أيُّنا في حاجة إلى الآخر. أثناء انهماكنا في حزم الحقائب والاستعدادات النهائية للنزول، فوجئ كل منا برؤية الآخر وهو يسير بسرعة لإتمام إجراء ما، قبل النزول من الباخرة، فلم يشعر أي منا بالحاجة للتفضل على الآخر ولو بابتسامة صغيرة، وإنما حيّا كل منا الآخر بسرعة وبرود قبل أن يفارقه إلى الأبد.

الأدلة كثيرة على أن حاجة المرء إلى الآخرين تعود في نهاية الأمر إلى حاجة بيولوچية دفينة. هكذا، مثلًا، يمكن أن ننظر ليس فقط إلى تقبيل الرجل لحبيبته والأم لطفلها، ولكن حتى إلى مصافحة المرء لصديقه، وارتياحنا للمسة اليد من قريب أو صديق، كما ترتاح القطة الصغيرة بلا شك لملامسة أمها أو أختها، وتلويحنا باليد لصديق أو قريب في قطار على وشك الرحيل؛ إذ قد نظل نلوّح له حتى يختفي القطار عن الأنظار، وكأننا بهذا التلويح بالأيدي نقصّر المسافة بيننا وبينه. لقد مررت في حياتي بمواقف كثيرة صادفت فيها وجوهًا مبتهجة لأناس من مختلف الأشكال والألوان والجنسيات، فلم أرَ تعبيرات تبلغ في صدقها وقوة دلالتها على الابتهاج والفرح مثلما رأيته على وجوه مستقبلي العائدين من سفر لدى خروجهم إلى صالة الاستقبال في المطارات، بدا لي هذا مثالًا نادرًا للفرح الحقيقي، فإذا بالوجوه العابسة والمقطبة تنفرج أساريرها، وكأن الروح تعود إلى الجسد بعد افتراقها عنه.

لا بد أن مثل هذه الحاجة الدفينة وراء فرحنا باستلام البريد، وبرنين التليفون، وبالرسائل الإلكترونية التي لا تتوقف ذهابًا وإيابًا، وارتياحنا في كثير من الأحيان لترك التليفزيون والراديو مفتوحيْن ليأتي إلينا منهما الصوت الإنساني باستمرار؛ حتى يتولد لدينا الشعور بأننا في صحبة آخرين، ولو كان ما يأتينا من هؤلاء الآخرين مجرد صوت دون مضمون مفهوم. بل إننا نفضل أحيانًا، إذا طالت بنا الوحدة، أن نرى شخصًا نستسخفه ونستثقل ظله، على أن نبقى على انفراد، وكأن جليس السوء كثيرًا ما يكون أفضل من الوحدة الكاملة، على عكس الحكمة الشائعة.

لسبب مماثل، بلا شك، يعتبر الحبس الانفرادي من أقسى ما يمكن أن يوقع على الإنسان من عقوبات، ولسبب مماثل أيضًا يذهب الرجل الوحيد إلى البارات، في الغرب، ليشرب كأسًا أو كأسيْن، إما لينسى بهما وحدته وإما ليتشجع بهما على محادثة

الغرباء. بل إنه ليخطر ببالي أحيانًا عندما أسمع خبر قيام رجل باغتصاب امرأة أو طفلة، خاصة في بلد أوربي أو أمريكي؛ حيث تشيع حالات المعاناة من شدة الوحدة، أكثر مما تشيع في بلادنا، وعندما لا يظهر أن الحرمان الجنسي كان سببًا ظاهرًا لواقعة الاعتداء، أن واقعة الاغتصاب قد تكون ـ في كثير من الأحيان ـ استجابة لهذه الحاجة الشديدة «للتواصل» الإنساني، أكثر منها للحرمان الجنسي، وذلك عندما يكون هذا التواصل مستحيلًا بأي طريقة أخرى طبيعية.

من المدهش أن الاقتصاديين، في دراستهم للاستهلاك، يكادون يهملون إهمالًا تامًّا أثر هذه الحاجة الملحة لدى الإنسان للتواصل مع الآخرين، على سلوكه كمستهلك، مع أن هذه الوظيفة الاجتماعية التي يحققها شراء السلع قد تكون أهم جوانب هذا السلوك استحقاقًا للتأمل.

فمعظم السلع التي نشتريها لا تكمن جاذبيتها في قدرتها على إشباع حاجة مادية بحتة، كغذاء للجسد أو كغطاء لاتقاء الجو، بل تكمن جاذبيتها في مساعدتنا على توصيل رسالة ما إلى الآخرين، تتعلق بالصورة التي نحب أن يرانا الآخرون عليها، فتأتي تصرفاتنا كمستهلكين كمحاولة لخلق الصورة المطلوبة. كذلك في ممارسة الرياضة، إذ فلتقارنْ ما قد تشعر به لدى تبادل الكرة بينك وبين منافسك في لعبة كالتنس، أو بين فريقك والفريق المنافس في لعبة كرة القدم، وما يمكن أن تشعر به لو اضطررت إلى ضرب الكرة بمضربك في اتجاه حائط أصم فتعود الكرة إليك دون أن يكون هناك شخص آخر في مقابلك، أو إذا أخذت تتمرن على ضرب الكرة بقدمك في شبكة الخصم، دون أن يكون لديك خصم حقيقي على الإطلاق. ما أبعد هذا اللعب المنفرد عن تحقيق الغرض الأساسي من اللعب، وهو تحقيق نوع أو آخر من التواصل مع آخرين.

هذا الاحتياج الشديد إلى الآخرين هو الذي يفسر أيضًا، على الأرجح، ما تمتلئ به حياتنا الاجتماعية من نفاق. فنحن نتملق بعضنا البعض بسبب حاجة كل منا إلى الآخرين. نبدأ في محاولة استدرار العطف من الآخرين بعد أيام قليلة من مجيئنا إلى الحياة؛ حيث يبتسم الطفل لأمه ولمن حوله إذ يرى أن الابتسام يجلب له حب من حوله ويجعلهم أسهل قيادًا. فإذا تعلمنا الكلام كان من أوائل الكلمات التي نتعلمها

كلمات التحية والشكر. وحيث إن لدينا حاجة ملحة لا بد من تلبيتها إلى من يستمع إلينا ونحن نتحدث، وهي فيما يبدو أقوى بكثير من حاجتنا إلى من يكلمنا ونستمع إليه، تعلمنا بالتدريج أن الناس لا يمكن أن تصبر على الاستماع إلينا طويلًا ما لم نصبر نحن أيضًا على الاستماع إليهم، فإذا بنا نصل إلى اتفاق ضمني على أن يستمع كل منا إلى الآخر لبعض الوقت، أو على الأقل أن يتظاهر بالاستماع إليه، في مقابل أن يستمع إلينا الآخرون لبعض الوقت أو أن يتظاهروا بذلك. وما أشد سرورنا إذا عثرنا على شخص مستعد للاستماع أكثر مما يميل إلى الكلام. هكذا يتحول ما نسميه حوارًا، في كثير من الأحيان، وحتى في معظمها، إلى مونولوجات لا يربط بينها إلّا أربطة واهية، الغرض منها ليس تحقيق تواصل حقيقي بين المتحادثين بل مجرد تمكين كل منهما من إخراج ما في جعبته من مشاعر أو أفكار، دون حاجة إلى التحقق من أن هذه المشاعر أو الأفكار قد تم توصيلها بالفعل إلى من يحادثه.

هذه الحقيقة المرة (ضعف التواصل الحقيقي بين الناس مهما بدا منهم عكس ذلك) هو أهم ما كنت أخرج به من مشاهدة المسرحيات التي حققت نجاحًا ملحوظًا على المسرح الإنجليزي في الستينات والسبعينات، وعلى الأخص مسرحيات «هارولد بنتر» (H. Pinter) حيث يجري الحوار بين شخصيات المسرحية على هذا النحو الذي وصفته ـ تبادل للكلام وكأنه حوار، وهو في الحقيقة مونولوجات قصيرة غير مترابطة، لا يعني خلالها أي من المتحادثين بالاستجابة الحقيقية لما يقوله الآخر. كما شاهدت مرة على المسرح الإنجليزي أيضًا إخراجًا جديدًا لمسرحية «النورس» (The Seagull) لتشيكوف؛ حيث ظهر الممثلون على خشبة المسرح قبل بداية المسرحية، وهم يسيرون صامتين، رائحين غادين، في خطوط لا تتقاطع أبدًا، وإن بدت أحيانًا وكأنها على وشك أن تتقاطع، وكل منهم مستغرق تمامًا في أفكاره الخاصة. وقد فسّرت هذا المنظر على نفس النحو الذي فسرت به مسرحيات بنتر؛ إذ إن مسرحيات تشيكوف بدورها كثيرًا ما تعبّر عن نفس هذه الفكرة: ضعف ما بين الناس من تواصل حقيقي مهما بدا من عكس ذلك، إذ تبدو كل من شخصيات تشيكوف مستغرقة تمامًا في أمورها الخاصة ولا تكاد تسمع ما يقوله الآخرون. تقول الفتاة لصديقتها بفرح حقيقي، في مسرحية بستان الكرز، إن صديقها قد تقدم لخطبتها، فتجيبها صديقتها: «حقًا.. أين وضعت دبابيس الشعر؟».

-٤-

كم صادفت في حياتي من أمثلة لما يجده الناس من صعوبة في ملء وقت الفراغ. إنهم يتصرفون ويتكلمون وكأن أكثر ما يطمحون إليه هو أن يحصلوا على وقت فراغ يستطيعون فيه أن يفعلوا ما يشاءون. يقولون مثلا إنهم يكدّون لجمع المال من أجل فقط أن يستطيعوا في وقت ما في المستقبل أن يكفّوا عن العمل، ويصبح لديهم من الفراغ ما يسمح لهم بالاستمتاع بالحياة، وبأن يفعلوا ما يحبون بالضبط. ثم لا يبدو أن لاجتهادهم وكدهم في جمع المال نهاية، وكأنهم فقط يؤجلون اللحظة التي يتفرغون فيها لعمل ما يحبون عمله؛ لأنهم لا يعرفون بالضبط ما هذا الذي يحبون عمله.

قال الاقتصادي الإنجليزي جون مينارد كينز في مقال مشهور له: إن الإنسان لن يمرّ به وقت طويل حتى يتمكن من حلّ المشكلة الاقتصادية (أي مشكلة ندرة الموارد بالمقارنة بالحاجات)، ولكنه سوف يواجه بعد ذلك مشكلة أعوص، وهي مشكلة كيف يقضي وقت فراغه؛ إذ إن آلافًا من السنين قد مرت بالإنسان وهو مشغول بحل المشكلة الاقتصادية، أما هذه المشكلة، مشكلة تقضية وقت الفراغ، فهي جديدة عليه، وهو لن يجد حلًّا سهلًا لها. قال كينز هذا منذ نحو سبعين سنة، وأظن أن نسبة كبيرة من سكان العالم قد نجحوا بالفعل في حل مشكلتهم الاقتصادية، ولكن ها نحن نشهد الفشل الذريع في حل مشكلة الفراغ. جرّب الإنسان، أو ها هو ذا يجرب، إنتاج المزيد والمزيد من السلع واختراع المزيد ثم المزيد من الخدمات عسى أن يسلّي بها نفسه في وقت فراغه، فلا يبدو أنه نجح كثيرًا. وزاد استهلاكه من الخمر والمخدرات، دون أن يحل له هذا أيضًا مشكلة الفراغ. ولجأ إلى الإباحية في الجنس بكل أشكاله، فلم يفلح أيضًا. وزادت ساعات الإرسال في التليفزيون حتى شملت ساعات الليل والنهار كلها، ولازال الإنسان ضجرًا ويبحث عما يروّح به عن نفسه.

كم يكون الأمر سهلًا لو كان للمرء شيء يحبه حقًّا، وينسى نفسه وهو منشغل به، كأن يهوى ممارسة فن من الفنون، أو رياضة ما، أو مراقبة الطيور، أو البحث العلمي، أو حل مشكلة فلسطين... إلخ. في سيرة برتراند رسل الذاتية يقول لنا إنه لولا غرامه الشديد بحل المشاكل الرياضية لقام بالانتحار وهو في مطلع شبابه. وزميله وصديقه

الفيلسوف النمساوي فتجنشتاين يقال إن من آخر ما نطق به على فراش الموت قوله: «إنها كانت حياة رائعة»، على الرغم من أننا نعرف كثرة ما مرّ به من فترات البؤس، وتفكيره في الانتحار أكثر من مرة. لا بد أن سبب وصفه لحياته بأنها كانت رائعة هو انشغاله المستمر بحل بعض المشاكل الفلسفية. كان إذا نزل ضيفًا على بعض أصدقائه وسئل عن أنواع الأكل المفضلة لديه حتى يقوموا بإعدادها، قال إنه لا يهمه ما يأكل طالما أنه دائمًا نفس الشيء، والسبب في هذا على الأرجح أنه لا يريد أن يشوّش عليه أي شيء ما هو مستغرق فيه من تفكير، أو أن يقطع عليه حبل أفكاره ظهور صنف جديد من الطعام لم يتعود عليه.

كثيرًا ما لاحظت أيضًا فرح الناس وترحيبهم بما قد يصادفونه لدى شخص من معارفهم أو ضيف نزل عليهم من رغبة شديدة وحقيقية في شيء ما. إن الضيف كثيرًا ما يخشى أن يطلب من مضيفيه أن يقدموا له شيئًا معينًا أو أن يقوموا له بخدمة ما خوفًا من أن يكون في هذا «إثقال عليهم»، بينما قد تكون الحقيقة هي العكس تمامًا؛ إذ إنه قد يكون بهذا ينقذهم مما هم فيه من حيرة سببها أنهم لا يعرفون بالضبط ما يريدون عمله، وإذا بكثير مما نظنه جرأة زائدة في التعبير عما نريد يلقى ترحيبًا شديدًا ممن حولنا ممن يجدون من النادر جدًّا أن يعثروا على شخص يعرف حقيقة ما يريد ويريده بشدة.

قد يكون هذا أيضًا سببًا مهمًّا من أسباب سرورنا بوجود الأطفال من حولنا، أو حتى من أسباب رغبتنا في أن يكون لنا أطفال أصلًا. فالأطفال يمتازون عنا بهذا الشيء على الأقل: إنهم يعرفون ما يريدون ويريدونه بشدة، وهم أكثر صراحة في التعبير عما يريدون وأكثر إلحاحًا في طلبه. إنهم بهذا يملأون فراغًا حقيقيًّا، وهو الفراغ الناشئ عن افتقادنا لأي رغبة حقيقية في أي شيء. إن الأطفال أكثر تعرضًا بالطبع للإصابة بخيبة الأمل والإحباط؛ نتيجة اعتمادهم في تحقيق آمالهم على الغير، ولكنهم على الأقل يمرّون بلحظات سعادة حقيقية أكثر مما نمر نحن الكبار به.

* * *

إني لا أتردد في اعتبار نفسي سعيد الحظ، على الرغم من كثرة ما تعرضت له في حياتي، مثلما تعرض غيري، من حالات خيبة الأمل. سعيد الحظ بأبي وأمي وإخوتي،

وبزوجتي وأولادي، وبوظيفتي وكتاباتي. ولكني أعتبر أن أهم ما كنت سعيد الحظ فيه هو ما ولدت به من ميل طبيعي للانشغال بمشكلات عقلية ومحاولة حلها؛ فقد كان هذا مصدر سرور مستمر لي، سواء وصلت إلى حل للمشكلة أو لم أصل. إن هذا الميل الطبيعي الذي لا فضل لي فيه، هو الذي جعلني أجد سرورًا في التدريس بالجامعة، في إعداد المحاضرات وإلقائها، وأجد سرورًا في الكتابة، بل فى التفكير المجرد حتى لو لم يسفر عن كتابة أي شيء أو عن إلقاء أي محاضرة.

إن من المهم، فيما يبدو لي، أن يكون للمرء مثل هذا المصدر من مصادر السرور، وأظن أنه شبيه بمصدر السرور المستمر لعاشق أي فن من الفنون، وهو مصدر لا يمكن أن يفسده أي شعور بخيبة الأمل؛ إذ إنه لا يحتاج إلى توفر المال ولا إلى درجة عالية من القدرة الجسمانية، بل لا يكاد يحتاج حتى إلى الدخول في علاقة مع أي إنسان آخر، ومن ثَمَّ يصعب على أي إنسان آخر إفساده.

إني لا أتردد في اعتبار منحة الحياة نعمة كبيرة، وإن كان كل منا يعتبر الحياة نعمة لسبب يختلف عن أسباب الآخرين. أنا أعتبرها نعمة رائعة لهذا السبب: هذا الميل الذي رزقت به لمحاولة الفهم والتفسير. كثيرًا ما كنت أقوم من النوم فأتذكر بعض الأشياء الباعثة على الضيق، وأخرى تبعث على السرور، ثم أتذكر فجأة شيئًا يتعلق بموضوع كنت أكتب فيه في اليوم السابق؛ فيسري النشاط في عروقي، ويحفزني هذا على مغادرة السرير بسرعة، فأتركه في سرور، لكي أعود لمواصلة ما كنت أفعله بالأمس.

-٥-

من مساوئ كوني أصغر الأولاد في العائلة، أني كنت معرضًا لفقد الأقارب بسبب الموت أكثر من بقية إخوتي، ليس فقط فقد الإخوة الأكبر مني، ولكن فقد الأقارب بوجه عام. ولكن عائلتنا لم تكن من العائلات التي يلعب فيها الأعمام والأخوال وأبناؤهم وبناتهم دورًا كبيرًا كالذي لاحظته في كثير مما عرفت من عائلات أصدقائي ومعارفي. كان أبي قد حقق قفزة اجتماعية كبيرة، نقلته من طبقة إلى طبقة، أو على الأقل من النمط

التقليدي للحياة في مصر إلى نمط أقرب بكثير إلى الحداثة. وقد أثر هذا في علاقته بأختيْه وأولادهما، فكانوا لا يزورونا إلّا لمامًا، أما نحن الأولاد فلم نكن نزورهم على الإطلاق. وحدث شيء مماثل لعلاقتنا بالأخوال. فقد حققت أمي، بسبب زواجها من أبي؛ قفزة اجتماعية كبيرة بدورها، بالمقارنة بمن تركتهم في القرية التي ولدت بها في المنوفية. كانت علاقتنا بخالي المقيم في القاهرة، والآخر الذي عاش في طنطا، وبأولادهم، أقوى منها بالعمات وأولادهم، ومع ذلك فقد ترك الحاجز الطبقي والثقافي، أثره هنا أيضًا، فلم تلعب علاقتي أنا وإخوتي بالخاليْن والخالة وأولادهما أي أثر يذكر في حياتنا. وصل الأمر إلى حد أني لا أستطيع أن أجزم الآن بما إذا كان هذا الولد أو هذه البنت من أولاد وبنات العمة أو الخال لازال على قيد الحياة، ولا أكاد أسمع أي أخبار عن أي منهم.

كانت لهذا الوضع ميزة وحيدة هي قلة أخبار الموت التي تأتينا من هذا الجانب، وضعف أثرها فينا. ولكن ما أكثر أخبار الموت التي وصلتني، خلال خمسة وسبعين عامًا، عن الأب والأم، وعن أخ بعد آخر، وأخت بعد أخرى، حتى لم يبق لي إلّا أخي حسين الذي يكبرني بسنتيْن ونصف سنة. ولهذا أجدني أتشبث به كما يتشبث الخائف من الغرق بأي يد تمتد إليه للمساعدة.

لاشك أن الذهن الإنساني لديه ميل طبيعي للفظ فكرة الموت وطردها، يشبه الميل الطبيعي للجسم الإنساني لطرد أي شيء يضره ويهدده، فإذا بالذهن مستعد دائمًا «لتقيؤ» فكرة الموت مثلما يتقيأ الجسم الإنساني الطعام المسموم. بل قد يكون الذهن الإنساني غير مهيأ أصلًا لفهم فكرة الموت وتصورها. إذ كيف يتصور الذهن الحيّ فكرة العدم؟

إذا كان الأمر كذلك فمن الطبيعي أن تكون فكرة الموت أصعب على مخيلة أو مشاعر الطفل أو الصبي الصغير منها على ذهن أو مشاعر شيخ متقدم في السن. الطفل أو الصبي قد لا يفهم فكرة الموت فهمًا كاملًا ولا يعيها وعيًا تامًّا لأن كل ما يشعر به أو يفكر فيه يتعلق بعكس هذه الفكرة. ولكن الشيخ المتقدم في السن أكثر استعدادًا لفهم فكرة الموت لأنه بدأ يعاني بالفعل من بعض مظاهرها: الضعف الذي لحق بحركته، والخمول الذي بدأ يدب في جسمه. إنه، إذن، قد يفهم ما تعنيه الفكرة، ومن ثَمَّ فهو أكثر استعدادًا «للتعاطف» معها، وربما أيضًا أقل خوفًا.

ولكن يبدو أن «التأثر» بالموت شيء، و«الخوف» منه شيء آخر. فأنا فعلًا أجد أني، وإن كنت قد أصبحت في سنّي هذه أكثر تأثرًا بأخبار الموت مما كنت عندما كنت أصغر سنًّا، أصبحت أيضًا أقل خوفًا منه. إن فكرة الموت أصبحت تحزنني أكثر ولكنها تخيفني أقل. لقد مرّ عليَّ وقت كنت فيه كثيرًا ما أشعر بالخوف من أن يصيبني حادث، كوقوع طائرة بي مثلًا، يفرق بيني وبين من أحبّ، وعلى الأخص زوجتي وأولادي. ويصيبني القلق من تصور حالهم عندما يصلهم الخبر. لم يعد مثل هذا الخاطر يمرّ بي الآن إلّا لمامًا، فإذا خطر لي لم يعد يخيفني ولا يقلقني بنفس القدر. هل السبب هو أنني الآن أكثر اطمئنانًا لقدرتهم على الاستمرار من دوني؟ لا بد أن هذا من بين الأسباب، ليس فقط لأن الأولاد قد أصبحوا أكثر استقلالاً لتقدمهم في السن، ولكن لأني أصبحت أكثر حكمة فلم أعد أبالغ في أهمية وجودي في نظر الآخرين، وإدراكي، مع زيادة معرفتي بالحياة، قدرة الإنسان، على النسيان بسرعة أكثر مما كنت أتصور بكثير، ولحسن الحظ.

ولكن هناك أسبابًا أخرى لقلة خوفي من الموت مع تقدمي في السن. وأظن أن هذه ظاهرة عامة تنطبق على معظم الناس، وهي محض الملل من ناحية، وما يصيب الجسم من ضعف من ناحية أخرى. لم أكن أتصور في شبابي أن الإنسان يمكن أن يحدث له هذا، أي أن تتكرر بعض أحداث الحياة على نحو يجد المرء معه أنه لم تعد لديه رغبة شديدة في المزيد، ولا كان يخطر ببالي بسهولة ما كان يمكن أن يجده المرء، وقد جاوز السبعين، من صعوبة في القيام ببعض الحركات أو الأعمال التي كان يقوم بها في صباه وشبابه دون تفكير، ودون أدنى عناء، وأنه قد يجد لذة في مجرد الاسترخاء دون القيام بأي حركة على الإطلاق، وفى مجرد الصمت الذي لا يقطعه أي صوت من أي نوع.

* * *

ظللت حتى بلغت السبعين محتفظًا بدرجة عالية من اللياقة البدنية، ولكن أصابتني صدمة عنيفة بعد بلوغي السبعين بأشهر قليلة عندما ذهبت إلى الطبيب في زيارتي الدورية، دون أن يكون هناك ما أشكو منه، فأضاف إلى التحاليل السنوية تحليلًا جديدًا يناسب بلوغي هذه السن. لم تعجب الطبيب نتيجة هذا التحليل، فأجرينا غيره، فلم يعجبه هذا أيضًا، واضطر إلى أن ينصحني بأن الأفضل، ما دمت سأسافر إلى إنجلترا في الصيف على أي حال، أن أجرى تحاليل جديدة لاكتشاف حقيقة الأمر.

قضيت شهريْن أو ثلاثة، قبل سفري إلى إنجلترا، كانت من أقسى الفترات التي مرّت بي في حياتي. وشغلتني فكرة الموت خلال تلك الأشهر على نحو لم أعهده من قبل. لا عجب، فالأمر في هذه المرة يتعلق بموتي أنا وليس بأي شخص آخر. لم أجد أي رغبة فيمن حولي في الكلام طويلًا عن هذا الموضوع وهو موقف مفهوم تمامًا، فاكتفيت بالتفكير فيه بيني وبين نفسي، على أمل أن أعثر على فكرة تهدئ خاطري، فلم أجد الأمر سهلًا على الإطلاق. لقد فشلت في التخفيف عني كل الأفكار الشائعة وغير الشائعة التي يحاول بها الناس التخفيف من وقع فكرة الموت. ولكني وجدت نفسي، بعد مرور ثلاثة أو أربعة أشهر وقد عادت إليَّ الطمأنينة، بل بدا لي وكأني نسيت الأمر برمته، وعدت إلى ممارسة حياتي الطبيعية تمامًا.

لا أدري أكان السبب في عودة هذه الطمأنينة مجرد التعود على الفكرة، وكأن للنفس قدرة محدودة على العيش مع الفكرة المؤلمة، ولا بد بعدها من طردها من الذهن تمامًا، أم أنني اهتديت بعد طول التفكير إلى فكرة أو فكرتيْن استرحت إليهما بينما قد لا يستريح إليهما غيري؟

لم أسترح قط للفكرة الشائعة بأن تأمل المرء لمصائب الآخرين لا بد أن يخفف من شعوره بمصابه؛ إذ لم أجد المقارنة مجدية. وحاولت أن أذكّر نفسي، المرة بعد الأخرى، بأقوال حكيمة سبق أن قرأتها وأعجبت بها، فلم أجدها تنجح الآن في انتشالي مما أنا فيه. كانت نصيحة طاغور أن ننظر إلى الموت وكأنه أمر طبيعي تمامًا مثل سقوط الأوراق في الخريف، من هذه الأفكار التي أعجبتني في الماضي، ولكنها لم تحدث في نفسي الأثر المطلوب في هذه المرة. وكذلك قول دافيد هيوم بأنه لا يبالى بها إذا كان سيموت في هذا العام أو الذي يليه، بالضبط مثلما لا يبالى بها إذا كان قد ولد في أوائل القرن الثامن عشر أو القرن السابق عليه. ولكن كان مما جلب لي الكثير من الراحة هذا السؤال الذي وجهته لنفسي: ما الجديد الذي يحزنك كل هذا الحزن، ولم يكن معروفًا لك من قبل؟ هل قال لك الطبيب أو أي شخص آخر الموعد الذي ستموت فيه؟ كل ما حدث أنه وجد لديك سببًا يؤدي بطبيعته إلى الموت دون أن يعرف أحد متى يحدث هذا. فهل تنكر أن هذا كان هو بالضبط نفس الوضع الذي كنت فيه قبل أن تذهب إلى الطبيب؟

بل هل هناك أي شخص في العالم لا ينطبق عليه هذا «الاكتشاف»، وهو أن لديه سببًا يؤدي بطبيعته إلى الموت دون أن يعرف متى يحدث هذا؟ بل أليست واقعة الميلاد نفسها ينطبق عليها هذا الوصف؟ أليس الميلاد «سببًا يؤدى بطبيعته إلى الموت»، إن آجلًا أو عاجلًا؟

ثم فلننظرْ إلى حالتك أنت بالذات. لقد بلغت السبعين وتجاوزتها ببضعة أشهر، وهي سن محترمة تزيد عن السن التي بلغها أبي وأمي، وعن متوسط العمر المتوقع في مصر لدى الميلاد، وقد ظللت فترة طويلة أنظر إلى سن السبعين على أنها سن متقدمة، ولازلت أنظر إلى سن الثمانين على أنها سن يصعب جدًّا احتمال الوصول إليها، بل ربما حتى لا يشتهى الوصول إليها. فهل قال لك الطبيب أو قدم لك أي دليل على أنك لن تبلغ سن الثمانين؟ أو لا يكفيك بضع سنوات أخرى كثلاث أو خمس، لتحقق كل ما كنت تتمنى تحقيقه في حياتك؟ وعلى أي حال، ما تلك الأمنيات العظيمة التي لا زلت تأمل في تحقيقها؟ هل تظن أن كتابًا أو كتابيْن آخريْن تكتبهما سوف يغيران العالم إلى الأفضل، وأن الناس في انتظارهما على أحرّ من الجمر؟

عاد إليَّ جزء كبير من راحة البال، ثم استرجعت راحة البال كلها تقريبًا، وكأن شيئًا لم يحدث عندما قال لي الطبيب الإنجليزي، في مدينة كامبردج،عندما فحص نتائج جديدة للتحليل بعد سنة أخرى، وبعد بلوغي الحادية والسبعين، إنه لو كانت شركة للتأمين على الحياة قد طلبت منه قبل مرضي أن يقدر العمر المتوقع لي، لكتب «ثمانين عامًا»، والآن وبعد سنة ونصف من إصابتي بالمرض لو طلب منه نفس الطلب فسوف يذكر نفس العمر.

اعتبرت حينئذ أن المشكلة قد انتهت، ولكن شيئًا واحدًا لم تستطع أي فكرة من هذه الأفكار أن تمحوه من ذهني، وهو ذلك الإدراك اليقيني بأن الحياة، مهما طالت، محدودة، وأن لا أحد يعيش إلى الأبد. قد يبدو هذا القول سخيفًا، ولكنه ليس كذلك في الحقيقة. فمن المدهش حقًّا كيف أننا كلنا نقضي حياتنا ونحن نحمل هذا الشعور الدفين بأن الحياة غير محدودة، وكأننا سوف نعيش إلى الأبد. بل من المدهش كيف أن وجود هذا الشعور الدفين واللاعقلاني تمامًا، شرط ضروري للتمتع بأشياء كثيرة في الحياة، من

الوقوع في الحب، إلى جمع المال، إلى البحث عن الشهرة... إلخ. وإذا بنا نصدم صدمة كبيرة عندما نكتشف فجأة أن الحياة، على الرغم من كل شيء، محددة المدة.

* * *

من أجمل الأفلام التي رأيتها فيلم ياباني، لعلني رأيته منذ أكثر من ثلاثين عامًا، قصته أن رجلًا في نحو الستين من عمره، قال له طبيبه إن مرضه لن يمهله أكثر من ستة أشهر. غادر الرجل عيادة الطبيب وهو يعرف أنه لم تعد لديه إلّا ستة أشهر، فكيف يمكن أن يقضيها؟ هداه تفكيره إلى الفكرة الآتية: في بلدته الصغيرة والفقيرة مساحة واسعة من الأرض تحيط بها البيوت من كل جانب، ولكنها تستخدم من السكان كمكان لإلقاء المهملات والقاذورات، حتى أصبحت مرتعًا للحشرات ومصدرًا لروائح كريهة. ضجَّ الناس بالشكوى من هذا الحال، وتوسلوا إلى الجهة المسئولة عن الحيّ أن تمدهم بوسيلة منتظمة لجمع القاذورات من المنازل، وأن تحوّل هذه المساحة من الأرض إلى حديقة يلعب فيها أطفالهم. ولكن كل توسلاتهم ذهبت سدى أمام بيروقراطية شديدة التعنت، وغاية في قلة الكفاءة. قال الرجل لنفسه: «ماذا لو كرست الأشهر الستة الباقية لي للسعي لتحقيق هذا الهدف؟ ليس لديّ شيء أخسره، وليس لديّ على أي حال عمل آخر يمكن أن أشغل نفسي به». وكان هذا هو بالضبط ما فعله. قضى كل يوم من أيام هذه الأشهر الستة في السعي من مكتب إلى آخر، يرجو هذا ويستعطف ذاك، ويلح في الرجاء، ويلبي كل ما يطلب منه، ويجمع كل ما يريدونه من أوراق. فما كادت الأشهر الستة أن تنتهي حتى كانت قطعة الأرض قد نظفت تمامًا مما عليه، وزرعت فيها الأشجار وتحولت إلى حديقة جميلة. ولما تم للرجل ذلك جلس على مقعد حجري في طرف الحديقة وهو يتأمل الأطفال وهم يجرون ويلعبون، وقد علا صياحهم واشتد مرحهم. وبشعور من الرضا الغامر عن النفس، مال الرجل برأسه إلى كتفه وأسلم الروح.

-٨-

منذ بدأ كل ولد من أولادي، الواحد بعد الآخر، يعي أي شيء على الإطلاق، رأى في البيت، في وقت معين قرب نهاية كل عام، شجرة جميلة هي شجرة الكريسماس

التي كنا حريصين على اقتنائها عامًا بعد عام؛ استمرارًا لعادة تربت عليها زوجتي منذ طفولتها. كنا نزيّن الشجرة تزيينًا رائعًا، ثم يوضع حولها عدد كبير من الهدايا التي أحضرها كل فرد من العائلة لبقية الأفراد، بالإضافة إلى هدايا ممهورة بإمضاء «الأب كريسماس»، وهو تلك الشخصية الخيالية التي يقال للأطفال في أوربا وأمريكا إنها تنزل في ليلة الكريسماس من خلال المدخنة، حاملة الهدايا للأطفال، وتشمل ما كانوا يتمنون الحصول عليه طوال العام، فيجدونها بجوار الشجرة عند استيقاظهم في الصباح، إلى جانب الهدايا التي أتى بها ذووهم. كانت هذه الشخصية تذهب بخيال الأطفال كل مذهب، وتجلب لهم سرورًا لا نظير له، مقترنًا بشوق وتلهف عظيمَيْن على فتح الصناديق التي تحتوى على ما تمنوه بالضبط.

كان لا بد لكل طفل أن يحل به الوقت الذي يبدأ فيه في الشك فيما إذا كان لشخصية «الأب كريسماس» وجود حقيقي، وما إذا كان من الممكن حقًّا أن ينفذ شخص سمين كهذا بمعطفه الأحمر السميك، وحاملًا هدايا كثيرة، من خلال المدخنة الضيقة. كانت فترة الشك يعقبها دائمًا فقد الثقة تمامًا في وجود هذه الشخصية، ويعتري الطفل بعض الأسف ثم ينسى الأمر بأكمله. وقد لاحظت أكثر من مرة أن الطفل الذي يكتشف الحقيقة يحاول أن ينقل اكتشافه إلى الأطفال الأصغر سنًّا، مفاخرًا بأنه لم يعد طفلًا غريرًا، بل أصبح يعرف حقيقة الأب كريسماس كاملة، أي يعرف أنه من صنع الخيال ولا وجود له؛ ومن ثَمَّ فليس هناك ما يضمن أن يحصل الأطفال على ما تمنوه بالضبط. كنا ننهر هذا الطفل الكبير بسبب إدراكنا لمزايا استمرار هذا الوهم لأطول مدة ممكنة مع الأطفال الصغار. ولكني لاحظت أيضًا أن هؤلاء الصغار، لحسن الحظ، كانوا في العادة يرفضون بشدة تصديق الحقيقة، ويفضلون الاستمرار في تصديق ما يسمعونه عن هدايا الأب كريسماس، وعن معرفته بما يريدونه بالضبط، واستعداده الدائم لتحقيقه، وأنه قادر على المرور من خلال المدخنة في وسط الليل ودون أن يسمعه أحد. وهكذا يقضي الأطفال الصغار سنة أو سنتيْن وهم في حيرة بين التصديق وعدم التصديق، وكأنهم يريدون أن يطيلوا إلى أقصى مدى ممكن تلك الفترة السعيدة التي يستسلمون فيها لهذا الوهم الجميل؛ وذلك حتى يصبح هذا الاستسلام للوهم مستحيلًا.

أظن أننا كلنا نمرّ في حياتنا بتجربة مماثلة لتجربة هؤلاء الأطفال، نبالغ في طموحاتنا وآمالنا، سواء فيما يتعلق بأنفسنا أو بأولادنا، كما نبالغ في إمكانية تحقيقها، ونرفض بعناد تصديق أي دليل على غير ذلك، كما نرفض تصديق أي طفل من هؤلاء «الأطفال الكبار» الذين يحاولون إيقاظنا من غفوتنا، مدفوعين بنزعة خبيثة للتفاخر بأنهم يعرفون أكثر مما نعلم، أو ربما كانوا مدفوعين بشعور بالغيرة من أن يظل غيرهم مستمتعين بأحلام جميلة بينما استيقظوا هم من نومهم.

خطر لي وأنا أوشك على الانتهاء من كتابة هذا الكتاب، أني قد أكون، بمحض التفكير في كتابته، قد ارتكبت خطأً مماثلًا؛ إذ أكون قد تصرفت مثل ذلك «الطفل الكبير الخبيث» الذي يصرّ على تنبيه الأطفال الصغار من غفوتهم، وعلى تبديد بعض أوهامهم الجميلة، بأن أبوح لهم بأسباب اعتقادي بخيبة كثير من الآمال. أي أني مثل ذلك الطفل الكبير والخبيث بالضبط، لم أستطع مقاومة الإغراء القويّ بأن أكشف عما أعرفه من أسرار، دون أن أفكِّر طويلًا فيما إذا كانت معرفتها ضارة أو نافعة. قلت لنفسي إن لديَّ عذرًا واحدًا على الأقل، وهو اعتقادي بأن الناس جميعًا (أو معظمهم) يطوون قلوبهم على نفس السر ولا يريدون، لسبب أو لآخر، البوح به. ثم وجدت أن لديَّ عذرًا لآخر أهم. وهو أن اكتشاف هذا السر ليس في الحقيقة بالخطورة التي نظنها. نعم، إن أشياء كثيرة مما طمعنا فيه لا يمكن أن تتحقق، ولكن ليس من المستحيل أن نتعلم أن نخفف من غلوائنا ونقلل من أطماعنا. ليس هذا فحسب، بل إنه إلى جانب ما لا يتحقق من آمالنا، تحدث لنا في الحياة أشياء كثيرة، وسارة جدًّا، مما لم يخطر ببالنا قط أن نطمح إليه.

كتب أخرى للمؤلف

أ - باللغة العربية :

١ - مقدمة إلى الاشتراكية، مع دراسة لتطبيقها فى الجمهورية العربية المتحدة ـ مكتبة القاهرة الحديثة، القاهرة ، ١٩٦٦ .

٢ - مبادئ التحليل الاقتصادى ـ مكتبة سيد وهبه، القاهرة، ١٩٦٧ .

٣ - الاقتصاد القومى: مقدمة لدراسة النظرية النقدية ـ مكتبة سيد وهبه، القاهرة، (١٩٦٨ـ ١٩٧٢).

٤ - الماركسية: عرض وتحليل ونقد لمبادئ الماركسية الأساسية فى الفلسفة والتاريخ والاقتصاد ـ مكتبة سيد وهبه، القاهرة، ١٩٧٠ .

٥ - المشرق العربى والغرب: بحث فى دور المؤثرات الخارجية فى تطور النظام الاقتصادى العربى والعلاقات الاقتصادية العربية ـ مركز دراسات الوحدة العربية بيروت (١٩٧٩ـ ١٩٨٣).

٦ - محنة الاقتصاد والثقافة فى مصر ـ المركز العربى للبحث والنشر، القاهرة ١٩٨٢ .

٧ - تنمية أم تبعية اقتصادية وثقافية؟ خرافات شائعة عن التخلف والتنمية وعن الرخاء والرفاهية ـ مطبوعات القاهرة، ١٩٨٣ ، والهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٥ .

٨ - الاقتصاد والسياسة والمجتمع فى عصر الانفتاح ـ مكتبة مدبولى، القاهرة ١٩٨٤ .

٩ - هجرة العمالة المصرية ـ بالاشتراك مع إليزابيث تايلور عونى (مركز البحوث للتنمية الدولية) أوتوا، ١٩٨٦ .

١٠ - قصة ديون مصر الخارجية ، من عصر محمد علي إلى اليوم ـ دار علي مختار للدراسات والنشر، القاهرة، ١٩٨٧ .

١١ - نحو تفسير جديد لأزمة الاقتصاد والمجتمع فى مصر ـ مكتبة مدبولى، القاهرة، ١٩٨٩ .

١٢ - مصر فى مفترق الطرق ـ دار المستقبل العربى، القاهرة، ١٩٩٠ .

١٣- العرب ونكبة الكويت ـ مكتبة مدبولى ، القاهرة، ١٩٩١ .

١٤- السكان والتنمية: بحث فى الآثار الإيجابية والسلبية لنمو السكان، مع تطبيقها على مصر ـ المؤسسة الثقافية العمالية، معهد الثقافة السكانية، القاهرة، ١٩٩١ .

١٥- الآثار الاقتصادية والاجتماعية لهجرة العمالة المصرية ـ المؤسسة الثقافية العمالية معهد الثقافة السكانية، القاهرة، ١٩٩١ .

١٦- الدولة الرخوة فى مصر ـ دار سينا للنشر، القاهرة، ١٩٩٣ .

١٧- معضلة الاقتصاد المصرى ـ دار مصر العربية للنشر، القاهرة، ١٩٩٤ .

١٨- شخصيات لها تاريخ ـ رياض الرئيس للكتب والنشر، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٧، الطبعة الثانية ٢٠٠٠، الطبعة الثالثة، دار الشروق، القاهرة ٢٠٠٧، الطبعة الرابعة ٢٠٠٨، طبعة مكتبة الأسرة، ٢٠٠٨ .

١٩- ماذا حدث للمصريين؟ ـ كتاب الهلال، دار الهلال، القاهرة ١٩٩٨، ومكتبة الأسرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٩، الطبعة الثالثة، دار الهلال، فبراير ٢٠٠١، الطبعة السادسة، دار الشروق، ٢٠٠٨ .

٢٠- المثقفون العرب وإسرائيل ـ دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٨، الطبعة الثانية، ٢٠٠٥.

٢١- العولمة ـ سلسلة (اقرأ) ـ دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٩٩ . الطبعة الثانية، ٢٠٠٠، الطبعة الثالثة ٢٠٠٢، الطبعة الرابعة، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٩ .

٢٢ – التنوير الزائف ـ سلسلة (اقرأ)، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٩، الطبعة الثانية دار عين للنشر، القاهرة، ٢٠٠٥.

٢٣ – العولمة والتنمية العربية ـ مركز دراسات الوحدة العربية، ، ١٩٩٩، الطبعة الثانية، بيروت ٢٠٠١.

٢٤ – وصف مصر فى نهاية القرن العشرين ـ دار الشروق ، ٢٠٠٠، الطبعة الثالثة، القاهرة، ٢٠٠٩ .

٢٥ – عولمة القهر: الولايات المتحدة والعرب والمسلمون قبل وبعد أحداث سبتمبر ٢٠٠١، دار الشروق ، القاهرة ، ٢٠٠٢، الطبعة الثانية، القاهرة، ٢٠٠٥.

٢٦ – كشف الأقنعة عن نظريات التنمية الاقتصادية، كتاب الهلال، دار الهلال، القاهرة فبراير ٢٠٠٢، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٧ .

٢٧ – كتب لها تاريخ، كتاب الهلال، دار الهلال، القاهرة، ٢٠٠٣.

٢٨ – شخصيات مصرية فذة، سلسلة اقرأ، دار المعارف، القاهرة ٢٠٠٣، الطبعة الثانية، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٩. الطبعة الثالثة،٢٠١٠.

٢٩ - مصر فى عصر الجماهير الغفيرة، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٣، الطبعة الثانية، ٢٠٠٥، الطبعة الثالثة، القاهرة، ٢٠٠٩ .

٣٠ - عصر التشهير بالعرب والمسلمين، دار الشروق ٢٠٠٤، مكتبة الأسرة، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٣، الطبعة الثانية، دار الشروق ٢٠٠٧، الطبعة الثالثة، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٩.

٣١ - مستقبليات، تاملات فى أحوال مصر والعرب والعالم فى منتصف القرن الواحد والعشرين ، كتاب الهلال، دار الهلال، القاهرة، أبريل، ٢٠٠٤ .

٣٢ - خرافة التقدم والتخلف، دار الشروق، الطبعة الأولى ٢٠٠٥، الطبعة الثانية، ٢٠٠٧.

٣٣ - ماذا علمتنى الحياة (سيرة ذاتية) دار الشروق، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧، الطبعة الخامسة، القاهرة، ٢٠٠٩ .

٣٤ - فلسفة علم الاقتصاد، دار الشروق ، ٢٠٠٨، الطبعة الثانية، القاهرة، ٢٠٠٩.

٣٥ - مصر والمصريون فى عهد مبارك (١٩٨١ـ٢٠٠٨)، دار ميريت، القاهرة، ٢٠٠٩.

مترجمة عن لغات أخرى:

١ ـ التخطيط المركزى ـ تأليف چان تنبرجن، الجمعية المصرية للاقتصاد السياسى، القاهرة ١٩٦٦ .

٢ ـ مقالات مختارة فى التنمية والتخطيط الاقتصادى (بالاشتراك)، الجمعية المصرية للاقتصاد السياسى، القاهرة، ١٩٦٨.

٣ ـ أنماط من التجارة الدولية والتنمية الاقتصادية، تأليف راجنار نيركسه، الجمعية المصرية للاقتصاد السياسى، القاهرة، ١٩٦٩.

٤ ـ الشمال ـ الجنوب: برنامج من أجل البقاء، تقرير اللجنة المستقلة المشكّلة لبحث قضايا التنمية الدولية برئاسة ويلى برانت (بالاشتراك)، الصندوق الكويتى للتنمية، الكويت، ١٩٨١.

باللغة الإنجليزية:

1. Food Supply and Economic Development With Special Reference to Egypt, F. Cass, London, 1966.
2. Urbanization and Economic Development in the Arab World, Arab University in Beirut, 1972.
3. The Modernization of Poverty: A Study in The Political Economy of Growth in Nine Arab Countries, 1945 – 1970, Brill, Leiden, 1974, 2nd Edition, 1980.

(ترجم إلى اليابانية فى ١٩٧٦، وحاز جائزة الدولة التشجيعية فى ١٩٧٦).

4. Project Appraisal and Income Distribution in Developing Countries, Coeditted with J. Macarthur, a special issue of World Development, Oxford, February. 1978).
5. International Migration of Egyptian Labour, (with Elizabeth Taylor Awny), International Development Research Centre, Ottowa, 1985.
6. Egypt's Economic Predicament, Brill, Leiden, 1995.
7. Whatever Happened to the Egyptians? American University in Cairo Press, Cairo, 2001, 10 2nd Printing 2007
8. Whatever Else Happened to the Egyptians, American University in Cairo Press, Cairo, 2nd Printing, 2006.
9. The Illusion of Progress in the Arab World, AUC Press, Cairo, 2006, 2nd Printing, 2007.



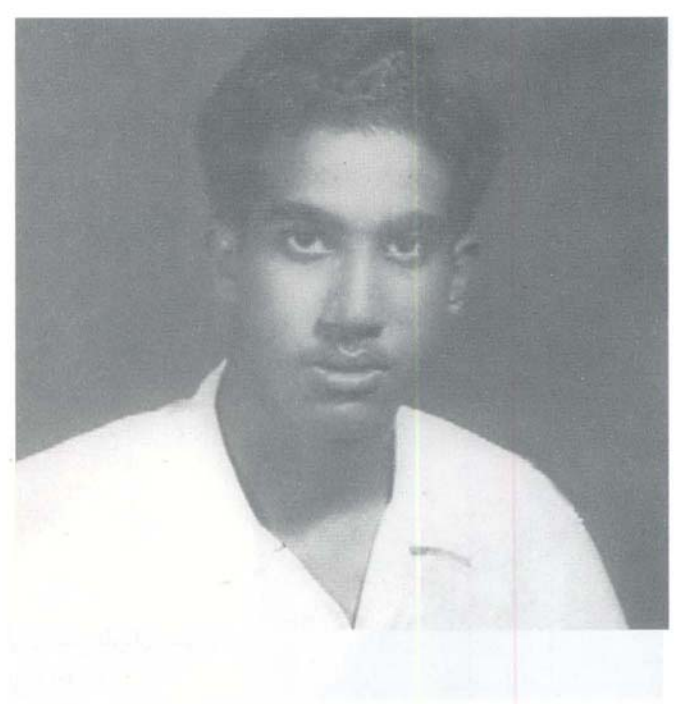
ملحق الصور



أبي فوق جبل بلودان بسوريا
(حوالى ١٩٣٨)



مع أمي (١٩٥١)



في (١٩٥٢)



مع أمي (١٩٥٣)

أختي فاطمة وزوجها د. عبد العزيز عتيق (حوالى ١٩٥٧)

أخي أحمد (١٩٨٥)

مع أخي حسين في لوس أنجلوس (١٩٨٦)

مع أخي حسين في لوس أنجلوس (١٩٨٦)

مع أخي عبد الحميد في عيد ميلادنا (٢٣ يناير ١٩٩٦)

أختي فاطمة (١٩٩٧)

أختي نعيمة وزوجها د. حسين فراج



أخي عبد الحميد

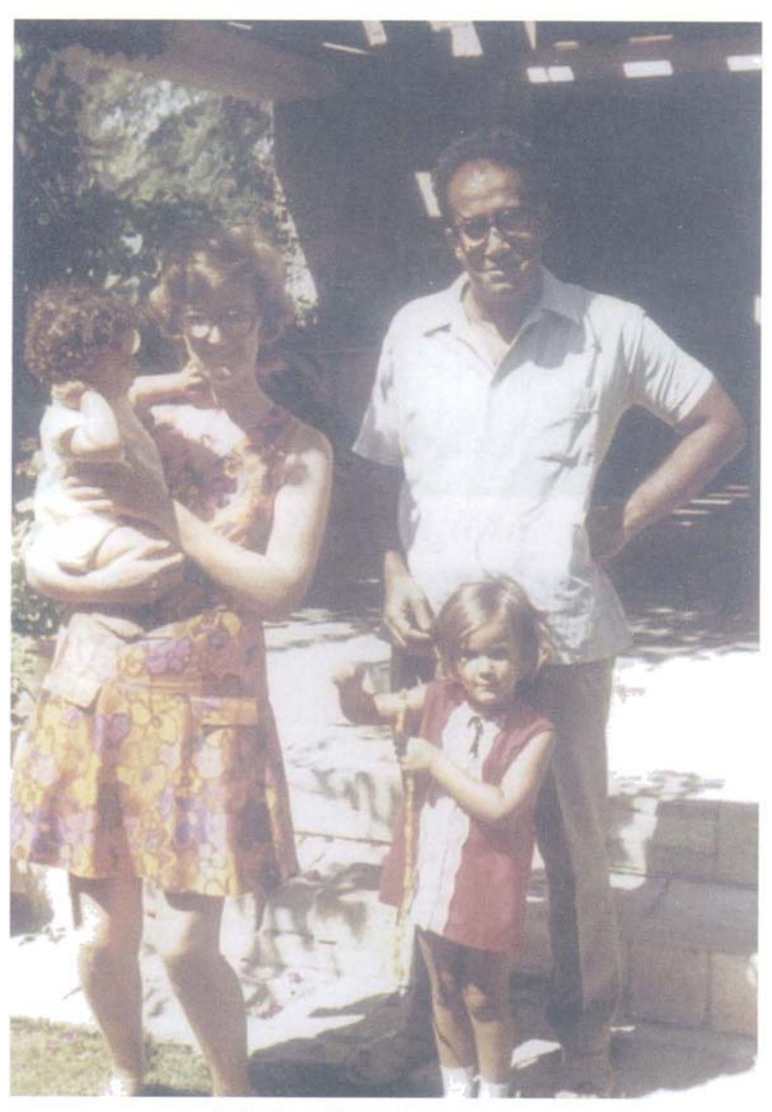
أخواي حافظ وأحمد مع چان (١٩٨٠)

في حفل زواج دانية (حسين أمين في أقصى اليمين، وزوجته فيفي ووالدة العريس على يسار العروس، ثم أخي عبد الحميد وزوجته) (١٩٩٢)

مع شريف ولارا (٢٠٠٤)



چان في العين السخنة (١٩٦٥)



مع چان ودانية وتامر في المعادي (١٩٧١)

مع دانية وتامر في كامبردج (١٩٧٢)

أحمد يزيّن شجرة الكريسماس (١٩٨٣)

مع دانية في فيلكستو (١٩٨٥)

مع ابني أحمد في فيلكستو (١٩٨٥)

مع دانية وتامر وأحمد في لوس أنجلوس (١٩٨٥)

مع چان ودانية وتامر في مزرعة فراولة في إنجلترا (١٩٨٦)



مع چان في كامبردج (١٩٩٠)



في حفل خطوبة دانية (١٩٩٠)

مع أولادي الثلاثة في المعادي (١٩٩٣)

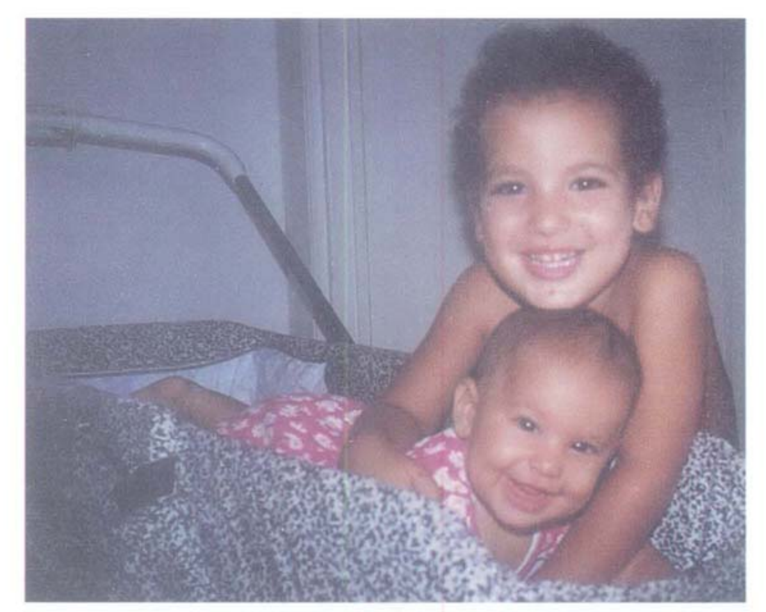
مع ابني أحمد في دهشور (١٩٩٣)

چان وتامر في بوسطون (١٩٩٣)

مع چان والأولاد (١٩٩٣)

چان وأحمد في المعادي (١٩٩٥)

في الأقصر (١٩٩٥)



حفيداي شريف ولارا (١٩٩٧)

مع لارا في كامبردج (١٩٩٨)

دانية وشريف ولارا (١٩٩٩)

تامر وشريف (١٩٩٩

أحمد وشريف (١٩٩٩)

جان ولارا في مكتبه الجامعة الأمريكية (٢٠٠١)

مع لارا في المعادى (٢٠٠٢)



شريف ولارا يفحصان هدايا الكريسماس (٢٠٠٣)



أحمد وخطيبته تارا في كامبردج (٢٠٠٥)



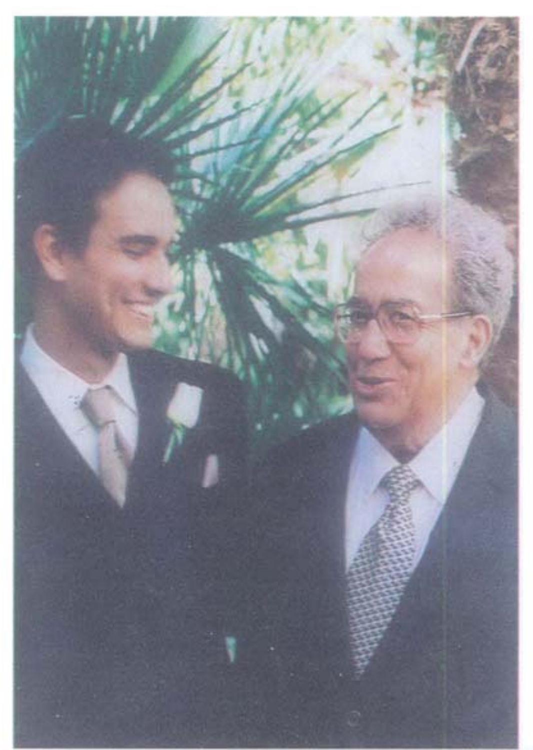
تامر وخطيبته لينا (٢٠٠٦).



تامر ولينا في حفل زواجهما (٢٠٠٧)

ألقى خطبة في حفلة زواج تامر ولينا (٢٠٠٦)

چان تدق الجرس للمدعوين في حفلة زواج تامر ولينا (٢٠٠٦)



مع ابني أحمد في حفل زواجه (٢٠٠٦)

في حفل زواج أحمد في أمريكا (٢٠٠٦)

چان وشريف (٢٠٠٨)

العائلة كلها مع چيريمي شقيق چان، في إنجلترا (٢٠٠٩)

مع چان في حديقة بمدينة إيلي بإنجلترا (٢٠٠٩)

في مناقشة لرسالة ماجستير بكلية الاقتصاد مع د. أحمد الغندور ود. فؤاد هاشم (١٩٦٩)

في محاضرة بمؤسسة شومان بعمّان، مع د. أسعد عبد الرحمن (حوالى ١٩٩٣)



في ندوة مع د. عبد الوهاب المسيري وزوجته د. هدى حجازي والدكتور قدرى حفنى (حوالى ١٩٩٦)

في ندوة مع د. علاء الأسواني بالجامعة الأمريكية (حوالي ٢٠٠٢)

في ندوة بمكتبة «كتب خان» (٢٠٠٨)



مع عميد كلية الاقتصاد وإدارة الأعمال بالجامعة الأمريكية (٢٠٠٩)

رحيق العمر

من الممكن اعتبار هذا الكتاب الجزء الثاني من «ماذا علمتني الحياة؟» (دار الشروق، ٢٠٠٧)، فهو استكمال له، ولكن ليس بمعنى أنه يبدأ من حيث ينتهي الأول، بل بمعنى أنه أيضًا سيرة ذاتية. إنه يسير موازيًا للكتاب الأول، فهو مثله يبدأ من واقعة الميلاد، بل وقبل الميلاد، وينتهي إلى اللحظة الراهنة، ولكنه لا يكرر ما سبق قوله، وكأننا بصدد شخصين يصفان حياة واحدة، ولكن ما استرعى انتباه أحدهما، واعتبره يستحق الذكر، غير ما استرعى انتباه الآخر.

فمن المدهش حقًا مدى غنى حياة كل منا بالأحداث التي تستحق أن تروى، والشخصيات الجديرة بالوصف. أما عن الصراحة، فقد استلهمت في هذا الكتاب ذوقي الخاص، كما فعلت في سابقه، ولا شك أنه، في هذا الكتاب أيضًا، سوف يرى بعض القراء صراحة أكثر من اللازم، والبعض الآخر صراحة أقل من اللازم.

جلال أمين



دار الشروق
www.shorouk.com